سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ عبد الله الغنيمان (٢)

شرح
كتاب التوحيد
الذي هو حق الله على العبيد

تصنيف الإمام
محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي
المتوفى سنة (١٢٠٦هـ) رحمه الله تعالى

شرح فضيلة الشيخ
عبد الله بن محمد الغنيمان
غفر الله له ولوالديه وذريته ولمشايخه

المجلد الأول

دار طيبة الخضراء
للنشر والتوزيع | علم ينتفع به

شرح

كتاب التوحيد

الذي هو حق الله على العبيد

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
التميمي ، محمد عبد الوهاب
شرح كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد 2/1
محمد عبد الوهاب التميمي - مكة المكرمة ، 1443 هـ
2 مج؛ 17×24 سم
ردمك: 0-14-8350-603-978 (مجموعة)
ردمك: 4-16-8350-603-978 (ج2)
1- التوحيد 2- العقيدة الإسلامية
أ. الغنيمان، عبد الله محمد (مؤلف مشارك) ب. العنوان
ديوي 240 1443/2870

رقم الإيداع: 1443/2815
ردمك: 0-14-8350-603-978 (مجموعة)
ردمك: 4-16-8350-603-978 (ج2)

الطبعة الأولى (1443هـ - 2022م)

دار طيبة الخضراء للنشر والتوزيع علم ينتفع به

يمكنكم طلب الكتب عبر
متجرنـا الإلكتروني

حيثما كنت يصلك طلبك

dar.taiba
dar.taibagreen123
dar_tg
@dar_tg
yyy.01@hotmail.com
dartaibagreen@gmail.com
055 042 8992
012 556 2986
مكة المكرمة - العزيزية - خلف مسجد فقيه

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ عبد الله الغنيمان (٢)

شرح
كتاب التوحيد
الذي هو حق الله على العبيد

تصنيف الإمام

محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي

المتوفى سنة (١٢٠٦هـ) رحمه الله تعالى

شرح

فضيلة الشيخ عبد الله بن محمد الغنيمان

غفر الله له ولوالديه وذريته ولمشايخه

المجلد الثاني

طبع على نفقة

حمود بن علي الربيعان

غفر الله له ولوالديه ولأهل بيته وذريته وللمسلمين

دار طيبة الخضراء

للنشر والتوزيع

علم ينتفع به

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب التاسع والعشرون

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: باب ما جاء في التنجيم.

يعني: ما جاء فيه من الوعيد أو في حكمه هل هو كفر أو هو جائز، أو فيه تفصيل؟

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **قال البخاري في صحيحه: قال قتادة: خلق الله هذه النجوم لثلاث: زينة للسماء، ورجومًا للشياطين، وعلامات يهتدىٰ بها. فمن تأول فيها غير ذلك أخطأ، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به. انتهىٰ**(١).

هذا الأثر الذي ذكره عن قتادة هو بيِّن في أكثر من آية من كتاب الله تعالىٰ، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: ٩]، وقال ﷻ: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ١٠]، وقال ﷻ: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦].

فهذه الحكمة التي بيَّنها الله لنا من النجوم، فالسماء الدنيا فيها النجوم كأنها القلائد علىٰ أتراب النساء، فهي زينة لها، فهذه من الحكم وهي أيضًا علامات يُهتدىٰ بها، إما أنه يهتدىٰ بها علىٰ الخالق ﷻ فإنها من صنعه الذي يدل علىٰ وجوب عبادته، أو أنه المقصود يهتدىٰ بها في ظلمات البر والبحر كما ذكر الله ﷻ ذلك؛ يعني: هداية السائر في البر والبحر تكون علامات علىٰ الجهات، علامة علىٰ الجهة التي يقصدها في سيره سواء كان في البر أو في البحر.

---

(١) رواه البخاري في (باب في النجوم).

وكذلك تكون علامة على القبلة، ولهذا الفقهاء يذكرون العلامات وأنه ينبغي للإنسان أن يعرف علامات القبلة ويعرفها بالشمس والقمر وبالنجوم وبالرياح، الرياح أصلها أربع، تأتي من الجهات الأربع، فجعلوا النجوم من العلامات التي يهتدى بها، وعلى هذا يكون تعلمها لأجل ذلك إما أنه مباح أو أنه مستحب.

أما كونها رجومًا للشياطين فهو أمر ظاهر، وسبق أن الشياطين يركب بعضها على بعض لاستراق السمع من الملائكة الذين يكونون بالعنان؛ يعني: بالسحاب أو دونه؛ لأن الملائكة يرسلهم الله ﷻ بأوامره التي تكون في ملكوته في الأرض وبين السماء والأرض وفي غير ذلك ويتحدثون فيما بينهم ما أُرسلوا به مما يقوله الله ﷻ فتتخطف الشياطين الكلمة حتى تأتي بها إلى الكاهن فيكذبون معها مائة كذبة ليضلون بني آدم أو لأجل أن يعتقدوا أن الكاهن يعلم الغيب فيقعوا في الكفر والخروج من الإسلام، ومعلوم حرصهم على عداوة الإنسان، فجعل النجوم لرجمهم، فإذا صنعوا ذلك أرسل عليهم شهابًا من النجوم فأحيانًا يقتل الشيطان وأحيانًا يخطئه وأحيانًا يذهب بعقله، ومع هذا يفعلون ذلك إمعانًا في حرصهم على إضلال الناس، وهذا يدلنا على أن هذا الأمر كان منذ خلقت الشياطين وليس أمرًا حادثًا، ولكن كما سبق لما أرسل الله ﷻ محمدًا ﷺ حرست السماء فصاروا لا يستطيعون أن يسترقوا شيئًا فكثرت النجوم، ولهذا الناس فزعوا من ذلك وخافوا أن تكون الدنيا قد انتهت.

قوله: «**خلق الله هذه النجوم لثلاث**»؛ يعني: لثلاث حكم، وهذه الثلاث هي التي جعلها الله في خلق النجوم، فمعنى ذلك أنه يجب على العبد أن يتقيد بما ذكره الله ﷻ في كتابه، ولا يعدو ذلك في النجوم؛ لأن النجوم مخلوقة مدبرة لله ﷻ وليس عندها شيء من علم الغيب، وقد كثر الخوض في ذلك، والضلالات أكثر مما كان في الجاهلية كما يوجد في كثير من المجلات والصحف وغيرها أن من سافر في كذا

أو ولد في نجم كذا أنه يكون له كذا وكذا وأمور كثيرة يتصيد بها هؤلاء أموال الناس، وهي كلها ضلال وتخمينات، بل ضلال بين ظاهر ليس لهم عليها أي دليل وأي أمارة، ومعلوم أن طلوع هذا النجم مثلًا أنه يولد فيه خلق كثير أو يموت فيه خلق كثير، ويحدث حوادث كثيرة ولا صلة للنجم في هذه الأمور، فعلىٰ هذا نقول مثلًا: التنجيم أو علم النجوم ينقسم إلىٰ قسمين غير الأحكام الثلاثة التي ذكرت:

القسم الأول: يسمىٰ علم التأثير: يعني: أن الحوادث التي تحدث في الأرض أو في الكون تكون أثرًا من حركات النجوم، فالنجوم يكون لها صلة بالحوادث، وهذا لا يزال موجودًا في الناس، كثير من المنجمين يعتقدون هذا ويعملون به، وربما يحاول بعضهم أن يستدل عليه من القرآن؛ كقوله ﷻ: ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦]؛ يزعم أنهم يهتدون علىٰ ما يحدث من الأمور التي تجد، وتكون مستقبلة، وهذا زعم باطل، فقوله: ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾؛ يعني: يهتدون في الظلمات كما نص الله ﷻ علىٰ ذلك في سورة الأنعام؛ يعني: في ظلمات البر والبحر: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٧] تكون بها الهداية فهي من نعمه ﷻ علىٰ عباده؛ لأنه إذا أظلم الليل لا يرىٰ شيء إنما ترىٰ النجوم التي إذا عرفها بأعيانها عرف أنها إلىٰ تلك الجهة فيسير إلىٰ الجهة التي يريدها مهتديًا بذلك.

واستدلوا بقول الله ﷻ في قصة إبراهيم عليه السلام: ﴿فَنَظَرَ نَظۡرَةٗ فِي ٱلنُّجُومِ﴾ [الصافات: ٨٨] فزعموا أنه استدل في نظره بالنجوم علىٰ أنه سيمرض وسيحدث له السوء، وهذا أيضًا من جنس ما قبله ادعاء باطل، وإنما هذا من المعاريض؛ أي: الأفعال التي يُعرض بها كون الإنسان ينظر إلىٰ النجوم لا يقتضىٰ أنه يستدل بها علىٰ ما سيحدث، ولهذا صح في حديث الشفاعة عن النبي ﷺ حينما يأتي الناس يطلبون الشفاعة منه يعتذر ويذكر أنه كذب ثلاث كذبات هذه إحداها وليست كذب، وإنما سماها كذب

من باب المجاز، وإلا فهي من باب المعاريض، مثل ما قال الرسول ﷺ للمشرك في ذهابه إلىٰ بدر فذهب يسأل عن قريش فلقي مشركًا فقال: أخبروني ممن أنتما؟ فقالا له: إذا أخبرتنا أخبرناك. فلما أخبره سألهما: ممن أنتما؟ قال: من ماء[1]؛ يعني: أنهم خلقوا من ماء، فهذا من المعاريض، فالرجل ظن أنه من قرية يقال له: ماء. فالمقصود أن قوله: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٨، ٨٩] يعرض أنه يترك الذهاب مع قومه حتىٰ يتخلف إلىٰ أصنامهم فيحطمها ففعل ﷺ، ولهذا جاء في الحديث: «**لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات ثنتين منهن في ذات الله** ﷻ. **قوله**: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾. **وقوله**: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣]. وقال: بينا هو ذات يوم وسارة إذ أتىٰ علىٰ جبار من الجبابرة فقيل له: إن هاهنا رجلًا معه امرأة من أحسن الناس فأرسل إليه فسأله عنها فقال: من هذه؟ قال: أختي فأتىٰ سارة فقال: يا سارة ليس علىٰ وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، وإن هذا سألني فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني، فأرسل إليها، فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأُخذ، فقال: اِدعي الله ولا أضرك فدعت الله فأطلق. ثم تناولها الثانية فأُخذ مثلها أو أشد فقال: ادعي الله لي ولا أضرك فدعت فأُطلق، فدعا بعض حجبته فقال: إنكم لم تأتوني بإنسان إنما أتيتموني بشيطان فأخدمها هاجر فأتته وهو يصلي فأومأ بيده مهيًا،

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٦١٥) قال: «ثم نزل قريبًا من بدر فركب هو ورجل من أصحابه قال ابن هشام: الرجل هو أبو بكر الصديق. قال ابن إسحاق كما حدثني محمد بن يحيىٰ بن حبان: حتىٰ وقف علىٰ شيخ من العرب، فسأله عن قريش، وعن محمد وأصحابه وما بلغه عنهم، فقال الشيخ: لا أخبركما حتىٰ تخبراني ممن أنتما؟ فقال رسول الله ﷺ: **إذا أخبرتنا أخبرناك**، قال: أذاك بذاك؟ قال: **نعم**، قال الشيخ: فإنه بلغني أن محمدًا وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذي أخبرني، فهم اليوم بمكان كذا وكذا، للمكان الذي به رسول الله ﷺ وبلغني أن قريشًا خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان الذي أخبرني صدقني فهم اليوم بمكان كذا وكذا للمكان الذي فيه قريش. فلما فرغ من خبره قال: ممن أنتما؟ قال رسول الله ﷺ: **نحن من ماء**، ثم انصرف عنه، قال: يقول الشيخ ما من ماء أمن ماء العراق؟»

قالت: رد الله كيد الكافر أو الفاجر في نحره وأخدم هاجر»[(١)]، وكلها إذًا في المجادلة في دين الله وفي الدعوة إليه.

فالمقصود أن قوله: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ﴾ من الأفعال التي يعرض بها وليس كما يقول المنجم الضال في هذا، أما كون المنجم قد يصدق فصدقه مثل صدق الكاهن الذي قد يصدق مثلًا في الكلمة ويكذب في مائة أو أكثر قد يزيد هو مائة ويزيد شيطانه مائة أخرىٰ فيصدق في هذه الكلمة التي وافقت أنها أُخذت عن الملائكة، أما المنجم فصدقه قليل جدًا، وصدقه ليس أن النجوم عندها شيء من العلم وإنما أمر وافق القدر فصار في ذلك فتنة، وإلا ليس عند النجوم أي علامة علىٰ ما يحدث، فالذي يدعي ذلك فهو ضال ضلال بيِّن.

قوله: «زينة للسماء»: قد يؤخذ من هذا أن النجوم في السماء، ولا شك أن كل ما فوقنا سماء، فيطلق علىٰ العلو سماء فهي بلا شك أنها في السماء بالنسبة إلينا، لكن هل هي في السماء المبينة أو في غيرها؟

المنجمون الذين كانوا يعتنون بالنجوم قديمًا وضعوا لها مراصد جعلوها في السماوات كلها، ولهذا قالوا: أن القمر في السماء الدنيا والشمس في السماء الرابعة وكل نجم قالوا: أنه في كذا وكذا، وذلك أنهم نظروا فيها فوجدوا بعضها يكسف بعضًا هذا هو وجه الاستدلال لديهم، ومعنىٰ يكسف بعضها بعضًا أن بعضها فوق بعض، ثم نظروا في الأبعاد التي بينها بالتقدير، والآن خرجت مراصد كبيرة، والكفار يعتنون بها ولكنهم يقولون: أنها تسبح في الفضاء، وهذا؛ لأنهم لا يعتقدون أن هناك سماء أصلًا بل يجعلون ما فوق فضاء؛ لأنهم لا يؤمنون إلا بالمحسوس، والله ﷻ أخبرنا أن هذا المشاهد هي السماء، قال ﷻ: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦].

(١) رواه البخاري رقم (٣٣٥٨)، ومسلم رقم (٢٣٧١).

والله ﷻ أمرنا بالتفكير في السماء وآياتها، والسماء يدخل فيها كل ما فوقنا، ولكن السماوات جاءت مجموعة في غالب ورودها في القرآن، وجاء أنها سبع، أما الأرض فجاءت مفردة في جميع مواردها إلا في موضع واحد في قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢] الآية، وهذه المثلية اختُلف فيها، فأكثر العلماء على أن المثلية لا تنطبق في جميع الوجوه، وإنما هي طبقات سبع، وأما ما ذكره القرطبي في تفسيره[1] ورجحه وهو أن الأرضين السبع بينها فتوق وأن بين كل أرض وأخرى مسافة وأن كل أرض، فيها سكان، وفيها مثل ما على هذه الأرض، وهذا الظاهر أنه مأخوذ من عقائد زنادقة أهل الكتاب ونسبته إلى أهل السُّنَّة غير صحيح.

فالمثلية أنها طبقات، أما السماوات فهي بينها مسافات شاسعة وقد جاءت النصوص بهذا حتى في تحديد المسافة بين سماء وأخرى ما بين خمسمائة سنة إلى سبعمائة سنة، وهذا الاختلاف يكون باختلاف السير السريع وغير السريع، فمن الثابت أن النبي ﷺ عرج به من بيت المقدس إلى السماء السابعة ثم رجع منه إلى مكة كل هذا في ليلة واحدة، وقد ثبت عنه ﷺ أنه عندما تقبض الروح يصعد بها إلى السماء فإن كانت صالحة فتحت لها أبواب السماوات حتى تنتهي إلى السماء التي فيها الله ﷻ، هكذا جاء في بعض الأحاديث، وفي أحاديث أخرى إلى السماء السابعة ثم يقول الله: «**اكتبوا كتابه في عليين وأعيدوه إلى الأرض**»، وأما إن كانت خبيثة فإنها تغلق دونها أبواب السماء ثم ينادي منادي: «**أن اكتبوا كتابه في سجين وأعيدوه إلى الأرض**»، ثم يطرح طرحًا، ثم قرأ ﷺ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

والرسول ﷺ لما عرج به مع جبريل عليه السلام استفتح السماء الدنيا فقالوا: من؟

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٨/ ١٧٥).

قال: جبريل، قالوا: من معك؟ وفي هذا دليل أنها محكمة لها أبواب مغلقة وحفظها الله من شياطين الإنس والجن: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢]، والله ﷻ أخبر أن الجنة فوق السماء السابعة فقال: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢].

وفي البخاري عنه ﷺ: «**إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله كل درجتين ما بينهما كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلىٰ الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة**»(١). وهذه أوصاف ثلاث للفردوس أنها وسطها وأعلاها وتفجر منه أنهار الجنة، وأما الرابع فهو عام، فالعرش سقف المخلوقات كلها ليس فوقه مخلوق فكل المخلوقات تحته.

فالكواكب التي يقولون: أنها في السماء الثانية والثالثة والخامسة حتىٰ قالوا في السماء السابعة هذا حدس وتخمين وظن كاذب والله أخبرنا بقوله: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ٦-١٠].

وهذا الاستثناء للشياطين الذين يتراكب بعضهم علىٰ بعض فهم لا يصلون إلا إلىٰ السحاب فقط، وهم لا يستطيعون الوصول إلىٰ السماء، والسحاب فيه الملائكة هم يتكلمون بالوحي الذي يأمرهم الله به والشياطين تتراكب حتىٰ تصل إلىٰ السحاب ثم تخطف الكلمة من الوحي ثم يلقيها الأعلىٰ إلىٰ الأسفل خشية أن يُدركه الشهاب قبل أن ينقلها، حتىٰ تصل إلىٰ الذي في الأرض فقد يأتي الشهاب فيقتله أو يذهب عقله وقد يخطئه، وهم مع هذا كله يعرفون هذا ولكنهم يخاطرون وكل هذا من أجل إضلال بني آدم، أما أنهم يتعدون ذلك ويصلون إلىٰ السماء فلا.

---

(١) رواه البخاري رقم (٢٧٩٠) من حديث أبي هريرة.

أما قول الكفار: إنّ الذي فوقنا فضاء أو يطلقون أقمارهم الصناعية وهي في مدارات قريبة، وهم يقولون أنهم إذا صعدوا ووصلوا إلىٰ حد معين تكون هناك ظلمة شديدة، ويقولون أنه ليس هناك سماء وأن هذا المشاهد هو انعكاسات من الأثير ومن البحار فهي انعكاسات تعكسها الأرض هكذا يقولون، والسماء بعيدة جدًا وإذا لم يكن هناك شيء يعكس النظر فلا يمكن أن يُرىٰ شيء، وهذه المسألة عقلية مقررة عند أهل الكلام قديمًا والمعتزلة جعلوها أصلًا في نفي رؤية الله ﷻ؛ لأنهم قالوا: الرؤية لا بد أن تصطدم بجسم ولو صح أننا نرىٰ ربنا لصح أن يكون جسمًا، وهذا باطل، قال شيخ الإسلام رحمه الله: هؤلاء أصحاب القياس جعلوا أنفسهم الأصل فقاسوا رب العالمين علىٰ أنفسهم، فأنكروا صفات الله ﷻ علىٰ هذا الأساس.

فالمقصود أن النجوم سواء كانت في السماء أو تحت السماء أو حيث شاء الله، فهي مخلوقات لله مسخرة تسير بنظام معين وبأوقات معينة، ولا تخرج عن طاعة الله ﷻ، وجاء أنها تسجد لله ﷻ، فالشمس والقمر والنجوم تسجد لله ﷻ، عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال لي النبي ﷺ حين غربت الشمس: «**تدري أين تذهب**». قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «**فإنها تذهب حتىٰ تسجد تحت العرش فتستأذن فيؤذن لها ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها وتستأذن فلا يؤذن لها يقال لها ارجعي من حيث جئت فتطلع من مغربها، فذلك قوله تعالىٰ:** ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٨]»(١)، فهي تسجد لله ﷻ، والعجب أن أهل الكلام يتأولون مثل هذا الحديث، فقد قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في شرحه لهذا الحديث: إن وجه استدلال البخاري به أن العرش له تحت فهو مخلوق(٢).

---

(١) رواه البخاري رقم (٣١٩٩)، ومسلم رقم (١٥٩).

(٢) فتح الباري لابن حجر (١٣/ ٤١٤) قال: والمراد منه هنا إثبات أن العرش مخلوق لأنه ثبت أن له فوقًا وتحتًا وهما من صفات المخلوقات.

وهذا بعيد جدًا من مقصود البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ، مقصود البخاري معروف: إبطال كلام الجهمية والمعتزلة ومن شابههم ممن تبعهم في ذلك، أن الله عالٍ علىٰ كل شيء، وهو فوق كل شيء، وهو ذكر هذا في باب الاستواء علىٰ العرش، والمقصود أن النجوم من مخلوقات الله جَلَّ وَعَلَا مُدبَّرة مُسخَّرة، وقد ذكر الله جَلَّ وَعَلَا لنا شيئًا من الحكمة من هذه النجوم وإلا الحكمة التي خلق الله من أجلها المخلوقات قد لا يدرك الناس منها إلا الشيء اليسير، وأن الشيء الذي يرشدهم الله جَلَّ وَعَلَا إليه هو الذي يجب أن يُقتصر عليه، وهذه الأمور الثلاثة التي ذكرها قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ: أنها زينة للسماء وهذا بالنسبة لنا؛ لأننا نشاهدها، وكأنها في السماء كأنها قلائد علىٰ نحور الولدان في السماء، ولها عجائب لمن فكر فيها وفي سيرها وتدبير الله لها وهي لا تبدوا إلا في الليل، وهي مثل المصابيح التي تُعلق.

قوله: «**ورجومًا للشياطين**»: وهذا أمر مشاهد، كل يشاهده أنه يسقط منها شهب تنير لها الأرض وهي كبيرة وقد تكون صغيرة، وقد تكثر وقد تقل، وفي زمن مبعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صارت كثيرة جدًا وخاف الناس حتىٰ قالوا: إن هذا إيذان بانتهاء هذا الكون ومن فيه، وصاروا يسألون كبارهم ومن عندهم علم فقالوا انظروا إن كانت الثوابت هي التي يُرمىٰ بها، فهذا بلا شك أنه النهاية، أما إذا كان غيرها فهو لأمر حدث، كذلك الشياطين فزعوا من هذا الأمر، وفزعوا إلىٰ كبيرهم وأبيهم إبليس، فقال: إنه لا بد أنه حدث شيء علىٰ هذه الأرض فذهبوا فوجدوا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في وادي نخلة يقرأ القرآن فقالوا: هذا هو الأمر الذي حدث هذا لأجله.

وقد ذكر الله جَلَّ وَعَلَا هذا عن الجن في سورة الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ [الجن: ٨]، وهذه حماية للوحي وأن لا يسترق الشياطين منه شيئًا، ويأتون به إلىٰ كهنتهم فيلقونه علىٰ الناس فيقولون هذا الذي يقوله محمد، مثل ما تقوله الكهنة، وهذا في زمن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعند نزول الوحي، ولما توفي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عاد

الأمر إلىٰ ما كان عليه، فهو من قديم، ولهذا رمي بشهاب والنبي ﷺ جالس بين أصحابه فقال لهم رسول الله ﷺ: «**ماذا كنتم تقولون في الجاهلية إذا رمي بمثل هذا؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم كنا نقول: ولد الليلة رجل عظيم أو مات رجل عظيم، فقال رسول الله ﷺ: «**فإنها لا يرمىٰ بها لموت أحد ولا لحياته، ولكن ربنا تبارك وتعالىٰ اسمه إذا قضىٰ أمرًا سبح حملة العرش ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم حتىٰ يبلغ التسبيح أهل هذه السماء الدنيا، ثم قال: الذين يلون حملة العرش لحملة العرش ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم ماذا قال: قال: فيستخبر بعض أهل السماوات بعضًا حتىٰ يبلغ الخبر هذه السماء الدنيا فتخطف الجن السمع فيقذفون إلىٰ أوليائهم ويرمون به فما جاءوا به علىٰ وجهه فهو حق ولكنهم يقرفون فيه ويزيدون**»(١).

وأخبر في حديث آخر أنه قد يصيبه وقد يقتله وقد يخطئه بإذن الله ﷻ، ويخلص بالكلمة التي استرقها ويلقيها إلىٰ الكاهن ويكذب معها مائة كذبة يُصدَّق هذا الكذب الكثير من الكلمة التي اختطفها الشيطان من الملائكة.

الأمر الثالث: أنها علامات يهتدىٰ بها، وهذا شيء معروف وهو إلىٰ الآن في سيرهم وفي اتجاه القبلة وقد جعل الله علامات معينة ثوابت، فهم نظروها عند الكعبة ثم نظروها بعيدًا وعرفوا أنه علىٰ هذا المقدار، وكل بلد له علامات من هذه الكواكب معينة مثل اليمن ومثل نجد والشام والعراق، ذكر ذلك العلماء في كتب الفقه في باب وجوب استقبال القبلة واستدلوا بها، هذه التي يجب علىٰ العبد أن يعرفها من الحكمة من خلق النجوم فقط التي تنفعنا، وكذلك هي تسجد لله ﷻ، قال ﷻ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وذكر الله في سورة الحج المخلوقات وأنها

(١) رواه مسلم رقم (٢٢٢٩).

تسجد له ﷻ فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ١٨] وهذا أمر عجيب؛ أي: أن كثيرًا منهم لا يسجد، ولهذا قال: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾، ثم قال ﷻ: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الحج: ١٨]؛ يعني: أن الذي لا يسجد له ﷻ أنه مهان، فالسجود لله كرم من الله، وهو من أعظم نعم الله علىٰ عبده المؤمن بأنه جعله عارفًا له عابدًا له ﷻ.

فالمقصود أن التنجيم الذي ذكره المؤلف ؒ أنه منافٍ للتوحيد، وقد يكون قادحًا في كماله.

وقد ذكر الشارح ؒ أن التنجيم ثلاثة أقسام:

القسم الأول: كفر بالاتفاق، لا خلاف فيه وهو ما كان عليه الصابئة والكنعانيون ونحوهم الذين أرسل إليهم الخليل عليه السلام فكانوا يعبدون النجوم ويبنون لها الهياكل يعني المواضع التي يجعلون فيها صورها ويدعونها ويسجدون لها ويعملون الأعمال التي لا يجوز أن تُعمل إلا لرب العالمين ﷻ، ويزعمون أن لها روحانيات تتنزل عليهم وتخاطبهم وتقضي حاجاتهم، وهذه الروحانيات شياطين وليست أرواح لها أو كما يزعمون أنها تكون صلة بينهم وبينها، فإذا خاطبوها تتنزل عليهم من ذات النجوم، وإنما هي شياطين تضلهم كما كان المشركون يسمعون الأصوات من معبوداتهم وقد يرون شخصًا يخاطبهم كما كان ذلك في اللات وفي العزىٰ وفي غيرها، بل يوجد هذا حتىٰ في القبور التي تعبد من دون الله وغيرها من المعبودات، ولما فتح رسول الله ﷺ مكة أرسل خالد بن الوليد إلىٰ نخلة -وكانت بها العزىٰ فكانت علىٰ ثلاث سمرات- فقطع السمرات وهدم البيت الذي كان عليها، وكان عندها سدنة ثم أتىٰ النبي ﷺ فأخبره فسأله النبي ﷺ: «**هل رأيت شيئًا؟**

قال: لم أر شيئًا. فقال: **ارجع فإنك لم تصنع شيئًا**» فرجع خالد فلما أبصرته السدنة أمعنوا في الجبل وهم يقولون يا عزىٰ يا عزىٰ فأتاها خالد فإذا امرأة عريانة ناشرة شعرها تحثو التراب علىٰ رأسها فعمّمها بالسيف فقتلها، ثم رجع إلىٰ رسول الله ﷺ فأخبره فقال: «**تلك العزىٰ**»(١)، يعني أنها شيطانة؛ يعني: هي التي كانت تخاطبهم.

وهكذا كل من يعبد غير الله ﷻ فإنه يعبد الشيطان؛ لأن الشيطان هو الذي يُضله، وقد يُمعن في إضلاله فيأتيه بما يطلب فيكون في ذلك فتنة، ولهذا جاء في حديث الشفاعة الطويل الذي في الصحيحين: «**ينادي منادٍ: ليذهب كل قوم إلىٰ ما كانوا يعبدون، فيذهب أصحاب الصليب مع صليبهم، وأصحاب الأوثان مع أوثانهم، وأصحاب كل آلهة مع آلهتهم**»(٢)، وفي رواية قال: «**ويمثَّل لمن كان يعبد عيسىٰ شيطان عيسىٰ، ويمثل لمن كان يعبد عزيرًا شيطان عزير**»(٣)، فيؤتىٰ بكل معبود يعبد في الدنيا علىٰ هيئته وصورته، فمن كان يعبد نبيًا أو صالحًا أو ملكًا يؤتىٰ بشيطانه فيقال لهم اتبعوهم إلىٰ جهنم كما قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] فهكذا هؤلاء. فهذا كفر بإجماع العلماء.

والصابئون منهم طائفة موجودة الآن، ولهم كتب وهم يعبدونها عبادة صريحة.

القسم الثاني: وهو الاستدلال بطلوع النجوم واقترانها، وأفولها، وحركاتها علىٰ الحوادث التي تحدث في الأرض، في المطر والرياح وتغير الدول وغلاء الأسعار وما أشبه ذلك، ويزعمون أن هذه الحوادث لها صلة بالنجوم، وإن كانت

---

(١) رواه النسائي في الكبرىٰ رقم (١١٥٤٧)، وأبو يعلىٰ (٩٠٢).

(٢) رواه البخاري رقم (٧٤٣٩)، ومسلم رقم (١٨٢).

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير رقم (٩٧٦٣)، والحاكم في المستدرك رقم (٨٧٥١) من حديث ابن مسعود، وقال الحاكم (٤/ ٦٣٢): والحديث صحيح ولم يخرجاه، وأبو خالد الدالاني ممن يجمع حديثه في أئمة أهل الكوفة. وقال في مجمع الزوائد (١٠/ ٣٤٣): رواه كله الطبراني من طرق ورجال أحدها رجال الصحيح غير أبي خالد الدالاني وهو ثقة.

النجوم مخلوقة لله ﷻ، وكذلك في معرفة الحروب، وأن الحروب سوف تكون في يوم كذا، وهذا موجود ولا يزال حتىٰ إن بعض من ينتسب إلىٰ الإسلام ألف فيه مؤلفًا ولا يزال هذا موجودًا وتبعه علىٰ ذلك من تبعه وهو في الواقع من عباد الكواكب، جاء عن عمر ﵁ لما خرج إلىٰ الشام في بعض الغزوات، فعن الربيع بن سبرة الجهني قال: لما غزا عمر وأراد الخروج إلىٰ الشام خرجت معه، فلما أراد أن يدلج نظرت فإذا القمر في الدبران؛ -لأن هذا عند العرب أنه غير محمود- فأردت أن أذكر ذلك لعمر فعرفت أنه يكره ذكر النجوم، فقلت له: يا أبا حفص انظر إلىٰ القمر ما أحسن استواءه هذه الليلة، فنظر فإذا هو في الدبران فقال: قد عرفت ما تريد يا ابن سبرة، تقول: إن القمر في الدبران والله ما نخرج بشمس ولا بقمر إلا بالله الواحد القهار[1]. وهذا أمر واضح.

فالمقصود أن نسبة الحوادث التي تحدث في الأرض أو نسبة الأمور الغيبية إلىٰ الكواكب هذا قسم من أقسام التنجيم، فقد جاء في قوله ﷻ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ [الواقعة: ٧٥]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢] أنهم يقولون: مطرنا بنوء كذا[2]، ولهذا ثبت في الصحيح عن زيد بن خالد الجهني أنه قال: صلىٰ لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية علىٰ إثر سماء كانت من الليلة فلما انصرف أقبل علىٰ الناس فقال: «**هل تدرون ماذا قال ربكم**»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**أصبح من عبادي مؤمن كافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي وكافر بالكوكب، وأما من قال: بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي ومؤمن بالكوكب**»[3].

(١) كنز العمال رقم (٢٩٤٣٣).

(٢) تفسير ابن كثير (٧/ ٥٤٦)-(٥٤٧) عن ابن عباس قال: ما مُطِرَ قوم قط إلا أصبح بعضهم كافرًا يقولون: مُطِرْنَا بنوء كذا وكذا. وقرأ ابن عباس: «وتجعلون شكركم أنكم تكذبون». وهذا إسناد صحيح إلىٰ ابن عباس. وقال مجاهد: ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢] قال: قولهم في الأنواء: مُطِرنا بنوء كذا، وبنوء.

(٣) رواه البخاري رقم (٨٤٦)، ومسلم رقم (٧١).

بعض العلماء يجعل هذا الكفر من كفر النعمة، وبعضهم يجعله الكفر الذي يخرج من الدين إضافة النعمة إلىٰ غير الله كفر؛ لأن النعمة يجب أن تضاف إلىٰ مُسديها ومَوليها، والمنعم بها، وإلا يصبح كافرًا بها.

وجاء في تفسير الآية قول آخر وهو قولهم أنكم تجعلون نصيبكم من هذا القرآن الذي هو حياة القلوب أنكم تكذبون به وهو اختيار ابن القيم رحمه الله[1]، لكن الآثار تدل علىٰ المعنىٰ الأول.

فالمقصود أن نسبة الأمطار والرياح وغلاء الأسعار أو حصول الجدب أو الخصب أو المرض أو تغير الدول، وأن هذه الحوادث لها صلة بالنجوم وإن كانت النجوم مخلوقة لله ﷻ، فهذا أيضًا كفر من الكفر الأكبر، ويجب أن لا يكون فيه خلاف في كفره. وإضافة الأشياء إلىٰ النجوم موجودة في الناس، وهذه من الأشياء التي قصدها المؤلف بخلاف الأول فإنه لا وجود له في المسلمين.

القسم الثالث: هو ما ذكره المؤلف رحمه الله في تعلم منازل القمر، والقمر له ثمانية وعشرون منزلًا ودائمًا علىٰ سطح الأرض أربعة عشر نشاهدها دائمًا، كل ما غرب واحد خرج مقابله من الشرق، وليس قوله ينزل بمعنىٰ: أن يكون ملاصقًا لها تمامًا وأحيانًا موازيًا له من الشمال أو من الجنوب، وهذه كان العرب يعرفونها تمامًا، فإذا كان الشهر تسعة وعشرون يومًا فإن ليلة منها ليس له منزلة، وتسمىٰ ليلة الاستسرار، وإذا كمل ثلاثين صار ليلتين لا منزلة له.

---

(١) شفاء العليل (١/ ٤٢) قال: من هذا قوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢] أي: تجعلونه حظكم من هذا الرزق الذي به حياتكم التكذيب به، قال الحسن: تجعلون حظكم ونصيبكم من القرآن أنكم تكذبون قال: وخسر عبد لا يكون حظه من كتاب الله إلا التكذيب به. وقال في التبيان في أقسام القرآن (١/ ١٤٦)، وقال آخرون: التقدير وتجعلون بدل شكر رزقكم أنكم تكذبون فحذف مضافين معًا وهؤلاء أطالوا اللفظ وقصروا بالمعنىٰ، ومن بعض معنىٰ الآية قوله: مطرنا بنوء كذا وكذا، فهذا لا يصح أن تدل عليه الآية ويراد بها وإلا فمعناها أوسع منه وأعم وأعلىٰ، والله أعلم.

فالمقصود أن هذه المنازل معروفة لدىٰ العرب وهي التي يسمونها الأنواء، ومعنىٰ أنواء: أنها تنوء أو تغيب، ويضيفون إليها الأمطار وقد يصفونها بالنحوس أو بالسعود، ولهذا يذمون بعضها ويمدحون بعضًا، وهذا من الكفر بالله ﷻ؛ لأنه ليس عندها سعادة ولا نحاسة، وليس عندها تدبير وإنما هي مدبرة، وقد اختلف العلماء بقول الإنسان حصل المطر في نوء كذا؛ لأنه لا يجوز إضافة المطر إلىٰ مخلوق كما جاء في الحديث: «**مطرنا بفضل الله ورحمته**».

الثاني: أن المطر من الأمور الغيبية التي أخبر الله أنه لا أحد يعلم وقت نزوله، وإن كان له علامات، ولكن هذه العلامات لا يلزم أنه يوجد معها المطر، فلا بد من أمر الله وتقديره، فيجب أن يلجأ إليه ﷻ، ويسأل.

والمقصود أن تعلم المنازل حتىٰ تعرف بها الاتجاهات، ويعرف الحساب فقط، مثل معرفة أوقات الصلوات، والحج، والصيام، وهذا نص الله ﷻ عليه في كتابه، فمن تعلم هذا فلا بأس، ولكن اختلفوا في معرفة وقت الكسوف؛ لأن الكسوف له حكمة والرسول ﷺ بيَّن هذه الحكمة وهو أن الله يخوف بهما عباده، ويفعل هذا حتىٰ يعلم ما يُحدث عباده من توبة، ورجوع إليه، وأما ما يقوله المنجمون اليوم والحسابون أنه في يوم كذا سوف يحصل الكسوف أو الخسوف فذهب معه الخوف من الله وصار عندهم عاديًا فقد كُره هذا، وإن كانت أمور جعلها الله بهذا التقدير سُنَّة فلا ينافي أن الله يحدث عندها عقابًا يعاقب به من يشاء، ولهذا لما كسفت الشمس في وقت الرسول ﷺ خرج يجر رداءه خوفًا من أن تكون الساعة ثم لما خطب قال: «**يا أمة محمد إن الله يغار أن يزني عبده أو تزني أمته**»[1]

(١) رواه البخاري رقم (١٠٤٤)، ومسلم رقم (٩٠١) وفي رواية: «**إن الله يغار وغيرة الله أن يأتي المؤمن ما حرم الله**» البخاري رقم (٥٢٢٣)، ومسلم رقم (٢٧٦١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وذكر المعاصي ثم قال: «**تصدقوا**» وذكر التوبة والاستغفار، فمعنىٰ هذا أنه إذا حدث الكسوف هذا فإنه بأمور تحدث منا، وإذا لم نرعوِ ونتوب فإن الله قد يصيبنا بعذاب.

قوله: «**فمن تأول فيها غير ذلك أخطأ**»؛ يعني: أخطأ في التأويل، وفي الاستدلال.

وقوله: «**وأوضاع نصيبه**»: لأنه ضال ناسب للأمور إلىٰ غير موجدها، ويكون في ذلك مشركًا، وقع في الشرك وهذا من المناسب لكتاب التوحيد كون الذي يدعي أن النجوم لها تأثير بما يحدث أنه يكون مشركًا، وهذا الشرك يكون شركًا أكبر منافيًا للتوحيد إذا زعم أنها تتصرف وأنها توجد الأشياء، أو أنها تؤثر في الأمور التي تحدث تأثيرًا من ذاتها، أما إذا كان يعتقد أن الله ﷻ جعلها سببًا، وأن الحوادث تحدث عندما تطلع أو تغرب أو تقترن فالله ﷻ يحدثها وجعل ذلك علامة علىٰ ذلك فهو أيضًا من الشرك؛ لأن الله ﷻ أخبرنا أن النجوم مسخرة مدبرة بأمره، وأن الغيب من خصائص الرب ﷻ لا يطلع عليه أحد لا في الأرض ولا في السماء ولهذا قال: «**أضاع نصيبه**» ومن أضاع نصيبه فهو ضال هالك، والنصيب معناه الحظ، والحظ لا يكون إلا بعبادة الله ﷻ، فمن صرف عبادته إلىٰ غير الله ﷻ فقد ضاع نصيبه في الآخرة، ومن ضاع نصيبه صار هالكًا وخسر نفسه.

وقوله: «**وتكلف ما لا علم له به**»؛ يعني: أنه يسير في حدس وظن وتخمين ليس معه أي اهتداء، يقول الداودي رحمه الله: قول قتادة في النجوم حسن إلا قوله: أخطأ وأضاع نصيبه، فإنه قصر في ذلك بل قائل ذلك كافر انتهىٰ[1]. يعني خرج عن الدين الإسلامي.

(١) فتح الباري لابن حجر (٦/ ٢٩٥).

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **وكره قتادة تعلم منازل القمر، ولم يرخص ابن عيينة فيه. ذكره حرب عنهما. ورخص في تعلم المنازل أحمد وإسحاق**(١).

قوله: «كره»: الكراهة عند السلف يقصد بها التحريم، فمعنى ذلك أن قتادة يرى أن ذلك حرام والكراهة تنقسم إلى قسمين كراهة تحريم، وكراهة تنزيه، فكراهة التنزيه ما كانت معروفة في كلام السلف.

فعلى هذا يكون تعلم منازل القمر عند قتادة من المحرمات؛ لأنه يقود إلى ما لا يجوز فيكون وسيلة إلى الكفر، ومعلوم أن سد الذرائع قاعدة جاء بها الشرع وكثيرًا ما ذكر الرسول ﷺ النهي عن أشياء سدًا للذريعة لئلا يقع الناس في الشرك، وفي ما لا يجوز.

قوله: «**تعلم منازل القمر**»: تعلم المنازل المقصود به معرفة الوقت، ومعرفة كون القمر يكون في هذه المنزلة في اليوم الفلاني من الشهر مثلًا في كل ثلاثة عشر يومًا يطلع واحد، فتطلع كلها في تمام السنة وهي الأنواء التي سيأتي ذكرها؛ لأن العرب كانوا يستسقون بها، وهذا هو القسم الثالث كما سبق الذي اختلف فيه كما هو ظاهر هنا.

وقوله: «**ولم يرخص ابن عيينة فيه**»: هذا أقل من قول قتادة، كأنه متردد في ذلك بين كونه محرمًا أو كونه جائزًا، ومعلوم ورع السلف في التحريم والتحليل، فإنهم يهابون هذا كثيرًا؛ لأن الله جل وعلا يقول: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦]، فإن هذا فيه الخطورة، لا بد أن يكون العبد متأكدًا من الأمر.

---

(١) فتح الباري لابن رجب (٣/ ١٤٢) قال رحمه الله: وقد اختلف في تعلم منازل القمر وأسماء النجوم المهتدى بها، فرخص فيه النخعي ومجاهد وأحمد، وكرهه قتادة، وابن عيينة تعلم منازل القمر.

قوله: «ذكره حرب عنهما»: حرب هو الإمام الحافظ حرب بن إسماعيل أبو محمد الكرماني الفقيه من أجلة أصحاب الإمام أحمد ذكر هذا في كتابه «كتاب المسائل» التي رواها عن الإمام أحمد ذكر فيها أحاديث، وهو مشهور توفي سنة ثمانين ومائتين رحمه الله.

وقوله: «ورخص في تعلم المنازل أحمد وإسحاق»: أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه.

والرخصة: هي خلاف العزيمة تفعل للحاجة هذا الأصل فيها؛ يعني: إذا كان الإنسان يحتاج إلىٰ ذلك فهو جائز يفعله وهو مما يحتاج إليه العبد في معرفة الجهات، وكذلك معرفة فصول السنة فإن هذا ليس فيه محذور؛ لأن الله قدر القمر منازل كما أخبرنا بذلك، وكذلك جعل القمر بهذه الصفة والشمس وغيرها حتىٰ نعلم الأوقات ونعلم حلول الآجال وهذا أمر يحتاج الناس إليه في معاملتهم وكذلك في ما أمرهم الله ﷻ به من الأحكام التي تتعلق بالنساء وبغيرها من العُدد وغيرها، وعلىٰ هذا يكون هذا جائزًا وربما يكون مستحبًا.

وكذلك في النظر في زوال الشمس لأجل الصلاة وقد تطور الأمر فيه فاستغني عنه بالآلات التي استحدثت عن النظر فيه، وإلا فهو أمر واضح؛ لأن الله حدد أوقات الصلاة فوقت الصلاة من الأمور الواجب معرفتها، والصلاة لا تصح حتىٰ يدخل وقتها وأوقاتها تعرف بسير الشمس، وكذلك في طلوع الفجر وغيره وقد يلتبس هذا علىٰ كثير من الناس.

أما نسبة الأمور التي تحدث إلىٰ الأنواء كما سيأتي في الباب الذي بعد هذا فسيأتي حكمه -إن شاء الله-.

فعلىٰ هذا يكون خلاصة الكلام أن الأمور التي تتعلق بالنجوم ويزعم كثير من المنجمين أن لها صلة بما يحدث في الأرض وفي الجو وغيره أنه أمر باطل لا حقيقة

له، وإنما هو مجرد جهل ليس له أي أمارة من علم، وأما النظر في طلوع الكواكب وغروبها ومسيرها لمعرفة الأوقات أو معرفة الجهات فإنه أمر مستحب؛ لأنه يحصل به مصالح للناس وأوقات الصلاة وغيره كجهات القبلة.

قال المؤلف رحمه الله: وعن أبي موسىٰ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يدخلون الجنة: مدمن الخمر، وقاطع الرحم، ومصدق بالسحر» رواه أحمد وابن حبان في صحيحه[1].

يعني: ثلاثة أنواع من الناس، أو ثلاثة أجناس، أو ثلاثة أصناف، وليس ثلاثة أشخاص وابتدأ بالنكرة؛ لأنها مفيدة بالوصف والإضافة.

قوله: «لا يدخلون الجنة»: هذا من نصوص الوعيد الذي يقول كثير من العلماء لا يجوز تأويله، ولا يجوز أن يصرف عن ظاهره؛ لأن في تأويله خطر القول علىٰ الله أو علىٰ رسوله ﷺ فيُترك علىٰ ما جاء وهو اختيار الإمام أحمد وهو الأظهر وهو اختيار المؤلف، وذلك لأمرين:

أحدهما: أن هذا أدعىٰ للانزجار، والابتعاد عنها.

الثاني: أن فيه سلامة من خطر القول علىٰ الله ورسوله بلا علم.

وجمهور العلماء علىٰ تأويل ذلك.

قوله: «مدمن الخمر»: المدمن هو المداوم علىٰ الشيء الذي لا يقلع عنه، وليس معنىٰ يداوم أنه يستمر علىٰ شربه، ولكنه يصر علىٰ شربه، ويعزم عليه،

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم (١٩٥٦٩)، وابن حبان في صحيحه رقم (٥٣٤٦)، والحاكم في المستدرك رقم (٧٢٣٤) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. وجاء في الحديث: «**ومن مات مدمنًا للخمر سقاه الله ﷻ من نهر الغوطة**، قيل: وما نهر الغوطة قال: **نهر يجري من فروج المومسات يؤذي أهل النار ريح فروجهم**».

فالعزيمة والإصرار هي الإدمان عليه.

والخمر اسم لما خامر العقل وأزاله، وأزال الفكر. كما قال عمر رضي الله عنه: إنه كل ما خامر العقل وغطاه[1].

وسواء كان من العنب أو من التمر أو الشعير قليلًا أو كثيرًا، وقد استحدث الناس اليوم أنواعًا من المكسرات كثيرة جدًا، وميسرة للناس عن طريق الكفرة الذين يريدون إفساد عقول الناس، وصرفهم عن أديانهم، بل وعن دنياهم، فصارت حربًا علىٰ المسلمين أكثر مما لو كانت في حرب الجيوش المقابلة بالأسلحة، ولهذا يجب أن يُحذر هذا الأمر ويتنبه له فإن الأعداء أدركوا من شباب المسلمين الشيء الكثير الذي أفسدوه بهذه المسكرات التي إذا تناوله الإنسان مجرد ما يتناولها مرة واحدة أو يشمها كما في بعض الأنواع يصبح مدمنًا لا يملك نفسه من أنه يتناولها فيهلك بذلك، وليس هناك شيء مما ينهىٰ عنه رسول الله ﷺ ويكون فيه خير أبدًا، ولهذا كان من جوامع الكلم التي قالها: «**كل مسكر خمر وكل خمر حرام**»[2].

«وكل» هنا للعموم فهو لا يخص نوعًا دون نوع، وجاء في الحديث عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «**ما أسكر الفرق منه إذا شربته فملء الكف منه حرام**»[3]، والله أخبر أن في الجنة خمرًا، وأنه ليس فيها غَول، والغَول هو ذهاب العقل، فهي سالمة مما في خمر الدنيا، وجاءت أحاديث كثيرة في أن من شربها في الدنيا لا يشربها في الآخرة، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**ومن شرب الخمر فمات وهو**

---

(١) رواه البخاري رقم (٤٦١٩)، ومسلم رقم (٣٠٣٢) عن ابن عمر قال: سمعت عمر رضي الله عنه علىٰ منبر النبي ﷺ يقول: أما بعد؛ أيها الناس إنه نزل تحريم الخمر وهي من خمسة: من العنب والتمر والعسل والحنطة والشعير، والخمر ما خامر العقل.

(٢) رواه مسلم رقم (٢٠٠٣) عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**كل مسكر خمر وكل مسكر حرام، ومن شرب الخمر في الدنيا فمات وهو يدمنها لم يتب لم يشربها في الآخرة**».

(٣) أحمد في المسند رقم (٢٤٤٢٣)، والترمذي رقم (١٨٦٦).

يُدمنها ولم يتب منها لم يشربها في الآخرة»[١]، وعنه: **«من شرب الخمر في الدنيا، ثم لم يتب منها حُرمها في الآخرة»**[٢].

وقوله: «وقاطع الرحم»: الرحم المراد بها النسب والقرابة، وليست الرحم هي الصلة الزوجية فهذه لا تسمىٰ رحمًا، وإنما الرحم تكون بالولادة الأبوة والبنوة، وكذلك الحواشي وصلتها تختلف باختلاف حالات الناس، وهذه ترجع إلىٰ العادة والعرف الذي يتعارف عليه الناس، فما تعارفوا علىٰ أن هذه قطيعة أو أن هذا الصلة يكون لها هذا الحكم.

وهذه العادة والمعروف الذي يتعارف عليه يجب أن يكون بين المسلمين، وليس بين الكافرين والأمم التي تنحرف عن توجيه الوحي الذي جاء به رسول الله ﷺ فمعنىٰ ذلك أن الصلة قد تكون بالكلام، وقد تكون بالزيارة، وقد لا يكفي ذلك لا بد من البذل والعطاء والمعاونة وما أشبه ذلك، والناس يختلفون في هذا اختلافًا كثيرًا.

وقطيعتها أمر عظيم جدًا، فلهذا جاء أنه لا يدخل الجنة عاق[٣] ولا يدخل الجنة قاطع الرحم[٤]، وهذا الحديث صريح في ذلك، وقال الله ﷻ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٢، ٢٣]، وكل هذه نصوص وعيد عظيم يجب علىٰ الإنسان أن يبتعد عن هذه الأشياء.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه البخاري رقم (٥٥٧٥)، ومسلم رقم (٢٠٠٣).

(٣) أحمد في المسند رقم (٦٨٨٢) عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال: **«لا يدخل الجنة منان ولا عاق والديه ولا مدمن خمر»**.

(٤) رواه البخاري رقم (٥٩٨٤)، ومسلم رقم (٢٥٥٦) عن جبير بن مطعم: عن النبي ﷺ قال: **«لا يدخل الجنة قاطع»**، قال ابن أبي عمر: قال سفيان: يعني قاطع رحم.

قوله: «**ومصدق بالسحر**»: هذا هو الشاهد من الحديث؛ لأنه جاء في الباب الذي قبل هذا «أن من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد»، فالمصدق بالسحر يدخل فيه المصدق بقول المنجم، فإذا كان يصدق قوله فهو مثله، ويكون له هذا الوعيد بأنه لا يدخل الجنة، وهذا يدلنا علىٰ أن النظر في النجوم وسبر الأحوال التي تحدث يزعم بأنها تتأثر بحركات النجوم يكون هذا من الكفر والشرك بالربوبية، فالمدبر والمصرف للأمور هو الله ﷻ وحده.

فقوله: «**ومصدق بالسحر**»: هو الذي يعمل به أو يتعلمه فإن وجود السحر في الدنيا لا أحد ينكره، فهو من قديم الزمان، فالأمم الكافرة من قديم ترمي الرسل بأنهم سحرة وبأنهم مسحورون، فليس المصدق بالسحر هو المصدق بوجوده هذا لا يُقصد، وإنما المقصود هو العامل به، أو الذي يذهب إلىٰ الساحر ويطلب منه إما دفع ضرر أو طلب نفع، والسحر لا ينفك عن الشرك.

قال المؤلف رحمه الله: فيه مسائل:

الأولى: الحكمة في خلق النجوم.

وهل يدخل في هذا في معرفة أحجامها وسرعتها وأبعادها؟

النظر في ذلك في الواقع يضيع الوقت، أما كونه مثلًا يكون دليلًا علىٰ عظمة الله ﷻ، فهذا كل المخلوقات تدل علىٰ ذلك، ولكن الأمور التي لا يترتب عليها عبادة لله ﷻ، ولا مصلحة للإنسان فوقت الإنسان وعمره قليل فلا يجوز أن يضيعه ويجب أن يصرفه في الشيء النافع، ثم ليس كل نافع يستطيعه الإنسان ويدركه يفعله، فينبغي له أن يقدم الأهم فالأهم، وهناك أمور أهم من ذلك بكثير، فإذا أضاع وقته في هذه الأشياء في النظر في أبعاد الكواكب وفي أحجامها ومسيرها ونحو ذلك فأيُّ فائدة من هذا إلا الاستدلال علىٰ ذلك بعظيم قدرة الله ﷻ وهذا يُكتفىٰ به بأقل

من هذا، فالمقصود أن هذا يكون على حساب الأمور التي هي أهم منه فلا ينبغي للإنسان أن يضيع وقته في ذلك.

الثانية: ذكر الخلاف في تعلم المنازل.

والصحيح أن هذا جائز، تعلم منازل القمر ولكن ليس للتأثير الذي يحدث في الأرض أو في غيرها، وإنما يتعلم المنازل لمعرفة أوقات الفصول والجهات.

الثالثة: الوعيد فيمن صدق بشيء من السحر، ولو عرف أنه باطل.

فمعنى ذلك أن التصديق هو العمل، يعمل فيه، وإن كان باطلًا يعني في حقيقة الأمر، أما البطلان والإيمان فهما متضادان؛ لأن التصديق قد يقال أنه هو الإيمان بهذا الشيء أنه يؤمن ويقول أنه صحيح، أما أنه يعلم أن هذا باطلًا فمعنى ذلك أنه يعمل بمقتضى ما قاله حينَ زعمَ أنَّ هذه الأشياء لها تأثيرٌ في الحوادث.

الباب الثلاثون

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء.**

قوله: «باب ما جاء»؛ يعني: من الوعيد على من استسقى بالأنواء.

وقوله: «في الاستسقاء»: استسقاء يعني نسبة السقيا إليها، فالاستسقاء طلب نزول المطر.

وقوله: «بالأنواء»: الأنواء جمع نَوء، وهو الطالع الذي ناء وطلع، وقد يقال أن النوء الغائب الذي غرب، كما قال ابن قتيبة في كتابه الأنواء: أنه يطلق على الغائب والطالع.

ولكن الأنواء المقصود بها منازل القمر، وهي ثمان وعشرون منزلة، وينزل القمر كل ليلة منزلة منها، يسقط في الغرب كل ثلاث عشرة ليلة مع طلوع الفجر وتطلع أخرى مقابلتها ذلك الوقت من المشرق، فتنقضي جميعها مع انقضاء السنة، وإنما سمي نوء؛ لأنه إذا سقط الساقط منها ناء الطالعُ بالمشرق؛ أي: نهض وطلع.

هذه المنازل التي جعلها الله للقمر، وبذلك يعرف عدد السنين والحساب كما أخبر الله جل وعلا في كتابه، والعرب كان لهم عناية بها، فكلما غرب واحد وطلع آخر نسبوا المطر إليه، ويقولون أنه يأتي بالمطر، يقولون مطرنا بنوء كذا، وهذه كانت عادة العرب وكانوا يعتنون بهذا كثيرًا لأن حياتهم مبنية على ذلك، حيث إنهم لم يكونوا أصحاب تجارة ولا أصحاب زراعة، وإنما كانوا رعاة يرعون مواشيهم فينظرون إلى الأمطار متى تأتي، ويهتمون لهذا كثيرًا.

والاستسقاء المقصود به هنا إضافة نزول المطر إلى طلوع الكوكب أو غروبه وليس معنى ذلك أنهم يطلبون من الكواكب أن تنزل عليهم المطر، فإن هذا ما كان

معروفًا في الناس في الجاهلية ولا في غيرها وإنما يعلمون أن الذي يُنزل المطر هو الله، كما قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢]، يعني يعلمون أن الفاعل لهذه المذكورات هو الله وحده ﷻ، وهذا كثير في القرآن، فالله أخبر أنهم إذا سُئلوا من نزّل من السماء ماءً يقولون الله ويقرون بهذا، كما أنهم إذا سُئلوا من الذي خلقهم يقرون بأنه الله ﷻ، كما أنهم إذا سُئلوا من الذي خلق السماوات والأرض يقرون بأنه العزيز العليم ﷻ، فإضافة الاستسقاء إلىٰ النجم معناه إضافته إلىٰ طلوعه، وهذا كفر بالله ﷻ، يعني كفر نعمته كما يأتي في الحديث الذي ذكره المؤلف، وهو من الكفر الخفي الذي يكون في هذه الأمة كما أخبر الرسول ﷺ إن الناس يُضيفون الشيء إلىٰ سببه، فإن هذا من الشرك الخفي مثل قول: لولا فلان ما صار كذا وكذا .... الخ، والأفعال كلها إذا أضيفت إلىٰ مخلوق فإنها داخلة في هذا.

فإن الواجب اعتقاد أن المدبر لكل شيء هو الله تعالىٰ، فإذا أضيفت إلىٰ مخلوق صار ذلك من الشرك لأن الشرك يقع بالقلب، ويقع بالفعل، ويقع بالقول، وكل هذا يجب علىٰ الإنسان أن يُطهر نفسه منه، ومعلوم أن شرك القول ليس كشرك العمل والنية والإرادة ومع هذا يكون قادحًا في توحيد العبد، وهذا الذي أراد المؤلف رحمه الله أن يبينه لأن هذا من القوادح التي تقدح في التوحيد وتخدشه وتنقصه، وهذا أيضًا من تفسير التوحيد لأن الأشياء تتبين بأضدادها.

قال المؤلف رحمه الله **:** وقوله الله تعالىٰ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢].

وقوله: «﴿وَتَجْعَلُونَ﴾»: الجعل هنا معناه النسبة؛ أي: أنكم تنسبونه إلىٰ ذلك، كقوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩]؛ أي: قالوا إنهم بنات الله، وهذا مثله.

وقوله: «﴿رِزْقَكُمْ﴾»: والرزق هنا هو المطر كما هو ظاهر قول المؤلف رحمه الله.

قوله: «﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾»؛ يعني: أنكم نسبتم نزول المطر إلىٰ طلوع الكوكب، فهذا كذب، فجعلتم الرزق الذي أنعم الله جل وعلا به عليكم وتفضل عليكم بدون استحقاق منكم له أنكم كذبتم وأضفتموه إلىٰ الكوكب فهذا كفر بالنعمة. وعن علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢] قال: «**شكركم مطرنا بنوء كذا وكذا بنجم كذا وكذا**»(١).

يقول ابن كثير رحمه الله: وهذا أولىٰ ما فُسّرت به الآية.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله **: وعن أبي مالك الأشعري، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة»، وقال: «النائحةُ إذا لم تتب قبل موتها تُقام يوم القيامة وعليها سِربالٌ من قطران، ودرع من جرب»**(٢).

أبو مالك الأشعري اسمه: الحارث بن الحارث الشامي، صحابي تفرد بالرواية عن أبي سلّام، وهذا ليس هو عم عبد الله بن قيس الذي قتل في واقعة هوازن يوم حنين. يقول الحافظ: وفي الصحابة أبو مالك الأشعري اثنان غيره(٣).

قوله: «أربعٌ»: نكرة ابتدئ بها؛ لأنها موصوفة مفيدة.

وقوله: «أربع»؛ يعني: أربع خصال أو أربع خلال أو ما أشبه ذلك.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم (٦٧٧)، والترمذي رقم (٣٢٩٥) وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح.

(٢) رواه مسلم رقم (٩٣٤).

(٣) تقريب التهذيب (١/ ١٧٣).

قوله: «في أمتي»: الإضافة في أمتي يقصد بها الإضافة الخاصة، وهي الأمة التي استجابت للرسول ﷺ، أما العامة فهم كل الخلق بعد مبعثه من الجن والإنس فهم أمته، ولكن هذا الحديث ظاهر فيه أن المقصود به أمة الإجابة لأنه لا يقال في الكفار أمتي تفعل كذا وكذا.

قوله: «من أمر الجاهلية»: لا شك أن هذا خرج مخرج الذم، فأمر الجاهلية مذموم، والجاهلية نسبة إلىٰ الجهل فهذا يدل علىٰ الذم لأن الجهل لا أحد يرضىٰ به، والمقصود بالجاهلية ما كان مخالفًا لما جاء به الرسول ﷺ، وكل ما خالف أمر الله ﷻ، وأمر رسوله ﷺ فهو من الجاهلية فهو مذموم، وقد يكون كفرًا أو دون ذلك.

وقد تطلق الجاهلية علىٰ فترة معينة، وهي ما كان قبل بعثة النبي ﷺ ولكن هذه هي الجاهلية الأولىٰ كما قال الله ﷻ: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، فالجهل ما كان خلاف الحق، سواءً عملًا أو علمًا أو فعلًا فهو جهل، وذلك أن الإنسان عبد لله ﷻ، والعبد يجب أن يكون متقيدًا بأوامر سيده فلا بد من إتيان الأوامر إليه، فإذا خرج عن أمر الله ﷻ فهو جاهل لأنه جهل في أمر نفسه وبحاله وبالواجب عليه، فعلىٰ هذا لا تكون الجاهلية مقيدة بزمن، كل ما كان خارجًا عن الحق فهو جاهلية، ولهذا جاء عن الصحابة رضوان الله عليهم في قوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧]، قولهم كل من عمل السوء فهو جاهل[1]،

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٣٥) قال مجاهد وغير واحد: كل من عصىٰ الله خطأ أو عَمدًا فهو جاهل حتىٰ ينزع عن الذنب. وقال قتادة عن أبي العالية: أنه كان يحدث: أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يقولون: كل ذنب أصابه عبد فهو بجهالة. رواه ابن جرير. وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن قتادة قال: اجتمع أصحاب رسول الله ﷺ فرأوا أن كل شيء عُصي به فهو جهالة، عمدًا كان أو غيره. وقال ابن جُرَيْج: أخبرني عبد الله بن كثير، عن مجاهد قال: كل عامل بمعصية الله فهو جاهل حين عملها. قال ابن جريج: وقال لي عطاء بن أبي رباح نحوَه. وقال أبو صالح عن ابن عباس: مِنْ جَهالته عمل السوء.

وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب، فإذا لم يتقيد العبد بأمر ربه ﷻ فهو جاهل قد خرج عن العلم وعن الصراط الذي أمر باتباعه.

وفي هذا الحديث: «**أربع في أمتي من أمر الجاهلية**»: قصد به التنفير والنهي عن هذا السلوك، ولكن هذا خبر معناه أن هذه الأمور موجودة في الأمة، والأمة يقصد بها أمة الإجابة لأنه قال: «**من أمر الجاهلية**»، لأنه لو كان مقصوده أمة الدعوة ما صلح هذا التعبير لأن أكثر أمة الدعوة، أكثرهم على الجاهلية، فكل من على الأرض بعد مبعث الرسول ﷺ هو من أمته، ولكن الأمة تنقسم إلى قسمين:

أحدهما: أمة إجابة. **الثانية**: أمة دعوة.

فقول الرسول ﷺ: «**ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين، ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة وهي الجماعة**»[(١)]، يعني: يقصد بها أمة الإجابة، فالأمة التي استجابت له صلوات الله وسلامه عليه الافتراق فيهم.

أما **قوله**: «**كلها في النار**»: فهذا من نصوص الوعيد.

قوله: «**لا يتركونهن**»؛ يعني: لا يتركونهن في المجموع، مجموع الأمة يعني أنه يستمر في الأمة، وإن كانوا يعرفون أنها محرمة ولكن لا بد من بقائها، وقد يكون الإنسان عارفًا بذلك وقد يكون جاهلًا، وهذا موجود الآن بكثرة، ولم يزل موجودًا ولا يزال، ولهذا عُد هذا من علامات نبوته ﷺ.

قوله: «**الفخر بالأحساب**»: الفخر هو التعاظم والتكبر على الغير، والحسب هو الشيء الذي يمدح به الإنسان مثل الشجاعة والعلم وغيره من الرئاسة ومن المال وغير ذلك.

---

(١) أبو داود رقم (٤٥٩٧)، وأحمد في المسند رقم (١٦٩٣٧) عن معاوية بن أبي سفيان، والترمذي رقم (٢٦٤) عن عبد الله بن عمرو.

فالفخر في هذه الأمور من الجاهلية، وذلك أن الإنسان ليس له إلا عمله ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم: ٣٩]، والإنسان أصله آدم، وآدم خلق من تراب، وكلهم أبناؤه ففخر واحد يفخر على الآخر هو من الجهل، ولهذا جاء في السنن عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله ﷻ قد أذهب عنكم عُبِّيَة الجاهلية وفخرها بالآباء، مؤمن تقي وفاجر شقي، والناس بنو آدم وآدم من تراب، لينتهين أقوام عن فخرهم برجال هم حمم جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان الذي يدهده النتن بأنفه**»(١).

هذا من التنفير البليغ عن هذه الأمور، والرسول ﷺ أفصح الناس، وأبلغهم وأنصحهم للأمة، فهو يذكر الأشياء التي فيها خيرهم ويحذرهم عما فيه شرهم، والله أخبرنا في القرآن في قوله: ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾ [سبأ: ٣٧] الإيمان والعمل الصالح هو الذي يقرب إلى الله ﷻ، وقال في آية أخرى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣].

الكريم عند الله هو التقي سواء كان من أولاد الأنبياء أو من أولاد فرعون، فمن كان أتقى لله فهو أقرب إلى الله ﷻ، ولهذا ضرب الله مثلًا للكفار ومثلًا للمؤمنين بقوله ﷻ: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [التحريم: ١٠، ١١].

(١) أحمد في المسند رقم (٨٧٣٦)، وأبو داود رقم (٥١١٦).

فالمقصود أن العبد لا ينفعه عند الله إلا عمله، وأما الأولاد والآباء والأنساب، هذه لا تجدي شيئًا بل قد تضر.

فقوله: «**الفخر بالأحساب**»؛ يعني: الفخر بالمناصب التي يكتسبها الإنسان، يفخر بآبائه إذا كانوا بهذه الصفة، سواءً كان من أمور الدنيا، أو من الأمور الأخرىٰ التي قد يكون العبد يفخر بها، فيقول مثلًا أنا ابن العالم الفلاني، أو ابن التقي الفلاني، أو ما شابه ذلك، فهذا من أمر الجاهلية لأن الإنسان ليس له إلا عمله، ليس له عمل آبائه وأجداده أو إخوانه أو غيرهم فمعنىٰ ذلك أنه يفخر بشيء أجنبي عنه، والفخر يجب أن يكون بالعمل، ومعلوم أن العبد مجبول علىٰ التقصير مهما عمل لا يستطيع أن يقوم بأمر الله ﷻ علىٰ الوجه الأكمل كعمل الرسل، فيجب أن يعرف قدر نفسه، ويعرف أنه إذا حصل له خير فهو محض فضل الله ﷻ تفضل به عليه، وإلا هو من نفسه ليس له شيء من ذلك.

قوله: «**والطعن في الأنساب**»: وهذا مقابل الأول كأن يقول فلان نسبه وضيع، أو فلان ليس له نسب أو ينفيه عن آبائه أو ما أشبه ذلك، فهذا من أمور الجاهلية لأن الناس مُؤتمنين علىٰ أنسابهم، فهذا من أمور الجاهلية لأننا نعلم أن الأصل واحد، وهذا الرجل خلق من تراب ثم المرجع إلىٰ هذا الأصل سوف يعود الإنسان ترابًا، يدفن في الأرض ثم يصير ترابًا، وليس له إلا عمله، إن كان متقيًا لربه فهو كريم عند الله، وإن كان عاصيًا كافرًا فهو قرين الشياطين في جهنم، والكلاب خير منه، ولهذا يقول الله ﷻ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ﴾ [التين: ٤، ٥]، رده أسفل سافلين يكون في الدنيا، وفي البرزخ، وفي الآخرة يكمل السفول ويجتمع عليه حتىٰ يكون في أسفل شيء التي هي سقر -نسأل الله العافية- ولهذا لما عيَّر أبو ذر ﵁ رجلًا بأمه قال: يا بن السوداء وبلغ ذلك رسول الله ﷺ قال: «**أعيَّرته بأمه، إنك امرؤ**

فيك جاهلية»[(١)]، وهو تعيير لغلامه يعني مملوكه الذي كان ملكًا له، فقال: «**علىٰ كبر سني؟ قال: نعم**».

فالخروج عن أمر الله ﷻ كله جاهلية، فالأصل في هذا أن أكرم الخلق عند الله هو التقي ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ [الحجرات: ١٣]، فمن كان تقيًا فبغض النظر عن آبائه، وعن نسبه فإنه هو الكريم عند الله، لما دخل عبد العزيز الكناني علىٰ مجلس المأمون وفيه الوزراء والكبراء والعظماء في ذلك الوقت وكان قد أُرهب وأخيف، فلما رآه أحدهم ووقع نظره علىٰ وجهه قال للمأمون: يكفيك من هذا يا أمير المؤمنين قبح وجهه. ولما ذهب الروع عنه وقبل البدء بالمناظرة سأل المأمون قائلًا: يا أمير المؤمنين أسألك بالله من أحسن الناس وجهًا؟ تعجب من هذا السؤال: قال اللهم يوسف، وما تريد بهذا السؤال، قال: وماذا جلب عليه حسن وجهه؟ قال: لبث في السجن سبع سنين. فماذا تريد؟ قال: إني سمعت رجلًا ممن هاهنا يقول: يكفيك من هذا قبح وجهه، وأنا لا صنع لي في وجهي، وإنما عاب خالقي، فإذا كان الله ﷻ قد أعطاني علمًا وبيانًا فما أبالي ... الخ.

فالمقصود أن عيب الإنسان في نسبه أو في خلقه أنه من أمر الجاهلية الذي لا يجوز، وإذا عابه فإن العيب يعود علىٰ الصانع وليس إلىٰ المصنوع لأن المصنوع لا دخل له في ذلك، ولهذا يقول الرسول ﷺ أن هذا من أمور الجاهلية.

قوله: «**والاستسقاء بالنجوم**»؛ يعني: نسبة السقيا إليها، نسبة نزول المطر إليها، وليس طلب السقيا منها، كقولك استسقىٰ فلان يعني طلب من يسقيه، ومنه صلاة الاستسقاء وهو دعاء الله أن يسقيهم. والاستسقاء بالنجوم ليس هو دعاؤها بأن تنزل عليهم المطر، وإنما ينسبون النزول إلىٰ طلوعها أو أفولها، وما قصه الله عنهم يدل علىٰ هذا.

(١) رواه البخاري رقم (٦٠٥٠)، ومسلم رقم (١٦٦١).

فإذا قال قائلهم: مُطرنا بنجم كذا، أو بنوء كذا، فلا يخلو إما أن يعتقد أن له تأثيرًا في نزول المطر فهذا شرك وكفر، وهو الذي يعتقده أهل الجاهلية.

وإما أن يقول: مُطرنا بنوء كذا مثلًا لكن يقصد به أنه في وقت كذا، يعني مع اعتقاده أن المؤثر هو الله وحده، لكنه أجرىٰ العادة بوجود المطر عند سقوط ذلك النجم، فهذا كفر من كفر النعمة حيث أضافها إلىٰ النجم، وإن كان يعتقد أن الله هو المنزل له. فأما من قال: مطرنا بنوء كذا علىٰ معنىٰ مطرنا في وقت نوء كذا فإنما ذلك كقوله مطرنا في شهر كذا، فلا يكون هذا كفرًا وغيره من الكلام أحسن وأبعد عن الخطأ[1].

فعلىٰ هذا إذا قال مطرنا في نوء كذا أن هذا لا يجوز لأن الناس يفهمون أن هذا نسبة إليه، ولا يجوز أن تضاف نعم الله ﷻ إلىٰ مخلوق، والنوء مخلوق مدبر ليس عنده أيُّ تصرف، فهو يسجد لله مطيعًا له، وقد جاء في المسند عن جابر بن سمرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ثلاث أخاف علىٰ أمتي: الاستسقاء بالأنواء، وحيف السلطان، وتكذيب بالقدر**»[2]، وهذا جاء له طرق متعددة، وقد خرجها الخطيب البغدادي في كتاب «النجوم».

فالاستسقاء نسبة نزول المطر إليه، وهذا من أمر الجاهلية، وعرفنا أن أمر الجاهلية لا يجوز فعله فإنه خرج مخرج الذم، والتحذير من الوقوع فيه.

قوله: «**والنياحة**»: النياحة هي: رفع الصوت علىٰ الميت، وتعداد محاسنه، وندبه بالبكاء عليه، وتعداد النعم التي ينالها بسببه كقوله: واكاسياه، وجابراه، وناصراه.

---

(١) فتح الباري (٢/ ٥٢٣).

(٢) أخرجه أحمد في المسند رقم (٢٠٨٣٢)، والطبراني في الأوسط رقم (١٨٥٢)، وأبو يعلىٰ رقم (٧٤٧٠)، قال في مجمع الزوائد (٧/ ٢٠٣): رواه أحمد، وأبو يعلىٰ والبزار، والطبراني في الثلاثة، وفيه محمد بن القاسم الأسدي وثقه ابن معين وكذبه أحمد وضعفه بقية الأئمة.

وقال بعض العلماء: إذا كان هذا قليلًا، وعن صدق فإنه لا بأس به لما جاء عن فاطمة ﵂ أنها نعت أباها وقالت: «يا أبتاه أجاب ربًا دعاه، يا أبتاه مَن جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلىٰ جبريل ننعاه»(١).

فاستدلوا بهذا علىٰ أن الشيء القليل لا بأس به، وإخراجه مثلًا من فعل الناس، إخراج لقول الرسول ﷺ وتقيده بذلك فيه نظر، وإن كانت فاطمة ﵂ في هذا معذورة لها عذر، ومع هذا لا يجوز الاقتداء في ذلك بل الواجب أن نأخذ ما قاله الرسول ﷺ.

ثم لا يدخل في هذا حزن القلب، ودمع العين يعني البكاء بدون تعداد المحاسن، لأنه ثبت في الصحيحين من حديث أسامة بن زيد ﵄ قال: أرسلت ابنة النبي ﷺ إليه إن ابنًا لها في النزع فائتنا، فأرسل يقرأ السلام ويقول: «**إن لله ما أخذ وله ما أعطىٰ وكل شيء عنده بأجل مسمًّىٰ فلتصبر ولتحتسب**»، فأرسلت إليه تقسم عليه ليأتينها، فقام ومعه سعد بن عبادة ومعاذ بن جبل وأُبي بن كعب وزيد بن ثابت ورجال، فرفع إلىٰ رسول الله ﷺ الصبي ونفسه تتقعقع قال: حسبته أنه قال: كأنها في شن ففاضت عيناه، فقال سعد: يا رسول الله ما هذا؟ فقال: «**هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء**»(٢).

دل هذا علىٰ أن البكاء علىٰ الميت لا يدخل في النياحة يعني: دمع العين وحزن القلب كما قال الرسول ﷺ عند وفاة ابنه إبراهيم ﵇: جعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان، فقال له عبد الرحمن بن عوف ﵁: وأنت يا رسول الله؟ فقال: «**يا ابن عوف إنها رحمة**»، ثم أتبعها بأخرىٰ فقال ﷺ: «**إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون**»(٣)، وهذا أكمل من

(١) رواه البخاري رقم (٤٤٦٢).
(٢) رواه البخاري رقم (١٢٨٤)، ومسلم رقم (٩٢٣).
(٣) رواه البخاري رقم (١٣٠٣)، ومسلم رقم (٢٣١٥) من حديث أنس بن مالك.

الذي يضحك إذا مات ابنه مثل الفضيل بن عياض رحمه الله لأنه لما قيل له أن ابنك مات ضحك، قيل له في ذلك فقال: هذا قدر ربي وأفرح به. فحال الرسول ﷺ أكمل منه؛ لأن الرسول ﷺ مع تسليمه لربه جل وعلا، وعدم معارضته لقدره، عنده رحمة لهذا الضعيف المسكين الذي وقع في هذا الكرب، وهذه الشدة رحمة مع تسليم لله جل وعلا، وانقياد له ورضى[1].

قوله: «**النائحة إذا لم تتب قبل موتها**»: في هذا أن التوبة تمحو ما قبلها، وأنها تكون قبل الموت، والمقصود بالموت هو معاينة الملائكة الذين يقبضون الروح، والملائكة لا يُعاينهم إلا المحتضِر الذي جاءوا لقبض روحه، أما الحاضرون الذين عنده لا يشاهدونهم، وكذلك ثبت عن النبي ﷺ: «**إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر**»[2]، والغرغرة معناها أن تصل الروح إلى الحلقوم فإذا وصلت إلى الحلقوم تيقن بالموت، ويصبح في عداد الأموات فلا ينفعه ندم ولا توبة ولا عمل، ولهذا لما احتضر فرعون قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، فقيل له: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩٠، ٩١]،

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٤٧) قال رحمه الله: لكن البكاء على الميت على وجه الرحمة حسن مستحب، وذلك لا ينافي الرضا بخلاف البكاء عليه لفوات حظه منه، وبهذا يعرف معنى قول النبي لما بكى على الميت وقال: «**إن هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء**»، فإن هذا ليس كبكاء من يبكي لحظه لا لرحمة الميت، فإن الفضيل بن عياض لما مات ابنه علي فضحك وقال: رأيت أن الله قد قضى فأحببت أن أرضى بما قضى الله به، حاله حال حسن بالنسبة إلى أهل الجزع، وأما رحمة الميت مع الرضا بالقضاء وحمد الله تعالى كحال النبي فهذا أكمل كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد: ١٧]، فذكر سبحانه التواصي بالصبر والمرحمة.

والناس أربعة أقسام: منهم من يكون فيه صبر بقسوة، ومنهم من يكون فيه رحمة يجزع، ومنهم من يكون فيه القسوة والجزع، والمؤمن المحمود الذي يصبر على ما يصيبه ويرحم الناس.

(٢) أخرجه أحمد في المسند رقم (٦١٦٠)، والترمذي رقم (٣٥٣٧)، وابن ماجه رقم (٤٢٥٣) من حديث ابن عمر.

وفي قوله: «**إذا لم تتب قبل موتها**» صريح في أن التوبة مطلقة، وأنها تنفع من كل ذنب وإن كان قبولها عند الله، ولكن الله وعد أنه يقبلها مع أن العبد لا يدري هل توبته صادقة أو أنها مدخولة أو أنه أفسدها، والله ﷻ يأمرنا بالتوبة وأنه يحب التوابين ويحب عبده التائب، فالتوبة تمحو ما قبلها، والتوبة تُقبل ما دام الإنسان فيه الحياة مستقرة قبل الموت.

وفيه دليل علىٰ أن من وقع في الذنوب لا يجوز أن يُحكم عليه بمقتضاها الظاهر لأنه قد يكون تاب مع أن هناك أمور كثيرة تكون مانعة من وقوع العذاب مثل أن يكون له حسنات كبيرة تمنع من العذاب، ومثل أن يصاب بمصائب تكفر عنه، ومثل أن تقبل دعوة المؤمنين له سواءً قبل الموت أو بعد ما يموت ويصلون عليه ويدعون له أن الله يعفو عنه، ويغفر له ويتجاوز عنه، وقد جاءت آثار وأحاديث في ذلك أن من قام علىٰ جنازته أربعون مؤمنًا وشفعوا فيه أن الله يشفعهم فيه(١)، وكذلك رحمة أرحم الراحمين من وراء هذا كله، وكذلك الشفاعة وغيرها من الأمور التي تمنع وقوع العذاب، وهذا كله يدل علىٰ ضلال الذين يحكمون علىٰ الناس بالكفر لذنوب يقعون فيها، والله ﷻ يحب العبد التائب كما هو معلوم في النصوص ويفرح بتوبة عبده التائب، وقد صور الرسول ﷺ فرحه بتوبة عبده التائب بأشد ما يتصور من الفرح الرجل الذي فقد حياته في أرض مهلكة، يعني فقد راحلته عليها طعامه، وشرابه فأيس من وجودها وجلس تحت الشجرة ينتظر الموت بينما هو كذلك إذا هي قائمة علىٰ رأسه فيأخذ بخطامها ثم قال: اللهم أنت عبدي وأنا

---

(١) رواه مسلم رقم (٩٤٨) عن عبد الله بن عباس: أنه مات ابن له بقديد أو بعسفان فقال: يا كريب انظر ما اجتمع له من الناس، قال: فخرجت فإذا ناس قد اجتمعوا له فأخبرته فقال: تقول هم أربعون؟ قال: نعم، قال: أخرجوه فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما من رجل مسلم يموت فيقوم علىٰ جنازته أربعون رجلًا لا يشركون بالله شيئًا إلا شفعهم الله فيه**».

ربك أخطأ من شدة الفرح[١].

وهذا غاية ما يتصور من الفرح، والله أشد فرحًا بتوبة عبده أعظم من هذا، هذا مجرد تقريب إلىٰ الأذهان، وإلا صفات الله ﷻ ليست كصفات المخلوقين ولا قريب منها فهو ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورىٰ: ١١] لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، ولا في حقه الذي له علىٰ عباده، وليس هذا إلا من كرمه وجوده فإنه الغني بذاته عن جميع خلقه، وإنما هذا كرم منه، وفضل تعالىٰ وتقدس.

قوله: «**تقام يوم القيامة**»؛ يعني: إذا قامت من قبرها.

قوله: «**وعليها سربال من قطران**»: السربال واحد السرابيل وهو القميص، الثوب الذي يلبس.

والقطران هو الذي يشتعل بسرعة ويكون منتن، وقيل: إن القطران هو النحاس المذاب، قاله ابن عباس رضي الله عنهما. ومعنىٰ ذلك أن بدنها يلطخ بهذا حتىٰ يكون أبلغ في اشتعال النار بها وأنتن، وأقبح، وأشد.

وقوله: «**ودرع من جرب**»: الدرع هو الذي يلبس فوق الجلد، فمعنىٰ ذلك أنه يكسىٰ جلدها جربًا حتىٰ يكون أشد للعذاب -نسأل الله العافية- هذا دليل علىٰ شدة عذابها؛ لأنها تتسخط أمر الله وتدعو إلىٰ التسخط، وتنهىٰ عن الصبر، والاحتساب الذي أمر الله به، وتدعو إلىٰ ما لا حقيقة له، فهي تكذب وتنسب الأمور إلىٰ غير من يجب أن تنسب إليه.

---

(١) رواه مسلم رقم (٢٧٤٧) عن أنس بن مالك وهو عمه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لله أشد فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان علىٰ راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتىٰ شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته فبينا هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح**».

والشاهد في الحديث قوله: «الاستسقاء بالنجوم» وأنه موجود في هذه الأمة وسيستمر وهو نسبة نزول المطر إليها، والواجب علىٰ العبد أن يبتعد عن الألفاظ التي فيها اشتباه، وقد يكون هناك ألفاظ موروثة عن الجاهلية كقولهم: «وعزاه»، وقد قال ﷺ: «**إن العبد يتكلم بالكلمة من سخط الله يزل بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب**»[(١)].

قال المؤلف رحمه الله: **ولهما عن زيد بن خالد قال: صلىٰ لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية علىٰ إثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل علىٰ الناس فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «قال أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب»**[(٢)].

زيد بن خالد الجهني: صحابي مشهور مات سنة ثمانٍ وستين، وقيل غير ذلك وله خمس وثمانون سنة.

قوله: «صلىٰ لنا»: هذا فيه جواز مثل هذا الكلام؛ لأن الصلاة معروف أنها لله جل وعلا ليست لنا، لكن «صلىٰ لنا» يعني صلىٰ بنا لأنه هو الإمام وهذا معروف في اللغة العربية، فاللام هنا بمعنىٰ الباء، فمثل هذا يجوز إطلاقه لأن بعض الحروف تتعاقب يعني بعضها يأتي بمعنىٰ الآخر.

قوله: «صلاة الصبح»: أُضيفت إلىٰ الصبح لأن هذا وقتها فهي لا تصلىٰ إلا بعد طلوع الصبح مثل صلاة الظهر وصلاة العصر ... الخ.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم (٨٩٢٣) من حديث أبي هريرة وفي رواية: «**إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرىٰ بها بأسًا يهوي بها سبعين خريفًا في النار**»، وأخرجه الترمذي رقم (٢٣١٤).

(٢) رواه البخاري رقم (٨٤٦)، ومسلم رقم (٧١).

قوله: «**بالحديبية**»: والحديبِّية بتخفيف بائها وتثقيلها وهي موضع بين مكة وجدة وهو معروف الآن بالشميسي، كان فيه بئر هناك نزله رسول الله ﷺ لما صده الكفار عن الوصول إلىٰ البيت وتفاوض معهم حتىٰ تم الصلح في ذلك المكان، وكان عنده شجرة سمر كان جالسًا تحتها رسول الله ﷺ فأرسل عثمان رضي الله عنه ليتفاوض مع الكفار فأشيع أنه قد قتل، عند ذلك دعا الصحابة للمبايعة علىٰ الموت أو علىٰ أن لا يفروا، فسُميت البيعة التي صارت تحت الشجرة بيعة الرضوان لأن الله جل وعلا قال: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨]، فهذه الشجرة صار بعض الناس يقصدها للصلاة عندها لأن الله ذكرها في كتابه، ولأن البيعة التي رضي الله جل وعلا بها، ورضي عن أهلها كانت تحتها فكانوا يقصدونها للصلاة عندها لأجل هذا، فلما علم بذلك عمر رضي الله عنه أمر بقطعها، فقطعت فأصبح مكانها غير معلوم وهذا من فضل الله جل وعلا، ومن صيانة هذا الدين الذي جاء به رسول الله ﷺ.

وقوله: «**علىٰ إثر سماء**»؛ يعني: علىٰ إثر مطر نزل من الليل، وسُمي سماء لأنه ينزل من العلو، فكل ما كان فوق فهو سماء.

قوله: «**من الليل**»؛ يعني: في تلك الليلة، إذا كانت قبل الزوال يُقال الليلة، وبعد الزوال البارحة لأنها برحت وانتهت.

قوله: «**فلما انصرف أقبل علىٰ الناس**»؛ يعني: من صلاته أقبل بوجهه الكريم صلوات الله وسلامه عليه، وهذا كانت عادته ﷺ أنه إذا انصرف من صلاته أقبل بوجهه علىٰ الناس واستدبر القبلة، ومن هذا أخذ سُنِّية إقبال الإمام بوجهه إلىٰ المأمومين، وأنه لا يبقىٰ مستقبلًا القبلة بعد انقضاء الصلاة إلا بقدر أن يقول أستغفر الله ثلاث مرات.

قوله: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟»: «هل» هذا للاستفهام، وهذه كانت عادته ﷺ، وهو التعليم بطريقة الاستفهام.

وقد يكون بطريقة السؤال وهذا أدعىٰ للانتباه، ويتهيئوا لهذا العلم ويهتموا به، فإذا جاء صاروا علىٰ استعداد لأخذه وقبوله وحفظه.

قوله: «تدرون»: درىٰ إذا علم، ودرىٰ بالشيء إذا علمه.

قوله: «ماذا قال ربكم؟».

قوله: «قال»: يدل علىٰ أن الله ﷻ له قول غير القرآن، ومثل هذا يُقال له حديث قدسي، والحديث القدسي هو ما تكلم الله به وذكره رسول الله ﷺ عن ربه ﷻ مضافًا إليه قولًا، والفرق بينه وبين القرآن:

أن القرآن تُعبِّد بتلاوته، وتُحُدي بأقصر سورة منه، وكذلك لا تصح الصلاة إلا به، ولا يجوز مسه للمحدث إن كان في المصحف، أو قراءته للحائض والجنب إلا بطهارة، وغير ذلك من الأحكام، بخلاف الحديث القدسي فليس له من ذلك شيء من هذه الأحكام.

أما الفرق بين الحديث القدسي، والحديث النبوي: أن الحديث النبوي قول الرسول لفظًا والمعنىٰ وحي من الله ﷻ.

«ماذا قال ربكم؟» فيه صفة القول لله ﷻ، وأنه يقول ويتكلم متىٰ يشاء والكلام لا يُعقل إلا إذا كان بلفظ وبحرف وبصوت، والكلام بغير هذا غير معقول كما تقوله الأشاعرة وقبلهم الكلَّابية أن الكلام معنًىٰ واحدًا قائمًا بالذات لا يتجزأ هذا من أبطل الباطل، وقد أبطله شيخ الإسلام من تسعين وجهًا يعني الكلام النفسي، فهذا باطل من وجوه عدَّة، وهم يجعلون الله ﷻ بمنزلة الأخرس، والملَك هو الذي يُعبر عما في نفس الله ﷻ عندهم، فهل الملك يعرف ما في نفس الله -تعالىٰ الله وتقدس عما يقول

الظالمون علوًا كبيرًا- فهم يقولون القرآن عبارة عن كلام الله ﷻ، ولهذا بعضهم يستهين بالقرآن لأنه ليس كلام الله إنما هو كلام رسوله سواء البشري أو الملكي، وعلىٰ كل حال الباطل بطلانه لا يخفىٰ إلا علىٰ من طمس الله علىٰ بصيرته فهذا من أعظم الضلال بل هو من الكفر لأنه يترتب علىٰ ذلك إنكار الشرع، وإنكار الرسل.

قوله: «**الله ورسوله أعلم**»: في هذا الأدب وأن الإنسان إذا سئل عن شيء لا يعلمه لا يتكلف الجواب بل يضيف العلم إلىٰ عالمه ويقول: الله أعلم، وفي وقت الرسول ﷺ يقال: الله ورسوله أعلم، وأما بعد ذلك فيقول: الله أعلم لأنه ليس بإمكانك أن تذهب وتسأل الرسول ﷺ.

قوله: «**قال: أصبح من عبادي**»: أصبح بعد هذه النعمة التي نزلت، وهذا يدل علىٰ أن النعمة تكون سببًا للكفر وقد تكون سببًا للإيمان، والبر، والعمل الصالح.

قوله: «**عبادي**»: الإضافة يُقصد بها العموم لأن الخلق كلهم عباد لله ﷻ؛ لأنها جاءت «من» التي للتبعيض، فالمقصود بها الناس كلهم الذين يفعلون هذا الفعل أو يقولون هذا القول.

قوله: «**مؤمن بي وكافر**»: الإيمان هنا يُقصد به إضافة النعمة إليه، والاعتراف بذلك وحمده والثناء عليه بما أنعم به يكون هذا هو الإيمان فيكون هذا من الأدلة الواضحة علىٰ أن الأعمال إيمان، والأدلة عليه لا حصر لها، ولهذا يقول أهل السُّنَّة: الإيمان مركب من أمور ثلاثة: من العلم ومن القول ومن العمل، يعني عقيدة وعمل وقول، فهو مركب من المجموع يعني أن الاعتقاد جزء من الإيمان، والقول جزء منه، وإذا ذهب جزء الشيء لم يكن مستقيمًا.

والخلاف في هذا للمرجئة هم الذين يُخرجون العمل عن الإيمان، ومعلوم أن هذا خلاف قد يصل إلىٰ الكفر بالإنسان لأن الرسول ﷺ جاء بالشرع، والشرع كله

عمل أو أكثره عمل، فإذا قيل إن العمل ليس من الإيمان فمعنىٰ ذلك أن الشرع يُهدر، ولو كان كما يقولون ما كان بين الرسول ﷺ وبين المشركين أي خلاف لأنهم بالإمكان أن يقولوا: نؤمن ونبقىٰ علىٰ ما نحن عليه في عقيدتنا، وفي عملنا، فهم يُقرون له بالإيمان، هم يقرون بأن الله ﷻ هو الخالق المتصرف، وهو الرزاق وغير ذلك، ولكن عرفوا أنه لا بد إذا كان قال الإنسان قولًا أن يعمل بمقتضاه، فلهذا سبق أن ذكر المؤلف في ما مضىٰ أنه لما حضرت الوفاة أبا طالب جاء إليه ﷺ فقال له: «**قل: لا إله إلا الله كلمة أحاج لك به عند الله**» وكان عنده أبو جهل، وعبد الله بن أبي أمية من الكفار، فلما قال له رسول الله ﷺ ذلك قالا له: أترغب عن ملة عبد المطلب. وكيف الكفار يعرفون أن قول لا إله إلا الله تنقل من ملة إلىٰ ملة، فكيف يكون العمل غير داخل في مسمىٰ الإيمان.

المقصود أن الأدلة علىٰ هذا لا حصر لها، غير أن بعضها صريح واضح، وبعضها مفهوم منه ذلك.

والمؤلف ﷺ يقول في المسائل[1]: تفطن هنا ما المقصود بالإيمان وما المقصود بالكفر؟

ومراد المؤلف بهذا أن نسبة نزول المطر إلىٰ رحمة الله وفضله أن هذا إيمان، ونسبة نزوله إلىٰ الكوكب كفر، فالإيمان والكفر هو العمل، يعني أن العمل هنا صار إيمانًا وكفرًا.

قوله: «**فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب**»: والكفر الظاهر أنه ليس الكفر الأكبر، وإنما هو كفر النعمة وهو إضافة النعمة إلىٰ غير مُسديها ومُوليها،

---

(١) المسألة السادسة والسابعة.

نسبتها إلىٰ المخلوق، وكل خير يحصل للعبد فهو من الله فيجب أن يُعلم ذلك ويتحلىٰ به، ويُثني به علىٰ الله، ويشكره بالعمل بطاعته، وإذا كان علىٰ خلاف ذلك فهو كافر، وهذا الكفر يكون من الشرك الخفي الذي هو نسبة النعمة إلىٰ غير الله ﷻ.

بهذا يُعلم أن كل فضل يحصل لك يجب أن تعلم أنه من الله وحده وأن الذي حصل علىٰ يده أنه سبب ساقه الله ﷻ إليك، ولا يدعو هذا كون الإنسان يغمط الناس حقوقهم، ولكن قلبه لا يتعلق بهم بل يجب أن يكون قلبه متعلق بالله ﷻ، فالنعم من الله فالذي ينعم هو الذي يجب أن يحب الحب الذي يكون فيه تأله القلب، وسيأتي الكلام علىٰ هذا إن شاء الله.

✍ **قال المؤلف رحمه الله: ولهما من حديث ابن عباس رضي الله عنهما معناه وفيه قال بعضهم: «لقد صدق نوء كذا وكذا، فأنزل الله هذه الآيات:** ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٍ مَّكۡنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٧٥-٨٢] »[١].

قوله: «ولهما»؛ يعني: البخاري ومسلم والصواب أنه عند مسلم فقط.

قوله: «قال بعضهم»: جاء أن الذي قال هذا أنه عبد الله بن أُبي بن سلول ولكن هذا لا يصح لأنه معروف أن سورة الواقعة مكية.

قوله: «صدق نوء كذا وكذا»: كناية عن تسمية نوء معين، والنوء الذي في ذلك اليوم ظهر أو غاب.

(١) رواه مسلم رقم (٧٣) ولفظه قال ابن عباس: مطر الناس علىٰ عهد النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر، قالوا: هذه رحمة الله وقال: بعضهم ..» الحديث.

قوله: «﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾»: اختلف المفسرون في اللام في قوله: ﴿فَلَآ﴾ هل هي نافية أو زائدة أو أن هذا على بابه.

فإذا كانت نافية فمعنى ذلك أنها نافية لشيء مقدر معلوم وهو كلام الكفار أن هذا القرآن سحر أو أنه شعر أو أنه كهانة وما أشبه ذلك من أقوالهم التي يقولونها أو أنه قول بشر فنفى الله ﷻ ذلك، وأقسم على أنه قرآن كريم، فالمعنى على هذا يكون ليس الأمر كما قلتم في القرآن.

«﴿أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾»: ومواقع النجوم قيل: إنها مساقطها أو مطالعها، أو المغارب والمطالع، وقد اختار هذا القول ابن جرير رحمه الله[١] وهو قول مجاهد رحمه الله[٢].

والنجوم كل نجم له موقع فهي من آيات الله الباهرة التي تدل على عظمة الله ﷻ وقيل نزول القرآن منجمًا في أوقاته قال ابن عباس رضي الله عنهما يعني: نجوم القرآن؛ فإنه نزل جملة ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا، ثم نزل مُفَرَّقًا في السنين بعد. ثم قرأ ابن عباس هذه الآية[٣].

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾: النجوم مخلوقة لله دالة على وحدانيته، وله ﷻ أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، أما عباده فلا يجوز أن يقسموا إلا به تعالى أو بصفة من صفاته.

والقسم هو تأكيد الخبر، والله ﷻ إذا أخبرنا بخبر فيجب أن نأخذ به ونصدقه،

(١) تفسير الطبري (٢٣/ ١٤٨) قال رحمه الله: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: معنى ذلك: فلا أقسم بمساقط النجوم ومغايبها في السماء، وذلك أن المواقع جمع موقع، والموقع المفعل، من وقع يقع موقعًا، فالأغلب من معانيه والأظهر من تأويله ما قلنا في ذلك، ولذلك قلنا: هو أولى معانيه به.

(٢) تفسير ابن كثير (٧/ ٥٤٤) وقال مجاهد أيضًا: ﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ في السماء، ويقال: مطالعها ومشارقها. وكذا قال الحسن، وقتادة.

(٣) تفسير ابن كثير (٧/ ٥٤٤).

ولكن هذا يكون بحسب حال المخاطب فبعض الناس لا يصدقه حتىٰ يُؤكد له بالأقسام وغيرها، وبعضهم يكون غافلًا فيحتاج إلىٰ التأكيد بذلك، ولله حكم في خطابه وأسرار يُعلمها الله من يشاء، وقد أكثر الله من الإقسامات في كتابه وعند التأمل يتبين دلالتها عن عظمة الله ووحدانيته.

وقوله: «﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾»: هذه جملة اعتراضية بين القسم وجوابه يدل علىٰ أنه أمر عظيم ونحن لا نعلم عظمته أو نعلم بعضه.

قوله: «﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾»: هذا هو المقسم عليه، القرآن هو المقسم عليه يعني كلامه الذي أنزله.

قوله: ﴿كَرِيمٌ﴾: قال الأزهري رحمه الله الكَرِيمُ: من صفات الله ﷻ وأسمائه، وهو الكثير الخير الجواد المنعم المتفضل. وقال: والكريم: اسم جامع لكل ما يُحمد. فالله كَرِيمٌ حميد الفعال. وقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾؛ أي: قرآن يحمد ما فيه من الهدىٰ والبيان والعلم والحكمة[1]. فهو الواسع والبهي، الحسن الجميل وغير ذلك. والله ﷻ وصف نفسه بأنه كريم، ووصف عرشه بأنه كريم، ووصف كلامه بأنه كريم لسعة ما فيه من الخير والهدىٰ والنفع الذي يحصل لمن آمن به.

قوله: «﴿فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾»: اختلف فيه ما المراد بهذا الكتاب قال ابن القيم رحمه الله: اختلف المفسرون في هذان فقيل هو اللوح المحفوظ، والصحيح أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة وهو المذكور في قوله: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٣-١٦] ويدل علىٰ أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة قوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ فهذا يدل علىٰ أنه بأيديهم يمسونه وهذا هو الصحيح في معنىٰ الآية، ومن المفسرين من قال: إن المراد به أن المصحف لا يمسه

(١) تهذيب اللغة (٣/ ٣٧٤).

إلا طاهر والثاني أرجح[١].

وهذه الآية اختلف فيها، فمن المفسرين من يقول أن هذه الصحف يعني القرآن لأنه لا ينتفع به، ولا يؤمن به إلا من سبقت له الحسنىٰ من الله ﷻ فيكون من البررة ومن أهل الخير والإسفار في الهدىٰ.

وظاهر لمن تأمل هذه الآيات أن الكلام كله في القرآن، فعلىٰ هذا قوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ إما أن يقصد به أنه لا ينتفع به ويستفيد من علمه إلا من تطهر قلبه بالإيمان والهدىٰ وسبقت له من الله ﷻ سعادة، أو يُقصد به أنه لا يجوز أن يناله إلا من تطهر من الأحداث، وكلا القولين قال بهما جماعة من العلماء، والراجح القول الثاني وعليه جمهور العلماء.

قوله: «﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾»: هذا رد لما قاله الكفار، ومعلوم أن النزول يكون من أعلىٰ إلىٰ أسفل، فهو دليل علىٰ علو الله ﷻ والأدلة علىٰ هذا كثيرة جدًا.

وقوله: «﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ﴾»: الإدهان يكون ممن هو ضعيف، وليس عنده قوة وكان مقابله قويًا، والمؤمن لا يجوز له أن يكون كذلك فيجب أن يكون قويًا بالله ﷻ، وبإيمانه معتزًا بذلك فيكون صادعًا بالحق قائلًا به، مبتعدًا عن الإدهان لأنه هو مخاشاة العدو ومجاراته والإغضاء عنه في بعض ما يريد، فهذا إنكار لمن يقع له مثل هذا.

وقوله: «﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾»: هذا هو الشاهد من الآيات، يعني تجعلون حظكم من هذا الحديث الكريم الذي هو تنزيل من رب العالمين الكذب به والكفر به، هذا علىٰ القول بأن الكتاب المكنون هو القرآن.

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (١/ ١٤٠).

ويجوز أن يكون هذا استئناف، يعني تجعلون ما نزل عليكم من الرحمة والنعمة والخير من السماء تجعلون شكركم تكذيبًا، وكفرًا بحيث أنكم تنسبون ذلك إلىٰ مخلوق مدبر مسخر حيث تقولون أن هذا نزل بسبب نوء كذا أو جاءنا المطر بنوء كذا، وهذا الذي أراد المؤلف رحمه الله، وعليه يدل حديث زيد بن خالد، ويجوز أن يقصد المعنيين وكلام الله جل وعلا له معان كثيرة.

فإذا كان حظ الإنسان من النعمة الكبرىٰ التي هي أعظم من نزول المطر وهي إرسال الرسول الكريم وإنزال الكتاب وكان حظه من هذا التكذيب والإعراض فهذا قد تمت خسارته، وظهرت شقاوته، ويكون أعظم ممن نسب السقيا إلىٰ الكوكب.

وبهذا تظهر المناسبة للباب في قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ .. أن هذا مخالف لوجوب شكر الله جل وعلا وعبادته، وهذا من الشرك فإذا كان الذي يضيف إلىٰ النجم يعتقد له فيه تصرفًا فهو من الشرك الأكبر الذي إن مات صاحبه عليه فهو في النار.

أما إن كان جرىٰ علىٰ لسانه أو علىٰ العادة أو أنه يقول مطرنا في هذا الوقت في نوء كذا وكذا، فهذا من شرك الألفاظ الذي يجب علىٰ العبد أن ينزه لسانه منها ويستغفر إذا وقع منه شيء من ذلك لأن إضافة النعم إلىٰ غير موليها ومسديها هو من كفر النعمة، وهكذا يقال في جميع التصرفات، وفي جميع ما يقع للناس من نسبة الأشياء إلىٰ أسبابها أو بعضها أن تضاف إلىٰ الرب الكريم المدبر المسخر لكل شيء، ويشكر علىٰ النعم ويُستغفر مما يكون فيه شيء من المصائب لأن المصائب لا تقع إلا عقابًا بسبب الذنوب، وهي من الله خير وفضل.

قال المؤلف رحمه الله: فيه مسائل:

الأولى: ذكر الأربع التي من أمر الجاهلية.

وهي التفاخر بالأحساب، والطعن في النسب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة علىٰ الميت، وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنها تبقىٰ في هذه الأمة لا يتركونها يعني أنها توجد

في بعضهم، وإذا جاء ذكر الأمة في الأحاديث مثل هذا الحديث ومثل قوله: «**ثلاث في أمتي هن به كفر ...**» الحديث، وقوله: «**ستفترق هذه الأمة ...**» المقصود بالأمة أمة الإجابة كما سبق.

الثانية: قوله: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر» بسبب نزول النعمة.

يعني أن النعمة قد تكون سببًا للكفر، وتكون سببًا للإيمان والإنعام والخير، وهكذا كل ما جدد الله للعباد نعمة من نعمه، فإن الناس يتفاوتون فيها فمنهم من يزداد بها إيمانًا وقربًا من الله ﷻ، ومنهم بالعكس، ولكن قصده هنا أن نزول النعمة قد تكون سببًا للبعد عن الله والكفر به.

الثالثة: التفطن للإيمان في هذا الموضع.

يقصد به العمل سواءً قولًا أو فعلًا، مثل قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥]، وهذا من القول الذي تتأثر به الجوارح لأنه إذا تأثر القلب تأثرت الجوارح، وكذلك ذكر بعض الأعمال تكون إيمانًا: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [غافر: ٧].

فالإيمان المقصود به العمل لأنهم الذين يحفون بالعرش فهم أقرب الخلق إلى الله ﷻ، وبعد هذا بآية قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ [غافر: ١٠]، ثم قال: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ [غافر: ١٢]، المقصود بهذا كله العمل عمل القلوب والجوارح، وأنكم تفرحون بهذا وتطمئنون به وتتبعوا ذلك، يعني الشرك.

فالإيمان يذكر كثيرًا ويقصد به العمل، وبهذا يرد على المرجئة الذين يقولون أن الإيمان عقيدة، فقط. والإيمان هو إضافة النعمة إلى موليها ومسديها.

الرابعة: التفطن للكفر في هذا الموضع.

يعني إضافة النعمة إلى غير ذلك، والكفر إضافة النعمة إلى مخلوق ليس له فيها أيُّ دخل وأيُّ صلة، فيكون هذا دليل على أن العمل يكون كفرًا، كما أن العمل يكون إيمانًا وهو أمر واضح.

الخامسة: التفطن لقوله: «لقد صدق نوء كذا وكذا».

يعني: أن قولهم صدق نوء كذا وكذا، لا يقصدون به أن النوء أنزل المطر، أو أن له تأثيرًا بذلك، وإنما مجرد إضافة؛ يعني: أن المطر نزل عند طلوعه أو عند غروبه، وعلى هذا يقولون هذا نوء محمود، وهذا نوء منحوس، فيضيفون الخير إليها أو الشر، فيكون هذا الكفر بإضافة نعمة الله التي يجب أن يشكر عليها ويحمد، فأضافوها إلى مخلوق ليس له فيها أيُّ تصرف، وهكذا يجب على العبد إذا أنعم الله عليه نعمة على يد أحد من الخلق أن يعلم أن هذه من الله وليست من المخلوق، وإذا منع شيئًا يطلبه من مخلوق أن يعلم أن هذا مُقدر من الله، فالله هو المانع، والله هو المعطي وهو الضار وهو النافع ولكن لا يدعوه ذلك إلى أن يغمط الناس حقوقهم.

فمن حصل له خير على يد مخلوق فعليه أن يكافئه كما جاء في الحديث: «**من لا يشكر الناس لا يشكر الله**»(١)، وقوله: «**ومن صنع إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئوا به فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه**»(٢)، هذا حتى لا يكون القلب متعلقًا بمخلوق، يجب أن يكون قلب العبد سليمًا لله ﷻ، فيكون عبدًا لله

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم (١١٧٠٣)، والترمذي رقم (١٩٥٤).

(٢) أخرجه في المسند رقم (٦١٠٦)، وأبو داود رقم (١٦٧٢)، والنسائي رقم (٢٥٦٧) من حديث ابن عمر.

حقًا، ولا تتوازعه أمور الدنيا، أو العباد، فإذا أُنعم عليه على يد إنسان ينبغي له أن يكافئه حتى يتخلَّص قلبه لله ﷻ لأنه من الأمور المسلمة أن القلب يملكه الإنعام.

۞ **السادسة: إخراج العالم للمتعلم المسألة بالاستفهام عنها، لقوله: «أتدرون ماذا قال ربكم؟».**

وهذا يقع كثيرًا منه ﷺ وهو من أبلغ التعليم.

الباب الواحد والثلاثون

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **باب قول الله تعالىٰ:** ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

مقصود المؤلف بالترجمة بهذه الآية أن يبين أن الحب هو أصل التعبد، وأنه يجب أن يكون خالصًا لله ﷻ، وأن المشركين الذين أخبر الله ﷻ عنهم أنهم في النار، شركهم في المحبة وليس في التدبير والخلق والتصرف.

❁ **وقول الله تعالى:** ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

قوله: «﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾»: الناس من الألفاظ العامة التي تشمل النوع كله ذكورًا أو إناثًا صغارًا وكبارًا، ولهذا جاء في قواعد التفسير عند المفسرين التي فيها التمييز بين الآيات يقول: إذا جاء الخطاب بصيغة النداء «بالناس» يدل هذا علىٰ أن السورة مكية في الغالب لأنه خطاب للكفار والناس عمومًا بخلاف الخطاب بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فإنه يوجه لمن اتبع وآمن وغالبًا يدل هذا علىٰ أن نزول الآية بعد ما صار لرسول الله ﷺ أتباع وقوة ومؤمنون به يمتثلون أمره ويجاهدون في سبيل الله، ولكن هذا في الغالب يعني لا يلزم أن يكون هذا في كل آية.

وهذه السورة مدنية وهي أول ما نزل في المدينة، وهي أعظم سورة في القرآن من ناحية كثرة الأحكام، وطول الآيات، ولهذا كان الصحابة لما كانت الكرَّة عليهم

في غزوة هوازن، صاروا يتنادون: يا أصحاب سورة البقرة[(١)].

قوله: «﴿مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾»: إذا جاءت ﴿مَن﴾ فالمقصود بها «مع» هذا الغالب يعني مع الله أو غير الله، وكل هذا شرك.

قوله: «﴿أَندَادًا﴾»: الند هو: المثل والنظير ولو بصفة من الصفات، فلا يلزم أن تكون الأنداد مساوية لله ﷻ في كل شيء أو في أكثر الأشياء، يعني أنه إذا أعطي مخلوقًا صفة من صفات الله ﷻ فإنه يكون قد أشرك به، واتخذ ندًا، ولهذا نقول أن الشرك يقع في العبادة ويقع في العقيدة ويقع في الأسماء والصفات، فالذي يقول مثلًا إن فعل الله كفعل المخلوق يكون شركًا أشرك مع الله، بأن جعل له ندًا، والذي يقول مثلًا سمع الله كسمع المخلوق يكون مشركًا؛ لأنه جعل له ندًا في هذا، وهكذا في جميع ما هو من خصائص الله ﷻ، يجب أن يعتقد المؤمن توحد الله بها وتفرده بها وحده ﷻ.

ولهذا لما قال الرجل لرسول الله ﷺ: ما شاء الله وشئت قال: «**جعلتني لله ندًا، بل ما شاء الله وحده**»[(٢)]، حيث شرَّك مشيئته مع مشيئة الله ﷻ بالواو قال: «**ما شاء الله وشئت**» لأن الواو تقتضي الجمع، والجمع يدل على المساواة ولو من بعيد، فنهى عن ذلك وأخبر أن هذا تنديد، وكذلك جاء في تفسير ابن عباس وغيره من الصحابة في قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢] قال: الأنداد هو الشرك، أخفى من دبيب النمل على صَفَاة سوداء في ظلمة الليل، وهو أن يقول:

---

(١) الطبراني في الأوسط رقم (٢٧٥٨) عن أنس بن مالك قال: «لما كان يوم حنين انهزم الناس عن النبي ﷺ إلا العباس بن عبد المطلب، وأبو سفيان بن الحارث وأمر النبي ﷺ أن ينادي يا أصحاب سورة البقرة يا معشر الأنصار، ثم استحر النداء في بني الحارث بن الخزرج فلما سمعوا النداء أقبلوا، فوالله ما شبهتهم إلا بالإبل تحن إلى أولادها، فلما التقوا التحم القتال فقال رسول الله ﷺ: **الآن حمي الوطيس وأخذ كفًا من حصى فرمى به وقال: هُزموا ورب الكعبة، وكان علي بن أبي طالب من أشد الناس قتالًا يومئذ**».

(٢) الطبراني في الكبير رقم (١٣٠٠٥)، الأدب المفرد رقم (٧٨٣) من حديث ابن عباس.

والله وحياتك يا فلان، وحياتي، ويقول: لولا كلبة هذا لأتانا اللصوص، ولولا البطّ في الدار لأتىٰ اللصوص، وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئتَ، وقول الرجل: لولا الله وفلان. لا تجعل فيها «فلانًا». هذا كله به شرك[1]. يعني إذا جعل الفعل الذي حصل له أو الأمر الذي حصل له بسبب شيء، مضافًا إلىٰ ذلك الشيء، يكون هذا من التنديد، فدل علىٰ أن الند يكون في شيء من الأشياء التي هي من خصوصيات الله ﷻ، إما من حقوقه أو من صفاته أو من أفعاله تعالىٰ وتقدس، فيجب أن يخلص في هذه الأشياء، يعني أن يكون التوحيد لله ﷻ في أوصافه وأسمائه، ويكون أيضًا في أفعاله التي يختص بها، كما يكون أيضًا في حقه الذي أوجبه علىٰ عباده فينفرد في هذه الأمور، أما إذا حصل اشتراك فيها ولو بوجه من الوجوه فإنه يحصل التنديد، والتنديد قد يكون كبيرًا يوجب النار، بل يوجب الخلود فيها إذا مات عليه الإنسان وقد يكون موجبًا للعذاب إذا كان من الشرك الأصغر ومات عليه بدون توبة علىٰ قول بعض العلماء، ولا يحصل التوحيد والإخلاص إلا بإخلاص هذه الأمور لله ﷻ وحده، وهذا يدلنا علىٰ أن التنديد عام، ولكن في هذه الآية خاص بالمحبة.

والمؤلف رحمه الله أراد بالترجمة بهذه الآية أن يبين أن حب الله يجب أن يكون خالصًا له، ولا يجوز أن يكون أحدًا من الخلق مشتركًا مع الله ﷻ في شيء من هذا الحب، ولهذا قال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾؛ يعني: في المحبة؛ يعني: أنهم يحبون من اتخذوهم أندادًا مثل محبتهم لله ﷻ، فسووهم في المحبة وهذا من أعظم الشرك، ومن أكثره أيضًا في الناس، ولهذا ذكر ذلك لأنه منافٍ للتوحيد، ولا يحصل العبد علىٰ الأمن من العذاب إلا إذا أخلص الحب لله ﷻ غير أن الحب يكون عامًا ويكون خاصًا، فالعلماء قسموا المحبة إلىٰ قسمين:

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ١٩٦).

القسم الأول: محبة عبودية وذل وخضوع وتعظيم، وهذا هو حب التأله فيجب أن يكون لله وحده، وإذا جعل منه شيء للمخلوق، يعني يحبه حب ذل وتعظيم يكون عابدًا له، ويكون مشركًا في ذلك الشرك الأكبر الذي إذا مات عليه العبد يكون خالدًا في النار -نسأل الله العافية- وهذا القسم يسمونه محبة خاصة، ولكن تسميته محبة عبودية وذل وخضوع وتعظيم أوضح وأحسن من أن نقول محبة خاصة.

القسم الثاني: عام مشترك، فهو أقسام منه حب الحنو والرحمة كحب الوالد لولده الصغير مثلًا، ومنه حب الألفة والمصاحبة كحب الزميل لزميله، فالإنسان إذا ألف شيئًا وتردد معه يكون له نوع حب، فالأخ يحب أخاه، والمسافر إذا سافر مع إنسان من نوعه وجنسه يصير بينهم محبة، وكذلك الصناعة مثل صانع يشترك في صنعة مع إنسان وعامل وهذا كثير جدًا وما أشبه ذلك، وهذا حب طبيعي لا ضير علىٰ العبد فيه، ولهذا يوجد هذا في الحيوانات تجد مثلًا إذا عُزل بعضها عن بعض تصيح وتحنَّ إلىٰ الألف الذي كان بينها، فهذا دليل علىٰ أنه أمر طبيعي، طبعت عليه المخلوقات، ولكن لا يجوز أن يتمادىٰ حتىٰ يكون فيه ذل وتعظيم، فإذا وصلت إلىٰ هذا الحد فقد وصلت إلىٰ العبودية.

وفي قوله تعالىٰ: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] هذا ذل التواضع، وهذا من صفات المؤمنين كونهم يخضعون جناح الذل لبعضهم.

أو يكون حب حاجة بدنية يحتاجه في بدنه كحب الأكل والشرب ويدخل فيه حب الاتصال بالزوجة، وما أشبه ذلك، فكل الشهوات دخل في هذا، ولكن يجب أن يكون هذا بقدر الحاجة ولا يزيد علىٰ ذلك، فإن تعلق به من الحب القدر الزائد فقد يكون عبادة كما قال ﷺ في الحديث الذي في البخاري: «**تعس عبد الدينار والدرهم، والقطيفة والخميصة، إن أعطي رضي، وإن لم يعط لم يرض**»[1]، فجعله

(١) رواه البخاري رقم (٦٤٣٥).

عبدًا لهذه الأشياء التي يستعملها، إما ذهب أو فضة أو لباس أو فراش، فدل على أن العبد إذا كان يعمل لأجلها أنها تتعبد قلبه، ولهذا يجب أن تكون هذه الأشياء حبها بقدر الحاجة، الشيء الذي يحتاجه ولا يتعلق قلبه بها أكثر من ذلك، أما إذا شغلته عن عبادة الله أو منعته عن العبادة فإنه يؤاخذ على هذا، ويعاقب عليه وربما صار عابدًا لها.

وكذلك محبة التقدير مثل محبة الولد لوالده، ومثل محبة التلميذ لمعلمه وإذا كان ذلك من أجل العلم ومن أجل الانتفاع فهذا محمود، فهذا يثاب عليه، وأما إن كان عادة فالعادة لا تكون عبادة، بل تكون من أفعال البهائم.

فالمقصود أن هذه الأنواع لا تدخل في الآية، وإنما الذي يدخل فيها محبة العبودية التي تتضمن الذل والتعظيم.

فالحب الذي يكون فيه الخوف والرجاء والتعظيم والتذلل فإنه يجب أن يخلص لله ﷻ، فهذا هو أصل العبودية أصل عبادة الله ﷻ، وهو معنى التأله، فمعنى الإله هو المحبوب المعبود، قوله: لا إله إلا الله، يعني لا معبود بالحب الذي فيه الذل والخضوع إلا الله ﷻ، ولهذا جاء في تفسير قوله فيما ذكره الله ﷻ عن قول الكفار بعضهم لبعض حينما يخاطبون معبوداتهم التي يحبونها وهم في النار: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨]، أن التسوية هي في هذا الحب وليست التسوية لهم في الخلق والتدبير والتصرف[١]، إذ لا يعلم أن أحدًا من الناس جعل مع الله خالقًا متصرفًا إلا في أمور معنوية أو أمور ثانوية جاءت ربما

(١) مدارج السالكين (٣/ ٢١) قال ﷺ: وهذه التسوية المذكورة في قوله تعالى حكاية عنهم وهم في النار يقولون لآلهتهم وأندادهم وهي محضرة معهم في العذاب تالله إن كنا لفي ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين، ومعلوم أنهم لم يسووهم برب العالمين في الخلق والربوبية وإنما سووهم به في المحبة والتعظيم.

غير مقصودة مثل ما يقع من أهل البدع مثل الجهمية والمعتزلة، وهم لا ينفكون عن الشرك لأنهم جعلوا المخلوق مساويًا لله ﷻ في بعض الأمور كما هو معروف في كتبهم وفي ردود العلماء عليهم.

فمثلًا حينما يقولون أن الإنسان يخلق أفعاله، فهذا شرك في الربوبية وليس شركًا في المحبة، حيث جعلوا الإنسان مشاركًا لله في الخلق، وحينما يقولون أن العبد حر يفعل بمشيئته وإرادته ما يريد ويشاء ولا دخل لمشيئة الله ﷻ في ذلك، فهو إذا أراد أن يؤمن آمن، وإذا أراد أن يكفر كفر، فهذا أيضًا شرك في الخلق والتدبير وصفات الله ﷻ حيث جعلوا المخلوقين مساويين في ذلك، بل جعلوا المخلوق يفعل الشيء الذي لا يفعله الله ﷻ، أو لا يقدر عليه -تعالىٰ الله وتقدس- وكذلك في غير هذين الأمرين، وهم أيضًا ينكرون هذا الشيء يعني المحبة التي هي محبة التأله ويتبعهم في ذلك الأشاعرة، وهذا عجيب لأن هذا هو أصل الدين الإسلامي كيف ينكر، فإذا كان الإنسان ليس عنده حب التأله فهو ليس عنده إسلام أصلًا، ومبدأ الإسلام والدخول فيه، قول العبد: لا إله إلا الله.

وقد عرفنا أن المقصود ما تضمنته هذه الكلمة مع القول، فهم ينكرون أن تكون المحبة واقعة من الجانبين من الرب ﷻ ومن العبد لله ﷻ، ويفسرونها تفسيرات باطلة كالأشاعرة مثلًا فإنهم ينكرون أن يكون العبد يحب الله؛ لأنهم يقولون المحبة لا تكون إلا بين متجانسين ومتوافقين، ولا توافق وتجانس بين الرب وبين العبد، وهذا لأنهم ابتعدوا عن كتاب الله ﷻ وصاروا يأخذون دينهم من قواعد المتكلمين التي يسمونها براهين وهي في الواقع شكوك وضلالات.

فيكف ينكر أن يكون الرب ﷻ يحب معناه أنه ما عرف الإسلام أصلًا؛ لأن مبنىٰ الدين الإسلامي علىٰ محبة الله ﷻ محبة الذل والتعظيم والخضوع والتأله، فالإله هو المألوه الذي تألهه القلوب حبًا وخوفًا ورجاء، أما محبة الله لعبده فهي

صفة تليق بجلاله، ولا يجوز أن نأولها، بأن نقول: هي محبة الطاعة، أو الإثابة. والمتكلمون يفسرونها بهذا أو بهذا، إما أن يفسرونها بمخلوق، أو يفسرونها بأمر آخر من الأمور التي تتعلق بالله ﷻ مثل طاعته وامتثال أمره، فهم إما أن يفسروها بالثواب، والثواب مخلوق، أو يفسروها بامتثال الأمر وهذا تجده كثيرًا جدًا في شروح الحديث الذي يتولاها هؤلاء مثل النووي ؒ وابن بطال وكثير من العلماء لأنهم أخذوا دينهم عمن يثقون به وألفوا هذا من الصغر فاستبعدوا أن يكون هؤلاء الذين تلقوا منهم دينهم أنهم خالفوا كتاب الله ﷻ، واجتهدوا أن يوفقوا كلامهم مع كلام الله ﷻ وقول رسوله ﷺ وكثيرًا لا يتفق لهم ذلك، وهم مجتهدون في طلب الحق، وليس قصدهم مخالفة الله ولا مخالفة رسوله ﷺ، ولذلك يكونون معذورِين ولهم أجرُ الاجتهاد، وليس كل مجتهد مصيب، ولكن إذا اجتهد عفي عن خطئه وله أجر الاجتهاد كما في حديث النبي ﷺ.

فإذًا الحب الذي يقصده المؤلف في الآية ويكون من التوحيد هو حب التأله، الذي يتضمن الذل والتعظيم، ومن لوازم ذلك طاعة الأمر واجتناب النهي، ولهذا قال سبحانه: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [آل عمران: ٣١] فبين أن دليل المحبةِ هو اتباع الأمر وطاعته، أما أن يدعي الحب وهو مخالف لأمره فهذا كذب، وجاءت الآثار بأن هذه الآية: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ تسمى آية المحنة[1]، لأن قومًا قالوا: إنا نحب ربنا حبًا شديدًا فأنزل هذه الآية: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾ الآية؛ يعني: إن كنتم تحبون الله صادقين فاتبعوا

(١) مدارج السالكين (٣/ ٢١) قال ؒ: وهي تسمى آية المحنة، قال أبو سليمان الداراني: لما ادعت القلوب محبة الله أنزل الله لها محنة: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ قال بعض السلف: ادعى قوم محبة الله فأنزل الله آية المحنة: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾، وقال: يحببكم الله إشارة إلى دليل المحبة وثمرتها وفائدتها فدليلها وعلامتها اتباع الرسول وفائدتها وثمرتها محبة المرسل لكم فما لم تحصل المتابعة فليست محبتكم له حاصلة ومحبته لكم منتفية.

أمر الرسول ﷺ، فهذا هو الدليل على صدق القول، أما إذا كان مجرد دعوى، فالدعوى لا تقبل إلا بدليل، والحب في الواقع هو أصل الدين الإسلامي لأن أصل الدين شهادة أن لا إله إلا الله، والإله هو المألوه الذي تألهه القلوب حبًا وخوفًا ورجاءً وتعظيمًا.

قوله: «﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾»: الكاف هنا للتشبيه، جعلوا حبهم مساويًا لحب الله ﷻ، ثم لا يلزم التسوية، المهم أنهم إذا جعلوا لهم حبًا من الحب الذي يجب أن يخلص له ﷻ حب التأله والتذلل والتعظيم فإنهم يكونون واقعين في الشرك.

والمفسرون لهم تقديران في هذا التشبيه:

منهم من يقول: يحبون أندادهم كما يحب المؤمنون الله.

التقدير الثاني: يحبون أندادهم كما يحبون الله، فهم ساووا محبتهم لأندادهم بحبهم لله، فدل على أنهم يحبون الله حبًا شديدًا ولكنهم لم يخلصوا هذا الحب فوقعوا في الشرك.

بخلاف المؤمنين فإنهم أخلصوا حبهم لله فصاروا أشد حبًا منهم لله، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ وهذا هو الصواب، وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀[1].

---

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٣٥٧) قال ﵀: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ وفيه قولان: أحدهما: يحبونهم كحب المؤمنين لله. والثاني: يحبونهم كما يحبون الله لأنه قد قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ فلم يمكن أن يقال: إن المشركين يعبدون آلهتهم كما يعبد الموحدون الله بل كما يحبون هم الله، فإنهم يعدلون آلهتهم برب العالمين كما قال: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]، وقال: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨].
وقد قال بعض من نصر القول الأول في الجواب عن حجة القول الثاني: قال المفسرون: قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ أي: أشد حبًا لله من المشركين لآلهتهم فيقال له ما قاله هؤلاء المفسرون =

وبقية الآية وهي مبنية على هذا ففيها الخلاف في مثل الخلاف في قوله: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾، وإذا عرف أن الصحيح هو القول الثاني، يتبين أيضًا معنى آخر الآية.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **وقول الله تعالى**: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤].

هذه ثمانية أشياء ذكرها الله ﷻ تشمل أمور الدنيا كلها، فإذا كانت الدنيا أحب إليكم من أمر الله، وما جاء به الرسول ﷺ فأنتم فسَّاق انتظروا ماذا يحل بكم لفسقكم وخروجكم عن طاعة الله ﷻ وطاعة رسوله ﷺ من العمل الصالح ومن الجهاد في سبيله.

قوله: «﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ ﴾»: هذه أعظم ما في الدنيا مما يتعلق به الإنسان، الآباء والأبناء وكذلك الإخوان والأزواج والقبائل والقوم، والبلد ومن له صلة بهم من الناس، وكل ذلك يدخل في قوله: «﴿وَعَشِيرَتُكُمْ﴾».

والأموال بعد هذا «﴿وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا ﴾»؛ يعني: اكتسبتموها وحصلتموها واستوليتم عليها وصرتم تتصرفون فيها.

وقوله: «﴿وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾»: من تجارة الدنيا تنتظرون ربحها، وتخافون﴿ كَسَادَهَا ﴾؛ يعني: ألا تربح.

= مناقض لقولك، فإنك تقول: إنهم يحبون الأنداد كحب المؤمنين لله، وهذا يناقض أن يكون المؤمنون أشد حبًا لله من المشركين لأربابهم، فتبين ضعف هذا القول وثبت أن المؤمنين يحبون الله أكثر من محبة المشركين لله ولآلهتهم، لأن أولئك أشركوا في المحبة والمؤمنون أخلصوها كلها لله.

قوله: «﴿وَمَسَٰكِنُ﴾»: من الدنيا «﴿تَرۡضَوۡنَهَآ ﴾» علىٰ أهوائكم وما تحبونه، فماذا بقي بعد هذا من أمور الدنيا، هذه هي الدنيا كلها، إن كانت هذه الأشياء أحب إلىٰ الإنسان من طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ وجهاد في سبيل الله ﷻ «﴿فَتَرَبَّصُواْ ﴾»؛ يعني: فلينتظر ماذا يحل به «﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ﴾» الذي سيأتيه يعني عقابه «﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾» فختمها بأن من كانت هذه صفته فهو فاسق، والفاسق هو الخارج عن الطاعة، وكذلك إذا كان ما يهديه الله فهذا أيضًا من العقاب الشديد وهو عدم الهداية لأن الإنسان لا يمكن أن يهتدي بنفسه، إن لم يهديه الله فلا هادي له، لا من نفسه ولا من غيره من الخلق، فلا يجوز أن تكون هذه الأشياء إذا اعترضت للإنسان أن تقدم علىٰ محبة الله، وتكون مانعة من المُضي في هذا السبيل في امتثال أمر الله ﷻ، وتقديم أمره علىٰ هذه الأشياء، وإلا يكون الإنسان معرضًا لعقاب الله ﷻ، ويدل علىٰ أنه فاسق، وأنه ما قام بالتوحيد الواجب عليه، ومعلوم أن أكثر الناس بهذه الصفة فلو طلب منهم مثلًا تقديم طاعة الله ورسوله والجهاد في سبيله علىٰ محبة هذه الأشياء فأكثرهم لن يفعل، ولكن إذا لم يقع الطلب منهم وعوفوا فهم من المؤمنين في الظاهر وقد ستر الله عليهم، أما إذا جاءت المحنة وجاءت الفتن فيجوز أنهم يخرجوا من الدين الإسلامي أو كثيرون منهم -نسأل الله العافية-، ولهذا إذا جاءت المحن والبلايا التي يُبتلىٰ بها الناس يظهر النفاق والكفر في كثير من الناس وتجد الذي يستقيم علىٰ الحق قليلًا وقد يكون محاربًا وهذا لا يضر.

فالمقصود أن العبد يجب أن يكون تمسكه واستدلاله بكلام الله ﷻ وكلام رسوله ﷺ لا بكلام الناس، وكلام الله ﷻ إذا تأمله العبد فإذا هو ظاهر لا خفاء فيه وكلما ردده يزيد ظهورًا وجلاءً فإذا مثلًا مررت بآية ولم تفهمها ترددها ثم ترددها ولكن مع التأمل فلا بد أن يظهر لك المعنىٰ، فهذا أمر مجرب، فالآية تدل علىٰ

وجوب تقديم محبة الله ومحبة رسوله ﷺ ومحبة طاعته وطاعة رسوله علىٰ أمور الدنيا كلها، وأن من لم يكن كذلك فهو فاسق، وهو متوعد بالعذاب.

والحب في هذه الآية وفي الآية التي قبلها هو حب القلب الحب الحقيقي، وليس كما يقول بعض الجهمية أنه الحب العقلي، يعني أنك إذا نظرت في عقلك وإذا العاقبة في طاعة الله وطاعة رسوله أحمد وأولىٰ، فعقلك يدعو إلىٰ أن تقدم ذلك، يعني تقدم طاعة الله وطاعة رسوله علىٰ آثار الدنيا وأمورها لأنهم ينكرون الحب الحقيقي ويقولون إن الحب هو الميل إلىٰ الملائم، والميل إلىٰ الملائم يجب أن يكون منزه عنه الله ﷻ لأن هذا يدل علىٰ الحاجة، هكذا يزعمون فينكرون صفات الله ﷻ علىٰ القياس الذي يقيسونه علىٰ أنفسهم يجعلون ذلك دليلًا؛ لأنهم لا يعرفون من الحب إلا ما يعرفون من أنفسهم فلهذا نفوه عن الله ﷻ، والغريب أنهم ينكرون أن الحب من الجانبين يعني ينكر أن يحب الله ﷻ وذلك أنهم يقولون أن الحب يكون بين متجانسين متوافقين فلا يجوز أن يكون بين خالق ومخلوق للفروق العظيمة فالله ليس كمثله شيء، فعلىٰ هذا فهم ينكرون التأله، ينكرون أصل الإسلام ومعنىٰ ذلك أيضًا أنهم لا يعرفون لا إله إلا الله، ولهذا لو نظرت في كتبهم من أولها إلىٰ آخرها ما تجد فيها شيئًا من ذلك، بل كثيرون منهم يقول الإله القادر علىٰ الاختراع، فيجعل الإله بمعنىٰ الرب يعني المتصرف وهذا ضلال بعيد.

✍ **قال المؤلف رحمه الله: وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتىٰ أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين» أخرجاه**[1].

هذا في محبة الرسول ﷺ، ومحبة الرسول ﷺ تابعةٌ لمحبة الله ﷻ، فمحبة الله ﷻ محبة تأله وذل وتعبد، وهذه المحبة تكون كاملة، وتكون ناقصة، فإذا أراد

(١) رواه البخاري رقم (١٥)، ومسلم رقم (٤٤).

العبد أن يكملها فلا بد أن يأتي علىٰ أصولها وفروعها، وفروع محبة الله ﷻ أن يحب ما يحبه الله ﷻ، ويبغض ما يبغضه الله ﷻ؛ لأنه لا يمكن اجتماع محبة ما يبغضه الله ﷻ مع محبة الله ﷻ فإن هذا ينافي هذا، فلا بد من موافقة المحب علىٰ ما يحب، توافقه في المحبة، وفي البغض والكراهة، فعل هذا تكون محبة الرسول ﷺ محبة لله وفي الله، وليست محبة مع الله لأن محبة المعية محبة مشاركة، والله ﷻ لا يشاركه في المحبة أحد من الخلق، فإذا كانت المحبة يقصد منها النفع والطلب بالخضوع والذل فإنها محبة شرك إذا كانت لمخلوق، أما إذا كانت المحبة ليست إلا لأن الله يحب هذا الشيء أو يأمرك بحبه أو لأنه مطيع لله ﷻ، فأنت تحب من يطيع ربك تكون هذه من فروع محبة الله ﷻ يعني مما يتفرع عليها.

قوله: «**لا يؤمن**»: هنا «لا» للنفي يعني لا يحصل الإيمان لأحد حتىٰ تكون محبة الرسول ﷺ مقدمة علىٰ محبة الخلق كلهم، حتىٰ محبة نفسه يعني نفس الإنسان كما في حديث عمر رضي الله عنه لما قال للنبي ﷺ: يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي. فقال النبي ﷺ: «**لا والذي نفسي بيده حتىٰ أكون أحب إليك من نفسك**»، فقال له عمر: فإنه الآن والله لأنت أحب إلي من نفسي. فقال النبي ﷺ: «**الآن يا عمر**»[(١)]، يعني الآن وصلت إلىٰ الواجب الذي يجب.

فالمنفي هنا الإيمان الذي تحصل به السلامة من العذاب، فإذا جاء نفي الشيء الواجب لأمر من الأمور التي لا يفعلها، فلا يمكن أن يكون نُفي من أجل أمر مستحب؛ لأن أمر الاستحباب لا ضابط له عند الناس، يعني في أفعالهم لا يمكن أن يكون أحدًا من الناس مثلًا يأتي بالأمور علىٰ ما كان يأتي بها رسول الله ﷺ وكل ما أحسن العبد من العمل الزائد فهو يكون مستحبًا، فلا بد أن يكون المنفي أمرًا

(١) سبق تخريجه.

واجبًا يُعاقب العبد بتركه، نقول هذا لأن كثيرًا من الشراح يقولون: «لا يؤمن» الإيمان المستحب، الإيمان الكامل، فإذا كان الكمال المقصود به كمال الاستحباب فهذا باطل لأن المستحب لا يُعاقب العبد بتركه، ثم كما يقول شيخ الإسلام رحمه الله: فمن قال أن المنفي هو الكمال فإن أراد أنه نفي الكمال الواجب الذي يذم تاركه ويتعرض للعقوبة فقد صدق، وإن أراد أنه نفي الكمال المستحب فهذا لم يقع قط في كلام الله ورسوله ولا يجوز أن يقع(١).

فلم يُعهد في كلام الله جل جلاله، وكلام رسوله ﷺ أنه ينفي شيئًا واجبًا لانتفاء أمر مستحب فهذا لا وجود له، وذلك أن المستحب لا حد له، ولا يمكن أن العبد مثلًا يأتي بأعمال البر كما أتىٰ بها رسول الله ﷺ بل لا يمكن أن يأتي بها كما أتىٰ بها الصحابة رضوان الله عليهم، فعلىٰ هذا الاستحباب بحسب ما يقوم في قلوب الناس فمنهم من يكون الإيمان عنده مثل الجبل، ومنهم من يكون ضعيفًا، والعمل تباعًا لذلك، ولهذا قالوا: ما فضلكم أبو بكر بكثرة صومٍ ولا صلاةٍ، ولكن بشيءٍ وقرَ في قلبه.

فالمقصود من «لا يؤمن» أن المنفي هو الواجب الذي إذا تركه العبد يكون معاقبًا علىٰ تركه يعني أنه لم يؤمن الإيمان الذي ينجيه من العذاب، الإيمان الذي كلف به، ووجب عليه، وهذا يجب أن يكون مطردًا في كل نص يأتي عن الله وعن

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٧/ ١٥) قال رحمه الله: فأما إذا كان الفعل مستحبًا في العبادة لم ينفها لانتفاء المستحب فإن هذا لو جاز لجاز أن ينفي عن جمهور المؤمنين اسم الإيمان والصلاة والزكاة والحج لأنه ما من عمل إلا وغيره أفضل منه وليس أحد يفعل أفعال البر مثل ما فعلها النبي، بل ولا أبو بكر ولا عمر، فلو كان من لم يأت بكمالها المستحب يجوز نفيها عنه لجاز أن ينفي عن جمهور المسلمين من الأولين والآخرين وهذا لا يقوله عاقل، فمن قال: أن المنفي هو الكمال فإن أراد أنه نفي الكمال الواجب الذي يذم تاركه ويتعرض للعقوبة فقد صدق وإن أراد أنه نفي الكمال المستحب فهذا لم يقع قط في كلام الله ورسوله ولا يجوز أن يقع فإن من فعل الواجب كما وجب عليه ولم ينتقص من واجبه شيئًا لم يجز أن يقال ما فعله لا حقيقة ولا مجازًا ...

رسوله، فإذا صح الحديث: «**لا صلاة بغير طهور**»(١)، فهل يمكن أن يقال أنه نفي أمرًا مستحبًا لا يمكن، ومثل حديث: «**ولا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه**»(٢)، إذا صح الحديث هذا معناه أنه واجب وهكذا، أما أنه يقال أنه المستحب الذي لا يأثم العبد بتركه، فهذا لا يتأتىٰ مع النفي الذي يُنفىٰ به الأصل؛ لأن الأصل لا يُنفىٰ لانتفاء مستحب، ويصح أن ينفي الشيء لانتفاء لوازمه أو انتفاء واجباته أو مقتضياته.

مع أن الظاهر نفي الإيمان جملة، أن العبد لا يوجد له إيمان حتىٰ يكون الرسول ﷺ أحب إليه من الدنيا، ومن نفسه، وهذا الحب كما عرفنا تابع لمحبة الله ﷻ وفرع عليها، فكيف بمحبة الله ﷻ التي هي محبة التأله لا تقاس بهذا لأن هذه محبة لله وفي الله، والمخلوق لا يمكن أن يُحب لذاته، إنما يُحب لما يتصف به، ولا يوجد شيء يُحب لذاته إلا الله ﷻ وحده، هو الذي يُحب لذاته، أما الخلق فهم يحبون لما يقوم بهم من الطاعات، ومن الصفات التي يتصفون بها، وإلا لا فرق بينهم، ولهذا يقول الله ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

وعلامة حب الله ﷻ امتثال أمره، واتباع رسوله ﷺ كما قال ﷻ: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [آل عمران: ٣١]، وهذه هي آية المحنة كما جاء في حديث أنس رضي الله عنه: أن أناسًا ادعوا أنهم يحبون ربهم حبًا شديدًا

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم (٢٠٧١٤)، وأبو داود رقم (٥٩) عن أبي المليح عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «**لا يقبل الله ﷻ صدقة من غلول ولا صلاة بغير طهور**»، قال ابن حجر في فتح الباري (٣/ ٢٧٨): وإسناده صحيح. وهو عند مسلم رقم (٢٢٤) من حديث ابن عمر ولفظه: «**لا تقبل صلاة بغير طهور ولا صدقة من غلول**».

(٢) أخرجه أحمد في المسند رقم (٩٤١٨)، وأبو داود رقم (١٠١)، وابن ماجه رقم (٣٩٩) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا صلاة لمن لا وضوء له، ولا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه**».

فأنزل الله ﷻ هذه الآية، امتحانًا واختبارًا لهم.

وذكر ابن القيم رحمه الله أن محبة الله لها أسباب منها:

قراءة القرآن بالتدبر والتفهم، فإنها جالبة لمحبة الله ﷻ بهذا الشرط بتدبر المعاني وتفهمها.

ومنها تأمل معاني أسماء الله ﷻ وصفاته، والتفقه فيها، ومنها استشعار القلب بنعم الله ﷻ وبفضله، فإن كل فضل من الله ﷻ، وأعظم ذلك تفضله على العبد بأن جعله مسلمًا. وكذلك كونه خلقه من لا شيء وجعل له السمع والبصر إلىٰ غير ذلك، فنعمه ﷻ كثيرة جدًا، فيستشعر القلب بهذا لأن النعم تدعوا إلىٰ المحبة.

ومنها انكسار القلب بين يدي الله ﷻ ويقول: إن هذه أعجبها.

ومنها الخلوة وقت النزول الإلهي، وتلاوة القرآن، ثم ختم ذلك بالاستغفار، كما ذكر ذلك الله ﷻ وذكره رسوله ﷺ.

ومنها مجالسة أهل المحبة الذين يُعينون علىٰ ذلك، ويدعون إليه.

ومنها مجانبة الأسباب التي تمنع المحبة وهي كثيرة مثل كثرة الكلام، وكثرة النوم، وكثرة الأكل، وكثرة مخالطة الناس، وكذلك كثرة النظر في الدنيا وتسريح الأنظار فيها والإعجاب بها وما أشبه ذلك.

منها التقرب إلىٰ الله بالنوافل بعد الفرائض.

ومنها دوام ذكره علىٰ كل حال باللسان والقلب والعمل والحال فنصيبه من المحبة علىٰ قدر هذا[1].

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ١٧) قال رحمه الله: فصل في الأسباب الجالبة للمحبة والموجبة لها وهي عشرة:
أحدها: قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به، كتدبر الكتاب الذي يحفظه العبد ويشرحه ليتفهم مراد صاحبه منه. =

قوله: «أحب»: أفعل تفضيل، يعني أن يكون حب الرسول ﷺ زائدًا علىٰ محبة هذه الأشياء كلها ومقدمًا عليها وفي ذلك النفس.

قوله: «من ولده ووالده»: ذكر الوالد والولد لأن الغالب أن هؤلاء من الأعيان، وهم من أعظم المحبوبين وهم من الأعيان الموجودين ويتبع ذلك غيرهم من الأعيان، وكذلك من المعاني.

وقوله: «والناس أجمعين»: هذا فيه عطف العام علىٰ الخاص، وهذا كثير جدًا، فقوله: «الناس أجمعين» يدخل فيه الولد والوالد وغيرهم.

= الثاني: التقرب إلىٰ الله بالنوافل بعد الفرائض فإنها توصله إلىٰ درجة المحبوبية بعد المحبة.
الثالث: دوام ذكره علىٰ كل حال باللسان والقلب والعمل والحال، فنصيبه من المحبة علىٰ قدر نصيبه من هذا الذكر.
الرابع: إيثار محابه علىٰ محابك عند غلبات الهوىٰ والتسنم إلىٰ محابه وإن صعب المرتقىٰ.
الخامس: مطالعة القلب لأسمائه وصفاته ومشاهدتها ومعرفتها وتقلبه في رياض هذه المعرفة ومباديها، فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله أحبه لا محالة، ولهذا كانت المعطلة والفرعونية والجهمية قطاع الطريق علىٰ القلوب بينها وبين الوصول إلىٰ المحبوب.
السادس: مشاهدة بره وإحسانه وآلائه ونعمه الباطنة والظاهرة فإنها داعية إلىٰ محبته.
السابع: وهو من أعجبها، انكسار القلب بكليته بين يدي الله تعالىٰ وليس في التعبير عن هذا المعنىٰ غير الأسماء والعبارات.
الثامن: الخلوة به وقت النزول الإلهي لمناجاته وتلاوة كلامه والوقوف بالقلب والتأدب بأدب العبودية بين يديه، ثم ختمُ ذلك بالاستغفار والتوبة.
التاسع: مجالسة المحبين الصادقين والتقاط أطايب ثمرات كلامهم كما ينتقىٰ أطايب الثمر ولا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام وعلمت أن فيه مزيدًا لحالك ومنفعة لغيرك.
العاشر: مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله ﷻ.
فمن هذه الأسباب العشرة وصل المحبون إلىٰ منازل المحبة ودخلوا علىٰ الحبيب وملاك ذلك كله أمران: ١- استعداد الروح لهذا الشأن. ٢- وانفتاح عين البصيرة وبالله التوفيق.

قال المؤلف رحمه الله: ولهما عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار»(١).

قوله: «لهما»؛ يعني: البخاري ومسلم رحمهما الله.

قوله: «عنه»؛ يعني: أنس بن مالك رضي الله عنه.

قوله: «ثلاث»: من المعروف في النحو وفي اللغة، أن النكرة لا يُبدأ بها إلا بشروط: أن تكون موصوفة أو تكون مقيدة. والوصف يقيدها.

وهنا «**ثلاث**» هذه نكرة ولكنها علىٰ نية الإضافة يعني: ثلاث خصال أو ثلاث خلال أو ثلاث معان، وما أشبه ذلك. فتكون موصوفة.

قوله: «من كنَّ»: هذه كان التامة التي لا تحتاج إلىٰ اسم ولا إلىٰ خبر؛ لأن كان الناقصة التي تدخل علىٰ المبتدأ والخبر فيكون الأول اسمها والثاني خبرها فلا بد لها من اسم وخبر، أما هذه التامة ومعناها وجُدن، ثلاث من وجدت فيه أو صرنا فيه.

وقوله: «وجد»: الوجود هنا يدل علىٰ أنه شيء يحس، وليس معنا من المعاني كما يقول أهل التأويلات الباطلة التي ينفون بها كلام رسول الله ﷺ وكلام الله جل وعلا، وذلك أن أصلهم في هذا نفي الصفات التي يتصف الله بها جل وعلا، التي يعرفونها هم من أنفسهم لأنهم تصوروا أن الصفات التي يوصف الله بها وهم يعرفونها من أنفسهم أن هذا تشبيه إذا أثبته لله صار الإنسان مشبهًا، ولهذا نفوا الحب لأنهم يقولون الحب هو الميل إلىٰ الملائم تميل إلىٰ ما يلائمك، ويناسبك وهذا يقتضي شيئين:

أحدهما: الحاجة.

---

(١) رواه البخاري رقم (١٦)، ومسلم رقم (٤٣).

الثاني: مماثلة الآخرين. وكلاهما لا يجوز أن يوصف الله ﷻ بهما، هذا هو تعليلهم، وهو اعتمادهم على النفي وهذا باطل، وهو ظاهر البطلان لمن تأمله وذلك لأنهم جعلوا أنفسهم الأصل في هذا وبنوا على هذا الأصل الفرع الذي هو اتصاف الله ﷻ بهذا فنفوها فهذا يدل:

أولًا: على أن التشبيه ارتسم في أذهانهم، ثم جاء التعطيل بناء على ذلك، تعطيل الله تعالى من صفاته.

والغريب أنهم نفوا عن الله ﷻ الحب وصفًا له، وكونه أيضًا يُحب، وهذا أعجب من الأول كونهم ينفون أن العبد يحب الله، فإذا جاءت النصوص في الأعمال التي يُحبها الله قالوا أنها الطاعة يعني أن الله يحب الطاعة، أما بالنسبة للمخلوق فهم يفسرونها بالإثابة أنه يثيبه، يُحبه يعني يثيبه، ويعطيه ما يريد، أما حب ذاتي فهذا لا يثبتونه لأنه عندهم يقتضي المشابهة والتشبيه، وكل هذا ضلال بيِّن ظاهر، والمعنى أن هذا نفي لأصل الإسلام فيكف يكون العبد مؤمنًا وهو لا يعرف هذا، وذلك أن أصل الإسلام هو التأله أن يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، ومعنى الإله هو المعبود، والعبادة هي الحب الذي يتضمن الذل والخضوع والتعظيم، فيُحبه خاضعًا ذالًّا معظمًا له، ولهذا صار خاصًا بالله ﷻ لا يجوز أن يكون لمخلوق من المخلوقين، فإن وجد بأن صُرف منه شيء للمخلوق فقد وقع في الشرك الأكبر، ولهذا يقول شيخ الإسلام ؒ أن المتكلمين لا ينفكون عن الشرك. يعني أن الشرك ملازم لهم ما داموا ملازمين لأقوالهم.

قوله: «حلاوة الإيمان»: يدل دلالة ظاهرة على أن الإنسان يحس هذه الأشياء، يعني أنه يجد للإيمان حلاوة حقيقية.

والإيمان شبه بالشجرة الطيبة التي يكون أصلها ثابت ولها فرع يتجه إلى السماء، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا

ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥]، وهذه الكلمة كما قال المفسرون هي كلمة الإخلاص: لا إله إلا الله. وسواءً قلت كلمة الإخلاص، أو قلت الإيمان لا فرق، وهذه الشجرة لها ثمر فلا بد أن يكون للإيمان ثمرة، والثمرة لها حلاوة، ولكن هذه الحلاوة قد يجدها العبد، وقد لا يجدها، فإن كان متحليًا بالإيمان الكامل وجد الحلاوة ولا بد، وأما إذا كان قلبه مشغولًا بأمور الدنيا وغيرها من محابها وملاذها فقد لا يجد هذه الحلاوة، ولا بد إذا كان الإيمان مستقرًا أن يجد شيئًا منه ولو في فترة من الفترات، أما الاستمرار في وجوده وهذا لا يكون إلا للكمّل من المؤمنين، والعبد يُحس بهذا كثيرًا، يجده في وقت من الأوقات عنده من المحبة لله ﷻ، ومن الرغبة في الطاعة الشيء الذي ليس عنده قبل هذا، وقد لا يكون فيما بعد يعني يخرج من هذا الشيء، فالمقصود أن هذا أمر محسوس.

أما تفسير بعض شراح الحديث بأن هذه الحلاوة حلاوة عقلية بمعنىٰ أنه يقدم في عقله طاعة الله علىٰ معصيته؛ لأنه يعرف بعقله أن ثمرة الطاعة الإثابة، والجزاء العظيم وترك الطاعة يترتب عليه العقاب، فهو مثل المريض الذي يقدم علىٰ الدواء وإن كان مكروهًا له، لما يعرف من عاقبته، وهذا تفسيرهم لهذا وهذا باطل، والرسول ﷺ يجب أن نعتقد عقيدة جازمة بأنه ﷺ أفصح الناس، وأبلغ الناس وأنصح الناس وأعلم الناس بالله ﷻ، فإذا عبَّر بشيء يجب أن نقبله، ولا نذهب نؤوله بالأمور التي تخرج المعاني الظاهرة التي يخاطب الرسول ﷺ بها الناس، ومعلوم أن هذا معروف في اللغة وهو خاطبهم بلغتهم التي يعرفونها، وأما أن نقول أنه أراد الأمور العقلية فهذا خروج عن مقتضىٰ الخطاب، والقرائن تدل علىٰ هذا.

فهذا الحديث يدل علىٰ أن الإيمان له حلاوة، وهي حلاوة حقيقية، ويدل علىٰ أنه ليس كل مؤمن يجد هذه الحلاوة وإنما يجدها من تحلىٰ واتصف بهذه الصفات

الثلاث وهي:

كون الله ﷻ ورسوله ﷺ أحب إليه مما سواهما، وقوله: «**سواهما**» يدخل فيه كل المخلوقات، وهذا لا يقتضي التسوية بين حب الله، وحب رسوله وإنما يدل علىٰ أن محبة الله محبة تأله، وأن هذه المحبة يكون لها توابع وفروع فكون أن الرسول ﷺ أحب الخلق إليك وهو أنقذك الله ﷻ به فضلًا من الله، فمحبة الرسول ﷺ تابعة لمحبة الله ﷻ، فالمحبة مع الله شرك.

فمحبة الله ﷻ، ومحبة رسوله ﷺ تكون مقدمة علىٰ جميع الأشياء مطلقًا، هذا إذا وصل الإنسان إلىٰ الإيمان الذي فيه الحلاوة، أما إذا كان عنده مجمل الإيمان فإنه لا يجد الحلاوة.

قوله: «**مما سواهما**»: وفي هذا إشكال أَوْرده الشرَّاح، وهو جمع الضمير ضمير الرسول ﷺ وضمير الله ﷻ «**سواهما**»، لأنه جاء في صحيح مسلم عن عدي بن حاتم رضي الله عنه: أن رجلًا خطب عند النبي ﷺ فقال: من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوىٰ. فقال رسول الله ﷺ: «**بئس الخطيب أنت قل ومن يعص الله ورسوله**»[1].

فأنكر عليه جمع الضميرين، وفي هذا الحديث وقع جمع الضميرين بين ضميره وضمير ربه ﷻ، أجاب العلماء عن هذا **بثلاثة أجوبة**:

أحدها: أن هذا الحديث لا يساوي الحديث الذي في مسلم حديث عدي، وليس لا يساويه في الصحة، لكن لا يساويه في المعنىٰ، لأن هذا في الشيء الواجب، ومحبة الله ﷻ داعية لمحبة الرسول ﷺ فهي فرع عليها.

---

(١) رواه مسلم رقم (٨٧٠).

يعني محبة الرسول ﷺ، أما المعصية فكل واحدة منهما مستقلة بالهلاك يعني معصية الله كافية في كون الإنسان هالك، ومعصية الرسول ﷺ كافية في كون الإنسان هالك، فالجمع بينهما في الضمير في مثل هذا لا لزوم له، وأنه يشعر أنه إذا وقعت المعصية، لأحدهما أن هذا لا يكفي وهذا باطل، وقد يكون هذا هو وجه الإنكار.

الجواب الثاني: قيل أن هذا من باب الأدب، يعني الإنكار عليه من باب الأدب تعظيمًا لله ﷻ يعني حديث الخطيب، وأن هذا الحديث يدل على الجواز.

الجواب الثالث: أن هذا على الأصل يعني أن الجمع على الأصل وما في حديث مسلم حديث الخطيب ناقل عنه فيجب أن يُصار إليه فلا يجمع بين ضميري الرب ﷻ والرسول ﷺ، لأن هذا يحتمل أن الرسول ﷺ قال هذا قبل ذاك، ومعروف نسخ الأحكام وتجدد الأوامر والنواهي، والعبد يأخذ مجموع هذه الأجوبة ويوازي بينها، والله أعلم(١).

---

(١) قال ابن حجر في فتح الباري (١/ ٦٢): ومن محاسن الأجوبة في الجمع بين حديث الباب وقصة الخطيب أن تثنية الضمير هنا للإيماء إلى أن المعتبر هو المجموع المركب من المحبتين لا كل واحدة منهما فإنها وحدها لاغية إذا لم ترتبط بالأخرى فمن يدعي حب الله مثلًا ولا يحب رسوله لا ينفعه ذلك ويشير إليه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، فأوقع متابعته مكتنفة بين قطري محبة العباد ومحبة الله تعالى للعباد، وأما أمر الخطيب بالإفراد فلأن كل واحد من العصيانين مستقل باستلزام الغواية إذ العطف في تقدير التكرير والأصل استقلال كل من المعطوفين في الحكم، ويشير إليه قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] فأعاد أطيعوا في الرسول ولم يعده في أولي الأمر لأنهم لا استقلال لهم في الطاعة كاستقلال الرسول انتهى ملخصًا من كلام البيضاوي والطيبي.

قال النووي في شرح مسلم (٦/ ١٥٩)-(١٦٠): والصواب أن سبب النهي أن الخطب شأنها البسط والإيضاح واجتناب الإشارات والرموز، ولهذا ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثًا ليفهم. وقال ﵀: وإنما ثنى الضمير ها هنا لأنه ليس خطبة وعظ وإنما هو تعليم حكم، فكلما قلَّ لفظه كان أقرب إلى حفظه بخلاف خطبة الوعظ فإنه ليس المراد حفظه وإنما يراد الاتعاظ بها، ومما يؤيد هذا ما ثبت في سنن أبي داود بإسناد صحيح عن ابن مسعود ﵁ قال: =

قوله: «وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله»: هذه هي الثانية، وهي أيضًا فرع عليها.

قوله: «المرء»: المرء يطلق علىٰ الرجل، والمرأة، والقريب، والبعيد.

قوله: «لا يحبه إلا لله»؛ يعني: أنك تحب الإنسان، لأجل منفعة وصلت إليك منه، أو مشاركة في أمر من الأمور، أو لأجل قرابة وما شابه ذلك من منافع الدنيا، ولا منافع البدن بالنصرة وغيرها، بل تحبه لأنه محب لله ﷻ، مطيعًا له، وعلامة هذا الحب أنه لا يزيد بالقرب والصلة، ولا ينقص بالبعد والجفاء لأنك تحبه لأمر ثابت وهو طاعته، يعني ما دام مطيعًا فالمحبة ثابتة، فالإنسان يبقىٰ علىٰ ما هو عليه إلا أن يقع ذلك المحبوب في معصية فإذا وقع في المعصية تغير ولا بد؛ لأنه حب لأجل طاعته لله ﷻ.

وفي مقابل هذا أنك تبغض ما يبغضه الله ﷻ، تبغض العاصي والكافر، يعني تبغض ما يبغضه الله ﷻ؛ لأن الذي يحب المحبوب لا بد أن يوافقه في حبه وفي بغضه وفي امتثال أمره، أما أن يدعي الإنسان أنه يحب الله وهو يرتكب معاصيه ويوالي أعداءه فهذا كذب وزور؛ لأن الدعوىٰ لا تجدي شيئًا، والدعوىٰ تصدقها الأفعال، فإذا كانت الأفعال بالعكس فهذا كذب.

الأمر الثالث قوله: «وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف في النار».

هو كراهة ما يكره الله، وتبغض ما يبغضه ﷻ، مثل كراهتك أن تلقىٰ في النار، يعني هذا أعظم العذاب الذي ينال البدن، فيكون مبغضًا لمعاصي الله ﷻ علىٰ

= علمنا رسول الله ﷺ خطبة الحاجة: «الحمد لله نستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله أرسله بالحق بشيرًا ونذيرًا بين يدي الساعة، من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فإنه لا يضر إلا نفسه ولا يضر الله شيئًا» والله أعلم.

هذا المنوال.

فقوله: «أن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه»: لأنه تحلىٰ بالإيمان، وعرف حق الله عليه، وثمرة ذلك، فهذا لا يمكن أن يعدل به شيء يعني عبادة الله لها حلاوة، ولها في الواقع نعيم يجده العبد في نفسه أكثر من التنعم في المأكل والمشرب وغير ذلك، ولهذا صارت منَّة الله علىٰ العبد كونه يمن عليه نعمة يجب أن يدعو بها الإنسان يقول: اللهم منَّ علي. لأن فيها الخضوع لله ﷻ والذل له والمحبة، أما أهل الجفاء فإنهم لا يستشعرون بها مثل المعتزلة، ولهذا يفسرون قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ [القلم: ٣] بأنه ما فيه منَّة لأنه مقابل عملهم، فهذا خطأ قطعًا، وإن كان التفسير الذي جاء عن السلف أنه ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ غير مقطوع، ولكن أيضًا فيه منَّة من الله علىٰ العبد، فهو نعمة.

قوله: «بعد إذ أنقذه الله منه»: يدل علىٰ أنه عرف الكفر، وأبغضه بعد المعرفة، فهو يبغضه أشد البغض لأنه أنقذه منه ودخل فيه الإيمان الذي هو ضده، وفي ضمن هذا معاداة للكافرين، وبغضهم وجهادهم لأنه إذا كان الكفر مبغضًا فمن تحلىٰ به فيجب أن يبغض ويكره ويعادي كما قال الله ﷻ عن خليله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤]، ثم استثنىٰ الله ﷻ من التأسي: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [الممتحنة: ٤]؛ يعني: لا تتأسوا به وهو كونكم تدعون للمشركين فهذا لا يجوز، وقد بين الله ﷻ أن هذا وقع من إبراهيم عليه السلام وفاءً للوعد الذي وعده إياه: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

فالبراءة من الكفر، ومعاداته أمر لا بد منه للمؤمن، أما إذا فُقد، فُقد الإيمان، وقد قال الله ﷻ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]، فأثنىٰ علىٰ الصحابة الذين بعضهم قتل أباه وبعضهم حاول قتله، وفي الآية الأخرىٰ يقول ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١]، وقال في الآية الأخرىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٧]، فهذا شرط يدل علىٰ انتفاء الإيمان إذا كان العبد يتولاهم، والتولي هو النصرة والمُساعَدة والمحبة، والمُعاوَنة علىٰ كفرهم، أو يحب أفعالهم، فإذا وقع العبد في شيء من ذلك، فقد وقع في الكفر -نسأل الله العافية-.

وقوله: «كما يكره أن يقذف في النار»: وهذا من أشد المكاره لأن ألم النار لا تشابهه الآلام الأخرىٰ، فهو صعب جدًا، وهذا غاية ما يُمثل به لنا، من الشيء الموجود لنا، وإلا فالأمر فوق هذا فالمؤمن إذا تحلىٰ بالإيمان حقيقة يستحلي قذفه في النار مقابل كونه يكون كافرًا، ولا يبالي في ذلك ولهذا لو منع من عبادة الله ﷻ ربما يموت لأنه عنده حب الله وحب طاعته أعظم من ذلك.

فإذا تحلىٰ العبد بهذه الخصال يكون علامة علىٰ أنه يجد حلاوة الإيمان، وحلاوة الإيمان هل هي حلاوة الطاعة أو هي أمر زائد علىٰ هذا؟

بلا شك أن المؤمن يستحلي طاعة الله ﷻ ويتلذذ بها، فلو منع مثلًا من الصلاة يمكن أن يموت حسرة علىٰ ذلك يعني لو منع قهرًا، وهكذا يكون حبه لله ﷻ، وهذا

لأن الله ﷻ أوجب عليه ذلك فهو يحب ما أوجبه الله ﷻ عليه، كما في أسباب الحب، فإن من أسباب الحب ما جاء في الحديث الصحيح: «**وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتىٰ أحبه**»(١)، فهو يتقرب إلىٰ الله ﷻ بالنوافل بعد أداء الفرائض، فيكون هذا سببًا لحب الله ﷻ، والسبب أنه أحب هذا أولًا، والتحبيب الذي يكون في قلبه نعمة من الله ﷻ، فهو دائمًا يستشعر في قلبه أنه عبد لله ﷻ مملوك تفضل الله ﷻ بكل شيء، وأنه ليس له علىٰ الله أيُّ استحقاق أو أيُّ فضل، بل الفضل لله ﷻ كله، فإذا شكر فهي نعمة، وإذا أطاع فهي نعمة، فإذا وجد في قلبه حب الخير فهي نعمة، وكل نعمة تقوده إلىٰ شكر وإلىٰ نعمة أخرىٰ.

قال المؤلف رحمه الله **: وفي رواية: «لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتىٰ ...» إلىٰ آخره**(٢).

قوله: «**وفي رواية**»: هذه الرواية أخرجها البخاري في كتاب الأدب من صحيحه.

المقصود في ذكر هذه الرواية أنها تفسر الرواية التي قبلها لأنه قال في الأولىٰ: «من كن فيه وجد» وهنا قال: «لا يجد» نفي لوجود حلاوة الإيمان، فالأولىٰ فيها إثبات والثانية فيها النفي، فالعبد لا يجد حلاوة الإيمان إلا بهذه الأشياء، فهذا ليس لكل أحد، فكثير من المسلمين ليست عنده هذه الصفات، فمعنىٰ ذلك أنهم لا يجدون حلاوة الإيمان ليس عندهم للإيمان حلاوة، وبهذا يتبين تفاوت المؤمنين بالإيمان.

وعليه يتبين أن الإيمان يزيد وينقص، فقد ينقص حتىٰ لا يبقىٰ منه إلا قليلًا فيضعف، وإذا كان يزيد وينقص فزيادته ونقصانه بالأعمال، أعمال القلوب،

(١) رواه البخاري رقم (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة.
(٢) رواه البخاري رقم (٦٠٤١).

وأعمال الجوارح، وأعمال الجوارح يدخل فيها القول، النطق بشهادة أن لا إله إلا الله وغير ذلك من تلاوة القرآن وذكر الله، وهذا أيضًا من دواعي حب الله ﷻ، وزيادة الإيمان، كما أن كثرة الأعمال أيضًا من دواعي حب الله ﷻ كما سمعنا في الحديث الذي في الصحيح: «**لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتىٰ أحبه**»، وهذا أصل عظيم اتفق عليه أهل السُّنَّة وإنما خالفهم المبتدعة قديمًا وحديثًا الذين تبنوا الإرجاء ففصلوا العمل عن الإيمان وهو أمر ظاهر البطلان، ولكن النفوس إذا كان لها هوىٰ فإنها لا ترىٰ إلا ما تريد ولو جاءتها كل آية ما قبلت، وربما يرمون الناس الذين يأتون بالأدلة بأنهم إما جهلة أو لا يفهمون، أو أن لهم أغراضًا، مع أن الأغراض لهؤلاء أصحاب الأهواء الذين لا يقبلون إلا ما يرون أنه طريقهم وأنه مذهبهم.

وقوله: «**لا يجد**»: هذا لا يدل علىٰ أن كون الحلاوة منفية عن العبد أنه ليس بمؤمن، ولكن يدل علىٰ أنه واقع في معصية وناقص الإيمان، وأنه مستحق للعقاب إلا أن يتوب الله عليه ويعفو عنه.

✍ قال المؤلف ؒ: وعن ابن عباس ﭭ قال: من أحب في الله وأبغض في الله، ووالىٰ في الله، وعادىٰ في الله، فإنما تنال ولاية الله بذلك. ولن يجد عبد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتىٰ يكون كذلك، وقد صارت عامة مؤاخاة الناس علىٰ أمر الدنيا، وذلك لا يجدي علىٰ أهله شيئًا. (رواه ابن جرير)[(١)].

قوله: «من أحب في الله»؛ يعني: صار حبه من أجل محبة الله، ومن أجل أنه مطيعًا لله ﷻ، والمحبة تقتضي الموالاة والنصرة، وكونه معه يساعده، ويدعو له،

(١) تعظيم قدر الصلاة للمروزي رقم (٣٩٦)، والطبراني في الكبير رقم (١٣٥٣٧) عن ابن عمر، قال في مجمع الزوائد (١/ ٩٠): رواه الطبراني في الكبير، وفيه ليث بن أبي سليم والأكثر علىٰ ضعفه.

ومعلوم أن المسلمين هذه صفتهم، المسلم يحب أخاه المسلم ويدعو له ويناصره ويساعده.

قوله: «**وأبغض في الله**»: يبغض الكفر، ثم المعاصي ومن اتصف بهما، مهما كان هذا الشخص وقربه منه يبغض، وهذا بحسب ما يكون في الإنسان من ذلك، فبغض الكفر بغض أعظم وأشد والمعصية تكون أقل، وكل ما كانت المعصية أقل صار بغضه أقل، وذلك لأن بغضه يكون تبعًا لطاعة الله ﷻ، ولا يمكن أن يكون العبد محبًا لربه ﷻ ثم يحب من يعادي ربه هذا لا يمكن، ولهذا نُفي الإيمان عن الذين يتولون الكافرين، فلا يمكن أن يجتمع هذا أصلًا.

فهو يحب الناس لأنهم يحبون الله، ويبغض الناس سواءً أقرباء أو بُعداء عنه، لأنهم يعصون الله ﷻ.

قوله: «**ووالىٰ في الله**»: الموالاة هي النصرة، والإكرام، والتقدير، أن ينصره ويكرمه، ويكون معه، وفي ضمن ذلك المحبة، يعني يحبه. وتكون الموالاة لله ﷻ، يعني نصرته وإكرامه وتقديره من أجل أنه مطيع لله ﷻ.

وقوله: «**وعادىٰ في الله**»: المعاداة ضد الموالاة، فهي بغضه وكراهيته وجهاده باللسان وباليد، وهذا يختلف باختلاف المعصية فقد يكون فاسقًا، وقد يكون كافرًا، وكل واحد يُعادي علىٰ قدر ما عنده، والمقصود أن معاداته تكون لله ﷻ لا تكون لدنيا ولا لأهواء النفس ولا لأنه علىٰ مذهبه وإنه يناصره في قوله، أما هذا فكله يكون من الشيطان وهو من الذين أخبر الله ﷻ أن مؤاخاتهم ومودتهم تنقلب عليهم عذابًا وعداوة: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، المتقون هم الذين يتآخون في الله، ويتناصرون فيه علىٰ طاعته، وقد يتوهم العبد أنه هو المطيع، وأن من عداه عاص لله ﷻ، فإذا كان ذلك عن جهل فيمكن علاجه، أما إذا كان عن هوىٰ فهذا علاجه بعيد جدًا؛ لأنه يصبح عابدًا لهواه -نسأل الله العافية-

وعبادة الهوىٰ من أكبر ما يصد عن طاعة الله ﷻ وعن عبادته: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

هذه من أعظم المصائب، والغالب أن العبد إذا كان بهذه الصفة فإنه لا يهتدي بل ينتقل من ضلالة إلىٰ أخرىٰ، لأن الله يقول: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]؛ يعني: جزاء أنهم ردوا الحق أول مرة قلبت أفئدتهم، يعني قلوبهم وأبصارهم فيرون الحق باطلًا والباطل حقًا، يقول الله ﷻ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، فالأمر خطير جدًا يعني كون العبد يرد الحق فيه خطورة عظيمة أن يعاقب بتقليب القلب وإزاغة البصر.

والمقصود أن الموالاة والمعاداة يجب أن تكون لله ﷻ ليس لأجل الدنيا أو لأجل المذاهب والمناصرات من كون الإنسان يقدم له نفعًا أو يقدم له نصرةً علىٰ باطل أو علىٰ غيره.

ولهذا قال: «**فإنما تنال ولاية الله بذلك**»: ولاية: بفتح الواو، وإذا كسرت الواو صارت الإمارة وتولية الشيء.

يعني: لا يصير العبد وليًا لله ﷻ إلا إذا كان بهذه الصفة، وأولياء الله هم المتقون الذين آمنوا واتقوا، وهؤلاء هم أولياء الله كما قال الله ﷻ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣].

وقوله: «**ولن يجد عبد طعم الإيمان**»: يدل علىٰ أن الإيمان له طعم، كما سبق في الحديث أن له حلاوة، وأنها توجد وقد لا توجد، وهذا الطعم هو طعم الحلاوة وذلك استمراؤه طاعة الله ﷻ والتلذذ بها تبعًا لمحبة الله ﷻ، وكذلك يتحمل الأذىٰ في طاعة الله كما حدث لحارس رسول الله ﷺ عند مرجعه ﷺ من غزوة ذات

الرقاع، في حديث جابر بن عبد الله: أنه قام يصلي وأتى المشرك فلما رأى شخص الرجل عرف أنه ربيئة القوم فرماه بعدة أسهم وهو ثابت لأنه كان يقرأ آيات كره أن يقطعها، فقال صاحبه: سبحان الله ألا أهببتني؟ قال: كنت في سورة أقرؤها فلم أحب أن أقطعها حتى أنفذها، وأيم الله لولا أن أضيع ثغرًا أمرني رسول الله ﷺ بحفظه لقطع نفسي قبل أن أقطعها أو أنفذها(١)، فانظر كيف تحمل الآلام الشديدة استلذاذًا لخطاب الله ﷻ وتلاوة كلامه.

قوله: «**وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك**»؛ يعني: أن كثرة العمل ليس دليلًا على المحبة، وليس دليلًا على ذوق الإيمان، وإنما هذا شيء يقع بهذه الأمور أن يكون قلب العبد محبًا لله، وتكون هذه المحبة لها فروعها ولها أصولها، فأصلها حب الله ﷻ ثم الموالاة على ذلك والمعاداة عليه.

قوله: «**وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على الدنيا وذلك لا يجدي على أهله شيئًا**»: هذا بعد ذهاب وقت الخلفاء الراشدين، وابن عباس لما توفي رسول الله ﷺ لم يبلغ الحلم فهو قد قارب الخمس عشر سنة، وإنما عاش في زمن الخلفاء عيشة الرجال، يعني أن الأمور تغيرت بعد زمن الخلفاء الراشدين فكيف بزمن الرسول ﷺ الذي يقول الله فيه عن ذلك المجتمع: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]، وفي حديث ابن عمر يقول: لقد رأيتنا وما صاحب الدينار والدرهم بأحق من أخيه المسلم(٢). هذا في عهد النبوة.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم (١٤٧٠٤).

(٢) أخرجه أحمد في المسند رقم (٥٥٦٢)، والطبراني في الكبير رقم (١٣٥٨٣)، وابن أبي شيبة رقم (٢٦٧٠٥)، والبخاري في الأدب المفرد رقم (١١١). قال في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٨٥): رواه الطبراني بأسانيد وبعضها حسن.

ابن عباس يقول: «صارت المؤاخاة على أمور الدنيا» مؤاخاتهم؛ يعني: نصرتهم ومساعدتهم.

وقوله: «وهذا لا يجدي على أهله شيئًا»؛ يعني: لا ينفع عند الله.

واليوم صارت مؤاخاة الناس على المعاصي والخناء والفجور وما أشبه ذلك، ليس على أمر الدنيا فقط على معاصي الله ﷻ، انعكست الأمور تمامًا، فهذا من أكبر أسباب العذاب -نسأل الله العافية- وهذا كله يدل على غربة الإسلام، وقد وقع ما أخبر به الرسول ﷺ: «**بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ**»(١).

فالعبد يجب ألا يغتر بكثرة الناس وكونهم يُجمعون على شيء، يجب أن يحذر ويسبر الأحوال، وينظر في الأدلة، ولا يتعجب من كون فلان ضل أو ترك الأمر وقال كذا وكذا؛ لأن الأمر بيد الله ﷻ.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **وقال ابن عباس** رضي الله عنهما **في قول الله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾** [البقرة: ١٦٦]، **قال: المودَّة**(٢).

يعني يوم القيامة؛ يعني: الأسباب التي كانت بينهم الصلة والتناصر والتعاون؛ لأنها ليست لله ﷻ، وكل ما هو لغير الله فهو باطل ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]، والشيء الذي يراد به وجه الله هو الذي يبقى ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، فبدل المودة والتناصر تصبح بغض ولعن،

(١) رواه مسلم رقم (١٤٥) من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**بدأ الإسلام غريبًا وسيعود كما بدأ غريبًا فطوبى للغرباء**».

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره رقم (٢٤٢٣)، والحاكم في المستدرك رقم (٣٠٧٦) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

كل يلعن الآخر، فكل واحد يرى أن الآخر هو السبب في إضلاله، وهذا من تمام العذاب لأنهم يجتمعون في النار، وكلٌّ يلعن الآخر كما قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

هذه الحقيقة تكون هكذا، والأوثان هنا ليست مجرد الأصنام التي يصنعها الإنسان بنفسه ثم يعبدها، بل قد تكون بعضهم لبعض، الرجل قد يكون وثنًا للآخر بحيث يطيعه في معصية الله ﷻ، أو يترك ما هو طاعة لله ﷻ اتباعًا له فيكون يتخذه معبودًا من دون الله ﷻ، فإذا كان يوم القيامة تنقلب هذه الأمور حسرات على أصحابها وعذاب، لأن العذاب والشر كله يجمع في جهنم -نسأل الله العافية-.

وإذا كان الحب مثلًا في هذا الأمر يعني في أمور الدنيا وغيرها كل ما هو خارج عن طاعة الله ﷻ ينقلب على الإنسان حسرات وعذاب، فيجب على العبد أن لا يضيع وقته في الأمور التي تجلب له عذاب الله ﷻ، يجب أن يتفقد حاله لأنه إذا لم يهتم هو بنفسه فغيره لن يهتم به.

✍ قال المؤلف رحمه الله: فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية البقرة.

التفسير المقصود به هو ما دل على المراد الذي أراده، أن هذا دليل على هذا الشيء، يعني أن آية البقرة تدل على وجوب محبة الله وحده، وأن يخلص له بالعبادة فيكون هذا هو تفسيرها.

الثانية: تفسير آية براءة.

وكذلك آية براءة تدل علىٰ أنه يجب أن تقدم طاعة الله علىٰ كل أمر من أمور الدنيا.

فالمقصود بالتفسير هو المناسبة من هذه الآية وليس المقصود تفسير مفردات وتفسير كل ما يتعلق بالآية. وهذا يقال في كل ما يذكره في قوله تفسير الآية.

الثالثة: وجوب تقديم محبته ﷺ على النفس والأهل والمال.

يعني أن هذا أمر فرض، من أمور الإيمان لا بد منه، ولهذا نفىٰ رسول الله ﷺ الإيمان عمَّن لم يكن كذلك.

الرابعة: نفي الإيمان لا يدل على الخروج من الإسلام.

ولكنه يكون دالًّا علىٰ ترك واجب يعذب عليه العبد، ولا يجوز أن يكون دالًّا علىٰ نفي مستحب لا يعاقب عليه.

الخامسة: أن للإيمان حلاوة قد يجدها العبد وقد لا يجدها.

إذا عمل الإنسان علىٰ مقتضىٰ ذلك وجدها ولا بد، وإذا كان مقصرًا لا يجدها هذا هو المقصود، فالمؤمن قد يجدها وقد لا يجدها ليس الإنسان مطلقًا يعني أهل الإيمان، وهذا يدل علىٰ التفاوت العظيم بينهم، ولذلك تتفاوت منازلهم في الآخرة.

السادسة: أعمال القلب الأربع التي لا تنال ولاية الله إلا بها، ولا يجد أحد طعم الإيمان إلا بها.

أعمال القلب، هذا يبين لنا أن الأعمال من الإيمان لأن الحب عمل قلبي، وكذلك المعاداة والموالاة، وكذلك حب الإيمان عمل قلبي، فالأعمال القلبية كثيرة جدًا فهي داخلة مع الإيمان الذي هو العقيدة عقيدة القلب، ولهذا بعض

العلماء يقسم أعمال القلب إلىٰ أقوال وأعمال، يقول: أقوال القلب، وأعمال القلب. فأقواله هي الأشياء التي يعقد عليها العزم ويصمم عليها وتكون مستقرة عنده. والأعمال التي قد تزيد وتنقص مثل الخوف والخشية والرجاء ... الخ.

❁ **السابعة: فهم الصحابي للواقع: أن عامة المؤاخاة على أمر الدنيا.**

يعني: الواقع في زمانهم، أما في ما بعد وفي هذا الزمن صارت الأمور أعظم بكثير مما ذكر ابن العباس رضي الله عنهما، صارت الموالاة والمؤاخاة علىٰ الكفر والمعاصي والفسوق -نسأل الله العافية-.

❁ **الثامنة: تفسير: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾** [البقرة: ١٦٦].

يعني: أن الأسباب هي المودة، هذا المقصود، وإلا قد يكون أمور أخرىٰ تدل عليها الآية أكثر من هذا، لكن المقصود أن الأسباب هي المودة التي بينهم يتعلقون بها في الدنيا تتحصل لهم المنافع بأسبابها «تقطعت» يعني انتهت فهي لا تجدي شيئًا، والواقع أنها انقلبت عداوة، فبعضهم يكفر ببعض وبعضهن يلعن بعضًا.

❁ **التاسعة: أن من المشركين من يحب الله حبًا شديدًا.**

لأنه قال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] فأثبت أن المشركين يحبون الله ولكنهم يحبون أندادهم مثل حب الله، ومحبتهم لأندادهم أنهم يُقاتلون دونها، وأنهم يقدمون لها القرابين ويعكفون عندها ويستغيثون بها ويزعمون أنها تتوسط لهم عند الله جل وعلا، فهذا حب عظيم ولكنه حب تأله، وحبهم لله لا يجدي شيئًا لأنه شرك، والشرك معناه أن يشرك الخالق مع المخلوق فيما هو واجب له، حقه يوزع بينه وبين المخلوقين، وهذا أعظم الذنوب -نسأل الله العافية- وصاحبه إذا مات عليه يكون خالدًا في النار.

العاشرة: الوعيد على من كانت الثمانية أحب إليه من دينه.

التي ذُكرت في سورة براءة، من الدنيا كلها، إذا كانت أحب إليه من الجهاد في سبيل الله ومن طاعة الله فمعنىٰ ذلك أنه ظالم بل فاسق، والفاسق هو الذي خرج عن طاعة الله ﷻ، وقد يقول قائل: أكثر المسلمين علىٰ هذه الصفة هل كلهم يكونون فسقة؟

نقول: إن معنىٰ هذا ليس الأصل، يعني أكثر المسلمين بهذه الصفة، ولكنهم ما داموا في عافية وفي ستر من الله ﷻ وماتوا علىٰ ذلك فيُرجىٰ لهم خير، ولكن لو ابتلوا -الذين هذه صفتهم- ابتلوا بمن يشككهم، أو ابتلوا بوجوب القتال أو ما أشبه ذلك ما فعلوا، فوقعوا إما في الكفر أو وقعوا أيضًا في الانتكاس حتىٰ ينتقلوا من حالة إلىٰ أسوء منها، وربما يُخشىٰ أنهم ينتقلوا إلىٰ نفاق أو ينتقلوا إلىٰ ارتداد لضعف الإيمان عندهم فهذه أكثر حالة الناس علىٰ هذا المنوال -نسأل الله العافية- يعني ما تجد الذي يقدم القتال وحب القتال والجهاد في سبيله علىٰ أمور الدنيا إلا قلة من الناس، ومعنىٰ ذلك أن الدنيا صارت أحب إليهم مما ذُكر في هذه الآية، هذا أمر فظيع في الواقع ومخيف، غير أنهم إذا لم يحصل لهم فتنة وماتوا علىٰ ستر الله ﷻ فيرجىٰ لهم خير لأنهم ماتوا مسلمين، ومن مات مسلمًا فمآله إلىٰ الجنة وإن حصل له ما حصل.

الحادية عشرة: أن من اتخذ ندًا تساوي محبته محبة الله فهو الشرك الأكبر.

وهذا مطلق، في أيِّ ند اتخذه.

الباب الثاني والثلاثون

✍ **قال المؤلف** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **باب قول الله تعالىٰ:** ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

لما ذكر المحبة في الباب السابق، ناسب أن يذكر الخوف هنا لأن هذين الأمرين من أركان الإيمان؛ لأنه مبني علىٰ الحب والخوف ولا بد منهما، فهو أراد أن يبين أن الخوف عبادة يجب أن يخلص لله جَلَّ وَعَلَا، فهو من أفضل العبادات؛ ولهذا ترجم بهذه الآية التي تدل علىٰ المقصود، ومفهوم الآية أنه إذا لم يحصل من العبد خوف الله جَلَّ وَعَلَا أن الإيمان منتف.

جاء في سبب نزول هذه الآية، أنه لما انقضت غزوة أُحد وانصرف المشركون، فظن المسلمون أنهم قصدوا المدينة لإحراز الذراري والأموال، فشق ذلك عليهم، فقال النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**اخرج في آثار القوم فانظر ماذا يصنعون وماذا يريدون، فإن هم جنبوا الخيل وامتطوا الإبل، فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة، فوالذي نفسي بيده لئن أرادوها، لأسيرن إليهم ثم لأناجزهم فيها**».

قال علي: فخرجت في آثارهم، انظر ماذا يصنعون، فجنبوا الخيل، وامتطوا الإبل ووجهوا إلىٰ مكة، ولما عزموا علىٰ الرجوع إلىٰ مكة أشرف علىٰ المسلمين أبو سفيان ثم ناداهم: موعدكم الموسم ببدر، فقال النبي ﷺ: «**قولوا: نعم قد فعلنا**»، قال أبو سفيان: «فذلكم الموعد»، ثم انصرف هو وأصحابه، فلما كان في بعض الطريق، تلاوموا فيما بينهم، وقال بعضهم لبعض: لم تصنعوا شيئًا، أصبتم شوكتهم وحدَّهم، ثم تركتموهم وقد بقي منهم رؤوس يجمعون لكم، فارجعوا حتىٰ

نستأصل شأفتهم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فنادىٰ في الناس وندبهم إلىٰ المسير إلىٰ لقاء عدوهم وقال: «**لا يخرج معنا إلا من شهد القتال**»، فقال له عبد الله بن أبي: أركب معك؟ قال: «لا»، فاستجاب له المسلمون علىٰ ما بهم من القرح الشديد والخوف، وقالوا: سمعًا وطاعةً. واستأذنه جابر بن عبد الله، وقال: يا رسول الله إني أحب ألا تشهد مشهدًا إلا كنت معك وإنما خلَّفني أبي علىٰ بناته، فأُذن لي أن أسير معك، فأذن له، فسار رسول الله ﷺ والمسلمون معه حتىٰ بلغوا حمراء الأسد، وأقبل معبد بن أبي معبد الخزاعي إلىٰ رسول الله ﷺ فأسلم، فأمره أن يلحق بأبي سفيان، فيخذِّله، فلحقه بالروحاء، ولم يعلم بإسلامه. فقال: ما وراءك يا معبد؟ فقال: محمد وأصحابه قد تَحرَّقُوا عليكم، وخرجوا في جمع لم يخرجوا في مثله. وقد ندم من كان تخلف عنهم من أصحابه، فقال: ما تقول؟ فقال: ما أرىٰ أن ترتحل حتىٰ يطلع أول الجيش من وراء هذه الأكمة. فقال أبو سفيان: والله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصلهم. قال: فلا تفعل، فإني لك ناصح، فرجعوا علىٰ أعقابهم إلىٰ مكة، ولقي أبو سفيان بعض المشركين «ركب من عبد القيس» يريد المدينة فقال: هل لك أن تبلغ محمدًا رسالة، وأوقر لك راحلتك زبيبًا إذا أتيت إلىٰ مكة؟ قال: نعم. قال: أبلغ محمدًا أنا قد أجمعنا الكرة لنستأصله ونستأصل أصحابه، فلما بلغهم قوله قالوا: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣][(١)].

فأنزل الله قوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٣-١٧٥].

(١) زاد المعاد (٣/ ٢١٦)-(٢١٧).

قوله: «﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾»؛ يعني: يخوفكم بأوليائه، فيخوف تتعدىٰ إلىٰ مفعولين، المفعول الأول محذوف تقديره «يخوفكم» والثاني «من أوليائه»، والمعنىٰ: أن الخبر الذي جاءهم، أو التوعد الذي جاءهم من الشيطان الذي يرسل به الكفار الذين هم أولياؤه، فهو يُعظمهم في صدوركم ويقول إنهم عندهم قوة، وقد جمعوا الجموع، وأنهم عندهم كثرة وهذا عام في كل باطل يكون أمام الحق، ولا يزال هذا في الأمة منتشرًا، ولا سيما في هذه الأوقات، فتجد مثلًا المسلمين يخافون من الكفار كثيرًا بمجرد كلام يرسلونه، فتجدهم يقولون عندهم القوات، وعندهم، وعندهم، فيرجعون عن أشياء كثيرة واجبة من أجل قول الكافرين، وهذا يدل علىٰ ضعف الإيمان أو كون الإيمان مفقودًا -نسأل الله العافية-، ولهذا جاء النهي قال: «فلا تخافوهم» وهذا أمر حتم علىٰ المسلم أنه لا يخاف من هؤلاء.

وقوله: «﴿وَخَافُونِ﴾»؛ يعني: ليكن خوفكم من الله، فاجعلوا الخوف كله لله ﷻ، فإذا خفتم من الله فإن المخلوقين كلهم يتصرف فيهم، نواصيهم بيده ﷻ، فمن كان خائفًا لله، فإنه لا يخاف المخلوق، وإذا خاف الإنسان من الله فإنه لا بد أن يمتثلَ أمره ويجتنب نهيه، فهذه ثمرة الخوف، ونتيجته، أن يفعل ما أمر به ويجتنب ما نهىٰ عنه.

والذي أمر به هو محاربة الشيطان وحزبه، فلا بد أن يحاربهم ويعاديهم ويظهر لهم أنه عدو لهم، وحربًا عليهم.

ولكون هذا أمر حتمي بيَّن ذلك بقوله ﷻ: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ هذه شرطية، يعني إن كان عندكم إيمان فلا بد أن تكونوا علىٰ هذه الصفة يعني: تخافون الله ولا تخافونهم، وبهذا يتبين أن الخوف ركن في الإيمان ويجب إخلاصه لله ﷻ.

وإذا لم تكن هذه العبادة مخلصة لله ﷻ يكون التوحيد إما منتفيًا كما تدل الآية عليه هنا ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، وإما أن يكون ناقصًا، النقص الذي يعذب الإنسان عليه.

والخوف يقسمه العلماء إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: خوف السر يعني خوف الذل والتعظيم، وإن شئت تقول خوف العبادة. والسر معناه: أن تخافه خوفًا غيبيًا، كما يخاف الإنسان ممن هو غائب عنه من ميت أو بعيد أو ما أشبه ذلك، بأن يوقعه في محذور، فهو يخافه أن يصيبه بشيء ليس بمجرد مقابلة بضرب أو سلاح، ولكن بأمر معنوي غائبًا عنك الآن، تقول أنه من الأولياء مثلًا وله قوة وله إرادة، أو أن الله أعطاه هذا الشيء، فإذا خالفه مخالف أصابه إما بمرض أو بعذاب لا يكون سببه ظاهرًا، ولهذا سموه خوف السر، يعني أمر خفي، وهذا لا يجوز أن يقع إلا من الله ﷻ، وإذا صُرف إلىٰ مخلوق فهو شرك أكبر، فإنه يجب أن يكون لله خالصًا.

مع أن هذا هو الموجود في المشركين قديمًا وحديثًا، فقديمًا كان المشركون يُخوفون الرسل بمعبوداتهم، كما قال الله ﷻ عن هود عليه السلام: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود: ٥٤، ٥٥]؛ يعني: بخبل في عقلك فصرت تتكلم هذا الكلام الذي فيه مخالفة الجميع، ولهذا قال: ﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [هود: ٥٤] فتحداهم أن يصيبوه بشيء، وهكذا قالوا لخاتم الرسل: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ [الزمر: ٣٦]؛ يعني: بالمعبودات التي يعبدونها من دون الله.

وأمره أيضًا أن يتحداهم مثل ما تحدتهم الرسل الذين من قبله، قال الله ﷻ: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٣٦]، ثم قال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ۚ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨]؛ يعني: أنها

لا تملك شيئًا ولا تستطيع أن تضر، ولا تستطيع أن تنفع لأنها أموات أو إنها جمادات، أو إنها مرتهنة في قبورها بأعمالها مدفونة بالتراب والأحياء أقدر على الأذى والنفع منها، وإنما هي دعاوى.

فهذا الخوف ينافي التوحيد، إذا وقع من مخلوق لمخلوق فقد ذهب بالتوحيد من أصله ويكون صاحبه مشركًا الشرك الذي لا يغفر إلا بالتوبة منه، ومن مات عليه فهو في النار -نسأل الله العافية-، فهذا القسم يجب أن يخلص لله ﷻ، فلا يخاف الإنسان إلا ربه ﷻ، هو الذي على كل شيء قدير، وهو الذي قلوب العباد بين إصبعين من أصابعه يقلبهما كيف يشاء، وهو الذي إذا أراد شيئًا يقول له كن فيكون ﷻ أما المخلوق فلا يملك من ذلك شيئًا، مهما كان سواء كان نبيًا أو وليًا أو حتى ملكًا من الملائكة، لا يملك شيئًا من دون الله، فإذا توكل الإنسان على ربه ﷻ وخافه وحده، لو كادته السماوات ومن فيها، والأراضون ومن فيها ما وصلوا إلى أذاه إذا توكل على الله حق توكله ولهذا الأنبياء يتبرؤون من ذلك.

القسم الثاني: من ثمرات هذا الخوف، وهو الخوف من عذاب الله ﷻ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]، وقوله ﷻ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠]، وذكر هذا النوع في كتاب الله كثير، ذكر الخوف من عذاب الله ﷻ والثناء على من تحلى به، وهو تبع للخوف من الله ﷻ ومن ثمراته، وجزاء أهله عظيم عند الله ﷻ.

فهذا القسمان يجب أن يكونا لله وحده ﷻ، لا يجوز أن يكونا لمخلوق.

القسم الثالث: يترتب على ضعف هذا الخوف، وهو أن يخاف الإنسان من المخلوق أن يأمره بالمعروف أو ينهاه عن المنكر، بأن يؤذيه أو يسبه أو يتكلم فيه وما أشبه ذلك فلا يأمره بمعروف ولا ينهاه عن منكر ولا يقوم بما وجب عليه،

وهذا هو سبب نزول هذه الآية، وهذا من نقص التوحيد، وهو من الشرك الأصغر، وهذا الذي جاء فيه الحديث: «**لا يحقرن أحدكم نفسه أن يرىٰ أمرًا لله عليه فيه مقالًا ثم لا يقوله، فيقول الله: ما منعك أن تقول فيه؟ فيقول: رب خشيت الناس فيقول: أنا أحق أن يخشىٰ**»[(١)]، فهو يُسأل عن هذا وهذا يجب أيضًا أن يكون الخوف من الله ليس من المخلوق؛ لأن معنىٰ ذلك إذا حصل ذلك من المخلوق فالإيمان لم يكمل فهو ناقص، ولكن هذا لا يصل إلىٰ القسم الأول.

وقسم رابع غير الأقسام الثلاثة وهو: الخوف الطبيعي؛ يعني: خوف جِبِلَّة وطبيعة، كأن يخاف الإنسان مثلًا أن يسقط عليه حائطًا يراه مائلًا فيذهب عنه ويسرع، أو يخاف من حية يشاهدها، أو يخاف من سبع أو من يتسلط عليه بالقوة، ولكن هذا الخوف في ضمنه بغض هذا المخوف وعداوته، وهذا الخوف لا ضير علىٰ الإنسان فيه وهو الذي ذكره الله ﷻ عن موسىٰ عليه السلام: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ٢١]، وكذلك عن غيره، فهذا لا ضير علىٰ الإنسان فيه، غير أن الأسباب الظاهرة قد رتب الله عليها مسبباتها، ولا يلزم أنها توجد مع وجود السبب فقد يتغير ويختلف الوجود.

مسألة: وهل الأكمل أن الإنسان لا يخاف من هذه الأشياء؟

الرسول ﷺ في غزوة ذات الرقاع لما قفل ﷺ أدركتهم القائلة في وادٍ كثير العضاه فنزل رسول الله ﷺ وتفرق الناس في العضاه يستظلون بالشجر ونزل رسول الله ﷺ تحت سمرة فعلق بها سيفه. قال جابر: فنمنا نومة، ثم إذا رسول الله ﷺ يدعونا فجئناه، فإذا عنده أعرابي جالس، فقال رسول الله ﷺ: «**إن هذا اخترط سيفي وأنا نائم، فاستيقظت وهو في يده صلتًا، فقال لي: من يمنعك مني؟**

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم (١١٢٥٥).

قلت: الله، فها هو ذا جالس» ثم لم يعاقبه رسول الله ﷺ(١).

فتمام التوكل على الله ﷻ في الأمور الظاهرة الجلية التي تشاهد، فإذا كمُل إيمان الإنسان، وكمُل توكله فلن يضره شيء، ولكن أكثر الناس ما يصل إلى هذا ولا إلى قريب من هذا، فينظر إلى الأسباب وإذا مثلًا فعل السبب الذي يقابله لا يكون عليه في ذلك لوم.

فهذه الآية تدل على وجوب الخوف من الله ﷻ، وتحريم الخوف من المخلوقين لأنه قال: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٥] فالنهي للتحريم، ثم قال: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، فجعل من شرط الإيمان خوف الله ﷻ، وهذا يدل على أن الخوف يجب أن يكون مقصورًا على الله ﷻ، فلا يتعداه، ومعلوم أن هذا المعنى أنه شيء وراء الذي يلاقونه، يعني خوف هؤلاء مجرد ما يَعِدون وما يتكلمون به ويظهرونه فيخافونهم بهذه الأشياء، وهذا لا يجوز أن يقع في المسلمين، إذا أخافهم الكفار، وقالوا: إن عندهم قوات وطائرات، وعندهم كذا وكذا لا يجوز أن يخافوهم بأن يتركوا جهادهم، بل يجب أن يخافوا الله ﷻ، فإذا تركوا جهادهم من أجل ذلك فإنهم خافوا أولياء الشيطان، وخافوا الشيطان وعصوا الله ﷻ في ذلك لأن الآية نص في هذا، فإذا نظرنا إلى سبب النزول ولما وقع لرسول الله ﷺ والصحابة الذين تبعوه تبين معنى الآية، ولهذا ألقى في قلوبهم الرعب أعني الكفار، مع أن الذين خرجوا خلفهم قلة قرابة ثمانين مع الرسول ﷺ، وهؤلاء جيش كبير، ومع ذلك خافوا أشد الخوف، وأُلقي الرعب في قلوبهم فصاروا يُجفون ركابهم، بل صاروا يتخففون ويتركون بعض ما معهم، يُلقونه خوفًا من أن يلحقهم الرسول ﷺ، وهذا لأنهم حققوا خوفهم من الله، ولم يكترثوا بما قال لهم هؤلاء بل قالوا: حسبنا الله، وحسبنا معناها: كافينا، هو الذي يكفينا،

---

(١) رواه البخاري رقم (٤١٣٥) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

وهو الذي ينصرنا وهو الذي نعتمد عليه ﷻ: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، ولهذا جاء أن هذه الكلمة قالها إبراهيم عليه السلام حينما أُلقي في النار، وقالها محمد ﷺ حينما: ﴿قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣، ١٧٤].

✍ **قال المؤلف** رحمه الله : وقوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨].

ومعروف سبب نزول الآية، وسبب النزول يعين علىٰ فهم المعنىٰ، وإن كان الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب في كل النصوص التي تأتي؛ لأن كلام الله ﷻ عام شامل، وهو نازل للخلق كلهم، وسبب النزول أن الكفار افتخروا علىٰ المسلمين، فقال العباس بن عبد المطلب حين أسر يوم بدر: لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد، لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونسقي الحاج ونفك العاني، قال: فأنزل الله: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التوبة: ١٩][(١)]، فرد الله عليهم أن عمارتكم هذه لا تجدي شيئًا، وإنما يستفيد المؤمن بإيمانه، وعمله بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ.

قوله: «﴿إِنَّمَا﴾»: أداة حصر، حصر للعمارة المفيدة النافعة أنها في المؤمن.

قوله: «﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾»: العمارة في الواقع هي العبادة،

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان، وابن المنذر، وابن أبي حاتم في تفسيره عن ابن عباس.

عمارة المسجد العبادة فيه من الصلاة والقراءة والذكر وما أشبه ذلك، وتطلق العمارة أيضًا على البناء ولكن البناء يجب أن يكون من مخلص يرجو ثواب الله، أما إذا كان يدخله الرياء أو كان مشركًا فلا يفيده شيئًا، وليست عمارة في الواقع، ما يستفيد من ذلك شيئًا، فلا تسمى هذه عمارة لأن الله يقول: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣]، وأخبر أن أعمال الكفار﴿ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾[إبراهيم: ١٨]أو أنها﴿ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا ﴾ [النور: ٣٩]، والسراب انعكاسات أشعة الشمس في وسط النهار في الصحراء، إذا طالعها الإنسان يرى كأنها ماء، فإذا وصل إليه إذا هو ليس بشيء، فهذا مثل الكافر مع أعماله، وإذا وقف بين يدي الله ﷻ وجد أن أعماله هباء منثورًا ليست بشيء ثم «وفاه الله حسابه»؛ يعني: جازاه على كفره، وعلى معاصيه وصارت النتيجة عذاب الله ﷻ. وإذا كانت له أعمالٌ حسنة نافعة للناس، فإنه يجازى بها في الدنيا، أما في الآخرة فلا جزاء له.

فإذًا العمارة الحقيقة تكون بطاعة الله ﷻ بالإيمان به وباتباع رسوله ﷺ.

والمساجد أضافها إلى الله ﴿مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ ﴾ وهذا من التشريف والتعظيم، فأحب البقاع إلى الله المساجد لأنها محل عبادته، فأضافها إلى نفسه ﷻ فعلى هذا يجب أن تعظم لأن الله أضافها إلى نفسه.

قوله: «﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ ﴾»: الإيمان بالله يلزم منه الإيمان بوجوده، وأنه رقيب مشاهد لخلقه، والإيمان بصفاته والإيمان بأمره، والإيمان بكل ما يخبر به وكل ما يأمر به ويدخل في هذا الإيمان برسله لا بد من هذه الأمور، وهي مرتبطة فإذا فقد منها واحد، فلا ينفع الإيمان، ولأهمية هذه الأشياء ولكون كثير من الناس أنكر اليوم الآخر، فكثيرًا ما يقرن الله ﷻ الإيمان باليوم الآخر بالإيمان به ﷻ.

قوله: «﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾»: اليوم الآخر: اسم لما بعد الموت، كل ما يكون بعد هذه الحياة فهو من اليوم الآخر مثل نزول الملائكة إليه وقبضها لروحه، وتبشيرها إياه إذا كان مؤمنًا متقيًا بالسعادة وكونها تطمئنه وتقول له: لا تخف ولا تحزن، لا تخف مما أمامك، ولا تحزن على شيء تتركه من هذه الدنيا، ويقولون له: نحن أولياؤك، ثم إذا وضع في قبره كذلك، يكون مبشرًا بالسعادة ويفتح له باب إلى الجنة ويقال هذا منزلك، ثم يأتيه من روحها ونعيمها ما شاء الله.

وإن كان بالعكس فإنه في عذاب لا يشبه عذاب الدنيا -نسأل الله العافية- لأن الموت في الواقع انتقال من حياة إلى حياة أخرى وليس الموت عدم ونهاية، ولكن هذه الحياة غيب ولا تعرف حقيقتها، وقد تكون أكمل من حياة الدنيا لبعض من يشاء الله ﷻ، ولهذا نهانا ربنا أن نقول للشهداء أنهم أموات، وأخبر أنهم أحياء: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤]؛ يعني: لا تدرك حياتهم ولا نعرفها لأنها على خلاف الحياة التي نتعارف عليها، وفي الآية الأخرى: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩] معنى ذلك أنهم يأكلون ويشربون ويتنعمون، وإن كانت الأبدان قد تكون ترابًا ولكن الأرواح تنعم أكثر من نعيم الدنيا ولا نسبة لها، مع أن النعيم والعذاب على الروح والبدن معًا، وإن كان البدن قد يتفتت ويكون ترابًا ومع ذلك فإنه ينعم ويألم، وما بعد القبر أمر ظاهر وبين من اليوم الآخر.

وهذا اليوم لا نهاية له، فهو يكون عامًّا ويكون خاصًا، عامًا إذا وصل الحد الذي حده الله ﷻ لنهاية هذه الدنيا، فهذا يعم الخلق كلهم، ويكون خاصًا إذا حضر الأجل أجل الإنسان، حضور أجله وانقطاع عمله وخروج روحه من جسده، هذا هو اليوم الآخر ويلاقي عمله، فأوله نزوله في القبر، فبنزوله للقبر يبدأ اليوم الآخر له سواء كان نزوله في القبر في الليل أو النهار أو غيره، فقد انتهت أيام الدنيا بالنسبة إليه

ولاقىٰ عمله وشاهده، فلا بد من الإيمان بما ذكر في القبر وما بعده، كل ما ذكر في القبر من عذاب ونعيم وسؤال ومحاسبة، وكذلك البعث من القبر والمحشر والوقوف بين يدي الله ﷻ، ثم تطاير الصحف ووزن الأعمال ونصب الصراط ومشاهدة النار ثم الجنة أو النار وما فيها من الدوام الأبدي الذي لا ينقطع فيه، هذا في نعيم وهذا في جحيم -نسأل الله العافية-، فاليوم الآخر يشمل كل ما جاء في النصوص المفصلة لهذا الأمر.

ومن كان عنده إيمان بهذه؛ لا بد أن يعمل من أجل ذلك إذا كان مؤمنًا بالله ﷻ لا بد أن يخافه، ولا يخاف المشرك الكافر عدو الله وعدو رسوله ودينه، وولي الشيطان فإن كيد الشيطان كان ضعيفًا. وعطف علىٰ هذه الأمور التي لا بد منها فقال:

«﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾»: الملاحظ في جميع ذكر الصلاة في القرآن أنها تأتي بلفظ الإقامة سواءً قصد به الخبر «إقام الصلاة» أو الأمر «أقيموا» فالإقامة غير الأداء، غير كون الإنسان يصلي، فالإقامة أن يكون الشيء قائمًا تامًا ليس فيه نقص، فإقامتها: إتمامها وتكميلها بشروطها وواجباتها وما يلزم لها.

وهذا يدلنا علىٰ الاهتمام بالصلاة، وأنه يجب أن يكون العبد مهتمًا بها، حريصًا علىٰ إقامتها أفضل إقامة، فهي صلة بين العبد وبين ربه، فإقامتها أداء ما يجب لها، ومن أعظم ما يجب لها حضور القلب والخشوع والتذلل بين يدي الله ﷻ، هذا أمر مهم جدًا يجب علىٰ العبد أن يجاهد نفسه فيه؛ لأنه إذا لم يجاهد نفسه ويطرد الشيطان يسرح ويلهو عما هو فيه، ثم يخرج مثل ما دخل فيكون تأثير الصلاة عليه قليلًا، ولا يكون هذا إقامة في الواقع، فإقامتها أن يأتي بها علىٰ الوجه المطلوب شرعًا.

قوله: «﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾»: وإيتاء الزكاة قريب من إقام الصلاة، يعني يخرجها راضيًا مغتبطًا بهذا الأمر راجيًا رحمة ربه ﷻ خائفًا من عذابه لو منعها،

ثم يضعها في الوجه الذي أمره الله ﷻ به. والزكاة هنا مفعول ولها مفعول ثانٍ وهو مستحقها، وإيتاء الزكاة مستحقيها لا بد منه. وكل هذا يفعله، إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة رجاءً وخوفًا، والرجاء لا بد أن يكون فيه الحب، والخوف لا بد أن يكون فيه التعظيم والإجلال والذل والخضوع، هذه هي العبادة التي أمر الله بها.

قوله: «﴿وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾»: هذا هو الشاهد، والخشية والخوف متقاربان، وقد يقال أن الخشية أخص من الخوف فالخوف أعم؛ لأن الخشية قد تكون لمن كان عالمًا، وقد لا تكون، ولكنهما يتعاقبان.

﴿وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾؛ يعني: لم يخف أحدًا غير الله ﷻ في هذه الأفعال التي يفعلها، وكذلك الشيء الذي يتحلىٰ به قلبه من الإيمان، وكذلك العمارة، عمارة المساجد سواءً كانت العمارة بالبناء الحسي أو العمارة المعنوية الذي هو عبادة الله فيها.

فهو يجعل خشيته لله وحده، فيقصر ذلك عليه، فيكون هذا من أعظم العبادات حيث قرن بالصلاة والزكاة، فدل علىٰ أنه واجب ويجب إخلاصه لله ﷻ، فهو واجب في كل فعل يفعله العبد.

✍ **قال المؤلف** ﷀ: **وقوله:** ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠].

الإنسان في هذه الحياة لا يسلم من المنكدات والمكدرات ومن المؤلمات لأنه لا يمكن أن تكون صافية لأحد، لا بد أن يتنكد في حياته وفي عيشه مهما كان.

وإذا جاء من يدعو الناس للإيمان، فلا يخلو الأمر إما أن يقولوا: آمنا أو يقولوا: كفرنا فلم يقبلوا.

فمن كفر فأمره واضح، ولكن الذي يقول: آمنت ويجيب داعي الله ﷻ وقال: اتبعتك وآمنت بك، فإنه لا بد من الامتحان والابتلاء حتىٰ يظهر جليًا صدقه من كذبه، وإلا فالله ﷻ علام الغيوب لا يخفىٰ عليه شيء، يعلم الأشياء التي لم تكن أنها ستكون علىٰ الصفة التي ستكون عليها قبل وجودها، ولكن من تمام عدله أنه لا يأخذ إلا بالشيء الظاهر الذي تحلىٰ به الإنسان وفعله، فإذا امتحن وابتلي بأذىٰ الكفار الذين يخالفهم في العقيدة؛ لأن الناس لهم تصورات ولهم إرادات، ويريدون من كل إنسان أن يكون موافقًا لهم في إراداتهم وتصوراتهم وأعمالهم وإذا خالفهم لا بد أن يؤذوه، فإن صبر علىٰ أذاهم وتحمل أذاهم ولم يلتفت إلىٰ هذا، فإنه سوف يُعان وسوف تعود مخاوفه أمانًا ويستحلي كل أذىً في سبيل طاعة الله ﷻ فتصبح حياته سعيدة وأعماله ملتذًا بها فيكون داخلًا في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣] يعني في الحياة الدنيا وما بعدها ثم يزداد خيرًا بعد خير، وأنسًا بعد أنس بالله ﷻ، وكلما زادت الأيام زاد في الخير والإيمان والتقىٰ والعمل الصالح، وكل هذا توفيق من الله ﷻ.

أما إذا انتكس، ورأىٰ أن مخالفة الناس وأذاهم أنه أمر لا يحتمل فإنه لن يعجز الله لا هو ولا الذي كذب، ويكون ممن فر من الرمضاء إلىٰ النار، اعتاض بالنار من عذاب الناس وأذيتهم التي لم يتحملها في سبيل الإيمان بالله ﷻ، وهذا أمر مشاهد، ولكن قد يكون لبعض الناس تامًا كاملًا، وبعض الناس يكون أقل والله رحيم رحمن ﷻ يبتلي عبده علىٰ قدر ما عنده من الإيمان، وقد يُبتلىٰ فيظهر إما أن يكون منافقًا أو يكون مرتدًا -نسأل الله العافية- ولهذا قال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠]؛ يعني: أنه يترك طاعة الله واتباع الرسول ﷺ موافقة للناس في كونهم لا يرضون مسلكه الذي سلك فيصبحون يؤذونه فلا يتحمل فيوافقهم علىٰ ما هم عليه ويترك الإيمان بالله، هذا معنىٰ قوله:

﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠] أنه لم يتحمل بل قدم موافقته للناس على كونه يطيع الله ويتابع رسوله ﷺ، فهذا معناه أنه خاف الناس أكثر من خوفه لله ﷻ، وهذا شرك من الشرك الأكبر وقد ينتقل بذلك إلى النفاق الخالص -نسأل الله العافية- أو الكفر والارتداد.

فالآية دليل على وجوب الخوف من الله وحده، والتحمل في سبيل طاعة الله ﷻ، وفعل ما أمر به، وتحمل ما يمكن أن يحصل له من الناس سواءً الأقارب أو البعداء.

وقوله: «﴿فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ﴾»: الأذى: هو الشيء الذي يخف أثره ويضعف، بخلاف الضر، ولهذا أثبت الله ﷻ أن بني آدم يؤذونه، ونفى أن يضروه: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٧٦]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧].

وأذيته بأن يضاف إليه ما يتعالى ويتقدس عنه، أو مثلًا يضاف إلى المخلوق شيء من خصائص الله ﷻ، مثل المصورين الذين يؤذون الله لأنهم ينازعونه في خصائصه، لأن المصور هو الله ﷻ، ولهذا عذابهم أشد العذاب لأنهم يوم القيامة يكلفون ما لا يطاق، يجعل لهم في كل صورة صوروها نفسًا يعذبون بها في النار، ويقال لهم: أحيوا ما خلقتم، يعني انفخوا فيهم الروح، فالمقصود أن الأذى هو الشيء الخفيف، يقول الأصمعي لامرأة في البادية: ألا يضركم البرد والحر؟ فقالت: لا سواء. فقال: كيف؟ قالت: الحر يؤذي، والبرد: يضر.

في لغة العرب يفرقون بين الأذى والضر، فالحر يؤذيك مثلًا بالعرق، ولكن لا يقتلك بخلاف البرد فإنه يقتل.

ففي هذه الآية بيان واضح في أن الخوف يجب أن يخلص لله ﷻ، ولا يكون منه

شيء للمخلوق، فدل علىٰ أن الخوف فريضة علىٰ العبد فرضها الله ﷻ وأنه لا بد منه يعني خوف الله ولا يجوز أن يكون من هذا الخوف شيء للمخلوق، فإن وقع للمخلوق شيء منه، فإما أن يكون مرتكبًا لكبيرة من كبائر الذنوب متوعد عليها أو أنه ليس عنده توحيد، وهذا من تفسير التوحيد الذي يقول المؤلف ؒ في أول الكتاب أن تفسير هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب فهذا منها، فكلمة التوحيد لا إله إلا الله تقتضي أن يكون الخوف لله وحده لأن الخوف من التأله والعبادة.

✍ قال المؤلف ؒ: وعن أبي سعيد مرفوعًا: «إن من ضعف اليقين أن ترضي الناس بسخط الله، وأن تحمدهم علىٰ رزق الله، وأن تذمهم علىٰ ما لم يؤتك الله، إن رزق الله لا يجره حرص حريص ولا يرده كره كاره، إن الله بحكمه وجلاله جعل الروح والفرح في الرضا واليقين، وجعل الغم والحزن في الشك والسخط»(١).

الحديث ضعيف لأن فيه ثلاثة من رواته كلهم ضعفاء: عطية العوفي، والسُدي، وموسىٰ بن بلال، ولكن معناه صحيح معناه دلت عليه الآيات، وكذلك الأحاديث الأخرىٰ، والمؤلف ؒ لا يعتمد علىٰ مثل هذا، وإنما عُمدته الآيات المذكورة، فلما كان الحديث بمعناها يعني جاء الحديث موافقًا لمعنىٰ هذه الآيات ذكره من باب الاعتضاد والبيان فقط، بيان المعنىٰ وليس الحديث معتمدًا عليه بهذا لأنه لو لم يذكر الحديث أصلًا لكفىٰ بالآيات.

من أركان الإيمان، الإيمان بأن الله ﷻ قدر كل شيء، وأنه لا يقع شيء في الكون إلا وقد سبق العلم به وكتابته وأنه لا يقع إلا بمشيئة الله ﷻ وخلقه له.

فالرزق الذي يحصل للإنسان مكتوب قبل وجوده، قبل أن يوجد الإنسان ولكن الله ﷻ رتب الأمور علىٰ أسباب جعلها الله ﷻ ظاهرة، فالواجب علىٰ المؤمن

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان رقم (٢٠٧).

أن يعلم أن كل شيء بتصريف الله وتقديره وإراداته، فإذا حصل له أمر من الأمور المحمودة أو المذمومة يعلم يقينًا أنه سبق علم الله به وأن الله ﷻ هو الذي ساقه له جعل له أسبابًا فلا يلتفت إلىٰ الأسباب ليذمها أو ليحمدها علىٰ ذلك؛ لأن هذا من ضعف اليقين، واليقين المقصود به الإيمان بالله ﷻ الذي يدخل فيه الإيمان بالقدر، ولهذا قال: «**إن من ضعف اليقين**».

فاليقين هو الإيمان، والضعف كون الشيء لا يكون تامًا بل ناقصًا، ولكن هذا الضعف ليس له حد.

قوله: «ضعف»: ضَعف، وضُعف بالضم والنصب كلها صحيحة كلها لغات من لغات العرب، ولهذا جاءت القراءة بضَعف وضُعف.

قوله: «أن ترضي الناس بسخط الله»: كان يتصور الإنسان أن الناس هم الذين ينفعونه أو هم الذين يضرونه فيطيعهم في معصية الله ﷻ ليتحصل علىٰ النفع الذي يرجوه، أو ليتحصل علىٰ دفع الضرر الذي يتصور أنه يدفعونه عنه فهو يفعل المعصية لأجل أمرهم أو يترك الواجب لأجل نهيهم، أو لأجل شيء أعظم من هذا، وهو أنك تعرف أنهم يكرهون هذا، فإذا كانت طاعة تتركها ولو لم يقولوا لك، أو تعرف أنهم يحبون هذه المعصية فتفعلها ولو لم يقولوا لك افعلها، فهذا إما أن يكون إيمانه ذاهبًا، أو يكون ضعيفًا وإذا كان ضعيفًا فقد يزول نهائيًا.

فمن أرضىٰ الناس بسخط الله فلا يكون ناجيًا من أذاهم ومن عذابهم لا بد أن يسلطهم الله ﷻ عليه سواءً كان آجلًا أو عاجلًا، هذا أمر من سُنَّة الله، وسُنَّة الله لا تتبدل ولا تتغير في خلقه، ولهذا أخبر ﷻ أن الكفار وإن قدمتم لهم التنازلات وأعطيتموهم الشيء الذي يطلبونه فلا يكفيهم هذا حتىٰ تتركوا دينكم، قال ﷻ: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠]، أما أن توافقهم في شيء

وأنت باقيًا علىٰ دينك، فلن يرضيهم فالحزم أن يصادموا من أول وهلة، ويحاربوا ويقاتلوا ويظهر لهم أننا أعداء لكم لا نوافقكم في شيء، فهذا هو الواجب علىٰ المسلمين أن يفعلوا هذا.

قوله: «إن من ضعف اليقين أن ترضي الناس بسخط الله»: لأن الناس كلهم عبيد لله ﷻ وتحت تصرفه ونواصيهم بيده، فإذا أرضىٰ العبد ربه فإنه يرضي عنه الناس، ثم لو قدر أن الناس لا يرضون عنه لا يضيره شيء؛ لأن المهم أن يرضي ربه ﷻ وما فوق التراب تراب فلا يجوز أن يُقدم علىٰ رضا رب العالمين ﷻ أحدًا، وإنما يحصل ذلك من ضعف الإيمان.

وقوله: «وأن تحمدَهم علىٰ رزق الله»: الحمد المقصود به المدح، وليس الحمد الشرعي؛ لأن الحمد هو الثناء بالجميل الاختياري مع الحب، أما إذا كان مجرد ثناء بلا حب فهذا يسمىٰ مدحًا.

فمثلًا إذا جعل الله علىٰ يد إنسان من الناس نفعًا لك أو رزقًا لك لا يجوز أنك تحمده علىٰ هذا أنه هو جاء به لك غير أنك تشكره علىٰ أنه سبب مع العلم أن الله ﷻ هو الذي جعله سببًا، فالأمر إليه كله، فلا بأس بذلك لأنه جاء: «من لا يشكر الناس لا يشكر الله»(١)، وجاء قوله ﷺ: «**من صنع إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتىٰ تروا أنكم قد كافأتموه**»(٢).

والسبب في هذا أن يكون قلب المؤمن سالمًا من تعبد مخلوق لأن المحسن الذي يحسن إليك قد يأخذ شعبة من قلبك، فأمر أن تكافئه علىٰ ذلك فيسلم قلبك

---

(١) رواه الترمذي رقم (١٩٥٤)، وأبو داود رقم (٤٨١١)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود رقم (١٦٧٢)، والنسائي في المجتبىٰ، وأحمد في المسند من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

لله ﷻ وحده، والإنسان مجبول علىٰ حب من أحسن إليه جبلَّة وخلقة فأمروا بهذا، ومن الخطأ أن يقول الإنسان في دعائه: «ولا نشكر إلا إياك» هذا لم يرد، فهو من كلام الناس، ولا يمكن أن يأتي مثل هذا عن الرسول ﷺ مع أنك تسمعه كثيرًا من الناس في الصلاة.

فإذا كان الرزق علىٰ أيديهم بأن جعلوا سببًا من الأسباب فلا تلتفت إليهم بقلبك وتحمدهم علىٰ هذا وتجعل حمدك لهم بدل أن يكون لله ﷻ فإنه هو الذي ساقه إليك علىٰ أيديهم وأنهم لا يستطيعون منع هذا، الذي قدره الله ﷻ لك لا يستطيع أحد أن يرده كما قال ﷺ: «**واعلم أن الأمة لو اجتمعت علىٰ أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا علىٰ أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف**»(١).

معلوم أن الإنسان إذا تصور أن الخلق كلهم يصرفهم الله ﷻ كيف يشاء لأنهم عبيده، العبيد الذين تجري عليهم أقداره وهو القهار لهم ﷻ، لا يخرجون عن عبوديته العبودية الكونية لأن العبد ينقسم إلىٰ قسمين:

عبد بمعنىٰ معبَّد مذلل مقهور تجري عليه أحكام الله ﷻ راغبًا أو راهبًا، راضيًا أو ساخطًا، وهذا لا يخرج عنه أحد في الكون كله.

وعبدٌ بمعنىٰ عابد الذي يكون عابدًا لله ﷻ وهذا هو الذي يحمد ويثاب، أما الأول فلا إثابة ولا حمد، ولهذا قال الله ﷻ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ [مريم: ٩٣]؛ يعني: ذليلًا خاضعًا مقهورًا ليس له أي تصرف، بل لا يملك لنفسه أي نفع، ولا يستطيع أن يدفع عنها أي ضر.

(١) أخرجه الترمذي رقم (٢٥١٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما وقال: هذا حديث حسن صحيح.

وهذا في الواقع عام شامل في الأوقات وفي الأشخاص، فإذا نظر الإنسان إلىٰ هذا الأمر يعلم أن كل ما يحدث من خير أو شر، فهو من الله ﷻ، مع أن الشر له أسباب والخير له أسباب، فلا يحمد الناس علىٰ رزق الله الذي قاده الله ﷻ إليه علىٰ أيديهم، ومع ذلك لا يجوز أن يغمطهم حقهم، بل يشكرهم علىٰ كونهم صاروا سببًا غير أن قلبه يجب أن يكون خالصًا لربه ﷻ ولا يتعلق إلا برب العالمين وإنما يجازيهم علىٰ كونهم سببًا.

وقوله: «وأن تذمهم علىٰ ما لم يؤتك الله»؛ يعني: إذا قدر أن إنسانًا تطلب منه مثلًا أنه سيأتي علىٰ يده شيء ثم لم يأت، فلا يجوز أنك تذمه أو تسبه فهذا لم يقدره الله، فلو قدره الله لكان، فالأمر إلىٰ الله ﷻ ويجب عليك أن تؤمن بقدر الله وترضىٰ بذلك، ولكن الإنسان يُلام علىٰ الشيء الذي يُقصر فيه إذا كان من الأسباب فقصَّر فيها فإنه يلام علىٰ ذلك ويعاقب ومع ذلك ما تذمه لأن الله لو قدره لكان بلا شك، غير أن الفعل الاختياري للإنسان مسئول عنه فكل إنسان مسئول عن فعله، فإذا طلب إنسان من الناس شيئًا فلم يعطوه فلا يجوز له أن يذمهم ويقدح فيهم ويشتمهم ويلعن أو يسب أو يتكلم، فليعلم أن هذا ما قدره له وأن المعطي والمانع هو الله ﷻ، وأن القلوب بين إصبعين من أصابعه، إذا أراد الله لك شيئًا فسوف يأتيك وإن كان الناس كارهين، وإن كان لم يردك بشيء فلن ينفعك الناس بشيء ولن يوصلوه إليك، فيجب أن يكون علىٰ هذه الصفة فيصبح حمده لله وذمه لمن عصىٰ الله ﷻ، ويعلم أن قدر الله نافذ ولا بد، وإن كانت الأمور أجراها الله علىٰ سنن كما يتعاط الناس، ولكن الأسباب ما تستقل بالمسبب أبدًا وكل سبب قد يكون له مانع أو موانع ولا يستقل السبب الواحد في رزق الله ولا ما يريده الإنسان، فلهذا إذا طلبت شيئًا فلم يحصل لك يجب أن تؤمن أن الله لم يقدره لك وأن الذين ظهروا أمامك في المنع إنما هم بتقدير الله ﷻ فلا أحد يستطيع أن يمنع ما قدره الله، أو أن

يأت بالشيء الذي أراد الله أن لا يأتي، فالله ﷻ لا مانع لما أعطىٰ ولا معطي لما منع، وهذا دعاء يقوله المسلم في كل صلاة فيجب أن يؤمن به ويعمل به.

وقوله: «**إن رزق الله لا يجره حرص حريص**»؛ يعني: الذي كتبه الله لك من الرزق لا بد أن يأتيك وقد كُتب وأنت في بطن أمك، فلا يمكن أن يرده الخلق لو اجتمعوا علىٰ ذلك، وكذلك لو مثلًا فعلت كل الأسباب لطلب الشيء الذي لم يكتبه الله لك لن تتحصل عليه، فالأمور كلها مفروغ منها غير أن العبد مأمور بفعل السبب، وإذا تخلف المطلوب في طلبك يجب أن تؤمن بأن هذا أمر قد قدره الله ولا يمنع كونك تلوم المقصر في هذه الأسباب، ولهذا جاء في الحديث الصحيح قوله ﷺ: «**المؤمن القوي خير وأحب إلىٰ الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير، احرص علىٰ ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان**»(١).

والمقصود بالضعيف هنا ضعيف العمل، ضعيف السبب وليس ضعيف الإيمان، يعني أن قوة البدن محمودة في الأفعال، وإن كانت من الله ﷻ فضل ثم قال: «**احرص علىٰ ما ينفعك ولا تعجز**»؛ يعني: احرص علىٰ العمل الذي ينفعك ولا تتكاسل، «**فإن أصابك ما تكره فلا تقل: لو أني فعلت كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله ما شاء فعل**»؛ يعني: هذا قدر الله وهو يفعل ما شاء فارجع إلىٰ ذلك وقف عنده.

فكون الإنسان عنده الحرص وشدة السعي والعمل والكد، فلن يأتيه إلا ما قدر له مع أن الله ﷻ قد أمر بفعل الأسباب كما سيأتي، لا بد أن تفعل السبب الذي به يحصل المقصود لأن الرزق كتب مع سببه الذي يحصل به، ولا يقول الإنسان إذا كان مكتوبًا لي رزقي فما فيه داعي للعمل نقول: لا، لا بد من العمل لأن العمل

---

(١) رواه مسلم رقم (٢٦٦٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

السبب والله أمر به، ولكن السبب مثل ما مضىٰ ينقسم إلىٰ سبب شرعي مأمور به وسبب محرم ممنوع منه، ومع ذلك لو حصل له شيء بالسبب المحرم مثل تعاطي الربا، والكذب والتزوير والغش وما أشبه ذلك فإن هذا رزق الله لكنه جاء بهذا السبب المحرم، ويعذب عليه الإنسان لأنه أقدم علىٰ ذلك عن علم، والله يرزق الحلال والحرام كله رزقه، غير أنه بيّن أن الحرام لا يجوز أن تتناوله، ولا يجوز أن تتعاطىٰ أسبابه، وإذا خالفت فأنت مستحق للعقاب إن لم يعفو ربك ﷻ.

قوله: «ولا يرده كراهية كاره»: كون الناس يكرهون أنه يحصل لك، لا يؤثر ذلك في المنع أبدًا كما جاء في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره: «**ولو أن الخلق اجتمعوا علىٰ أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك**»، غير أن هذه الأمور والتخيلات التي قد تحصل في قلب الإنسان، وفكره قد تؤثر عليه، وهي لا أثر لها في الواقع، وإنما له أثر في نفس الإنسان وعدم كونه يعزم التوكل علىٰ الله، فإذا عزم التوكل علىٰ الله أصبح لا أثر لها، لا تؤثر أبدًا، فالرزق الذي كتبه الله لك لا بد أن يأتيك، ثم نعلم أن الرزق رزقان:

رزق هو من أكبر النعم وأعظمها وهو رزق الإيمان والعمل الصالح والهداية والاستقامة علىٰ الصراط المستقيم، وهذا لا يأتِ به إلا الله ﷻ، ومن رزقه الله ﷻ ذلك فقد كملت نعمة الله عليه.

ورزق هو ما يتمتع به في البدن من الأكل والشرب وغيره وكل هذا مقدر، كله مفروغ منه وكل شيء يحدث للإنسان فهو من الله ﷻ، فيجب أن يتحلىٰ بالصبر إذا حُرم الشيء الذي يرجوه ويؤمله ويعلم أن هذا لم يقدر له فيحمد الله ﷻ علىٰ كل حال، ولا يلتفت إلىٰ الناس ويعلق رجاءه أو أنهم هم السبب في المنع أو ما أشبه ذلك فيصبح معتمدًا علىٰ الأسباب ملتفتًا إليها، فيجب أن يكون اعتماده والتفاته إلىٰ ربه ﷻ.

قال المؤلف رحمه الله: وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «من التمس رضىٰ الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضىٰ عنه الناس، ومن التمس رضىٰ الناس بسخط الله، سَخِط الله عليه وأسخط عليه الناس» رواه ابن حبان في صحيحه(١).

جاء هذا الحديث بألفاظ متعددة، وجاء موقوفًا، وجاء مرفوعًا، وكلها صحيحة.

رواه الترمذي عن رجل من أهل المدينة قال: كتب معاوية إلىٰ عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن اكتبي إلي كتابًا توصيني فيه ولا تكثري علي، فكتبت عائشة رضي الله عنها إلىٰ معاوية: سلام عليك أما بعد فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من التمس رضاء الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس، ومن التمس رضاء الناس بسخط الله وكله الله إلىٰ الناس**» والسلام عليك(٢).

وهذا من فقهها، وبلوغها في العلم رضي الله عنها، وقد تربت في بيت رسول الله ﷺ وهي ابنة تسع، وكان ﷺ يحبها أكثر من غيرها، وهي كذلك ابنة صديق الأمة رضي الله عنه، ولهذا الذين خذلهم الله عباد الشيطان جعلوها هدفًا بالسب والشتم واللعن كما جعلوا والدها هدفًا للعنهم وسبه مع رفيقه عمر رضي الله عنهما وهذا عنوان الخذلان وإلا ما الذي صنعه أبو بكر أو عائشة لا شيء إلا اتباع الحق، ومثل هؤلاء لا يريدون الحق.

قوله: «من التمس»؛ يعني: تحراه وطلبه بلا مبالاة في الناس.

قوله: «رضىٰ الله بسخط الناس»؛ يعني: همه ومقصوده هو طلب رضىٰ الله جل وعلا، رضي الناس أو لم يرضوا، وهذا يدل علىٰ قوة الإيمان، وصدق العزيمة وكذلك كونه أجمع الطلب والقصد إلىٰ الله جل وعلا فصار يطلب رضىٰ الله جل وعلا وإن سخط الناس.

---

(١) رقم (٢٧٦).

(٢) أخرجه الترمذي رقم (٢٤١٤).

قوله: «ﷺ **وأرضىٰ عنه الناس**»: لأن الله ﷻ جعل من سُنَّته أن الجزاء من جنس العمل، والجزاء يكون عاجلًا ويكون آجلًا بلا شك، ولا سيما الأمور التي مثل هذا، فإن الله يعجل لعبده فيها الجزاء الذي يكون جزاء قليلًا من الجزاء وإلا جزاءه يوم يلقاه، لا يكون ما حصل له في الدنيا هو أجره علىٰ عمله الصالح في أمور الدين، ولهذا قال: «ﷺ، **وأرضىٰ الناس عنه**»، هذا هو الجزاء العاجل يرضىٰ الله عنه، ويرضي عنه الناس وإن كان أسخطهم؛ لأن مقصوده رضا الله ﷻ، والناس كلهم بل الخلق كلهم نواصيهم بيده ﷻ يصرفهم كيف يشاء، فإذا أطاعه عبده فإنه يكفيه كل شيء ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، ومن كان الله حسبه فلا يمكن أن يضره شيء، ولكن الشأن كله هو الصدق مع الله والإخلاص في هذا، كون الإنسان ما يفعل هذا من باب التجربة يقول أجرب هذا هل يحصل لي شيء بهذا لا يحصل له شيء؛ لأنه يختبر الله ﷻ هل يحصل له ذلك أو لا يحصل وهذا لا يمكن، وقد ينتكس -نسأل الله العافية- وإنما يكون هذا للمؤمن الصادق من أول وهلة يُقدم علىٰ هذا جزمًا بلا تردد، وإذا أصابه شيء من المكروه استحلاه في رضا الله ﷻ وصار عنده محبوبًا ومطلوبًا هذا هو الذي يرضىٰ الله عنه، ويُرضي عنه الناس، مع أن هذه الدنيا لا بد فيها من الأذىٰ، ولهذا لم تسلم الرسل الذين هم خلاصة الخلق الذين خلصهم الله واصطفاهم، لم يسلموا من أذية الناس وأفضلهم خاتمهم صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

قالت له عائشة ﵂: «هل أتىٰ عليك يوم كان أشد عليك من يوم أُحد؟»، قال: **«لقيت من قومك ما لقيت»**؛ يعني: أشد من يوم أُحد **«وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي علىٰ ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلىٰ ما أردت فانطلقت -وأنا مهموم- علىٰ وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا بجبريل، فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم**

» فناداني ملك الجبال، فسلم علي ثم قال: «**يا محمد إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين**»، فقال النبي ﷺ: «**بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئًا**»[1].

وكذلك ما حصل له يوم كان ساجدًا يصلي عند الكعبة، فقد روى ابن مسعود رضي الله عنه قال: «بينما رسول الله ﷺ يصلي عند البيت وأبو جهل وأصحابه جلوس، وقد نحرت جزور بالأمس، فقال أبو جهل: أيكم يقوم إلى سلا جزور بني فلان فيأخذه فيضعه في كتفي محمد إذا سجد، فانبعث أشقى القوم «هو عقبة بن أبي معيط» فأخذه، فلما سجد النبي ﷺ وضعه بين كتفيه، قال: فاستضحكوا، وجعل بعضهم يميل على بعض وأنا قائم أنظر، لو كان لي منعة طرحته عن ظهر رسول الله ﷺ والنبي ﷺ ساجد ما يرفع رأسه حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة فجاءت وهي جويرية فطرحته عنه، ثم أقبلت عليهم تشتمهم. فلما قضى النبي ﷺ صلاته رفع صوته ثم دعا عليهم، فوالذي بعث محمدًا ﷺ بالحق لقد رأيت الذين سمى صرعى يوم بدر ثم سحبوا إلى القليب، قليب بدر»[2].

فالمقصود أن الأذى الذي حصل له مع أنه أفضل خلق الله جل وعلا، يبين أن الدنيا لا بد فيها من الأذى، وإذا كان العبد إيمانه قوي فإنه يؤذى أكثر من غيره حكمة من الله جل وعلا ورحمة، ولهذا لما سأل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه رسول الله ﷺ: أي الناس أشد بلاء؟ قال: «**الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صُلْبًا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على قدر دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة**»[3]، وهذا من فضل الله جل وعلا، وإذا أراد

(١) رواه البخاري رقم (٣٢٣١)، ومسلم رقم (١٧٩٥).
(٢) رواه البخاري رقم (٢٤٠)، ومسلم رقم (١٧٩٤) واللفظ له.
(٣) رواه الترمذي رقم (٢٤٠٠)، وابن ماجه رقم (٤٠٢٣).

الله ﷻ بإنسان عدم الخير ينتكس من جراء ذلك، وهذا يقع كثيرًا -نسأل الله العافية-.

فالمقصود أن قوله ﷺ: «من التمس رضا الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضىٰ الناس عنه»، هذا رتب عليه الجزاء في الدنيا والآخرة، ولا يلزم من هذا أن يقال: لماذا أصاب الرسل ما أصابهم؟ لأن الله يبتلي من يشاء من خلقه حتىٰ ترتفع درجاتهم في الآخرة، وحتىٰ يتبين الصابر الصادق من الذي ليس عنده عزم وقوة وصبر يتحمل المكاره في رضا الله ﷻ وفي طلب السعادة الأبدية. عكس الأول تمامًا، يصبح الإنسان يوافق الناس أو يريد منهم ما يريد فلا بد أن يسخطهم عليه، وإن سلم من جزء منهم فلا بد من أن البقية ينالونه، ولهذا لما كان الصحابة رضوان الله عليهم يعرفون هذا -تمامًا- ما كانوا يرهبون كافرًا مهما كانت قوته، فنصرهم الله ﷻ نصرًا مؤزرًا، ولم تقف أمامهم أي قوة، مع أن سيوفهم رثة وثيابهم وخيولهم، السيوف موسورة بقد. ومقابلهم؛ سيوفهم محلاة بالذهب والجواهر وعندهم من العدة والاستعداد، الكثير كانوا يحملون علىٰ الفيلة ويقاتلون عليها، ومع ذلك كله لم يرهبوهم ولم يخافوهم، بل كان خوفهم من الله ﷻ، فنصرهم وأيدهم.

فقوله: «من التمس رضىٰ الله ...» الحديث، فهذا حديث عرف صدق مخبره بالواقع إذا نظر الإنسان إلىٰ الواقع فإذا هو مطابق لهذا الخبر الذي أخبر به رسول الله ﷺ، فكل من كان قصده رضا الله ﷻ فإنه سوف يحمد تصرفاته، وسوف تكون تصرفاته عليه خيرًا، ثم الخلق رضاهم مثل ما يقال في المثل: رضا الناس غاية لا تدرك. ولكن الذين يرضون بأمر الله سوف يرضون عنه، أما الذين يرضون بأمر الشياطين فإنهم لن يرضوا عنك مهما عملت حتىٰ تتبعوهم علىٰ مراداتهم وأهوائهم ثم يسخطهم الله عليك فلا يجوز أن يلتفت الإنسان إليهم أو يرتب هذه الأمور علىٰ الأخبار التي جاءت عن الله ﷻ وعن رسوله ﷺ لأن الله بتقديره ومشيئته ﷻ قسم الناس قبل وجودهم إلىٰ مؤمن وكافر، إلىٰ متبع لرسله، طالبًا لرضاه، وإلىٰ متبع

للشيطان طالبًا لرضا الشيطان، ولا بد أن يكون بين القبيلين خصام وقتال ومعاداة إلىٰ يوم القيامة، فلا يمكن أن يكون الإنسان يريد أن يتحصل علىٰ رضا الناس عمومًا فهذا من الأمور الممتنعة، ولكن إذا كان الإنسان متقيًا لله ﷻ في كل تصرفاته فسوف تعود عليه المخاوف أمنًا، أما إذا كان ناقص المتابعة والطاعة فلا بد أن يناله بحسب ما عنده من المعاصي من الأذىٰ، ولكن أكثر الناس لا يستشعر بهذا لكثرة الذنوب وكثرة الجراحات التي تصيب القلوب وقد تموت وإلا لو كانت القلوب حية لعلم في أي تصرف كما قال بعض السلف: إني لأفعل الذنب ثم أرىٰ أثر ذلك في خُلُق دابتي وزوجتي وولدي. يعني مباشرة لأن عندهم الحياة والإيمان يكاد يكمل بخلاف الإنسان الذي كثرت ذنوبه وكثرت مخالفاته فإنه يصاب بالمصائب ولا شعور له في ذلك ولا سيما إذا كانت المصائب مصائب دين.

وهذا أمر مجرب إذا كان الإنسان طلب رضا الله في كل شيء، فإن الله ﷻ يرضىٰ عنه ويجعل الأشياء مطيعة له حتىٰ الأشياء التي طبيعتها الأذىٰ موافقة له مسالمة له، ولهذا كان عبد الله بن الشخير رحمه الله يشترط علىٰ أصحابه إذا سافر أنه هو الذي يتولىٰ رعي إبلهم وهذه من أعظم المشاق لأنهم إذا نزلوا للراحة يذهب هو يتابعها، وفيه تعب ومشقة، فكان إذا غاب عنهم صار يصلي وأتىٰ الأسد فتولىٰ رعايتها وحمايتها فأراد أحدهم مرة أن ينظر ماذا يصنع فرأىٰ العجب كيف الأسد هو الذي يتولىٰ حماية الإبل ورعايتها؟ ذلك لأنه أطاع الله ﷻ، واتبع أمره.

فهكذا، الأمور التي طبيعتها الأذىٰ تصبح مطيعة له لأنه مطيع لله ﷻ، ثم بالعكس إذا كان الإنسان مراده وغايته رضا الناس ولو كان في سخط الله فإن الغالب أنه يعذب بأيدي هؤلاء الذين طلب رضاهم ولو كانوا من أقرب الناس إليه، ولو سبر الإنسان هذا الأمر في حالة الناس لوجد هذا ظاهرًا بينًا وهي سُنَّة الله لا تختلف، ولهذا قال: «**من التمس رضا الله بسخط الناس** رضي الله عنه **وأرضىٰ عنه الناس**»

نقول: لا يلزم رضا الناس كلهم عمومًا بهذا؛ لأن الناس أكثرهم يبغض الحق ويكرهه ويعاديه ورضا هؤلاء لا عبرة فيه، «**ومن التمس رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط الناس**» الذين طلب رضاهم جزاءً وفاقًا، والجزاء من جنس العمل، الإنسان إذا اعتبر سُنَّة الله ﷻ في الخلق وجد هذا ظاهرًا جليًا، وهذا لا يكمل للإنسان إلا إذا كان إيمانه كاملًا ثم هو يضعف علىٰ حسب ضعف الإيمان، فكل له نصيب من هذا التقسيم إما أن يكون رضا الله ﷻ هو مقصوده وهو الذي يعمل من أجله فسوف يجعل الله له من كل ضيقٍ فرجًا، ويجعل له ﷻ مَخلصًا من كل ضائقة ولا يضره الناس مهما أرادوا ضره، ثم لا يتصور الإنسان أن هذه الدنيا يمكن أن يعيش فيها الإنسان منعمًا من أول حياته إلىٰ نهايتها هذا ممتنع، لو كان هذا ممكنًا لحصل لرسل الله ولأولياء الله ﷻ، ولكن العبد إذا سلم دينه وسلم تعلقه بالله ﷻ وازداد إيمانًا بعد إيمان وإن ناله ما ناله فهو في نعيم، يعني أن الأمور التي قد تكون أذية لبدنه من كلام الناس أو نحو ذلك فهذا أمر لا بد منه، مثل الحر ومثل البرد وما أشبه ذلك فهذا لا بد أن يحصل أما أن يضروه الضرر الذي يكون عقابًا من العدو وتشفيًا منه بهذا فلن يحصل له إذا كان يريد رضا الله ﷻ، وهذا هو المقصود بالنفي أنه لا يحصل له ذلك وليس المعنىٰ أنه لا يحصل له أي ضرر لأن الدنيا طُبعت علىٰ خلاف ذلك، فلن تسلم لأحد.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **فيه مسائل:**

۞ **الأولى:** تفسير آية آل عمران.

يعني التفسير الذي يناسب الباب، وهو الخوف من الله.

۞ **الثانية:** تفسير آية براءة.

العمارة: هي طاعة الله فيها، وعمارة مسجد النبي ﷺ في وقته لما كانت أعمدته

من جذوع النخل وسقفه من جريد النخل، وإذا جاء المطر خر وكان يسجد في ماء وطين، وعمارته في ذلك الوقت أعظم من عمارته اليوم؛ لأن فيه الرسول ﷺ وفيه صحابته الذين يخشون ربهم، فالعمارة ليست بالتزويق والتحسين والبناء، وإن كانت داخلة في مسمىٰ العمارة، مع أنه جاء أن من أشراط الساعة زخرفة المساجد، وكذلك من آثار اتباع اليهود والنصارىٰ زخرفة المساجد، قال ابن عباس: لتزخرفنها كما زخرفت اليهود والنصارىٰ[1]. فهذا من اتباع اليهود والنصارىٰ، وهو مذموم علىٰ هذا وليس من المدح.

فالمقصود أن العمارة هي الطاعة ويدخل فيه البناء بدون تزويق وزخرفة، فالزخرفة منهي عنها، فلا تجوز أن تزخرف لأنها تشغل المصلين وهذا أقل ما فيه، وفيه تضييع الأموال فهي تهدر بلا فائدة، فعن عائشة ﵂ أن رسول الله ﷺ صلىٰ في خميصة لها أعلام، فنظر إلىٰ أعلامها نظرة، فلما انصرف قال: «**اذهبوا بخميصتي هذه إلىٰ أبي جهم وائتوني بأنبجانية أبي جهم، فإنها ألهتني آنفًا عن صلاتي**»، وقال: «**كنت أنظر إلىٰ عَلَمها وأنا في الصلاة، فأخاف أن تفتنني**»[2]، فكل ما فيه شيء يشغل المصلي يجب أن لا يكون في المسجد ولا يكون في وقت الصلاة وهذا منه.

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [التوبة: ١٨]، معروف أن الكافر لم يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، فإذا بنىٰ المسجد فلا قيمة لبنائه ولا عبرة له لأن عمله يتوقف اعتباره علىٰ الإيمان بالله واليوم الآخر، فإذا لم يؤمن فعمله كعدمه وكذلك قوله: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [التوبة: ١٨]، وقوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [التوبة: ١٨]، فالخشية خوف مع علم، يعلم صفات الله ﷻ وما يستحق.

(١) صحيح البخاري، باب بنيان المساجد.

(٢) رواه البخاري رقم (٣٧٣).

الثالثة: إن اليقين يضعف ويقوى.

اليقين: هو الإيمان يقوىٰ ويضعف، ابن مسعود يقول: اليقين هو الإيمان كله، والصبر نصف الإيمان، والإيمان يزيد وينقص كما هو مذهب أهل السُّنَّة، والأدلة علىٰ هذا كثيرة جدًا، والزيادة منصوص عليها في آيات كثيرة، ولكن النقص هو الذي اشتبه علىٰ بعض الناس، ولهذا بعض السلف توقف في مسألة النقص لأنه لم يأت في النصوص والواقع أن الشيء الذي يقبل الزيادة لا بد من نقصه لأنه قبل الزيادة ناقص، ولهذا استدل البخاري رحمه الله في صحيحه في كتاب الإيمان علىٰ نقص الإيمان بقوله جل وعلا: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة: ٣] لأنه قبل الكمال ناقص، فكل شيء يقبل الزيادة ضرورة أنه ينقص ويقبل النقصان، فلا إشكال في هذا مع أنه جاءت نصوص في النقص مثل قوله صلى الله عليه وسلم: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن**»(١) وقوله صلى الله عليه وسلم في النساء: «**ما رأيت ناقصات عقل ودين أسلب للب الرجل منكن**»(٢)، فسئل ما هو نقصان العقل والدين؟ قال: «**نقصان العقل شهادة امرأتين برجل، وأما نقصان الدين فتبقىٰ إحداكن وقتًا لا تصلي**»، وإنما كان هذا أمر قدره الله جل وعلا عليهن، ولكن المقصود أن كثرة العمل فيه الزيادة، فالذي يعمل أكثر من غيره يكون إيمانه زائدًا علىٰ غيره.

الرابعة: علامة ضعفه، ومن ذلك هذه الثلاث.

لأنه قال من ضعف اليقين، وهذا أمر واضح، واليقين المقصود به الإيمان، وإن كان اليقين يعبر عنه بالكمال، ولهذا جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: اليقين

---

(١) رواه البخاري رقم (٢٤٧٥) و(٥٥٧٨)، ومسلم رقم (٥٧).

(٢) رواه البخاري رقم (٣٠٤)، ومسلم رقم (٧٩) و(٨٠).

الإيمان كله[١]. يعني الإيمان الكامل، وهنا قصد به الإيمان فقط.

فعلامة ضعف الإيمان منها كونه يحمد الناس علىٰ رزق الله، ويذمهم علىٰ ما لم يقدره الله له، وكونه يطلب رضاهم بسخط الله ﷻ.

❁ **الخامسة**: أن إخلاص الخوف لله من الفرائض.

وهذا هو المقصود بالباب، أن الخوف فريضة، فرضها الله ﷻ علىٰ المؤمنين يجب أن يخافوا من الله ولا يخافوا من عدوهم، والشيطان يعظم الأعداء في قلوب الناس وفي أنظارهم كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، فلا يجوز أن المؤمنين يرهبون العدو لكثرتهم أو لعدتهم أو لغير ذلك، إذا كانوا مؤمنين حقًا متبعين رسولهم ومطيعين لأمر ربهم ﷻ، فالله يلقي في قلوبهم الخوف كما أخبر الرسول ﷺ: «**نصرت بالرعب مسيرة شهر**»[٢]، وليس هذا من خصائص الرسول ﷺ، بل هذا له ولأمته ولكن بشرط أن يكونوا متبعين له مطيعين له، أما إذا خالفوا ذلك فيكونون مثل ما قال فيهم ﷺ: «**إذا تبايعتم بالعينة واتبعتم أذناب البقر -يعني رضيتم بالدنيا- ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلًّا لا ينزعه حتىٰ ترجعوا إلىٰ دينكم**»[٣]، وقال: «**وليقذفن الله في قلوبكم الوهن**»، فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال: «**حب الدنيا وكراهية الموت**»[٤].

---

(١) رواه البخاري في باب الإيمان وقول الرسول ﷺ: «بني الإسلام علىٰ خمس».

(٢) رواه البخاري رقم (٣٣٥)، ومسلم رقم (٥٢١).

(٣) رواه أبو داود رقم (٣٤٦٢).

(٤) أخرجه أحمد في المسند رقم (٢٢٣٩٧)، وأبو داود رقم (٤٢٩٧) من حديث ثوبان قال رسول الله ﷺ: «**يوشك أن تداعىٰ عليكم الأمم من كل أفق كما تداعىٰ الأكلة علىٰ قصعتها**»، قال: قلنا: يا رسول الله أمن قلة بنا يومئذٍ؟ قال: «**أنتم يومئذٍ كثير ولكن تكونون غثاء كغثاء السيل ينتزع المهابة من قلوب عدوكم ويجعل في قلوبكم الوهن**» قال: قلنا: وما الوهن؟ قال: «**حب الحياة وكراهية الموت**».

يكرهون الموت ويحبون الدنيا، وهذه أضداد، فإذا كره الموت فالسبب أنه يحب الدنيا، وهذا خلاف ما كان عليه السلف من الصحابة وأتباعهم فكانوا يتسابقون إلىٰ الشهادة في سبيل الله، وكانوا إذا قتل أحدهم في سبيل الله هنَّأوه وقالوا هنيئًا لك الشهادة، وقد قال خالد بن الوليد رضي الله عنه: «والله لقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون أنتم الحياة».

۞ **السادسة: ذكر ثواب من فعله.**

يعني: إخلاص الخوف.

الباب الثالث والثلاثون

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **باب قوله تعالىٰ:** ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

هذا الباب أيضًا أراد أن يبين أن التوكل فرض علىٰ العبد، يجب أن يكون توكله كله علىٰ الله ﷻ، وأن يخلصه له وأن لا يكون للمخلوق منه شيء، ولهذا قال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾ فقدم المعمول علىٰ العامل ليدل علىٰ الاختصاص، أن التوكل خاص بالله ﷻ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾؛ يعني: لا علىٰ غيره، فهو يدل علىٰ وجوب إخلاص التوكل علىٰ الله وحده، فالآية نص في هذا، ولا يقال توكلت علىٰ فلان، أو توكلت علىٰ كذا وكذا، هذا لا يجوز أصلًا أن يقع من المسلم، ولكن تقول: وكلت فلان في كذا وكذا، وكلته يعني أنك تكتفي به في أمر من الأمور العادية التي يعملها وتسنده إليه.

قوله: «﴿فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾»: التوكل: مأخوذ من الاعتماد علىٰ الشيء، والاكتفاء به، توكلت عليه اكتفيت به واعتمدت عليه في أمر من الأمور. فالتوكل هو تفويض الأمر إلىٰ من بيده أزمة الأمور تفوض أمرك وتكله إليه.

وحقيقته فعل السبب مع اعتماد الإنسان علىٰ حصول المراد علىٰ الله ﷻ، وليس التوكل ترك الأسباب؛ لأن الله ﷻ رتب الأمور علىٰ الأسباب، ولا يجوز أن يكون العبد معطلًا للسبب ويقول أنا متوكل علىٰ الله، هذا نقص في العقل وقدح في الشرع، ومخالفة لأمر الله ﷻ، فالاعتماد علىٰ السبب شرك وتعطيل السبب قدح في الشرع والعقل.

أما كونه نقصًا في العقل فهو أمر ظاهر، فلا يمكن أن يقول الإنسان أنا أجلس في

بيتي فإن كان قدر لي أن أكون طالب علم سوف يحصل، أنا متوكل على الله في ذلك، أو مثلًا يقول: أنا لا أتزوج إذا كان الله قدر لي أن يكون لي ولد سوف يحصل، فهذا جهل، الله ﷻ جعل لكل شيء سببًا، وأمرنا بفعل السبب، والعمل، ولهذا يقول الرسول ﷺ: «**اعملوا فكل ميسر لما خلق له**»(١)، فلا بد من العمل، والقدر لا ينافي هذا لأن الأسباب نفسها من القدر، فهي مقدرة، فالمقدور قُدر مع أسبابه، ولا يقال جاء الحديث: «**لا يرد القضاء إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البر**»(٢) فهذا من القدر، فهو مقدر مع المقدور الذي سيحصل لك أنه مرتب على هذا، والله يعلم أنه سيقع هذا فالله ﷻ أمرنا بفعل السبب، ولكن لا يجوز أن نعتمد على الأسباب يجب أن يكون اعتمادنا على الله ﷻ لا على هذه الأمور التي أمرنا بفعلها، وهي أيضًا لا يمكن أن تستقل بالمراد أو تأتي به وإنما الذي يأتي به هو الله ﷻ، فعلى هذا يكون اعتمادنا على الله، فإن من التوكل أن تفعل السبب، ولكن لا تعتمد على السبب.

والسبب له موانع وله أسباب أخرى إذا شاء الله ﷻ صرف هذه الموانع وإذا شاء لم يصرفها، ولهذا ثبت في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**قال سليمان: لأطوفن الليلة على تسعين امرأة كل واحدة منهن تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، فقال له صاحبه: قل إن شاء الله، فلم يقل إن شاء الله فطاف عليهن جميعًا فلم تحمل منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل، وأيم الذي نفس محمد بيده لو قال: إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرسانًا أجمعون**»(٣). فالأمر كله بيد الله ﷻ

---

(١) رواه البخاري رقم (٤٩٤٩)، ومسلم رقم (٢٦٤٧) عن علي بن أبي طالب قال: كنا مع رسول الله ﷺ في بقيع الغرقد في جنازة، فقال: «**ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار**»، فقالوا: يا رسول الله، أفلا نتكل؟ فقال: «**اعملوا فكل ميسر لما خلق له**»، قال: ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ [الليل: ٥-١٠] وهذا لفظ البخاري.

(٢) رواه الترمذي رقم (٢١٣٩) عن سلمان رضي الله عنه، وابن ماجه رقم (٤٠٢٠).

(٣) رواه البخاري رقم (٢٨١٩)، ومسلم رقم (١٦٥٤).

والأسباب لا تنتج شيئًا إذا أراد الله ﷻ أمرًا من الأمور فلا تنفع الأسباب.

فالمقصود أن السبب يفعل، ولكن يفعل من باب أنه سبب جعله الله سببًا، فإن شاء نفذه وأدىٰ دوره، وإن شاء لم يفعل شيئًا، وذلك أن الله ﷻ هو مالك الملك وهو الرب المتصرف في كل شيء، وكل شيء ملك له تحت تصرفه، وهو الفعال لما يريد، ما يمكن أن يوجد مخلوق يفعل ما يريد أبدًا، الفعال لما يريد هو الله ﷻ فقط، إذا أراد شيئًا فعله، أما الخلق كلهم فهم يريدون الأشياء ولا يستطيعونها.

ولهذا أمرنا الله ﷻ بالتوكل عليه، وجاء بالمعمول يعنىٰ الجار والمجرور وقدمه علىٰ عامله الذي يعمل فيه وهو الفعل ﴿فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾ ليبين لنا أنه يجب أن يكون التوكل خاص بالله ﷻ وخالص له، ولا يجوز أن يكون توكل الإنسان علىٰ مخلوق، ولا يجوز أن تقول: توكلت علىٰ فلان، وإن كان الفعل الذي أسندته إليه يمكن أن يفعله لأن نفس التوكل لا يجوز أن يكون علىٰ مخلوق أصلًا، وإنما المخلوق يُوكل بفعل شيء، تقول له: افعل لي كذا وكذا، وكلتك أن تفعل كذا وكالة وليس توكل، أما التوكل فهو عمل القلب وأعمال القلوب يجب أن تكون خالصة لله ﷻ، ولا يجوز أن يكون لمخلوق فيها شيء، ولهذا قال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾؛ يعني: وحده، ليس علىٰ أحد معه شيء، فتوكل يعني فوض أمره إلىٰ الله ﷻ، فأصبح عبدًا لله مؤتمرًا بأمره مجتنبًا نهيه غير معتمدٍ علىٰ عمله ولا علىٰ نفسه ولا علىٰ أي مخلوق.

ومن الأخطاء الشائعة الآن حتىٰ أصبحت تُعَلَّم الأطفال يقال: اعتمد علىٰ نفسك وهذا خطأ، الواجب أن يقال: اعتمد علىٰ ربك، والنفس إذا اعتمد عليها فهي ضيعة، فمن اعتمد علىٰ غير الله لم يفلح، فالاعتماد يجب أن يكون علىٰ رب العالمين، وهذا هو حقيقة التوكل وهو ركن من أركان الإيمان لا يصح الإيمان بدونه، كما أن الخوف والرجاء من أركان الإيمان ولهذا جمع بينهما المؤلف رحمه الله.

ومعلوم أن كثيرًا من الناس يتوكلون على مخلوقين ضعفاء مثلهم في حصول رزق أو أمر من الأمور مثل تجارة أو نحو ذلك، فهم يتوكلون على هذه الأشياء يقول أحدهم: أؤمن حياتي بهذه الأشياء، والله ﷻ تكفل بالأرزاق كلها هو الذي أقدرك على هذا الشيء، ولو شاء لعطلك عن جميع الأشياء، بل يصرف القلب عن هذه الأشياء بل يميت القلب، فالواجب أن يكون العبد اعتماده على ربه ﷻ ثم يفعل السبب على أنه سبب جعله الله سببًا فقط؛ لأن الله أمر به قال سبحانه: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠]، هذا من فعل الأسباب التي أمر الله بفعلها، وأما أن نقول وكلت الأمر إلى الله، لا بد أن يكون مع هذا اعتماد قلبك على ربك وتفعل السبب، ثم بعد ذلك حصول المراد تكله إلى ربك، من هنا يأتي وكلت الأمر إلى الله بعد هذا، يعني بعد فعل السبب وبعد اعتمادك على ربك ﷻ وقطع النظر عن السبب بأنه يأتي بشيء، وإنما هو سبب، فالاعتماد على السبب شرك وترك السبب وعدم الالتفات إليه قدح في الشرع والعقل، فلا بد من الجمع بين هذه الأمور، ولا يجوز أن يجعل العبد عجزه توكلًا، ويقول: أنا أترك الأعمال وأتوكل على الله وسوف يأتيني كذا وكذا، ثم يصبح ينظر إلى الأسباب من الخلق ونحوهم متى يأتونه بشيء يريده، فهذا عجز ملوم عليه، بل ويعاقب على ذلك.

وقوله: «﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾»: فعلق وجود الإيمان على وجود التوكل، ﴿فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، كما جاء أيضًا أنه يعلق على وجود الإسلام أو نفيه، وهذه الآية في سياق قصة موسى مع قومه لما أمرهم بأمر الله ﷻ أن يدخلوا على القوم الجبارين: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

فإن في قوله: ﴿إِن كُنتُم﴾ هذه شرطية، ومعروف أن الشرط إذا فقد، فقد المشروط، والمشروط هنا الإيمان والشرط التوكل، فإذا لم يوجد التوكل فالإيمان مفقود، هذا ظاهر من الآية. وبهذا يتبين أن التوكل فريضة على العبد، ومعروف أن الناس يتفاوتون فيه تفاوتًا كبيرًا، منهم من يكون توكله ضعيفًا.

قوله: ﴿مُّؤۡمِنِينَ﴾: الإيمان: هل هو مأخوذ من التصديق أو من الأمن؟

المشهور أنه من التصديق، والتصديق إنما يكون بالقلب واللسان أو بالقلب، فالأعمال ليست من الإيمان على هذا، ثم عمدتهم في أن الإيمان هو التصديق قوله تعالى عن إخوة يوسف عليه السلام: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧]؛ يعني: بمصدق، وهل نقول آمنت به يعني صدقته؟ أو كذبته وكفرت به؟

فالإيمان يقابل الكفر فيقال: هو مؤمن به أو كافر به، والإيمان في اللغة لم يقابل بالتكذيب بل بالكفر، والكفر لا يختص بالتكذيب، بل لو قال له: أنا أعلم أنك صادق ولكن لا أتبعك بل أعاديك وأبغضك وأخالفك، لكان كفره أعظم من كفر المكذب، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، فهم لا يكذبون الرسول ويعرفون أنه صادق تمامًا ولكنهم يجحدون ويتكبرون ويعاندون في هذا، فتأمل مثلًا قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤] فهل كفره هذا تكذيب، فقد كان عالمًا بالأمور كلها، وهكذا أولياؤه غالبًا كفرهم من هذا الباب، فكفر التكذيب أقل من كفر الجحود والاستكبار، فأكثر الكفر من الجحود والاستكبار والإباء، ولهذا أخبر الله ﷻ عن الكفار بقوله: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤]، وقال موسى لفرعون: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، فإذا كان الكفر المقابل للإيمان

ليس هو التكذيب فقط، علمًا أن الإيمان ليس هو التصديق فقط، فالكفر يكون تكذيبًا، ويكون مخالفة ومعاداة وامتناعًا بلا تكذيب وعناد.

فكذلك الإيمان يكون تصديقًا مع الموافقة والموالاة والطاعة والمحبة والنصرة والانقياد والتسليم والرضا والفرح والاغتباط، فيكون الإسلام جزء من مسمىٰ الإيمان كما كان الامتناع من الانقياد مع التصديق جزء من مسمىٰ الكفر، فالإيمان إذًا يتضمن أمورًا كثيرة، فليس مجرد تصديق فقط.

ومن العلماء من قال: إن الإيمان أصله في اللغة من الأمن الذي هو ضد الخوف، كما قرر ذلك الحليمي في المنهاج وغيره.

وإلىٰ الآن كثير من الناس يلتبس عليه معرفة الإيمان، فأحيانًا يقولون الإيمان هو ما يقر في القلب، أما الأعمال فهي إما شرط صحة أو شرط كمال، كما يكتب الآن وينشر من بعض الذين يدَّعون أنهم علماء، فكيف يكون العمل شرطًا للإيمان مع أن الشرط كما هو مصطلح عليه أن الشروط قبل الأشياء، شرط الشيء قبله، مثل شروط الصلاة: دخول الوقت والطهارة والسترة واستقبال القبلة، فهل هذه من صميم الصلاة أو أنها قبل الصلاة؟ وكذلك الإسلام والنية ولهذا يقول الفقهاء أن شروطها قبلها، فالشرط معناه أنه غير الماهية، فلا يصح أن نقول: أن العمل شرط، وبهذا يتبين لنا دقة تعريف السلف للإيمان، فهو دقيق ولكنه يحتاج إلىٰ تأمل، فهم يقولون أن الإيمان: قول وعقيدة وعمل. يعني أن مجموع هذه الثلاثة هي الإيمان، فإذا فقد واحد منها فُقد الإيمان، فيشتمل علىٰ العلم الذي هو العقيدة وليس مجرد علم فقط، لا بد أن يتحلىٰ القلب به، وكذلك القول يقول: آمنت بالله، أو يقول: لا إله إلا الله كما قال ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتىٰ يقولوا: لا إله إلا الله**»(١).

---

(١) رواه البخاري رقم (١٣٩٩)، ومسلم رقم (٢٠) من حديث أبي هريرة.

وكذلك العمل، فلو أن الكفار مثلًا قالوا للرسول ﷺ نؤمن بك ولكن لا نصلي ولا نزكي ولا نصدق الحديث وتركوا العمل كله، فهل يمكن أن يقول أنكم آمنتم، أو يقال أنكم أكفر من إبليس، فلا يوجد إيمان بلا عمل؛ لأن العمل هو ثمرته بل هذه دلائله، فأما مجرد علم يكون في القلب، وتصديق فهذا لا يكفي ولا يكون الإنسان بذلك مؤمنًا، لأن الشيطان يعلم ذلك ويعرفه، والكفار يعرفون ذلك، ولهذا من تأمل ما ذكره الله ﷻ في قصص الأنبياء مع أممهم يتبين له أن غالب كفرهم كان من باب الجحود والعناد والتكبر والإباء، وأن كفر التكذيب قليل؛ لأن الله ﷻ أيد الأنبياء بآيات كما قال ﵊: «**ما من الأنبياء نبي إلا أعطي على ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة**»(١)، فكتاب الله ﷻ الذي أعطيه آية من آيات الله، ولكن هذه الآية لا يعرفها إلا من يعرف اللغة العربية، وكل ما تمعن الإنسان باللغة تبين له أن هذا الكتاب آية عظيمة وهو كما يقول الله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾ [الإسراء: ٨٨]، وقد تحدى أن يأتوا بسورة واحدة منه وإن كانت من أقصر السور مثل سورة الكوثر، وقد حاول بعض الزنادقة أن يأتي بشيء من ذلك فصار أضحوكة وعبرة للمعتبرين كما وقع لمسيلمة الكذاب وغيره.

فالقرآن آية عظيمة، ولهذا الكفار الآن وقبل الآن فهموا هذا الشيء فحاولوا كل المحاولات وهم لا يزالون يحاولون أن يبعدوا المسلمين عن لغتهم التي يعرفون بها كتابهم ويتبين لهم آية رسوله ﷺ ويتمسكون بهذا الكتاب إذا عرفوه، وبذلك يعرفون دينهم، فقد قال أحد كبار قوادهم في زمن سابق لما عقد مؤتمر عن كيف يصدون المسلمين عن دينهم وهو يخطب في هذا المؤتمر أخرج مصحفًا

(١) رواه البخاري رقم (٤٩٨١)، ومسلم رقم (١٥٢) من حديث أبي هريرة ﵁.

وقال: ما دام هذا المصحف عندهم لن تصدوهم عن دينهم حاولوا أنكم تصدونهم عن هذا فصاروا مرة يدعون إلىٰ اللغة العامية إنها هي التي يجب أن تنتشر وأنها هي لغة الناس كلهم، واللغة الفصحىٰ صعب تعلمها، ومرة يأمرونهم أن يتعلموا لغاتهم ويتركوا لغتهم لأن لغتهم ميتة ليس فيها علوم الطب وعلوم الصناعات، وليس فيها كذا وكذا إلىٰ آخره، وقد حصَّلوا بعض مرادهم، ولا يزالون في هذا الشأن.

فالآية التي أنزلها الله ﷻ حفظها الله ﷻ، فكتاب الله ﷻ محفوظ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، فالله ﷻ تولىٰ حفظه، وقد نشر في أمريكا كتاب سموه القرآن الحق يحاولون أن يصير هو القرآن للمسلمين، فلا يزال الكفر يعمل عمله بهذا، ولكن لو جاءوا به إلىٰ بلاد المسلمين لظهر بطلانه حتىٰ عند الصبيان الذين في الحلق يعرفون أن هذا باطل؛ لأن القرآن في صدور كثير من الناس ليس في كتاب موضوع في مكتبة، أو يعرفه الخاصة وعدد محدود مثل التوراة، فهذا من حفظ الله له أن جعل القرآن يعرفه كبارهم وصغارهم رجالهم ونساؤهم، فالأمة تنقله عن آخرها ليس رجلًا ولا عشرة ولا مئة كلها تتوارثه من عهد الصحابة، فهذا من حفظ الله ﷻ له وقد يسَّره للذكر.

واللغة محفوظة، فهي محفوظة بالقرآن، فالقرآن هو مصدر اللغة الآن وفيه من اللغة الشيء الكثير، ولهذا يستشهد به أهل اللغة وإن كانت اللغة واسعة يجب أن يُحافظ عليها لأنه لا يفهم ما قاله الرسول ﷺ إلا إذا فهم لغته، ولهذا يقول العلماء: يجب علىٰ كل مسلم أن يتعلم اللغة العربية، فاللغة دين يدان الله به، وحفظها والمثابرة علىٰ ذلك يؤجر العبد عليه.

والإيمان بالله ﷻ يتضمن الإيمان بوجود الله وبأسمائه وصفاته، وامتثال أمره واجتناب نهيه، وتصديق خبره الذي يخبر به ﷻ، فلا بد من هذه فكلها داخلة بالإيمان بالله.

وكذلك يتضمن الإيمان باليوم الآخر ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [البقرة: ٦٢]، واليوم الآخر يدخل فيه كل ما أخبر الله به ﷻ بعد الموت فهو داخل في هذا.

وكذلك الإيمان بالملائكة وبالرسل وبالكتب، فكلها داخلة بالإيمان بالله ﷻ فلا بد منها.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ الآية** [الأنفال: ٢].

قوله: «**الآية**»: قصد تمام الآيات التي فيها صفات المؤمنين ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الأنفال: ٣] ذكر فيها خمس صفات للمؤمنين بعدما حصر الإيمان فيهم، فمن كانت هذه صفاته حصل له كمال الإيمان، ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢] هذه واحدة، ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢] وهذه الثانية، والثالثة قوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، والرابعة: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الأنفال: ٣]، والخامسة: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الأنفال: ٣]، وهي أمور عظيمة، وما عداها من الأمور التي يجب أن يتحلىٰ بها المؤمن ويتصف بها داخلة فيها، فالإيمان محصور في هذه الأشياء المذكورة لأنها تستدعي ما عداها من أمور الإيمان إذا حصلت هذه للإنسان تامة فلا بد أن يأتي بالبقية.

قوله: «﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾»: ﴿وَجِلَتْ﴾؛ يعني: خافت وارتعدت من خوف الله ﷻ، فالوجل من الخوف، فوجل القلب خوفه وخشيته، إما أن يكون قصر في حقه ﷻ، أو كونه خاف وعيده أو أنه اقترف شيئًا مما نهاه الله عنه، قال السدي: هو الرجل يريد أن يظلم أو قال: يهم بمعصية، فيقال له:

اتق الله، فيجل قلبه[١]. فيقف ويمتنع وهذا مجرد مثال، وإلا فالآية أوسع من هذا وأعظم، والسلف كانوا يذكرون الأمثلة للتقريب، لتقريب المعنىٰ إلىٰ الأفهام.

وهناك سبب آخر وهو الحب، حب الله ﷻ إذا ذكر المحبوب لا بد أن يتحرك القلب، ووجله تحركه إما خوفًا من الفوات أو خوفًا من التقصير فترجع إلىٰ هذه الأشياء، فالمقصود أن المؤمن إذا ذكِّر بربه لا بد أن يخاف، فإذا خاف لا بد أن يقف عن المعاصي ويفعل الطاعات وهذا هو زيادة الإيمان.

قوله: «﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾»: ﴿تُلِيَتْ﴾؛ يعني: قرأت والمقصود بالآيات هنا الآيات السمعية يعني الآيات القولية، آيات القرآن، فمعنىٰ ذلك أن المؤمن إذا سمع آيات القرآن لا بد أن يزداد إيمانًا ومن الأمور، التي إذا سبر الإنسان حاله فيها وجدها أن استماع القرآن من غيره أبلغ وأكثر تأثيرًا في نفسه بشرط أن ينصت ويستمع ويجمع قلبه علىٰ ذلك، ولهذا قال رسول الله ﷺ لابن مسعود رضي الله عنه: «**اقرأ علي، قال: اقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: نعم، أحب أن أسمعه من غيري**» قال: فقرأ فافتتح سورة النساء، حتىٰ بلغ قوله: «**فكيف إذا جئنا من كل أمةٍ بشهيد وجئنا بك علىٰ هؤلاء شهيدًا**» قال: حسبك، فرفعت رأسي، فإذا عيناه تذرفان[٢]، صلوات الله وسلامه عليه.

قوله: «﴿زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾»: إما أنهم خافوا أو رجوا، أو أنهم علموا وتفكروا بها فزادوا علمًا، وهذا من مقتضيات زيادة الإيمان، فمن زيادة الإيمان التأثر بالقرآن.

وزيادة الإيمان إما أن يكون عنده رغبة في العمل الصالح وإما عنده وجل في قلبه ورجاء لثواب ربه أو خوفًا من عقابه وكل هذا من زيادة الإيمان، يعني أنه لا بد

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ١٢).

(٢) سبق تخريجه في الباب الثاني والثلاثون.

أن يحصل له أثر عندما يسمع كلام الله ﷻ، فإذا كان العبد ممن يحب الصوت فقط ويستمع إلىٰ الصوت ولا يلتفت إلىٰ المعنىٰ فلن يتأثر بشيء، يصبح مثلًا يريد الموسيقا والصوت الحسن الجميل الذي يرتاح إليه ويميل إليه وهذا لا يوجد شيئًا من الإيمان، بل هذا يضر أكثر مما ينفع، ولا يقال مثلًا أن الصوت الحسن غير مطلوب في القرآن، بل مطلوب ومستحب، ولكن الغناء فيه لا يجوز، يعني كون الإنسان يتخذه شبه الأغاني وإنما يحسن صوته به كما قال الرسول ﷺ: «**زينوا القرآن بأصواتكم**»[1]؛ يعني: يجتهد أن يكون صوته حسنًا، ولكن لا يخرجه عن كونه كلام عربي علىٰ وضع معين فيجعله علىٰ مقاطع معينة كمقاطع الموسيقا كأنه شعر، هذا لا يجوز.

والرسول ﷺ كان يحب الصوت الحسن الجميل ويستمع إليه، ولهذا لما مر علىٰ بيت أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه وهو يقرأ في الليل وقف يستمع، ثم لما غدا عليه في الصباح قال له: «**لو رأيتني البارحة وأنا أستمع لك وقد أوتيت مزمارًا من مزامير آل داود**»[2]، لأن أبا موسىٰ الأشعري رضي الله عنه كان حسن الصوت، فقال له أبو موسىٰ: والله لو علمت بك لحبَّرته لك تحبيرًا[3]. يعني: لحسنته وزينته فترتاح إليه أكثر، فدل علىٰ أن تحسين الصوت بالقرآن أنه أمر مطلوب لأنه قد يرقق القلب ويجذب النفس إلىٰ التأثر باستماعه بخلاف إذا جعل علىٰ شبه الأغاني وشبه مقاطع الموسيقا والشعر، فإن هذا لا يجوز، وقد جاء التحذير من ذلك، وأنه يخرج في آخر الزمان قوم هذه صفتهم يقدمون أحدهم يقرأ لهم ليس هو أعلمهم ولا أتقاهم وإنما يغنّي

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم (١٨٤٩٤)، وأبو داود رقم (١٤٦٨)، وابن ماجه (١٣٤٢)، والنسائي رقم (١٠١٥) من حديث البراء بن عازب.

(٢) رواه مسلم رقم (٧٩٣).

(٣) رواه البيهقي رقم (٤٨٩٥)، والبزار رقم (٣١٦٠)، والحاكم في المستدرك رقم (٥٩٦٦) وصححه ووافقه الذهبي.

لهم، وهؤلاء: «**لا يجاوز القرآن حناجرهم**»؛ يعني: لا يصل إلىٰ قلوبهم وإنما مقصودهم استماع الصوت فقط.

فالمقصود أن المؤمن إذا سمع كلام الله لا بد أن يزداد خيرًا، إما وجل القلب وخوفه، أو رجاءه ورغبته، أو زيادة العمل، أو الانزجار عن أمر من الأمور التي هو فيها.

قوله: «﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾»: فجعل التوكل هو الجامع، وتقديم المعمول ليفيد قصر التوكل علىٰ الله، وأن التوكل فريضة لا يجوز أن يشرك فيه مع الله غيره، والتوكل من مقامات الإيمان العظيمة، وأنه إذا فقد فالإيمان مفقود لا وجود له.

فعلىٰ ذلك لا يحصل التوحيد إلا بالتوكل علىٰ الله ﷻ كما دلت عليه هذه الآية وغيرها.

والتوكل على المخلوق شرك، وهو على قسمين:

يكون توكل علىٰ من هو غائب أو ميت بأن يشفع له أو ينفعه أو يدفع عنه من أمور الدنيا والآخرة، فهذا شرك أكبر لا يغفره الله ﷻ إلا بالتوبة منه والإقلاع عنه.

وتوكل علىٰ وظيفة أو سلطان أو عمل من أعمال الدنيا أو ما أشبه ليتحصل منه علىٰ شيء من الدنيا، فهذا من الشرك الأصغر، وقد يترقىٰ بالإنسان إلىٰ أن يكون معتمدًا عليه قاطعًا النظر عن ربه ﷻ، فالتوكل علىٰ المخلوق إما أن يكون شركًا أكبر أو شركًا أصغر، أما الوكالة الجائزة فهي أن يفوض الإنسان في عمل ما أن يقوم مقامه يقول: وكلتك أن تعمل كذا وكذا ولكن لا يعتمد عليه قلبه وإنما يعتمد علىٰ ربه في حصول المراد إنما يكل إليه الشيء الذي يفعله وباستطاعته نائبًا عنه قائمًا مقامه في ذلك، فهذا أمر جائز لا لوم علىٰ الإنسان فيه، أما أن يعتمد علىٰ مخلوق في أن يحصل له رزقه من قبله سواء كان أمرًا معنويًا أو شيئًا حسيًا، فالمعنوي كان يعتمد علىٰ صنعته أو علىٰ معرفته، وكونه يقول أنا أعرف كيف أتصرف، أعرف

كيف أتجر، أعرف كيف آتي بالبضائع وما أشبه ذلك، فيضيف الأمور إلىٰ معرفته وإلىٰ نفسه، ولهذا حصل لي كذا وحصل لي كذا، فهذا نوع من الشرك الأصغر، الشرك الخفي، وما أكثره، ولا يسلم من هذا إلا من سلَّمه الله ﷻ.

وأما إذا اعتمد علىٰ ميت أو غائب بأنه سوف يحصل له شفاء قلبه، أو شفاء مرضه، أو أنه يحصل له رزقه بسببه، أو أنه يكون قد وكل إليه النصر في ذلك، وكل الله إليه التصرف في ذلك من باب الكرامة أو ما أشبه ذلك كما يعتقده بعض الضلال، أو أنه يعتمد علىٰ شفاعته في القيامة ونجاته من النار في شفاعته فيه وما أشبه ذلك، فهذا من الشرك الأكبر الذي لا يجوز أن يقع من المؤمن.

أما كون الإنسان يوكل غيره بأن يقوم ببعض الأمور نيابة عنه فهذا يسمىٰ وكالة ولا يجوز أن نقول توكل عليه في كذا، بل نقول: وكله في كذا، الشيء الذي يكون محددًا أو معروفًا ويقوم به مقامه، مع أنه لا يعتمد قلبه عليه بل يعتمد علىٰ ربه ﷻ في حصول المراد فهذا أمر جائز.

وقوله: «﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾»: إقامة الصلاة ورد بهذا اللفظ في جميع ذكر الصلاة في القرآن بلفظ الإقامة ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يعني: يأتون بها كاملة بأركانها وواجباتها، ومن أعظم ما ينبغي أن يعتبر في إقامتها الخشوع وحضور القلب، أما حضور القلب فهو متعين واجب علىٰ الإنسان ويعاقب بعدمه.

أما الخشوع فسُنَّة وفضل إذا حصل فهو خير والله ﷻ أثنىٰ علىٰ الذين يخشعون في صلاتهم، وإذا لم يحصل فإن العبد لا يأثم فيه، أما حضور القلب فإنه يأثم، وحضور القلب أن تحضر قلبك وتتأمل ما أنت فيه وما تسمع وأين أنت، فأنت قائم بين يدي الله ﷻ كما قال ﷺ: «**فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده ما لم يلتفت**»[1]،

(١) المسند رقم (١٧١٧٠)، والترمذي رقم (٢٨٦٣) من حديث الحارث الأشعري.

فكيف يقابله ثم يلتفت عنه ويُعرِض، هذا من استيلاء الشيطان عليه والغفلة واللهو في هذا، وحديث القلب في أمور الدنيا فهذا معصية، ولهذا جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «أنه لا يكتب للإنسان من صلاته إلا ما حضر» يعني: حضرها قلبه كما جاء في الحديث: «إن الرجل لينصرف وما كتب له إلا عشر صلاته تسعها ثُمُنها سُبعها سدسها خُمسها ربعها ثلثها نصفها»[1] أو كاملة، وقد لا يكتب له إلا عُشرها، وقد لا يكتب له شيء، فإذا انتهىٰ من صلاته تُلَفُّ كما يلف الثوب الخلِق ويرمىٰ بها وجهه وتقول: ضيَّعك الله كما ضيعتني، وإلا تصعد ولها نور إلىٰ السماء، يقبلها الله جل جلاله، فالشيطان حريص علىٰ أن يصرف العبد عن صلاته، ولهذا يذكره بالشيء الذي ينساه في صلاته، ويأتيه يحدثه بالشيء الذي يهمه أو يفرحه حتىٰ يشغله، فمجاهدته في مثل هذا المقام أمر متعين يجب أن يجاهد الشيطان ويجاهد نفسه في ذلك، ويجتهد في حضور قلبه ويتأمَّل كلام الله، ويتأمَّل موقفه، وإذا كبَّر قال: الله أكبر، علم أن الله أكبر من كل شيء، وكذلك إذا ركع يتأمل أنه يخضع لرب العالمين، لأن الركوع خضوع وذل واستكانة، فهو نوع من السجود، وإذا سجد كذلك ذل وخضع، ويتأمل أنه وضع أشرف ما في بدنه وضعه علىٰ الأرض، خاضعًا لربه جل جلاله وذالًّا وأقرب ما يكون الرب من عبده وهو ساجد.

وقوله: «﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾»: هذا عام يدخل فيه الزكاة والصدقة وصدقة التطوع والزكاة الفرض لا بد منها، فلا بد أن يؤديها الإنسان فرحًا بها مغتبطًا بها مسرورًا أنه أعطي مالًا وطلب منه القليل يؤديه وهو يؤجر علىٰ هذا القليل، ومن المعلوم المقرر في الشرع أن أداء الواجبات أفضل من التطوع بالأشياء التي لم تجب، فهو يؤجر عليها أكثر.

(١) رواه أبو داود رقم (٧٩٦) من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنه.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **وقوله:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤].

حسبك يعني: كافيك الله، كافيك ما يهمك، وكافيك أعداءك.

وقوله: «﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾»؛ يعني: وكافي من اتبعك. وقد ذكر شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم رحمهما الله أن من المفسرين من أخطأ في هذا فقال: إن العطف في قوله: ﴿حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ أن العطف على قوله: ﴿حَسۡبُكَ﴾ يعني: أن حسبك الله وحسبك المؤمنون، فهذا خطأ فظيع، والمعنى الصحيح: حسبك الله وحسب أتباعك من المؤمنين.

والحسب هو الكافي، يعني أنه يكفيك فلا تطلب شيئًا من غيره، فهذا معنى التوكل ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣] يعني: كافيه.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **وقوله:** ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

قوله: «﴿فَهُوَ﴾»: يعني الله «﴿حَسۡبُهُۥٓ﴾» الحسب هو الكافي، وهذا فضل عظيم للتوكل، جزاؤه عظيم جدًا حيث جعل جزاء المتوكل أنه هو حسبه جل وعلا، ومن كان الله حسبه فلن يأتيه ما يضره فمن توكل على الله، فالله يكون كافيه كل ما أهمه، فلو كادته السماوات ومن فيها، والأرض ومن فيها، لم يضره ذلك، لأن الله جل وعلا كافيه كل شيء، وإذا كفلَ الله عبده فكل الأشياء نواصيها بيد الله يتحكم فيها كيف يشاء تعالى وتقدس.

والتوكل ليس معناه تعطيل الأسباب، فهذا يسمى تواكلًا وعجزًا، فتعطيل الأسباب قدح في الشرع والعقل، ولهذا جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون، ويقولون: نحن المتوكلون، فإذا قدموا مكة سألوا الناس

فأنزل الله: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧][1]، فقيل لهم: بل أنتم المتأكلون من الناس، يجب أن تستعدوا وتأخذوا قوتكم، ولا تطمعوا بما في أيدي الناس فلا بد من فعل السبب.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **وعن ابن عباس، قال: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا له: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾** [آل عمران: ١٧٣]. **رواه البخاري**[2].

يعني أن الخليلين إبراهيم وابنه محمد عليهما الصلاة والسلام قالا هذه الكلمة في أحرج المواقف وأعظم ما وقع لهما، فإبراهيم عليه السلام لما حطم الأصنام، وهو وحده وكان تحطيمه لها دعوة إلىٰ عبادة الله وحده وتوحيده ولكن الكفار لا يفيد فيهم لا عقل ولا حجج، فمن يضلل الله فلن تجد له هاديًا وفي النهاية قالوا: ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨] فصاروا يجمعون حطبًا عظيمًا ثم أضرموا نارًا عظيمة فقذفوه فيها. فقال عند ذلك: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ يعني: هو كافيني من كل شيء، فقال الله جل وعلا للنار: ﴿كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]، فهذا من أعظم الآيات وهو يجادلهم ويناظرهم، ولم يكن له قوة يقاتلهم بها فقال: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ فصار كافيه، وفي لحظة قال للنار: ﴿كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا﴾ فصارت روضة من رياض الدنيا فقام يصلي فيها، فأين كيد الكفار؟ وأين جمعهم؟ وهو رجل وحده حيث كفاه الله جل وعلا لأنه قائم لله جل وعلا غير ملتفت للخلق وكلهم عليه، فصار النصر حليفه.

---

(١) رواه البخاري رقم (١٥٢٣).

(٢) رقم (٤٥٦٣).

وكذلك قصة أبي مسلم الخولاني، دعاه الأسود العنسي إلىٰ أن يشهد أنه رسول الله فقال: أتشهد أني رسول الله؟ فقال: لا أسمع، أشهد أن محمدًا رسول الله. فألقاه في النار فلم تضره[1]. فإذا صدق الإنسان ربه ﷻ فهو حسبه.

وكذلك ما حصل لمحمد ﷺ حينما تألب عليه الكفار وحصل له منهم ما حصل فقال ﷺ: «**حسبي الله ونعم الوكيل**»، وأمر أصحابه أن يقولوها فكفاه الله ﷻ مع أصحابه، ونزل عليه قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ۝١٧٣ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣، ١٧٤].

فالمقصود أن التوكل والاعتماد علىٰ الله في أحلك الأمور وأشدها يكون من أعظم الفرج وأقرب النصر لأن الله ﷻ بيده كل شيء وهو الذي يتصرف في الخلق كيف يشاء وهو الذي ينصر عبده المؤمن، فهو مع المؤمنين بالنصر والتأييد.

نسأل الله ﷻ أن يجعلنا من المؤمنين الذين يتوكلون علىٰ ربهم ويعتمدون عليه ويتبعون سُنَّة نبيهم محمد ﷺ.

✍ قال المؤلف رحمه الله: فيه مسائل:

۞ الأولى: أن التوكل من الفرائض.

يعني: أنه لا بد من فعله لكل فرد، ومن أخلَّ به فهو آثم، أما من لم يأت به فإنه لم يأت بالتوحيد.

(١) البداية والنهاية (٤/ ٥٤٢).

الثانية: أنه من شروط الإيمان.

يعني: أنه قال: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فإن هذه شرطية، فإذا انتفى التوكل انتفى الإيمان.

الثالثة: تفسير آية الأنفال.

قوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤] فالمعنى: يا أيها النبي الله كافيك وكافي أتباعك، أما قول من قال: الله كافيك وأتباعك يكفونك، فهذا لا يجوز لأن الحسب يجب أن يخلص لله ﷻ، فهو حسبك وحسب أتباعك، يعني الله هو الذي يكفيك فيجب أن تعتمد عليه وتتوكل عليه ﷻ، وكذلك أتباعك يجب أن يعتمدوا عليه، فإذا توكلوا عليه فهو حسبهم.

الرابعة: عظم شأن هذه الكلمة، وأنه قول إبراهيم عليه السلام ومحمد ﷺ في الشدائد.

ولكن مجرد قول بلا تحلي القلب فيها، وصدق مع الله ما يكفي، وإن نفع فإنه لا يكفي.

الباب الرابع والثلاثون

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **باب قول الله تعالىٰ**: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

المقصود بالباب أن يكون العبد خائفًا راجيًا، وأن يكون خائفًا من ذنوبه ومن عقاب الله جل جلاله، وأن يكون راجيًا لرحمة الله جل جلاله، وذلك أن بواعث الخوف محققة وهي أن العبد لا ينفك عن الذنوب، وعذاب الله شديد، وأما أعماله التي يعملها فهو لا يدري هل هو أتىٰ بها علىٰ الوجه الذي يمكن قبولها أولًا والمؤثرات فيها قد تكون كثيرة، ولا يدري هل قبلت توبته من الذنوب أو لم تقبل؟ فإذًا يكون الذنب محقق وأما الموانع من العذاب فهي مرجوة وهذا معناه أنه يكون خائفًا ولكن مثل ما سبق يجب أن لا يخرجه الخوف إلىٰ حد القنوط، يكون معتدلًا في خوفه والخوف المعتدل هو الذي يمنعه من ارتكاب المعاصي أو من ترك الواجبات، ولا يزيد علىٰ ذلك، كما أنه أيضًا يجب أن يكون محسنًا الظن بربه جل جلاله، فالله جل جلاله عند ظن عبده به، ولكن إحسان الظن يكون مع العمل كما قال الله جل جلاله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [البقرة: ٢١٨]، أما الرجاء مع الإقامة علىٰ المعاصي فهو غرور من الشيطان، وهذه حالات المؤمن التي لا ينفك عنها، ولهذا أثنىٰ الله جل جلاله علىٰ عباده المصطفين أنهم يدعون ربهم رغبًا ورهبًا، يرغبون في رحمته ويطمعون في إحسانه وبره، ويرهبون عذابه، وكذلك أفعال الإنسان فإنها لا تكون مستقيمة كما ينبغي وكما أمر الله تعالىٰ.

وفي هذه الآية ذكر حالة المعذبين، وأن العذاب جاءهم بغتة والله جل جلاله يعطي الإنسان بالابتلاء فإن شكر وعرف المنعم وأثنىٰ عليه وعمل بطاعته زاده نعمة، وإن

كفر النعمة فربما زيد في نعمته حتىٰ يظن أنه مرضي عنه أو ينسىٰ أمر الله ﷻ وعقابه فيأتيه العذاب بغتة، هذا إذا كان العذاب عامًا، أما إذا كان العذاب خاصًا بالإنسان نفسه فهذا أمره لا ينضبط في شيء معين، فإن العذاب قد يكون ظاهره الخير فيما يتصوره الإنسان، وهو في الواقع عذاب، كأن مثلًا يكون مذنبًا ويقيم علىٰ الذنوب ثم تزداد صحته وعافيته ودنياه، ثم يزداد بعدًا عن ربه ﷻ كل يوم أو كل وقت، وهو يظن أنه علىٰ خير حتىٰ تتراكم أعماله وذنوبه علىٰ قلبه، فيصبح قلبه مغطىٰ عن معرفة نفسه ومعرفة حق ربه فيكون قد ران علىٰ قلبه ما كان يكسبه كما قال الله ﷻ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

والران هو آثار الذنوب وعقوباتها فالعقوبة الحقيقية هي العقوبة في الدين، وليست العقوبة في النفس أو في المال، فإن هذا قد يكون تكفيرًا وتمحيصًا، فيكون خيرًا للعبد.

قوله: «﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾»: هذه الآية، جاءت بعد ما ذكر الله تعالىٰ قصص الأنبياء، وأخذه للأمم الكافرة، قال الله تعالىٰ: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧-٩٩] هذا يدل علىٰ أن أخذ الله يأتي بغفلة، إما أن يكون نائمًا والنوم إما يراد به نوم البدن، وقد يراد به نوم القلب، غافل عن هذا الشيء، أو أنهم في لهو وطرب، يأتيهم البأس وهم في اللعب، ولكن هذا الغالب أنه لا يكون إلا بعد النعم وبعد ما تغدق عليهم النعم، وتكثر عليهم فضائل الله الدنيوية، ولهذا السلف يقولون: إذا رأيت الرجل ينعم عليه وهو في معاصي الله فاعلم أن ذلك مكر من الله يمكر به، وفي الحديث: «**إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا علىٰ معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج**»(١).

(١) أحمد في المسند رقم (١٧٣١١) من حديث عقبة بن عامر.

قوله: ﴿أَفَأَمِنُواْ﴾: الهمزة هنا للإنكار، كيف يأمن العبد مكر الله ﷻ.

وقوله: ﴿مَكۡرَ ٱللَّهِ﴾: المكر هو أن يأتيه العذاب من حيث أنه يظن أنه رحمة أو خير، وقد يكون ذلك بغتة كأن يُمنع الإنسان من الاستعتاب والتوبة، ومنعه إما بصرف قلبه عن طاعة الله ﷻ فإن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن ﷻ يقلبها كيف يشاء، فيجب أن يخاف العبد من جراء ذنوبه أن يحال بينه وبين معرفة الحق ومطالعة الذنوب ومعرفة نفسه أو يكون ذلك بأخذه بغتة، يعني يأتيه الموت بغتة، وما أكثر ما يأتي الموت في هذه الأوقات بغتة، إما حوادث، وإما موت مفاجئ، فلا يتمكن الإنسان لا من توبة ولا من عمل، فيؤخذ علىٰ ما هو عليه، وقد جاء أن موت الفجأة أخذ للفاجر وراحة للمؤمن(١).

والرسول ﷺ استعاذ من موت الفجاءة وأخبر أنه يكون في آخر الزمان كثير، وعلىٰ كل حال فالعبد لا يخلو من الذنوب، وعذاب الله شديد ولا يجوز أن يكون متهاونًا بأمر ربه ﷻ ومستبعدًا عقاب الله تعالىٰ، وهو أنواع شتىٰ، منها خوف الخاتمة ما يدري ما يكون في عاقبة الأمر، وهذا أمر كان السلف يخافون منه كثيرًا، فهذا سفيان الثوري رحمه الله: بات ليلة يبكي بكاءً شديدًا، فعاتبه بعض أهله، فقال له: أكل هذا خوفًا من الذنوب؟ فأخذ عودًا من الأرض فقال: الذنوب لا تساوي عندي هذا، ولكن ما أدري ماذا أموت عليه؛ لأن القلوب تقلب والله ﷻ كتب كل شيء في الأزل.

قال معاذ بن جبل رضي الله عنه الذي قال له رسول الله ﷺ لما أخذ بيده: «**والله إني لأحبك فقال: أوصيك يا معاذ لا تدعن في دبر كل صلاة تقول: اللهم أعنِّي علىٰ ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**»(٢)، لما حضرته الوفاة رضي الله عنه صار يبكي: قيل له: ما الذي

(١) مصنف ابن أبي شيبة رقم (١٢٠٠٥) عن ابن مسعود قال: موت الفجاءة راحة علىٰ المؤمنين وأسف علىٰ الكفار.
(٢) رواه أبو داود رقم (١٥٢٢).

يبكيك؟ قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله قبض قبضتين فقال: هـؤلاء في النار وهؤلاء في الجنة**»، فلا أدري في أيِّ القبضتين أنا[١]؟. وهذا كثير جدًا في حالاتهم من تتبعها تعجب أشد العجب في المقارنة بين حالاتنا وحالاتهم، فعلىٰ هـذا يجب علىٰ العبد أن يكون خائفًا.

أحد العلماء رأىٰ تلميذًا له يضحك فقال له: هل فكرت في عاقبة أمرك؟ فقال له: والله تركتني لا يهنأ لي عيش. يعني إذا فكر الإنسان في عاقبة الأمر ما يدري ماذا يكون له؟ ولا سيما إذا كان الإنسان يتحقق أن رأس ماله في عمره القصير، فلا بد أن يخاف علىٰ رأس المال أن يكون بلا فائدة، والحقيقة أن اكتساب الخير والفضل والسعادة في هذا العمر القصير، أو اكتساب الشر الطويل والعذاب العريض الذي لا ينقضي هو في هذا، فحقيق بالعاقل أن يخاف، وخوفه بأن يلجأ إلىٰ ربه ﷻ دائمًا ويفتقر إليه ويسأله الثبات، ولعظيم هذا الأمر ولرحمة الله ﷻ وإحسانه إلينا أوجب علينا أن نسأله هداية الصراط المستقيم في كل ركعة من ركعات الصلاة وهذا لشدة الحاجة، فالعبد في أعظم الحاجة لهذا الأمر، ولهذا يقول الله ﷻ: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [الحديد: ١٧]، يقول ابن كثير رحمه الله: فيه إشارة إلىٰ أنه تعالىٰ، يلين القلوب بعد قسوتها، ويهدي الحيارىٰ بعد ضلتها، ويفرِّج الكروب بعد شدتها، فكما يحيي الأرض الميتة المجدبة الهامدة بالغيث الهتَّان الوابل، كذلك يهدي القلوب القاسية ببراهين القرآن والدلائل ويولج إليها النور بعدما كانت مقفلة لا يصل إليها الواصل، فسبحان الهادي لمن يشاء بعد الإضلال، والمضل لمن أراد بعد الكمال الذي هو لما يشاء فعال، وهو الحكم العدل في جميع الفِعال، اللطيف الخبير الكبير المتعال[٢].

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم (١٧٥٩٣).
(٢) تفسير ابن كثير (٢١/ ٥).

فأخبر الله ﷻ في هذه الآية أن عذابه لا يأتي إلا عند الأمن إذا أمنوا: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧] يعني: لاهون غافلون في غيهم ولعبهم، أو ﴿نَآئِمُونَ﴾، وكلها سواء، فالنائم غافل أيضًا ولاهٍ.

واللعب يدخل فيه الدنيا كلها، كل أمور الدنيا لعب في الواقع كما قال سبحانه: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرُۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠]، ثم تنتهي كأنها مثل السحاب الذي جاء فأمطر ثم مر كأن لم يأت فجاء بعد وقت قليل الصيف والشمس والهواء فأطارته فصار حطامًا تذروه الرياح، هذه حقيقة الدنيا، ولهذا كان بعض العلماء يأخذ تلامذته ويذهب بهم إلى المزابل فيقول: انظروا هذه حقيقة الدنيا. الدنيا لباس ومأكول ومنكوح عاقبتها هذه المزابل فقط.

فيجب أن يكون الإنسان مترفعًا بنفسه عن هذه الحالات التي هي حالات البهائم والإنسان إذا غفل صار أسوأ من البهيمة، ولهذا يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [التين: ٤، ٥]، والإنسان هنا اسم جنس، فهو عام كل الناس خلقهم في أحسن تقويم، ثم رددناهم أسفل سافلين، واستثنى من ذلك الذين آمنوا وعملوا الصالحات فقط، وأسفل سافلين يكون في الدنيا وفي الآخرة، في الدنيا في أخلاقه وأفعاله فهو في الواقع أخبث من الحيوانات المفترسة، انظر كيف يصنعون في الناس والحيوانات لا تعمل هذا، وكل هذا حتى يتراكم عليهم العذاب -نسأل الله العافية- ويعظم عذابهم، ثم في الآخرة أسفل سافلين يعني في جهنم، فهي أسفل سافلين.

وفي الآية الأخرى قال ﷻ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ١، ٢]،

أقسم الله جَلَّ وَعَلَا ثم جاء الجواب: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢] ويفهم من قوله: ﴿لَفِى﴾ أن هذا خسار يستمر ويتجدد ويزيد لأنه مستمر فيه، ثم استثنى ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣]، هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات الأربع هم الذين استثنوا من كون الإنسان في خسارة مستديمة، وإذا كان مستمرًا فهو يزداد كل ما تمادى صار أعظم.

فقوله: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ يعني: أن هذا من باب الإنكار كيف يأمنوا مكر الله. وقد فسر مكر الله بأنه إغداق النعم على من يتمادى في المعاصي مثل صحة البدن وكثرة الرزق وكثرة الأولاد ثم يزاد الخير وأهل الغرور يقولون ما أعطين هذا إلا أن الله قد رضي عنا، فيكون هذا من باب المكر ومن باب الأمن من مكر الله، فالأمن الداعي له شيئان:

أحدهما: التهاون في أمر الله وعدم المبالاة، فتجده مثلًا غارقًا في المعاصي موغلًا فيها غافلًا عن الآخرة وعما يراد به، مع أنه يشاهد الحوادث، يشاهد الموت، ولكنه مثل البهائم لا يتعظ، فقلبه غطى عليه حب الشهوات وحب الدنيا وعليه الران فلا يبالي بترك طاعة الله جَلَّ وَعَلَا وبفعل معاصي الله فهذا أمن مكر الله.

الأمر الثاني: الجهل بالله جَلَّ وَعَلَا والاغترار به جاهلًا بأسمائه وصفاته وعظمته وتقليبه للقلوب وأخذه الأليم، فإنه إذا أخذ سبحانه فإنه لا يفلت: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢] فيتمادى لهذين الأمرين، وبعض الناس يعد الحسنات ويجزم بأنها مقبولة ويقول: أنا ما لي سيئات، وبعضهم يغتر بعظم مغفرة الله وسعة رحمته، حتى إن بعضهم يقول في شعره:

فاستكثر ما استطعت من الخطايا ... إذا كان القدوم على كريم[1]

---

(١) الجواب الكافي (١/ ١٢).

نعوذ بالله يتزود من المعاصي ما شاء، والله ﷻ يقول: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [المائدة: ٩٨]، فيجب أن نعلم كما أمرنا الله، والشيطان يريد من الإنسان مثل هذا حتىٰ يوقعه في غضب الله وسخطه، ومعلوم أن الله ﷻ عاقب آدم عليه السلام بإخراجه من الجنة وإبعاده بذنب واحد فقط، وإن كان الله ﷻ له حِكم وآيات محمودة في كل فعل، ولهذا ما يكون في أهل الجنة إلا من هو أهلٌ لذلك؛ لأن الإنسان في تصرفه وفي فكره وقوته ونظره لا يستطيع أن يهتدي، فإذا لم يهده الله ﷻ فلا يستطيع أن يهتدي من نفسه وإن كان عنده فكر وعنده علم، فيجب أن يكون خائفًا من ربه ﷻ، والخوف يجب أن يكون بقدر، لا يكون مطلقًا كما أشار المؤلف إليه بالآية التي بعدها فهو جمع بين هاتين الآيتين، يعني لا يأمن من مكر الله ولا يقنط من رحمته ﷻ يجب أن يكون خائفًا راجيًا، يعني يخاف من ذنوبه، ويطالع مثلًا عدل الله فهو الحكم العدل إذا أخذ عبده بعدله عذبه، وكذلك يطالع رحمة الله وأنه ﷻ رحمته واسعة ما وسع علمه تعالىٰ وتقدس، فيرجو ويخاف دائمًا يرجو ربه ويخاف ذنوبه وتقصيره، فإن الإنسان بين مخافتين دائمًا: مخافة سابقة بأعمال سابقة، عمل سيئات لا يدري هل عفي عنه فيها أو لا، وعمل عمله لله لا يدري هل قبل منه أو لا؟

ومخافة مستقبلية ما يدري ماذا يختم له، يعني لا يدري كيف تكون حالته عند الموت وحالات المحتضرين أحيانًا مواعظ لمن يتعظ، وكثير منهم يلقن الشهادة فيأبىٰ يقول: لا أستطيع وهذه عبر يجعلها الله لمن يشاء أن يعتبر، وإلا كثير من الناس لا يعتبر بهذا، ولهذا كان السلف رحمهم الله يخافون كثيرًا من الخاتمة.

فالمقصود أن المؤلف رحمه الله أراد أن الموحد الكامل التوحيد يكون خائفًا من ذنوبه، وخائفًا من مكر الله ﷻ فإنه إذا أنعم عليه وصح بدنه ورزق مالًا وأهلًا وبيتًا، فإن هذا من نعم الله وقد لا يؤدي شكرها، وقد يكون هذا داعيًا لغفلته ولتماديه بالمعاصي فيخاف لأن النعم يجب أن تشكر، وشكرها طاعة الله فيها، وقد جاء في

تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠]، قال ابن عباس: كان الرجل من بني إسرائيل إذا كان له زوجة وخادم ودار سمي ملكًا.

وعن عبد الرحمن الحبلي يقول: سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص، وسأله رجل فقال: ألسنا من فقراء المهاجرين؟ فقال عبد الله: ألك امرأة تأوي إليها؟ قال: نعم. قال: ألك مسكن تسكنه؟ قال: نعم. قال: فأنت من الأغنياء. فقال: إن لي خادمًا. قال: فأنت من الملوك(١). وبهذا يعني قوله: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ يعني كلهم.

فأنعم الله علىٰ العبد عظيمة وكثيرة جدًا، ولكن الله ﷻ جواد كريم فضله واسع، وشكور حليم تعالىٰ وتقدس، ولهذا يقول رسول الله ﷺ: «**يصبح علىٰ كل سلامىٰ من أحدكم صدقة فكل تسبيحة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، ويجزئ من ذلك ركعتان يركعهما من الضحىٰ**»(٢).

سلامىٰ: يعني مفصل، فإذا أصبح سليمًا وجب أن يشكر ربه علىٰ كل عضو من أعضاء بدنه، فهذا يدلنا علىٰ فضل الله ﷻ وأنه حليم شكور، ومع هذا يجب أن يكون العبد خائفًا من ذنوبه راجيًا لثواب ربه، وإن تاب العبد فيخشىٰ أن لا تكون التوبة صادقة مقبولة لأن الله ﷻ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨]، وقد تكون التوبة لم تقبل لموانع، فهو يخاف عدم القبول إذا كان تائبًا، فهو يجب عليه أن يتوب، وإذا لم يتب فهذا ذنب علىٰ ذنب ولهذا يقول الله ﷻ: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١].

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٧٣).

(٢) رواه مسلم رقم (٧٢٠) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

فالمقصود أن المكر الذي ذكر هنا يدخل فيه صحة البدن ويدخل فيه الرزق ويدخل فيه النعم التي يعطاها الإنسان ويدخل فيه الإيمان الذي يعرفه ثم لا يقوم به كما ينبغي ويكفر ذلك، فإذا كان لا يستعمل ذلك ويرىٰ أن هذا ليس من المكر فهو لا رأي له ولهذا صح عن الحسن ﷀ وغيره أنه قال: إذا رأيت الله يعطي الإنسان النعم وهو مقيم علىٰ المعاصي فهو المكر. يعطيه من النعم وهو مقيم علىٰ معصيته، والنعم منها نعمة البدن، ونعمة المال، ونعمة الصحة من أفضل النعم.

قوله: ﴿مَكۡرَ ٱللَّهِ﴾: بالإضافة، والإضافة معروف أنها علىٰ نوعين:

أحدهما: إضافة عين إلىٰ معين وهذه لا تكون إلا مخلوقة كبيت الله، رسول الله، وما أشبه ذلك.

الثانية: إضافة معنىً إليه ﷻ، وهذه تكون صفة، إذا أضيف المعنىٰ إليه فهو يوصف بذلك، ولكن مثل هذا لا يجوز أن يطلق إلا كما جاء يقال: ﴿مَكۡرَ ٱللَّهِ﴾ إن الله يمكر بالكافرين، ومثله الخداع ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ [النساء: ١٤٢]، وكذلك الكيد: ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا﴾ [الطارق: ١٥، ١٦]، وما أشبه ذلك من الأمور التي تحتمل مدحًا وذمًا، كل فعل أو وصف يحتمل مدحًا وذمًا لا يجوز أن يطلق علىٰ الله إلا كما جاء فقط.

ولا يجوز أن يؤخذ منه اسم أو وصف؛ لأن صفات الله ﷻ وأسمائه حسنىٰ وما احتمل الحسن وضده فلا يدخل في صفات الله، ومعنىٰ الحسنىٰ أنه لا يلحقها نقص بوجه من الوجوه، فإذا أضيفت هذه مثلًا علىٰ ما جاءت صارت حسنىٰ، ويلحق بذلك الطبع والختم وما أشبه ذلك ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ [البقرة: ٧]، وكذلك

الاستهزاء: ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٥]، فكل ما كان من هذا الباب فإنه يكون على ما ورد.

أما قول من يقول أن هذا من باب المقابلة، فمعنى المقابلة عندهم أنه لفظ يقابل لفظًا فقط، ولا معنى تحته، فهذا غير صحيح، لأن الله ﷻ لا يخاطبنا بشيء لا معنى له تعالى الله وتقدس، ولا يتكلم بشيء لا معنى له، وبعضهم يفهم أن المقابلة عندهم مقابلة الفعل بالفعل، فإذا قوبل الفعل بالفعل لزم من ذلك الوصف، وهم لا يقولون بهذا وإنما يقولون مقابلة لفظ بلفظ.

قوله: ﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾: الخسارة هنا خسارة تامة، وأعظم الخسران خسارة النفس كما قال الله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥]، قوله: ﴿وَأَهۡلِيهِمۡ﴾: ليس زوجته وأمه وأبوه وأولاده، لأن هؤلاء لهم أعمال سوف يجازون بها إن كانوا محسنين فمع المحسنين، وإن كانوا مسيئين فمع المسيئين. ولكن كما جاء أن كل إنسان له أهل في الجنة وله منزلة في الجنة فإذا صار في النار خسر منزله وأهله وورثه المؤمنون الذين يرثون الفردوس.

فالمقصود أن الخسارة التامة هي خسارة النفس ثم خسارة المنازل التي أعدها الله ﷻ، فكل شخص له منزلتان منزلة في النار ومنزلة في الجنة، ولهذا جاء في الصحيح أنه إذا كان يوم القيامة يؤتى لكل مؤمن بكافر يقال له هذا فكاكك من النار.

فالخاسرون هم الذين خسروا أعمارهم وأنفسهم وهذه هي الخسارة الحقيقية، فالأمن من مكر الله من أعظم الذنوب لأن الله رتب عليه الخسارة الكاملة في قوله: ﴿إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ تقتضي أن تكون خسارة تامة، وهؤلاء يكونون من أهل النار -نسأل الله العافية-.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: وقوله: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

من المشهور عن اللغويين الذين يتكلمون في المفردات: أن القنوط هو أشد اليأس. فيكون هذا معناه أن القنوط من اليأس، فيكون نسبته إلىٰ اليأس كنسبة الاستغاثة إلىٰ الدعاء الذي تقدم لنا؛ لأن الاستغاثة دعاء لكنها في حالة الشدة والكرب، فهي أخص من الدعاء، والدعاء أعم، والقنوط علىٰ هذا يكون من هذا القبيل، فهو داخل في اليأس ولكنه أشده.

وهذه الآية في قصة إبراهيم عليه السلام لما جاءته الملائكة الذين أرسلوا لإهلاك قوم لوط جاءوا بصورة ضيوف إلىٰ إبراهيم، فاستنكرهم فسألهم فبشروه بالولد، وهو إسحاق، فقال مستبعدًا ذلك في العادة: ﴿قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ۝٥٥ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٥، ٥٦]، لأن العادة التي جرت أن الإنسان إذا كبر وكبرت زوجته لا يولد له، فهذا الذي تعجب منه، كيف يأتي الولد بعدما بلغ السن الذي لا يولد له في العادة لا هو ولا زوجته، ولهذا الزوجة لما بشرت تعجبت: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود: ٧٢]، فالعجب من هذه الناحية؛ لأنها علىٰ خلاف العادة التي جعلها الله جل وعلا في خلقه في الولادة، وربما يكون هذا من باب القنوط، ولكن هذا بعيد، فالملائكة فهموا من كلامه هذا ما يدل علىٰ القنوط من رحمة الله ولهذا قالوا: ﴿بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾، والحق هو الثابت الذي لا مرية فيه ولا يتخلف، ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾، ولكن إبراهيم عليه السلام أخبر أنه ما قنط: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾، وأنه يعلم من الله جل وعلا أعظم من هذا وأبلغ.

وقد جاء في كتاب الله ﷻ وصف القانط بالضلال كما في هذه الآية، ووصف الآيس بالكفر كما في قصة يعقوب عليه السلام عندما قال: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

ففي هذه الآية وصف اليأس بالكفر، وفي تلك وصف القنوط بأنه ضلال، ومعلوم أن الضلال داخل في الكفر، كل كفر ضلال بلا شك؛ لأن الضلال هو أن يضل عن الحق ويضيع ويترك طريق الحق، ويجوز أن يكون الكافر موصوف بهذا بلا شك فهل يدل على أن اليأس أشد من القنوط؟ إذا تأملنا الآيتين تبين أنه لا خلاف بينهما؛ لأنه إذا كان القنوط هو أشد اليأس والكفر ضلال، يقال إذًا اليأس أشد الكفر فلا يكون هناك مخالفة.

والشارح يقول: وظاهر القرآن أن اليأس أشد لأنه حكم لأهله بالكفر، ولأهل القنوط بالضلال[1]. والقنوط يدل على الضيق على أنه ضاقت عليه المخارج نهائيًا فأصبح في ضنك شديد وأمر لا مخرج له منه، ولهذا قالوا هذا أشد اليأس -نسأل الله العافية- وهذا لا يقع من مؤمن موحد لأنه يعلم من الله ﷻ الرحمة والمغفرة والكرم والجود الشيء العظيم، ولهذا لما قال الحسن البصري للفرزدق وهم يدفنون زوجة الفرزدق وشاهد القبر، قال: ماذا أعددت لهذا؟ قال الفرزدق: أعددت له شهادة أن لا إله إلا الله منذ أربعين سنة فقال: نعم الإعداد، ولكن إياك وقذف المحصنات.

فالمقصود أن الإنسان إذا كان يشهد أن لا إله إلا الله حقًا وأن محمدًا رسول الله، فهذا خير كبير جدًا، ولكن يجب أن تكون شهادته غير مقدوح فيها، ولهذا قال له: إياك وقذف المحصنات لأن هذا يقدح، فالمعاصي والكبائر إما أن تضعفها أو تذهب بها.

---

(١) تيسير العزيز شرح كتاب التوحيد (٥/ ١٦٩).

وكلا الأمرين اليأس والقنوط من الأمور المحرمة، بل من الأمور المهلكة التي لا يجوز للعبد أن يرتكب واحدًا منها، فإنها سوء ظن بالله ﷻ وجهل به وبما تدل عليه أسماؤه وصفاته ﷻ، فإن من أسمائه الغفور والرحيم والتواب والكريم وغير ذلك. وهذه الأسماء لها آثار لا بد أن تظهر على خلقه ﷻ فيجب أن يعرف العبد ذلك، ولهذا ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم**»(١)، لأن من أسمائه الغفور الرحيم التواب فلا بد من ظهور آثار هذه الأسماء وكذلك صفاته ﷻ، فرحمته تغلب غضبه، ومع ذلك يجب أن يكون الإنسان معتدلًا، يكون دائمًا خائفًا راجيًا، يكون كما سبق لديه المحبة التي تبعثه على الطاعة وعلى كثرة اكتساب الخير، محبة الله التي هي محبة تأله وعبادة ولديه الخوف من عذاب الله ﷻ ومن كونه مذنبًا لأنه لا أحد يسلم من الذنب ولا يمكن، ولكن بنو آدم كلهم خطاء، «**وخير الخطائين التوابون**»(٢) الذين يكثرون التوبة، ولهذا كان الرسول ﷺ كثيرًا ما يستغفر ويتوب، وآخر سورة أنزلت عليه قوله ﷻ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر: ١-٣].

وفي صحيح مسلم أن عائشة ﵂ قالت: أن رسول الله ﷺ كان يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «**سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي**» يتأول القرآن. يعني: يعمل بالقرآن(٣). وفي رواية: «**سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه**»، فإذا كان سيد الخلق يؤمر بالتوبة في آخر عمره وبالاستغفار فكيف بالمفرطين،

(١) رواه مسلم رقم (٢٧٤٩) من حديث أبي هريرة ﵁.
(٢) رواه الترمذي رقم (٢٤٩٩) من حديث أنس ﵁.
(٣) رواه مسلم رقم (٤٨٤).

فالمفرط يجب أن تكون توبته واستغفاره أكثر، ولكن الأمور بيد الله ﷻ.

المهم أنه لا يجوز للعبد أن يكون أمره فرطًا فمثلًا يضيع أيامه ويضيع أوقاته ثم يصحب من يعينه على الضياع لأن عنده عقل وعنده فكر وقد عرف طريق الهدى من طريق الردى، فإنه إذا كان بهذه المثابة فالأمر فيه واضح.

قوله: «﴿مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ﴾»: الله ﷻ موصوف بالرحمة وهذا كثير جدًا، والرحمة التي هي وصف لله ﷻ يجب أن تفهم على ما يليق بالله ﷻ، ولا يجوز أن نفهمها كفهمنا للشيء الموجود عندنا الذي يفعله المتكلمون يقولون: الرحمة رقة في القلب تدعو هذا الراحم إلى العطف والميل إلى المرحوم، وهذا إما يكون من باب الضعف والرقة، أو من باب الإحسان ولكنه يتأثر، ولهذا أبوا أن يصفوا الله ﷻ بها لهذا السبب، فيقال لهم هذا الذي تقولونه هو رحمة المخلوق، والله ﷻ ليس كمثله شيء، لا في ذاته ولا في أوصافه، ويقولون: نحن خوطبنا بالشيء الذي نعرفه، وهذا الذي نعرف من الرحمة، وهذا ليس جوابًا لأنه مخالفة لقوله تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، فقوله: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ هذا عام في ذاته وفي وصفه وفي فعله وفي حقه، يجب أن يكون غير مماثل للمخلوق، ويقول ﷻ: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم: ٦٥]، وقوله: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا﴾ [البقرة: ٢٢]، والند هو المثل والنظير والشبيه ولو بصفة من صفاته، وأنتم في الواقع وقعتم في التنديد والشرك؛ لأنكم جعلتم وصف الله مثل وصف المخلوق أو قريبًا منه أو أنه مشارك له وهذا هو الشرك، ولهذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: المتكلمون لا ينفكون عن الشرك. إما شرك ربوبية وهو الغالب والكثير لأنهم أشركوا في أسمائه وصفاته أو شرك في عبادته ﷻ، فرحمة الله ﷻ على ما يليق به وعظمته وذكرها كثير في كتاب الله.

قوله: «﴿إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾»: والضال هو الذي أضاع الطريق وأصبح يتخبط بلا هدىٰ، فمعنىٰ هذا أن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ يشير لنا في ذكر هاتين الآيتين بأن العبد يجب أن يكون جامعًا بين الخوف والرجاء وخوفه من ذنوبه، يخاف من المخالفات، يخاف أنه ما قام بالواجب الذي وجب عليه ولا بد من المخالفة، وكذلك يكون راجيًا لرحمة ربه، وهم يمثلونه بالطائر الذي له جناحان، فلا بد أن يكونا متساويين، فإن رجح أحدهما علىٰ الآخر سقط، واختلفوا هل هذا يعني أن الخوف يجب أن يكون مثل الرجاء دائمًا؛ لأن الله جَلَّ وَعَلَا وصف عباده بذلك: ﴿وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، فوصفهم بالرغبة والرهبة وأمر بذلك: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ﴾ [الأعراف: ٢٠٥] فالتضرع يتضمن الرجاء، وقال بعض العلماء أنه ينبغي ما دام صحيحًا أن يُرجح جانب الخوف، ويقول ما يصلح القلب إلا هذا. وإذا وقع في المرض يرجح جانب الرجاء، ولهذا كانوا يستحبون أن يذكر الإنسان وهو مريض بسعة رحمة الله وعظيم فضله ويرغب في هذا حتىٰ يموت وهو يحسن الظن بربه وإن كان له ذنوب.

✍ **قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وعن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: أن رسول الله ﷺ سُئل عن الكبائر؟ فقال: «الشرك بالله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله»**(١).

هذا الحديث لم يذكر المؤلف من الذي خرجه، وهو صحيح.

قوله: «سئل عن الكبائر»: «أل» في قوله: الكبائر، إما أن يقال أنها للعهد أو أنها للاستغراق، ولكن واضح أن الأمر الثاني أنه ليس مقصودًا، وهذا يدلنا علىٰ أن الذنوب فيها كبير وصغير، وقد أنكر بعض العلماء أن يكون الأمر هكذا، وقال: إذا

(١) قال في الدر المنثور (٢/ ٥٠٢): أخرج البزار، وابن أبي حاتم، والطبراني في الأوسط، وابن أبي حاتم بسند حسن.

نظرنا إلىٰ من يبارز بالمعصية فالأمر سواء ليس فيه فرق. الأمر سواء بالنسبة للمعصية سواء كانت كبيرة أو صغيرة لأن الذي بُورز بالمعصية وعصي كبير عظيم جليل، فالمعصية تدل علىٰ الاستهانة، والاستهانة تكون كبيرة من كبائر الذنوب، وكبائر القلوب أعظم وأكبر من كبائر الجوارح، علىٰ هذا المعنىٰ يقول أن الذنوب كلها كبائر، ولكن كتاب الله فرق بين هذا وهذا، فقال تعالىٰ: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١]، فاجتناب الكبائر جزاؤه تكفير الصغائر بشرط أن لا يكون مصرًّا علىٰ الصغيرة، والكبائر لا بد من اجتنابها فإن لم يجتنبها فيجب أن يبادر بالتوبة منها، ثم هي غير محصورة ليست ثلاثًا ولا سبعًا ولا سبعين، ولهذا جاء عن ابن عباس أنه قال: هي إلىٰ السبعمائة أقرب منها إلىٰ السبع.

وإذا كان الإنسان يستغفر ويتوب فإن الله يتوب عليه، ولهذا جاء عنه قوله: لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار؛ لأن الاستمرار علىٰ الصغيرة يجعلها كبيرة.

قوله: «عن الكبائر»؛ يعني: الذنوب الكبيرة التي توعد عليها بالنار أو بالعذاب أو غير ذلك، وقد اختلف في الضابط الذي تضبط فيه الكبيرة. قال المحققون من العلماء: كل ذنب ترتب عليه حد في الدنيا، أو لعن فاعله، أو توعد بالعذاب المهين أو الأليم، أو ختمه الله بنار أو غضب. زاد شيخ الإسلام ابن تيمية: أو نفي الإيمان، أو قيل: ليس منا. كقوله ﷺ: **«من غشنا فليس منا»**[(١)]، فهو كبيرة.

قوله: «الشرك بالله»: وبدأ بالشرك بالله لأن الشرك هو أقبح الذنوب وأعظمها، لأن فيه تنقص لله ﷻ وفيه هضم لحق الربوبية، لأن الرب هو المالك المتصرف

(١) رواه مسلم رقم (١٠١) من حديث أبي هريرة.

الذي يتصرف في خلقه ويملكهم ويدبرهم فإذا جعل حقه لمخلوق مدبر مسخر مقهور ليس في يديه نفع ولا ضر هذا استهانة في الواقع ولهذا صار من أعظم الذنوب، فالشرك عدل بالله ﷻ كما قال ﷻ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]، ومعنىٰ يعدلون: يعني يجعلون له عدلًا، نظراء وشبهاء تعالىٰ الله وتقدس أنهم يدعونهم ويزعمون أنهم وسائط لهم إلىٰ الله هذا هو العدل بالله وهو التنديد الذي ذكر في الآيات الأُخر، فهو أكبر الكبائر وأعظمها، ولهذا لا يغفره الله ﷻ إلا بالتوبة منه، أما إذا مات عليه يعني الشرك الأكبر فهو في النار غير مغفور له لقوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨]، ولهذا بدأ به الرسول ﷺ وقال: «الشرك بالله».

والشرك يدخل فيه الشرك في الربوبية، ومنه الشرك في الأسماء والصفات، إذا وصف الله ﷻ بما وصف به المخلوق أو اعتقد هذا، فهذا شرك. وكذلك إذا عطل عن أوصافه فإنه يوقع في الشرك لأنه يلحق بالمعدومات أو الناقصات، تعالىٰ الله وتقدس.

وكذلك الشرك في كون الإنسان مثلًا يكون منازعًا لرب العالمين والمنازعة كثيرة جدًا إذا جعل مثلًا القانون الذي يؤلفه الإنسان ويوجدوه هو الحاكم بين الناس، فهذا شرك بالله ﷻ؛ لأن هذا الحكم خاص برب العالمين هو الذي يحكم بين عباده، وهو الذي يأمر وينهىٰ فإذا اتخذ مثلًا أقوال الناس وقوانينهم هي الحاكمة صار هذا منازعة لله في حكمه الذي يخصه.

وكذلك إذا جعل حقه سبحانه شبيهًا بحق الإنسان، الحق الذي أوجبه علىٰ عباده وهو تألهه ودعاؤه والاستغاثة به وغير ذلك من العبادات إذا جعل شيئًا منها

للمخلوق صار هذا شركًا من الشرك الأكبر، وعلىٰ هذا يكون الشرك أقسام، وقد قسمه العلماء إلىٰ كبير وصغير، وهذا معروف لأنه جاء أن الحلف بغير الله شرك، وقول الإنسان لولا الله وأنت أن هذا من التنديد يعني من الشرك، لما قال الرجل للنبي ﷺ: «**ما شاء الله وشئت**» قال: «**أجعلتني لله ندًا**»(١)، والند هو الشريك، فهذا يدل علىٰ أن الشرك يكون كبيرًا ويكون صغيرًا.

ثم عطف عليه وقال: «**واليأس من روح الله**».

رَوح الله؛ يعني: رحمة الله، يعني أن يستبعد أن الله يرحمه أو يغفر له، فاليأس هو القنوط، يقنط وييأس ويصبح قد أغلق الباب علىٰ نفسه، وهذا قد يكون له أسباب بأن يتمادىٰ في المعاصي، ويكثر منها ثم يتصور أنه لا خير فيه وأنه لا فائدة في كونه يرجع أو يترك هذا ويقول أنا أكثرت من الذنوب وذنوبي يمكن لا تغفر، فيفرح الشيطان بذلك ويفتح له هذا الباب ويُوصد عليه باب الرجاء وطلب الاستعتاب وطلب التوبة، فيكون هذا أعظم من ذنوبه، فيكون مكتسبًا ذنبًا بعد ذنب وهذا من الكبائر العظيمة، ولكن علىٰ العبد إذا كان وصل إلىٰ هذه المثابة والغالب أنه لا يكون بهذا التصور إلا إذا كان جاهلًا بأمر الله ﷻ، وجاهلًا أيضًا بصفاته، هذا هو الذي يحدوه إلىٰ ذلك، فعليه النظر في غنىٰ رب العالمين وهو يدعو المجرمين إلىٰ التوبة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ﴾ [البروج: ١٠] فإذا قيض له من يبين له ويدعوه إلىٰ الهدىٰ قد يهتدي ويترك هذا الأمر، أما إذا تُرك علىٰ ما هو عليه فإنه سوف يزداد يأسًا بعد يأس فيهلك، وهذا مطلب الشيطان الذي يريد منه، فهذا ما يحصل إلا من جاهل، الذي يجهل أمر الله يعني حكم الله في خلقه الذي يؤخذ من كتابه ومن سُنَّة رسوله ﷺ، والله ﷻ ذكر ذنوبًا كثيرة وتوعَّد عليها بالغضب واللعنة،

---

(١) سبق تخريجه.

ولكن رسول الله ﷺ ذكر أشياء من هذا وبيّن فضله وسعة كرمه وجوده.

من أعظم الذنوب وأكبرها الشرك، والشرك تقبل توبة التائب منه إذا تاب، والآيات في هذا كثيرة جدًا كما قال الله ﷻ: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، فقوله: ﴿جَمِيعًا﴾ عام شامل ما يترك شيئًا، ومن عظائم الذنوب الجرائم الكبيرة جدًا قتل النفس بلا حق، نفس المؤمن كما قال الله ﷻ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ قال: «**كان في بني إسرائيل رجل قتل تسعة وتسعين نفسًا، ثم خرج يسأل فأتىٰ راهبًا فسأله فقال له: هل من توبة؟ قال: لا. فقتله فكمل به مائة. ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدُلَّ علىٰ رجل عالم. فقال: إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ فقال: نعم ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلىٰ أرض كذا وكذا فإن بها أناسًا يعبدون الله فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلىٰ أرضك فإنها أرض سوء. فانطلق حتىٰ إذا نصف الطريق أتاه الموت. فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائبًا مقبلًا علىٰ الله، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيرًا قط. فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم فقال: قيسوا ما بين الأرضين، فإلىٰ أيتهما كان أدنىٰ فهو منهم، فقاسوه فوجدوه أدنىٰ إلىٰ الأرض التي أراد؛ فقبضته ملائكة الرحمة**»(١)، وعند البخاري: «**فأوحىٰ الله إلىٰ هذه أن تقاربي، وأوحىٰ الله إلىٰ هذه أن تباعدي، وقال: قيسوا ما بينهما فوجد إلىٰ الخيرية أقرب بشبر، فغفر له**»، ولكن هذا كان صادقًا ولهذا لما حضره الموت «ناء بصدره نحوها» يريد أن يذهب يقرب لما في قلبه وإرادته من الصدق والإخلاص.

(١) رواه البخاري رقم (٣٤٧٠)، ومسلم رقم (٢٧٦٦) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

فعلىٰ كل حال، الله ﷻ يفرح بتوبة عبده التائب الفرح الذي صوَّره لنا رسولنا ﷺ أشد ما يمكن أن ندركه من الفرح، وهذا الفرح فرح كرم وجود ورحمة وإلا فهو الغني ﷻ عن كل ما سواه، فهو أرحم الراحمين تعالىٰ وتقدس، فالواجب أن يكون العبد ما دام صحيحًا نشيطًا عنده من الخوف الذي يحمله علىٰ العمل الصالح والانتهاء عن المحرمات، وإذا صار بالعكس ضعف وصار مقبلًا علىٰ الله يرجح جانب الرجاء والرحمة ولهذا السلف يستحبون أن يذكروا نصوص الرحمة، عند المرضىٰ ويذكرون أعمالهم الحسنة وأحسن الأعمال الإيمان بالله ﷻ وكون العبد مؤمنًا ومتبعًا لرسوله ﷺ.

فاليأس مفارقة للصراط الذي أمر الله ﷻ عباده أن يسلكوه وهو عبادته ورجاؤه، مع أن الإنسان لا ينفك عن التقصير فهو عبد لربه ﷻ، والرب ﷻ واسع المغفرة وأخبرنا أن رحمته غلبت غضبه تعالىٰ وتقدس، ولهذا لما حدث للصحابي قدامة بن مظعون رضي الله عنه ومن معه حيث أنهم فهموا من قوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٩٣] فقالوا: نحن بهذه الصفة، فنشرب الخمر ليس علينا جناح في ذلك فشربوها، ثم استشار عمر رضي الله عنه الصحابة فيهم فقال الصحابة: إذا كانوا استحلوها يقتلون، أما إذا كانوا أخطئوا بالتأويل هذا ذنب، فلما استدعاهم عمر قالوا: نحن متقون ومحسنون، فقال: لقد أخطأت أستك الحفرة، ليس المتقي والمحسن هو الذي يشرب الخمر. وفي الآية التي قبلها يقول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠]، فالاجتناب معناه أنه لا يقع فيه الإنسان. وبعد هذا لما تبين له ذلك اشتد خوفه كثيرًا

وصار يبكي، فكتب إليه عمر رضي الله عنه: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [غافر: ١-٣] لا أدري أي ذنبيك أعظم الأول أو الأخير، يعني كونك وقعت في الخمر أو وقوعك في اليأس، فقد يكون هذا أعظم.

فالمقصود أن الإنسان يكون واثقًا من ربه، ولكنه خائفًا من ذنوبه إذا لم يكن مشركًا ولم يكن مبارزًا لربه ﷻ بالاستهتار وعدم المبالاة، فإن الله رحيم تواب ﷻ، وأما المستهتر الذي لا يبالي بما صنع فهذا يُخشىٰ عليه أنه يتمادىٰ علىٰ هذا الشيء ثم يموت عليه -نسأل الله العافية-.

وقوله: «والأمن من مكر الله»: اليأس يقابل الأمن، فاليأس من روح الله يقابله الأمن من مكر الله، فإذًا يكون الإنسان بين الخوف والرجاء، لا يأمن أن الله يعاقبه ويأخذه بسبب ذنوبه، ولا ييأس من رحمة الله ﷻ الواسعة التي وسعت كل شيء، فهو يكون كما وصف الله ﷻ عباده الذين يدعونه رغبًا ورهبًا وهم له خاشعون.

فدل الحديث علىٰ أن اليأس من رحمة الله من أشد الذنوب وأعظمها التي تقدح في التوحيد، وكذلك الأمن من مكر الله من أعظم الذنوب القادحة في التوحيد.

وليست الكبائر هذه الثلاث المذكورة، الكبائر كثيرة جدًا، ولهذا لما سُئل عنها ابن عباس رضي الله عنهما قال: هي إلىٰ سبعمائة أقرب إلىٰ سبع غير أنه لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار. قد حاول بعض العلماء إحصاءها فمنهم من أبلغها إلىٰ سبعين ومنهم من زاد إلىٰ قرابة السبعمائة مثل ابن حجر الهيتمي في كتاب الزواجر الذي تبع فيه ابن القيم وغيره، ولهذا صير إلىٰ الضابط فيها لأنها غير محصورة في عدد.

قال المؤلف رحمه الله : وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: أكبر الكبائر: الإشراك بالله والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله. (رواه عبد الرزاق في المصنف ١٠/ ١٥٩)[(١)].

هذا الحديث فيه التصريح بأن هذه المذكورة هي أكبر الكبائر، وبدأ بالشرك لأنه أعظمها كما تقدم، ثم الأمن من مكر الله والقنوط من رحمة الله، ولكن هنا ذكر القنوط واليأس ودلت المغايرة على أن القنوط غير اليأس، ولهذا اختلفت أقوال العلماء في هذا منهم من جعل القنوط أشد ومنهم من عكس، وظاهر القرآن أن اليأس أشد كما مر قريبًا.

وفسر القنوط بأنه أشد اليأس ونهايته، ولهذا جعله بعد المكر، واليأس كونه يستبعد أن الله يغفر له كما يقع لبعض الناس فإنه يكون هذا من دوام الجهل والجهل بالله والجهل بصفاته، فالواجب على الإنسان أن يكون عارفًا بربه جل وعلا وعارفًا حقه، وعارفًا بضعفه ولكن رحمة الله واسعة، وقد ذكر في النصوص كثيرًا كما قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧]، في هذه الآية قدم الرحمة، فإذا كانت رحمته وسعت كل شيء، فكيف الإنسان الذي يؤمن بالله ويؤمن برسوله ﷺ، ويؤمن بوعده بأنه سوف يلاقي ربه، كيف يستبعد رحمته وييأس منها، فيجب أن يكون واثقًا من رحمة الله وإن كان لا بد من أن يخاف من ذنوبه.

(١) مصنف عبد الرزاق رقم (١٩٧٠١)، والطبراني في الكبير رقم (٨٧٨٤).

الباب الخامس والثلاثون

✍ **قال المؤلف** رحمه الله : **باب من الإيمان بالله الصبر علىٰ أقدار الله.**

صنيع المؤلف رحمه الله في هذا الباب يدل علىٰ أن الأعمال من الإيمان بالله، وهذا أمر واضح وهو مذهب أهل السُّنَّة أن الأعمال نفسها إيمان بالله وهو معنىٰ قولهم: إن الأعمال داخلة في مسمىٰ الإيمان، ومسمىٰ الشيء ما تضمَّنه، وليس ما استلزمه، والخلاف في هذا للمرجئة وهم أقسام متعددة.

والصبر مأخوذ من صَبَرَ إذا حبس، فهو مأخوذ من الحبس. أصله حبس الشيء، ولهذا يقال: قتل فلانًا صبرًا بعدما أمسك وحبس وقتل مكتوفًا ممسكًا، وصبرت الشمس؛ يعني: إذا تصوروا أنها وقفت فوق رؤوسهم. وسمي الصوم صبرًا لأنه إمساك عن المفطرات. هذا معناه في اللغة.

ومعناه في الشرع: الصبر حبس النفس عن الجزع، وحبس اللسان عن التشكي والتسخط والجوارح عن لطم الخدود وشق الجيوب ونحوها. قاله ابن القيم.

والصبر ثلاثة أقسام: صبر علىٰ الشرع «علىٰ الأمر»، وصبر عن النهي، وصبر علىٰ القدر.

وهي لا بد منها فهي واجبة، وكلها إيمان بالله جل وعلا، ولكن الناس يتفاوتون فيها تفاوتًا عظيمًا حسب قوة إيمانهم وضعفه وحسب علمهم بالله جل وعلا وعلمهم بشرعه، فكلما كان العبد عالمًا بالله يعني بأسمائه وصفاته وما يستحقه وما يمتنع عليه، عالمًا بأمره ونهيه، فإن إيمانه يكون أكمل وأتم إذا منَّ الله عليه. والنقص كثيرًا ما يأتي من الجهل ومن العناد والتكبر والمخالفة.

وقوله في الترجمة: «على أقدار الله».

القدر هو: علم الله الأزلي في الشيء ثم كتابته له ومشيئته إياه وخلقه للأشياء، ولهذا عبر الإمام أحمد رحمه الله عن القدر بقوله: القدر قدرة الله؛ لأن قدرة الله يدخل فيها خلقه، ويدخل فيها مشيئته، ويدخل فيها كتابته للأشياء.

وهو لم يذكر في الترجمة غير القدر، وقد ذكر في النصوص غير القدر.

قال المؤلف رحمه الله: وقول الله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١١].

أول الآية: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ ﴿مَآ﴾ هنا نافية ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾ يعني: ما وقع من مصيبة في الخلق وفي الوجود إلا بإذن الله يعني بأمره وإرادته وقدرته لأن الكون كله ملك لله عز وجل يتصرف فيه كيف يشاء، فلا يمكن أن يقع فيه شيء بغير إرادته وبغير علمه تعالى وتقدس.

قوله: «﴿مِن مُّصِيبَةٍ﴾»: جاءت نكرة لتعم كل المصائب سواءً كانت صغيرة أو كبيرة. والمصيبة هي التي يكون فيها ألم سواءً كان ألمًا بدنيًا أو ألمًا نفسيًا والغالب أنها تكون هكذا. فتكون المصيبة في البدن مثلًا، وتكون في الولد والأهل والأقارب والإخوان؛ لأن المؤمن إذا أصيب إخوان له وإن كان في أقصى الأرض فإنه يتألم ولا بد؛ لأنه كما قال عليه الصلاة والسلام: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا**» وشبك بين أصابعه[1].

أو تكون بالمال، فهي لا تخلو المصائب من هذه الأشياء، أما إذا كانت في النفس فهي تؤلمه بدنيًا ونفسيًا، وإذا كانت في الولد والأقارب فهي تؤلمه نفسيًا،

---

(١) رواه البخاري رقم (٤٨١)، ومسلم رقم (٢٥٨٥) من حديث عن أبي موسى رضي الله عنه.

وكذلك في المال.

وقد يتحمل الإنسان ألم البدن ولا يتحمل ألم النفس لأن ألم النفس أصعب.

والله ﷻ لما خلق الخلق وقدر الأقدار وجعل هذه الدنيا دار امتحان وابتلاء فهي لا تصفو لأحد أبدًا حتىٰ إنه ﷻ لم يرض أن تكون محلًّا لعقاب أعدائه، فأعداؤه في الغالب لا يعاقبون فيها لأنها عند الله لا تساوي شيئًا فهي تنتهي بسرعة، فجعل عقاب أعدائه في الآخرة، وهو كذلك لم يرضاها جزاءً لأوليائه.

فلا بد من المصائب، فمن رحمته وإحسانه وجوده وكرمه ﷻ أن أمر بالصبر ووعد عليه الأجر، فهذه رحمة منه ﷻ، رحمة للمؤمن فإنه إذا صبر واحتسب أثيب علىٰ ذلك. وأيضًا يجد في الصبر متسلىٰ ومخرجًا مما يقع فيه غيره، ولهذا الكافر إذا وقع في كرب ما يتخلص منه، فيزداد سوءًا إلىٰ سوء بخلاف المؤمن.

ولهذا قال: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾.

فإذنه الذي هو أمره ومشيئته، يعني كل شيء يقع فهو قد أذن الله ﷻ به وكتبه وقدره وشاءه، ولا يمكن رده ولا يمكن تغييره لو اجتمع الخلق كلهم علىٰ أن يغيروا شيئًا من ذلك ما استطاعوا، وهذا مما يسلي المؤمن، وهذا أمر لا بد منه، فالحيلة فيه الصبر أن يصبر، ولهذا قال: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ﴾ وجاء تفسير علقمة قال: هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله فيسلم لها ويرضىٰ[1].

فتفسير علقمة جاء لهذه الجملة ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ﴾ وعلقمة هو ابن قيس ولد في حياة الرسول ﷺ وأخذ العلم عن كبار الصحابة مثل أبي وعمر وابن مسعود وعلي وعثمان وغيرهم، وكذلك أخذ عن عائشة كثيرًا، فهو من كبار التابعين وأئمتهم وثقاتهم وعلمائهم. توفي قرابة الستين رحمه الله.

(١) تفسير الطبري (٢٣/ ٤٢١).

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾.

جعل جزاء الصبر والعلم بأن المصيبة من عند الله ثم قبولها وعدم الاعتراض عليها وعدم التسخط، جعل جزاءه هداية القلب، الذي هو أصل السعادة، فمن هُدي قلبه فقد حصلت السعادة له في الدنيا والآخرة، وهذا يدلنا علىٰ أن القلب هو الملك الذي يتصرف بالبدن فإذا هُدي القلب وصلح صلح البدن كله كما قال الرسول ﷺ في حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما: «**ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد سائر الجسد ألا وهي القلب**»(١).

والمقصود بذلك العقل الذي يحصل به الامتناع من ما لا يليق ولا يرضي الله عز وجل والإقدام علىٰ الشيء النافع وحبس النفس عليه وإن كان فيه ألم، فإن الألم قد ينقلب نعمة ونعيمًا إذا كان العبد يفعل ذلك رضًا لله عز وجل، وإذا كان الرضا مثلًا عن الله جل وعلا وعن أقداره، وكذلك عن أوامره وامتثالها، والصبر عن المناهي التي نهىٰ عنها يحصل بها هداية القلب، فهذا أمر يجب أن لا يفرط فيه لأن هداية القلب فيها السعادة الأبدية.

ومن سُنَّة الله جل وعلا في خلقه التي إذا نظر العبد للناس وإذا هي مطردة، أن من كان علىٰ هدىٰ أن الله يزيده هدىٰ وخير بشرط أن يكون مريدًا له ويعمل به إخلاصًا لله جل وعلا ومتابعة للرسول ﷺ.

وأن من كان يحب المعاصي ويفعلها أنه ينتقل من معصية إلىٰ أخرىٰ حتىٰ يهلك إلا أن يستدركه الله عز وجل بتوبة أو أمر يرجعه إلىٰ الصواب، وهذا فضل من الله إذا تفضل به علىٰ إنسان فإنه يهيئ له أسبابه.

---

(١) رواه البخاري رقم (٥٢)، ومسلم رقم (١٥٩٩).

أما الغالب فإن الناس على ما عاشوا عليه، ولهذا جاء في الحديث: «**من عاش على شيء مات عليه وبعث عليه**»[(١)]، والله ﷻ يقول: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨]، فكيف المنافقون إذا بعثوا يوم القيامة يحلفون لله كذبًا لأنهم ماتوا على هذا الشيء، ماتوا على النفاق الذي ظاهره خلاف باطنه فهم يقابلون الله بما يقابلون به خلقه.

وأخبر الله ﷻ أن من قَبِلَ هداه الذي بعث به الرسل أنه لا يشقى لا في الدنيا ولا في الآخرة فإنه يسعد، بخلاف الذي يتعامى عنه فإنه يحشر يوم القيامة أعمى جزاءً وفاقًا، وهذا على ظاهره، كما أن بعضهم يحشر على رأسه يمشي على رأسه ورجلاه فوق لأنه انتكس في الواقع واستحب الباطل واختاره على الحق، فصار منكوسًا.

ويوم القيامة تظهر الأعمال جليةً، فمن قبل من الله وصبر على أمره وصبر عن نهيه وصبر على قدره، فإن الله يجازيه في الدنيا قبل الآخرة بهداية القلب الذي فيه سعادته وفيه الزيادة من كل خير وهدى، فمعنى ذلك أنه يزداد هدى ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد: ١٧]، وهذا هو معنى هذه الآية.

وبهذا استدل علماء أهل السُّنَّة بهذه الآية ونحوها على أن الأعمال إيمان، فالأعمال التي يعملها الإنسان تقربًا إلى الله ﷿ إيمان، وهذا الذي يخالف فيه المرجئة والمرجئة درجات وأنواع يبلغون أكثر من أربع وعشرين طائفة، وكل طائفة تخالف الأخرى في قولها واعتقادها، ولكن المشهور منهم إخراج الأعمال عن الإيمان والاكتفاء بما في القلب حسب قولهم ويجعلون الناس بالإيمان سواء

---

(١) روى مسلم في صحيحه رقم (٢٧٨٧) عن جابر قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**يبعث كل عبد على ما مات عليه**».

الفاسق والتقي النقي الذي لا يترك حسب استطاعته أمرًا ولا يرتكب نهيًا يجعلونهما سواء، والعجيب أنهم يجعلون الفاسق بمنزلة أعلىٰ الأمة مثل أبي بكر بل مثل الرسول ﷺ بل مثل جبريل عليه السلام ليس هناك فرق عندهم، ولهذا صاروا من أضل الناس في هذا عقلًا وشرعًا، ضلت عقولهم كما ضلوا في فكرهم وفي قولهم فالله ﷻ يقول: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم: ٣٥] فهذا ليس في قدره ولا في شرعه، وهذا من الظن السيئ بالله ﷻ.

ومن أقلهم وأقربهم إلىٰ أهل السُّنَّة الذين يخرجون الأعمال عن مسمىٰ الإيمان، ولكن يقولون أن الأعمال من مقتضىٰ الإيمان ولا بد منها، فمن تركها فهو معاقب، ولهذا قال بعض الناس أن الخلاف بينهم وبين أهل السُّنَّة خلاف لفظي.

والمرجئة الجدد زادوا علىٰ أولئك بأنهم أهل جهل في الواقع ليسوا أهل علم وإنما عندهم التعصب البغيض، الذين يجعلون مثلًا رجلًا أو نحلة أو القول هو الميزان في الناس، فمن وافقهم عليه فهو صاحبهم ويوالىٰ، ومن خالفهم فهو العدو، يعني من خالفهم فيه فهو عدوهم وهو الذي ينسبون له العداء، وهذه من مصيبة المسلمين.

✍ **قال المؤلف رحمه الله: وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اثنتان في الناس هما بهم كفر الطعن في النسب والنياحة علىٰ الميت»**(١).

قوله: «في الناس»: هذا يدل علىٰ أنها وقعت في عموم الخلق، وقوله: «في الناس» يعني أنها ثابتة لا تتغير موجودة وستستمر فيهم أبدًا.

وقوله: «هما بهم كفر»؛ يعني: أن الاثنتين كفر، ولا يلزم أن من كانت فيه يكون كافرًا لأنهما من خصال الكفر، ومن كان عنده خصلة من خصال الكفر لا يلزم أن يكون

---

(١) رواه مسلم رقم (٦٧).

كافرًا، كما أن من كان عنده خصلة من خصال الإيمان لا يلزم أن يكون مؤمنًا، فقد يكون كافرًا وعنده مثلًا الصدق وعنده الأمانة وعنده عمل خير ومع ذلك فهو كافر.

وكذلك هنا الطعن في النسب وهو عيبه وهو من أمر الجاهلية التي بقيت في الناس ولا تزال، ومن ذلك أيضًا رمي الإنسان بما ليس فيه كأن يقال مثلًا: هذا الإنسان ليس ولدًا لأبيه، وهذا أيضًا أعظم من الأول فهو طعن في نسبه أنه غير صحيح، وهذا في الواقع يتضمن الطعن فيه والطعن في والده ووالدته، وإذا صرح الإنسان في ذلك فهو قذف، والقذف من الكبائر ومما يجب فيه الحد.

وعلىٰ هذا يكون الطعن في النسب أيضًا كبيرة من الكبائر ولكنها ليست كالطعن في ثبوت النسب، وإذا كان الطعن في نسب الإنسان أنه ليس من أهل الشرف وأهل الفخر وأهل الخيلاء وأهل البذخ، فهذا لا يضر الإنسان إذا كان الطعن فيه من هذه الناحية لأنه ليس له إلا عمله، عمل آبائه لا ينتفع فيه بشيء، ولم تزل الجاهلية تفتخر بآبائها حتىٰ قال ﷺ كما في سنن أبي داود: «**إن الله ﷻ قد أذهب عنكم عُبِّيَّة الجاهلية وفخرها بالآباء، مؤمن تقي وفاجر شقي، أنتم بنو آدم وآدم من تراب، ليدعنَّ رجال فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم أو ليكونُنَّ أهون علىٰ الله من الجعلان التي تدهده بأنفها النتن**»(١)، تفخر بأي شيء تفخر بناس في النار.

الثانية: النياحة علىٰ الميت، والنياحة معناها: رفع الصوت بالبكاء ولو كان كاذبًا مع تعديد حسناته التي ينالها منه. وعُرف بالجاهلية أنهم يقولون: واعضداه واناصراه واكذا واكذا، يرفعون أصواتهم بهذا، هذه هي النياحة.

وليس من النياحة البكاء رحمة للميت، بكاء العين وحزن القلب هذه ليست من النياحة، لأن الرسول ﷺ لما توفي ابنه إبراهيم قال ﷺ: «**إن العين تدمع والقلب**

(١) رواه أبو داود رقم (٥١١٦) من حديث أبي هريرة ؓ.

يحزن ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزنون»[١].

وفي الصحيحين عن أسامة بن زيد ﵁ قال: أرسلت ابنة النبي ﷺ إليه إن ابنًا لي قبض فائتنا، فأرسل يقرأُ السلام ويقول: «**إن لله ما أخذ وله ما أعطىٰ وكل عنده بأجل مسمىٰ فلتصبر ولتحتسب**»، فأرسلت إليه تقسم عليه ليأتينها فقام ومعه سعد بن عبادة ومعاذ بن جبل وأُبي بن كعب وزيد بن ثابت ورجال فرفع إلىٰ رسول الله ﷺ الصبي ونفسه تتقعقع قال: حسبته أنه قال كأنها شن ففاضت عيناه فقال سعد: يا رسول الله ما هذا؟- لأن سعدًا سمع أن رسول الله ﷺ قال: «**البكاء علىٰ الميت مما يعذب به**» فقال: «**هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء**»[٢]، فالذي ليس في قلبه رحمة لا يرحمه الله ﷻ، فدل علىٰ أن البكاء علىٰ الميت رحمة له أنه ربما يكون مستحبًا.

وشيخ الإسلام ابن تيمية ﵀ يقول: ويستحب البكاء علىٰ الميت رحمة له وهو أكمل من الفرح لقوله ﷺ هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده متفق عليه[٣].

فإذا كان حسن فإنه يثاب عليه، فلا يدخل في هذا، وإنما يدخل فيه فعل الجاهلية الذي فعلهم يدل علىٰ التسخط للقضاء والقدر، أنه يصاب بمصيبة لا جبر لها، وكانت عادتهم إذا كان فعلهم غير كاف حسب زعمهم استأجروا من ينوح فهذه عادة كانت معروفة يستأجرون النائحة، ولهذا جاء أن النائحة يوم القيامة تكسىٰ من جرب ومن قطران وتلتهب بها النار لأنها تأمر بالجزع بخلاف ما أمر الله به وهي تنوح علىٰ غيرها وإنما تنوح للدراهم التي تعطاها.

---

(١) رواه البخاري رقم (١٣٠٣)، ومسلم رقم (٢٣١٥) من حديث أنس بن مالك ﵁.

(٢) رواه البخاري رقم (١٢٨٤)، ومسلم رقم (٩٢٣).

(٣) الفتاوىٰ الكبرىٰ (٥/ ٣٥٩).

وبعض العلماء جعل من النياحة الإعلانات التي تعلن في الصحف وغيرها: إنا فقدنا فلانًا. ولهذا كان بعض السلف ينهىٰ أن يخبر بأنه مات يقول: لا تُعلموا أحدًا بأنني قد مت خوفًا بأن يكون هذا الإعلام من النياحة.

ويقول شارح الحديث: إذا كان الشيء اليسير الذي يقع بصدق من النياحة فإنه يغتفر بدليل أن أبا بكر ﵁ لما توفي رسول الله ﷺ وكان في العالية في منزل له، والرسول ﷺ توفي ضحىٰ فجاء وهو مسجىٰ فكشف عن وجهه وقبّل بين عينيه ووضع يديه علىٰ خديه وقال: وا نبياه، وا صفياه، وا خليلاه[1]. وكذلك قالت مثل هذا فاطمة.

فيقولون: إذا كان بصدق وقليل فإنه يعفىٰ عنه. ولكن كون العبد يصبر ولا يقول شيئًا أفضل وأولىٰ وأحسن ولا أحد يمكن في الدنيا أن يلحق بنبي الله ﷺ، فإذا قيل: إن هذا فعلته فاطمة وفعله أبو بكر فهذا خاص بالنبي ﷺ أما غيره فلا يجوز أن يفعل فيه مثل هذا، فيجب أن يصبر الإنسان ويحتسب.

ووجه الاستدلال بالحديث قوله: «**والنياحة علىٰ الميت**»، وكذلك: «**الطعن في النسب**» فإنه قدح في خلق الله وانتقاص لعباد الله.

✍ **قال المؤلف** ﵀ **: ولهما عن ابن مسعود** ﵁ **مرفوعًا: «ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوىٰ الجاهلية»**[2].

قوله: «ليس منا»: معروف أنه ليس منا يعني من المسلمين، فمن فعل ذلك فليس منا، فإذا أخذ علىٰ ظاهره فمعنىٰ ذلك أنه خارج عن المسلمين، وسفيان الثوري ﵀ والإمام أحمد ﵀ وغيرهما من كبار العلماء يقولون: لا يجوز أن نتأول

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم (٢٤٠٢٩).
(٢) رواه البخاري رقم (١٢٩٧)، ومسلم رقم (١٠٣).

هذا، يجب أن نتركه على ظاهره حتى يكون أردع للمجرم وأبلغ في الزجر، ولسنا أعلم من رسول الله ﷺ، ولكن لا يجوز أن يعتقد بأن من فعل ذلك أنه خرج من دين الإسلام وصار كافرًا؛ لأن هذا مذهب الخوارج، **فصرنا بين شيئين**:

الأول: أمرٌ فيه الخطورة وهو القول على الرسول ﷺ بلا علم، فلا نأوله فنقع في أمر ما أراده الله ورسوله ﷺ، وهو الذي دعا كثيرًا منهم لعدم التأويل.

الثاني: إذا لم نأوله ونبقيه على ظاهره، وظاهره أن من فعل هذا فهو كافر وهذا لا يجوز.

ولهذا نقول: أنه لا يجوز أن نتخذ طريقًا لا يمكن أن نخالفه أبدًا، وهو عدم التأويل لا في نصوص الشرع -في الأمر والنهي- مثل هذا، ولا في أسماء الله وصفاته، بل يجب أن نتعرف على مراد المتكلم ومقصوده، وهذا يتبين لنا من القرائن، ومن كذلك الأحوال وسياق الكلام وما أشبه ذلك، فإذا تبين لنا مراد المتكلم ومقصوده فنقول به ولا يكون تأويلًا.

مثل هذه النصوص الكثيرة تدل على أن الذنوب لا تكون مكفرات للإنسان ومخرجة له من الدين الإسلامي، وكوننا نبقيها على ظاهرها فيه إشكال في الواقع، وكثيرًا ما يقولون اتركه على ظاهره، ومعنى ظاهره أنه يكون كافرًا، وهذا لا يمكن ولا يجوز، فنقطع أن الرسول ﷺ ما أراد أن يكون الذي يشق جيبه عند المصيبة أو يلطم خده أنه كافر وخرج من الدين الإسلامي، لأنه عُرف من سُنَّته ﷺ أن الذنوب متوعد عليها وقد تكون أكبر من هذا ويقام الحد على صاحبها ويصلي عليه النبي ﷺ مثل الزاني المحصن والمرأة الزانية المحصنة رجمها ثم صلى عليها، وقال عليه الصلاة والسلام: **«لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم»**(١)،

(١) رواه مسلم رقم (١٦٩٥).

وفي رواية: «**فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له**»، ثم أمر بها فصلىٰ عليها ودفنت، المكس: هو أخذ المال الذي يسمىٰ الجُمرك وما أشبه ذلك؛ لأنه أخذ مال بلا حق.

فالمقصود أن تأويل مثل هذا حتىٰ يتفق مع النصوص الأخرىٰ لا يكون منكرًا، بل يكون هو الصواب، هذا من ناحية الأوامر، أما من ناحية الصفات فهو كذلك أيضًا، فالله ﷻ يقول لنا في كتابه: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠]، يقال هذا مثل ما أخبر الله ﷻ لا يجوز لنا أن نقول: هل ينظرون إلىٰ أن يأتيَ أمره أو يأتيَ عذابه أو تأتي ملائكته كما يقوله المتأولة فيؤولون صفات الله ﷯ بمخلوقات، بل نقول: إن هذا يجب أن نأخذه علىٰ ظاهره، ولكن هل نسلك هذا المسلك دائمًا في كل نص يأتي في مثل هذا مثل قوله تعالىٰ: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْ﴾ [الحشر: ٢] فهل نقول أن هذا إتيان ربنا ﷻ بنفسه، ومثلها الآية الأخرىٰ: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ﴾ [النحل: ٢٦] نقول ليس كذلك، لأن القرائن تدل علىٰ خلاف ذلك، وكذلك السياق.

الآية الأولىٰ في بني النضير اليهود الذين حاصرهم الرسول ﷺ وقد كانوا متحصنين في بلادهم، وكانوا يزعمون أنهم أصحاب قوة وأن أحدًا لا يستطيع أن يقهرهم، فجاءتهم جنود الله ﷻ يقودها الرسول ﷺ فتزلزلوا وقذف في قلوبهم الرعب.

فإذا قلنا: هنا «أتاهم الله» يعني: جنده وبأسه، نقول: هذا لا يكون تأويلًا، نقول هذا هو الظاهر؛ لأن السياق يدل علىٰ هذا، ومراد المتكلم هو هذا، فيكون هذا هو الظاهر وليس تأويلًا.

وكذلك الآية الأخرىٰ: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ﴾ فالله لا يأتي من

سيسان الحيطان تعالىٰ الله وتقدس، فهو علىٰ عرشه فوق خلقه كلهم، وإنما يأتي عذابه، وقلنا هذا هو الظاهر.

فالمقصود: أنه إذا قال أهل السُّنَّة مثل هذا ما يقال أنكم تتناقضون، فهنا ليس فيه تناقض وإنما نتبع مراد ربنا ﷻ، ونتعرف علىٰ مراده، فإذا تبين لنا مراده قلنا به وهو ظاهر.

وعلىٰ هذا نقول في قوله: «**ليس منا**» نقول: ليس علىٰ طريقتنا التي يجب أن يكون الإنسان عليها، وإذا لم يكن عليها فهو معاقب مأخوذ بذنبه.

قوله: «من ضرب الخدود»: نص علىٰ الخدود لأن العادة كانت هكذا، عادة الجاهلية كانت إذا وقع للإنسان مصيبة صار يلطم خده ولا سيما النساء، ولا تزال إلىٰ الآن علىٰ هذا النهج.

ولكن هذا لا يختص بالخد، فلو ضرب صدره أو رأسه أو ضرب فخذه عند المصيبة فإنه داخل في ذلك، فإنه عاصٍ ومرتكب كبيرة من كبائر الذنوب.

وقوله: «وشق الجيوب»: الجيب هو الفتحة التي في القميص يدخل معها الرأس. وكانت عادة الجاهلية أنهم كانوا يشقونها، ولا يزالون إلىٰ الآن. والحافظ ابن حجر ؒ يقول: إذا شق الجيب ولم يكمل الشق فإنه لا يدخل في هذا[1]. وهذا غير صحيح، بل إذا فعل ولو قليلًا فإنه داخل في ذلك؛ لأن هذا يدل علىٰ التسخط، كذلك فيه إتلاف المال الذي لا يجوز إتلافه وأهم شيء هو سخط القضاء وتقدير الله ﷻ، ولكن بعض الناس ينتف الشعر من حر المصيبة ويضرب نفسه، فأي فعل يفعله الإنسان عند المصيبة يدل علىٰ التسخط وعدم التسليم لله ﷻ فهو داخل في هذا وهو من كبائر الذنوب.

(١) فتح الباري لابن حجر (٣/ ١٦٤) قال: والمراد بشقه إكمال فتحه إلىٰ آخره وهو من علامات التسخط.

وقوله: «ودعا بدعوىٰ الجاهلية»: دعوىٰ الجاهلية هي: الدعوىٰ بالويل والثبور، يقول: يا ويلاه ويا ثبوراه عند المصيبة. ودعوىٰ الجاهلية أعم من هذا، فيدخل فيها الدعوة إلىٰ العصبيات وإلىٰ الاعتزاز بالقبائل والاعتزاز بالأوطان والدعوة لها والولاء لها، أو لطائفة معينة، حتىٰ ولو كان عالمًا من العلماء، يصبح يوالي عليه ويعادي عليه، فهذا من دعوىٰ الجاهلية.

ويدخل فيها أيضًا كل دعوة يخالف فيها شرع الله ﷻ فهي من الجاهلية لأن الجاهلية خلاف العلم، والعلم هو الذي جاء به الرسول ﷺ.

ويدخل فيها أيضًا التعصب للمذاهب، كما هو الواقع لكثير من الناس، حتىٰ أن بعض الناس إذا ذكرت له الدليل من كتاب الله أو سُنَّة رسوله ﷺ قال: «المذهب خلاف هذا».

ففي هذه الأمور دليل علىٰ عدم التسليم لقضاء الله ﷻ ولقدره والاعتراض عليه.

وقد يكون الإنسان مثلًا إذا أصيب بالمصيبة في نفسه أو في غيره يكون هذا سببًا في كفره وخروجه من الدين الإسلامي، قد يكون هذا كما يسمع من بعض الناس إذا وقع في مرض أو مصيبة وجدته يشكو الله إلىٰ الضعفاء، يقول: أنا ما عملت شيئًا ما أدري ما هذه المصيبة التي أصابتني، فهل أنت طاهر مطهر ليس عندك أي مخالفة، الله ظلمك وأوقع بك هذا ظلمًا! وهذا لا يجرؤ أن يقوله ولكن هذا في قلبه والكلام يدل علىٰ هذا.

فقد يخرج الإنسان -نسأل الله العافية- إذا وقع في مصيبة من الدين الإسلامي ويصبح يتهم ربه ﷻ بأنه ظلمه مع إن المصائب رحمة من الله ﷻ يكفر بها الذنوب.

وبعضهم يعترض علىٰ حالات الناس، يقول هذه ليست حكمة، لماذا فلان يصير فقيرًا وفلان يكون غنيًا، وفلان عنده كذا وفلان عنده كذا، فهم يعترضون علىٰ

الله ﷻ في تصرفه في خلقه تعالىٰ الله وتقدس، وبعضهم يجعل غضبهم ومسبته علىٰ الدهر يقول الدهر هو الذي فعل كذا، الدهر يغدق علىٰ الضعة ويضيق علىٰ أهل الأدب وأهل المروءة.

والدهر الذي هو الليل والنهار زمن مدبر ليس عنده تصرف، وإنما المسبة في الواقع تعود إلىٰ الفاعل لهذه الأفعال وهو الله ﷻ، ولكنهم لا يجرؤون أن يقولوا أنه الله.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أراد الله بعبده الخير عجَّل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتىٰ يوافي به يوم القيامة»**[1].

الإرادة هنا «أراد» هي إرادة قدرية كونية، والإرادة القدرية الكونية لا بد منها في كل شيء، لا يمكن أن يوجد شيء من الأشياء إلا بإرادة الله ﷻ الكونية، ولكن الإرادة الدينية الشرعية أخص من هذا، وهي تتعلق بالأمر والنهي فقط، ولهذا صار فيها التيسير: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

فاليسر في الشرع حيث خفف عن المسلمين ما كان من الآصار والأغلال التي كانت علىٰ اليهود والنصارىٰ وغيرهم، ولهذا تذكر في الأمور الشرعية بخلاف الكونية مثل قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥] وهذا الحديث مثل هذه الآية والله ﷻ لا يقع شيء سواء من فعل الإنسان العاقل الذي عنده القدرة وعنده الاختيار أو من فعل غيره، لا يقع شيء إلا بإذنه وإرادته؛ لأن الكل ملكه ولا يقع في ملكه إلا ما شاء.

---

(١) رواه الترمذي رقم (٢٣٩٦).

وإن كان العبد يفعل الأفعال عن اختيار وعن قدرة، ولكن الاختيار والقدرة مخلوقة له، خلقها الله ﷻ له، ثم هو ﷻ يصرِّف الأشياء حسب إرادته، يجعل الإنسان مختارًا لهذا الشيء ويجعله منصرفًا عن هذا الشيء، ولهذا إذا سمع العلماء كلمة الجبر قالوا يتعالىٰ الله ويتقدس أن يجبر أحدًا؛ لأن الجبر يدل علىٰ الضعف، فالقوي يجبر الضعيف من الناس، ولكن الله يجعل الأشياء حسب إرادته بخلقه تعالىٰ وتقدس مع أن الاختيار يكون للإنسان، ولهذا تجد الإنسان يكفر باختياره وبفعله ولو قاتلته لقاتلك، ويقول أنا حر ما تصرفني عن إرادتي، نقول له هذا كفر ومأواك النار، يقول: ما لك ولي اتركني، فهو باختياره وفعله.

وكذلك المؤمن اختار الإيمان والطاعة، ولكن هذا يجعل الله له هذا الشيء جعله مختارًا لذلك، فالله ﷻ يقول: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩] فمشيئة الإنسان بعد مشيئة الله، ولا يقع شيء إلا بإرادته.

فمعنىٰ قوله: «**إذا أراد الله بعبده**» يعني الإرادة القدرية التي قدرها قدرًا، أراد بعبده الخير فإنه يهيئ الأسباب، ثم يقدر له العقوبة وسواءً كانت العقوبة في بدنه أو في ماله أو في أهله أو في أقاربه فإن هذا يكون فيه كفارة لذنوبه.

وقوله: «عجل له العقوبة في الدنيا»: حتىٰ يصبح ليس عليه ذنب، وإلا ليس أحد يخلو من الذنب أبدًا، ولهذا تكون العقوبة نعمة من الله علىٰ العبد، حتىٰ يكفر ذنوبه؛ لأنه لا يمكن أن يكون العبد سالمًا من الذنوب، وبعض الناس يتصور أنه ظاهر وأنه ما عمل ذنبًا، وهذا من الجهل جهله بنفسه وجهله بربه ﷻ.

والعبد خلق لعبادة الله ﷻ، وعبادة الله علىٰ العبد دائمًا وعلىٰ جوارحه وقلبه ولسانه وقد أمره الله ﷻ بأوامر ميسرة ومع ذلك لا يستطيع أن يقوم بها علىٰ الوجه الشرعي، ولا يمكن أحدًا أن يقوم بها علىٰ الوجه المطلوب سواء الصلاة التي تتكرر

في اليوم خمس مرات فتجده يقوم في الصف ثم تجده يسرح في كل مكان قلبه، فهذا ذنب يجب أن يستغفر منه، وهو أيضًا لا يأتي بها كما يأتي بها الصالحون فضلًا عن الصحابة وعن الرسول ﷺ، والصالحون الذين يخلصون أمرهم لله ﷻ، فإذا كانت الصلاة التي هي من أفضل الأعمال يمكن أن العبد يكون مذنبًا فيها لأنه ما أتىٰ بها علىٰ الوجه المطلوب، فكيف بالبقية فيقيس الإنسان نفسه علىٰ هذا، ولهذا إذا عجل الله لعبده العقوبة في الدنيا فهذا من رحمته، وقوله: «**إذا أراد الله بعبده**» هذا مطلق لكل أحد «**عجل له بالعقوبة في الدنيا**» يعني أصابه مرض أو مصيبة في أهله أو في ولده أو في ماله وما أشبه ذلك، فهذه العقوبات التي يصاب بها الإنسان كفارة لذنوبه كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورىٰ: ٣٠] وهو سبحانه يعفو عن كثير، لو أخذنا بكل ما نستحق ما يمكن أن يبق علىٰ وجه الأرض أحد ولكنه رحيم حليم.

وقوله: «**وإذا أراد بعبده الشر**»: الشر بالنسبة للعبد، وإلا الله ﷻ ليس إليه شر، كل فعله ﷻ خير عقابه لمستحق العقاب خير، ولكنه بالنسبة للمعاقب شر.

قوله: «**أمسك عنه بذنبه**»: أمسك؛ يعني: العقوبة لا يعاقبه بذنبه، يعافيه.

قوله: «**حتىٰ يوافي به يوم القيامة**»؛ يعني: حتىٰ يوافي بذنبه يوم القيامة يأتي بذنبه كاملًا يوم القيامة فيلقىٰ جزاءه في ذلك اليوم، ولهذا أخبرنا الله ﷻ أنه يملي للكافر حتىٰ يزداد شرًا: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ [آل عمران: ١٧٨]، فإذا رأيت الظالم يمد له في أيامه ويمد أيضًا في أعماله فلا تحسبن الله غافلًا عما يعمل، ولكن هذا لشدة العذاب، والذي يصاب في هذه الدنيا بمصيبة تمر هذه المصيبة كأن لم تكن لأن الدنيا ماضية وتنتهي بخلاف الآخرة فإنها باقية.

✍ **قال المؤلف رحمه الله: وقال النبي ﷺ: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط» حسنه الترمذي**(١).

قوله: «قال النبي ﷺ»: قال الترمذي: حدثنا قتيبة، حدثنا الليث عن يزيد بن حبيب، عن سعد بن سينان عن أنس بن مالك، ثم قال: وبهذا السند قال ﷺ: «**إن عظم الجزاء مع عظم البلاء**».

وهذا يدلنا على أن البلاء يكون عليه جزاء، وقد اختلف العلماء في هذه المسألة هل المصائب كفارات فقط أو أنها كفارات وحسنات يزداد الإنسان فيها خيرًا؟

فقالت طائفة: إنها تكفِّر فقط(٢)؛ لأن الإنسان لا يسلم من الذنوب، وكل ما أصيب به فهو كفارة، ولهذا أخبر الرسول ﷺ بقوله: «**ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفر الله بها عنه حتى الشوكة يشاكها**»(٣)، ولما قال الله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ﴾ [النساء: ٧٨]، حتى قال الله تعالى: ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ الآية [النساء: ٧٩]. وقول الله تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ

---

(١) رواه الترمذي رقم (٢٣٩٦)، وابن ماجه رقم (٤٠٣١).

(٢) عِدَة الصابرين (١/ ٧٠) قال: وأما الأسقام والمصائب فإن ثوابها تكفير الخطايا، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، والنبي ﷺ إنما قال في المصائب كفر الله بها من خطاياه كما تقدم ذكر ألفاظه وكذا قوله: المرض حطة، فالطاعات ترفع الدرجات والمصائب تحط السيئات، ولهذا قال: «**من يرد الله به خيرًا يصب منه**»، وقال: «**من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين**»، فهذا يرفعه وهذا يحط خطاياه.

(٣) رواه البخاري رقم (٥٦٤٠)، ومسلم رقم (٢٥٧٢) من حديث عائشة.

ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [النساء: ١٢٣]، فهذه لما نزلت شق ذلك على الصحابة، قالوا: هذا شيء شديد إذا كان كل سوء نعمله سنجزى به فمعنى ذلك أنه لا يسلم أحد، فأخبرهم الرسول ﷺ أن الجزاء هذا يكفر بالمصائب حتى الشوكة إذا أصابت الإنسان تكفر عنه مما أصاب، وهذا من رحمة الله تعالى، وهذا مثل الحديث الذي معنا.

وقالت طائفة أخرى: أن المصائب تكون مكفرة، وفيها رفع درجات لما دل عليه الحديث وغيره فقوله ﷺ: «**إن عظم الجزاء مع عظم البلاء**».

الجزاء معروف أنه الحسنات، فإذا كان على البلاء جزاء فمعنى ذلك أنه يكفر وزيادة على ذلك يكون فيه حسنات، ورفع لدرجات، ولهذا جاء في الحديث أن الإنسان قد يكون له عند الله درجة عالية لا يبلغها بعمله فيبتليه بمصائب حتى يصل إلى هذه الدرجة، وهذا يدل على أن البلاء والمصائب يكون فيها رفع لدرجاته، يعني أنه لا يكتفي بأنها تكفِّر. وابن القيم رحمه الله ذكر هذا ولكنه قال: هذا ليس على نفس المصيبة وإنما هو على الرضا والاحتساب والصبر، إذا رضي وصبر واحتسب فدرجاته على هذا، أما نفس المصيبة فهي مكفرة فقط، والله أعلم.

وقول الله تعالى: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان: ٧٠]، قيل: إن السيئات تبدل حسنات كما في نص الآية، وقيل أن معنى ذلك أن العبد يتغير فبدل ما كان يعمل السيئات بدأ يعمل الحسنات وهو تبديل بالفعل، يعمل الإنسان بتوفيق من الله جل وعلا. قد يؤيد القول الأول أن السيئات نفسها تجعل حسنات ما جاء في الحديث أن الله جل وعلا يأتي بالعبد وتعرض عليه سيئاته الخفيفة وتبعد عنه السيئات الكبيرة ثم يقال له إن لك بكل سيئة حسنة أو قال درجة، فيقول يا رب لي سيئات ما أراها طمع لما قيل له هذا، فقد يكون هذا لبعض عباد الله وليس للكل، ولا ينافي كونه برضاه وصبره واحتسابه.

وهذا الحديث يدل علىٰ أنه ليس تكفيرًا فقط لأنه قال: «**إن عظم الجزاء مع عظم البلاء**»، فالله ﷻ يجزي علىٰ المصائب حسنات ودرجات، وأن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم بالفقر وبالمصائب، وبالشيء الذي قد يراه الناس أنه إهانة وأنه بسبب ذنوب ارتكبها وهو في الواقع لأن الله أحبهم، ويرفع درجاتهم في الآخرة.

قوله: «**فمن رضي فله الرضا**»: هذا هو الذي استدل به ابن القيم رحمه الله علىٰ أن الرضا والصبر والاحتساب هو الذي عليه الجزاء، وليس علىٰ نفس المصيبة، فالمصيبة تكفر ولكن الرضا عن الله ﷻ والصبر علىٰ المصيبة والاحتساب، وطلب الثواب علىٰ ذلك هو الذي عليه الثواب. والظاهر والله أعلم أن المصيبة يكون فيها تكفير وثواب، ولكن ليس لكل أحد إذا كان العبد قابل المصيبة بالسخط علىٰ الله وما قدره فتكون عذابًا عاجلًا وليس له عليها لا تكفير لذنوبه ولا ثواب، وإذا استقبل هذا بالرضا عن ربه ﷻ والحمد والصبر والاحتساب فإنها تكون مكفرة ورافعة لدرجته.

قوله: «**إذا أحب قومًا ابتلاهم**»: فيه إثبات المحبة لله ﷻ وأن الله يحب بعض الناس وبعضهم لا يحبهم ويقابله البغض وكذلك فيه إثبات الرضا والسخط، فكل هذه الصفات لا يؤمن بها الأشاعرة ونحوهم ممن هم علىٰ طريقة أهل الضلال كالمعتزلة والجهمية وغيرهم، وقد ورث هؤلاء الرافضة الآن والزيدية والإباضية وغيرهم، ورثوا هذا المذهب الضال، فكلهم علىٰ هذا المذهب الخبيث لا يؤمنون بصفات الله ﷻ بل يرون هذا من التشبيه، فهم يعطلون الله عن المحبة وعن الرضا والسخط بل يعطلونه عن الكلام ويعطلونه عن الاستواء وكذلك الرؤيا وغيرها مما ثبت بالنصوص وصف الله تعالىٰ به.

فهذا صريح بأن الله يحب وقد كثرت النصوص في هذا، وهم لا يعرفون من المحبة إلا ما يعرفون من أنفسهم، يقولون المحبة هي الميل إلىٰ الملائم وهذا فيه

نقص حسب زعمهم وهذه محبة المخلوق، ومحبة المخلوق مخلوقة مثله ضعيفة مثله، أما محبة الله ﷻ فلا يجوز أن يكون هذا معناها، محبة الله هي صفة تقوم به ﷻ وهي حقيقية ولكن لا يجوز أن نشبهها بصفة المخلوق، فالمخلوق ضعيف ويليق به الضعف، وفقير ويليق به الفقر، والله غني كامل ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في أوصافه، ومثل ذلك يقال في الرضا.

قال: «**فمن رضي فله الرضا**»؛ يعني: من الله، أن الله يرضىٰ عنه «**ومن سخط فله السخط**» يعني: أن الله يسخط عليه.

فإذًا هذه صفات يتصف الله ﷻ بها يجب أن يؤمن بها علىٰ ما جاء عن الله وما جاء عن الرسول ﷺ علىٰ ما يليق بالله كما قال ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١]، ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، بل ولا في حقه الذي هو عبادته علىٰ عباده، فهذه أمور أربعة يجب أن تكون من خصائص الله، فحقه يجب أن لا يكون مثل حق المخلوق يكون عبادة خالصة له ﷻ، والسخط كذلك، والله يسخط علىٰ من يشاء من عباده.

والحب والرضا والسخط والبغض والكراهة كلها يعرفها المخاطب، ولكن حقيقتها لا يعرفها أحد، وإنما علىٰ العبد أن يعلم يقينًا أن الله يحب ويرضىٰ ويغضب ويكره كما يليق به تعالىٰ وتقدس.

والشاهد من هذا أن كل ما يصاب الإنسان به فهو بتقدير الله فيجب أن يؤمن به، ثم يصبر ويحتسب علىٰ الله أنه يثيبه، وكل هذه الأمور داخلة في قوله من الإيمان بالله الصبر علىٰ أقدار الله، وهذا ليس خاصًا بأقدار الله، فالصبر أيضًا علىٰ أمر الله وطاعته والصبر عن المعصية كله يدخل في هذا.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **فيـه مسـائل:**

۞ **الأولى:** تفسير آية التغابن.

يعني: فيها الدلالة على أنه ما يقع شيء إلا بقدر الله، وأن العلم بذلك والصبر والاحتساب أنه من الإيمان بالله.

۞ **الثانية:** الطعن في النسب:

يعني: أن هذا يقدح في الإيمان بالله.

الباب السادس والثلاثون

✍ **قال المؤلف** ﵀: **باب ما جاء في الرياء.**

يعني من الوعيد، وأنه من الشرك، وأن الإنسان إذا وقع فيه فإن عمله مردود، وهو ممقوت عند الله، وأنه يستحق المقت من الله تعالىٰ.

والرياء خطير جدًا فيقع فيه العلماء ويقع فيه الصالحون، والعلماء والصالحون اجتهدوا وكبحوا نفوسهم عن الحرام وعن ترك الواجب، ولكن الثناء وتعظيم الإنسان والتبرك به والقيام بخدمته وما أشبه ذلك أمور خفية تحبها النفس وتميل إليها وتجد فيها راحة فصارت خطرة من هذا الوجه وغيره.

والرياء مأخوذ من المراءاة أو من الرؤية. رياء مصدر: راءه، يُرائيه، رياءً. فالرياء مشتق من الرؤية، رؤية الناس، لأنه يُريهم يعني أنه يُريهم عمله ويظهر لهم أنه حسن وأنه علىٰ صفة معينة حتىٰ يثنوا عليه ويمدحوه، أو يحصل له مراده منهم لخدمة أو ما أشبه ذلك من أغراض النفس. فيكون المعنىٰ أن الذي يفعل هذا أنه يعمل لهواه يعمل لنفسه لما يشتهيه ويريده لما يحبه من أمور الدنيا التي هي إما ترفُّع علىٰ الناس أو حصول منزلة في قلوبهم أو حصول شيء من أمور الدنيا يرتفع بها من الثناء والمدح، أو أن يقدم في المجالس وما أشبه ذلك من شهوات النفس إذا عمل العمل الذي هو لله ثم حسنه وزينه وزاد فيه من أجل ذلك فهذا العمل حابط.

أما أن يكون العمل أصله ومبعثه لأجل مراءاة الناس فهذا لا يكاد يصدر من مسلم في الأعمال التي يكون نفعها قاصرًا علىٰ العبد نفسه مثل: الصلاة والصوم وما أشبه ذلك، أما الأمور المتعدي نفعها مثل: الصدقة وما أشبه ذلك، فهذا قد يبذل هذه الأموال حتىٰ يثنىٰ عليه من الأصل ويكون هو الباعث له، ومثل كذلك بناء

المساجد كما قال السلف: الإخلاص فيها عزيز. يعني قليل، وإنما يكون الإخلاص من المؤمنين الخلَّص.

والرياء يتعلق بحاسة النظر، والسمعة تتعلق بحاسة السمع بالكلام أو التحدث فقد يعمل أعمالًا وحده ثم يُحدث الناس بها يقول: عملت كذا، وعملت كذا، فيكون قد دخل في السمعة، وفي الشرك -نسأل الله العافية-.

فإذا كان الرسول ﷺ يخاف هذا الشيء على الصحابة الكمَّل خير الناس بعد الرسل فمساكين الذين قلَّت علومهم وتقواهم وإدراكهم وقلَّ عقلهم فلا بد أن يخاف عليهم. ولما كان من شرط العمل وقبوله أن يكون خالصًا لله، وأن يكون صالحًا يعني على السُّنَّة أراد المؤلف رحمه الله أن يبين أن الرياء يبطل العمل، وأنه منافيًا للتوحيد، أو منافيًا لكماله الواجب لأن **الرياء ثلاثة أقسام:**

القسم الأول: أن يكون رياءً محضًا، ويكون هو الباعث على أصل العمل كما ذكر الله ذلك عن المنافقين ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢] يعني في صلاتهم، إذ الباعث على الصلاة مراءاة الناس، وكذلك ذكر الله ذلك عن الكفار: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [الأنفال: ٤٧] فخرجوا مراءاة للناس، وهذا الرياء المحض لا يكاد يصدر من مؤمن في الأعمال التي تكون محصورة عليه مثل: الصلاة والصيام.

أما الأعمال التي يتعدى نفعها وتكون ظاهرة مثل: الصدقة أو الحج، فإن الإخلاص فيها عزيز، وهذا العمل لا يشك مسلم أنه حابط، وأن صاحبه يستحق المقت من الله والعقوبة والخطر في النوعين الآخرين.

القسم الثاني: أن يكون العمل لله، ويشاركه الرياء، فإن شاركه من أصله فالنصوص الصحيحة تدل على بطلانه وحبوطه أيضًا منها هذا الحديث الذي معنا.

القسم الثالث: أن يكون العمل لله، ويطرأ عليه نية الرياء، يعني في أثنائه مثل ما جاء في الحديث: «لما يرىٰ من نظر رجل» وهذا معناه أنه يزيد صفة ما كان يعملها مثل تحسين الصلاة وإطالتها من أجل نظر رجل فهذا لا يخلو من حالتين:

الحالة الأولىٰ: أن يكون خاطرًا ثم يدفعه ويزيله عن عمله ويجتهد في الإخلاص ويبتعد عن الرياء فهذا لا يضره.

الحالة الثانية: أن يسترسل معه فإن كان العمل مرتبطًا أوله بآخره كالصلاة والصيام والحج، فظاهر النصوص أن عمله باطل وأنه معاقب أيضًا علىٰ هذا العمل منها هذا الحديث.

وإن كان العمل لا يرتبط أوله بآخره مثل القراءة والذكر وإنفاق المال ونشر العلم فما كان فيه رياء فهو حابط ويحتاج إلىٰ تجديد نية.

وقد جاء عن الفضيل بن عياض وغيره من السلف: إن ترك العمل من أجل الناس رياء والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما[1].
والناس لا ينفعون ولا يضرون فيجب أن لا يكون لرؤيتهم أثر عند الإنسان، ويكون العمل لله ﷻ والعافية أن يعافيك الله منهما.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله **: وقول الله تعالىٰ:** ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

قوله: «﴿قُلْ﴾»: هذا أمر للرسول ﷺ أن يقول، فقال لنا مثل ما قيل له، وقد سُئل عن هذا فقال: «**قيل لي فقلت لكم**»[2]، وهذا يدلنا أن الرسول ﷺ جاء إلينا

(١) مدارج السالكين (٢/ ٩١).
(٢) سبق تخريجه.

بكل ما أوحي إليه بالحرف ما نقص حرفًا واحدًا ولا زاد شيئًا، فهذا كلام الله ﷻ فأمره بالقول فقال كما أمر.

وقوله: «﴿إِنَّمَآ﴾»: إنما تدل علىٰ الحصر؛ يعني: أنه محصور فيما ذكر.

قوله: «﴿أَنَا۠ بَشَرٌ﴾»؛ يعني: مخلوق من ذكر وأنثىٰ من بني آدم.

قوله: «﴿مِّثۡلُكُمۡ﴾»: بشر مثلكم لست إله ولا ربًا ولا ملكًا، إنما أنا بشر مثلكم ولكن الله منَّ عليّ وخصني بأن أوحىٰ إلي أمره ونهيه لأبلغكم إياه ففضله بذلك.

قوله: «﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾»: الوحي هو: الإعلام بالخفية، وقد يكون بواسطة الملك، وقد يكون بغير ذلك، وهذا دليل واضح أن الرسول ﷺ مثل الناس بالخلق ليس مخلوقًا من النور مثل ما تقوله المتصوفة وغيرهم وأنه نور وأنه هو أصل الوجود أو ما أشبه ذلك، هذا كله غلو ومجانب للحق.

قوله: «﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ﴾»: إنما أيضًا هذه دليل علىٰ الحصر.

قوله: «﴿إِلَٰهُكُمۡ﴾»؛ يعني: معبودكم، فالإله هو المعبود الذي تألهه القلوب وتعبده.

قوله: «﴿إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾»: معبود واحد هو الله ﷻ ليس معه إله، كما أنه سبحانه ليس معه متصرف وخالق وموجد: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [فاطر: ٤٠]، هل هناك أحدٌ خلق شيئًا من الأرض أو من السماء أو من الشجر أو من البشر أو من الدواب أو من غير ذلك لا وجود لشيء من ذلك.

وهذه الآية تدل علىٰ أن الرسول ﷺ أُمر ببيان وإبلاغ توحيد العبادة -الألُوهية- وأنه أرسل بهذا، أما توحيد الربوبية فهو أمر معلوم للناس لا يخالف فيه

أحد لكونه معلومًا جعله الله دليلًا على وجوب توحيد العبادة كما قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، انظر كيف استدل: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ يعني: يجب أن تعبدوه لأنه هو الذي خلقكم وخلق الذين من قبلكم وخلق كل شيء: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]؛ يعني: لا تعبدوا غيره وأنتم تعلمون أنه هو الواحد المتفرد في إيجاد هذه الأشياء، فهذا دليل على وجوب عبادته وهذا كثير جدًا في القرآن.

وقوله: ﴿إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾؛ يعني: ليس له شريك في التوجه والدعاء وغير ذلك من أنواع العبادة فيجب أن تكون كلها له وحده.

وقوله: «﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾»: اللقاء هنا تعلقت بما قبلها، مفرَّعة على ما قبلها؛ يعني: من كان يؤمن بأنه سوف يموت ويبعث فيقوم بين يدي الله فليعمل عملًا صالحًا والعمل الصالح هو الذي جاء به الرسول ﷺ على سُنَّته فهذا شرط.

وقوله: «﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾»: هذا هو الشرط الثاني.

وقوله: ﴿أَحَدًۢا﴾: هذا نكرة في سياق النهي، والنكرة إذا جاءت بعد النهي أو بعد النفي فهي تعم يعني: أحدًا مطلقًا سواء كان نبيًا أو كان شجرة، أو حجرًا أو ملكًا أو غير ذلك، فهذا عموم مطلق يدل على أن كل أحد لو اتجه إليه بالعبادة أن ذلك، يكون مشركًا، ويكون محبطًا للعمل وجاعلًا العمل غير مقبول.

ولكن يبقى معنى الإله ومعنى العبادة ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ ﴿بِعِبَادَةِ﴾ قد يتصور الإنسان أن الإله هو الذي يحيي ويميت ويخلق ويرزق ويتصرف في الكون كله ويقول أنا مؤمن بهذا، ويتصور أن العبادة هي الصلاة والصوم وما أشبه ذلك فقط، أما الدعاء والذبح ما يلزم أن تكون عبادة كما هو الواقع لكثير من المسلمين،

والذي عاش في هذه البلاد قد يستغرب هذا، وكانت هذه البلاد مثل البلاد الأخرىٰ لا فرق بينها، فهذه الأشياء موجودة فيها؛ لأن أهل هذه البلاد كانوا يذهبون إلىٰ مصر وإلىٰ الشام والعراق ويتعلمون فيأتون من هناك بالشيء الذي تعلموه، ولهذا كانت القبور تعبد وتقصد ويذبح لها وينذر ويستغاث بها، ولكن الله ﷻ منَّ علىٰ هذه البلاد بدعوة شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله فطهَّرها من هذا الشرك.

فالمقصود أن الآية تدل أولًا أن الرسول ﷺ مثلنا في البشرية غير أن الله منَّ عليه وفضله بالوحي أوحىٰ إليه وأنه بلغ ما أوحي إليه إلىٰ الناس، وأن شرعه الذي جاء به يجب أن يقبل وأن يتعبد الله به وأن يكون هذا التعبد خالصًا لله ﷻ.

وأن الإله هو المألوه الذي تألهه القلوب خوفًا ورجاءً وإنابة وحبًا وذلًّا وخضوعًا غاية الذل، وهذا لا يجوز أن يكون إلا لله ﷻ.

وأما العبادة: فهي كل ما يتقرب به إلىٰ الله ﷻ من عمل يرجىٰ أن يثاب عليه بعد ما أمر به، فكل ما أمر الله به ويتقرب به إليه رجاء الإثابة وخوف العقاب إذا لم يفعله، والأمر سواء كان أمر إيجاب أو أمر استحباب، أما المباح فليس من العبادة لأنه ليس فيه أمر ولا نهي. وبهذا يتبين لنا أن العبادة تتوقف علىٰ أمر الله ﷻ.

العبادة: كل ما أمر به شرعًا من غير اطراد عرفي ولا اقتضاء عقلي. العرف هو: الذي يتعارف عليه الناس، والعرف لا دخل له في العبادة، وكذلك العقل ليس له دخل في هذا، وإنما تتوقف العبادة علىٰ الشرع، فالعبادة ما أمر الله به ﷻ أمر إيجاب أو أمر استحباب فتفعل تقربًا إلىٰ الله رجاء ثوابه وخوفًا من عقابه لو لم يفعل العبد ذلك فيدخل فيه النهي.

عرَّفها شيخ الإسلام بقوله: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة. ثم الأمثلة كثيرة مثل الصلاة والسجود والطواف.

فالطواف عبادة لا يجوز إلا أن يكون على الكعبة فقط، ومن طاف على القبر فقد عبد القبر وأشرك بالله، وكذلك من العبادة النذر والذبح والدعاء والحلف للتعظيم وكشف الرأس تعظيمًا، وهذا لا يجوز فعله إلا لله ﷻ وهو يكشف عند الإحرام تعظيمًا لله ﷻ، أما أن يكشف عند القبر تعظيمًا لصاحب القبر فهذا شرك بالله.

قال المؤلف رحمه الله: وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: «قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»(١).

قوله مرفوعًا يعني إلى النبي ﷺ، وهذا يسمى حديثًا قدسيًا لأنه يرويه النبي ﷺ عن ربه قولًا: «**قال الله تعالى**». والحديث القدسي هو ما أضيف إلى الله قولًا أنه قاله لكنه ليس من القرآن، لأن القرآن متعبدٌ بتلاوته ومتَحَدًّا بأقصر سورة منه ويشتمل على الإعجاز، أما الحديث القدسي فلا يلزم هذا كله فيه.

وكذلك لا يجوز أن يمس الإنسان المصحف يعني كتابة القرآن إلا وهو طاهر كما صح ذلك عن رسول الله ﷺ، وقد اختلف العلماء في تعريف الحديث القدسي فقالوا: هو ما أضيف إلى الله قولًا والمعنى من الرسول ﷺ، يعني أن المعنى عبَّر عنه الرسول ﷺ، قال الله ﷻ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤] يعني: أنه كل ما تكلم به الرسول ﷺ فهو عن الله فيكون القول والمعنى كلاهما من الله.

أما الذين يقولون أن القول من الله والمعنى من الرسول فيطلب الفرق بينه وبين الحديث النبوي؛ لأن الله أخبر أنه لا ينطق عن الهوى. ويقولون الفرق أن الله تلفظ بهذا، هذا هو الفرق، أما الحديث النبوي فإن الرسول ﷺ هو الذي تلفظ به، وعبر عن المعنى الذي أوحاه الله إليه.

(١) رواه مسلم رقم (٧٦٦٦).

وظاهر صنيع البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ أنه يرىٰ أن الحديث القدسي هو ما أضيف إلىٰ الله لفظًا ومعنىٰ، وهذا هو الصواب، والله أعلم.

قوله: «**أنا أغني الشركاء عن الشرك**»: «أغنىٰ» من أفعال التفضيل، مثل قوله تعالىٰ: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] ولا خالق غير الله تعالىٰ. ومثل قوله تعالىٰ: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا﴾ [الفرقان: ٢٤] يعني: من أهل النار، فهل أهل النار ليس عندهم حسن مقيل وحسن مستقر أبدًا. فكثير ما يأتي أفعل التفضيل وليس له مقابل في التفضيل وهذا منها.

قال: «**أنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك**»: والمعنىٰ: أنه غني وغناه كامل، فلا يقبل العمل الذي فيه شرك، وهذا يدلك علىٰ أن الشرك هو كونه يجعل العمل مقسومًا بين الله وبين غيره، يجعل لغيره منه نصيبًا هذا هو الشرك.

«**أنا أغنىٰ الشركاء**» هو غني عن كل شيء جَلَّ وَعَلَا، ولكن العمل الذي يقصد الرب جَلَّ وَعَلَا به ويقصد غيره فإنه يتركه، ولهذا قال: «**من عمل عملًا أشرك معي فيه**».

يعني: في هذا العمل «غيري» مطلقًا من أي نوع كان سواءً كان عاقلًا أو غير عاقل، سواءً كان نبيًا أو ملكًا أو وليًا أو غير ذلك، فالله غني عن العمل الذي يكون فيه اشتراك فيتركه لهذا الشريك.

قوله: «**من عمل عملًا**»: هذا نكرة يدخل فيه كل عمل سواءً كان ظاهرًا أو خفيًا، قليلًا أو كثيرًا.

قوله: «**تركته**»: الضمير هنا مفعول به وهو يعود إلىٰ العمل.

وقوله: «**وشركه**»: هذا يعود علىٰ الشريك، يعني تركته وشريكه. ولهذا جاء «**هو لشريكه**»[1]، يحتمل هذا، ويحتمل أن قوله: «**تركته**» يعود علىٰ العامل،

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم (١٧١٤٠) عن شداد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله عَزَّ وَجَلَّ يقول:** =

وقوله: «وشركه» يعني العمل.

فقوله: «**تركته وشركه**»؛ يعني: الذي أشرك به مع الله، وهذا ظاهر في أن العمل لا يقبله الله ﷻ بل يتركه لذلك الشريك.

وجه الاستدلال بالحديث على أن الرياء محبط للعمل:

أن العمل إذا وقع فيه شيء من الرياء أن الله لا يقبله بل يمقت عليه، وهذا الذي ساق المؤلف الحديث من أجله، أن العمل إذا وقع فيه رياء، فالرياء شرك، ثبت تسميته شركًا، أن الله يتركه لذلك الشريك، ولهذا جاءت النصوص الكثيرة في هذا، أنه يقول للمرائين: «**اذهبوا إلىٰ الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء**»(١).

وفي الحديث أن الله ﷻ يقول، وعبر عنه بـ «قال» بالماضي يعني أنه قد وقع والله ﷻ يتكلم إذا شاء بما شاء، فكلامه يتعلق بمشيئته تعالىٰ وتقدس ولا يجوز أن يكون كلامه حدث بعد أن لم يكن، بل لم يزل متكلمًا يعني بمشيئته، ولا يوصف بأنه متكلم، يعني نقول من صفاته المتكلم، لأن هذا لم يأت لا في الكتاب ولا في السُّنَّة وإنما جاء أن الله قال ويقول، وتكلم ويتكلم ويُكلم وهذا كثير وجوده في الكتب.

وقد أنكر الكلام كثير من أهل البدع وبعض الناس يقول ما ينبغي لنا أن نشتغل في ذكر مذاهب البدع التي مضت وانتهت وانقرضت فنصبح نبعث شيئًا مات، ويعيب علىٰ الناس الذين يذكرون هذا الشيء، وهذا دليل علىٰ أنه لم يعرف ما الناس عليه الآن، أكثر الناس اليوم علىٰ هذا المذهب الخبيث، وأقصد بالناس

= أنا خير قسيم لمن أشرك بي، من أشرك بي شيئًا، فإن حشده عمله قليله وكثيره لشريكه الذي أشرك به، وأنا عنه غني»، وجاء بلفظ عن أبي هريرة: «**فأنا بريء منه وهو للذي أشرك**» وهو عند ابن ماجه رقم (٤٢٠٢).

(١) أحمد في المسند رقم (٢٣٦٣٠) من حديث محمود بن لبيد.

العلماء وليس عامتهم، أما عامة الناس فقد فطرهم الله على الحق إذا سمعوا أن الله قال ويقول ويتكلم اعتقدوا هذا على ظاهره.

ولكن المصيبة الذين تغيرت فطرهم بالتعلم وتلقوا عن علمائهم أن الله لا يتكلم ولا يقول ولا قال، وأكثر العالم اليوم علماؤه من الأشاعرة والماتريدية وهم لا يثبتون كلامًا لله ﷻ حقيقة، وإنما يثبتون شيئًا خياليًا لا وجود له فهم يقولون الكلام ينقسم إلى قسمين:

الأول: كلام يتلفظ به ويسمع ويشتمل على حرف وصوت، وهذا ممتنع عندهم على الله ﷻ.

الثاني: وهو الذي يثبتونه وهو المعنى القائم بالنفس يسمونه الكلام النفسي ويستدلون عليه بقوله ﷺ: «**إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم**»(١)، فأثبت حديث النفس.

وفي قول عمر رضي الله عنه في قصة السقيفة: «أردت أن أتكلم وكنت قد زورت في نفسي مقالة أعجبتني»(٢)، يعني: هيئته وأعددته، وما أشبه ذلك من الأدلة التي يستدلون بها ويتركون الأدلة الواضحة الجلية، وهذا شأن أهل البدع يأخذون الأمور التي فيها اشتباه، وليس فيها وضوح ولا فيها احتمال، ويتركون الواضح الجلي الذي لا إشكال فيه، اتباعًا لما قال الله تعالى: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ الآية [آل عمران: ٧]. فيرجعون المتشابه إلى المحكم الجلي الواضح فيتبين ويزول التشابه؛ لأن التشابه أمر نسبي يعني قد يكون متشابهًا عند إنسان وليس متشابه عند آخر.

---

(١) رواه البخاري رقم (٥٢٦٩)، ومسلم رقم (١٢٧) من حديث أبي هريرة.

(٢) رواه البخاري رقم (٦٨٣٠).

فعندهم أن كلام الله معنًى واحدًا قائمًا بالنفس بهذه القيود: معنًى واحدًا قائمًا بالنفس والقرآن عبارة عن هذا المعنى الواحد، والتوراة والإنجيل والزبور والفرقان وكل كتاب نزل من السماء فهو عبارة عن المعنى القائم بذات الرب، فيقال من الذي عبر عما في ذات الرب تعالى الله وتقدس؟ كأنهم نزلوه منزلة الأخرس الذي لا يستطيع أن يتكلم فعرف أحد ما في نفسه فعبر عنه، وهذا نقص -نسأل الله العافية- فكيف الله ﷻ يتحدى الجن والإنس أن يأتوا بمثل هذا القرآن فهل يتحداهم على شيء في نفسه؟

وإذا كان عبارة فهو كلام المعبر ليس كلام رب العالمين ﷻ، فإنما هذا عبارة عن كلامه، وسلفهم يقولون حكاية عن كلامه، وهم الكلابية، ولكن هؤلاء استبشعوا الحكاية وقالوا: الحكاية تحاكي المحكي، وتكون نظيره فنقول عبارة أحسن، وزعموا أن هذا يدل عليه قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ [الحاقة: ٣٨-٤٠]، فإضافة القول إليه: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ [الحاقة: ٤٠] تدل على أنه هو المعبر عن الله تعالى، والله أخبر أنه قول رسول.

فيقال لهم: إن هذا باطل وهو قول الله، أما إضافته للرسول فلأنه مبلغ وهو الذي بلغه وليس كما يزعم الكفار أنه قول شاعر أو قول كاهن أو قول شيطان، بل هو رسول كريم، أرسله الله، والرسول لا بد أن يأتي برسالة، وهذا القول هو الرسالة التي جاء بها، والرسالة تكون من مرسل، والمرسل هو الله ﷻ، ولهذا قال بعد ذلك: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الحاقة: ٤١-٤٣]، وهو نزل من الله ﷻ قولًا منه، ثم قال: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦]، والوتين هو العرق المتصل بالقلب الذي إذا قطع مات الإنسان، يدل هذا على أن المقصود بهذا هو الرسول البشري محمد ﷺ.

وفي الآية الأخرىٰ قال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ١٩-٢١] هذا هو جبريل عليه السلام. فيمتنع أنه لو كان قول جبريل عليه السلام أن يكون هو قول محمد ﷺ، وإنما أضيف إليه لأنه بلغه، لأنهم يزعمون أنه أخذه من بشر كما قال سبحانه: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣]، يقولون أنه أخذه عن أعجمي تعلم هذا، فرد الله ذلك عليهم، ولهذا قال عن الوحيد مقدمهم الوليد الذي فكر ونظر: ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ۝٢٣ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝٢٤ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝٢٦﴾ فقال الله ﷻ: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [المدثر: ٢٢-٢٦] علىٰ هذا القول فهو ليس قول بشر وإنما هو قول رب البشر ﷻ، فهذا من الباطل البين الواضح قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]، وقال سبحانه: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الواقعة: ٨٠]، وقال: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ١] في آيات كثيرة، وقال ﷻ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] وهو يسمع كلام الله من المبلغ الذي يبلغه فهذا القرآن هو كلام الله.

وهذا في الحديث يقول: «**قال الله**»، والقول معروف أنه الكلام الذي يشتمل علىٰ النطق وعلىٰ الحروف والصوت ولا بد، ولا يسمىٰ كلامًا بدون هذا.

أما اللوازم التي يذكرونها ويريدون أن يبطلوا كلام الله بها، فهي لوازم باطلة؛ لأنها لوازم تلزم المخلوق، منها قولهم: إن الكلام يحتاج إلىٰ لسان وإلىٰ شفتين وإلىٰ حنجرة وحبال صوتية وما أشبه ذلك فهم يذكرون الشيء المعروف لهم، فقالوا: لو قلنا أن الله يتكلم لزم أن نثبت هذه الأشياء وهذا تشبيه فلا يجوز، فنقول لهم: إن هذا هو كلام المخلوق هو الذي يلزم له هذه الأشياء، وقد أخبرنا ربنا ﷻ في أشياء تتكلم وليس لها هذه الأدوات وهي مخلوقة ومع هذا تتكلم، قال سبحانه:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٠ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [فصلت: ٢٠، ٢١] فإذا الجلود تتكلم والأرجل والأيدي والأسماع والأبصار، وقال سبحانه: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ﴾ [الإسراء: ٤٤] كل شيء يسبح بحمد الله بالنطق ولكن ما نفقه، والطيور أمم أمثالنا تسبح وتقدس وتعمل.

وصح عن النبي ﷺ أنه قال: «**إني لأعرف حجرًا بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن**»(١)، ومن الأمور المشهورة قصة الجذع «جذع النخلة» الذي كان يستند إليه ويخطب عليه الصلاة والسلام، فلما اتخذ المنبر وصعد المنبر وترك الجذع صار الجذع يحنُّ حنين الناقة إذا فقدت ولدها، سمعه أهل المسجد كلهم حتىٰ نزل عليه الصلاة والسلام والتزمه وهدأ، وقال: «**لو تركته لبقي يحنّ**».

وكانوا يسمعون تسبيح الطعام وهم يأكلونه مع رسول الله ﷺ. وكل هذه الأشياء ليس لها لسان ولا حنجرة ولا حبال صوتية، فبطل هذا القول للمخلوق نفسه.

أما تعليل عبّاد العقول المعتزلة الذين عبدوا عقولهم في الواقع فهو تعليل غير هذا، فهم جاءوا بقواعد من عند أنفسهم قالوا: إن الله جل جلاله واجب الوجود في نفسه وواجب الوجود معناه عندهم: الغني بذاته عن كل شيء، قالوا إن الدليل الذي عرفنا به ربنا هي الحوادث، التي تحدث مثل طلوع الشمس والقمر، ووجود السماء والأرض والجبال والشجر وغيرها، فهذه تتغير ويعتريها أشياء، فهذا دليل علىٰ أنها مخلوقة فلو كانت غنية ما حصل لها شيء من ذلك فهي مخلوقة والمخلوق لا بد له من خالق، والخالق ما هو إلا الله جل جلاله، وهذا الذي يسمونه أعراضًا أمور تعرض لشيء ثم تختفي وتنتهي، والعرض جاء بعد أن لم يكن، سواءً كان لونًا من بياض

(١) رواه مسلم رقم (٢٢٧٧) من حديث جابر بن سمرة.

أو سواد أو غير ذلك، أو مرض أو تغير حال، علمٌ بعد جهل، قوة بعد ضعف، ضعف بعد قوة، وما أشبه ذلك، فكل هذه تدل علىٰ أنها فقيرة وأنها مخلوقة، وأن لها من يتصرف فيها.

فإذًا الوجود كله لا يخلو: إما أن يكون غني بذاته وواجب الوجود أو جائز الوجود ممكن، ولا يخرج عن هذا الشيء، يقولون هذا هو المعقول فقط ليس فيه أكثر من كذا واجب الوجود وجائز الوجود، وكل شيء نشاهده هو جائز الوجود فقد سبق بالعدم، والدليل علىٰ أنه سيعدم أنه تحل فيه الحوادث، فكل ما حلت فيه الحوادث فهو حادث وسينتهي، يقولون هذا برهان قاطع.

فإذا قلنا أن الله يتكلم لكان محلًّا للحوادث، وما كان محلًّا للحوادث فهو حادث فلا يجوز هذا، هذا دليلهم.

والدليل الثاني: أن الكلام له مبدأ ومنتهىٰ ووسط، فإذا قلت: بسم الله الرحمن الرحيم، فالباء قبل السين، والسين قبل الميم، وكل واحدة منها يحتاج إلىٰ زمن، فهذا معناه أنها حوادث، وإذا تكلم بها المتكلم حلت به الحوادث فيكون حادثًا، هذا كلامهم الذي ردوا به صفات الله ﷻ وأسمائه.

فيقال لهم أولًا: كل هذا استدلال بالمخلوق مثل إخوانكم أو تلامذتكم، فالواقع أنهم تلامذة لهم الذين استدلوا بإبطال الكلام فأنتم تستدلون بالأمور المشاهدة التي تشاهدونها، والله ﷻ ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في أوصافه، وقد أخبرنا وتعرف إلينا بوصفه وبأسمائه، قال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١].

أما حلول الحوادث وغيرها تلزم في المخلوق فقط، وكل شيء لا بد له من وصف والصفة تقوم بالموصوف حتىٰ الجمادات وغيرها، فلا تكون هذه

الحوادث، فمثلًا: الحصىٰ فيه القساوة وفيه اليبوسة، فهل نقول: حلت القساوة واليبوسة فيه، أو هذه ملازمة له فهي من صفاته وهذا مع أنه مخلوق، والرب ﷻ غني بذاته عن كل من سواه، وهو الله ﷻ بأسمائه وصفاته، ولا يجوز أن نقيسه علىٰ شيء من المخلوقات، أو أننا نستعمل عقولنا في الاستدلال علىٰ أنه يتصف بكذا، أو أنه لا يتصف بكذا، فإن هذا ضلال وهو من التشبيه، ولهذا تشبيه المعطل ملازم له، فالمعطلة شبهوا أولًا ثم عطلوا ثانيًا، كما أن المشبه معطل.

ثم ما يسمونه حوادث وحلولًا أمرٌ اخترعوه، فقاسوا رب العالمين علىٰ المخلوق فلا يجوز أن نسمي صفات ربنا حوادث ثم نقول حلت فيه -تعالىٰ الله وتقدس-.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **عن أبي سعيد مرفوعًا: «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟»، قالوا: بلىٰ. فقال: «الشرك الخفي أن يقوم الرجل يصلي فيزين صلاته لما يرىٰ من نظر رجل»**(١).

هذا الحديث كما يظهر أن له تكملة وله مبدأ، وذلك أنه ذكر الدجال وأكثر من ذكره، وذكر الفتن التي تكون معه، وصار الصحابة يتخوفون ويتحدثون فيما بينهم، وقد يطلعون يرون هل هو جاء، فقال لهم وهم يتحدثون في هذا الخبر: «**ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟**»، مع أن المسيح الدجال فتنته مخوفة، يدلك علىٰ هذا أن الرسول ﷺ أمرنا أن نستعيذ منه في كل صلاة وذكر أنه إذا جاء ينبغي للإنسان أن ينأىٰ عنه ويبتعد عنه، وفي الحديث: «**من سمع به فلينأىٰ عنه**»(٢) لا يذهب ينظر، فإن الرجل يأتيه واثق من دينه فلا يزال حتىٰ يتبعه، فهو مخوف علىٰ الناس ولا سيما مع ضعف الإيمان، وضعف العلم فيصير الاتباع أكثر.

---

(١) أحمد في المسند رقم (١١٢٥٢)، وابن ماجه رقم (٤٢٠٤).

(٢) أحمد في المسند رقم (١٩٨٧٥)، وأبو داود رقم (٤٣١٩) من حديث عمران بن حصين.

فأخبرهم أن الشرك الخفي أنه أخوف عليهم عند الرسول ﷺ من هذه الفتنة العظيمة.

وقوله: «**أخوف عليكم**»: معناه أنه يخاف علينا من فتنة الدجال، ولكن هذا أخوف، ولكن ينبغي أن تعرف أن هذا الخطاب للصحابة، والصحابة عندهم من العلم ومن التقىٰ والإيمان الشيء الذي لا نصل إلىٰ عشر معشاره ولا قريبًا، ومعنىٰ ذلك أن الخوف علينا أشد وأكثر يعني من الرياء فلا بد أن يفكر الإنسان في هذا.

وفيه أنه سمىٰ هذا شركًا، يعني الرياء لأنه فسره بقوله: «**يقوم الرجل يصلي فيزين صلاته لما يرىٰ من نظر رجل**»، فنأخذ من هذا تعريف الرياء وأن الرياء شرك، وأنه خفي.

فتعريف الرياء: تحسين العمل وزيادة صفة فيه من أجل النظر، والغرض المدح والثناء وحظ النفس فيه.

وقد قسم بعض العلماء الشرك إلىٰ ثلاثة أقسام بناءً علىٰ ذلك قالوا:

شرك أكبر، وشرك أصغر، وشرك خفي، وهذا فيه نظر، يعني هذا التقسيم، لأن الخفي قد يكون أكبر وقد يكون أصغر، فهو دائر بين الكبير والصغير وليس قسمًا ثالثًا.

فالشرك قسمان: أكبر وأصغر. والأكبر قد يكون خفيًا وقد يكون جليًا، والأصغر كذلك. فإذا كان التقسيم لأجل الصفة فليس فيه بأس، ولكنه لا يكون قسمًا ثالثًا.

وهو خفي علىٰ الناس لأنه مثل النية، لا ندري هذا الذي يصلي وأطال السجود والركوع والقيام وأظهر من نفسه أنه عنده طمأنينة وعنده خشوع وأبدىٰ من نفسه أنه عنده أدب الصلاة من يدري أن هذه الأوصاف لأجل نظر الناس، هذا في نفسه هو خفي فهو في نيته والناس ليس لهم إلا الظاهر، ولهذا صار مصيدة يصيد به بعض الناس حتىٰ يثنوا عليه بقولهم فلان تقي وفلان فيه كذا وكذا، فهذا حظه ما يمدحونه

لأن هذا في الواقع من حظوظ النفس، والنفس تحب هذا الشيء ولهذا نهينا عن المدح في الوجه كما قال ﷺ: «**إذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب**»(١)، والغالب أن الذي يمدح في الوجه يذم في القفا، فإذا ذهب ذم، ومعروف أن الإنسان إذا نظر في أقوال الناس وجدهم غير معتدلين إذا أثنوا أسرفوا، وإذا ذموا أسرفوا، هذا هو أكثر حالة الناس، والواجب أن الإنسان يقول الحق.

والمدح في الوجه فتنة والنفس ضعيفة وتحب أنها يثنىٰ عليها، حتىٰ ولو كان الإنسان يعلم من نفسه أكثر من غيره، ومع ذلك يستأنس وينبسط إلىٰ المدح ويقول لعلِّي كما يقول وربما يترتب علىٰ هذا أضرار عظيمة وظلم، فربما هذا الممدوح يتولىٰ أمرًا من أمور المسلمين فيصبح الذي لا يمدحه لا يعطيه حقه ويظلمه، لا بد أن تمدح أو لا أقضي حاجتك، فلو سُد الباب لسلم الناس من هذا الداء الوبيل، ولهذا قال: «**من كان منكم مادحًا أخاه لا محالة فليقل أحسب فلانًا والله حسيبه ولا أزكي علىٰ الله أحدًا، أحسبه كذا وكذا إن كان يعلم ذلك منه**»(٢)، فربما يُظهِرُ لنا شيئًا ويخفي علينا أشياء، وهذا هو الواقع، الإنسان يظهر أشياء ويخفي أشياء والأمور المخفية عظائم.

قال: «**يقوم الرجل فيصلي**»: هذا إذا كانت صلاة مشاهدة، ولهذا السبب حث الرسول ﷺ علىٰ الصلاة في البيت يعني صلاة النافلة، فهي أفضل ما تكون في البيوت حيث لا يشاهدك أحد وحتىٰ تسلم من وسوسة الشيطان أنه يأتيك يقول لك: زين صلاتك ترىٰ الناس يحبونك ويثنون عليك ويدعون لك ويخدمونك، فربما ضحك الشيطان علىٰ الإنسان وغلبه، وإذا صار في بيته سلم من هذا الشيء، ويكون عمله خالصًا لله ﷻ ولا ينفع إلا ما كان خالصًا لوجه الله ﷻ.

---

(١) رواه مسلم رقم (٣٠٠٢).

(٢) رواه البخاري رقم (٢٦٦٢)، ومسلم رقم (٣٠٠٠) من حديث أبي بكرة.

فعلىٰ هذه نقول أن الرياء الذي ذكره الشيح هنا أنه شرك، إما أن يكون مضادًا للتوحيد إذا كان أصل العمل الباعث عليه هو الرياء يكون شركًا أكبر.

وقد يكون ذاهبًا بكماله الواجب الذي ينجو الإنسان به وإذا لم يأت به يكون معاقبًا ويكون أيضًا مبطلًا لعمله، فهذه كلها محاذير يجب أن يكون العبد علىٰ علم بها وأن يحذر أن يقع في شيء منها.

قال المؤلف رحمه الله: فيه مسائل:

❁ **الأولى: الأمر العظيم في رد العمل الصالح إذا دخله شيء لغير الله.**

يعني: الحكم في الظاهر، يعني تسميته عملًا صالحًا، والصالح من العمل الذي يكون علىٰ السُّنَّة وخالصًا لوجه الله ﷻ، وإذا لم يشتمل علىٰ هذين الشرطين فليس صالحًا، فقوله الصالح، حسب الظاهر فقط.

❁ **الثانية: ذكر السبب الموجب لذلك، وهو كمال الغنى.**

السبب يعني أنه قال: «**أنا أغنىٰ الشركاء**» فكمال غناه أنه يأبىٰ شيئًا فيه اشتراك يعني هذا الذي ظهر لنا والله ﷻ هو الحاكم الذي يحكم بين خلقه وهو الرب الذي يأمر وينهىٰ، فإذا أمر بشيء وجب امتثاله وقد أوجب علينا الإخلاص.

❁ **الثالثة: أن من الأسباب أنه تعالى خير الشركاء.**

الأسباب التي ذكرها ﷻ أنه أغنىٰ الشركاء عن الشرك وأنه غني وغناه يأبىٰ أن يقبل شيئًا فيه شرك هذه الأمور التي يظهرها لنا حتىٰ نفهم المقصود وإلا إذا أمر بشيء وجب أن نمتثل وليس لازمًا أن نفهم العلة، وإذا فهمنا العلة فهو خير وفضل، وإذا لم نفهمها وجب أن نمتثل، والله أمرنا بعبادته وبالإخلاص.

الباب السابع والثلاثون

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **باب من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا.**

قال الشارح رحمه الله: قد ظن بعض الناس أن هذا الباب داخل في الرياء وأن هذا مجرد تكرار فأخطأ، بل المراد بهذا أن يعمل الإنسان عملًا صالحًا يريد به الدنيا كالذي يجاهد للقطيفة والخميلة ونحو ذلك، ولهذا سمَّاه النبي ﷺ عبدًا لذلك، بخلاف المرائي فإنه إنما يعمل ليراه الناس ويعظموه، والذي يعمل لأجل الدراهم والقطيفة ونحو ذلك أعقل من المرائي، لأن ذلك عمل لدينا يصيبها والمرائي عمل لأجل المدح والجلالة في أعين الناس، وكلاهما خاسر نعوذ بالله من موجبات غضبه وأليم عقابه(١).

فهذا معناه أن الإنسان قد يعمل العمل الخالص الموافق للسُّنَّة ولكنه ليس له رغبة في الآخرة، رغبته في الدنيا يُريد أن يثاب على هذا العمل في الدنيا، إما في حفظه صحته أو حفظ أهله وماله وولده، أو زيادة خير يعطاه، فهذا خاسر ولكنه أعقل من المرائي؛ لأن المرائي لا يحصل له شيء، أما هذا فيحصل له شيء من الدنيا.

وهذا جاء تفسيره عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ [هود: ١٥] أي: ثوابها قال: ﴿وَزِينَتَهَا﴾ أي: مالها ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا﴾ أي: نوفر لهم ثواب أعمالهم بالصحة والسرور في المال والأهل والولد ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [هود: ١٥] قال: لا ينقصون. قال: ثم نسختها: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ

---

(١) تيسير العزيز الحميد (١/ ٤٧٣).

لِمَن نُّرِيدُ ﴾ [الإسراء: ١٨][(١)]، يعني: ليس لكل أحد الذي يُعجل، بل يعجل شيئًا يشاؤه الله ولمن يُريده، وهذا معناه تقييد، والسلف يسمون التقييد نسخًا، والآية التي ذكرها في الباب مطلقة ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ ﴾ [هود: ١٥] .... والآية التي في سورة الإسراء قيدت هذا بأن الذي يُعطاه شيء يُريده الله، ولمن يريده الله وليس لكل أحد، هذا الذي سماه ابن عباس رضي الله عنهما نسخًا.

فقوله: «من الشرك إرادة»: الإرادة هي أساس الأعمال ولا يمكن أن يوجد عمل بلا إرادة، إلا من سكران أو نائم أو ما أشبه ذلك، أما إنسان عاقل فإن الباعث على العمل هو ما في قلبه وما أراده، وبهذا يظهر كون الإنسان مثلًا يقول: أنوي كذا، وسأنوي كذا، أنه عبث لا قيمة له لأنه لما قام إلى العمل فإن النية سبقت هذا، إذا قام مثلًا يتوضأ النية سبقت الوضوء هي التي قومته وبعثته على الوضوء، ولهذا يقول العلماء محلها القلب والتلفظ بها بدعة.

ويدلك على سخافة بعض الناس الموسوسين تجده يعيد الوضوء أكثر من مرة ويقول إني لم أنو، فيقال: الذي أقامك وجعلك تستعمل الماء هي النية نفسها، وكذلك يصف في الصف ثم يكبر ثم يقول ما نويت، سوف أنوي من جديد وهكذا، يضحك عليهم الشيطان -نسأل الله العافية-.

وهذه الوسوسة مرض، قد تأتي الإنسان وهو يعرف هذا، ولكنه لا يتخلص منه، يضرب عليه الشيطان ويعيد ويكرر وهذا كله قدح في العقل.

فإرادة العبد هي التي تبعثه على العمل، ثم هذه الإرادة هي التي يجب أن يعتني بها الإنسان ويجعلها خالصة لله جل وعلا؛ لأنها هي مبنى كل شيء، وهي التي يؤخذ عليها الإنسان أو يثاب عليها، والعمل يتبع ذلك.

---

(١) الناسخ والمنسوخ للنحاس (٢/ ٤٧٢).

قوله: «**بعمله الدنيا**»؛ يعني: ما يُريد به إلا الدنيا العاجلة يعمل عملًا صالحًا ولكنه يُريد به الدنيا العاجلة ليس له همة في الآخرة ولا رغبة فيها.

❁ **ثم استدل المؤلف** رحمه الله **بهذه الآية:** ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥، ١٦].

هذا شيء عظيم جدًا، يعني كون الإنسان يريد بعمله الذي هو طاعة الله، وليس كل عمل، العمل الذي هو مأمور به شرعًا سواءً من الفعل أو من الترك.

الفعل ظاهر كونه مثلًا يتصدق أو يصوم أو يأتي بالنوافل من صلاة وصيام وصدقة وحج يريد بذلك الدنيا، يُريد سعة الرزق وصحة البدن، ويريد مثلًا زيادة المال وليس له همة في الآخرة، يعني لا يُريد الجنة ولا يخاف من النار، فهذا هو الذي يكون حابطًا عمله.

أما الأعمال العادية التي يعملها الإنسان عادةً فهذه لا تدخل في هذا.

أما التروك فمثل أن يترك الظلم ظلم الناس أو يترك المعاصي من أجل أن يُحفظ في صحته أو في ماله أو أهله، والعبادة مبناها علىٰ الفعل والترك كلاهما عبادة، فعل الأمر وترك النهي، والله ﷻ أمر بالإخلاص بإخلاص النيات والأعمال.

قوله: «﴿وَزِينَتَهَا﴾»: عطف علىٰ الدنيا، فهذا من عطف الخاص علىٰ العام لأن الدنيا يدخل فيها الزينة.

والزينة هي: المال والولد وما أشبه ذلك: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦].

وقد ذكر الله ﷻ كل ما في الدنيا قال: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ يعني:

التي تعملون لها وتجمعونها وتتنافسونها، وقد تتقاتلون من أجلها هذه حقيقتها لعب ولهو، وكل شيء من الدنيا ما يراد به الله فهو ملعون وباطل، ولا خير فيه بل هو شر، وعلى هذا يحمل الحديث: «**الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه، وعالم أو متعلم**»(١)، ﴿وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾، قيل الكفار هنا: الزراع لأنهم يغطون البذور، والتغطية هي الكفر، وأعجبهم لأنهم يعرفون النبات الجيد من غير الجيد ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا﴾ يعني: يتغير عن بهائه وجماله فيستحيل لونه، ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

ثم أخبر الله ﷻ أنها لا تنتهي عند هذا، الآخرة فيها عذاب شديد وفيها مغفرة ورحمة، والناس ما خلقوا لهذه ولكنهم يبتلون فيها ليتميز الصالح من الفاسد بالفعل.

وهذه الآية مثل قوله ﷻ: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤] فهذه زينة الدنيا.

وقوله: «﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾»؛ يعني: كانت هي غايته وهي مقصوده بالعمل، وكذلك زينتها ويدخل في الزينة كل شيء تحبه النفس من رئاسة ومن أموال وجاه وغير ذلك.

وقوله: «﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا﴾»؛ يعني: العمل الذي عملوه يعطون أجرهم فيها هذا معنا ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ﴾ مع أن هذا مقيد بالآية الأخرى التي في سورة الإسراء

(١) رواه الترمذي رقم (٢٣٢٢)، وابن ماجه رقم (٤١١٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ﴾ [الإسراء: ١٨] فهذه قيدت هذه، ولهذا يقول ابن عباس: نسختها. والنسخ عند السلف يطلق على التقييد وعلى الإزالة وعلى التخصيص كله يسمونه نسخًا.

ثم قال بعد هذا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾ [هود: ١٦].

لأن أعمالهم قد بطلت وهي حابطة، وليس لهم في الآخرة نصيب.

وقوله: «﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾»: الحبوط هو: الذهاب.

وقوله: «﴿وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾»: البطلان هو: كونه فاسد في نفسه غير معتبر، وكلاهما لا ثواب له الحابط والباطل بل عليهما عقاب.

فتبين من الآية أن من عمل أعمالًا من الطاعات أو التروك ترك المنهيات من أجل الدنيا أنه داخل في عموم هذه الآية.

وقد سُئل عنها المؤلف ﷺ فذكر في الجواب عنها أربعة أشياء موجودة في الناس وهم لا يعرفونها وقد يعرفها من يعرفها منهم:

أولًا: العمل الصالح الذي يفعله كثير من الناس ابتغاء وجه الله من صدقة وصلاة وصلة وإحسان إلى الناس، وترك ظلم ونحو ذلك مما يفعله الإنسان أو يتركه خالصًا لله، لكنه لا يريد ثوابه في الآخرة وليس له رغبة فيها، لا يرغب في الجنة ولا يهرب من النار إنما يريد أن يجازيه الله بحفظ ماله وتنميته أو حفظ أهله وعياله أو إدامة النعم عليه ولا همة له في طلب الجنة والهروب من النار، فهذا يعطي ثواب عمله في الدنيا، وليس له في الآخرة نصيب، وهذا النوع ذكره ابن عباس.

الثاني: وهو أكبر من الأول وأخوف، وهو الذي ذكره مجاهد في الآية: أنها نزلت فيه وهو أن يعمل أعمالًا صالحة ونيته رياء الناس لا طلب ثواب الآخرة.

وكونه أخطر وأخوف لأنه أكثر من الأول ويبتلىٰ به كثير من الناس حتىٰ طلبة العلم، فالإنسان يجب أن يكون علىٰ حذر من ذلك.

الثالث: أن يعمل أعمالًا صالحة يقصد بها مالًا، مثل أن يحج لمال يأخذه لا لله، أو يهاجر لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها، أو يجاهد لأجل المغنم، أو يتعلم العلم من أجل الوظيفة، أو يقرأ القرآن من أجل إمامة المسجد، ويواظب علىٰ الصلاة لأجل وظيفة المسجد، كما هو واقع لبعض الناس.

وقد ذكر أيضًا هذا النوع في تفسير هذه الآية، وكما يتعلم الرجل لأجل مدرسة أهله أو مكسبهم أو رياستهم.

يقول: وهذا أعقل من الذي قبله، والأول أعقل منهما وكلهم خاسر بلا شك.

الرابع: أن يعمل بطاعة الله، مخلصًا في ذلك لله وحده لا شريك له، لكنه علىٰ عمل يُكفره كفرًا يخرجه عن الإسلام مثل: اليهود والنصارىٰ، إذا عبدوا الله أو تصدقوا أو صاموا ابتغاء وجه الله والدار الآخرة، ومثله كثير من هذه الأمة الذين فيهم كفر أو شرك أكبر يخرجهم من الإسلام بالكلية إذا أطاعوا الله طاعة خالصة يريدون بها ثواب الله في الدار الآخرة، لكنهم علىٰ أعمال تخرجهم من الإسلام وتمنع قبول أعمالهم، فهؤلاء حابط عملهم، وباطل ولكنهم يعطون جزاءه في الدنيا إذا شاء الله.

وهذا التفسير للآية جاء عن أنس رضي الله عنه، فهذه أربعة أشياء ذكرها أن السلف فسروا الآية بها وأنها كلها داخلة فيها، انتهىٰ ملخصًا.

وبهذا يتبين أن هذا الباب أعم من الرياء، فالرياء أخص من هذا، وبذلك يكون الفرق بين هذا الباب والذي قبله ظاهر(١).

(١) تيسير العزيز الحميد ص(٤٧٤).

✍ قال المؤلف ﷺ: في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تعس عبد الدينار، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة، وعبد الخميلة، إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، طوبىٰ لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله أشعث رأسه مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع»[1].

قوله: «**في الصحيح**»؛ يعني: في الحديث الصحيح، والحديث رواه البخاري في صحيحه، وكذلك هو عند الإمام أحمد بأكثر من هذا اللفظ وأطول وعند غيرهما أيضًا.

كلمة «**تعس**» بكسر العين ويجوز الفتح أيضًا تعَس، ولكن الكسر أفصح.

والتعاسة هي ضد السعادة، فنقول أن معنىٰ تعس: شقي. فالتعاسة هي الشقاوة، نسأل الله العافية.

وهنا يحتمل أن يكون خبرًا ويحتمل أن يكون دعاء بلفظ الخبر، وكثير ما يأتي الدعاء بلفظ الخبر، وهذا هو الذي عليه أكثر الشراح أنه دعاء يعني أن الرسول ﷺ يدعو عليه بذلك، فإذا كان يدعو فهو يستحق أن يُدعىٰ عليه.

قوله: «**عبد الدينار**»: الدينار قطعة ذهب سواءً كانت مضروبة علىٰ صفة معينة، أو غير مضروبة، والدنانير الإسلامية معروفة وسمَّاه عبدًا للدينار، ومعلوم أنه لا يسجد ولا يصلي ولا يدعوه ولا يتجه إليه بالدعاء، وإنما يعمل لأجله.

فمعنىٰ هذا أن الإنسان إذا عمل لشيء يكون عبدًا له، ولهذا يكون الإنسان عبدًا إذا طلب وافتقر فهو عبد، وإذا استغنىٰ فهو حر.

---

(١) رواه البخاري رقم (٢٨٨٧).

ثـم قـال: «تعس عبد الـدرهم»: هـذا أقـل مـن الأول، فالـدرهم أقـل قيمـة مـن الدينار، والثالث أقل قيمة من الثاني الذي هو الخميصة، والخميصة: كساء من الأكيسة، قد يكون من الخز، والخز هو الحرير، ولا يلزم أن يكون منه، فقد يكون من غيره.

أما «الخميلة»: فهي كساء معلم، له أعلام وخمل، يعني أهداب من باب الزينة، والخميلة الغالب أنها تكون سوداء، وسواء كانت من هذا أو من غيرها المهم أنها مما يلبس.

قوله: «إن أعطي رضي»: هذا يبين أنه عبد، يعني أنه يعمل لأجل ذلك فإن حصل له رضي، وإن منع سخط، فصار سخطه تبع للعطاء والمنع وليس لله، لأن الإنسان إذا كان يعبد الله لا يهمه أن يعطىٰ فهو لا يقصد فهذا أمره لله ﷻ.

ذكر الله هذا النوع في القرآن: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ [التوبة: ٥٨]، إذا أعطوا من الصدقة حصل رضاهم وإلا سخطوا، وليس سخطهم ورضاهم لله والعبد يجب أن يكون عبدًا لله، يكون خالص العبودية لله ﷻ، وأن يكون رضاه لرضا الله ﷻ، وسخطه لسخط الله وولاؤه لأولياء الله، ومعاداته لأعداء الله هذا الذي يجب أن يكون العبد عليه، وإن كان علىٰ خلاف ذلك فهو من عبَّاد الدنيا.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في الكلام علىٰ هذا الحديث: وهكذا طالب المال، فإن ذلك يستعبده ويسترقه، وهذه الأمور نوعان:

فمنها: ما يحتاج إليه العبد كما يحتاج إلىٰ طعامه وشرابه ومنكحه ومسكنه ونحو ذلك، فهذا يطلبه من الله، ويرغب إليه فيه، فيكون المال عنده الذي يستعمله في حاجته: بمنزلة حماره الذي يركبه، وبساطه الذي يجلس عليه، بل مثل الكنيف

الذي يقضي فيه حاجته، من غير أن يستعبده فيكون هلوعًا به، وإذا حصلت له يشكر ربه عليها ويحمده عليها، وإن لم تحصل يجب أن يرضىٰ عن ربه، ويعلم أن حالته التي هو عليها أنها أحسن لأن الله أعلم به وأعلم بحاله.

ومنها: ما لا يحتاج إليه العبد، فهذا ينبغي أن لا يعلق قلبه بها، فإذا تعلق قلبه بها صار مُستعبدًا لها، وربما صار مستعبدًا ومعتمدًا علىٰ غير الله فيها، فهذه تشغله عن ربه وتلهيه عن عبادته، فلا يبقىٰ معه حقيقة العبودية لله، ولا حقيقة التوكل عليه، بل فيه شعبةٌ من العبادة لغير الله، وشعبة من التوكل علىٰ غير الله[1].

وقوله: «**تعس وانتكس**»: هذا تكرار للدعاء، ففيه أنه يكرر الدعاء علىٰ من يستحقه، والتعاسة من العلماء من فسرها بالسقوط، يقول أنه سقط علىٰ وجهه، وتنكس يعني انقلب، سقط علىٰ وجهه ثم انقلب علىٰ قفاه من شدة السقوط، وهو إشارة إلىٰ انعكاس الأمور عليه ووقوعه في ضد ما يريد.

وقوله: «**فإذا شيك فلا انتقش**»: شيك؛ يعني: أصابته الشوكة؛ يعني: دخلت الشوكة في رجله أو في غيرها.

و«**انتقش**»؛ يعني: أُخرجت الشوكة بالمنقاش، يعني أنه إذا وقع في مكروه، فإنه لا يخرج منه ولا يتخلص منه بل يزاد كرهًا ووقوعًا في شدة جزاء وفاقًا؛ لأنه لم يعمل لله ﷻ فيجازىٰ علىٰ وفق علمه.

فهذا يدل علىٰ أن من عَبَدَ الدنيا فلا بد أن يقع في المشاكل، ولا بد أن يقع في الكروب، وأنه إذا وقع فيها لا يتخلص، بل ربما ينتقل من شدة إلىٰ ما هو أشد، وقد يكون هذا أمرًا ظاهرًا، وقد يكون غير ظاهر له، قد يكون هذا في قلبه، يعني تنقلب الحقائق عنده ويصبح الحق باطلًا، والباطل عنده حقًا، فينتقل من باطل إلىٰ ما هو

---

(١) الفتاوىٰ (١٠/ ١٨٩).

أبطل منه وأشد، وهذا أكبر مصيبة مما لو أصيب بمصيبة ظاهرة في بدنه أو في ماله أو غيرها، وهذا يشاهد كثيرًا في الناس يصبح يرضىٰ بالكفر ويدعو إليه ويكره الحق وينفر منه، ويصبح في مصاف الكفار -نسأل الله العافية- ولو بالقول، وهذه مصيبة كبرىٰ لأنه انتكس قلبه وانتكس فكره.

ثم قال: «**طوبىٰ لعبد أخذ بعنان فرسه**»: طوبىٰ اختلف في تفسيرها، وقد جاء فيها حديث رواه الإمام أحمد أنها شجرة في الجنة يسير الراكب في ظلها مائة سنة. ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها(١).

واللغويون يقولون: «طوبىٰ» وزن فعلىٰ، يعني: الحياة الطيبة السعيدة، والحياة لا تطيب إلا بالجنة فيكون هذا داخل في هذا، وكونها شجرة أخص من هذا فلا يكون فيه تنافٍ.

وقوله: «**لعبد**»: وصفه بمثل ما وصف الأول أنه عبد؛ لأن العبودية ملازمة للمخلوق ولا يمكن أن يخرج عنها، **والعبد ينقسم إلىٰ قسمين**:

عبد بمعنىٰ مذللًا مقهورًا تجري عليه أقدار الله وأحكامه القدرية، وهذا يدخل فيه البر والفاجر والمؤمن والكافر.

وعبد بمعنىٰ عابد، فهذا يدخل فيه العابد للدنيا والعابدُ لهواه، والعابد لله ﷻ.

وقوله: «**عنان**»: هو الحبل الذي يوضع في رأس الفرس حتىٰ يتحكم فيها ويمسكها به، ولا بد أن يمسكها وإلا تهرب.

وقوله: «**في سبيل الله**»؛ يعني: أنه آخذٌ به في سبيل الله ليس في غير ذلك، وسبيل الله هو مقاتلة الكفار والدفاع عن الحق.

(١) أحمد في المسند رقم (١١٦٧٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وقوله: «أشعث رأسه»: أشعث؛ يعني: أنه غير مسرح، بل متشعث وفيه غبار، لأنه مشغول عن تسريح رأسه وغسله بالجهاد في سبيل الله.

وكذلك **قوله: «مغبرةٌ قدماه»**؛ يعني: أن الغبار يعلو علىٰ قدميه في سبيل الله، وهذا يدلنا علىٰ أن إصابة الغبار أمر مطلوب في سبيل الله، وقد جاءت فيه أحاديث في فضل هذا، وأن الغبار يكون مثل المسك يوم القيامة كما أن الدم كذلك.

وقوله: «إن كان في الساقة كان في الساقة»: هذا كأنه كلام مكرر، وإذا كان كان، ولكنه ليس كذلك، يعني أنه يقوم في أي موضع يوضع فيه أتم قيام، فذكر أشد المواضع التي تكون في سبيل الله، وهي الحراسة وساقة الجيش، لأن العدو يأتي من الخلف كثيرًا ويقتطع الضعفة؛ لأن الغالب أن الساقة ضعفاء وحمايتهم شديدة، فهذا إذا كان فيها يحميهم لئلا يأتيهم العدو فإذا وضع في هذا قام فيه أتم قيام لا يؤتىٰ من قبله، وأما الحراسة فتكون في الليل غالبًا، يحرس وهم غافلون أو نيام أو يشتغلون في الأمور التي لا بد منها من طعام وغيرها، فيحرس فهذا أيضًا من أشد المواقف.

فالمعنىٰ أنه إذا وضع في مكان يقوم به أتم القيام وليس له مقصد في وجوه الناس أو التقرب إليهم، يدل علىٰ هذا أنه قال: «**إذا استأذن لم يؤذن له**»؛ يعني: لا يعرف وليس له تقرب عند الأمراء والكبراء بل هو من آحاد الناس، ليس معروفًا، ولهذا إذا استأذن لم يؤذن له لأن الغالب أن الإذن تكون لمن له وجاهة وله أعمال ظاهرة هو الذي يؤذن له.

وكذلك الشفاعة «**إن شفع لم يشفع**» إذا قدر أنه يشفع، وإلا مثله لا يشفع لأنه يعرف أنه لا يُشفع، وهذا مثل ما جاء في الحديث الذي في الصحيح أن رجلًا مر علىٰ رسول الله ﷺ فقال: «**ما تقولون في هذا**»؟ قالوا: حري إن خطب أن ينكح، وإن شفع أن يشفَّع، وإن قال أن يسمع. قال: ثم سكت، فمر رجل من فقراء المسلمين فقال: «**ما تقولون في هذا**»؟ قالوا: حري إن خطب أن لا ينكح، وإن شفع أن

لا يشفع، وإن قال أن لا يسمع. فقال رسول الله ﷺ: «**هذا خير من ملء الأرض مثل هذا**»(١)، يعني ليست المسألة مسألة كونه له وجاهة عند الناس، المسألة هي ما في القلب من تقوىٰ الله وطاعته، فهذا مثله.

ففي هذا الحديث دليل علىٰ أن الإنسان إذا عمل من أجل الدنيا أنه حابط عمله، وأنه ليس له إلا الدنيا، وليس له في الآخرة من نصيب، ولكن يقال إذا كان الإنسان مسلمًا وعمل هذه الأعمال مثلًا جاهد لأجل الغنيمة، أو حج لأجل الدراهم التي يعطاها، فهذا ليس له إلا المال وعمله باطل، ولكن إذا كان له أعمال غيرها قصد بها وجه الله فهو علىٰ حسب ما يكون أرجح عنده يعني في أعماله، وإذا لم يكن له إلا مثل هذا العمل فظاهر الحديث أنه يكون في النار، كما في الآية، وليس هذا مثل مذهب الخوارج، هذا إذا كان الرجل أعماله بطلت وحبطت فبما يدخل الجنة؟ أما إذا كان له أعمال غيرها باقية خالصة لله فهو إذا عذب أو أُدخل النار تحت مشيئة الله بهذه الأعمال التي تكون خالصة، أما أن الإنسان يدخل الجنة وهو ليس عنده إيمان فهذا لا يكون لأن الرسول ﷺ قال: «**أنه لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة**»(٢)، والناس ليس لهم إلا الظاهر، فإذا صلىٰ الرجل وحج وتصدق ونحو ذلك، فإنه يحمل علىٰ الظاهر علىٰ أنه قصد الخير، ويحكم له بذلك، ولكن الذي يُحاسِب علىٰ ما في القلوب والنيات هو الله ﷻ وهو رب العالمين، وقد جاءت نصوص عن النبي ﷺ «أنه يؤتىٰ يوم القيامة برجال لهم أعمال فيأمر بهم إلىٰ النار فتقول الملائكة: يا رب ما رأينا إلا خيرًا. فيقول: أنا أعلم، عملوا هذه الأعمال رياء فليذهبوا إلىٰ من كانوا يراؤون فيطلبوا أجورهم منهم»(٣)، فمثل هؤلاء ليس لهم إلا التعب. فمثل هذا، إذا كان ليس

(١) رواه البخاري رقم (٥٠٩١).

(٢) رواه البخاري رقم (١٦٠٦)، ومسلم رقم (١١٤)، وأحمد رقم (٥٩٤).

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص ص(٤٥) و(٤٦) رقم (١٧) و(١٨)، وأخرجه الطبراني في الأوسط رقم (٢٦٠٣)، والدارقطني رقم (٢) من حديث أنس ولفظه: «يؤتىٰ يوم القيامة بصحف مختمة فتنصب =

له إلا هذا العمل فإذا حبط عمله فبما يدخل الجنة؟

والله ﷻ يمقت علىٰ هذا ويعذب عليه، لأن هذا داخل في الشرك، والله ﷻ يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ الآية [النساء: ٤٨]. والذنوب كلها إذا لم تكن شركًا، فهي تحت مشيئة الله ﷻ، ولهذا جعل المؤلف هذا الباب والذي قبله من نواقض التوحيد، وإن كان علىٰ التفصيل السابق في باب الرياء؛ لأن الرياء إذا كان يسيرًا فهو شرك أصغر، والشرك الأصغر لا يجعل الإنسان كافرًا ولا خارجًا عن الدين الإسلامي بل هو مسلم، ولكنه علىٰ خطر وهل شركه هذا الأصغر حكمه حكم الكبائر مثل السرقة والزنا وما أشبه ذلك، أو أن حكمه حكم الشرك لا يغفر إذا مات عليه فيعذب عليه؟

الظاهر هذا، وهو ظاهر النصوص ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ وأن المصدرية تعم.

والشرك الأصغر خرج من بين الذنوب أنه غير مغفور له فيعذب عليه ثم يخرج من النار إلىٰ الجنة.

✍ **قال المؤلف ﷺ: فيه مسائل:**

۞ **الأولى: تفسير آية هود.**

المقصود بالتفسير أن الآية دلت علىٰ أن من عمل لدنيا من أعمال الآخرة وهو لا يُريد الآخرة أنه عابدٌ لتلك الأعمال، وأنه من عباد الدنيا وأنه ليس له في الآخرة نصيب.

= بين يدي الله ﷻ، فيقول ﷻ: «ألقوا هذه واقبلوا هذه، فتقول الملائكة: وعزتك ما رأينا إلا خيرًا، فيقول ﷻ: إن هذا كان لغير وجهي وإني لا أقبل اليوم من العمل إلا ما ابتغي به وجهي»»، قال في مجمع الزوائد: رواه الطبراني في الأوسط بإسنادين ورجال أحدهما رجال الصحيح، ورواه البزار.

❁ **الثانية:** تسمية الإنسان المسلم عبد الدينار، والدرهم، والخميصة.

أما كون الإنسان يسمىٰ عبدًا لـدينار، فالإنسـان إذا عمـل لشيء تعبـد قلبـه فهـو عبده، والعبودية هي عبودية القلـب، ومعلـوم أن بواعـث العمـل تكـون مـن القلـب، وإذا كـان الباعـث علىٰ العمـل هـو إرادة شـيء معين سـواءً كـان دينـارًا أو درهمًـا أو خميصة أو وظيفة أو أي شيء من الأشياء فهو ليس لـه إلىٰ ذلـك، كمـا قـال ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئٍ ما نوىٰ**»[(١)].

❁ **الثالثة:** قوله: «**تعس وانتكس**».

يعني: أن هذا دعاء من النبي ﷺ، ودعاء النبي ﷺ مستجاب، وقد يكـون خـبرًا، خبر عما سيقع فيه من التعاسة والانتكاس، وسواءً كان دعاء أو خبرًا فهـو يـدل علىٰ الخسارة التي لا تشابهها خسـارة لمـن فعـل هـذه الأفعـال، ومعنـىٰ ذلـك أنـه يعاقـب بمقتضىٰ قصده.

❁ **الرابعة:** الثناء على المجاهد الموصوف بتلك الصفات.

يعني: كونه مهتمًا بالجهاد، أخذ بعنان فرسه وبين ذلك بقوله: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١٩] وليس كل من أخذ بعنان فرسه يكون محمودًا وممدوحًا وإنما يكون إذا كان في سبيل الله، ومعلوم أن المقصود بالفرس الآخذ بالقوة والاستعداد والتهيؤ، ولا يلزم أن يكون فرسًا فقد يكون دبابة أو طائرة أو غير ذلك من آلات الحرب التي تكون في الوقت المناسب.

وكذلك قوله: «**أشعث رأسه مغبرة قدماه**»؛ يعني: أنه مشغول عن تسريح شعره وإصلاح حاله، مشغول بما هو أهم وأعظم خوف الفوات، أن تـذهب نفسـه قبـل أن يتحصل علىٰ ما هو الغاية التي يطلبها المؤمن، ولمـا دعـا رجـل عنـد رسـول الله ﷺ

(١) رواه البخاري رقم (١)، ومسلم رقم (١٩٠٧) من حديث عمر رضي الله عنه.

بقوله: «**اللهم آتني أفضل ما تؤتي عبادك الصالحين، قال رسول الله ﷺ: إذا يعقر جوادك، وتستشهد في سبيل الله**»[(١)]، جعل هذا أفضل ما يعطي المؤمن، وهذا هو السبب في كونه مشغول عن إصلاح حاله.

أما **قوله**: «**إن كان في الحراسة**»: هذا معناه أنه يقوم بالعمل على خير وجه في أي عمل أُسند إليه، وذكر الحراسة والساقة لأن هذين الموقعين من أشد المواقف وأعظمها، ومعنى إذا كان فيها كان يعني قام فيها أتم القيام وحفظ ما قام به فلا يؤتى من قبله.

وقوله: «**إذا استأذن لم يؤذن له**»: يدل على أنه لا يُريد الدنيا ولا يهتم لإظهار نفسه في التقدم عند أمراء الجهاد، وغيرهم بل يخفي أمره، فلهذا يكون مجهولًا، فإذا استأذن لم يؤذن له لأنه غير معلوم ومجهول، وهذا يدل على الإخلاص.

وكذلك **قوله**: «**وإذا شفع لم يشفع**» لأنه مجهول وليس له عندهم لا خوف ولا رجاء، لأن أصحاب الدنيا الغالب أنهم لا يقدمون شيئًا إلا لمن كان عنده شيء لهم رجاء أو خوفًا أو ما أشبه ذلك.

---

(١) ابن حبان في صحيحه رقم (٤٦٤٠)، والبزار رقم (١١١٣)، والحاكم في المستدرك رقم (٧٤٨) وصححه ووافقه الذهبي.

الباب الثامن والثلاثون

✍ **قال المؤلف** رَحِمَهُ ٱللَّهُ : **باب من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله، فقد اتخذهم أربابًا من دون الله.**

لما كانت العبادة هي الطاعة طاعة الله بامتثال أمره وطاعته باجتناب نهيه، نبَّه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ أنها يجب أن تكون لله جَلَّ وَعَلَا، أو تكون تبعًا لطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، وأنه لا يطاع المخلوق استقلالًا أصلًا أيَّ مخلوق كان حتىٰ والديك لا تطيعهما إلا في طاعة الله جَلَّ وَعَلَا وطاعة رسوله ﷺ، أن الإنسان عبدٌ لله جَلَّ وَعَلَا والعبودية ملازمة له لا ينفك عنها، فعبوديته لله جَلَّ وَعَلَا لا يخلو منها حال من أحواله، ولا جارحة من جوارحه في وقت من الأوقات، ولكن الطاعة الشركية الكفرية التي تكون شركًا وكفرًا طاعة خاصة وهي في تحريم الحلال وتحليل الحرام، فمن فعل ذلك طاعة لمخلوق فقد اتخذه ربًا. وأما الطاعة فيما ليس بحرام ولا حلال فلا بأس بها.

قوله: «العلماء والأمراء»: وخص العلماء والأمراء؛ لأنهم هم الذين يطاعون في الغالب وإلا فطاعة المخلوق في مثل هذا تجعله إلهًا معبودًا من دون الله، ومعنىٰ هذا أنه من الشرك الأكبر الذي إذا فعله الإنسان ومات عليه يكون من أهل النار -نسأل الله العافية-.

قوله: «في تحريم ما أحل الله أو تحريم ما حرم الله»؛ يعني: في هذا الشيء خاصةً، يعني في تحليل المحرم وتحريم الحلال اتباعًا له مع علمه بذلك، وأما إذا وقع شيء من هذا وهو غير عالم وقد اجتهد في أن يكون مطيعًا لله، فإن هذا له حكم أمثاله من أهل المعاصي، ولا يكون هذا كفرًا مخرجًا له عن دين الإسلام، وهذا الذي ذكر من الطاعة ينافي شهادة أن لا إله إلا الله فهو تفسير لها بما يضادها.

قوله: «أربابًا»: ذكر الرب دون الإله؛ لأن المعبود يؤله ويعبد.

السر في هذا أن الأمر في التحليل والتحريم من خصائص الرب، لا يجوز أن يحلل ويحرم إلا الله ﷻ، والرب هو المالك المتصرف، والمالك المتصرف هو الذي يأمر وينهىٰ ويحل ويحرم، أما غيره فمن ليس له تصرف ولا ملك فلا يجوز أن يكون ذلك إليه، فإن فعل ذلك فقد نازع الله ﷻ في شيء من خصائصه، ومن نازع الله أهلكه وأخذه غير أن الله حليم لا يعجل ولا يفوته المجرم، ولهذا إذا ذكر أفعال الكفار كثيرًا ما يقول: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ [المجادلة: ٨] يعني: افعلوا ما تفعلون ثم مصيركم إلىٰ جهنم الأمر سهل، يعني: الوقت قريب جدًا، متاع الدنيا قليل ثم مأواهم جهنم، ومن كان مصيره جهنم فيكفيه ذلك. وحسبه من العذاب، بخلاف المؤمن، فالمؤمن قد يؤخذ وقد يعاقب في الدنيا ولهذا غالبًا ما تكون العقوبات الدنيوية الظاهرة للمؤمنين، فالمؤمن يعاقب قبل المجرم الكافر؛ لأن الله أراد به خيرًا، فعجل له العقوبات حتىٰ إذا وافىٰ يوم القيامة وإذا هو قد كُفر إجرامه الذي كان عليه، بخلاف المجرم فإنه يتراكم عليه جرمه فإذا وافىٰ يوم القيامة صار إلىٰ جهنم.

فالمقصود أن التعبير بالرب هنا له مناسبة، ومناسبته أن الأمر والنهي بيد الرب ﷻ، فالذي يأمر وينهىٰ قد نازع رب العالمين بالربوبية، والشرك بالربوبية أعظم من الشرك بالألوهية، لأن أدلته ظاهرة جدًا وأمره لا يخفىٰ علىٰ أحد.

والمؤلف رحمه الله: **اقتبس هذه الترجمة من الآية قوله** ﷻ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

قوله: «﴿ٱتَّخَذُوٓاْ﴾»: الضمير ضمير الفاعل لليهود والنصارىٰ.

قوله: «﴿أَحْبَارَهُمْ﴾»: هم العلماء.

وقوله: «﴿وَرُهْبَـٰنَهُمْ﴾»: الرهبان هم العباد. فما دخل الأمراء إذًا؟

نقول: لأن الطاعة غالبًا لهم، والرسول ﷺ هو الذي يجب أن يُطاع في كل ما يأمر به وينهىٰ عنه، ومع هذا الله ﷻ قيد طاعته بالمعروف، قال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٢]، فهذا القيد يبين لنا ﷻ أنه لا يجوز طاعة الأمر مطلقًا بدون طاعة الله، لا بد أن تكون طاعته بالمعروف، ولهذا جاءت أحاديث كثيرة عن الرسول ﷺ تقيد الطاعة بالمعروف.

ففي صحيح مسلم من حديث علي رضي الله عنه قال: «بعث رسول الله ﷺ سرية، واستعمل عليهم رجلًا من الأنصار، وأمرهم أن يسمعوا له ويطيعوا، فأغضبوه في شيء فقال: اجمعوا لي حطبًا، فجمعوا له ثم قال: أوقدوا نارًا، فأوقدوا، ثم قال: ألم يأمركم رسول الله ﷺ أن تسمعوا وتطيعوا؟ قالوا: بلىٰ. قال: فادخلوها، قال: فنظر بعضهم إلىٰ بعض فقالوا: إنما فررنا إلىٰ رسول الله ﷺ من النار. فكانوا كذلك وسكن غضبه وطفئت النار». فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: «**لو دخلوها ما خرجوا منها، إنما الطاعة في المعروف**»، وفي لفظ: «**لا طاعة في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف**»(١).

فلا يجوز أن يطاع الإنسان في معصية الله ﷻ، وكثير ما جاء أن الطاعة مقيدة بالمعروف، والمعروف هو الشرع الذي جاء به الرسول ﷺ، ولا يطاع الإنسان إلا إذا أمر بحق، ومعنىٰ ذلك أن طاعة المخلوق تبعًا لطاعة الله ﷻ، إذا أمر بطاعة الله فسمعًا وطاعة، كما قال الرسول ﷺ: «**علىٰ المرء المسلم السمع والطاعة، فيما**

(١) رواه مسلم (١٨٤٠).

أحب وكره، إلا أن يؤمر بمعصية، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»(١).

فالعلماء والأمراء ذكرهم لأنهم هم الذين يطاعون غالبًا، ولكن العلماء يطاعون إذا كانوا يأمرون بأمر الله ويبينونه فهم يطاعون في هذا. والأمراء كذلك ينفذون أمر الله ويقومون به فيطاعون في ذلك، أما غير ذلك فلا بد أن تعرض أوامرهم ونواهيهم على أمر الله ونهيه، فإذا وافق ذلك قُبل وإلا يرد فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، أما إذا لم يكن معصية فلا بأس بطاعتهم.

والتعبير بمخلوق يدل على أن هذا أمر عام حتى أمك التي هي ألزم من تطيعه بعد الله ورسوله ﷺ الذي قرن حقها بحقه، فحق الوالدين مقرون بحق الله ﷻ في آيات كثيرة: ﴿وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [النساء: ٣٦]، ومع ذلك إذا أمراك بأمر فيه معصية لا تطعهما لأنك عبد لله ﷻ ولا يجوز أن تخرج من عبوديته وطاعتك لها أو لأبيك لأن الله أمر بهذا.

والتحليل والتحريم لا يعلم إلا من أمر الله فهو متوقف على مجيء الأمر من الله ﷻ أن هذا حلال وهذا حرام، قال الله ﷻ: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦]، والذي يقول هذا حرام وهذا حلال وليس عنده دليل من الكتاب والسُّنَّة فهو كاذب على الله ﷻ، والكذب على الله من أعظم الإجرام حتى عده من العلماء أعظم من الشرك لأنه يتضمن الشرك وزيادة.

والعبادة عرفت بأنها طاعة الأمر يعني طاعة الله بامتثال أمره واجتناب نهيه، فإذا كانت العبادة هي طاعة الله فمن ذلك أن العبادة لا تجوز لغير الله ﷻ.

(١) رواه البخاري رقم (٧١٤٤)، ومسلم رقم (١٨٣٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

قوله: «﴿أَرۡبَابٗا﴾»: جمع رب، والفرق بين الرب وبين الإله أن الإله هو الذي يتجه إليه بفعل القلب يأله القلب ويحبه وينيب إليه ويتعلق به ويدعوه خوفًا ورجاء، فالإله يكون متعلق العبادة والرب متعلق تصرف الأمر والنهي وهذا هو السبب في كونه قيل أربابًا كما سبق.

وإلا المخلوق ليس ربًا ولا يجوز إطلاق الرب عليه إلا بالقيد يقال: رب الكتاب، رب الدار، رب الدابة، أما أن يقال فلان رب فهذا لا يجوز، فهو لا يطلق إلا على الله ﷻ، ومن نازع الله في شيء من خصائصه فإنه يعذبه.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **وقال ابن عباس** رضي الله عنهما: **يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء؛ أقول: قال رسول الله ﷺ، وتقولون: قال أبو بكر وعمر؟**[1].

هذا قول مختصر ذكر محل الشاهد منه، وهذا القول من ابن عباس رضي الله عنهما قاله في من ناظره في متعة الحج، فإنه كان يأمر بها اتباعًا لسُنَّة رسول الله ﷺ حيث ألزم أصحابه كل من لم يسق الهدي أن يجعل طوافه بالبيت لما قدم مكة وسعيه بين الصفا والمروة عمرة ويحل إلا من معه الهدي، ولم يفرق بين كونه مفردًا أو قارنًا أو غير ذلك، فأوجب ذلك عليهم وألزمهم بهذا.

وقد اتفق العلماء كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله على جواز المناسك الثلاثة، وإنما الخلاف في الأفضل منها. يعني أنه يجوز للمرء أن يأتي بأحدها وهي التمتع والإفراد والقران، وهي معروفة وجعل هذا متفق عليه. وإيجاب التمتع يكون خلاف هذا يعني أن غيره لا يجوز.

---

(١) أحمد في المسند رقم (٣١٢١) عن ابن عباس قال: تمتع النبي ﷺ، فقال عروة بن الزبير: نهى أبو بكر وعمر عن المتعة، فقال ابن عباس ما يقول عروة قال: يقول: نهى أبو بكر وعمر عن المتعة، فقال ابن عباس: أراهم سيهلكون، أقول: قال النبي ﷺ: ويقول: نهى أبو بكر وعمر.

والمقصود أن ابن عباس يأمر بمتابعة الرسول ﷺ، فعارضه من عارض بأن أبا بكر وعمر يريان غير هذا، فقال رضي الله عنه: «يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء» لأنكم خالفتم أمر رسول الله ﷺ لأنه لا ينطق عن الهوىٰ، بل ما تكلم به هو وحي من الله، ووحي الله يجب أن يمتثل بالطاعة ولا يتساهل به.

قوله: «أقول لكم قال رسول الله، وتقولون: قال أبو بكر وعمر»؛ يعني: أن أبا بكر وعمر عرضة للخطأ، يجوز الخطأ عليهما ليسا معصومين، وأبو بكر وعمر من الخلفاء الراشدين الذين أمر الرسول ﷺ باتباع سُنَّتهم كما في حديث العرباض وغيره أنه قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله، كأنها موعظة مودع فأوصنا. قال: «**أوصيكم بتقوىٰ الله والسمع والطاعة، وإن تأمَّر عليكم عبد، وإنه من يعش منكم بعدي فسيرىٰ اختلافًا كثيرًا فعليكم بسُنَّتي وسُنَّة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة**»[(١)].

وفي هذا التحذير من طاعة من يخالف أمر الله ﷻ أو أمر رسوله ﷺ فيما شرعه، وأن من فعل ذلك فإنه خليق بالعذاب العاجل الذي يكون في الدنيا قبل الآخرة، ويكون هذا من أسباب زيغ القلب لأن الله ﷻ يقول: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]؛ يعني: صارت قلوبهم تميل إلىٰ الباطل ولا تريد الحق، ويقول ﷻ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]؛ يعني: جزاء أنهم لم يتبعوا الحق أول وهلة جاءهم، فإذا ردوا الحق أول مرة عوقبوا بأن تكون قلوبهم منحرفة عن الحق غير مريدة له بل تكون كارهة له مريدة للباطل مُحبة له، فهذا معنىٰ زيغ القلب.

---

(١) رواه أبو داود رقم (٤٦٠٧)، والترمذي رقم (٢٦٧٦).

فقوله: «يوشك»؛ يعني: يقرب ويسرع؛ لأنكم محل للعذاب، فالعذاب قرب منكم، وهذا يقوله العلماء الذي يعلمون صفات الله ﷻ وما يترتب عليها لأن مخالفة الله ﷻ ومعارضته بقول مخلوق ليس سهلًا فهو أمر عظيم، ولهذا ذكر السبب في كون الحجارة قريبة النزول منهم وهو قوله: «أقول قال الرسول ﷺ وتقولون: قال أبو بكر وعمر» هذا هو السبب.

وقارن بين قول أبي بكر رضي الله عنه الذي عرفنا علته أنه يقصد به أن لا يخلو البيت من طائف ومن زائر ومن متعبد، وبين من يأمر بالمعاصي فيطاع وهو يعلمُ أنها معصية ويُتبع، فهذا أولىٰ أن تنزل عليه الحجارة، ولكن أكثر الناس لا يقدِّرون الله قدره ولا يعرفون أمره ومع ذلك حلمه واسع؛ لأنهم لن يفوتوه ورجوعهم إليه تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦]، فرتب اللقاء علىٰ الكدح بالفاء المقارنة للعمل والكدح العمل، تعمل سواءً خيرًا أو شرًا فإنك تكدح ثم تلاقي ربك، فإذا كان مثلًا كدحه في طاعة الله فسوف يكون اللقاء محاسبة يسيرة ثم ينقلب إلىٰ أهله مسرورًا. أما إن كان الكدح في طاعة الشيطان من الجن أو الإنس، فسوف يصلىٰ سعيرًا ويدعو ثبورًا، ولكن لا ينفعه دعوته بالثبور، وإنما يبقىٰ صليه السعير.

فهذا يدل دلالة واضحة علىٰ تحريم طاعة المخلوق في معصية الله ﷻ، ومهما كان مجتهدًا في أنه يطيع الله، فمثلًا إذا جاء أمر من الله أو الرسول ﷺ لا يجوز أن يعارض بقول أحد من الناس كما يفعله كثير من طلبة العلم المقلدة إذا قلت له: قال الله وقال الرسول ﷺ، قال: المذهب كذا وكذا، والإمام يقول كذا وكذا، والإمام أعلم مني ومنك، ويعرف هذا الحديث أو الآية، لو أنه يعلم مثلًا أنها منسوخة أو أنها كذا وكذا ما خالفها، هكذا يقولون ويتركون أمر الله ﷻ، وأمر رسوله ﷺ من أجل أمور يأتون بها يتأولونها تأويلات بعيدة باطلة.

فهذا القول من ابن عباس يدل دلالة واضحة على وجوب امتثال أمر الله ﷻ وطاعته، وامتثال أمر رسوله ﷺ وعدم معارضته بقول أحد من الناس كائنًا من كان، وليس في الأمة أتقى وأبر من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ومع ذلك يقول ابن عباس هذا القول فكيف بمن دونهما.

✍ **قال المؤلف رحمه الله: وقال الإمام أحمد: عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته يذهبون إلى رأي سفيان، والله تعالى يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، أتدري ما الفتنة؟ الفتنة: الشرك؛ لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك.**

الإمام أحمد بن حنبل من كبار الأئمة وهو معروف.

وأول هذا الأثر أن الإمام أحمد رحمه الله قال: نظرت في المصحف فوجدت طاعة الرسول ﷺ في ثلاثين موضعًا ثم جعل يتلو: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

قوله: «عجبت»: العجب هنا عجبٌ ممن يعلم، كيف يتعرض للعذاب لأن الأمر ليس سهلًا.

قوله: «لقوم عرفوا الإسناد وصحته»؛ يعني: يعلم صحته بحال ناقله، وهذه المعرفة لا تكون عن التقليد، بل لا بد أن يتحلى هو بمعرفة ذلك، وهذا هو العلم المعرفة الحقيقية، وإنما هذا فيمن كان يعايش أولئك أو يطلع على أحوالهم اطلاعًا مباشرًا، أو يطلع على أحوالهم بالنقل الثابت عن الأئمة العدول، أما أن يأخذ ذلك عن الناس فهذا لا يعد معرفة، ولهذا قال ابن الصلاح وغيره من العلماء المتأخرين: إن التصحيح والتضعيف قد انتهى ولا أحد يقدر على تصحيح الحديث وتضعيفه في

هذه الأزمنة، وإنما قصارىٰ جهدهم أن يجتهدوا في أقوال متقدمة فيكون مقلدًا لهم.

والإمام أحمد رحمه الله في وقته بالإمكان إدراك ذلك ولهذا قال: «**عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته**»، لأن معرفة الإسناد ومعرفة صحته يترتب عليه صحة ما نقل به، فيكون الأمر في هذا واضح ولا عذر للمخالف في ذلك، فإذا ثبت الحديث وجب القول به والعمل به وإن خالفه الناس كلهم.

قوله: «**يذهبون إلىٰ رأي سفيان**»: هذا مثال، وسفيان هو سفيان الثوري الإمام الزاهد العابد الثقة الفقيه، من كبار الأئمة، وكان له مذهب وله أصحاب، ولكنه ذهب مذهبه لأنه لم يكن له أصحاب يكتبون كما كان لغيره من العلماء مثل مالك والشافعي وأبي حنيفة، وما أكثر العلماء في ذلك الوقت علىٰ هذا المنهج لأنهم ما كان بعضهم يُقلد بعضًا، بل يجتهدون ويخالف بعضهم بعضًا في الأمور المفهومة، والحوادث التي تحدث للناس وينزلونها علىٰ الآيات والأحاديث فيختلفون في إنزالها عليها لاختلاف فهومهم، وأن بعضهم يبلغه نصٌ ما بلغ الآخر فصار لهم مذاهب مختلفة في هذا ومنهم سفيان الثوري رحمه الله.

والمعنىٰ أنهم يذهبون إلىٰ أقوال العلماء ويتركون الأدلة من كتاب الله وأحاديث رسوله ﷺ، ولكنه نص علىٰ الإسناد لأن القرآن ثابت ثبوتًا قطعيًا بنقل الأمة النقل المتواتر وحفظها لكتاب الله ﷻ فلا يحتاج إلىٰ نظر في إسناده، وإنما النظر في أقوال النبي ﷺ، غير أن هذا يدلنا علىٰ أنه لا يُكتفىٰ بكتاب الله ﷻ عن أحاديث رسوله ﷺ.

ثم هذا يُفهم منه أن من ذهب إلىٰ آراء العلماء واجتهاداتهم في ما لم يظهر الدليل فيه أن هذا سائغ وجائز لأنه قال: «**عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته**»، فالذي لا يعرف الإسناد وصحته يفهم منه أنه لا بأس من كونه يذهب إلىٰ رأي

سفيان ونحوه من أقوالهم التي اجتهدوا فيها؛ ولكن إذا تبين للإنسان أن هذا القول خلاف الدليل فإنه لا يجوز له أن يذهب إليه ويأخذ به، ولهذا يقول الله ﷻ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣] فأمر بسؤال أهل الذكر، وأهل الذكر هم العلماء الذين عرفوا الإسناد وصحته وكذلك فهموا مراد الرسول ﷺ وعرفوا مدلولات أقواله، وكذلك عرفوا معنى قول الله ﷻ، فهؤلاء هم الذين يسألون.

أما إذا كان الإنسان بمقدوره أن يستدل ويعرف الدليل فهو مكلف بذلك ولا يجوز له أن يأخذ بآراء الرجال، وهذا جاء متواترًا عن الأئمة كالإمام أبي حنيفة والإمام مالك والشافعي وأحمد وغيرهم، الذين يعرفون أن الواجب على العبد هو اتباع كلام الله ﷻ وكلام رسوله ﷺ لأن العصمة في ذلك، أما العلماء مهما كانوا فليسوا معصومين والخطأ جائز عليهم، ثم الإنسان ليس مكلفًا باتباعهم، وبهذا يتبين أن العبد إذا ترك الأمر الظاهر الجلي الواضح مثل عبادة الله أو وقع فيما يخالفه مثل الوقوع في الشرك أنه غير معذور مهما كان لأنه قصر في الأمر وترك ما يجب عليه فيكون ملومًا، فاللوم عليه فلا عذر إن خالف كلام الله وكلام رسوله ﷺ، فالله ﷻ قد وضح أمر العبادة وكذلك ما يضادها فلا يجوز للمسلم أن يجهل قول الله ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١] وقوله جلا وعلا: ﴿أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الأنعام: ٧٢]، وقوله: ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [التوبة: ٥]، وقوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩] وما أشبه ذلك من الأمور الواضحة، وقوله ﷻ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣] الأمور الواضحة الجلية لا يجوز للمسلم أن يجهلها أو يقلد فيها.

وسيأتي أن كل مسلم سيسأل عن دينه عن معبوده، وما يعبد به معبوده، ومن أين أخذ هذه العبادة؟ يُسأل في قبره عن هذه الأمور ولا فرق بين المكلفين في ذلك،

لا عالم ولا غيره، فدل هذا على أن الأمور الظاهرة الجلية لا يجوز التقليد فيها ولا يجوز جهلها، وإذا كان هذا في بلاد المسلمين فهو أعظم وأطم، ومعناه أنه أعرض عن أمر الله وأنه لم يهتم به، أو أنه قلد العامة والدهماء الذين لا يفرقون بين حق وباطل وهذا لا يمكن أن يكون مستساغًا أصلًا.

فقول الإمام أحمد: «**والله يقول**»؛ يعني: أن هذا من الأدلة على وجوب ترك آراء الناس عند ورود النص سواءً من الله أو من رسوله ﷺ وإن كانوا مجتهدين، والمجتهد يكون إما متحصلًا على أجرين أو أنه متحصلًا على أجر واحد والخطأ يكون معفوًا عنه إذا اجتهد فأصاب فله أجران أجر الاجتهاد وأجر الإصابة، وإن أخطأ فله أجر واحد وخطؤه معفوٌ عنه، ولكن هذا إذا كان أهلًا للاجتهاد، وأما إذا كان ليس أهلًا للاجتهاد فهو آثم على كل حال وإن أصاب. وإن أخطأ فهو ظالم مستحقٌ للعقوبة كالذي يقول بالقرآن برأيه فإن هذا جاء النص فيه، وكذلك في أي حكم من الأحكام، لأن كل حكم أو كل حدث يحدث فللّه فيه حكم، والله ﷻ ما فرط في الكتاب من شيء، والكتاب إذا أرجعت الحوادث إليه كلها حكمها موجود فيه، ولكن تحتاج إلى فهم، وإذا أعطى الله عبده الفهم فإنه لا بد أن يدرك ذلك من القرآن، ولهذا كان الشافعي رحمه الله يقول: كل حكم حكمه الصحابة أخذوه من القرآن ولكنه يخفى علينا.

فيجتهد في إصابة الحق أخذًا من كتاب الله أو من القواعد الكلية التي دلَّ عليها كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، لأن كلام الله ﷻ كليات وقواعد وجوامع، الرسول ﷺ يقول: «**بعثت بجوامع الكلم**»[1]، وهذا من خصائصه ﷺ. وجوامع الكلم معناه مثل قوله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئٍ ما نوى**»[2]، وكذلك قوله: «**الحلال**

(١) رواه البخاري رقم (٢٩٧٧)، ومسلم رقم (٥٢٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) سبق تخريجه.

بيِّن والحرام بيِّن وبينهما أمور مشتبهات»[١] وغير ذلك.

فالمقصود أن الأحكام التي يجب أن يفصل بها بين الناس مرجعها إلىٰ شرع الله وإلىٰ سُنَّة رسوله ﷺ ولا يجوز أن نرجع إلىٰ قوانين وأوضاع يتواضعها الناس. فإن هذا نبذ لكتاب الله ﷻ وترك له ومن فعل ذلك فقد وقع في الفتنة.

قوله: «﴿فَلْيَحْذَرِ﴾»: هذا تحذير من الله بالعذاب العاجل يعني أن الأمر قريب، فالعذاب الذي يقع علىٰ المخالف قريب، فالحذر يكون من شيء متوقع، قريب الوقوع.

قوله: «﴿يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾»؛ يعني: أمر الرسول ﷺ لأنهم يعرفون أمره ثم يخالفونه إلىٰ غيره، فأمره هو الذي يخبر به عن ربه ﷻ أنه أمر أو نهي، الأوامر التي فيها تكريم عباد الله من الله ﷻ ومعلوم أنه صلوات الله وسلامه عليه لا ينطق عن الهوىٰ وإنما أمره بأمر الله ﷻ، وهذا يدل علىٰ أن هذا التحذير يكون في العاجل يعني في الدنيا أعني ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ وهذا من أعظم العقوبات.

والفتنة فسَّرها الإمام أحمد بالشرك لقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧]؛ لأن المعنىٰ أن فتن الإنسان وصده عن توحيد الله؛ لأن عبادة الأصنام ودين المشركين أعظم من القتل لو قتلوه، فهذا في الموت الذي لا يرجىٰ معه حياة وهو الخسارة الأبدية، بخلاف إزهاق النفوس فإن إزهاقها هو من هذه الحياة الدنيا فقط، فإذا كانت النفوس مؤمنة بالله فهي تنتقل من حياة إلىٰ حياة أحسن وأفضل وفيها السعادة، فهي ولادة جديدة يولدها العبد بعد موته بل هي انتقال من هذه الدنيا وضيقها إلىٰ الآخرة وفضلها وسعتها ونعيمها، بخلاف الانتقال من

(١) رواه البخاري رقم (٥٢)، ومسلم رقم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير.

دين الله ﷻ إلىٰ دين الكفار فإنه موت حقيقي، بل هو العذاب الأبدي، ولهذا يقول الله ﷻ: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

هذا في الظاهر فيمن يقتل نفسًا بلا حق كأنه قتل الناس كلهم، فكيف بالذي يضل الإنسان عن دينه، ويصده عن عبادة ربه إلىٰ عبادة الشيطان، هذا أعظم بكثير من قتله، فمثل هذا يقال أضل الناس جميعًا كأنه أضل جميع الناس إذا أضل نفسًا واحدة كما أنه إذا اهتدىٰ بسببه إنسان واحد كأنه اهتدىٰ بسببه الخلق كلهم، فهذا يدلنا علىٰ عظم كون العبد ينحرف عن دين الله ﷻ وما يتسبب علىٰ ذلك.

وقد قال الله ﷻ في سوء الأدب مع رسول الله ﷺ ورفع الصوت عنده: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢]، إذا كان هذا يستوجب حبوط العمل والعبد لا يشعر ولا يقصد، فكيف بمخالفة الأمر عن عمد وعلم ماذا يكون؟ الأمر فيه أعظم بكثير، ولهذا قال: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ يعني يصدون عنه ويتركونه ولا يبالون به ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ يعني: أن تفتتن قلوبهم وتصبح مريدة للشرك والكفر محبة له كارهة لضده من طاعة الله والإيمان فتنقلب الأمور ويصبح الحق في نظره وذوقه وفي اتجاهه وميوله باطلًا مكروهًا عنده وثقيلًا لا يحبه ويصبح الباطل بعكس ذلك يميل إليه ويحبه، فهذا أعظم الفتنة لأن من كانت هذه صفته فقد استحكم عذابه.

قوله: «﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾»: وهذا أسهل من الذي قبله، فقد ينزل عليهم مع ذلك العذاب العاجل فيموتون علىٰ هذه الصفة -نسأل الله العافية- فالعذاب الأليم الذي يؤلم ويوجع، ومعلوم أن عذاب الله لا يقاس بعذاب الخلق، عذابه هو العذاب

الأليم، كما أن رحمته وإنعامه وإفضاله لا يقاس بما يكون بين الناس. وإذا فعل الإنسان هذا فهو لا يخلو من أمرين:

إما أن يكون كفرًا، وإما أن يكون معصية. فإن كانت مخالفته لأمر الله أو أمر رسوله ﷺ لأجل المعصية وهو يعرف أنه محرم وأنه مذنب فهذا أسهل فلا يكون كافرًا في هذه الصفة.

أما إذا كانت مخالفته من باب عدم المبالاة ومن باب تصغير الأمر واحتقاره، فهذا كفر بالله ﷻ، فالأول هو الذي يصيبه العذاب الأليم، أما الثاني فهو الذي تصيبه الفتنة، ولهذا قال: «أتدري ما الفتنة؟» الفتنة الشرك، وفي رواية: «الفتنة الكفر».

وقوله: «لعله إذا رد بعض قوله»: بعض قوله وليس كله، ويدل على أنه لو فعل ذلك من غير قصد وإرادة وعلم أنه قد يقع في هذا المحذور أنه تصيبه الفتنة، فلهذا قال: ﴿فَلْيَحْذَرِ﴾. والحذر معناه: التنبه لذلك والتفطن، وأن يكون عنده علم مسبق وحذر يستعمل فيما هو خفي، وهذا يدلنا على أن العبد لو كان غير قاصد ووقع في هذا أنه على خطر.

قوله: «أن يقع في قلبه شيء من الزيغ»؛ يعني: أنه خالف ذلك احتقارًا للأمر وتصغيرًا له كما فعل إبليس فيكون بذلك هلاكه لأنه بذلك يخرج عن الدين الإسلامي.

وقوله: «لعله»: لأنه ليست لكل أحد؛ لأن بعضهم تكون المخالفة لأجل حظ هواه وشهوته فقط مع اعترافه بأنه ظالم، فمثل هذا وإن كان متوقعًا أن يصيبه العذاب ولكنه أسهل من الذي قبله.

وقوله: «فيهلك»؛ يعني: الهلاك الوقوع في الشرك -نسأل الله العافية- ومن وقع في الشرك ومات عليه فهو الهالك الحقيقي لأن مصيره النار.

✍ **قال المؤلف ﷀ عن عدي بن حاتم: أنه سمع النبي ﷺ يقرأ هذه الآية:** ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]، **فقلت: إنا لسنا نعبدهم، قال: «أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلونه»، فقلت: بلىٰ. قال: «فتلك عبادتهم» رواه أحمد والترمذي وحسنه**(١).

عدي بن حاتم الطائي كان نصرانيًا، وحاتم هو ابن عبد الله بن سعد بن الحشرج المشهور بالسخاء والكرم، ولكنه مات مشركًا في الجاهلية فهو من أهل النار، ولهذا لما سأل عدي الرسول ﷺ عن أبيه، قال: «**إن أباك سعىٰ لشيء أدركه**» يعني: المدح والثناء، وكان يضرب به المثل في الكرم، وعدي بن حاتم كان في طي، وكان له أموال ورثها عن أبيه، وكان يكره الإسلام أشد الكراهية، ويقول لغلامه: إذا رأيتم خيل محمد فأعلموني، وقد أعد ركائب عنده لا تبرح بيته، فأرسل الرسول ﷺ سرية بقيادة علي بن أبي طالب إلىٰ طيء فجاءه غلامه ذات غداة فقال: يا عدي ما كنت صانعًا إذا غشيتك خيل محمد فاصنعه الآن، فإني رأيت رايات فسألت عنها فقالوا: هذه جيوش محمد، قال: فقلت: فقرب إليَّ أجمالي فقربها، فاحتملت بأهلي وولدي ثم قلت: ألحق بأهل ديني من النصارىٰ بالشام. وخلف بنتًا لحاتم في الحاضرة، أخته كبيرة، فأُخذت وذُهب بها إلىٰ المدينة وكانت من السبي، فمر بها رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله غاب الوافد وانقطع الرافد، وأنا عجوز كبيرة، ما بي من خدمة، فَمُنَّ علي مَنَّ الله عليك. قال: «**من وافدك؟**»، قالت: عدي بن حاتم، قال: «**الذي فرَّ من الله ورسوله**»، قلت: فمُنَّ عليَّ. قال: فلما رجع ورجلٌ إلىٰ جنبه فقال لي: سليه الحملان فأعطاني فذهبت إلىٰ عدي. فقالت: لقد فعل فعلًا ما كان

---

(١) أخرجه الطبراني رقم (٢١٨)، والترمذي رقم (٣٠٩٥).

أبوك يفعله، ائته راغبًا أو راهبًا، فقد أتاه فلان فأصاب منه وأتاه فلان فأصاب منه، قال عدي: فأتيته وهو جالس في المسجد فقال القوم: هذا عديُّ بن حاتم وجئت بغير أمان ولا كتاب. فلما دفعت إليه أخذ بيدي وقد كان قبل ذلك قال: «**إني أرجو أن يجعل الله يده في يدي**»، فقال لي: «**ما يفرُّك، أيفرك أن تقول: لا إله إلا الله، فهل تعلم إله سوىٰ الله؟**»، قلت: لا. ثم قال: «**إنما تفرُّ أن يقال الله أكبر وهل تعلم شيئًا أكبر من الله؟**»، قال: قلت: لا. قال: «**فإن اليهود مغضوب عليهم والنصارىٰ ضالون**»، قال: قلت: إني حنيفٌ مسلمٌ. قال: فرأيت وجهه ينبسط فرحًا[1].

فسمع عدي رضي الله عنه الرسول ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، وهذه الآية في سورة التوبة، وهي نزلت في السنة التاسعة، يعني بعد غزوة تبوك وإسلام عدي بعد ذلك.

قوله: «﴿أَحۡبَارَهُمۡ﴾»: الأحبار هم العلماء. أخذًا من الحبر الذي يكتب به لأنهم هم الذين يستعملونه، والغالب أن هؤلاء من اليهود؛ لأن اليهود أهل علم ولكنهم أهل عناد وتكبر، ومن كان عالمًا معاندًا فهو أهل لغضب الله جل وعلا ومقته.

وقوله: «﴿وَرُهۡبَٰنَهُمۡ﴾»: والرهبان مأخوذة من الرهبنة وهي التخلي عن الدنيا، فالرهبان هم العباد، والغالب أنهم من النصارىٰ؛ لأن النصارىٰ غلبت عليهم العبادة، ولكنها عبادة بجهل، فهم أهل جهل يتعبدون بضلالة، فلهذا سموا ضلالًا، واليهود أهل غضب، ولهذا فسر العلماء قوله جل وعلا: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧] أن المغضوب عليهم هم اليهود، والضالين النصارىٰ، وكذلك من تشبه بهم من هذه الأمة، الذي يضل من العلماء يكون شبيهًا باليهود، والذي يضل من العباد يكون شبيهًا بالنصارىٰ.

---

(١) زاد المعاد ص(٤٥٣).

والرسول ﷺ كان يفرح بإسلام رؤساء القوم وكبارهم لأن بإسلام الرجل من هؤلاء يسلم خلق كثير، وهؤلاء هم الذين كانوا يتألفهم صلوات الله وسلامه عليه ويبذل لهم المال يعني يعطيهم الدنيا حتىٰ يرغبهم في الآخرة في دين الله ﷻ، فقد ثبت في الصحيحين عن عدي رضي الله عنه قال: بينما أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكا قطع السبيل فقال: «**يا عدي: هل رأيت الحيرة؟**»، قلت: لم أرها وقد أنبئت عنها، قال: «**فإن طالت بك الحياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتىٰ تطوف بالكعبة لا تخاف أحدًا إلا الله -قلت فيما بيني وبين نفسي: فأين دُعارُ طيء الذين قد سعروا البلاد- ولئن طالت بك الحياة لتفتحن كنوز كسرىٰ**» قلت: كسرىٰ بن هُرمز؟ قال: «**كسرىٰ بن هرمز، ولئن طالت بك الحياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه، فلا يجد أحدًا يقبله منه، وليلقين الله أحدكم يوم يلقاه وليس بينه وبينه ترجمان يترجم له، فيقولن: ألم أبعث إليك رسولًا فيبلغك؟ فيقول: بلىٰ، فيقول: ألم أعطك مالًا وأفضل عليك؟ فيقول: بلىٰ، فينظر عن يمينه فلا يرىٰ إلا جهنم، وينظر عن يساره فلا يرىٰ إلا جهنم**»، قال عدي: سمعت النبي ﷺ يقول: «**اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد شق تمرة فبكلمة طيبة**»، قال عدي: فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتىٰ تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرىٰ بن هرمز، ولئن طالت بكم حياة لترون ما قال النبي ﷺ: «**يخرج ملء كفه**»(١).

والمقصود أن عدي بن حاتم رضي الله عنه أسلم وحسن إسلامه وفرح بإسلامه رسول الله ﷺ وفسَّر له رسول الله ﷺ عبادة الأحبار والرهبان، أن عبادة العلماء هي طاعتهم في مخالفة شرع الله، وكذلك عبادة العباد، وهؤلاء هم الذين يطاعون في العادة، بخلاف دهماء الناس لأن هؤلاء هم الذين يرأسون الناس ويتقدمونهم.

(١) رواه البخاري رقم (٣٥٩٥).

قوله: «﴿أَرْبَابًا﴾»: جمع رب، ومعنىٰ ذلك أن الرب قد يستعمل بمعنىٰ المألوه المعبود ﴿أَرْبَابًا﴾ يعني: آلهة تعبد من دون الله، لأن الرب الذي يربُّ الشيء ويقوم علىٰ مصالحه، والله ﷻ هو الذي يربي عباده بما ينفعهم، وما يحتاجون إليه ويدفع عنهم ما يضرهم أو يؤلمهم، وهذا عام في الخلق كلهم، فالذي يكون بهذا الصفة هو الذي يستحق أن يعبد، فلهذا عبر عن العبادة عن الإله بالرب في بعض مواقع الخطاب، ومن ذلك ما جاء في سؤال القبر يقال: من ربك؟ ومعلوم أن الخلق كلهم مشركهم ومؤمنهم يعلمون أن ربهم الله فهذا ليس هو المقصود، وإنما المقصود من الذي كنت تعبده؟ فيكون عبَّر عنه بمعنىٰ المعبود المألوه الذي يأله، ولهذا يرد علىٰ عباد القبور الذين يقولون: إن الإله الذي يخلق ويحيي ويميت، أما إذا اعتقدت أن المخلوقات واسطة ووسيلة لك عند الله تدعوا لك وتتوسط لك، تدعوها لأجل هذا، فهذا لا يدخل في الشرك، فهم غالطون في هذا أعظم الغلط، لأن هذا هو شرك المشركين، ما كان المشركون يرون أن أحدًا من الخلق يشارك الله ﷻ في خصائص الربوبية من الخلق والإحياء والإماتة، بل يؤمنون بأن هذه لله وحده، وإنما شركهم في كونهم جعلوا وسائط لهم تتوسط عند الله بسؤال الشفاعة وإيصال الطلبات التي يجعلونها من باب التعظيم، قياسًا علىٰ المخلوق لأنهم قالوا نشاهد العظماء من بني آدم أنه لا يوصل إليهم رأسًا بدون واسطة وإنما الوصول إليهم بالوسائط وهذا يكون أدعىٰ إلىٰ قبول الطلب فهم فعلوا الشرك من باب القياس علىٰ المخلوق فهو خطأ واضح وظاهر وجلي، لأن الله ﷻ عليم بكل شيء، سميع لكل شيء، ولا يحتاج ﷻ إلىٰ وساطة أو من يبلغه أو من يجعله عاطفًا علىٰ خلقه -تعالىٰ وتقدس-.

قوله: «**فقلت: إنا لسنا نعبدهم**»: ظن عدي أن المقصود باتخاذهم أربابًا دعوتهم والاتجاه إليهم، وتقديم العبادة لهم من السجود والذبح والنذر وما أشبه ذلك، فقال: «**إنا لسنا نعبدهم**»، فبين له الرسول ﷺ ما هي العبادة المقصودة في

الآية قال: «أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلونه»، فقلت: بلىٰ. قال: «فتلك عبادتهم»؛ يعني: طاعتهم في تحليل الحرام، وتحريم الحلال هي عبادتهم، وكذلك تغيير دين الله، وهذا أمر واضح أن من اتبع غيره من الناس في مخالفة شرع الله ﷻ أنه يكون عابدًا له.

ففي هذا الإيضاح التام الذي هو نص من الرسول ﷺ، بأن كون الإنسان يحلل حرامًا أو يحرم حلالًا فيتبع أنه يكون معبودًا وربًا لهذا الذي اتبعه.

وقد يقول قائل: إن الله ﷻ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، فعطف طاعة أولي الأمر علىٰ طاعة رسوله نقول هذه الآية لا تخالف هذه الآية، كلاهما يدل علىٰ الحق، فالتي فيها الأمر بطاعة ولي الأمر يعني إذا أطاعوا الله وأطاعوا الرسول ﷺ فطاعتهم تبع لطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، وليست استقلالًا في تحليل الحرام وتحريم الحلال، فإن هذا لا يمكن أن تدل عليه الآية، ولهذا ذكر في آخرها: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩] فعند النزاع يجب أن نرد النزاع إلىٰ الله وإلىٰ الرسول ﷺ، ورده إلىٰ الله رده إلىٰ كتابه، ورده إلىٰ الرسول رده إلىٰ سُنَّته، وأما في وقت حياته فإنه إليه نفسه ولكن بعد وفاته ترد إلىٰ سُنَّته، فبهذا تبين أن الآية لا تخالف الأخرىٰ.

وقوله: «**فتلك عبادتهم**»؛ يعني: أن طاعة المخلوق في تحريم الحلال، وتحليل الحرام أنها عبادة له، وهذا يدلنا كما سبق علىٰ أنها طاعة خالصة يعني في هذا الشيء. أما الطاعة في الأمور التي لا يظهر فيها المخالفة فإنه لا يخلو الأمر: إما أن يكون الإنسان مجتهدًا يعني المطاع ولكنه أخطأ فإن كان مجتهدًا يريد الحق وأخطأ فيه فإنه في ذلك غير ملوم وخطئه معفو عنه.

وإن كان خلاف النص فهذا لا يجوز أن يقع، فإذا فعل ذلك فهو مجرم ويستحق ما يستحق مثله من المجرمين.

فتبين أن طاعة المخلوق عبادة له، ولكن هل يكون هذا مطلقًا أو أنه لا بد من العلم في ذلك؟

نقول: إذا كان الأمر فيه واضح ظاهر فإن هذا يكون مطلقًا، أما إذا كان فيه خفاء والإنسان مجتهد ويرىٰ أن هذا طاعة لله ﷻ فهذا يكون معصية لأنه مقصر في ذلك؛ لأن الواجب أن يعرف العبادة التي أمر الله ﷻ بها، ويعرف الحلال والحرام غير أنه لا يكون الناس كلهم في هذا سواء، فيكون مثلًا باب الاجتهاد الذي يقول العلماء أنه لا إنكار في مسائل الاجتهاد يعني ما ليس فيه نص، وإنما هي مفاهيم تفهم إما من الكليات من الشرع أو من الجزئيات فهذا هو الذي يسوغ فيه الاجتهاد والتقليد، أما إذا كانت نصوص قد بينها الله ﷻ وبينها رسوله ﷺ فلا عذر لمن خالفها.

قال المؤلف رحمه الله **: فيه مسائل:**

الأولى: التنبيه على معنى العبادة التي أنكرها عدي.

يعني أنها عبادة خاصة وهي في تحليل المحرم، وتحريم الحلال، أما طاعتهم فيما عدا ذلك ليس فيه تحليلٌ ولا تحريمٌ فلا تدخل في هذا، هذا مقصوده.

الثانية: تمثيل ابن عباس بأبي بكر وعمر، وتمثيل أحمد بسفيان.

يعني أبا بكر وعمر لا يقاسان بغيرهما من العلماء، ولا سيما العلماء المتأخرين الذين جعلت أقوالهم واتباعهم في أقوالهم صارفة عن كلام الله وكلام رسوله هذا مقصوده.

يقول: لا سواء، قول أبي بكر وعمر لا يستوي مع أقوال الفقهاء المتأخرين الذي تركوا الأدلة من كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ ثم اتبعوا علىٰ هذا، فمتبعهم ملومًا ولا يكون له أي عذر في ذلك، وكذلك سفيان رحمه الله فهو من الأئمة الكبار ومعروف بالزهد والورع وتقوىٰ الله ﷻ هو الذي كان يبكي طوال الليل فيلام علىٰ بكائه فيقال

له: أكل هذا خوف من النار؟ أو خوف من الذنوب؟ فيأخذ عودًا من الأرض يقول: والله إن الذنوب لا تساوي عندي هذا، ولكن ما أدري ماذا أموت عليه؟ لأن القلوب بين أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء.

۞ **الثالثة: تغير الأحوال إلى هذه الغاية حتى صارت عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال وتسمى الولاية، وعبادة الأحبار هي العلم والفقه ثم تغيرت الأحوال إلى أن عبد من دون الله من ليس من الصالحين، وعبد بالمعنى الثاني من هو من الجاهلين.**

هذا الكلام معناه «**تغيرت الأحوال**»؛ يعني: عما ذكره ابن عباس وما ذكره الإمام أحمد لأن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا يحذر من ترك قول رسول الله ﷺ إلى الأخذ بقول أبي بكر وعمر والإمام أحمد يحذر من ترك الحديث الصحيح والأخذ برأي سفيان، وسفيان من كبار الأئمة، فتغيرت الأحوال يقول حتى صارت عبادة الرهبان التي يسمونها الولاية عبادة شياطين يدعون الولاية وهم لا يصلون ولا يتطهرون ولا يتورعون أو يتركون الفواحش الكبيرة والصغيرة، ويسميهم كثير ممن يتبعهم على تحريم الحلال وتحليل الحرام أولياء ويتبعونهم على ذلك، يعني فرق كبير جدًا بين هذا وهذا، وكذلك يقول عبادة الأحبار تغيرت الأحوال فيها فاتبع من هو من الجاهلين وليس من العلماء بعيدًا جدًا أن يقاس بسفيان ونحوه، فجعل اتباعهم هو الفقه والعلم.

ومقصوده التقليد الأعمى الذي يفعله كثير من الناس، وإذا احتج عليه بآية من كتاب الله أو بحديث عن رسول الله ﷺ قال فلان أعلم منك وأعرف بمعنى الآية ومعنى الحديث منك، فأنا لا أترك قوله، يتمسك بقوله ويترك قول الله جَلَّ وَعَلَا وقول رسوله ﷺ، فيكون هذا معناه أنه ترك قول الله وقول رسوله لمن لا يدان أو يقارب سفيان الثوري ونحوه من العلماء.

ويقول صاحب فتح المجيد على هذا: وأما طاعة الأمراء ومتابعتهم فيما يخالف ما شرعه الله ورسوله، فقد عمَّت به البلوى قديمًا وحديثًا، في أكثر الولاة بعد الخلفاء الراشدين وهلُمَّ جرًّا. وقد قال الله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

وعن زياد بن حُدير قال: قال لي عمر ﷺ: هل تعرف ما يهدمُ الإسلام؟ قلت: لا. قال: يهدمه زلة العالم، وجدال المنافق بالكتاب، وحكم الأئمة الضالين. رواه الدارمي(١).

فالمؤلف رحمه الله يقول في المسائل التي استنبطها من الأدلة: إن الله جل وعلا يبين أن من أطاع المخلوق في تحليل الحرام أو تحريم الحلال فإنه يكون متخذًا له إلهًا وربًا دون الله جل وعلا؛ ومعنى ذلك أن تحليل الحلال وتحريم الحرام من خصائص الله جل وعلا لا يجوز لمخلوق أن يقول هذا حرام وهذا حلال إلا إذا كان مخبرًا عن حكم الله جل وعلا. ومعلوم أن الرسول ﷺ يبين حكم الله، فإذا أخبر أن هذا حرام وهذا حلال فمعنى ذلك أن هذا قول الله جل وعلا الذي أرسله به، ولكن المقصود غير الرسول ﷺ، ومعلوم أن جميع أفعال الناس والوقائع التي تقع لهم أنها يجب أن تكون محكومة بحكم الله جل وعلا وأن يرجع فيها إلى الله، هذا بالنسبة لأفعالهم.

أما بالنسبة للعلم والعقيدة فكذلك إذا حصل فيه اختلاف بين أناس فإنه يرجع فيه إلى ما قاله الله وقاله الرسول ﷺ كالاختلاف مثلًا في أسماء الله وصفاته والمؤمن والفاسق والمنافق والكافر وما أشبه ذلك، لا يجوز أن تحكم رجلًا من الناس في هذا، بل يجب أن يكون الحاكم في ذلك هو الله جل وعلا ورسوله ﷺ، وهذا،

(١) فتح المجيد ص(٤٥٩).

أعظم من الأول لأنه إما خبر عن الله ﷻ والإخبار عن الله ﷻ يجب أن تكون عن يقين وعلم ولا يقين في ذلك ولا علم إلا ما قاله الله وقاله رسوله ﷺ فيصفه وهو لا شبيه له ولا مثيل له حتىٰ يقاس علىٰ غيره تعالىٰ وتقدس، فإذًا ليس فيه طريق إلا الرجوع إلىٰ قوله ﷻ وقول رسوله ﷺ.

ومعلوم أن الله تعرف إلىٰ عباده بكتابه وبأوصافه وأسمائه وكذلك أفعاله التي يفعلها في خلقه، فإنها تعرف به ﷻ وتدل علىٰ عظمته. ومعلوم أن الناس في هذا صاروا في الواقع بين طرفي نقيض ووسط، والوسط هو الخير فالمقصود أنه لا يمكن أن يهتدي الإنسان في هذا الباب إلا إذا رجع إلىٰ كلام الله وكلام رسوله ﷺ، أو يكون حكمًا من الله في عبادة وأمرًا يأمرهم به أو نهيًا يلزمهم به فيجب أن يطاع في ذلك كله.

وقد كثر في الناس الاختلاف في هذا حتىٰ وضعوا قوانين من الفلسفة وعلم الكلام التي ترجع إلىٰ الآراء والعقول وسموها براهين، وسموا الأدلة التي يقولها الله في قوله سموها أدلة سمعية مظنونة، لا تدل علىٰ اليقين ولا علىٰ علم، وهذا كذب علىٰ الله وعلىٰ رسول الله ﷺ، حتىٰ قال بعض الذين يفسرون كلام الله يقول لا يجوز أن تتعدىٰ المذاهب الأربعة في الأحكام، ولو قال الصحابة خلاف ذلك، بل ولو كان في الحديث والقرآن خلاف ذلك، فلا يجوز الخروج عنها؛ لأن الأخذ بظواهر الكتاب والسُّنَّة كفر من أصول الكفر فهل يقول مسلم مثل هذا الكلام -نسأل الله العافية- ولكن هذه الأشياء انتشرت وبُلي بها الناس، وهذا هو الذي قصده المؤلف هنا بقوله: «تغيرت الأحوال إلىٰ هذه الغاية حتىٰ صار عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال وتسمىٰ الولاية» يعني: الذهاب إلىٰ قبورهم والاستنجاد بهم وطلب تفريج الكربات وإنالة الرغبات منهم، وما أشبه ذلك من أمور الدنيا والآخرة، يجعلون هذا من أفضل أعمالهم، وهؤلاء مُتَبَّرٌ ما هم فيه، وباطل ما كانوا يعملون بلا شك.

هذا مقصوده بقوله: «**صارت أفضل الأعمال**» يعني: عنده هؤلاء الضلال اعتقدوا أنها أفضل الأعمال، ولهذا قال: «**وتسمىٰ الولاية**» يعني الأولياء. ثم قال: «**وعبادة الأحبار هي العلم والفقه**»»، والعبادة معناها أنها اتباعهم وطاعتهم فيما يقولون، ومقصوده بالأحبار العلماء أنهم إذا قالوا شيئًا اتبعوا مثل ما يقول هذا الرجل أنه يجب اتباع المذاهب الأربعة ولا يجوز الخروج عليها بحال، وإن قال الصحابة خلاف ذلك بل وإن كان في الحديث والقرآن خلاف ذلك، ثم يقول: لأن الأخذ بظواهر الكتاب والسُّنَّة من أصول الكفر -نسأل الله العافية- هذا يقوله الصاوي في حاشيته علىٰ الجلالين في تفسير سورة الكهف عند قوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ [الكهف: ٢٣]، وكذلك غيره يقول مثل هذا الكلام، ثم يقول ما وقف الأمر إلىٰ هنا يعني كون الناس يقولون لا بد من الأخذ بأقوال الفقهاء، ولا يجوز أن تؤخذ الأحكام من الكتاب والسُّنَّة، وقد وضع الشيطان لهم في هذا حواجز تحجزهم عن النظر في الكتاب والسُّنَّة وقالوا في تضليل من استنبط من الكتاب والسُّنَّة، قالوا: إنه لا يأخذ من الكتاب والسُّنَّة إلا المجتهد، والاجتهاد قد انتهىٰ وأغلق بابه منذ أزمان، والمجتهد يجب أن يكون عالمًا بالكتاب وأسباب النزول والناسخ والمنسوخ وبالعام والخاص، وكذلك بالمتقدم والمتأخر وعالم بالسُّنَّة وباللغة وبالنحو والبلاغة، يذكرون اثنين وأربعين شرطًا للمجتهد.

ولهذا يقول المؤلف: لعل هذه الشروط لا تجتمع في أبي بكر وعمر، فجعلوا هذا سدًا وحائلًا بين الناس وبين تأمل كلام الله، وهذا شيء فرح به الشيطان كثيرًا لأن العبد إذا استشعر أنه ليس باستطاعته الاستنباط فإنه لن يتأمل حتىٰ صارت المسألة مجرد تلاوة كما قال الله ﷻ: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة: ٧٨] يعني: إلا تلاوة يتلونه فقط، وكذلك كانوا لا يقرؤون صحيح البخاري إلا لتبرك فقط قال: «ثم تغيرت الأحوال أن عبد من دون الله من ليس من الصالحين»

بل عبد من الفسقة بل من الكفرة الذين لا يصلون ولا يتورعون عن الزنا ولا عن اللواط، وعن شرب الخمر ولا يتطهرون، ومع ذلك يعتقدون أنهم أولياء يسمونهم مجاذيب، علىٰ أنهم وصلوا إلىٰ الحقيقة فأصبحوا قد رفعت عنهم التكاليف، انظر كيف يزين الشيطان.

وقوله: «وعبد بالمعنىٰ الثاني من هو من الجاهلين»: صاروا مثلًا يفتون علىٰ حسب أهوائهم ورغباتهم فيتبعون علىٰ ذلك بقوله في وقته رحمه الله ولو أنه رأىٰ الأحوال التي نحن فيها لرأىٰ العجب، وأعظم مما كان، فأصبحت القوانين تسن تجعل شرعًا وتوضع للناس ويحكمون بها، ونبذ كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ لا ينظرون إليها إلا إذا وافقت أهواءهم ومراداتهم، هذا من ناحية الأحبار مع أن الذي يضع هذه القوانين كفار في الغالب أو يستوردونها من بلاد الكفر. وأما الذي هو عبادة الصالحين فهذا قد يكون أخف وقد يكون أعظم.

فالمقصود أن الإنسان لا يتم توحيده بل لا يحصل له إيمان حتىٰ يتبع قول الله جل وعلا ويسلم له وينقاد له ويصبح ليس عنده فيه إشكال أو تحرج فيكون الحاكم هو الله ورسوله ﷺ في أحواله كلها سواءً أحواله الخاصة التي تخصه من الاعتقاد من ما تنطوي عليه القلوب، أو من الأعمال التي يعملها أو من الأمور التي يحصل بينه وبين غيره فيها شجار أو نزاع.

نبَّه علىٰ قوله هذا لأن كثيرًا من الناس تعجب من هذا الكلام، والواقع أنه هو الفقه وخلاصة ما ذكره من الأدلة، وطبق ذلك علىٰ الواقع الذي كان يعيشه رحمه الله.

الباب التاسع والثلاثون

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **باب قوله تعالى:** ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٦٠].

في هذا الباب أراد المؤلف رحمه الله أن يبين تمام التوحيد الذي لا يتم إلا به، وذلك أنه من أول الكتاب إلىٰ هنا يذكر الحق الواجب لله جل وعلا علىٰ العباد ويبينه ويوضحه وهو معنىٰ لا إله إلا الله. ومعلوم أن كلمة لا إله إلا الله مرتبطة بكلمة شهادة أن محمدًا رسول الله؛ لأنهما ركن واحد ولا يقبل أحدهما دون الآخر، ولهذا جعلهما الرسول ﷺ ركنًا واحدًا كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما وغيره: «**بني الإسلام علىٰ خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ...**» الحديث[1]، ثم قال: «**وإقام الصلاة**».

فأراد المؤلف رحمه الله في هذا الباب أن يبين معنىٰ شهادة أن محمدًا رسول الله هذا مقصوده، وذلك أنه ﷺ رسول مبلغ شرع الله يجب أن يصدق ويتبع وليس له من الألوهية شيء، وأنه عبد تعبده الله بعبادته وأكرمه برسالته وكلفه إبلاغها، فهو رسول لا يعبد وإنما يطاع ويتبع، وكذلك لا يجوز أن يتعبد الله جل وعلا إلا بما جاء به، ولا يجوز أن يتحاكم ويتخاصم ويزال الخصام والخلاف إلا بما جاء به صلوات الله وسلامه عليه، وكذلك تقديم محبته ﷺ، علىٰ محبة النفس والولد والوالد والمال وغير ذلك من المحاب التي يحبها الإنسان؛ لأن الله جل وعلا يحبه وأمر بحبه ولأنه جعله الله سببًا لإنقاذ الناس من الهلكة ومن العذاب، فلا هناك طريق يمكن أن يسلم الإنسان فيه من العذاب إلا الطريق الذي جاء به الرسول ﷺ، فيتبعه علىٰ ذلك

(١) رواه البخاري رقم (٨)، ومسلم رقم (١٦).

وهذا أمر مهم جدًا ولا إيمان إلا بهذا، ولا يتم التوحيد إلا بهذا، فلهذا أراد أن ينبه علىٰ هذا في هذا الباب، فهو ذكر هذا الباب لأجل هذا الشيء فقط فهو واضح عند تأمل الأدلة التي وضعها.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **باب قوله الله تعالىٰ:** ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠].

هكذا كانت عادته رحمه الله يترجم بالآية لأنها تدل علىٰ المقصود.

قوله: «﴿أَلَمْ تَرَ﴾»: ﴿أَلَمْ﴾ هنا استفهام، والاستفهام يدل علىٰ الإنكار، فهو استفهام إنكاري.

قوله: ﴿تَرَ﴾ تنظر وتعلم وتبصر هؤلاء. وهذا يدل علىٰ أن هذا أمر عجيب، وهو زعم هؤلاء أنهم آمنوا برسول الله ﷺ وبالرسل الذين قبله.

قوله: «﴿يَزْعُمُونَ﴾»: هذه تتضمن أن قول هؤلاء أنه كذب، أو أنه يتضمن الكذب لأنهم يفعلون أفعالًا تخالف أقوالهم، فإذا كان الإنسان يفعل فعلًا يخالف قوله، صح أن نقول أنه كاذب أو أنه زعم كذا وهو ليس كذلك.

فالمقصود أن كلمة ﴿يَزْعُمُونَ﴾ وكذلك زعم وضعت للكذب، فتطلق علىٰ الكذب غالبًا، ولهذا يقول الله ﷻ: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧]، فعبَّر عن ذلك بقوله: ﴿زَعَمَ﴾، وفي الحديث: «**بئس مطية الرجل زعموا**»[1]، فإن الزعم لا يدل إلا علىٰ شيء غير موثوق إن لم يكن كذبًا صريحًا واضحًا.

---

(١) أحمد في المسند رقم (١٧٠٧٥)، وأبو داود رقم (٤٩٧٢) من حديث أبي مسعود الأنصاري.

وهنا يقول الله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾، فهذا يدل على أن هذا أمر عجيب، وهو زعم هؤلاء أنهم آمنوا بما أنزل إلى رسول الله ﷺ وما أنزل على الرسل من قبله، مع إرادتهم التحاكم إلى غير ما أنزل الله ﷻ، ولهذا قال: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ فهذا دليل على أنهم لم يؤمنوا بما أنزل الله على رسوله ﷺ ولا على الرسل السابقين، وفي ضمن هذا تكذيبهم فهم كاذبون في دعواهم الإيمان، والإيمان الكاذب هو الذي لا يصدقه العمل لأن العمل يدل على ما في القلب، فإذا كان العمل خلاف القول، فالقول كذب وهذا أمر معروف بين الناس، حتى لو أن إنسانًا معروف بالطب أو بغيره من الصناعات والأمور التي يتعارف عليها الناس، حذرنا عن أمر من الأمور مثلًا، لو قال لنا إياكم وأكل هذا الطعام فإنه مسموم ومن أكله سوف يموت ثم يقدم يده فيأكل منه، كل من نظره أو سمعه يعده كاذبًا في قوله، وكذلك في الدعوى إذا قال أنه مؤمن وهو يخالف أمر الرسول ﷺ وما جاء به، بل يتعمد ذلك، ويكون هذا الباعث على عمله؛ لأنه قال: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ فالإرادة هي التي تبعث على العمل، فهذا يدل على أن الدعوى كاذبة وهو إيمان كاذب، وهذا حال المنافقين يقولون قولًا يخالف ما يعتقدونه وما يفعلونه، فالإرادة هنا لا بد أن يظهر لها أدلة من العمل الذي يعملونه على ذلك، ولهذا ذكر السبب في نزولها في آخر الباب في قول الشعبي، والمقصود ليس الاعتبار بخصوص السبب وإنما الاعتبار بعموم اللفظ، أما السبب فيكون عونًا على فهم المعنى لأن كلام الله ﷻ نزل لعموم الخلق إلى قيام الساعة، ما داموا يعملون به فلا بد أن يسعهم، ولا بد أن يجدوا فيه الحكم الذي يفصل بينهم إذا صدقوا واتبعوه، فلا اعتبار بكونها نزلت في معين، وإنما هذا يعين فقط على الفهم؛ أي: فهم المراد فقط.

فالمقصود أنهم كاذبون بقولهم آمنا، بل هم لم يؤمنوا بما أنزل إليك ولا ما أنزل من قبلك، والإيمان الصادق ضد هذا، الصادق هو الذي يصدقه العمل، فالعمل يسمىٰ إيمانًا، وكذلك القول، ولا بد من اجتماع القول مع العمل، وإلا لا يكون صدقًا بل يكون كذبًا.

فقوله: ﴿ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ دل ما قبله وما بعده علىٰ أن هذا زعم كاذب وأنها دعوىٰ باطلة، لأن الفعل خالفه، إذا خالف فعل القائل قوله فإنه يكون كاذبًا.

قوله: «﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾»: يشمل كل ما أنزله الله ﷻ، من كلامه ووحيه إلىٰ نبيه ﷺ، ويدل هذا علىٰ أن التحاكم وفض النزاع ليس له طريق إلا ما أنزله الله ﷻ، وأن من لم يتحاكم إلىٰ ما أنزل الله ﷻ فإنه غير مؤمن.

وهذا التحاكم عام لأنه ﷻ قال: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ وليس التحاكم في مسألة معينة، بل التحاكم يكون في مسائل الأصول والفروع، بل وفيما يصدر بين الناس مما يفض نزاعهم وينهيه، لا بد أن يكون الحاكم فيه هو الله ﷻ بما أنزله علىٰ رسوله ﷺ؛ لأن هذا من خصائص الربوبية، فمن نازع الله ﷻ في خصائص ربوبيته فإنه يكون ناصبًا نفسه شريكًا لله ﷻ.

وبهذا يتبين أن التحاكم إلىٰ ما ينصب حاكمًا بين الناس أنه يكون شريكًا في الربوبية يكون هذا شبه الرب؛ لأن من خصائص الرب الحكم بين خلقه، فهو الحاكم ﷻ بين خلقه في الدنيا والآخرة، ولكن في الدنيا حكمه أمره الشرعي الذي أنزله علىٰ رسله وهذا جعل إلىٰ الخلق حتىٰ يفعلوا بإرادتهم ومقدورهم فيستحقوا علىٰ ذلك الثواب أو العقاب إذا أبوا وامتنعوا؛ لأنهم بإرادتهم ومقدورهم وقد جعل إليهم.

أما الحكم في الآخرة فهو مرتب على ذلك؛ لأنه جزاء هذا التحاكم. وهذا يدلنا على أن المقصود بالتحاكم عام شامل بما يقع من الخلاف بين الناس في العقائد وفي الفروع وفي ما يلزم لبعضهم على بعض، فيتعين إرجاع أي خلاف يحدث بين المسلمين إلى ما أنزله الله ﷻ على رسوله ﷺ ومن رغب عن ذلك فإما أن يكون فاقد الإيمان، بل فاقد الإسلام، وإما أن يكون ذهب جزء من إيمانه الذي به النجاة، فيكون مستحقًا للعقاب إن لم يعف الله ﷻ حسب ما يقوم في نفسه، وما يفعله لأنه إما أن تكون قضية معينة، أو تكون قضايا، ومعلوم أن هذا أيضًا يعتبر فيه الرضا أو السخط يعني ما يقوم في القلوب؛ لأن الواجب على المسلم أن يرضى بحكم الله ﷻ ويسلم وينقاد ولا يكون لديه اعتراض أو تضجر منه، أو أنه يتمنى أن لا يكون كذلك وأن يكون الحكم على خلاف هذا كما سيأتي.

فالآية تدل على وجوب التحاكم إلى ما أنزل الله ﷻ وما جاء به الرسول ﷺ والتحاكم يكون في نفسك أولًا تحكم في نفسك الوحي تؤمن به وتجعله حاكمًا على أفعالك وتصرفاتك وعلى اتجاهك وتعلقك في قلبك، لا بد من هذا ثم ما يكون بعد ذلك فرعًا على ذلك من الأعمال التي تعملها، أو الأعمال التي تجد للناس أو لك تكون بينك وبينهم شيء من ذلك من المنازعات سواءً كانت المنازعات في حقوق أو كانت في مسائل العلم لا بد أن يكون التحاكم والمرجع إلى كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ.

قوله: «﴿يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾»: أما الطاغوت، فقد تقدم الكلام عليه ولكن لا بأس من الكلام فيه لأنه أمر مهم حيث جعل الله الكفر به شرطًا لحصول الإيمان عند العبد، قال ﷻ: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، والطاغوت كل ما صد عن شرع الله ﷻ، سواءً كان معنى من المعاني أو كان شخصًا من بني آدم أو من الشياطين من الجن أو من غيرهم،

ولهذا جاء عن الإمام مالك قوله: الطاغوت كل ما عبد من دون الله. وهذا التعريف جعل في العبادة، شاملًا لأن التحاكم نوع من العبادة وفض النزاع نوع منها لأن الواجب أن يكون هذا قول الله ﷻ وشرعه الذي يوحيه إلىٰ رسله.

أما الأفراد التي جاءت في تفسيره عن السلف كقول عمر رضي الله عنه: الطاغوت: الشيطان. وقول جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: الطاغوت: كهان تنزل عليهم الشياطين.

وقول بعض الصحابة: الطاغوت: كعب بن الأشرف. فهذه أمثلة يفسرون بها معنىٰ الطاغوت حسب ما يقوم في قلب الإنسان الذي يسأل عن ذلك حتىٰ يفهم، وليس المقصود بها العموم. ولهذا عرَّفه ابن القيم رحمه الله بقوله: الطاغوت كل ما تجاوز به العبد حده، من معبود أو متبوع أو مطاع، فجعله ثلاثة أشياء: المعبود، والمتبوع، والمطاع.

ومجاوزة الإنسان بالشيء حده، يعني جعله فوق ما وضع له خلقًا وأمرًا من الله ﷻ، فالمخلوق حده أن يكون عبدًا من عباد الله ﷻ لا يكون معبودًا، فالمعبود هو الله وحده فإذا جعل مخلوق من الخلق سواءً كان من الملائكة أو من الرسل أو من الجن أو من الجمادات جعل معبودًا فيكون طاغوتًا لأنه تعدىٰ الحد وطغىٰ وإن كان تعدي الحد من العابد هو الذي عداه حده ورفعه إلىٰ مقام الربوبية والألوهية فتجاوز به الحد الذي وضع له وهو كونه مخلوقًا لله ﷻ مسخرًا.

أما إذا كان متبوعًا فحد المتبوع أن يكون متبوعًا في طاعة الله وأمره، فإذا اتبع بمعصية الله وفي مخالفة شرعه فقد تجاوز المتبع به حده الذي حد له وهو اتباع الشرع، فإذا خرج عن ذلك فقد تجاوز حده.

وإن كان مطاعًا فكذلك، الطاعة يجب أن تكون تبعًا لطاعة الله ﷻ كما مر معنا في الباب السابق أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. فهذا معنىٰ قول ابن القيم: الطاغوت كل ما تجاوز به العبد حده، فحده مفعول لتجاوز من معبود يعني

غير الله ﷻ، أو متبوع، لأن الاتباع يجب أن يكون لرسول الله ﷺ، وحده ولمن أمر بأمره وبين حكمه تبعًا لطاعة الرسول ﷺ، وليس طاعته هي الأصل المقصود وإنما يطاع تبعًا، وكذلك الاتباع والطاعة، وبهذا يتبين لنا أن الشرك أنواع، شرك يكون في العبادة رأسًا، وشرك يكون بالاتباع، وشرك يكون بالطاعة.

وواضح جدًا أن الطاغوت هو الذي يحكم بخلاف ما أنزل الله، وما جاء به الرسول ﷺ، فالآية تدل علىٰ هذا دلالة واضحة كل من حكم بغير ما أنزل الله ﷻ وما جاء به الرسول ﷺ فهو طاغوت، وهذا الحكم يدخل فيه فض المنازعات، ويدخل فيه الحكم العلمي فيجب أن يكون المرجع هو فلا يحكم غير ذلك، وعلىٰ هذا كل من حكم بغير ما أنزل الله سواءً كان عقلًا أو كان شخصًا من الأشخاص أو نظامًا من وضع البشر فهو طاغوت، ثم قال ابن القيم بعد أن عرَّف الطاغوت بأنه يشمل كل ما تجاوز العبد به حده من معبود أو متبوع أو مطاع: فهذه طواغيت العالم إذا تأملنا فإذا هي قد ملئت الأرض، فهذا يطاع بالمعصية، وهذا يتبع بالمعصية، وهذا يأمر بمعصية الله فيتبع من دون تفكير.

ولكن كما سبق أن الذي يتبع الذين يحللون ويحرمون ويشرعون وما أشبه ذلك يختلفون، فمنهم من يعرف أنهم قالوا غير الحق، فمن عرف أنهم قالوا غير الحق واتبعهم علىٰ ذلك فهو مثلهم، حكمه حكمهم، لأنه عبد الطاغوت، ومنهم من يحسن الظن بهم، ولكنه لا يستطيع أن يميز بين الحق والباطل فيجتهد في طلب الحق، وهذا ليس عليه شيء إذا اتقىٰ الله فيما يستطيعه.

ومنهم من يعرف ولو بعض الحق ولكنه يتعصب لرجل بعينه أو طائفة بعينها فيتبعهم، فهذا ظالم وإن كان مصيبًا، فهو ظالم لأنه اتبع هواه وإن كان مخطئًا فله حكم أمثاله من أهل المعاصي، وقد يكون ذلك كفرًا، إذا علم أنهم قالوا: خلاف حكم الله وحكم رسوله ﷺ وتبعهم علىٰ ذلك.

وقوله: «﴿وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ﴾»: ﴿أُمِرُوٓاْ﴾ هنا تدل على العموم، أن هذا أمر جاءت به الرسل كلها أن يكفروا بالطاغوت وأنه لا يحصل إيمان إلا بالكفر به. فإذا لا بد من معرفة الكفر بالطاغوت الذي يجب علينا أن نمتثله، وقد قال الله ﷻ: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥٦] فبدأ بالكفر بالطاغوت.

والكفر به هو اعتقاد بطلانه، واجتنابه وأن تكون في جانب وهو في جانب بعيدًا عنك ثم بغضه أشد البغض ومحاربته، فلا يصح الكفر إلا بهذا، فأنت تتبرأ منه ومن أهله هذا هو الكفر، ولهذا قال الله ﷻ عن إبراهيم عليه السلام ومن معه من المؤمنين: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ [الممتحنة: ٤]، هذا هو معنى الكفر بالطاغوت، هذا الذي ذكره الله ﷻ عن إبراهيم الخليل عليه السلام. وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ هم الرسل لأن إبراهيم لم يؤمن من قومه إلا رجل واحد وهو لوط عليه السلام: ﴿إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤] فلا بد من هذا الذي جعله الله ﷻ لنا أسوة نتأسى به ونتبعه في الكفر بالطاغوت وهو التبري والبغض والمعاداة الأبدية والمحاربة.

وقوله في هذه الآية: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ يعني: ليس لكم فيه أسوة، هذا لا تتأسوا به، فإنه قاله إبراهيم مجرد وفاء بوعدٍ وعده إياه، ثم بعد ذلك تبرأ منه: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤]، فمعناه أن الإنسان يجب أن يتبرأ من والده إذا كان مخالفًا للحق.

وقوله: «﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ﴾»: الإرادة المقصود بها أفعال الشيطان التي يزينها ويظهرها للناس ويدعوهم إليها فهو يريد أن يصدهم عن متابعة الرسول ﷺ، يعني يريد أن يصدهم عن طاعة الله ﷻ وعن الإيمان بشرعه واتباعه

حتىٰ يكونوا معه في النار، هذا هو المقصود وهذه إرادة الشيطان.

فإرادته بالوسوسة والتزيين، ولكن الله ﷻ جعل له المقدرة علىٰ معرفة ميل النفس فلهذا صار أتباعه كثير، وقد أقسم لربه ﷻ أنه سوف يستحوذ علىٰ بني آدم وإن كان استثنىٰ قليلًا، أنه سوف يحتنكهم يعني يجعلهم تحت طاعته، تحت حنكه يتصرف فيهم، وقال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ [سبأ: ٢٠] يعني: ظنه الذي ظنَّ فيهم صدق فاتبعه أكثرهم، فهذه إرادته التي يريدها وقع كثير منهم، فهم اتبعوه وأطاعوه في هذا وكل من اتبع الشيطان فإنه يلقيه في جهنم ولا بد، وما نجا منها إلا قلة ممن سبقت لهم عند الله الحسنىٰ.

وقوله: «﴿أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَـٰلًا بَعِيدًا﴾»: يعني: بعيدًا عن الحق، بعيدًا عن الهدىٰ الذي هو سبب الرشد والسعادة.

فالآية فيها أربعة أشياء ذكرها الله ﷻ:

الأول: أن التحاكم من إرادة الشيطان فهو يحض عليها ويأمر بها.

الثاني: أنه ضلال.

الثالث: أنه وصف بالبعد، فيكون البعد عن الحق والهدىٰ.

الرابع: أن الله أكده مما يدل علىٰ أن التأكيد بمنزلة التكرار، فيعطي وجوب الاهتمام بذلك والتنبه.

وقوله: «﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾»؛ يعني: إذا طلب منهم أن ائتوا إلىٰ الحكم، حكم ما أنزل الله، وأول واجب الإيمان بالله ﷻ وبما أنزل، فيظهر عند الأمر فعل الذين يكرهون ما أنزله الله ﷻ ويبغضونه وهو أنهم يعرضون عنه، فهم يعتذرون ويبدون المعاذير والتمنع.

قوله: «﴿رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١]»: يصدون هنا لازم؛ لأن مصدره جاء صدودًا، إذ لو كان يصدون بمعنىٰ يردون غيرهم ويمنعون لكان المصدر صدًا؛ لأن هذا مصدر المتعدي، فهذا الصدود يكون في أنفسهم يعني أنفسهم، ومعناه أنهم يعرضون عن قول الرسول ﷺ إذا دعاهم إلىٰ امتثال أمر الله ﷻ، فمن امتنع عن امتثال أمر الله يكون له نصيب من ذلك فمقل ومستكثر.

وقوله ﷻ: «﴿إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [النساء: ٦٢]»: هذه من صفاتهم أنهم إذا أصابتهم المصائب ورمتهم المقادير التي تلجئهم إلىٰ المجيء إلىٰ رسول الله ﷺ أنهم يأتون يحلفون علىٰ خلاف ما تنطوي عليه قلوبهم وخلاف ما فعلوا وهم أصحاب ألسن، وأصحاب كذب وتلفيقات، فيزعمون أن فعلهم للتوفيق وللمداراة ومراعاة المصالح. ولهذا سيأتي أنهم إذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون، وقد ذكر الله ﷻ من صفاتهم أنهم يعجبون الناظر: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ [المنافقون: ٤]؛ يعني: أن لهم هيئات وأبهات ومناظر، ومن صفاتهم البلاغة والفصاحة: ﴿وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: ٤] ولكنهم لا نفع فيهم، بل هم ضرر محض، ولهذا وصفهم بأنهم كالخشب المسندة والخشب المسندة لا خير فيها ولا تنفع، بل هي عبء علىٰ غيرها، وهذه صفة المنافقين، وقد أكثر الله ﷻ لنا من صفاتهم لأن ضررهم بليغ وأمرهم ظاهر الفساد جدًا فهم مع المسلمين، ويعرفون مداخل الضعف فيهم ومكامنها فيرمونهم من داخلهم.

فضررهم أشد من ضرر الكفار الذين ينصبون العدىٰ ظاهرًا وهم مع الكفار دائمًا، غير أنهم يزعمون أنهم عقلاء، وأنهم يتكلمون مع هذا ومع هذا حسب ما تمليه عليهم إراداتهم ونظرياتهم أن هذا مصالح لهم.

قوله: «﴿ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾ [النساء: ٦٢] »: وهذا من الصفات التي تنطبق علىٰ كثير من الناس الذين يصدون عن الوحي وما جاء به الرسول ﷺ ويزعمون أنهم يوفقون بين الأدلة، الأدلة الظنية حسب زعمهم والأدلة البرهانية القطعية التي هي ما يسمونه أدلة عقلية، وهي التي يجب أن تتبع عندهم وهذا كثير في كتبهم وفي أقوالهم، فهم يعتذرون بقولهم ما نريد إلا الإحسان، يعني أن نوفق بين الأدلة، وبين أقوالنا وأقوالكم، وأن هؤلاء مثل ما يسمونه بالعقل المعيشي، فيصبح حتىٰ مع الكافر ومع المؤمن فهو معايش لهؤلاء وهؤلاء إذا ظهر سلطان الكفر يبوحوا بما في أنفسهم، ويفرحوا، وهؤلاء خطرهم شديد علىٰ المسلمين والإسلام، ولهذا لما بيَّن الله ﷻ أصناف الناس بيَّن أنهم ثلاثة أصناف كما في أول سورة البقرة فذكر المؤمنين في ثلاث آيات، ثم ذكر الكافرين في آيتين فقط، ثم المنافقين وذكرهم في ثلاث عشرة آية لأن الناس بحاجة إلىٰ من يُبين حالهم وأوصافهم.

وكذلك جاء ما هو أعظم من هذا وأكثر كما في سورة التوبة أنه بيَّن أحوالهم في أشياء كثيرة، ولهذا سمَّاها بعض العلماء بالفاضحة، فهي فضحت المنافقين.

فالمقصود أن هذا شامل، فكل من خالف كتاب الله وكلام رسوله ﷺ فهو داخل في هذه سواءً كان الخلاف من أجل أمور دنيوية أو من أجل أمور عقائدية أو غير ذلك، والظاهر أن المقصود في هذا أن الإنسان لا يكون مسلمًا حتىٰ يحكم كتاب الله ﷻ ويكون منقادًا لذلك ليس عنده به حرج ولا تضجر من القيام به فضلًا عن الاعتراض والمنازعة، ولهذا قال في آخر الآيات: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، وهل نحن بحاجة إلىٰ أن يقسم ربنا ﷻ هذا القسم العظيم

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ ﴾ ولا يكفي كونهم يحكمونك فقط بل مع التحكيم يجب أن لا يكون في نفوسهم حرج من هذا القضاء وهذا الحكم، والحرج هو ضيق النفس، كأن يقول يا ليته لم يكن كذا وكذا، ليت هذا الحكم خلاف هذا، وهذا ليس في الحكم الذي يحكم فيه في النزاع فقط في جميع ما يأتي به كأن يقول الإنسان مثلًا: ليت الله ما حرم الربا ليته لم يحرم الزنا، ليته كذا وكذا، هذا معناه أنه لم يرض بحكم الله، ولم ينقد له ولم يسلم له، بل يجب عليه أن يرضىٰ به ويغتبط به ويحمد الله عليه، لأن الله هو علام الغيوب، ويعلم ما هي مصالح العباد.

وقوله ﷻ آمرًا لرسوله ﷺ: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾.

ليس معنىٰ الإعراض عنهم تركهم وما هم فيه يعملون ما يريدون، بل الإعراض هنا يدل علىٰ تحقيرهم وإهانتهم، وإلا فقد جاء الأمر بجهادهم وهم كما قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣]، فأمر ﷻ بجهادهم والغلظة عليهم، وكتاب الله ﷻ لا يتضارب ولا يخالف بعضه بعضًا، بل بعضه يصدق بعضًا ويجب أن يوفق بين نصوص كتاب الله ﷻ وكذلك أحاديث رسول الله ﷺ.

فإذًا يكون الأمر بالإعراض عنهم أمر إهانة لهم واحتقار لهم وإلا فإنهم يجاهدون وجهادهم يكون بالقول وبالفعل أيضًا اتباعًا لسُنَّة المصطفىٰ صلوات الله وسلامه عليه.

ثم أخبر الله ﷻ بعد ذلك بأن الحكمة من إرسال الرسل وإنزال الكتب عليهم أن يطاعوا ويتبعوا، وأن هذا الذي أمر الله ﷻ به، وأرسل به الرسل، يتبع ويطاع لأنه بدون طاعة واتباع لا فائدة في الأمر الذي يجيء به الرسول ﷺ فلا بد من طاعته في كل ما يأمر به، واتباعه في ذلك.

وقوله في هذه الآية: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤].

فهذا من العلاج الذي أمر الله ﷻ به لمن وقع في شيء من المخالفة، أنه يسرع الإقلاع عنه، والاستغفار منه والإنابة إلىٰ الله ﷻ والرجوع إليه، وأنه ﷻ يقبل من حصل ذلك منه يقبل توبته ويكون ربه رحيمًا ﷻ. فهي دعوة من الله ﷻ إلىٰ عباده المذنبين بأن يتركوا ما هم فيه وأن يرجعوا إلىٰ رشدهم الذي جاء به الرسول ﷺ ويخبرهم ﷻ أنه يقبل منهم توبتهم وأنه سيرحمهم ويرأف بهم وهو فضل منه ﷻ وكرم.

أما استغفار الرسول ﷺ فهذا في حياته صلوات الله وسلامه عليه، وأما بعد وفاته فلم يأت لا من كتاب الله ولا من سُنَّة رسوله ﷺ ولا من أفعال الصحابة ولا أقوالهم ولا من أفعال التابعين وأقوالهم ما يدل علىٰ أنهم يأتون إلىٰ قبره ويطلبون منه أن يستغفر لهم وإنما تعلق كثيرون من الناس بحكاية لا سند لها عن أعرابي مجهول، وهذا من أعجب الأشياء. إذا كان حديث عن رسول الله ﷺ فيه راوٍ مجهول لا يجوز العمل به فكيف بحكاية يحكيها العتبي وتروىٰ بلا سند معروف، وإن كانت مشهورة ولكن شهرتها لا تدل علىٰ صحتها ولا علىٰ قَبولها، وهي أن العتبي كان في مسجد الرسول ﷺ فجاء أعرابي فقال: يا رسول الله إني سمعت الله يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤] وإني أستغفر الله وأسألك أن تشفع لي، ثم قال الأبيات التي ذكروها، بيتين ذكر أنه قالهما، ثم يقول أنه غلبته عيناه، فرأىٰ رسول الله ﷺ جاءه وقال له: يا عتبي أدرك الأعرابي وأخبره أن الله قد غفر له. كثير من الناس يتعلق بهذه الحكاية المكذوبة التي لا سند لها، ولو كانت صحيحة

السند لا يجوز اتباعها ولا العمل بها، ولا يجوز الاغترار بها، فكيف وهي يظهر عليها الكذب.

فالمقصود أن الأمر بالمجيء إليه، المجيء إليه في حياته لأن المجيء في حياته ﷺ وفي حياته الأخذ عنه والتعلم منه والائتمار بأمره وطاعته، أما بعد وفاته صلوات الله وسلامه عليه فالمجيء إليه هو المجيء إلىٰ سُنَّته وإلىٰ شرعه الذي شرعه وجعله الله باقيًا إلىٰ قيام الساعة. ولا أحد يحول بين من أراد ذلك، فهو ميسور سهل الوصول إليه.

أما قوله: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ ﴾.

الله ﷻ يقسم بنفسه أنه لا يحصل لأحد الإيمان بالله ﷻ إلا إذا كان محكمًا الرسول ﷺ في كل شيء ولا يكفي تحكيمه بل لا بد مع تحكيمه من الرضا بحكمه والتسليم له والتسليم بأن لا يكون فيه منازعة لا في ضميره، ولا في فعله بل ينقاد لذلك ويرضىٰ.

وقوله: ﴿فِيمَا﴾: عام شامل كل ما يحدث بين الناس من خلاف يجب أن يكون الحاكم فيه هو شرع الله ﷻ: ﴿فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾، وفي أنفسهم يعني في ضمائرهم وقلوبهم وإرادتهم، ﴿حَرَجًا﴾ والحرج هو الضيق من الشيء والتضجر منه، أي لا يكون عنده في ذلك ضيق أو تضجر أو تمن خلافه بل لا بد من الرضىٰ به أن يرضا ويسلم، وأكد هذا بالمصدر ﴿تَسْلِيمًا﴾ ليدل علىٰ كمال الانقياد وأنه لا يكون عند الإنسان فيه أي تردد أو أي انزعاج منه بل لا بد أن توافق إرادته هذا ويكون محبًا له كما سيأتي في الحديث.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **وقوله:** ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١].

هذه من صفات المنافقين، فإن الله جل وعلا في أول سورة البقرة ذكر المؤمنين في ثلاث آيات، وذكر الكافرين في آيتين، ثم ذكر المنافقين في ثلاث عشرة آية؛ لأن شرهم عظيم، والناس بحاجة إلى أوصافهم وظهورها حتى يحذروهم، فبدأ ذلك بقوله جل وعلا: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨] إلى آخر الآيات، وفيها: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١١، ١٢]، والمقصود هنا الإصلاح في الأرض، والإفساد قوله: ﴿لَا تُفْسِدُوا﴾ إفساد الأرض بالمعاصي، كل معصية مفسدة، ولهذا في قصة يوسف عليه السلام مع إخوته لما احتال على إمساك أخيه ووضع الصواع في متاعه ففي قولهم: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٧٣] يعني: لا تعصوا رسول الله، ولا تخالفوا شرع الله بالمعاصي والمخالفات.

زعموا أن الشرع ليس فيه مصلحة، ولا يناسب الوضع، ولا يليق بكرم الإنسان وتقدمه، وإنما هذا لزمن مضى، أما في الوقت الحاضر فلا يليق بالإنسان إلا بآرائهم وما يتعارفون عليه من أوضاعهم، وما تمليه عليه ضمائرهم وشياطينهم هو الذي يكون فيه الإصلاح، وهذا هو الذي يزعمون أنه هو الإصلاح والإفساد اتباع الشرع، وهذا عام في كل أحد، سواء كان يعتمد في قرارة نفسه بطلان الشرع وبطلان ما أخبر الله جل وعلا به أو أنه يعتقد أعظم من هذا، أنه لا وجود لله ولا حياة بعد هذه الحياة والإفساد درجات بعضها أعظم من بعض.

والمقصود أن كل معصية هي إفساد في الأرض، وصلاح الأرض لا يكون إلا بالرسل وباتباعهم، فالأرض تصلحها الرسل يرسلهم الله جل وعلا لإصلاح الأرض

لأن إصلاحها بطاعة الله، بل إن الأرض والسماء لا تصلح إلا بطاعة الله ﷻ وإفسادها بالمعاصي.

فقوله: «﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾»: يعني: لا تفسدوا في الأرض بالمعاصي والمخالفات، مخالفاتهم لما جاء عن الله وجاء به الرسول ﷺ ينكرون هذا ويكابرون ويقولون: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ يعني: في أعمالنا فيزعمون أنهم هم المصلحون، وغيرهم سفيه كما قال ﷻ: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ ﴾ [البقرة: ١٣]، ولهذا تسمعهم يسمون أهل التقىٰ وأهل الإيمان يسمونهم المتأخرين، وأنهم لا يفهمون شيئًا، ولا يعرفون ما في الدنيا، فهؤلاء لا يجوز النظر إليهم ويحتقرونهم غاية الاحتقار، ويزدرونهم بالأقوال والأفعال وغيرها كل هذا لأنهم راضون عن أفعالهم، ويرون أن أفعالهم هي الحسنة والجميلة وهي التي تصلح وغيرها لا تصلح فزين لهم سوء أعمالهم، وقد يكون كثيرٌ منهم علىٰ خلاف هذا، ولكنه يكره الحق ويبغضه ويزدري أهله، وهذا إذا نظرت في كل مخالف خالف الحق وإذا هو يدعي هذا.

فالمتكلمون يقولون: نحن نقول بمقتضىٰ الأدلة العقلية والبراهين ويخالفون كتاب الله ﷻ وسُنَّة رسوله ﷺ، والمقلد إذا قلت له مثلًا كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ علىٰ خلاف قولك، وخلاف ما تدعيه، قال: الإمام الذي قلدته أعلم مني ومنك، وأنا أعرف أنه لا يخالف كتاب الله ولا سُنَّة رسوله، فجعل شخصًا معينًا هو الذي يتبعه، والواجب أن يكون الاتباع لقول الله وقول رسوله ﷺ، وقد يدعي أن هذا لا يجوز ثم يرمي الذي يدعو إلىٰ كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ ويعمل به بأنه خارج عن المسلمين، وربما رماه بالكفر، كما هو الواقع في كثير من الأحوال.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **وقوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾** [الأعراف: ٥٦].

فإصلاح الأرض بالرسل الذين أرسلهم الله جل وعلا هم الذين يصلحون الأرض بالطاعة وإفسادها بمخالفتهم، فإذًا مخالفة كتاب الله ومخالفة الرسول ﷺ هو الإفساد وهو ظاهر من الآية كالآية الأولىٰ، يعني أن الشاهد منهما للترجمة ظاهر لأن المعاصي إفساد والمعاصي لا تكون إلا بمخالفة أمر الله وأمر رسوله ﷺ.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **وقول: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾** [المائدة: ٥٠].

لما ذكر اليهود وأنهم ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة: ٤٢] وذكر أنهم إذا تحاكموا إلىٰ النبي ﷺ فله أن يحكم بينهم أو يعرض عنهم، وإذا أعرض عنهم فلا يضرونه شيئًا ثم أمره إذا حكم بينهم أن يحكم بالقسط، ثم قال: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ﴾ [المائدة: ٤٣] ثم بيَّن أنهم ليسوا بمؤمنين من أجل هذا.

ثم بيَّن أنه أنزل التوراة فيها حكمه، وأن النبيين الذين قاموا بالقسط أنهم يحكمون بها ويتبعونها، وأن من لم يحكم بما أنزل الله فهو كافر، ثم بيَّن أن بعضهم يكون فاسقًا ويكون ظالمًا.

ثم أخبر أنه أنزل الإنجيل علىٰ عيسىٰ عليه السلام ثم أخبر أنه أنزل الكتاب علىٰ نبيه ﷺ وجعله مهيمنًا علىٰ الكتب وأمره بالحكم به، ونهاه أن يصده عن ذلك صاد منهم، ثم بعد ذلك قال: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

قوله: «﴿يَبْغُونَ﴾»: يعني: يريدون، كما في الآية الأولىٰ. والجاهلية مأخوذة من الجهل، والجهل خلاف العلم، والعلم الحقيقي لا يكون إلا بالوحي، فهو العلم الشرعي الذي جاء به الرسول ﷺ وهو كتاب الله جل وعلا.

والجاهلية صارت صفة لزمن معين وأناس يتصفون بذلك، يعني صفة في العرف في تعاريف الناس، والزمن الذي كان قبل مبعث الرسول ﷺ، إذ الجهل أغلب، بل هو السائد في الأرض كما في النصوص التي جاءت عن النبي ﷺ فيها قوله ﷺ: «**إن الله نظر إلىٰ أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب**»(١).

وفي صحيح مسلم عن عمرو بن عبسة قال: كنت وأنا في الجاهلية أظن أن الناس علىٰ ضلالة وأنهم ليسوا علىٰ شيء وهم يعبدون الأوثان، فسمعت برجل بمكة يخبر أخبارًا فقعدت علىٰ راحلتي فقدمت عليه، فإذا رسول الله ﷺ مستخفيًا والناس جُرَآءُ عليه -يعني علىٰ رسول الله ﷺ- يعني أنهم يؤذونه ويتسلطون عليه -فتلطفت- لأن الرسول ﷺ كان مختفيًا ومعنىٰ تلطفت بحثت عنه بالخفاء والسر؛ لأنه لو أنه بحث عنه بالعلانية والسؤال لأوذي أو قتل -حتىٰ دخلت عليه، فقلت له: ما أنت؟ قال: **أنا نبي**، فقلت: وما نبي؟- لأنه لا يعرف معناها- قال: **أرسلني الله**، فقلت: وبأي شيء أرسلك؟ قال: **أرسلني بصلة الأرحام وكسر الأوثان وأن يوحد الله لا يشرك به شيء**، قلت له: فمن معك علىٰ هذا؟ قال: **حر وعبد** «قال: ومعه يومئذٍ أبو بكر وبلال ممن آمن به»، فقلت: إني متبعك، قال: **إنك لا تستطيع ذلك يومك هذا ألا ترىٰ حالي وحال الناس؟** -يعني من الشدة ومحاربة الناس له ومعاداته- **ولكن ارجع إلىٰ أهلك فإذا سمعت بي قد ظهرت فأتني**، قال: فذهبت إلىٰ أهلي وقدم رسول الله ﷺ المدينة وكنت في أهلي فجعلت أتخبر الأخبار وأسأل الناس حين قدم المدينة حتىٰ قدم عليَّ نفر من أهل يثرب من أهل المدينة فقلت: ما فعل هذا الرجل الذي قدم المدينة؟ فقالوا: الناس إليه سراع وقد أراد قومه قتله

(١) رواه مسلم رقم (٢٨٦٥).

فلم يستطيعوا ذلك، فقدمت المدينة فدخلت عليه فقلت: يا رسول الله أتعرفني؟ قال: **نعم أنت الذي لقيتني بمكة؟** قال: فقلت: بلىٰ .. الخ[1].

المقصود هنا أن الذي علىٰ الحق رسول الله ﷺ ورجلان معه فقط أبو بكر وبلال، والباقي في جاهلية، فهذه الجاهلية العامة المطلقة التي أطلق عليها بالعرف جاهلية أنها عمَّت الجهل في العقائد وفي الأحكام، وفي كل شئون الناس، جهل خلاف الحق وخلاف العلم، ثم جاء النور والهدىٰ، جاء به رسول الله ﷺ، فأصبحت الجاهلية وصفًا لمن قام به الجهل ولمن فقد نور النبوة فيكون فيه، وهذا الذي يبغيه من لم يرض بما جاء به الرسول ﷺ يبغون ظلمات الجهل التي يزينها الشيطان من الأحكام التي هي خلاف الشرع فهم يتحاكمون ويحكمون بالجاهلية مع أن حكم الله هو الأحسن مع وجوبه فهو أحسن يعني أرفق بالناس وأعدل لأنه من أحكم الحاكمين، العليم بمصالح عباده ﷻ الذي يعلم كل شيء.

قوله: «﴿أَحۡسَنُ﴾»: سبق أن أفعل التفضيل قد يأتي فيما لا مقابل له وهذا منه، فلا يمكن أن يكون حكم الجاهلية مقابلًا بحكم الله ﷻ في شيء من الحسن، بل هو سيء كله.

قوله: «﴿لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾»: يؤمنون ويعلمون أن الله ﷻ هو الحكم العدل، وأن أحكام الناس كلها جَور وظلم إلا ما شاء الله.

أما ما ذكر من أسباب النزول فهي كما قال السلف: الاعتبار بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب، ولكن الأسباب تعين علىٰ فهم المعنىٰ، فسواء كانت الآية نزلت بسبب ترافع المنافق إلىٰ النبي ﷺ يوم كون اليهودي طلبه أن يكون الترافع

---

(١) رواه مسلم رقم (٨٣٢).

إلىٰ النبي ﷺ والمنافق أبىٰ لأنه يعرف أن الترافع إلىٰ الطواغيت هو الذي يمكن أن ينجح فيه لأخذهم الرشا وأكلهم الباطل، وحكمهم بخلاف الحق، واليهودي يعلم أن رسول الله ﷺ حق وأنه لا يحكم إلا بالعدل والهدىٰ، وإن كان لا يتبعه ولكن يعلم هذا يقينًا كما أخبر الله ﷻ أنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، أو كان السبب كون المنافق لم يرض بحكم الرسول ﷺ وكون عمر رضي الله عنه قتله، وهذا الأثر جاء من طرق متعددة، فقد جاء أن الله ﷻ أنزل علىٰ رسوله ﷺ ما يدل علىٰ كفر هذا المنافق والمنافق الذي يظهر الوفاق ويبطن الكفر والمخالفة والعداء.

وقد جاء في صحيح مسلم عن عروة بن الزبير عن عبد الله بن الزبير عن الزبير أنه خاصم رجلًا من الأنصار في شراج الحرة -والشراج هو مجرىٰ السيل- وكان الزبير له نخل في الحرة يصب فيه هذا الشراج ثم بعده نخل لأنصاري، فقال له الأنصاري: سرِّح الماء إلي ولا تحبسه، فقال: حتىٰ أسقي، فترافعا إلىٰ رسول الله ﷺ. فقال له رسول الله ﷺ: «اسقي يا زبير، ثم أرسل الماء إلىٰ جارك». فقال الأنصاري: أن كان ابن عمتك! فغضب رسول الله ﷺ. فقال للزبير: «احبس الماء حتىٰ يصل إلىٰ الجدر». ثم أرسله، وحبسه يكون أكثر من كونه يسقي أولًا.

فأولًا كان الرسول ﷺ أصلح بينهم صلحًا، وجعل النقص علىٰ الزبير حتىٰ يتساويا ويرضىٰ الآخر، ولكن لما لم يرض الأنصاري بحكم رسول الله ﷺ وبصلحه بقول: «**لأن كان ابن عمتك**»، وهذا لا يصدر من مؤمن؛ لأنه اتهام للرسول ﷺ بعد الحكم بالحق والعدل. فقال: «احبس الماء حتىٰ يصل إلىٰ الجدر». يقول الزبير: فأحسب أن هذه الآية نزلت في ذلك: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [النساء: ٦٥] وهذا في صحيح مسلم وهو من أسباب النزول، وأسباب النزول قد تتعدد كما هو معلوم.

ولكن في هذا أن من صفات المنافقين وهي كثيرة الكذب وتبديل الحقائق وكثرة ترديد الباطل والحلف عليه، وبذلك لا يجوز الاغترار بما يزينه المنافقون وإخوانهم الكفرة من الادعاءات الباطلة، وقد يغتر كثير من الناس بما يسمعه وما يقرأه عن هؤلاء الذين يُريدون الفساد في الأرض ويجعلون الفساد صلاحًا، وهذا شأن كل مبطل كما قال فرعون -لعنه الله-: ﴿ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦] فرعون يخاف من موسىٰ أنه يظهر الفساد، وهكذا إخوانه من المنافقين والكفرة هذا شأنهم فهم يتكلمون بالباطل يجعلونه حقًا ويجعلون الحق مكروهًا مبغضًا في كلامهم وأوصافهم فيقلبون الحقائق فلا يجوز الاغترار بما يقولونه وإخوانهم المنافقون مثلهم تمامًا أو أشد ضررًا.

✍ قال المؤلف رحمه الله: عن عبد الله بن عمرو: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتىٰ يكون هواه تبعًا لما جئت به»، قال النووي: حديث صحيح رُوِّيناه في كتاب «الحجة» بإسناد صحيح.

وكذلك شارح الكتاب صححه، ولكن الحافظ ابن رجب في شرحه لهذا الحديث قال: إن تصحيحه بعيد جدًا، وذكر فيه ثلاث علل[1]. وسواءً كان الحديث ضعيفًا أو صحيحًا، فالحديث معناه صحيح دل عليه كتاب الله جل وعلا كقوله جل وعلا: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وكذلك هذه الآية وهي قوله جل وعلا: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ [النساء: ٦٥] وغيرها من الآيات كثير، كلها تدل علىٰ هذا.

---

(١) جامع العلوم والحكم (٢/ ٤١).

قوله: «**لا يؤمن**»: وهل المنفي هنا الإيمان مطلقًا، أو مطلق الإيمان؟ والفرق بين الإيمان المطلق ومطلق الإيمان، أنه إذا كان مطلق الإيمان فمعنىٰ ذلك أنه لا يكون مؤمنًا أصلًا ليس عنده شيء من الإيمان، بل ولا يكون مسلمًا لأنه إذا انتهىٰ الإيمان لا يكون مسلمًا لأن المسلم لا بد أن يكون عنده إيمان يصحح إسلامه.

وإن كان المنفي كما يقول بعض الشراح الإيمان الكامل، وهذا يجب أن يفصل فيه لأنه ما عهد في خطاب الله ﷻ ولا في خطاب الرسول ﷺ أنه ينفي الإيمان أو الشيء الواجب مثل الصلاة أو الزكاة أو الصوم أو الحج أو غيرها من الواجبات لانتفاء أمر مستحب، وإن كان المقصود بالكمال، الكمال الذي هو واجب علىٰ العبد، وبتركه يكون معذبًا إن لم يعف الله ﷻ هذا حق.

إذا الأمر يتردد بين أن يكون المنفي هو الإيمان مطلقًا، أو الإيمان الكامل الذي يجب علىٰ الإنسان، وإذا ترك شيء منه يكون معرضًا للعقاب، فلا بد أن يكون المنفي هنا الأمر المتحتم الواجب الذي إذا انتفىٰ عن الإنسان يكون معاقبًا ومعرضًا لعذاب الله ﷻ، وهذا يقال في جميع ما جاء فيه النفي لشيء واجب علىٰ الإنسان من كلام الله وكلام رسوله ﷺ.

قوله: «**حتىٰ يكون هواه**»: الهوىٰ يطلق ويراد به ما يميل إليه الإنسان ويهواه، والمقصود به المحبة محبته وإرادته، أن يكون يحب طاعة الله، ويحب أمره ولا يبغض ذلك ويكرهه، فإن الله يخبر ﷻ أن الذي يكره ما أنزله الله أنه معذب بل هو من الكافرين الذين يتسخطون ويكرهون ويبغضون شرع الله ﷻ.

فمعنىٰ هذا أن الإنسان لا يحصل له الإيمان حتىٰ يكون محبًا لطاعة الله مريدًا لها، وهذا يكون عامًا في أمر الله ﷻ، وفي الأشخاص، والمتبوعين وغيرهم يكون الحب تبعًا لأمر الله ﷻ وشرعه، فلا يحب الإنسان إلا لأن الله يحبه أو لأنه يقوم

بطاعة الله ﷻ فيكون الحب لله وكذلك الكراهية، يكره الشخص أو الأمر لأنه خلاف أمر الله أو أن هذا يعصي الله ﷻ، فيكون الدين كله لله الطاعة والحب والكراهة، وكذلك الموالاة والمعاداة تكون تبعًا لذلك.

فلا بد أن يكون راضيًا بحكم الله ويكون خاليًا من الاعتراض والمنازعات لما حكم الله ﷻ به، فيكون راضيًا ومغتبطًا به، ويكون من يخالف ذلك مبغضًا لديه ومكروهًا له. هذا هو الهوىٰ الذي ينبغي أن يهواه، وليس الهوىٰ الشهوات ميل الإنسان في طبعه إلىٰ ما يشتهيه في أمور قد تكون مخالفة للحق، وكذلك ليس الهوىٰ كما يقول أهل التأويل أنه النظر العقلي ينظر بعقله، ويقدم الحق علىٰ الباطل لأنه يعلم بعقله أنه يترتب علىٰ عدم تقديم الحق علىٰ الباطل عذاب إما في الدنيا أو في الآخرة، وهذا باطل لا يجوز أن معنىٰ الحديث هذا.

✍ **قال المؤلف رحمه الله: وقال الشعبي: كان بين رجل من المنافقين ورجل من اليهود خصومة، فقال اليهودي: نتحاكم إلىٰ محمد، عرف أنه لا يأخذ الرشوة. وقال المنافق: نتحاكم إلىٰ اليهود لعلمه أنهم يأخذون الرشوة. فاتفقا أن يأتيا كاهنًا في جهينة فيتحاكما إليه. فنزلت: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ الآية** [النساء: ٦٠][(١)].

وقيل: نزلت في رجلين اختصما، فقال أحدهما: نترافع إلىٰ النبي ﷺ، وقال الآخر: إلىٰ كعب بن الأشرف، ثم ترافعا إلىٰ عمر بن الخطاب، فذكر له أحدهما القصة، فقال للذي لم يرض برسول الله ﷺ: أكذلك؟ قال: نعم، فضربه بالسيف فقتله[(٢)].

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٨/ ٥٠٨). وقال ابن حجر في فتح الباري (٥/ ٣٧): فروىٰ إسحاق بن راهويه في تفسيره بإسناد صحيح عن الشعبي.

(٢) الثعلبي في تفسيره (٣/ ٤٥٦). قال ابن حجر في فتح الباري (٥/ ٣٧): وقد روىٰ الكلبي في تفسيره =

وكذلك ما ذكره المؤلف بصيغة التمريض بقوله: «وقيل»، هذا من أسباب النزول وأسباب النزول تعين على فهم المعنى، ولكن لا يقصر معنى الآية عليه هو مما يعين على الفهم، وإلا فهي عامة في كل من خالف التنزيل الذي جاء به الرسول ﷺ في التحاكم إليه.

والتحاكم في الأمور التي بين الناس خصومات واختلافات في أموال وغيرها هذا يجب أن يكون الذي يفض الخلاف هو الشرع، بواسطة الحاكم الشرعي الذي يعينه الإمام يجعله نائبًا عنه؛ لأن الأصل فيه أن الإمام هو الذي يفض هذه الأمور، وأبو بكر رضي الله عنه عين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قاضيًا، ولكنه مرَّت عليه سنة لم يجلس عنده أحد، ثم عمر عين قاضيًا فكانوا لا يحتاجون إليه لأنهم إذا صار فيه خلاف بينهم حلوه بأنفسهم إما أن يتنازل الإنسان عن ما يرى أنه له حق، أو يتنازل عن بعضه لأن أخوة الإيمان كانت متأصلة عندهم، وكذلك إذا حصل الخلاف في مسائل العلم الذي يقضي على الخلاف بين المتخالفين هو الشرع، ولهذا جعل الله تحكيم الشرع شرطًا في الإيمان كما قال الله جل وعلا: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥]، وكذلك قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النساء: ٥٩].

فقوله: «﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾»: هذا شرط بأنه إذا حصل النزاع والاختلاف أنه لا بد من رده إلى الكتاب والسُّنَّة، فرده إلى الله يعني إلى كتاب الله، وإلى رسوله يعني سُنَّته.

= عن أبي صالح عن ابن عباس. ثم قال: وهذا الإسناد وإن كان ضعيفًا لكن تقوى بطريق مجاهد ولا يضره الاختلاف لإمكان التعدد.

ثم لا يكفي رده في حصول الإيمان، لا بد أن يرضىٰ الإنسان بهذا ثم يسلِّم، والتسليم معناه عدم المنازعة، والمنازعة قد تكون باللسان وقد تكون بالقلب ينازع القلب بكونه لا يرضىٰ بهذا، فهذا كله إذا حصل للإنسان فمعنىٰ ذلك أن إيمانه غير الإيمان الواجب الذي ينجو به.

ومعلوم أن تحاكم الناس في هذا الوقت صار إلىٰ الأوضاع التي يضعونها بينهم، مثل القوانين الوضعية التي يخترعها الإنسان، ومن نصب نفسه حاكمًا في هذا أو جعل نفسه يضع قانونًا للناس يتحاكمون إليه فقد نازع رب العالمين ﷻ في ربوبيته وفي ملكه وفي قهره لعباده فيكون من رؤساء الطواغيت الكبار الذين ينازعون الله ﷻ، وكذلك الذي يحكم بهذا القانون يصبح حاكمًا يحكم بين الناس فيه، فإنه يكون في الواقع منازعًا لرب العالمين بحكمه.

والمقصود أن التحاكم لكتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ شرط لحصول الإيمان، ثم التحاكم في كل شيء يصير فيه نزاع سواءً من مسائل العلم مثل مسائل الصفات ومسائل الفقه وغيرها أو في الأمور المالية أو في الأمور التي تكون من أمور الدنيا، فلا بد أن يكون الذي يفض النزاع ويقضي فيه هو الوحي الذي أوحاه الله ﷻ إلىٰ رسوله ﷺ، ومعلوم أن حوادث الناس لا تنتهي، يعني الأمور التي تجد عندهم المخاصمات وغيرها كثيرة جدًا ولا يمكن أن يقال أن كل حادثة تحدث للناس منصوص عليها في كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، ولكن إذا أرجعت إليه تبين الحكم منها لأن كلام الله ﷻ جوامع، وكذلك كلام رسول الله ﷺ، ولهذا قال: «**أوتيت جوامع الكلم**»[1]، يعني: أنه يتكلم الكلمة المختصرة قليلة الحروف ولكن تحتها

(١) سبق تخريجه.

من الأحكام ما لا حصر له، ولهذا قال: «**البينة على المدعي، واليمين على من أنكر**»[١]، هذه قاعدة من قواعد القضاء تحتها أحكام كثيرة جدًا، كذاك قوله: «**لا ضرر ولا ضرار**»[٢]، وما أشبه ذلك من كلامه ﷺ الذي يُحتاج إليه في فض النزاع بين الناس.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **فيه مسائل:**

❁ **الأولى: تفسير آية النساء وما فيها من الإعانة على فهم الطاغوت.**

فهم الطاغوت؛ لأنه أمر مهم، لأن معرفته والكفر به ركن من أركان الإيمان بالله، إذا لم يعرفه الإنسان لا يعرف التوحيد، فهو أمر مهم جدًا فلا بد من معرفته. وقد عرفنا أن الطاغوت كل ما صد عن دين الله وشرعه سواءً بالفعل والقول أو كان لا فعل له ولا قول وإنما نصب من الناس، نصبوه ووضعوه، ومن ذلك التحاكم إلى غير شرع الله جل وعلا، فإنه إذا جعل شرعًا أو قانونًا قائمًا يتحاكم إليه فإن هذا القانون يكون طاغوتًا. والتحاكم إليه كفر بالله جل وعلا.

ولا يجوز أن تكون الدنيا تحمل الإنسان على ذلك، ومن الأمور التي لا ينبغي أن يحصل من المسلم ما يحدث كثيرًا من الناس يقال له نذهب إلى الشرع فيقول: لا ما أذهب، هذا لا يجوز لأنه يطلب منك أن يحاكمك عند شرع الله، هذا يجب أن تقول: سمعًا وطاعة إذا كان الحكم لشرع الله ولا يأبى الإنسان، فإن أبى فهذا دليل إما على جهله أو على عدم إيمانه، ولا بد أن يكون الجهل قادحًا في الإيمان ضارًا

---

(١) أخرجه البيهقي رقم (١٦٨٨٢)، والدارقطني رقم (٩٩) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

(٢) أخرجه أحمد في المسند رقم (٢٨٦٥) من حديث عبادة بن الصامت، وابن ماجه رقم (٢٣٤١) من حديث ابن عباس.

به، أما أن يكون الإنسان همه الدنيا والحصول عليها بأي طريق وإذا كان هناك أمور يمكن أن تقدح في دنياه وتنقصها وإن كانت أمورًا شرعيةً فإنه لا يرضاها، وهذا معناه إما أنه ناقص الإيمان، الإيمان الواجب، أو أنه غير مؤمن أصلًا.

❁ **الثانية: تفسير آية البقرة:** ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾.

يعني: أن المعصية إفساد في الأرض وهذه في المنافقين، ومعنى أنهم يصلحون أنهم يجمعون بين الحق والباطل، وهذا معناه عندهم يعني يجمع بين كونه يتولى الكافرين ويكون مع المؤمنين، فيعايش هؤلاء وهؤلاء هذا عندهم إصلاح وهو غاية الفساد لأنه إفساد لدين الله ﷻ، ولهذا لما ذكر الله في آخر سورة الأنفال كون المؤمن يوالي المؤمن يكون وليًا له، ذكر أن الكافرين بعضهم أولياء بعض ثم قال: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣] يعني: إن لم تفعلوا هذا يعني تمتثلوه، وأنتم إن لم تعادوا الكفار تحصل فتنة وفساد كبير عظيم، فساد الدين وفساد الأرض كلها. وهؤلاء تصوروا الفساد إصلاحًا لأنهم في الواقع منكوسي التفكير ومنكوسي العقول عقولهم منكوسة، ولهذا تجدهم يسخرون من المؤمنين ويرون أنهم سخفاء العقول وسخفاء الأفكار وأنهم ليس عندهم وزن للواقع ولا عندهم تفكير ولا تقدير للدنيا وهم دائمًا يزدرونهم ويحتقرونهم لأن عقولهم منكوسة في الواقع فصار الباطل حقًا والحق باطلًا عندهم وهذه هي عقيدة النفاق.

❁ **الثالثة: تفسير قوله:** ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾.

الجاهلية هي كل ما هو خلاف الشرع فهو جاهلية سواءً كانت قديمة أو حديثة، وقد تكون الجاهلية الحديثة أخبث من الجاهلية القديمة كما هو الواقع الآن لمن شاهد ونظر.

۞ **الرابعة:** تفسير الإيمان الصادق والكاذب.

يعني: أخذًا من الحديث أن الإيمان الصادق إذا كان يرضىٰ بحكم الله ويغتبط به، وإذا كان عنده تضجر من ذلك وضيق في نفسه فإيمانه كاذب فمعنىٰ ذلك أنه يطلق علىٰ الفعل صدق ويطلق عليه الكذب.

۞ **الخامسة: كون الإيمان لا يحصل لأحد حتى يكون هواه تبعًا لما جاء به الرسول ﷺ.**

وهذا نفي للإيمان المعهود الذي جاء به الرسول ﷺ، والإيمان الذي جاء به الرسول ﷺ جاء متواترًا، ولا يحتاج أننا نستشهد عليه ببيت شعر أو كلمة من اللغة أو قول رجل من الناس أو ما أشبه ذلك، لأنه نقل إلينا نقلًا متواترًا بالفعل، بل أعظم تواتر.

الباب الأربعون

✍ **قال المؤلف** رحمه الله **: باب من جحد شيئًا من الأسماء والصفات.**

لما كان هذا الكتاب في توحيد العبادة، أراد المؤلف رحمه الله أن لا يُخليه من ذكر حكم الأسماء والصفات، فذكر هذا الباب ليبين أن الإيمان بالله يدخل فيه الإيمان بأسمائه وصفاته وأنه لا بد منه، ومن لم يفعل ذلك فليس بمؤمن.

وقد سبق أن التوحيد أقسام ثلاثة: توحيد الربوبية والألوهية، والأسماء، والصفات.

وهذا التقسيم أُخذ بالاستقراء من كتاب الله، وكذلك من سُنَّة رسوله ﷺ، وهو أمر واضح من الأدلة؛ لأن الله ﷻ يقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٢-٥]، ويقول ﷻ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١-٣] في آيات كثيرة، ومعلوم أن كتاب الله ﷻ لا يمكن أن نقول أنه مكرر، معناه واحد.

وفي اللغة العربية التفرقة معروفة بين معنى الله ومعنى الرب، وكذلك معنى كونه يملك ويتصرف ويأمر وينهى غير معنى كونك أنت تمتثل للأمر والنهي، وتخضع لذلك وتذل له، فالمعاني واضحة في ذلك، ولكن كثيرًا من الناس الذين لا يفهمون هذه المعاني، بل لا يعتنون بها ولا يلقون لها بالًا، وإلا لو اعتنوا بها لفهموها، ينكرون هذا التقسيم ويقولون هذا مبتدع؛ لأنه ليس في كتاب الله ولا في حديث الرسول ﷺ ولم يأت عن الصحابة، يعني أن الله ما نص عليه، ما قال أن التوحيد ثلاثة أقسام هذا مقصودهم، وكذلك الرسول ﷺ والصحابة.

فيقال لهؤلاء: إن هذا القول منكر؛ لأن الله ﷻ أمرنا أن نتدبر كلامه وأن نعمل به وأن نفهمه، وهذا فهمه، ومن الأمور الواضحة الجلية أن الكفار الذين قص الله علينا قصصهم مع رسلهم، من نوح إلىٰ آخرهم ما ذكر الله ﷻ أن أحدًا منهم ينكر وجود الله، كلهم يؤمنون أن الله هو الخالق المدبر، الذي يخلقهم إنما كانوا يعبدون معه غيره، هذا هو الخلاف بينهم وبين الرسل، الرسل تقول لهم أخلصوا العبادة لله وحده وهم يقولون وجدنا آباءنا هكذا يفعلون ولا نترك ما وجدنا عليه آباءنا.

ولهذا أخبر الله ﷻ في آيات عدة عن قولهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، ويقول: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩]، ويقول: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ [الزمر: ٣٨].

الرسول ﷺ سألهم هذه الأسئلة، فلم يجيبوا بشيء لأنهم يعرفون أنهم علىٰ خطأ؛ لأن الله يقول: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم﴾؛ يعني: أخبروني معبوداتكم هذه إذا أرادني الله ﷻ بضر فهل يمكن أن تكشف الضر أو تزيله، لا يمكن.

﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ﴾ هل يمكن أن تمنعه وتحول بينها وبيني، فلما علموا أن هذا باطل سكتوا.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦] إيمانهم كما قال مجاهد(١): إذا سألتهم من خلقهم؟ قالوا: الله. هذا إيمانهم وإذا سألتهم من أنزل من السماء ماء؟ قالوا: الله، ولئن سألتهم من يحيي ويميت؟ قالوا: الله، ولئن سألتهم من بيده ملكوت السماوات والأرض؟ يقولون: الله، كما جاءت الأسئلة في القرآن،

(١) تفسير الطبري (١٦/ ٢٨٧) قال ﵀: إيمانهم قولهم: الله خالقُنا، ويرزقنا ويميتنا.

يسألهم الله ﷻ عن ذلك، مع ذلك إذا جاءت العبادة التي هي توحيد الأفعال، توحيد أفعال العباد التي مبناها على الأمر والنهي، يشركون فيها، وشركهم أن يجعلوا مخلوقين بينهم وبين ربهم يطلبون منهم أن يشفعوا لهم عند الله، كما قال الله عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

هذه الأمور يجب أن يفهمها المسلمون، واليوم هم بأمس الحاجة إلى فهمها؛ لأنك تجد في بلاد كثيرة من بلاد المسلمين، الذين يقصدون القبور ويتعلقون بها ويقدمون لها القرابين والنذور ويدعونها في الكربات والرخاء، وفي غير ذلك، يدعون أصحابها ويزعمون أن هذا توسل، وأن التوسل جائز مع أن هذا في الواقع هو عين الشرك الأكبر، وهم يقولون لا إله إلا الله ويصلون، وإذا قلت لهم هذا قالوا: لا نحن مسلمون أنت تذكر لنا الآيات التي نزلت في الكفار، فلا تنزلنا منزلة المشركين، والسبب في هذا الجهل جهلهم بالمعاني التي كلفوا بفهمها وبمعرفتها، وهي معنى لا إله إلا الله معنى الإله ومعنى العبادة، ومعنى ما جاء به الرسول ﷺ من وجوب الإخلاص لله ﷻ، فهذا الكتاب لهذه المعاني، ولهذا لما ذكر المؤلف ؒ الباب الخامس قال: باب تفسير شهادة أن لا إله إلا الله، وذكر التفسير من كتاب الله ﷻ ومن أحاديث الرسول ﷺ، ثم قال بعد ذلك وشرح هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب يعني إلى آخر الكتاب كله شرح لهذا، فهو كله مبني على شهادة أن لا إله إلا الله.

وأما الباب الذي قبل هذا فهو أراد أن يبين معنى شهادة أن محمدًا رسول الله لأنها مع شهادة لا إله إلا الله شيء واحد، ولهذا جعلها الرسول ﷺ ركنًا واحدًا من أركان الإسلام، وذكر هذا الباب ليضيف القسم الثالث من أقسام التوحيد وكلها مترابطة لا يمكن أن ينفك واحد عن الثاني، بحيث أن الإنسان إذا جاء باثنين ولم يأت بالثالث فهو هالك ولا يكون مسلمًا أصلًا فلا بد أن يأتي بها كلها.

وقد حصل الخلل الكبير في الإيمان بالأسماء والصفات، حتىٰ من بعض العلماء وصارت الخصومات والنزاع العظيم الذي ربما يكون سببه اليهود والمجوس الذين حسدوا المسلمين علىٰ دينهم وعقيدتهم، فأوجدوا فيهم المؤسسات السرية التي تبث الفساد في عقيدتهم وتنخر فيها فبدؤوا في صميم العقيدة التي هي العقيدة في الله في أسمائه وصفاته.

وأسانيدهم معروفة، مرجعها إلىٰ اليهود، وهم أهل كل فساد، وكل ما يحدث في الأمة من الخلل في دينها وأخلاقها هم أصله.

قول المؤلف في الترجمة: «**من جحد شيئًا من الأسماء والصفات**».

لم يذكر الحكم لم يقل فهو كافر أو أنه هالك، وهذا لأجل أن يكون طالب العلم يستنتج بنفسه ويتدرب علىٰ الاستنتاج والاستخراج بنفسه من الآيات ومن الأحاديث التي يذكرها.

قوله: «**جحد**»: الجحود هو إنكاره أن يكون موجودًا.

وقوله: «شيئًا»: يدلنا علىٰ أنه لو جحد اسمًا واحدًا كفىٰ في كونه كافرًا أو صفة واحدة، ولا يلزم من أن يكون الجحود أنه لا يعتقد وجوده يكفي أن ينكر ذلك بلسانه.

ولهذا قال المؤلف رحمه الله: **وقول الله تعالىٰ:** ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد: ٣٠].

ذكر السبب في آخر الباب، سبب النزول، والأسماء والصفات كلها يجب أن يكونا مأخوذين بدليل من كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ لأن التسمية من الله، وكذلك الوصف من الله ليس من المخلوقين، الخلق لا يسمون الله، ولا يصفون الله، وإنما يذكرونه ويدعونه بأسمائه ويعبدونه بها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

قوله: «﴿فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾»؛ يعني: اعبدوه بها، فالدعاء من أفضل العبادة.

والأصل في هذا الصفات، والأسماء مشتقة منها يجب أن يُعلم هذا، وليس كما يقوله أنصاف المتعلمين يقعون في خطأ عظيم في مثل هذا ويعكسون القضية يقولون: الأصل الأسماء والصفات مأخوذة منها، هذا يقوله من لا يفهم لأن الأسماء، أسماء الله ﷻ ليست مجرد أعلام كأسماء المخلوقين، فمثلًا عندنا: عبد الله، وعبد الرحمن، وعبد الكريم، وعبد الجبار، وما أشبه ذلك، هذه أعلام تميز أحدهم عن الآخر، وإنما وضعت عليهم هذه الأسماء ليتميزوا فقط، فمُيز هذا عن هذا.

أما مسألة العبودية فكلهم عبيد، ما فيه فرق بين هذا وهذا كلهم عبيد لله ﷻ.

خلافًا لأسماء الله ﷻ لا يمكن أن تكون مجرد أعلام كما تقوله الضلال من الجهمية والمعتزلة، الذين يجعلونها مجرد أسماء ويبادرون إلىٰ نفي المعاني، فيقولون مثلًا: عزيز بلا عزة، عليم بلا علم، رحمن بلا رحمة، وهكذا، وهذا من الكفر بل هو نفس كفر هؤلاء الكفار لأنهم نفوا المعنىٰ الذي أُخذ منه الاسم.

فالمقصود: أنه إذا قلنا: الله فهو من التأله، أصله إله حصل فيه الإبدال كما هو معروف.

وكذلك الرحمن أُخذ من الرحمة، وكذلك العزيز أُخذ من العزة، وهكذا العليم من العلم، فلهذا لا يمكن اسم بلا صفة أبدًا لأن الصفة هي أصله والاسم مشتق منها.

وهذا هو معنىٰ الاشتقاق الذي يقوله العلماء، وليس معنىٰ الاشتقاق أنها أُخذت من أصل مثل الكلمات اللغوية، أن أصلها كذا ثم صار هذا فرع عليها.

ومعنى الصفة: الوصف هو النعت كونك تنعته بكذا وكذا، ولا يمكن أن أحدًا من الناس يسمىٰ الله ﷻ أو يصفه من اختراعه ومن فكره وعقله، ولهذا من القواعد في هذا:

قول أهل السُّنَّة والجماعة أن أسماء الله وصفاته توقيفية يعني يوقف مع النص.

وهذا التوحيد يدخل فيه الشرك (يعني توحيد الأسماء والصفات) وفيه شرك كبير وكثير في الواقع.

ففيه التنديد، فالناس ما بين مشبه وما بين معطل، كلاهما مشرك في أسماء الله وصفاته.

أما الوسط الذي تبع كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ فلا بد أن يضيف إلىٰ هذا التوحيد توحيد العبادة فيكون موحدًا لله ﷻ.

وتقديمه الأسماء علىٰ الصفات قد يشعر أن الأسماء هي الأصل وليس كذلك؛ لأن الأصل هي الصفات.

والصفة: هي المعنىٰ القائم بذات الرب ﷻ، والاسم هو الذي تتميز به الذات وتعرف به، وهذا هو الفرق بين الأسماء والصفات، فالأسماء هي التي تدل علىٰ المسمىٰ والصفة هي المعنىٰ القائم بالموصوف وهذا من أظهر الفروق.

ثم الأصل الصفات والأسماء مأخوذة منها، وهذا هو معنىٰ قول أهل السُّنَّة وأسماء الله مشتقة، يعني أنها مأخوذة من الصفات، وأسماء الله ﷻ غير محددة في تسعةٍ وتسعين اسمًا كما جاء في الصحيحين: «**إن لله تسعة وتسعين اسمًا مائة إلا واحدًا من أحصاها دخل الجنة**»[1].

فالمراد بذكر التسعة والتسعين هذا الحكم؛ يعني: أن من أحصىٰ هذه الأسماء التسع والتسعين دخل الجنة، وليس المراد حصر أسماء الله، فإن أسماء الله لا حصر لها، ولكن الشيء الذي يخبرنا به نتوقف عليه، والدليل علىٰ هذا الحديث الذي في

(١) رواه البخاري رقم (٢٧٣٦)، ومسلم رقم (٢٦٧٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

المسند وغيره أن النبي ﷺ قال: «**ما أصاب عبدًا قط هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصيتي بيدك ماض فيَّ حكمك عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي، إلا أذهب الله همه وحزنه وأبدله مكانه فرحًا قال: فقيل: يا رسول الله ألا نتعلمها فقال: بلىٰ ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها**»(١).

فجعل الأسماء أقسامًا ثلاثة: قسم أنزله في كتابه، والمقصود بالكتاب هو جنس الكتاب يعني كتبه التي أنزلها من السماء.

وقسم علمه من يشاء من عباده، ولم ينزله في الكتاب، والمقصود بالعباد أولياؤه وأقر بأنه من المرسلين، والأنبياء، ومن كان له ولاية، كما وقع للذي عنده علم من الكتاب الذي عند سليمان عليه السلام فإنه دعا الله باسمه الأعظم، فجاء الله بالعرش في لحظة، عرش بلقيس.

وقسم استأثر به في علم الغيب عنده، لم ينزله في كتاب ولم يعلمه أحدًا من خلقه.

فدل هذا علىٰ أن أسماء الله لا تنحصر، وكذلك في حديث الشفاعة: «**فأثني علىٰ ربي بثناء وتحميد يعلمنيه**»(٢)، والمحامد والثناء تكون بأسمائه وصفاته تعالىٰ وتقدس، فهذا دليل علىٰ أنه لم ينزله في الكتاب ولم يعلمه النبي ﷺ وإنما يعلمه إياه في ذلك الموقف.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم (٣٧١٢).

(٢) رواه البخاري رقم (٧٤٤٠)، ومسلم رقم (١٩٣) من حديث أنس رضي الله عنه.

وقوله: «﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِ﴾»: هذه الآية في سورة الرعد، وسورة الرعد مكية، وذكر في التفسير أنها نزلت في صلح الحديبية، لما حصل الصلح بين الرسول ﷺ وبين كفار قريش بأنه يرجع تلك السنة ومن القابل يأتي ويعتمر ويبقىٰ ثلاثة أيام في مكة ولا يدخل مكة إلا بسلاح الراكب ... الخ الشروط التي شرطوها، فقيل ذلك لرسول الله ﷺ وأمر علي بن أبي طالب أن يكتب فقال له: اكتب «**بسم الله الرحمن الرحيم**»، وكان الذي يفاوض معه من قبل المشركين سُهيل بن عمرو، فقال: لا تكتب «بسم الله الرحمن الرحيم» ما نعرف الرحمن، إلا رحمن اليمامة، ورحمان اليمامة هو مسيلمة الكذاب سمىٰ نفسه رحمن وهو شيطان في الواقع، ولكن هكذا يكون في الإنس شياطين أخبث من شياطين الجن. قال: اكتب كما كنا نكتب «بسمك اللهم»، فقال ﷺ لعلي: اكتب كما يقول: «بسمك اللهم»، ثم قال: **هذا ما صالح عليه محمد رسول الله كفار قريش.** قال: لا تكتب إذا كنت رسول فكذبناك لكنا ظالمين، وهم يعرفون أنه رسول الله حقًا ولكن عناد وكبر.

فالمقصود قوله تعالىٰ: ﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ ليس معناه أنهم يكفرون بالله، ولكن معناه أنهم ينكرون هذا الاسم الذي هو الرحمن وإلا هم يؤمنون بالله ﷻ، وبهذا يكون دليلًا علىٰ أن من أنكر اسمًا من أسماء الله أو صفة من صفاته سبحانه يكون كافرًا كما هو نص الآية.

أما الذهاب إلىٰ التأويلات فهو خلاف الظاهر، وإذا كان الإنسان يسلك خلاف الظاهر فهو علىٰ خطر كبير، إما مخالفة الأمر أو وقوعًا في الكذب علىٰ الله في القول علىٰ الله أو علىٰ رسوله ﷺ بلا علم.

بخلاف الذي يتمسك بظاهر النص فإنه يكون معه الحجة ومعه الدليل ويكون مطمئنًا بذلك.

والمقصود في هذا أن كثيرًا من الناس يقول أن هذا كفر دون كفر، أو يقول أن هذا كفره بالقول وليس بالعمل، ويأتون بأقوال باطلة ما دل عليها النص، وإنما هي من اختراعهم حتىٰ تتفق مع المذهب الذي يقررونه ويريدون أن يكون هو الذي يتفق مع النصوص، فيسخرون النصوص حتىٰ تتفق مع المذهب، والواجب العكس.

في آخر الباب يقول: ولما سمعت قريش رسول الله ﷺ يذكر الرحمن أنكروا، ذلك فأنزل الله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ الأسباب التي ذكرت في التفسير تدل علىٰ أن هذا غير ما كان في صلح الحديبية وأن الرسول ﷺ كان يصلي في الحجر ويقول: «**يا الله يا رحمن**» فسمعه أبو جهل وقال: محمد يدعو إلىٰ عبادة إله واحد، وهو يدعو إلهين يقول: يا الله، يا رحمن، فنزلت هذه الآية: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾، وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ﴾ [الإسراء: ١١٠] فيسمع الكفار ما يقول ثم يستهزئون به ويسخرون منه فالمعنىٰ واحد، والآية معروف أنها مكية فيكون الأخير أقرب للصواب.

وذكر الرحمن موجود في أشعارهم وفي أشعار العرب، فإذا معناه ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾طائفة منهم أو بعضهم، وقد عُلم من كتاب الله ﷻ أنه يطلق الشيء إذا قاله واحد من الجماعة، يطلقه عليهم لأنهم يكونون راضون بذلك، والراضي كالفاعل، كما قال سبحانه: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤] الذي قال هذا رجل ولكنهم راضون بهذا، وقال سبحانه: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١] أيضًا هذا الذي قاله رجل واحد منهم ولكنهم راضون بهذا فنسب القول إليهم فهذا مثله لأنهم رضوا بهذا، سمعوه وسكتوا عليه، فيكون طائفة منهم.

وتسمية الخبيث مسيلمة نفسه الرحمن هذا تعديًا منه وخروجًا عن وضع الإنسان تعديًا علىٰ الله ﷻ، وإلا فلا يوجد أحد من الخلق تسمىٰ بهذا الاسم سوىٰ

هذا الخبيث الذي علم أنه تسمىٰ بذلك.

بخلاف الوصف فإن الوصف يوصف به الإنسان ولكن يكون وصفه يليق به كما قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، فسماه رؤوفًا ورحيمًا، والله ﷻ يُسمّىٰ رؤوفًا رحيمًا فهذا وصف، فهو يطلق علىٰ هذا وهذا ويكون إذا أطلق علىٰ المخلوق فهو يليق به ويناسبه والله لا يشاركه في هذا الوصف، وإذا أطلق علىٰ الرب ﷻ فهو علىٰ ما يليق به ويناسبه، والمخلوق لا يشاركه في ذلك، وهذا يجب أن يفهم، ولا يكون فيه إشكال وإن كان هذا الإشكال حدث للجهمية والمعتزلة فبنوا عليه نفي الصفات حتىٰ لا يكونوا مشبهين، بل عندهم أن إثبات الصفات من الشرك لأنهم يقولون أنك أثبت مع الله غيره.

والعاقل لا يقول أن الصفات غير الله، يعني صفات الله غير الله، ولكنه الضلال إذا وقع فيه الإنسان فإنه لا حيلة فيه.

فعلىٰ هذا نقول: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾؛ يعني: وهم يجحدون هذا الاسم، وليس المعنىٰ أنهم يكفرون بالله ﷻ، فإن الآيات الكثيرة تدل علىٰ أنهم يؤمنون بالله ﷻ فهم جحدوا هذا الاسم فصار دليلًا واضحًا في أن من جحد اسمًا من أسماء الله أو صفة من صفاته أنه داخل في هذه الآية.

فالمقصود بهذا: أنهم يكفرون بهذا الاسم يعني يجحدونه وهو الرحمن، وليس المعنىٰ أنهم يكفرون بالله، فإنهم يؤمنون بالله، فإذا سئلوا من خلقهم قالوا: الله. وأسئلتهم كثيرة جاءت في القرآن كقوله: ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [المؤمنون: ٨٨]، وسألهم من نزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات ما يأكلون وترعاه أنعامهم، فأقروا بأنه الله، بل كانوا إذا وقع أحدهم في ضائقة يتجه إلىٰ الله

يدعوه ويترك الأوثان والأصنام التي كان يعبدها، وقد جعل الله ذلك حجة عليهم، وقال: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: ٦٢] كل هذا يؤمنون به، يقرون بأنه الله ﷻ، فتعين بهذا أن المراد بقوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾؛ يعني: بهذا الاسم، والكفر المقصود به الجحود، إما إنه على سبيل الاستكبار والغطرسة أو على سبيل الجهل، جهلوا ذلك فأنكروه والإنسان إذا جهل شيئًا عاداه كما هو معلوم.

✍ **قال المؤلف رحمه الله: وفي «صحيح البخاري»: قال علي: حدِّثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله**(١).

والظاهر أنه جعله موقوفًا، قال في صحيح البخاري «قال علي»، وهذه طريقة البخاري في الموقوفات المعلقة التي يعلقها بدون إسناد، وقد رواه بإسناد متصل، ولكنه في موضع علقه، وفي موضع أسنده، وهذا معروف عند البخاري.

قوله: «قال علي: حدثوا الناس بما يعرفون».

لأن الإنسان إذا حدث بما لا يحتمله عقله فإنه ينكره، وربما يكون حقًا فيقع في الكفر.

فالمقصود: «حدثوا الناس بما يعرفونه» يعني: حدثوهم بما تتحمله عقولهم، ولا تحدثوهم بشيء لا تتحمله عقولهم فيكذبون به وهو حق فيدخلون في التكذيب ولهذا قال: **«أتريدون أن يكذب الله ورسوله»**.

ولكن قد يقول قائل: ما شاهده لهذا الباب، وكيف أورده المؤلف في هذا الباب؛ لأن الباب باب من جحد شيئًا من الأسماء والصفات هل معنى هذا أن بعض الأسماء والصفات أنها تنكر وأنه لا ينبغي أن يحدث بها الناس حتى لا يقعوا في

(١) رواه البخاري، باب من خص بالعلم رقم (١٢٧).

الكفر، أو أن له مراد آخر؟

نقول: إن هذا هو الظاهر من مقصوده، وقد يعضد هذا بما ذكره الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرح هذا الكلام لقول علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن العلماء يرون أنه لا يحدث بكل شيء، ثم قال: وأول من رأىٰ هذا حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فقد امتنع عن التحديث بذكر أسماء المنافقين، ثم أبو هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كما في الصحيح يقول: حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين، فأما أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم[1].

ثم قال: وكذلك عن أبي يوسف في حديث الغرائب، فإنه منع من أن يحدث بها، الغرائب الشيء الذي يُستغرب بأن يكون عند الناس غير معروف.

ثم قال: وكذلك عند الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ فإنه منع من التحديث بالأحاديث التي ظاهرها الخروج علىٰ الإمام، حتىٰ لا يتخذها الخارجون لهم ذريعة فمنع من ذلك.

ثم قال: وكذلك عند الإمام مالك، فإنه منع من التحديث بالأسماء والصفات عند العامة، وهذا فيه نظر أعني الذي ذكره عن الإمام مالك لا يجوز إطلاقه لأن الصفات في القرآن ليس في الأحاديث أكثر مما في الآيات من أسماء الله وصفاته، ولا أحد يقول: لا يجوز قراءة القرآن عند العامة، والظاهر أن هذا القول ملصق بالإمام مالك ألصقه الجهمية من أتباعه الذين تجهموا، وصاروا أتباعًا للجهم بن صفوان، وصاروا ينكرون الأسماء والصفات حتىٰ لا يفتضحوا يقولون: إن الإمام ينكر ذلك؛ لأنها إذا ذكرت عند الناس وهم يجحدونها ويردونها، افتضحوا وتبين أنهم علىٰ ضلال.

أما ما ذكره عن الإمام أحمد وكذلك أبي يوسف، فهذا صحيح ولهذا أنكر الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ أنس بن مالك تحديثه الحجاج بحديث العرنيين الذين

(١) رواه البخاري، باب حفظ العلم رقم (١٢٠).

قـتلهم رسـول الله ﷺ وسـمل أعيـنهم وتـركهم في الحـرة حتـىٰ مـاتوا لا يسـقون لأن الحجاج يتخذ هذا له حجة في تأويلاته الواهية في إزهاق النفوس وإسرافه في القتل، فإذا كان مثل هذا فلا يجوز أن يحدث به لأنه يتخذ ذلك ذريعة إلىٰ الباطل، ولكن بعض الناس يرىٰ أن صفات الله ﷻ من المتشابه وأنه لا ينبغي أن يحدث بها كل أحد، وهذا باطل، فصفات الله ﷻ ليست من المتشابه، بل هي من الواضح الجلي المحكم، ولكن حينما يقول السلف: إنه يؤمن بها علىٰ ظاهرها، ويوكل معناها إلىٰ الله تعالىٰ وبعضهم يقول: أمرُّوها كما جاءت بلا تأويل، وبعضهم يقول بلا تفسير، وكل هذا صحيح عن السلف، فمقصدهم التأويل الباطل الذي هو تأويل المعتزلة والأشاعرة الذين أوَّلوها وأخرجوها عن ما دلت عليه حتىٰ صار إلحادًا، وإلا فمعناها ظاهر.

وقول مالك بالاستواء: الاستواء معلوم، والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة. يدل علىٰ هذا لأن الكيفية مجهولة للناس.

نقول: هذا لا نعلمه، هذا إلىٰ الله ﷻ، وليس معنىٰ ذلك أنه لا كيفية له، المراد أن الكيفية لا طريق للخلق إلىٰ معرفتها وعلمها لأن الكيفية هي الحالة التي يكون عليها المتصف وهذه تتطلب المشاهدة وهي غير ممكنة، ولهذا قال: الكيف مجهول، ولم يقل ليس له وجود.

فكيفية الصفات مجهولة للناس، أما معانيها فهي ظاهرة وواضحة، وقد طلب منا العبادة بها، فلا يمكن أن نتعبد بشيء لا نعرفه، والله ﷻ يقول: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

فنقـول: إن معنـىٰ الحـديث الـذي قالـه علـي رضي الله عنه أنـه في الشـيء الـذي يكـون عند الإنسان غريبًا ولا يتحمله عقله، وهذا قد يكون في الأمور المخلوقة التي تكون

يوم القيامة، أو تكون في الجنة أو النار وما أشبه ذلك، إذا قيل للناس مثلًا: إن في الجنة شجرة يسير في ظلها الراكب مائة عام، أكثر الناس لا يصدق مثل هذا، ولا يتحمله عقله.

وكذلك إذا قيل له في النار شجرة تنبت وتطلع الزقوم الذي يأكله أهل النار يتقوتونها قد يقول: كيف الشجرة تنبت في النار.

وليس معناه أنه يترك التحديث به، ولكن يجب أن يذكر بالأسلوب الذي فيه الرفق والتعليم بأن الله علىٰ كل شيء قدير حتىٰ يصدق ذلك، ويقال له أنه لا يلزم أن يكون الأمور علىٰ ما تعرف أنت أمور الآخرة علىٰ خلاف ذلك.

وعليه أن يذكر الشيء الصحيح الثابت عن الله وعن الرسول ﷺ، والله يهدي من يشاء ويضل من يشاء، فالأمر إلىٰ الله ﷻ، ولكن لا يجوز أن يكون الإنسان سببًا في إضلال الناس فعليه أن يرفق بهم ويحدثهم بالشيء الذي تتحمله عقولهم هذا هو المراد.

أما أسماء الله وصفاته فليست من هذا؛ لأن الله ﷻ أكثر ذكرها في كتابه وأمرنا بتدبره وتفهمه، وهو طريقة الرسول ﷺ فإنه يتلو كتاب الله عند كل أحد عند العالم وعند الجاهل وعند الأعرابي وعند النساء وعند الصبيان وغيرهم.

وكذلك يَذكُر صفات الله وأسماءه، فيذكر أن الله يضحك وأن الله يعجب ولا أحد ينكر هذا، جاء في المسند وغيره أنه ﷺ قال في حديث ذكره: «**إن الله ينظر إليكم أزلين قنطين فيضل يضحك يعلم أن فرجكم قريب**»، فقال أعرابي من الحاضرين: أو يضحك ربنا يا رسول الله؟ قال: «**نعم**». قال: لا يعدمنا خيرًا إذا ضحك[(١)].

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم (١٦١٨٧)، وابن ماجه رقم (١٨١) من حديث أبي رزين.

فهذا دليل على أن صفات الله على ظاهرها، وأنه لا يجوز تأويلها ودليل على أنها تذكر عند الناس عامةً، وليست هي المراد من قول علي رضي الله عنه، مراده أن المعلم مثلًا ينبغي أن ينظر إلى ما تحتمله عقول من يحدثهم فيحدثهم بذلك، وإذا كان الحديث لا تحتمله عقولهم فإنه يكون سببًا في تكذيبهم الحق ولهذا قال: «**أتريدون أن يكذب الله ورسوله**»، وهذا دليل على أنه يقصد بهذا الشيء الذي فوق عقول المحدثين وإن كان حقًا لأنه جاء عن الله وعن رسوله ﷺ فإذا أنكروه وقعوا في التكذيب في تكذيب الله وتكذيب رسوله ﷺ.

وإن كان كثير من المتأخرين يرى أن الصفات من المتشابه وهذه طريقة الأشاعرة الحدثاء فإنهم اعتمدوا على التأويل، بل أوجبوه لأن الصفات ظاهرها التشبيه عندهم، فيجب أن تأول أو تفوض.

والتأويل معناه عندهم: صرف ظاهرها إلى ما لا يحتمله اللفظ إلا بدليل خارجي، والدليل قد يكون عندهم العقل، والعقل لا ضابط له، كل واحد له عقل يخالف عقل الآخر فلا يمكن أن يكون هذا ضابطًا.

ويستشهدون على هذا بقوله جل وعلا: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞ﴾ الآية [آل عمران: ٧].

وأكثر العلماء يقفون عند قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ثم يبدأ الكلام ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ وبعضهم يقف عند قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ [آل عمران: ٧] يعني: أن الراسخين في العلم يعلمون تأويله، وقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: أنا من الراسخين في العلم. فهو يعرف تأويله.

وقد ثبت في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا رأيتم**

الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمىٰ الله فاحذروهم»(١).

المتشابه ليس من المحكم الجلي، فعلىٰ هذا يكون التشابه نسبي، ولكن إذا رد الذي فيه تشابه إلىٰ المحكم زال التشابه، والتشابه معناه: أن معناه يحتمل أن يكون موافقًا للمحكم ويحتمل أنه يدل علىٰ شيء آخر.

فالذي في قلبه زيغ يفرح في مثل هذا، ويأخذ هذا الاحتمال الثاني ويستدل به، وهذا من الابتلاء حتىٰ يتبين الذي يريد الحق من الذي يريد الباطل.

وعلىٰ كل حال نقول أن المتشابه لا يدل علىٰ باطل لأنه كله كلام الله، وكلام الله حق ولا يمكن أن يدل علىٰ باطل، فإذا وقع مثلًا للإنسان من الباطل فيجب أن يتهم فهمه ويتهم نظره ولا يتهم كلام الله ﷻ ولا كلام رسوله ﷺ، ثم يسأل ربه أن يهديه الحق، فإذا كان صادقًا هداه الله ﷻ.

✍ قال المؤلف رحمه الله: وروىٰ عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاووس عن أبيه، عن ابن عباس: أنه رأىٰ رجلًا انتفض لما سمع حديثًا عن النبي ﷺ في الصفات، استنكارًا لذلك! فقال: ما فَرَقُ هؤلاء؟ يجدون رقّةً عند محكمه، ويهلكون عند متشابهه. انتهىٰ(٢).

هذا سنده صحيح ثابت ومعمر راشد ثبت ثقة وهو بصري ثم ذهب إلىٰ اليمن فنزل فيها وتوفي هناك وله من العمر سبع وخمسون سنة، أو ثمان وخمسون سنة. وابن طاووس عابد مأمون وأبوه من تلامذة ابن عباس، وهو من التابعين المعروفين الكبار.

عن ابن عباس: أنه رأىٰ رجلًا انتفض لما سمع حديثًا عن النبي ﷺ في الصفات استنكارًا لذلك.

(١) رواه مسلم رقم (٢٦٦٥).
(٢) مصنف عبد الرزاق رقم (٢٠٨٩٥).

جاء في بعض الروايات أنه سمع حديث: «**إذا جلس الله علىٰ العرش**» هكذا فانتفض الرجل فأنكر عليه ابن عباس قال: ما فرق هؤلاء يجدون رقة عند محكمه ويهلكون عند متشابهه.

قوله: «**استنكارًا**»: أن انتفاضته استنكارًا لهذا الحديث الذي سمعه. يكفينا أنه قال في الصفات، سواءً هذا الذي ذكر وهو الظاهر أو غيره.

وقوله: «**ما فرق هؤلاء**»: هذا يحتمل ضبطين، أحدهما: التخفيف «ما فَرَقُ» وفرق يعني الخوف، ما خوفهم عندما يحدثون بالشيء الذي يتشابه عليهم، يشتبه عليهم هم هؤلاء، ولهذا قال: «يجدون رقة عند محكمه، ويهلكون عند متشابهه» يعني: ينكرونه، وإنكاره هو الهلكة.

ويحتمل أنها مشددة «**ما فَرَّق**» يعني: ما فرقوا بين الحق وبين الباطل وتكون ما نافية، ما عرفوا العلم الذي فيه الفرقان والهدىٰ، وإنما أخذوا طريقًا من العلم وهذه هي العادة الذي يأخذ طرفًا من العلم يهلك غالبًا إذا لم يتثبت.

وإذا سمع الشيء يبنيه علىٰ فهمه، ويذهب ينشره علىٰ الناس، وهو خطأ سواءً من كلام الله ﷻ، أو من كلام رسوله ﷺ، أو من كلام الناس، وهذا يحدث كثيرًا، فيجب علىٰ الإنسان أن يتثبت إذا أراد أن يذكر حكمًا من الأحكام لأنه قد يسبق إلىٰ فهمه الشيء الذي فهمه.

وقوله: «**يجدون رقة عند محكمه**»؛ يعني: أنهم يجدون عند المحكم إيمان وانقياد وتسليم له، وأما عند الشيء الذي فيه اشتباه عليهم فإنهم ينكرونه ويردونه، وهذه طريقة الهالكين الذين يأخذون قسمًا ويرد قسمًا آخر، وقد أخبر الله ﷻ أن الذي يؤمن ببعض ويكفر ببعض مما جاء عن الله أنه كافر حقًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ

وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١] والإسلام الذي جاء به الرسول ﷺ لا يقبل التجزئة يجب أن يؤخذ كله عمومًا، فالمجزؤون له الذين يقولون مثلًا: إن الأصول يجب أن تثبت باليقين، وأما الفروع فلا بأس بالظنون هذا من الباطل، فكل ما جاء به الرسول ﷺ حق سواءً من الفروع أو من الأصول يجب أن يقبل ولا يفرق بين هذا وهذا كما تقوله المعتزلة ومن سلك مسلكهم، الذين يقولون ما كان من الأصول فلا بد من إثباته باليقين والبراهين، وما كان من الفروع يثبت بالظنون والأمور مثل نقل الأفراد.

والصحيح أنه لا فرق بين هذا وهذا إذا صح السند عن رسول الله ﷺ وإن كان فردًا وجب قَبوله والإيمان به والعمل به، سواءً كان في الصفات أو في الفروع والأحكام.

✍ قال المؤلف ﷺ: ولما سمعت قريش رسول الله ﷺ يذكر الرحمن أنكروا ذلك. فأنزل الله فيهم: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾[1].

سبق أن هذا كان في صلح الحديبية، ومعلوم أن صلح الحديبية كان في السنة السادسة من الهجرة، ومعنىٰ ذلك أن هذا في المدينة، وقد اختلف في سورة الرعد هل هي مدنية أو مكية، فإذا كانت في صلح الحديبية فهي مدنية لأن المدني هو الذي نزل بعد الهجرة وإن كان في مكة أو من آخر ما نزل علىٰ رسول الله ﷺ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] في حجة الوداع في عرفات نزلت وهو واقف في عرفات فلا يقال أنها مكية بل مدنية لأن الفارق بين المكي والمدني هو الهجرة، وأكثر السور مكية، والسور التي نزلت في المدينة جعلوا لها ضوابطًا حسب السبر والتتبع قالوا: الآيات الطويلة

(١) ابن جرير في تفسيره (١٦/ ٤٤٥).

الغالب أنها في المدينة والآيات التي فيها الأحكام الغالب أنها في المدينة، والآيات القصيرة التي فيها تحدي الغالب أنها في مكة والأصول الغالب أنها في مكة.

ولكن هذه كلها أغلبية ليست هي العمدة، والعمدة على النقل في هذا عن الصحابة الذين شاهدوا الوحي.

والآية ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد: ٣٠] التي ذكرها في أول الباب وقد جاء غيرها من القرآن مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٦٠] فقولهم: وما الرحمن، هذا إنكار.

وقوله تعالىٰ: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ﴾ [الإسراء: ١١٠] وقد ذكر أن نزول هذه الآية بسبب إنكارهم للرحمن وجاء في سبب نزولها يعني آية الإسراء أن الرسول ﷺ كان يصلي عند الكعبة فسمعه أبو جهل يقول: يا الله يا رحمن فقال: هذا يأمرنا أن ندعو واحدًا وهو يعبد إلهين. يقول: يا الله يا رحمن، فراح ينشر هذا، ويقول للكفار: انظروا إلىٰ محمد فإنه يدعو إلهين يقول: يا الله، يا رحمن. فأنزل الله: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ﴾ وتمام الآية يدل على ذلك ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠]؛ يعني: لا تجهر فيسمعك الكفار، فيسبون القرآن ويسبون من أنزله ويكفرون به، ولا تخافت المخافتة التي لا يسمعها من خلفك ممن يقتدي بك ويتعلم منك، ولهذا قال: ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠].

ثم إن هذا الكفر معناه هو جحد هذا الاسم الكريم الرحمن، فقط وإلا فإنه قد علم أنهم يقرون بالله ﷻ.

وثبت في الصحاح والمسانيد في قصة الحديبية أن النبي ﷺ قال لعلي: اكتب «**بسم الله الرحمن الرحيم**» فقال سهيل بن عمرو وهو المفاوض ومن معه قال: لا تكتب «بسم الله الرحمن الرحيم» لا نعرف الرحمن، ولكن اكتب كما كنا نكتب:

باسمك اللهم. قال الرسول ﷺ: اكتب باسمك اللهم. لأن المعنىٰ واحد.

فلما قال: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ﷺ قريشًا قال: لا تكتب، وعلي رضي الله عنه قد كتبها قال: لا ما نقر بهذا لو علمنا أنك رسول الله ومنعناك صرنا ظالمين. «وهذا في الواقع ليس صحيحًا فهم يعلمون»، عند ذلك قال الرسول ﷺ لعلي: **امحها**، فقال علي: لا والله لا أمحاها «يعني أبىٰ أن يمحو كلمة رسول الله»، قال عليه السلام: **أرينيها** فأخذ إصبعه فوضعها عليها فمحاها بإصبعه صلوات الله وسلامه عليه لأنه كان لا يكتب ولا يقرأ، وهذا من الأمور التي ابتلي بها الصحابة رضي الله عنهم وإلا إذا أمر الرسول ﷺ بشيء يجب أن يُمتثل، لا يقال: لا ما نفعل، ومن ذلك ما وقع لعمر رضي الله عنه لأنهم رأوا أن عليهم غضاضة في كونهم يخضعون للكفار، ولهذا قال عمر بعد ما حصل الصلح قال لرسول الله ﷺ: ألسنا علىٰ الحق؟ قال: بلىٰ، قال: ألست رسول الله؟ قال: بلىٰ، قال: لماذا نعطي الدنية في ديننا؟ فقال: **إني رسول الله لا أخالف أمر الله**، فما اقتنع، وذهب لأبي بكر، فقال له: ألسنا المسلمون، قال: بلىٰ، قال: أليس هؤلاء هم الكفار؟ قال: بلىٰ، قال: أليس هذا رسول الله؟ قال: بلىٰ، ولكنه رسول فاستمسك بغرزه، فصار الصلح ورجع رسول الله ﷺ. ونزل عليه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١] فدعا عمر رضي الله عنه فقرأها عليه، قال: أو فتح هو يا رسول الله؟ قال: «**نعم**».

وهو أن العرب لما صار الصلح، ووضع الحرب، عرفوا أن قريشًا ضعيفة لا تستطيع المقاومة، وتمكنوا من التفهم والمجيء إلىٰ الرسول ﷺ، فصار فتحًا، أقبلوا علىٰ الإسلام ودخلوا فيه.

فالمقصود أن إنكارهم هذا اسم الرحمن إما من باب العناد والكبر، وهذا هو الظاهر لأن هذا الاسم موجود في كلامهم وأشعارهم الجاهلية، وكذلك في كلامهم وخطاباتهم، وأما أن يكون من باب الجهل.

وهذا كله يدلنا على أن من أنكر اسمًا من أسماء الله أو صفة من صفاته أنه يكون كافرًا لأن الله سماه كافرًا ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ﴾ [الرعد: ٣٠] ولا يجوز لنا إذا سمى الله شيئًا من الأفعال المعينة كفرًا أن لا نسميه، بل يجب علينا أن نطلق عليه كما أطلق الله عليه ﷻ ذلك.

الباب الواحد والأربعون

قال المؤلف رحمه الله: باب قول الله تعالىٰ: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [النحل: ٨٣].

المقصود بهذه الترجمة أن يبين أن إضافة النعم إلىٰ غير موليها ومسديها أنه من الكفر الظاهر، وقد يكون كفرًا دون كفر، يعني كفر نعمة، وقد يتعدىٰ ذلك إلىٰ ما هو أعظم علىٰ حسب ما يقوم في قلب الإنسان، أما إذا جرىٰ علىٰ اللسان بدون قصد، فهذا من كفر النعمة، ومن الألفاظ الشركية التي يجب علىٰ العبد أن ينزه لسانه منها، ويبتعد عنها لأنه لا يكمل توحيد الإنسان ويتم إلا إذا استقام قلبه طاعة لله جل وعلا وتوحيدًا له، واستقام لسانه تبعًا لذلك في الألفاظ التي يقولها؛ لأن اللسان من خدم القلب، فإذا استقام القلب استقام اللسان، وهذا شيء مشاهد ومجرب.

فالمقصود بهذا الباب وجوب شكر الله جل وعلا علىٰ نعمه، وشكر النعمة أمر واجب لا بد منه، وشكرها يتطلب ثلاثة أمور لا بد منها:

أولًا: ذكر الله جل وعلا بها، وحمده عليها.

ثانيًا: أن يقوم بحقها الذي أوجبه الله جل وعلا.

ثالثًا: أن تكون عونًا علىٰ طاعة الله جل وعلا، يعني أن يستعملها في طاعة الله.

فإن ترك واحدًا من هذه الأمور الثلاثة فإنه لم يقم بشكرها، ومعلوم أن هذا يكون ظاهرًا علىٰ الجوارح ولكن يجب أن يكون متحليًا به أولًا، وقد عرفنا فيما سبق أنه لا يمكن أن تستقيم الجوارح إلا باستقامة القلب ولا يمكن أن يقول مثلًا

هذا العمل عمل القلب مستقلًا عن عمل الجوارح لأن الارتباط به غير منفك، ولا يمكن أن ينفك إلا إذا كان الإنسان إما مجنونًا أو ذاهلًا ناسيًا، أما من إنسان عاقل يعرف ما يأتي فإن الباعث على العمل هو القلب، وهو ما يعبر عنه بالإرادات والإخلاص في النيات والمقاصد، فالنيات هي أساس الأعمال وهي عمل القلب.

✍ **قوله** ﷻ: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾.

اختلف المفسرون في هذه المعرفة، وما هي النعمة، منهم من قال النعمة: محمد ﷺ يعرفون صدقه وقد عرفوا نسبه ومخرجه، وأنه جاء بالوحي بلا تعلم، لم يتصل بمن يأخذ عنه، ثم جاء بأمر لا يمكن أن يتعلمه لأنه معهم عمرًا على غير علم، فجاءه بعد ما بلغ أربعين سنة فهو واضح أنه وحي من الله ﷻ.

قوله: «﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾»؛ يعني: يجحدون نبوءته ويأبون اتباعه ولا شك أن هذا من أعظم النعم، أعني بعثه ﷺ، ومنهم من جعل هذا عامًا في كل ما ينعمه الله ﷻ لأن المفرد المضاف يعم كل ما أنعم الله ﷻ به على عبده.

وأما ما ذكره عن بعض السلف فهذه أمثلة لأفراد تبين المعنى المقصود، وكون الإنسان يضيف الأشياء إلى أسبابها أو يضيفها إلى نفسه هذا من الكفر ومعنى ذلك أن الموحد يجب أن يكون مبتعدًا عن الكفر الأكبر والكفر الأصغر؛ لأن هذا من الكفر الأصغر ولا يكون محققًا للتوحيد سالمًا من نقص الإيمان إلا إذا سلم من كفر النعمة، أما الكفر الأكبر فهو ينافي التوحيد من أصله.

فإنكارها أن يضيفها إلى غير موليها ومسديها أو أنهم لا يشكرونه عليها ولا يعبدونه بها لأنها أوجدت لذلك؛ لأن يشكروا، والشكر هو الثناء على الله ﷻ وإضافتها إليه والاعتراف بالنعمة أنه هو المنعم ﷻ بلا استحقاق.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **قال مجاهد** رحمه الله **ما معناه: هو قول الرجل: هذا مالي ورثته عن آبائي**[(١)].

يعني: يضيف المال إلىٰ نفسه كأن يقول مثلًا اكتسبته بعملي، ويقول أنا أعرف وجوه التجارة وأكتسب وأتصرف، فيضيف الأمر إلىٰ نفسه، فهذا كفر بالله ﷻ، يجب أن يحمد الله الذي يسر له الأمور وهيأها وجعله مستعدًا لذلك وسببًا لذلك.

فقوله: «هذا مالي» يعني: إما اكتسبه بكسبه وعمله أو أنه ورثه ومع ذلك قوله: «مالي» هذا كفر بالنعمة، يجب أن يضيفه إلىٰ ربه ﷻ يقول: هذه نعمة الله علي، أنعم بها علي فله الشكر وله الحمد، ويثني عليه، فإذا أضاف الشيء إلىٰ سببه أو بعض سببه صار من هذا الباب، وقد يقول الإنسان أنا أعرف كيف أتصرف، أعرف مثلًا كيف أكتسب المال، وفلان لا يعرف وما أشبه ذلك، فهذا مثل قول قارون تمامًا كما سيأتي وهو من كفر النعمة.

وكذلك بقية الأمور التي ينعم الله بها عليه وإن كانت لها أسباب ظاهرة فالله ﷻ هو الذي سببها، فمثلًا لو أنه قدر أنه يسافر يقول أنا وصلت إلىٰ المكان بسرعة لأن السيارة جديدة وأيضًا السياقة بحكمة وبصر، وما أشبه ذلك.

نقول: هذا من هذا النوع، يجب أن يشكر ربه ﷻ علىٰ ذلك لأن هذه نعمة منه فيضيف ذلك إلىٰ ربه ﷻ ويشكره عليها.

أما إضافة الأمور إلىٰ الأسباب أو بعض الأسباب فهو المقصود هنا بالكفر، بكفر النعمة.

---

(١) تفسير الطبري (١٧/ ٢٧٣) عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ [النحل: ٨٣] قال: هي المساكن والأنعام وما يرزقون منها، والسرابيل من الحديد والثياب، تعرف هذا كفار قريش، ثم تنكره بأن تقول: هذا كان لآبائنا، فروّحونا إياه. وفي رواية: فورّثونا إياها.

فقوله: «مالي» من أين مالك؟ خلقته أنت؟ الله خلقك فقيرًا وهو الذي أقدرك على الكسب وبصرك بذلك ويسر لك، وهيأ الأسباب لذلك، فكونه يضيفه إلى نفسه معناه أنه نسي المنعم حقيقة، والمسدي له والموجد له.

وكونه ورثه هو أبلغ في النعمة، فالله أنعم به على آبائك وأنعم به عليك، فيجب أن تشكر ربك أكثر، فإذا نسي المسدي والموجد والمنعم فهذا كفر، يعني كفر النعمة في الظاهر، فإن قام في القلب غير ذلك فهو أعظم من هذا فليس كفرًا للنعمة فقط ومعلوم أن الكفر الأكبر يدخل فيه الكفر الأصغر.

✍ **وقال عون بن عبد الله ﵀ يقولون: لولا فلان لم يكن كذا**[١].

يعني: أنه أضاف الشيء إلى بعض السبب، أو إلى السبب فإضافته إلى السبب يدل على كفر النعمة، أنه لم يشكر ربه ﷻ ويثني بهذه النعمة عليه ويبقى أمر آخر وهو التقوي بها على عبادة الله ﷻ وهو واجب.

وقوله: «لم يكن كذا»: يقصد أن هذا عام في كل شيء، في كل ما يقال في مثل هذا القول، وأن الواجب أن يضاف ذلك إلى الله ﷻ، فهذا القول يتضمن شيئين:

الأول: أنهم يضيفون العمل ويسندونه إلى السبب الذي نصبه الله عليه، وهذا لا يجوز.

الثاني: أن هذا يتضمن أنه يمكن أن يتغير تقدير الله وما أحدثه الله ﷻ، لولا فلان كذا ما كان كذا، وكل هذا من المحاذير التي تقدح في التوحيد وتجعله إما باطلًا لا أثر له، وإما ذاهب كماله الواجب الذي يعاقب الإنسان بتركه.

---

(١) تفسير الطبري (١٧/ ٢٧٣) قال: إنكارهم إياها، أن يقول الرجل: لولا فلان ما كان كذا وكذا، ولولا فلان ما أصبت كذا وكذا.

فقوله: «**لولا فلان لم يكن كذا**» يعني: لم يقع هذا الشيء أو ما صار كذا أو ما كان كذا يعني بالعكس، إما بالإثبات أو بالنفي كله باطل لا يجوز؛ لأن الذي وقع هو الذي شاءه الله ولا يمكن أن يتغير أو يتبدل والأسباب التي رتبها عليه هي من القدر.

وقال ابن قتيبة: يقولون: هذا بشفاعة آلهتنا.

يعني: هذا يتضمن الشرك، والكفر بالنعمة، يعني أنهم يجعلون الشيء الذي يحصل لهم من السعادة ومن النعم والتوفيق يجعلونه بسبب شفاعة آلهتهم وهي أصغر وأحقر من أن تشفع لأنها دعوىٰ لا أساس لها ولا وقوع لها أصلًا فهو يتضمن:

أولًا: الكذب علىٰ الله، وهذا أمر كبير جدًا، قد عده بعض العلماء أكبر من الشرك.

ثانيًا: أنهم جعلوها بسببها ونسوا نعمة الله ﷻ عليهم، فأضافوا النعم إلىٰ الأصنام والآلهة الباطلة.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **وقال أبو العباس بعد حديث زيد بن خالد الذي فيه: «إن الله -تعالىٰ- قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ...» الحديث، وقد تقدم: وهذا كثير في الكتاب والسُّنَّة، يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلىٰ غيره، ويشرك به**(١).

أبو العباس كنية شيخ الإسلام ابن تيمية مع أنه رحمه الله لم يتزوج، وليس له ولد، ولكنه قد عرف أنه يجوز التكني وإن لم يكن للإنسان ولد؛ لأنه رحمه الله لم يفرغ للزواج، كانت حياته أولًا طلب العلم بالجد والاجتهاد والعبادة، ثم صار في الجهاد لا يفتر عن ذلك، يجاهد في نشر العلم ومجادلة أهل الباطل وبيان لحق إلىٰ أن توفاه الله ﷻ وهو كذلك.

(١) مجموع الفتاوىٰ (٨/ ٣٣).

قوله: «**بعد حديث زيد بن خالد**»: وفيه: قال: صلىٰ لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية في إثر سماء كانت من الليل فلما انصرف أقبل علىٰ الناس فقال: «**هل تدرون ماذا قال ربكم؟**»، قالوا: الله ورسوله أعلم. «**قال: قال أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال مُطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب**»(١). وهذا ظاهر كما سبق أنه من كفر النعمة الذي لا يجوز أن يقوم في المسلم بل يجب أن ينزه نفسه عن ذلك، ويجعل توحيده خالصًا محققًا لله ﷻ.

فقوله: «مطرنا بنوء كذا وكذا»: ليس الأمر في هذا أنهم يعتقدون أن الكوكب ينزل المطر هذا لا أحد يقوله، وإنما أضافوا نزول المطر إلىٰ طلوعه، وقالوا: إن وقته وقت محمود لأنه يأتي فيه المطر، جعلوه للوقت، وأضافوه إلىٰ الكوكب، وإلا هم يعلمون أن الله هو المنزل للمطر؛ لأن الله أخبرنا في كتابه أنهم إذا سئلوا من الذي ينزل المطر يقولون الله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٣] وكذلك غيره، ولم يعرف أن أحدًا من بني آدم أنه يجعل الكواكب مؤثرة بنفسها يعني أنها تتصرف مع الله في تصريف الكون مثل إنشاء السحاب وهبوب الرياح وسقوط الأمطار، وما أشبه ذلك، ولكنهم يضيفون هذه الأشياء إلىٰ طلوعه أو غروبه الذي يسمونه النوء، والنَّوء مأخوذ من ناء ينوء إذا ظهر أو غرب، ولهذا يطلق علىٰ الطالع وعلىٰ الغارب، وقد يكون عند الناس الآن من بقية هذه الجاهلية شيء من الألفاظ التي تعلق في أذهانهم من دون أن يتفطنوا لها كما يقول بعضهم إذا حدث شيء مما قد يكون فيه تحزن له وتأسف يقول: يا عزاه، والعزىٰ معروف أنه صنم من أصنام الكفار، وقد يكون هذا الكلام باقيًا عندهم لا يزال موروث عن الجاهلية.

(١) رواه البخاري رقم (٨٤٦)، ومسلم رقم (٧١).

والمقصود في هذا أن الإنسان يجب أن يتفطن للكلام الذي يتكلم به، فلا يتكلم إلا بالشيء الذي يكون ظاهره صحيح يعرف معناه. وقد عرفنا أن الشرك يكون ولو بالألفاظ التي لم يقصد معناها، يعني لا تقصد حقيقته لأن العبد يقع في الشرك اللفظي بدون قصد وهو من الشرك الأصغر، والشرك الأصغر لا يجوز التساهل به وإن كان لا يخرج العبد من الدين الإسلامي ولكنه يقدح في توحيده، وعند كثير من العلماء أن الشرك الأصغر لا يغفر إلا بالتوبة يعني لو مات العبد عليه بدون توبة عوقب لدخوله في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فكلمة ﴿إِنَّ﴾ المصدرية هذه تدل على العموم ﴿أَن يُشْرَكَ﴾ كما أنه يدخل في قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

وكذلك في قوله ﷺ: «**أن تعبد الله ولا تشرك به شيئًا**»(١)، فشيئًا هنا نكرة تعم الشرك الأكبر، والأصغر، وشرك اللفظ وشرك النية، وشرك المقصد مثل الرياء وغيره.

فالمقصود قوله في الحديث هنا: «**مؤمن بي**» يعني: أنه نسب الخير والفضل إليه في الظاهر فجعل العمل إيمان الذي هو القول، وكذلك قوله: «**وكافر بالكوكب**»، وكذلك قوله: «**مؤمن بالكوكب وكافر بي**»، وهذا ظاهر جدًا في أن الأعمال داخلة في الإيمان وأنها تسمىٰ إيمانًا، والأدلة علىٰ هذا لا حصر لها، ولكن نقول فيه التنبيه علىٰ رد قول المرجئة الذين يجعلون الإيمان ما يقوم في القلب فقط، وأما الأعمال فإنها لا تدخل في مسماه وهو قول باطل، وهو خلاف ما تعارف عليه أهل السُّنَّة، بل اتفقوا عليه، ولهذا عرَّفوا الإيمان تعريفًا دقيقًا فقالوا: الإيمان قول باللسان وعمل بالجوارح وعقد بالقلب، وبعضهم يقول: وعلم لأن العلم يسبق العمل، فيكون في القلب أولًا، والقلب هو الذي يبعث علىٰ الأعمال وهذه كلها مجتمعة في الإيمان.

(١) رواه البخاري رقم (٥٠)، ومسلم رقم (٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ولا يجوز أن نقول أن العمل شرط للإيمان، أو أنه مكمل للإيمان، أو ما أشبه ذلك كما يقوله من يقوله من بعض طلبة العلم الذين لم يحققوا المسألة كما ينبغي، ويتسرعون في إطلاق الأمور التي لا يجوز إطلاقها.

قوله: «**وهذا كثيرٌ في الكتاب والسُّنَّة، يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلىٰ غيره، ويشرك به**»؛ يعني: ذكر الكفر، وكونه يضيف الكفر إلىٰ الناس يقول: «**هو كثير في الكتاب والسُّنَّة يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلىٰ غيره ويشرك به**»، والمعنىٰ أن هذا من الشرك يعني: إضافة النعمة إلىٰ سببها أو جزء سببها أو إضافتها إلىٰ شيء كذب كما قال الكفار أنه بشفاعة آلهتهم، كل هذا من الشرك، وبهذا يتبين مناسبة الباب إلىٰ كتاب التوحيد أنه ظاهر في هذا. فالله ﷻ إذا أراد عطل الأسباب، فهو ﷻ الذي سبب الأسباب وهيأها ويسَّرها فحصلت.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **قال بعض السلف: «هو كقولهم: كانت الريح طيبة والملَّاح حاذقًا، ونحو ذلك مما هو جار علىٰ ألسنة كثير» انتهىٰ.**

يعني: هذا من تمام كلام شيخ الإسلام، وكانت السفن سابقًا سفنًا شراعيةً ليس فيها محركات وإنما الرياح التي تديرها وهي التي تحملها بأمر الله تعالىٰ، والملاح هو الذي يصرف السفينة يعني: بمن معه يجعلها تذهب يمينًا أو شمالًا بهذه الطريقة، فإذا جاءت الريح مستدبرة لها قالوا هذه ريح طيبة ساقتهم سوقًا حسنًا، والله جعل ذلك آية، أما إذا انعكست: فهي تعاكسهم فلا يتأتىٰ سيرهم، ومثل هذا أن يقال مثلًا: السيارة جديدة أو أن السائق جيد وحاذق، والطريق واسع وسريع، وما أشبه ذلك، كل هذا لا يجوز للعبد أن يضيف النعمة التي تحصل له إليه، بل يحمد الله ويضيف هذا إليه ﷻ وكل هذا بتوفيق الله، وإذا أراد الله كانت هذه الأمور من العقاب أو من أسباب الهلاك، فينظر الإنسان مثلًا كم يقع من الحوادث التي تزهق

فيها النفوس من هذه السيارات.

فالمقصود أن الإنسان يجب أن يكون تعلقه بربه ﷻ وكل ما حصل له خيرٌ يحمد الله ويضيفه إليه ويشكره علىٰ ذلك، وإذا حصل خلاف ذلك يعلم أنه أصيب من جراء ذنوبه كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورىٰ: ٣٠]، فلو أنه أخذنا ﷻ بكل ما نستحق ما ترك علىٰ ظهر الأرض من دابة كما قال ﷻ: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا﴾ [فاطر: ٤٥].

والمقصود أن إضافة النعمة لغير الله ﷻ الذي هو منعم بها علىٰ عبده من الكفر والكفر ينافي كمال التوحيد هذا هو المقصود بالباب، ثم نفهم من هذا الباب ومن هذه الأدلة أن العبد يجب أن يعرف ربه ﷻ، وأن كل خير يناله أو يناله غيره مما في العالم كله العلوي والسفلي أنه من الله ﷻ، وأنه يجب أن يضاف ذلك له ويشكر عليه، ثم تكون هذه النعم مستعملة في طاعته ﷻ وهذا لا يخرج منه شيء، ومن أعظم ذلك كون الإنسان أنعم الله عليه وجعله مسلمًا هذه أكبر النعم، وإذا مات علىٰ الإسلام فقد تمت عليه نعمة الله ﷻ، ويجب أن يعلم يقينًا أنه ليس له يد في ذلك الأمر كله لله ﷻ، كله من الله تعالىٰ وتقدس، فإذا حصل له النعمة وجب أن يُشكر الله، وإذا حصل أيضًا أنك عرفت ربك وتعلمت العلم الذي يوصلك إلىٰ الله وعملت به فهو من نعم الله، يعني قُصار القول: أنه لا يحصل للعبد شيء من الخير إلا من الله ﷻ، وأنه لا يجوز أن يضيف شيئًا منها لا لنفسه ولا لغيره من الخلق، إما علىٰ سبيل أنه سبب جعله الله ﷻ سببًا من الأسباب أو جزء سبب، والأسباب قد تتعطل، وقد تؤدي المسببات التي رتبت عليها إذا أراد الله ﷻ عدم ذلك.

وبهذا يعرف العبد أنه إذا وكِّل إلىٰ نفسه يوكل إلىٰ ضيعة وإلىٰ عورة وإلىٰ خسارة وأنه ضائع، فلا يجوز أن يعتمد الإنسان إلا علىٰ ربه -تعالىٰ وتقدس- ففي دعاء الرسول ﷺ يقول: «**اللهم لا تكلني إلىٰ نفسي إن تكلني إلىٰ نفسي تكلني إلىٰ ضيعة وعورة وذنب وخطيئة**»(١)، فكل هذا يدل علىٰ وجوب التعلق بالله ظاهرًا وباطنًا، وأن كل خير منه وأن كل شر يحدث للإنسان من نفسه من جراء ذنوبه، وكونه لم يقم بشكر الله عليه الذي هو واجب، فالشكر واجب يجب أن يكون الشكر له ﷻ، وإضافة النعم إليه وعدم إضافتها إليه يكون كفرًا به ﷻ، وظاهر هذا أن يكون المسلم صائنًا ألفاظه عن ألفاظ الشرك، أو ألفاظ الكفر، فيحقق توحيده بعقيدته وعمله بعلمه فيكون حاميًا وصائنًا لتوحيده من هذه الجوانب، هذا هو مراد المؤلف رحمه الله.

قال المؤلف رحمه الله: فيه مسائل:

الأولى: تفسير معرفة النعمة وإنكارها.

ليس معرفة النعمة يعني أن المخلوق هو الذي ينعم بها أو يوجدها ويخلقها، وإنما معناها أن تضاف إليه لأنه سبب أو بعض السبب، وهذا لا يدل علىٰ أنه لا يشكر من حصلت النعمة علىٰ يده، وكذلك لا يدل أن الإنسان يحتقر الناس ويزدريهم، بل يجب أن يراعي حقوقهم وأن يسعىٰ جهده في نفعهم وإرشادهم، وأن يستشعر في نفسه أخوتهم، وكذلك العطف عليهم ورحمتهم حتىٰ يكون متحققًا بالتوحيد، فهو أولًا يقوم بحق الله ﷻ، وثانيًا يقوم بحق عباد الله. فإضافتها إلىٰ الله ﷻ هو معرفة النعمة.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم (٢١٦٦٦) من حديث زيد بن ثابت.

وأما إضافتها إلىٰ نفسك أو غيرك مثل الأيادي أو الحذق أو معرفة الصنعة أو معرفة كيف التصرف، فإن هذا هو كفرها -نسأل الله العافية- والمقصود بالإنكار هنا هو الكفر.

الثانية: معرفة أن هذا جارٍ على ألسنة كثيرة.

يعني: أن التحرز من هذا الكفر قليل، فيجب علىٰ العبد أن ينتبه لهذا الشيء، وليس معناه أنه جارٍ علىٰ ألسنة الكثير من الناس وهم يُجرون ذلك من دون تفكر فيه، فقد يكون عادة، ولو قلت مثلًا لأحدهم لا يجوز أن تقول كذا أنكر عليك لأنهم يسيرون علىٰ هذا الشيء، وقد تكون العادات تملك الإنسان الذي يعتادها فلا يستطيع التخلي عنها.

الثالثة: تسمية هذا الكلام إنكارًا للنعمة.

يعني: كونه يُضاف إلىٰ السبب أو بعض السبب، إنكار لنعمة الله ﷻ، وهذا المقصود به الكفر.

الرابعة: اجتماع الضدين في القلب.

يعني: اجتماع المعرفة والإنكار لأنه قال: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ [النحل: ٨٣]، فدلت الآية علىٰ أنه يجتمع فيه المعرفة والإنكار، وفي هذا دليل علىٰ صحة مذهب أهل السُّنَّة الذين يقولون أن العبد يجتمع فيه إيمان وكفر وصدق ونفاق، وخير وشر، وهو لما غلب عليه، خلافًا لمذهب الخوارج والمعتزلة والمرجئة وما أشبههم من أهل البدع.

الباب الثاني والأربعون

✍ قال المؤلف رحمه الله: باب قول الله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

المقصود به الشرك في الألفاظ وتطهير اللسان من الوقوع في الشيء الذي فيه مخالفة ولو في الظاهر؛ لأن من حقق التوحيد استقام لسانه ولا بد، ومن لم يحققه ولو بالألفاظ فإنه لا يستحق أن يكون من الذين يسبقون إلىٰ الجنة بلا حساب.

ومعلوم أن الأمور الظاهرة التي تكون باللسان وتكون بالجوارح دلائل علىٰ ما في القلوب، فإذا حصل الإخلاص في القلب وحصل التوحيد الكامل فيه استقامة حالة الإنسان في تصرفاته كلها وهذا لا يمكن إلا بعد العلم، العلم الموروث عن الرسول ﷺ، أما الأمور التي يُكثر الناس من الاهتمام بها مثل الآداب، فهذه أمور ثانوية يجب أن تكون تبعًا لما هو أهم منها.

فإذًا المرجع في هذا هو ما جاء عن النبي ﷺ وما قاله الله ﷻ في كتابه، وبهذا تعرف أنه لا يمكن أن يستغني العبد عن كتاب الله ﷻ وأحاديث رسوله ﷺ، وأن كثيرًا من الناس لم يهتم الاهتمام الواجب في هذين الأمرين الذين لا يمكن أن يكون الإنسان مستقيمة حاله ومستقيمًا لسانه ومستقيمة جوارحه إلا إذا تأدب بما جاء به الرسول ﷺ، وما قاله الله ﷻ.

وهذه الآية التي ذكرها المؤلف قد تقدم ذكرها في ذكر الشرك، كقوله تعالىٰ في باب المحبة السابق: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وعرفنا أن هذه الأنداد التي يتخذونها أنها في المحبة، وأن الأنداد في

التصرف والخلق والإيجاد قليل وإن كان الآن يوجد في الناس بكثرة، ولكن لفشو الجهل وكونه هو الغالب الآن ظهر ذلك جليًا.

وعبادة المشركين لغير الله ليس معناه أن غير الله خلق شيئًا من السماوات أو شيئًا من الأرض أو أنه ينزل المطر أو ينبت النبات أو نحو ذلك، ولهذا جاء تقرير هذا الأمر للاحتجاج عليهم بأن يخلصوا العبادة لله ما دام أنهم يعلمون أن الله هو الخالق لهذه الأشياء الذي خلقهم وخلق من قبلهم وخلق السماء وجعلها بناء، وكذلك خلق الأرض وجعلها شبه الفراش الذي يتمكنون من الانتفاع به، وكذلك أنزل من السماء ماء فأنبت به من النبات ما يأكلون وتأكله أنعامهم، وغير ذلك من الأمور التي يعلمون أن الله هو المتفرد بها، يعلمون هذا يقينًا، ولهذا قال ﷻ: ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢] أن هذا من خصائص الله، وأن أحدًا من الخلق لم يشاركه في هذا، فما دام أنكم علمتم هذا وتحققتموه ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ فإن هذا يمنعه، ولهذا صار هذا دليلًا واضحًا على وجوب عبادة الله ﷻ.

والأنداد التي يجعلونها لله هي طلب الشفاعة وكونهم وسطاء يتوسطون لهم فيقربونهم إلى الله، ودعاؤهم بأن ينفعوهم بشيء عند الله وإن اعتلوا بأن هؤلاء إما صالحون أو ملائكة لا ذنوب لهم، ونحن لنا ذنوب فنريد منهم التوسط كما يقوله عباد القبور اليوم، الذين يقولون إننا ندعو الأولياء ونناديهم لأننا مذنبون وهم عباد فضلاء فهم يتوسطون لنا عند الله، فهذا هو شرك المشركين بعينه.

ولكن هؤلاء يعتقدون أن المشركين القدماء كانوا يعتقدون أن أصنامهم تشارك الله ﷻ في التدبير والخلق والإيجاد وهذا خطأ، فلا وجود لهذا أصلًا ولا أحد اعتقده، فإنما أُتوا من جهلهم في حقيقة الشرك الذي كان عليه المشركون، وهذا تقدم في أماكن متعددة من الكتاب.

والأنداد تكون أيضًا في الألفاظ كما في هذا الباب، وتكون الأنداد أيضًا في الأوصاف والأسماء، فمن وصف الله بغير صفاته فإنه يكون قد اتخذ أندادًا لله ﷻ، أو زعم أن له شريكًا بذلك؛ يعني: في الاسم أو في الصفة، فإنه يكون قد اتخذ لله أندادًا.

وهذا يعطيك أن كلمة أنداد تعم الشرك الأكبر الذي يكون عبادة لغير الله وكذلك في الألفاظ، وكذلك في الأوصاف وفي الأسماء وغير ذلك.

والند: هو المثيل والنظير والشبيه ولو بوجه من الوجوه، فلا يلزم أن يكون من كل وجه، ولهذا لما قال الرجل لرسول الله ﷺ: «ما شاء الله وشئت»، قال: «**أجعلتني لله ندًا**»؛ يعني: ندًا في المشيئة؛ لأنه شَرَك بين مشيئة الله ﷻ ومشيئة النبي ﷺ؛ يعني: جمعها بالواو «ما شاء الله وشئت» وهذا تشريك.

فقوله: «﴿فَلَا تَجْعَلُوا﴾»: هذا مرتب على ما سبق، وهو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]، فبين لهم وجوب العبادة بقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١] لأنهم يقرون بأن الله هو الذي خلقهم وهو الذي خلق من قبلهم لا أحد ينكر هذا، هذا شيء علموه.

ثم قال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة: ٢٢]، يعلمون أن هذا من خصائص الله وأن أحدًا لم يشاركه ﷻ في هذا الأمر.

وكذلك قوله: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [البقرة: ٢٢]، يعلمون أن هذا أيضًا من خصائص الله، ولهذا قال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، أي: ما دام أنكم علمتم هذه الأشياء وتحققتموها فإن هذا يمنعه، ولهذا صار هذا دليلًا واضحًا على وجوب عبادة الله ﷻ.

وقد يقول قائل: هذا الذي ذكر هنا ظاهرًا أنه في الشرك الأكبر، فكيف يجعل في الألفاظ والأسماء وفي إضافة الأشياء إلىٰ أسبابها أو جزء أسبابها أو ما أشبه ذلك؟

نقول أولًا، هذا لأمرين:

الأول: أن كلام الله ﷻ يعم، فهو عام يعم الكبير ويدخل فيه الصغير من المخالفات.

الثاني: أن السلف من الصحابة وغيرهم كثيرًا ما يستدلون علىٰ شرك الألفاظ أو الشرك الأصغر في الأقوال وغيرها بما نزل في الشرك الأكبر من الآيات كما مر معنىٰ ذلك في حديث حذيفة وغيره. فلا ينكر كونهم يستدلون بهذا فهو دليل واضح.

والمؤلف ﷺ أراد هنا أن يبين أن تحقيق التوحيد والإخلاص يجب أن يكون سالمًا في العقيدة «يعني: في العلم»، والاعتقاد الذي ينطوي عليه القلب وفي العمل والعمل يدخل فيه قول اللسان بالألفاظ التي قد يعتادها الإنسان وهو غير قاصد لها، فيجب أن ينزه ألفاظه ويحفظ لسانه من الوقوع مما فيه قدح في التوحيد حتىٰ يكون مخلصًا ويكون محققًا للتوحيد، هذا هو مراده في هذا الباب؛ لأن تحقيق التوحيد يكون بالفعل؛ يعني: بالعمل وبالعقيدة بالعلم، وبالألفاظ والأقوال التي لا يُتفطن لها، ولهذا ذكر قول ابن عباس في الآية.

✍ **قال المؤلف** ﷺ: **قال ابن عباس في الآية: الأنداد هو الشرك، أخفىٰ من دبيب النمل علىٰ صفاة سوداء في ظلمة الليل، وهو أن يقول: والله، وحياتك يا فلانة، وحياتي ويقول: لولا كلبة هذا لأتانا اللصوص، ولولا البط في الدار لأتىٰ اللصوص، وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت، وقول الرجل: لولا الله وفلان، لا تجعل فيها فلانًا؛ فإن هذا كله به شرك**[(١)].

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٥٨).

قوله: «قال ابن عباس في الآية»؛ يعني: في تفسير الآية.

قوله: «الأنداد: هو الشرك»: ففسر الأنداد بالشرك، والشرك يدخل فيه الشرك الفعلي الذي يفعله الإنسان؛ يعني: يعبد الله ويعبد غيره، وهذا هو الشرك الأكبر، ولكن لو كان الإنسان لا يعبد إلا الأصنام فهل يقال أنه مشرك؟ أو أنه مخلص للأصنام؟

الشرك يدل لفظه علىٰ أنهم يعبدون الله ولكنهم عبدوا معه غيره؛ لأن عبادة الله أمر اضطراري، والمقصود بالعبادة العبادة الظاهرة، من كونه يعرف أنه هو الذي خلقه، وأنه هو الذي ينعم بالنعم من إنزال المطر وإيجاد الأشياء التي لا دخل للإنسان فيها، ولكن التوحيد الذي يترتب عليه دخول الجنة والسلامة من العذاب، لا بد أن يأت به الرسول ﷺ؛ يعني: العقل لا يكفي في هذا، وذلك أن العبادة لا يستطيع الإنسان بعقله أن يقوم بها علىٰ الوجه المطلوب لأنها هي امتثال الأمر واجتناب النهي، والأمر والنهي لا يعرف إلا عن طريق الرسول ﷺ، وهذا هو معنىٰ قول العلماء العبادة توقيفية؛ يعني: موقوفة علىٰ مجيء النص عن الله وعن رسوله ﷺ فإذًا تفسير ابن عباس للأنداد بأنه الشرك أمر ظاهر، فالأنداد هي الشرك.

ولكن الذي قد يكون فيه غرابة قوله: «أخفىٰ من دبيب النمل علىٰ صفاة سوداء في ظلمة الليل»، هل فيه شيء أخفىٰ من هذا؛ يعني: ظلام الليل، ونملة صغيرة تمشي علىٰ صفاة ما يكون لها أثر ولا صوت؛ يعني: هذا مبالغة في الخفي، إذا كان الشرك أخفىٰ من هذا فكيف يُعرف؟ يعني: معرفته فيها صعوبة كبيرة، وهذا يقوله من يعرف الشرك ويعرف التوحيد، فكيف الذي يقول التوحيد عرفناه هل فهم كلام ابن عباس هذا؟

ومقصود ابن عباس ليس عبادة الأصنام والسجود للقبور والاستنجاد بها

والطواف حولها والعكوف عندها والتبرك، هذا أمر ظاهر ما يخفىٰ علىٰ المسلم أنه الشرك الظاهر الجلي وليس هو بهذا الخفي، بل هو ظاهر ظهورًا جليًا لا خفي فيه، لكنه يقصد أن من الشرك ما هو بهذه المثابة من الخفي، فعلىٰ هذا ينبغي الاعتناء بهذا الباب والاهتمام به لعله يتخلص من هذا الشرك الخفي وبين أن هذا يكون بالألفاظ وإذا كان بالألفاظ فالنيات أعظم لأن النيات في الواقع بحر لا ساحل له.

والنيات والمقاصد يجب أن تكون مقيدة بما جاء عن الله وعن رسوله ﷺ ويكون الإنسان حذرًا دائمًا، ولهذا يقول الإمام سفيان الثوري رحمه الله: ما عالجت شيئًا أشد عليَّ من نيتي؛ لأنها تتقلب علي؛ يعني: أن النية تتجدد وتتغير دائمًا فيحتاج الإنسان إلىٰ تعاهدها.

✍ **قال المؤلف رحمه الله: وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك»، رواه الترمذي وحسنه، وصححه الحاكم**[1].

والحديث الذي ذكره عن عمر، هو عن ابن عمر، لكنه هكذا ثبت في كتاب المؤلف رحمه الله.

قوله: «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك»: الحلف هو: ذكر المعظم عند الخبر الذي يعلم أنه اطلع علىٰ ما في قلبه، فيثيبه إن كان صادقًا أو يعاقبه إن كان كاذبًا، هذا إن كان مقصوده.

وقد يكون الحلف هو ذكر المعظم لتأكيد الكلام فقط، ذكر العظيم أي ذكر اسم العظيم تأكيدًا للكلام الذي يقوله بغض النظر عن اعتقاده أنه مطلع علىٰ ما في

(١) رواه الترمذي رقم (١٥٣٥)، وأبو داود رقم (٣٢٥١)، والحاكم رقم (٧٨١٤) وصححه ووافقه الذهبي من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

قلبه أو أنه يثيبه أو يعاقبه، لأن هذا قدر زائد إذا وجد فقد يجعل الإنسان واقعًا في الشرك الأكبر وليس في الشرك الأصغر.

أما إذا كان التعريف: هو ذكر اسم المعظم تأكيدًا للخبر مطلقًا فيكون شركًا أصغرَ، ولهذا لا يجوز للمسلم أن يحلف إلا بالله أو بصفة من صفاته لأنه قال: «**ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت**»[(١)].

ولا يقال: إن الله قد ذكر كثيرًا في كتابه من الأقسام بالمخلوق كما قال ﷻ: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ﴾ [العصر: ١]، وقال سبحانه: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ﴾ [التين: ١]، وقال ﷻ: ﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا﴾ [العاديات: ١]، وما أشبه ذلك، وهو كثير جدًا في القرآن، فالله ﷻ يقسم ببعض مخلوقاته التي تدل على عظمته وعلى تدبيره وعلى صنعه وتفرده بالخلق والملك، والتي تدل على توحيده بأنه يجب أن يوحد.

هذا بالنسبة إلى الله ﷻ يقسم بما هو دليل على وجوب توحيده، ما هو دال على وجوب توحيده، والله ﷻ يفعل ما يشاء ويذكر ما يريد، أما نحن عبيد مقيدون بالعبودية والله نهانا أن نحلف بغيره، ونحن مقيدون بأن نحلف بالله، أو باسم من أسمائه، أو صفة من صفاته، هذا هو الجواب عن الأقسام التي في القرآن.

ثم الحلف له صفة معينة، فهل إذا جاء الإنسان مثلًا بغير هذه الصيغة، ومقصوده تأكيد الخبر فهل يكون حلفًا أو لا؟

أهل اللغة قالوا: أن الحلف يكون بالصيغة المعينة التي لها ثلاثة أحرف: الواو، والباء والتاء. تقول: والله، وبالله، وتالله. فإذا قلت -في كذا- فهل يكون هذا حلفًا أو لا؟ ذلك والله أعلم يرجع إلى العرف، المتعارف عند الناس، ولا يلزم أن يكون

---

(١) رواه البخاري رقم (٦١٠٨)، ومسلم رقم (١٦٤٦) من حديث ابن عمر.

مطابقًا لما جاء في اللغة العربية، لأن الناس صاروا لا يتقيدون باللغة العربية، بل كثيرون منهم لا يعرفون اللغة العربية وإنما لغته وقصده ومراده، فإذا كان قصده الحلف وإن كان بغير هذه الأحرف فله مقصوده، وله نيته ولا يجوز أن يُقدم على ذلك فيكون له حكم الحلف بغير الله ﷻ، كما يقول: في ذمتي أو بكذا وما أشبه ذلك، فهذا يدخل في النهي ويدخل في الشرك الذي دل عليه الحديث: «**من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك**».

قوله: «أو»: هذه الظاهر أنها للشك من الراوي هل قال الرسول ﷺ: كفر أو أشرك «**فقد كفر أو أشرك**» مع أن الكفر أعم من الشرك؛ يعني: يدخل فيه الشرك مطلقًا، كما أن الشرك يشمل الكفر لا سيما إذا كان أكبر، أما إذا كان صغيرًا فلا يلزم، ولكن مثل ما عرفنا أن الكفر ينقسم إلى قسمين: كفر أكبر، وكفر نعمة.

وقد يشكل على هذا ما جاء في الصحيحين عن طلحة بن عبيد الله: أن أعرابيًا جاء إلى رسول الله ﷺ ثائر الرأس فقال: يا رسول الله أخبرني ماذا فرض الله علي من الصلاة؟ فقال: «**الصلوات الخمس إلا أن تطوع شيئًا**». فقال: أخبرني بما فرض الله عليَّ من الصيام؟ قال: «**شهر رمضان إلا أن تطوع شيئًا**». قال: أخبرني بما فرض الله علي من الزكاة؟ قال: فأخبره رسول الله ﷺ بشرائع الإسلام. قال: والذي أكرمك لا أتطوع شيئًا ولا أنقص مما فرض الله عليَّ شيئًا. فقال رسول الله ﷺ: «**أفلح إن صدق، أو دخل الجنة إن صدق**»[1] وفي رواية: «**أفلح وأبيه إن صدق، أو دخل الجنة وأبيه إن صدق**»[2]، فقول الرسول ﷺ: «**أفلح وأبيه**» هذا حلف بالأب فكيف يقع هذا من النبي ﷺ، فلا بد من جواب لهذا. وكذلك جاء في صحيح مسلم أيضًا عن

(١) رواه البخاري رقم (١٨٩١)، ومسلم رقم (١١).

(٢) رواه مسلم رقم (١١).

أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلىٰ النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أي الصدقة أعظم أجرًا؟ فقال: «**أما وأبيك لتنبأنه، أن تصدَّقَ وأنت صحيح شحيح تخشىٰ الفقر وتأمل البقاء، ولا تمهل حتىٰ إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا، وقد كان لفلان**»(١)، وفيه أحاديث أخرىٰ غير هذه.

وهذا إشكال يجب أن نعرف الجواب عنه؛ لأنه قد يورد علىٰ الإنسان أو يحتج به من لا يعرف الحقيقة، فيجب أن يهتم بهذا، **وقد اختلفت أجوبة العلماء علىٰ هذا**:

فابن عبد البر رحمه الله أجاب جوابًا غير شامل لأنه قال: هذا الحديث غلط من الراوي أنه قال: «**أفلح والله**»، وإن كان ابن عبد البر استدل فقال: إنه جاء في نفس رواية الراوي الذي هو إسماعيل بن جعفر كما في البخاري: «**قد أفلح والله إن صدق**»، فهذا دليل علىٰ أن ما في صحيح مسلم غلط لأن الراوي واحد(٢). وهذا الجواب غير كاف لوجهين:

الوجه الأول: أن هذا يرفع الثقة بالرواة، فكل من أراد أن يتكلم بشيء أو أراد أن يرد شيئًا يقول: هذا الراوي غلط، فهذا لا يجوز، والرواة عرفوا أنهم ثقات وأنهم متقنون، فلا يجوز أن نتهمهم بشيء من ذلك.

الوجه الثاني: أن هذا يمكن أن يقال لو كان الحديث واحدًا، وأما إذا تعددت الأحاديث وجاءت روايات متعددة، فهذا الجواب لا يكفي.

وأجاب النووي(٣) رحمه الله كما في شرحه علىٰ مسلم بقوله: أن هذا جرىٰ مجرىٰ

---

(١) رواه مسلم رقم (١٠٣٢).

(٢) التمهيد لابن عبد البر (١٤/ ٣٦٧).

(٣) شرح النووي علىٰ مسلم (١/ ١٦٨) قال: وجوابه أن قوله ﷺ: «**أفلح وأبيه**» ليس هو حلفًا إنما هو كلمة جرت عادة العرب أن تدخلها في كلامها غير قاصدة بها حقيقة الحلف والنهي، إنما ورد فيمن قصد حقيقة الحلف لما فيه من إعظام المحلوف به ومضاهاته به الله ﷻ، فهذا هو الجواب المرضي.

تأكيد الخبر فقط لا يقصد به القسم، وهذا جواب لا يصح لأن الحلف يقصد به تأكيد الخبر، فهو ذكر المعظم لتأكيد الخبر.

وجواب ثالث قالوا: أن هذا جرىٰ علىٰ ألسنتهم فقط بدون قصد، وهذا أفسد من الذي قبله.

فهذه أجوبة ثلاثة كلها غير صحيحة، يبقىٰ الجواب الرابع، وقد ذكره السهيلي وغيره من العلماء قالوا[١]: إن هذا منسوخ لأنهم كانوا في أول الأمر يحلفون بآبائهم كما جاء في الصحيح أن النبي ﷺ أدرك عمر رضي الله عنه يسير في ركب يحلف بأبيه فقال: «**ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت**»[٢]، وهذا هو الصحيح، أن هذا كان أولًا جائزًا، ثم نسخ لكمال التوحيد وإخلاص الأمر، والله ينسخ ما يشاء وبعد ذلك جاء النهي.

فكل ما جاء فيه الحلف بالأب أو بغيره في الأحاديث التي جاءت نقول: إن هذا كان قبل النهي، فجاء النهي فنسخها، وهذا هو الذي يسلم من الاعتراضات ويكون هو الصحيح إن شاء الله.

وعلىٰ هذا لا يجوز الحلف بغير الله مطلقًا، لا كون الإنسان جرىٰ هذا علىٰ لسانه بغير قصد أو كونه قصد مجرد تأكيد الخبر أو ما أشبه ذلك؛ لأن هذا كما عرفنا لا يجوز، كما ثبت أن سعدًا قال في أثناء كلام له: «والعزىٰ» فقال له رسول الله ﷺ: «**قل: لا إله إلا الله ولا تعد**»[٣]، فبعيد جدًا أن سعدًا قصد الحلف.

---

(١) فتح الباري لابن حجر (١١/ ٥٣٤) ثم قال بعضهم: وهو الجواب الثالث أن هذا كان جائزًا ثم نسخ، قاله الماوردي وحكاه البيهقي، وقال السبكي: أكثر الشراح عليه.

(٢) متفق عليه، وسبق تخريجه.

(٣) أخرجه أحمد في المسند رقم (١٥٩٠).

قال المؤلف رحمه الله: وعن ابن مسعود رضي الله عنه: لئن أحلف بالله كاذبًا أحبُّ إلي من أن أحلف بغيره صادقًا(١).

هذا أمرٌ ظاهر؛ لأن الحلف بالله كاذبًا هو اليمين الغموس الذي جاء أنه يغمس صاحبه بالإثم، ولكن الحلف بغير الله وإن كان صادقًا، من الشرك، والشرك أكبر الذنوب وأعظمها، أما الكذب فهو كبيرة من كبائر الذنوب، وكبائر الذنوب داخلة تحت المشيئة لقوله جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [النساء: ٤٨].

أما الشرك إذا مات عليه الإنسان فهو غير مغفور وإن كان صغيرًا، إن كان صغيرًا يعاقب عليه ثم مآله إلى الجنة، بخلاف الذنوب الأخرى، فإن الله إذا شاء أن يغفرها بدون عقاب، وهذا يدلنا على عظم الشرك عند الصحابة، وأنهم يعرفون قدر الشرك وأنه عظيم وإن كان باللفظ فقط.

الشرك لا يتخلص الإنسان من تبعاته وإثمه وعقابه إلا بالتوبة النصوح فيموت تائبًا بخلاف غيره كما سبق.

مع أن الكذب جاء التوعد عليه كثيرًا، وأنه ليس من أخلاق المؤمنين، وأخبر جل وعلا أن الكاذب الذي يكذب على الله هم المجرمون الذين لا يؤمنون بآيات الله، وإن كان الكذب يتفاوت فمجرد نقل خبر عادي، مثلًا قد يُتساهل، أما القول على الله جل وعلا فهو أعظم الذنوب، والقول على الله بلا علم يدخل في الكذب، وهذا يكون في الأحكام ويكون في الصفات، والأحكام يدخل فيها التوحيد وفعل المكلفين عمومًا، وأما الصفات فيذكر صفات الله جل وعلا بأنها كذا وكذا، وأن الله يوصف بكذا وكذا، وهذا يجب أن يكون عن وحي وأن يكون عن فهم حتى لا يقع بالكذب، كل هذا يدلنا على أن الكذب عظيم وليس سهلًا.

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير رقم (٨٩٠٢)، وابن أبي شيبة رقم (١٢٢٨١).

أما اليمين الغموس التي يحلف الإنسان علىٰ شيء وهو يعلم أنه كاذب وهي في حقوق الناس؛ يعني: إما أنه يريده لنفسه أو أنه يريده لغيره هذا هو الذي جاء أنه اليمين الغموس الذي يغمس صاحبه في النار أو في الإثم -نسأل الله العافية-.

ومع ذلك ابن مسعود رضي الله عنه يرىٰ أن الحلف بغير الله صادقًا أعظم من هذا؛ لأن حسنة التوحيد تمحو السيئات، بخلاف الشرك فإنه إذا مات الإنسان عليه يؤخذ به، فإن كان صغيرًا عوقب علىٰ حسب شركه، علىٰ أحد قولي العلماء، وإن كان أكبر فالأمر فيه أعظم، فإن الله لا يغفره وصاحبه يكون خالدًا في النار -نسأل الله العافية-.

والمقصود: أن كلام ابن مسعود بهذا واضح وهو يدل علىٰ أن الشرك وإن كان في الألفاظ أعظم من الكبائر وأكبر منها، وليس معنىٰ ذلك أنه يتساهل في الحلف بالله وهو كاذب؛ يعني: أن الكذب عظيم ولكن ليبين لنا أن الكذب وإن كان عظيمًا، فالشرك أعظم منه وإن كان الشرك من النوع الأصغر، الذي يكون بالحلف بغير الله ويجري علىٰ اللسان وما أشبه ذلك.

قال المؤلف رحمه الله: وعن حذيفة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا تقولوا: ما شاء الله وفلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان»، رواه أبو داود بسند صحيح[(١)].

هذا مثل ما سبق في أول الباب عن ابن عباس، ولكن هذا نص عن النبي ﷺ، وقد جاءت أحاديث كثيرة في هذا كما في الحديث في النهي عن ذلك أن رجلًا قال للنبي ﷺ لما كلمه في شيء: «ما شاء الله وشئت»- فقال: **«أجعلتني لله ندًا، قل ما شاء الله وحده»**[(٢)]، وجاء كما في الحديث الذي رواه ابن ماجه وغيره حديث الرؤيا عن حذيفة بن اليمان: أن رجلًا من المسلمين رأىٰ في النوم أنه لقي رجلًا من أهل الكتاب

(١) رواه أبو داود رقم (٤٩٨٠)، وأحمد في المسند رقم (٢٣٣٤٧).
(٢) أخرجه الطبراني في الكبير رقم (١٣٠٠٥)، والبخاري في الأدب المفرد رقم (٧٨٣).

فقال: نعم القوم أنتم لولا أنكم تشركون، تقولون ما شاء الله وشاء محمد. وذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «**أما والله إن كنت لأعرفها لكم، قولوا ما شاء الله ثم شاء محمد**»(١).

فيجوز أن تقول: ما شاء الله ثم شاء فلان، وإن كانت ثم من حروف العطف ولكنها عطف مع التراخي والترتيب، والترتيب هو الذي أجاز ذلك، وأما الواو فهي تدل علىٰ مطلق الجمع فقط، ولهذا جاء النهي عن ذلك لأنه يدل علىٰ المشاركة، والسبب في النهي دلالته علىٰ الجمع بخلاف قول: «**ما شاء الله فشاء فلان**» بالفاء لأن الفاء أيضًا للترتيب، ولكنه ترتيب مع التعقيب بدون فاصل فهي ليست كالواو في هذا لأنها تدل علىٰ الجمع فقط.

وحروف العطف كثيرة، ولكن الذي جاء النهي فيه هي الواو لأنها تدل علىٰ الجمع فقط، ولا تدل علىٰ كون المعطوف متأخرًا عن المعطوف عليه، بل يجوز أن يكون متقدمًا ومشاركًا له ومساويًا له، فهي تدل علىٰ مطلق الجمع فيكون هذا من نوع الشرك اللفظي الذي لا يجوز.

وإلا فالإنسان له مشيئة كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]، وقوله سبحانه: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، فله مشيئة، ومشيئته هي إرادته، فإذا وجدت القدرة مع الإرادة حصل الفعل، هذا علىٰ حسب الظاهر فقط، وإلا فالأمر إلىٰ الله، ولهذا قال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]، وقوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير: ٢٨] فالأمر كله لله ﷻ.

فلا يجوز أن يشترك المخلوق مع الله في شيء من الأشياء لا مشيئة ولا غيرها، ولكن هذا له حكم الحلف بغير الله؛ لأن الحلف دل علىٰ تعظيم المحلوف به والتعظيم يجب أن يكون لله ﷻ مطلقًا في مثل هذا، وهو الذي يذكر اسمه تأكيدًا

(١) رواه ابن ماجه رقم (٢١١٨).

للخبر، ويكون هذا من باب التعظيم لله ﷻ وإذا جعل المخلوق بهذه المنزلة صار مثل لو قلت: ما شاء الله وشاء فلان.

كل هذا يقصد به مثل ما سبق أن يطهر العبد ألفاظه ولسانه من الوقوع في المخالفات التي فيها قدح في التوحيد والإخلاص، ولا يصل الإنسان إلىٰ حقيقة التوحيد والإخلاص حتىٰ يستقيم لسانه بعد استقامة جوارحه علىٰ أمر الله ﷻ، وقبل هذا استقامة القلب، أن يستقيم القلب وأن يكون تعلقه بربه وحده وأنه هو المعبود الذي يذل له ويخضع ويعظم، ثم يتبع هذا بالعمل ومن العمل الألفاظ التي يتلفظ بها، فيجب أن يحفظ لسانه من الوقوع في المخالفات التي تقدح في التوحيد، ومعلوم أننا مقيدون بمثل هذا بالنصوص التي في كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ وليست هذه آراء وأقيسة وعقول بل هي دين ندين الله ﷻ به، وهو الذي نأخذه عن ربنا ﷻ الذي يبلغه لنا رسولنا ﷺ فلا بد من هذا.

✍ قال المؤلف ؒ : وجاء عن إبراهيم النخعي: «أنه يكره أن يقول الرجل: أعوذ بالله وبك، ويجوز أن يقول: بالله ثم بك»، قال: «ويقول: لولا الله ثم فلان، ولا تقولوا: لولا الله وفلان»(١).

هذه الكراهة المقصود بها التحريم، وأنه يكرهه؛ لأن غالب ما جاءت الكراهة فيه يدل علىٰ التحريم مثل قول ابن مسعود، ومثله قول إبراهيم النخعي وهو من تلامذة ابن مسعود وهو تابعي، والكراهة تنقسم إلىٰ قسمين: كراهة تنزيه وهذه فعلها ليس فيه إثم وتركه فيه أجر لأنه من باب التحرز، وباب الكمال.

وكراهة تحريم وقد جاء في القرآن: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء: ٣٨] يعني: أنه محرم وقبيح.

---

(١) مصنف عبد الرزاق رقم (١٩٨١١).

✍ **قال المؤلف رحمه الله: فيـه مسـائل:**

۞ **الأولى: تفسير آية البقرة في الأنداد.**

والتفسير معناه أن الشرك الأصغر الذي يكون في الألفاظ يقول ابن عباس أن الآية تدل عليها، لكن قد يعترض معترض يقول أنها نزلت في الشرك الأكبر كما هو واضح من سياق الآية، نقول: إن ابن عباس ونحوه من السلف الذين شاهدوا نزول الوحي وأخذوا ذلك عن رسول الله ﷺ بينوا هذا، أن الشرك الأصغر داخل في الأكبر فما نزل في الأكبر يكون دليلًا على المنع من الأصغر وأنه من المحرمات، وهذا هو الذي يقصد من التفسير، وليس التفسير محصور في هذا فهو أعم من هذا، فأول ما تدل عليه أن الشرك الأكبر مناف للتوحيد ومناف للأمر والعبادة التي خلق الله ﷻ لها خلقه، لكن الشرك الأصغر الذي لا يخرج الإنسان من الدين الإسلامي يكون داخلًا في مدلول الآية التي نزلت في الشرك الأكبر الذي هذا وصفه.

۞ **الثانية: أن الصحابة رضي الله عنهم يفسرون الآية النازلة في الشرك الأكبر أنها تعم الأصغر.**

هذا تفسير لقوله الأول، فهي إيضاح لقوله تفسير الآية.

۞ **الثالثة: أن الحلف بغير الله شرك.**

كما في نص الحديث: «**من حلف بغير الله فقد أشرك**»، فهو شرك لأن الشرك هو مجرد التشريك في شيء ومنه الحلف، ولهذا لا يجوز الحلف إلا بالله، فإذا حلف إنسان بغير الله فقد جعل ذلك المخلوق شريكًا لله ﷻ في خصيصة من خصائص الله التي هي أن الحلف يجب أن يكون باسم من أسماء الله أو بصفة من صفاته ﷻ.

۞ **الرابعة: أنه إذا حلف بغير الله صادقًا فهو أكبر من اليمين الغموس.**

يعني: أنه أشرك، فالشرك أكبر من الكذب المتعمد الذي فيه قطع حق إنسان، قد جاء في هذا حديث كما في صحيح مسلم: «**من حلف علىٰ يمين صبر يقتطع بها مال امرئ مسلم هو فيها فاجر، لقي الله وهو عليه غضبان**»(١)، وهذا أمر ليس سهلًا.

۞ **الخامسة: الفرق بين الواو وثُم في الوضع.**

يعني: في اللفظ، فهذا لمن يفهم اللغة، يعرف الفرق، ولكن الذي لا يفهم فحكمه كذلك يجب أن يجتنب ذلك، وإن كان لا يفهم العطف مع التراخي، والمعطوف قد يأخذ حكم المعطوف عليه، وقد لا يأخذه.

(١) رواه مسلم رقم (١٣٨) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

الباب الثالث والأربعون

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **باب ما جاء في من لم يقنع بالحلف بالله.**

يعني: من الوعيد فإذا لم يقنع بالحلف بالله يعني أنه ليس عنده تقدير لله جل وعلا، وليس في قلبه عظمة الله. والواجب على الإنسان المسلم أن يقدر الله جل وعلا حق قدره حسب إمكانه لأنه لا يمكن لمخلوق أن يقدر الله على ما يستحقه، ولكن الله عفو كريم، إذا قام الإنسان بما يستطيع فإن الله يعفو عن الكثير.

قوله: «يقنع»؛ يعني: أنه إذا حلف له بالله يكتفي بذلك لأن المفروض أن يكون المسلم صادقًا فإذا أكد خبره، فهذا يكون أعظم وأكبر من كون الإنسان مثلًا يظن أن هذا كذبًا وإن كان كثير من الناس يستخف بالأمر؛ لأنه ليس عنده تقدير لله جل وعلا، فمثل هذا لا عبرة فيه. وقد جاء في البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**رأى عيسى ابن مريم رجلًا يسرق فقال له: أسرقت؟ قال: كلا والله الذي لا إله إلا هو، فقال عيسى: آمنت بالله وكذبت عيني**»[1]، فسر هذا بتفسيرين:

أحدهما: أن عيسى عليه السلام رأى ظاهرًا يسرق، فلما قال: كلا والله لم أسرق، صدقه واحتمل أنه له حق في هذا المال الذي أخذه أو أنه أذن له فيه أو ما أشبه ذلك.

التفسير الثاني: أنه لما رأى بعينه هذا السارق ثم حلف له أنه لم يسرق دار الأمر بين أن يصدق بالله جل وعلا لأنه يعلم عظمته وأنه لا يقدم إنسان على الحلف به وهو كاذب وبين أن يصدق ما رأى، فصار تصديقه بالله جل وعلا أولى فقال: صدقت بالله أو رضيت بالله وكذبت عيني.

---

(١) رواه البخاري رقم (٣٤٤٤)، ومسلم رقم (٢٣٦٨).

ويقال أن هذا مثل ما وقع لآدم عليه السلام لأنه لما حلف له الشيطان وأقسم أنه ناصح له وأنه يدله على الخلد صدق حلفه وما ظن أحدًا يحلف بالله وهو كاذب فوقع ما وقع.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله **: عن ابن عمر** رضي الله عنهما **أن رسول الله** ﷺ **قال: «لا تحلفوا بآبائكم، من حلف بالله فليصدق، ومن حلف له بالله فليرض، ومن لم يرض فليس من الله»، رواه ابن ماجه بسند حسن**[1].

وقوله ﷺ: «**لا تحلفوا بآبائكم**»: تقدم النهي عن الحلف بالآباء وأن هذا من الشرك، شرك الألفاظ التي يقتضي تحقيق التوحيد أن ينزه العبد ألفاظه منها، ويطهر لسانه أن يقع فيها، وإلا يكون توحيده ناقصًا؛ لأنه وقع في شيء من الشرك، وإن كان من الأصغر.

وقوله: «**ومن حلف بالله فليصدق**»: فهذا أمر أن العبد إذا حلف بالله أن يكون صادقًا، وأن لا يقدم على الحلف بالله وهو مرتاب فيه لا بد أن يكون على يقين وعلى علم فيصدق في ذلك؛ لأن ذكر الله جل وعلا مؤكد به الخبر أمر عظيم لأن الصدق واجب ولو لم يؤكد بذكر الله عليه والكذب حرام، لا يجوز للإنسان أن يقدم على الكذب.

وقوله: «**ومن حلف له بالله فليرضى**»؛ يعني: إذا حلف له على شيء من الأمور فليرضَ بهذا ويصدق.

وقوله: «**ومن لم يرض فليس من الله**»: هذا وعيد شديد لمَن لا يرضى بالحلف؛ يعني: أن الله بريء منه، فهذا كقوله جل وعلا: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾ [آل عمران: ٢٨] فهو وعيد شديد.

---

(١) رواه ابن ماجه رقم (٢١٠١).

يقول الشارح رحمه الله حُدثت عن المؤلف أنه حمل هذا في الخصومات والقضايا التي تقع بين الناس في القضاء أنه إذا توجه على خصمه اليمين أنه يجب عليه أن يرضى(١). ومعنى ذلك أن الحديث يكون خاصًا، وليس في كل شيء لأنه قد يظهر أن الحالف كاذب.

وكذلك إذا عارض الحلف البينة مثلًا شهد شهود على إنسان ثم حلف أن الشهود كذبه وأنه لم يقع، فهذا لا ينظر إلى حلفه ولا يصدق لأن في ذلك تبطل الدعاوى والبينات.

والظاهر أن الحديث عام، ليس في قضايا الخصومات فقط بل هو عام، فإذا حُلف للإنسان بالله جل وعلا، فإذا لم يكن عنده يقين وعلم بأن هذا الحالف كاذب فإنه يجب عليه أن يرضى بذلك ويصدق.

ووجه إدخال هذا الباب في كتاب التوحيد، أن من لم يرض بالحلف بالله لم يعظم الله جل وعلا ولم يقم بالتوحيد الواجب الذي يسلم الإنسان به من التعرض للعقاب.

✍ **قال المؤلف رحمه الله: فيه مسائل:**

الأولى: وعيد من لم يرض.

يعني: أن الذي حلف له بالله يجب أن يرضى، ومن لم يرض فهو متوعد بوعيد شديد.

(١) تيسير العزيز الحميد (١/ ٥٣٣) قال رحمه الله: وحدثت عن المصنف أنه حمل حديث الباب على اليمين في الدعاوى كمن يتحاكم عند الحاكم فيحكم على خصمه باليمين فيحلف فيجب عليه أن يرضى.

الباب الرابع والأربعون

✍ **قال المؤلف** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **باب قول: ما شاء الله وشئت.**

يعني: ما حكم ذلك؟ هل هو من الشرك أو أنه من الألفاظ التي يُتأدب بتركها واجتنابها؟

وسوف يأتي في الحديث التصريح أنه من التنديد؛ يعني: أنه من الشرك، فيكون داخلًا في الألفاظ الشركية التي يجب على العبد أن يحترز منها ويبتعد عنها حتى يسلم توحيده ويكون من الذين يسبقون إلى الجنة بلا حساب؛ لأن الذين يسبقون إلى الجنة بلا حساب هم الذين أخلصوا التوحيد لله ﷻ وسلموا من الوقوع بشيء من الشرك صغيره وكبيره، أما إذا لم يسلم فقد سبق أن الشرك غير مغفور لصاحبه وإن كان صغيرًا إلا بالتوبة، أما إذا مات عليه بلا توبة فإنه على أصح أقوال العلماء غير مغفور؛ يعني: يؤخذ به، ويعاقب عليه ثم يكون مآله إلى الجنة.

وسبق أن الشرك وإن كان صغيرًا أنه أكبر من الكبائر، فلهذا يجب أن يكون العبد حذرًا من الوقوع بشيء من ذلك ولو باللفظ.

وعلى هذا فقول: ما شاء الله وشئت من المحرمات، فلا يجوز أن يقول الإنسان ذلك لأن الواو تقتضي الجمع إذا عطف بها، والمساواة ولو في مجرد الفعل أو الأمر الذي عطف عليه.

✍ **قال المؤلف** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **عن قتيلة: أن يهوديًا أتى النبي ﷺ فقال: إنكم تشركون تقولون: ما شاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة، فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا**

أن يقولوا: «ورب الكعبة، وأن يقولوا: ما شاء ثم شئت» رواه النسائي وصححه[1].

قوله: «عن قتيلة»: هذا اسم امرأة وهي جهينة أو أنها أنصارية ولكنها صحابية، ويقولون أنه ليس لها من الأحاديث إلا هذا الحديث، وجاء أنها روت هذا عن عائشة وأنها كانت عند عائشة، وأن اليهودية كلمت عائشة بهذا.

قوله: «أن يهوديًا أتىٰ النبي ﷺ فقال: إنكم تشركون»: فيه: أن اليهود يعرفون التوحيد ويعرفون الشرك، وأن الإنسان قد يكون عارفًا للحق ولكنه غير عامل به وغير منتفع به، وأن الحق إذا أتىٰ به من أتىٰ يجب أنه يقبل منه وإن كان عدوًا، ولهذا الرسول ﷺ قبل قول اليهودي.

وفيه: أن الإنسان إذا كان له هوىٰ أنه يفهم الدقائق التي توافق هواه وإن كان غير عامل بذلك؛ لأن هذا اليهودي انتقد علىٰ المسلمين شيئًا دقيقًا، وإن كانوا يقولون عزير ابن الله، ويقولون أيضًا علىٰ الله الكذب ويضيفون إلىٰ الله النقائص، فهم معروفون بهذا ولكنهم أعداء للمسلمين فيتصيدون الشيء الدقيق حتىٰ ينتقدوا المسلمين هذا هو السبب في كونه أتىٰ إلىٰ النبي ﷺ يقول له ذلك، وليس ذلك نصحًا للمسلمين.

وفي هذا: أن هذا القول من الشرك الأصغر إذ لو كان من الأكبر لا يمكن أن يترك الرسول ﷺ أحدًا يقوله أو يقره عليه. وقد يكون هذا لم يبلغ الرسول ﷺ فيكون فيه دليل علىٰ أن الرسول ﷺ لا يعلم الغيب وإنما يعلم ما علمه الله ﷻ.

وفيه: أن الرسول ﷺ، ليس له حُجابٌ يحجبونه وليس له أبواب تحول دونه، كل من أراد أن يأتي إليه وصل إليه، ولهذا اليهودي أتىٰ إليه بسهولة وكذلك غيره.

---

(١) رواه النسائي رقم (٣٧٧٣).

قوله: «**إنكم تشركون**»؛ يعني: أمتك وليس هو ﷺ، فالخطاب يكون لرسول الله ﷺ والمقصود به قومه.

قوله: «**تقولون: ما شاء الله وشئت**»؛ يعني: في خطابهم للنبي ﷺ، أو لغيره، والظاهر أنه لغيره لأنه أنكر ﷺ لما قيل له ذلك كما سيأتي في حديث ابن عباس فيكون اليهودي قد سمع ذلك من المسلمين بعضهم أنه يقول ذلك لبعض، وهذا يؤيد ما سبق في الباب الذي قبل هذا، أن هذه الأشياء كانت ثم نسخت، ومنها الحلف بالآباء لأنه كان شائعًا في أول الأمر، كانوا يحلفون بآبائهم ثم نسخ بعد ذلك وجاء النهي، فكل الأحاديث التي فيها شيء من ذكر الحلف بغير الله محمولة علىٰ هذا، وقد سبقت أجوبة العلماء علىٰ هذا، وذكرنا أربعة أجوبة وذكرنا أن الصحيح أنها منسوخة.

قوله: «**فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا، أن يقولوا: ورب الكعبة**»؛ يعني: أن يحلفوا بالله ﷻ؛ لأن قوله: «**ورب الكعبة**» حلف بالله ﷻ والكعبة مربوبة، والمربوب مخلوق لأن معنىٰ الرب المالك المتصرف الذي يَرُبُّ عبده بما يصلحه ويقوم عليه بذلك، فإذًا الكعبة مخلوقة مربوبة، ومعروف أنها بيت الله ﷻ وأمر الله بتعظيمها بالطواف عليها وبالتوجه إليها في الصلاة وبالحج إليها، وفعل ذلك طاعة لله ﷻ، فإذا طاف الإنسان عليها فإنه يعبد الله امتثالًا لأمر الله، وليس ذلك عبادة للكعبة فالكعبة لا تعبد، وإنما يُعبد ربها الذي أمر بذلك.

وكذلك الحجر الأسود الذي يقبل، ويستلم باليد لأن الله أمرنا بهذا، ونحن نفعل ذلك امتثالًا لأمر الله، ولهذا لا يجوز أن نتمسح بشيء من الكعبة غير ما أمرنا به مثل الركن اليماني والحجر الأسود، وما عدا ذلك فلا يجوز التمسح به لا بحيطان الكعبة وجدرانها ولا في مقام إبراهيم ولا بغيره فمن فعل ذلك فقد ارتكب بدعة، وأتىٰ بمخالفة يجب أن يتوب منها ويستغفر ربه.

ولهذا لا يجوز أن يقال: ربُّ القرآن أو رب المصحف، وسمع ابن عباس رضي الله عنهما وهم في جنازة في البقيع رجلًا يقول: اللهم رب القرآن اغفر لي. فقال: مه القرآن كلام الله غير مربوب[١]. والمربوب هو المخلوق.

وقوله: «رب الكعبة»؛ يعني: الحلف بالله جل وعلا، سواءً قلت رب الكعبة أو رب السماوات والأرض، أو رب العالمين، أو رب محمد أو رب جبريل، أو ما أشبه ذلك، ومعروف أن الإضافة إلىٰ الله جل وعلا علىٰ نوعين:

النوع الأول: إما أن تكون الإضافة إضافة عين قائمة، والعين القائمة هي التي تشاهد وترىٰ وتشغل مكانًا مثل: ناقة الله، بيت الله، رسول الله.

النوع الثاني: أو تكون الإضافة إلىٰ معنىٰ غير قائم بنفسه مثل رحمة الله، علم الله، حلم الله.

فإذا كانت الإضافة عينًا قائمة، فهذا من باب التشريف، وباب الخصوصية أُضيف لخصوصية فيه، إما لأنه فعل يفعل فيه ما هو أمر الله جل وعلا، أو أنه آية من آيات الله مثل: ناقة الله، أو أنه رسول الله قائم بأمره يبلغه ويدعو إليه، فله خصوصية في هذا.

أما إذا كان عامًا مثل: رب السماوات والأرض، فهذا يدخل فيه الخاص والعام، فهو يدل علىٰ الربوبية العامة المطلقة، والله رب كل شيء تعالىٰ وتقدس.

أما إذا كانت الإضافة معنىٰ مثل: الرحمة والقوة والعزة والإرادة، وما أشبه ذلك، فهذا إضافة موصوف إلىٰ صفة لأن المعنىٰ لا يقوم بنفسه لا بد أن يقوم بمن أضيف إليه.

---

(١) شعب الإيمان (١/ ١٨٨) عن ابن عباس: أنه صلىٰ علىٰ جنازة فقال رجل: اللهم رب القرآن العظيم اغفر له، فقال ابن عباس: ثكلتك أمك! إن القرآن منه، إن القرآن منه.

قوله: «وأن يقولوا: **ما شاء الله ثم شئت**»؛ يعني: يأتون بثم والفرق بين الواو وثم: أن ثم تدل على الترتيب مع التراخي وإذا جاء الترتيب زال المحذور؛ لأن المحذور هو الجمع بين ما هو لله وما هو للعبد، أو الجمع بين الأمر المشترك فيه بين الله وبين العبد، الأمر المشترك كما في هذا الحديث.

وقد زعم بعض العلماء أن هذا لا بأس به، وهذا شيء عجيب، كيف يأتي الحديث عن الرسول ﷺ ثم يقول أنه لا بأس بفعل ذلك، واستدل بمثل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وبمثل قوله ﷻ: ﴿سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ [التوبة: ٥٩] يقول: فجمع بين الله وبين رسوله بالإنعام وبالفضل، فهذا يدل على الجواز والجواب عن هذا من وجهين:

أحدهما: أن الله ﷻ له أن يقول ويفعل ما يشاء مثل ما سبق في الإقسام، فالله يقسم بما يشاء من مخلوقاته، ولا حجر عليه تعالى وتقدس بخلاف العبيد فإنه يجب أن يمتثلوا أمر ربهم.

الجواب الثاني: أن ما ذكر في الآيتين مختلف الفعل، وليس متحدًا، ففعل الله يخصه وفعل الرسول ﷺ يخصه، فالله أنعم على زيد بالإسلام وبالخلق وبالإحياء، وغير ذلك.

والرسول ﷺ أنعم عليه بالعتق، اعتقه فيكون الأمر مختلفًا، ليس كما في هذا الحديث: «ما شاء الله وشئت» فجمع بين مشيئة الله ومشيئة عبده.

وكذلك الآية الأخرى ففضل الله بأنه رزقهم ويسر لهم الأسباب، أما تفضل الرسول ﷺ فهو سبب وإن كان يفعله حقيقة، ولكنه بإذن الله وبأمر الله والأول هو المعتمد.

ويبقىٰ أن هذا ممنوع لا يجوز أن يقول الإنسان مثل هذا، ومثل هذا العطف علىٰ فعل الرب ﷻ في غير المشيئة، مثل: لولا الله وأنت، وأنا معتمد علىٰ الله وعليك، وأنت لي في الأرض والله لي في السماء، كما في الألفاظ الكثيرة التي نسمعها من الناس، فإن هذا أعظم من قول ما شاء الله وشئت.

فالواجب أن تضاف الأمور إلىٰ الله ﷻ، وإذا ذكر السبب يعطف علىٰ ما أضيف إلىٰ الله بـ «ثم»، وإذا لم يعطف ويترك لله وحده فهو أولىٰ كما جاء في الحديث: «**بل ما شاء الله وحده**»(١).

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **وله أيضًا عن ابن عباس أن رجلًا قال للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت. فقال: «أجعلتني لله ندًا؟ ما شاء الله وحده»**(٢).

قال: «وله أيضًا»؛ يعني: للنسائي.

قوله: «**أن رجلًا قال للنبي ﷺ**»: جاء أنه طلب من النبي ﷺ شيئًا فقضاه له، فقال له: ما شاء الله وشئت، فأنكر ﷺ عليه هذا القول، وقال: «**أجعلتني لله ندًا**»، والند سبق معناه: أنه المثل والنظير ولو بصفة من الصفات، وهذا يدلنا علىٰ أنه ولو بفعل من الأفعال ولا يلزم أن يكون الند مماثلًا لما ينادده من كل وجه، وهذا ظاهر لمن تأمل هذا الحديث وغيره.

وقوله: «**أجعلتني**»: الاستفهام استفهام إنكاري، وهو من الكلام البليغ.

«**أجعلتني لله ندًا**» فهل مثلًا الذين يزعمون أنهم يحبون الرسول ﷺ فيجعلون له ما لله ﷻ، فنوازن مثلًا بين ما يقولونه وبين هذا الذي أنكره ﷺ أشد الإنكار،

(١) رواه أحمد في المسند رقم (١٩٦٤).

(٢) رواه النسائي رقم (١٠٨٢٥)، وأحمد في المسند رقم (٢٥٦١) بلفظ: «**أجعلتني لله عدلًا**» وهذا اللفظ أخرجه البخاري في الأدب المفرد رقم (٧٨٣).

فيتبين الفرق الشاسع كما في قول القائل:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم
إن لم تكن في معادي آخذًا بيدي فضلًا وإلّا قل يا زلّة القدم
فإنّ من جودك الدنيا وضرَّتها ومن علومك علم اللوح والقلم(١)

فجعل الدنيا والآخرة في ضمن جود الرسول ﷺ، ومن جملة علومه علم اللوح والقلم هذه مبالغة ما وصل إليها شرك النصارىٰ وهم الذين قالوا المسيح ابن الله نسأل الله العافية ثم يقول:

ولن يضيق رسول الله جاهك بي إذا الكريم تجلىٰ باسم منتقم.

ورسول هنا منصوب علىٰ النداء، تقديره: لا يضيق يا رسول الله جاهك بي، فهو يقصد يوم القيامة، إذا غضب الله ﷻ غضبًا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله يقول في مثل هذا المقام: لا يضيق بي، جاهك يحميني من غضب الله.

فكأنه جعل الرسول فوق الله تعالىٰ وتقدس، ولهم أشياء كثيرة في هذا المجال بأشعارهم ومبالغاتهم -نسأل الله العافية- فيجب علىٰ الإنسان أن يتنبه لمثل هذا.

وقوله: «**بل ما شاء الله وحده**»؛ يعني: قل ما شاء الله وحده، فهو أمرٌ بالتوحيد، نهاه عن الشرك وأمره بالتوحيد، وهذا يدلنا علىٰ أن توحيد الله ﷻ يجب أن يكون في كل شيء، في أفعاله وفي صفاته وفي أمره الذي يأمرنا به، ونهيه الذي ينهانا عنه، ومعنىٰ ذلك أننا عبيد لله ﷻ يجب أن نمتثل أمره ونعرف قدره ونعظمه حق تعظيمه،

---

(١) قصيدة للبوصيري، شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد بن حماد بن عبد الله الصنهاجي البوصيري المصري ((٦٠٨)-(٦٩٦)هـ) نسبة إلىٰ بوصير من قرىٰ بني سويف بمصر، شاعر. أغلب شعره في مديح النبي ﷺ علىٰ طريقة الصوفية. من أشهر قصائده البردة والهمزية والرائية.

ويلزم من هذا تعظيم أمره إذا أمر بشيء يجب أن نعظمه، ويلزم علىٰ هذا أن نعظم رسوله ﷺ فإذا أمرنا بشيء امتثلنا ونحرص علىٰ طاعته واتباعه، وكذلك يلزم منه تعظيم كتابه تعظيم القرآن، وتكريم حملته إكرامًا لكتاب الله، ويلزم منه أيضًا تعظيم المصحف ومن المؤسف أنك تشاهد كثيرًا من الناس يصدر منهم أشياء تدل علىٰ عدم تعظيم المصحف، تجده يضعه أمامه علىٰ الأرض، وإن كانت الأرض طاهرة فليست المسألة مسألة طهارة ونجاسة المسألة مسألة تعظيم، ما وضعه علىٰ ما يدوسه بقدميه فهذا ليس تعظيمًا، يجب أن يكون المصحف معظمًا مقدرًا، ومن ذلك كون بعض الناس يمد رجله إليه، فقد اعتاد الناس أن يضعوه في المساجد في الطاولات التي تكون فيها المصاحف بعضها تكون واطئة، ثم يمدون أرجلهم إليها، ولو كان أمامه مثلًا رجل استحىٰ أن يمد رجله إليه، أما المصحف فلا فهذا يدل علىٰ عدم تعظيم الله ﷻ وتوقيره، هذه الأمور يجب أن يتنبه لها وإذا ذهبت إلىٰ المدارس مدارس الصبيان تجد الأمور التي يندىٰ لها الجبين من تمزيق المصاحف والكتابة فيها ورميها، وكل ذلك يدل علىٰ أنه ليس عندنا تعظيم للقرآن، وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: أجمع المسلمون علىٰ وجوب تعظيم المصحف، وهذا أمر معلوم، والتساهل فيه لا يجوز، وهو تابع لتعظيم الله ﷻ.

✍ قال المؤلف رحمه الله: ولابن ماجه عن الطفيل أخي عائشة لأمها قال: رأيت كأني أتيت علىٰ نفر من اليهود قلت: إنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون عزير ابن الله. قالوا: وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون ما شاء الله وشاء محمد. ثم مررت بنفر من النصارىٰ فقلت: إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: المسيح ابن الله. قالوا: وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد. فلما أصبحت أخبرت بها من أخبرت ثم أتيت النبي ﷺ فأخبرته، قال: «هل أخبرت بها أحدًا؟»، قلت: نعم، قال:

فحمد الله وأثنىٰ عليه، ثم قال: «أما بعد، فإن طفيلًا رأىٰ رؤيا أخبر بها من أخبر منكم وإنكم قلتم كلمة كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها، فلا تقولوا: ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا: ما شاء الله وحده»(١).

الطفيل: هو ابن الحارث بن سخبرة، والحارث هذا قدم إلىٰ مكة، فحالف أبا بكر ثم توفي وكانت زوجته أم رومان، فلما توفي تزوجها أبو بكر وولدت له عائشة وعبد الرحمن، فهذا معنىٰ قوله: أخي عائشة لأمها.

والذي عند ابن ماجه عن حذيفة ابن اليمان، وليس عن الطفيل، فلا يكون هذا فيه قدح علىٰ شيخ الإسلام ﵀، بل هنا يدل علىٰ إتقانه وقوة ذاكرته وعلمه ﵀، وقد علم أن العصمة لكتاب الله ﷻ، أما الكتب التي يكتبها الناس فلا بد أن يقع فيها الخطأ، ولو صححه مائة مرة لا بد أن يقع خطأ.

قال: «رأيت كأني أتيت علىٰ نفر من اليهود»؛ يعني: في الرؤىٰ هذه رؤيا منام.

قوله: «قلت: إنكم لأنتم القوم»؛ يعني: القوم الكاملون.

قوله: «لولا أنكم تقولون: عزير ابن الله، وقالوا: وأنتم لأنتم القوم، ولولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد»: وهذه العجائب، حتىٰ في الرؤيا تقع هذه الأشياء، فهي دليل علىٰ أن هذا واقع في اليقظة، أنهم يقولون ذلك، فهي رؤىٰ حق.

قوله: «ثم مررت بنفر من النصارىٰ، فقلت: إنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: المسيح ابن الله، قالوا: وأنتم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد»: اتفق اليهود والنصارىٰ علىٰ هذا الانتقاد الذي يقوله المسلمون؛ يعني: أنه ليس عندهم إلا هذا وجعلوه مقابل ما قالوه أن الله ﷻ له ابن -تعالىٰ الله وتقدس- فمعنىٰ

---

(١) رواه ابن ماجه رقم (٢١١٨)، وأحمد في المسند رقم (٢٠٦٩٤)، والطبراني رقم (٨٢١٤).

ذلك أن العدو يبحث عن العيب وإن كان قليلًا فيقابل به العيب الكبير العظيم، والمقابلة يجب أن تكون مماثلة بمثل هذا، البون في هذا شاسع جدًا، ولكن هذا الذي أدركوه، ما وجدوا غيره.

وفيه: أن مشيئة الله ﷻ يجب أن تكون عامة شاملة، وهي خاصة به تعالىٰ وتقدس، والمخلوق لا يشاركه فيها، وكذلك سائر الصفات مثل العلم، علم الله خاص به والسمع والبصر والقدرة والرحمة والغضب والرضا والسخط وغير ذلك؛ يعني: جميع صفاته تكون خاصة به، وإن كان المخلوق يشارك في الاسم وفي المعنىٰ أيضًا، ولكن عند الإضافة تزول هذه المشاركة سواء كانت الإضافة لله كغضب الله، ورحمة الله ورضىٰ الله، أو للمخلوق كغضب زيد، أو عمرو ورضاه ورحمته، فالله لا يشارك زيدًا وعمرًا وبكرًا في خصائصه؛ يعني: خصائص المخلوقين، كما أن المخلوقين لا يشاركون الله ﷻ في أوصافه وخصائصه، فهذا يجب أن تكون قاعدة نسلكها في جميع الصفات.

وبهذا استدل العلماء علىٰ أن تعطيل الله من أوصافه الكاملة التي وصف بها نفسه أو تعطيله عن بعضها أنه شرك، وكذلك إلحاق المخلوق به أنه شرك ولهذا تجد أهل الكلام لا ينفكون عن الشرك؛ يعني: أن الشرك ملازم لهم -نسأل الله العافية- وهذا أمر عظيم وقد يكون من الشرك الأكبر، ومعنىٰ ذلك أن الشرك الأكبر يقع في العبادة ويقع في الصفات ويقع في الأفعال، أفعال الله ﷻ كما في هذا الحديث: «تقولون: ما شاء الله وشاء محمد» هذا شرك.

قوله: «**فلما أصبحت، أخبرت بها من أخبرت**»: جاء أنه أخبر بعض أهله.

قوله: «**ثم أتيت النبي ﷺ فأخبرته**»: مثل هنا يقال مثل ما مر معنا في إتيان اليهود إلىٰ النبي ﷺ يدل علىٰ أنه ليس هنا كلفة أو موانع تمنع الإنسان إذا أراد أن

يأتي للنبي ﷺ فالأمر سهل، ليس هناك بواب وحجاب ولا غيرهم، بل هو قريب منهم، من أراد أن يأتي إليه أتىٰ، ولأنه رسول الله وليس من الملوك الذين يتكبرون ويمنعون الناس أن يأتوا إليهم ولا يأتي إليهم إلا الكبراء ومن له قدر عندهم.

قوله: «قال: هل أخبرت بها أحدًا؟ قلت: نعم»: قد يكون سبب السؤال هنا أنه إذا كان أخبر بها أحدًا يكون قد فسرها بشيء؛ لأن الرؤيا إذا فسرت غالبًا أنها تقع مع أن الرؤيا في الواقع تنقسم إلىٰ قسمين:

رؤيا ظاهرة لا تحتاج إلىٰ تفسير، وهذه منها.

ورؤيا هي أمثال يضربها الملك الموكل بالرؤيا فقد تكون بعيدة، وقد تكون قريبة تحتاج إلىٰ التفسير والتأمل، والتفسير يجب أن يكون عن علم ليس فيه تخبط.

قوله: «قال: **فحمد الله وأثنىٰ عليه**»: الحمد: ذكره تعالىٰ بما هو أهله، والثناء إعادة ذلك وتكراره من الجميل والنعم والفضل الذي يتفضل به أو يتصف به ﷻ، وكل أفعال الله جميلة، ولكن الحمد يكون بأوصافه وأسمائه الحسنىٰ، ولكن إذا جاء مقرونًا بالثناء: «**حمد الله وأثنىٰ عليه**» فمعنىٰ ذلك أنه كرر ذلك، بدأ به وكرره وذكره بهذا، ففي هذا مشروعية الحمد والثناء، يحمد ثم يثني بذكر الحمد والله يحمد بأفعاله وبصفاته، والناس لا يستطيعون أن يقوموا بما يستحقه من الحمد بل الخلق كلهم، ولهذا هو ﷻ حمد نفسه ﷻ في المبدأ وفي المنتهىٰ وفي ما بينهما، قال تعالىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١] هذا في مبدأ الأشياء، وقال في النهاية: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥].

فهنا يلاحظ التعبير في قوله: «وقيل»؛ يعني: أن الحمد جاء عامًا لله ﷻ من خلقه عمومًا حتىٰ من أهل النار، أما بين ذلك فهو كثير جدًا، وحمد الله واجب وكذلك

الثناء عليه، وقد جعل الله حمده والثناء عليه والصلاة علىٰ نبيه ﷺ من أسباب قبول العمل وقبول الدعاء، إذا أراد الإنسان أن يدعو ويقبل دعاؤه فليحمد الله أولًا ويثني عليه بما هو أهله بصفاته وأسمائه الحسنىٰ ثم يصلي علىٰ نبيه ﷺ ثم يدعو، إذا دعا بعد هذا يكون هذا من أسباب الإجابة.

وقوله: «ثم قال: أما بعد»: أما بعد: هذه الكلمة مشروعة في الخطب، وهذه خطبة، وفي هذا أن الرسول ﷺ كان إذا أراد أن يأمر بشيء، أو يعلم أحدًا بشيء هام أنه يخطب ويحمد الله ويثني عليه ثم يقول: أما بعد، إن الأمر كذا وكذا.

فهكذا ينبغي للإنسان أن يستن به ﷺ سواءً في ذكر العلم أو غيره في الأمور التي تشرع وتعمل لأن هذه سُنَّته ﷺ.

قوله: «فإن طفيلًا رأىٰ رؤيا أخبر بها من أخبر منكم، وإنكم قلتم كلمة كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها»: جاء في المسند: «**كان يمنعني الحياء**»[1]، نقول: إن الحياء يمنعه لأن الله ما أمره بهذا، أما لو أمره الله بهذا فإنه لا يمنعه لا حياء ولا غيره، فهو ﷺ ينفذ أمر الله علىٰ كل حال. ولهذا كان إذا غضب لله لا يقوم لغضبه أحد، ولا أحد يجرؤ أن يكلمه، ولهذا لما سرقت المرأة الشريفة «المخزومية» في مكة، شق ذلك علىٰ الناس مشقة كبيرة، قالوا: كيف هذه امرأة شريفة تقطع يدها فتشاوروا فيما بينهم أن يكلموا الرسول ﷺ، فكلهم أجمعوا فقالوا: لا يمكن أن يجرؤ علىٰ هذا إلا حِبَّه ابن حِبه أسامة بن زيد، فذهبوا إلىٰ أسامة فقالوا لو تكلِّم الرسول ﷺ، فلما كلمه غضب عليه، قال له: «**أتشفع في حد من حدود الله**»، ثم قام فخطب ثم قال: «**إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة**

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم (٢٠٦٩٤).

بنت محمد سرقت لقطعت يدها»[١]، فالرسول ﷺ إذا تبين أمر الله له لا يمكن أن يمنعه لا حياء ولا غيره.

فلا بد أن نقول أن الحياء الذي يمنعه لأنه لم يأته وحي في هذا، وكان يكرهه ولكنه استحىٰ أن ينهىٰ عنه بلا أمر.

ثم قال: «فلا تقولوا: ما شاء الله وشاء محمد».

وهذا دليل علىٰ أن الرؤيا تكون سببًا للتشريع لأنها نوع من الوحي فيكون شرعًا بسببها مثل ما وقع في الأذان وغيره، وهذا من هذا.

«فلا تقولوا: ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا: ما شاء الله وحده».

ولم تأت «ثم» قال: «**ما شاء الله وحده**» وهذا أكمل من قول: «ما شاء الله ثم شئت»، وأبعد من الوقوع في المشاركة، فهذا فيه النهي عن الجمع بين مشيئة الله وبين مشيئة العبد بالواو، وكذلك في سائر الصفات، وفي سائر الأعمال التي تضاف إلىٰ الله ﷻ.

يبقىٰ إشكال، وهو ما الفرق بين أن تقول: ما شاء الله وشئت، أو تقول: ما شاء الله ثم شئت؟

والفرق الذي ذكره النحاة وأهل اللغة أن ثم للعطف ولكنه عطف متراخي مع الترتيب الذي يكون ما بعدها مرتب علىٰ ما قبلها، ولهذا جاء في القرآن مطردًا في ذكر خلق السموات والأرض، ثم ذكر الاستواء بعدها بكلمة ثم ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فهذه عاطفة ولكنها عاطفة بالترتيب مع التراخي.

---

(١) رواه البخاري رقم (٣٤٧٥)، ومسلم رقم (١٦٨٨).

وتدل على التشريك، لكنه تشريك بعد التراخي والترتيب، فإذا كان الترتيب انتفى المحذور؛ لأن هذا رتب على مشيئة الله، فينتفي المحذور، وذلك أن الواو لمجرد الجمع ولهذا لو قال إنسان: ما شاء الله ثم شئت وهو يقصد تشريكه في مشيئته، فهذا لا يجوز بل هو أعظم مما لو قال: ما شاء الله وشئت.

فالمقصود: ترتيب الكلام، والكلام يجب أن يكون مفهومًا على نحو ما كان يتكلم به أهل اللغة.

وكان الرسول ﷺ يعتني بالرؤيا، وكان ﷺ كثيرًا إذا صلى الصبح وسلم يقول لأصحابه: «**هل رأى أحد منكم رؤيا**»، ثم يقصون عليه ويفسرها لهم.

واليوم الناس فتنوا بالمرائي، والمعروف أن الرؤيا تنقسم إلى ثلاثة أقسام كما جاء في الحديث:

القسم الأول: رؤيا هي أضغاث أحلام، الأمور التي يزاولها الإنسان في حياته، إذا كثر ملابسته لشيء وتردده فيه، فإذا نام تجده يفعل هذا فتجد الذي يلعب الكرة إذا نام يلعب الكرة والذي يقرأ القرآن تجده إذا نام يقرأ القرآن، وهكذا وهذا هو الذي خاف منه السلف يقولون النوم شبيه الموت، فالموت قريب منه، فإذا كان الإنسان مشغولًا في شيء وحضره الموت اشتغل بذلك الشيء، وهذا أمر شوهد في المحتضرين، تجد كثيرًا إذا احتضر يقال له قل لا إله إلا الله، فتجده يشتغل بما يزاوله، ولا يقول هذا، وقد ذكر ابن القيم أشياء من هذا كثيرة، وكذلك عبد الحق الإشبيلي في كتابه «العاقبة».

القسم الثاني: تخويف من الشيطان، يخوف العبد به وهذه ظاهرة، ومثل هذه لا تقص على أحد إذا رآها الإنسان يجب أن ينفث عن يساره ثلاثًا ويستعيذ بالله من الشيطان ويتحول عن الحالة التي كان عليها، إذا كان نائمًا على يساره ينام على جنبه الأيمن وهكذا.

القسم الثالث: رؤيا الحق التي هي أمثال يضربها الموكل، ولكن إذا كان الإنسان يصدق الحديث صدقت رؤياه، أما إذا كان يكذب في حديثه وأخباره للناس فرؤياه لا تصدق.

فالواجب أن العبد ينزه لسانه من الكلام الذي يكون فيه مؤاخذة ويكون فيه نقص في توحيده ولو لم يقصد المعنىٰ، وإن كان شيء يجري علىٰ لسانه بدون إرادة فقول بعضهم مثلًا إذا أنكر عليه: لا تقل والنبي، لا تقل والأمانة وما أشبه ذلك، يقول هذا من لغو اليمين، هذا جهل؛ لأن الصحابة ما كانوا يعتقدون المشاركة وإنما هو شيء يجري علىٰ ألسنتهم لأنه سبق أن اعتادوا هذا فجرىٰ علىٰ ألسنتهم بلا قصد، فكذلك إذا كان لا يقصد الحقيقة فإنه يكون مؤاخذًا علىٰ ذلك.

فالمؤلف ﵀ كرر هذه الأمور التي هي شرك لفظي أو هي نوع من الشرك اللفظي حتىٰ يبين أن تحقيق التوحيد ليس مجرد عبادة فقط وإخلاص فتحقيق التوحيد يجب أن يكون من جميع جوانبه يكون في القلب ويكون في العمل ويكون في اللفظ، فيصبح الإنسان عبدًا لله حقيقة في كل تصرفاته وفي كلامه وفي نياته ومقاصده، ولهذا يقول العلماء المحققون منهم: إن تحقيق التوحيد عزيز وصعب عند كثير من الناس. فلا بد أن يكون الإنسان علىٰ حذر.

وبهذا يتبين أيضًا أن الذي يقوم بهذا ليس غريبًا أنه يسبق إلىٰ الجنة بلا حساب ولا عذاب كما سبق في الأبواب الأولىٰ.

قال المؤلف ﵀: فيه مسائل:

الأولى: فهم الإنسان إذا كان له هوى.

يعني أنه يفهم ما لم يفهمه إذا لم يكن له هوىٰ، هذا شيء معروف في أصحاب الأهواء فهم يستدلون بدقائق يدركونها بهواهم لأن أهواءهم تميل إلىٰ ذلك، بخلاف إذا تجردوا عن الهوىٰ فإنه قد لا يدركون هذه الدقائق.

فالمقصود أن الإنسان إذا كان له ميل إلىٰ شيء أنه يستدل عليه بأمور خفية وهذا منها.

الثانية: قوله ﷺ: «أجعلتني لله ندًا» فكيف بمن قال: «يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك ...» والبيتين بعده.

الشيخ يشير بهذا إلىٰ أن قول القائل: ما شاء الله وشئت، هذا من الشرك اللفظي الصغير فهل يقارن هذا بقول البوصيري:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به ... سواك عند حلول الحادث العمم
إن لم تكن في معادي آخذًا بيدي ... فضلًا وإلّا قل يا زلّة القدم
فإنّ من جودك الدنيا وضرَّتها ... ومن علومك علم اللوح والقلم

(سواك) يقال له: أين الله؟ وكذلك قوله: «عند حلول الحادث العمم»؛ يعني: يوم القيامة إذا نفخ في الصور، فأصبح يعم الخلق كلهم يقول: «ما لي من ألوذ به سواك» بعضهم يزعم أنه يقصد بهذا الشفاعة، فإذا تنزل معه وأنه يقصد الشفاعة، هل الشفاعة تطلب من النبي ﷺ؟ الشفاعة لا تطلب منه ﷺ وإنما تطلب من الله ﷻ كما قال تعالىٰ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ﴾ [الزمر: ٤٣]، أم هنا يقول العلماء: إذا جاءت فالمعنىٰ (بل) بل اتخذوا، ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [الزمر: ٤٤]، فالشفاعة لله ﷻ ولهذا كما سبق أن العلماء عرفوا الشفاعة أنها: إرادة رحمة المشفوع له وإظهار كرامة الشافع فقط هذه حقيقتها. وإلا فالأمر كله بيد الله.

ثم ينظر الإنسان إلىٰ هذا الكلام الذي يقوله هو وغيره وهم كثير جدًا فهذا مثال فقط، فهل يقارن بقول النبي ﷺ لابنته وأقرب الناس إليه: «**يا فاطمة أنقذي نفسك من النار لا أغني عنك من الله شيئًا**»، وهكذا قال لعمته ولعمه وقال هذا لقرابته كلهم

وقبيلته صلوات الله وسلامه عليه عندما أنزل الله عليه ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] كما في صحيح مسلم، وتقدم كلام الشيخ فيه: لو إنسانًا صنع ما صنع ذلك اليوم لعده الناس مجنونًا[١]، وهذا صحيح، لو قام إنسان وقال: يا صباحاه فإذا اجتمع عليه الناس قال لهم: أنقذوا أنفسكم من النار فإنكم علىٰ خطر عظيم يوشك أن ينزل عليكم العذاب لأنكم عصيتم الله ﷻ علىٰ علم وارتكبتم المناهي ماذا يقول له الناس؟ هذا مسكين، هذا ما عنده فكر.

وليس هذا المقصود، المقصود أن هذه المقارنة بعيدة جدًا، والعجب أن هذا الرجل الذي يقول هذا القول يكتب الكتب في شروح الحديث والتفسير وغيرها ويعد من العلماء، فكيف إذا كان من آحاد الناس!! هذا من أغرب ما يكون، ولهذا نقول أن دراسة التوحيد والاعتناء به أمر مهم جدًا، ولا يجوز أن يتساهل به كما يقوله كثير من الناس، قد فهمنا التوحيد لماذا الترداد؟ والتكثيف؟ التوحيد قد فهم وبعضهم يقول: الناس خلقوا موحدين، عجائب خلقوا موحدين، نعم صحيح الناس فطروا علىٰ الحق ومعرفته، ولكن لا بد من التعلم، ولا بد من الاعتناء بما جاء به الرسول ﷺ ولا بد عن التحفظ من الوقوع فيما وقع فيه هؤلاء، حتىٰ قال بعضهم في قوله: ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: ٩]؛ يعني: الرسول يسبح، وبعضهم يقول: يا الله يا رسول الله، يجعل الرسول مع الله ﷻ. وهذا كثير جدًا وموجود إلىٰ الآن، ربما يكون في بعض الأماكن أكثر من بعض كما هو الواقع، وعلىٰ كل حال نحن لا نقول أن هذا الرجل ونحوه كافر أو مشرك كما قد يفهم من هذا الكلام، ولكن نقول أن هذا الكلام شرك بالله

(١) القاعدة الثانية عشرة من الباب الرابع عشر: جده ﷺ في هذا الأمر بحيث فعل ما نسب بسببه إلىٰ الجنون، وكذلك لو يفعله مسلم الآن.

لا يجوز أن يغتر به لأن الرجل بعينه لا يدري ماذا مات عليه، يجوز أنه تبين له الحق وأنه تاب وغير ذلك.

والحكم لله يحكم بين عباده تعالىٰ وتقدس، وإنما علينا أن لا نغتر بكلام الناس ولا نغتر بمن خالف الحق، يجب أن نتنبه لذلك بقطع النظر من القائل سواء من العلماء أو من المداحين الذين يكون حظهم من رسول الله ﷺ مجرد المدح بالباطل، وقد قال ﷺ: «**لا تطروني كما أطرت النصارىٰ ابن مريم فإنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله**»[1]، وفي رواية قال: «**أنا محمد بن عبد الله، عبد الله ورسوله، والله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله ﷻ**»[2]، فمنزلته التي أنزله إياها أنه عبده ورسوله فهذه أعلىٰ المنازل وأرفعها، أما كونه يدعىٰ مع الله فهذا طريق إلىٰ بغضه إلىٰ أن يكون هذا الفاعل عدوًا لرسول الله ﷺ، والله ﷻ يقول: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]، فعلامة حب الله وحب رسوله ﷺ اتباعه صلوات الله وسلامه عليه، وامتثال قوله والحرص علىٰ الهداية بهديه والاقتداء به صلوات الله وسلامه عليه ونشر سُنَّته هذا هو عنوان المحبة، أما المدح والإطراء بالكذب والباطل بما يخص الله ﷻ فهو يسخطه وهو يكرهه أشد الكراهة بل يعادي من فعل ذلك.

۞ **الثالثة: أن هذا ليس من الشرك الأكبر لقوله: «يمنعني كذا وكذا»**.

سبق أن الذي يمنعه الحياء، وتبين لنا أن الحياء؛ يعني: أنه يستحيي أن ينهاهم عن شيء لم يأته الوحي به، ولهذا لما جاءه جزء من أجزاء الوحي مثل هذه الرؤيا نهاهم بل بادر إلىٰ نهيهم.

(١) رواه البخاري رقم (٣٤٤٥).

(٢) أخرجه أحمد في المسند رقم (١٢٥٥١).

❁ **الرابعة**: أن الرؤيا الصالحة من أقسام الوحي.

الرؤيا الصالحة، وكيف نعرف الصالحة؟ لأن الرؤيا قسمها العلماء إلىٰ أقسام ثلاثة كما سبق، وهذا التقسيم في الواقع جاء مرفوع إلىٰ النبي ﷺ.

❁ **الخامسة**: أنها قد تكون سببًا لشرع بعض الأحكام.

كما كانت سببًا لشرع الآذان كما في الحديث الصحيح، وكما في هذا الحديث وغيره، ولكن هذا في زمن النبي ﷺ، أما بعد وفاته ﷺ فلا يعتمد علىٰ الرؤيا في حكم من الأحكام، ولم يذكر العلماء أن شيئًا من الأحكام اعتمد من أجل رؤيا، ولكن قد يكون فيها ما يستأنس به وتكون من الشواهد فقط، وإنما ذكروا رؤيا ثابت بن قيس بن شماس هي التي عمل به أبو بكر رضي الله عنه ورؤياه أنه لما كانت وقعة اليمامة حصل ما حصل فيها وقتل ثابت بن قيس رضي الله عنه في تلك المعركة رآه أحد الصحابة لما قتل فقال له: قل لخالد بن الوليد أن درعي أخذها فلان وعلامة ذلك أنه ألقىٰ عليها برمة عند خبائه، وخباؤه عنده فرس تستن وقل له إذا ذهب إلىٰ أبي بكر أن عبدي فلان عتيق وفلان له علي كذا وإياك أن تقول هذه أضغاث أحلام، فلما أصبح ذهب إلىٰ خالد بن الوليد ووجد الدرع كما وصف، ثم لما أتىٰ أبا بكر أخبره فقال: إنها رؤيا حق فأعتق عبده الذي قال أنه عتق وأداء الحق الذي ذكر عليه.

فهذه قرينة، أما كونها مثلًا يعمل بالرؤيا في الأحكام فلا يعمل بها بعد الرسول ﷺ؛ يعني: تكون حكمًا مستقل لأن الدين واجب القضاء ولكن لا بد من البينة إذا كان له ورثة فهذه قرينة من القرائن.

الباب الخامس والأربعون

✍ **قال المؤلف** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **باب من سب الدهر فقد آذى الله كما في الحديث.**

السب هو: الشتم واللعن وتوجيه اللوم الذي لا يليق أو وصفه بما لا يليق بعظمته.

والدهر: هو الليل والنهار، هو الزمن.

الأذى: في اللغة: ما خف أثره وضعف.

فبنو آدم يؤذون الله ولكنهم لا يضرونه شيئًا، الضرر لا يلحق الله أصلًا بخلاف الأذى وهذا واحد من استعمالاته الذي ينظر في كتاب الله جَلَّ وَعَلَا يتبين له ذلك، أن الله أخبر أن المنافقين والكافرين الذين قهرهم الإسلام وصاروا تحت حكمه أنهم لا يضرون المسلمين ولكنهم يؤذونهم بالكلام الذي يكون بينهم أو الأشياء التي يتعاطونها.

ثم أنه في الترجمة لم يذكر الحكم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، والحكم المقصود به الحكم الذي يتعلق بالتوحيد لأن السب قد يكون كفرًا، وقد لا يكون كفرًا، وقد يكون ردة عن الإسلام.

والمفروض أن يكون كل ما في هذا الكتاب يتعلق بالتوحيد كما قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الباب الخامس الذي قال في نهايته أن كل ما يأتي فهو شرح للا إله إلا الله وبيان لها، وإذا تأملنا هذا فإذا هو داخل في ذلك بلا شك، لأن مسبة الله إما أن تكون من كافر خبيث يعرف هذا ويتأمله، أو تكون من جاهل لا يعرف قدر الله ولا يعرف ما أوجب الله عليه فلا عذر له في ذلك، أو تكون من أحمق يغضب من كل شيء فيوجه اللوم حتى للأشياء التي لا لوم عليها، فيكون آثمًا إثمًا عظيمًا ناقص التوحيد.

والأذىٰ قد يكون بالقول وقد يكون بالفعل، وقد لا يسلم العبد من ذلك الأذىٰ، ولهذا جاء المؤلف بهذا الباب حتىٰ يأخذ العبد حذره لا يقع فيه فيقدح في توحيده أو يذهبه.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **وقول الله تعالىٰ**: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤].

هذا قول بعض أهل الجاهلية وليس كلهم، يعتقدون هذه العقيدة الخبيثة التي ذكرها الله جل وعلا، ومعنىٰ ذلك أنهم ينكرون الله وينكرون المبدأ والإعادة، ويقولون أنه يحيا قوم ويموت آخرون، يموت من طال عمره وهرم، ويحيا من يولد، وإذا جاءت عليهم السنين فنوا بمر السنين والأعوام والأيام هذه هي التي تفنيهم، ثم يولد آخرون غيرهم وهكذا، وهذه أيضًا عقيدة الفلاسفة، والفلاسفة يقسمونهم إلىٰ قسمين:

فلاسفة إلهيون، يعني: أنهم يتألهون ويتعبدون. وفلاسفة ملاحدة لا يؤمنون لا بمبدأ ولا معاد، ولا بـ إله ولا بدين ويقولون أن الطبيعة هذه التي أوجدت هذا الخلق، وأنه كل ست وثلاثين ألف سنة تعود الأشياء كما كانت كما بدأت، ويزعمون أن هذا تكرر مئات المرات بل ملايين المرات، وهذا مكابرة للعقول والحس والخلق كله، فهم من أكذب خلق الله جل وعلا، وكلهم شر لا خير فيهم، وقد ورثهم قوم، قد تغيرت أفكارهم عن شيء من ذلك ولكنهم علىٰ طريقتهم ونحلتهم.

وقوله جل وعلا: «﴿وَقَالُوا۟﴾»: يعني: هؤلاء الذين خاطبوا الرسول ﷺ، وقالوا له كيف تحيي الأموات وكان أحدهم يأتي بالعظم الرفات ويفته ويقول: تزعم أنه يحيا، استبعادًا لحياة تكون بعد الموت.

أما الفلاسفة فهم يعللون، بقولهم: الموت يبوسة، وهذا لا يمكن أن تدخلها الحياة، فهم ينظرون في أفكارهم فقط.

وهناك من العرب من يؤمن بالمبدأ وبالمعاد ولكنهم وقعوا في الشرك وهم أكثرهم.

وقوله: «﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾»؛ يعني: ما وراء هذه الحياة حياة أخرىٰ إنما هي الحياة الدنيا فقط، ولكن تسميتهم إياها دنيا لأنهم يعيشون فيها فهم يعيشونها، وتباعًا لما جاء عن الأمم السابقة ولا يصح هذا، فتسميتها لأن هناك حياة أخرىٰ وإلا لا يصلح تسميتها دنيا، يقال الحياة فقط حياتنا هذه، ولكنهم لكثرة الإرث وكثرة ما جاء عن الأمم السابقة وغيرهم علقت هذه في أفواههم وفي أخبارهم ومكالماتهم وقالوا هذا، وهذا مما يكذبهم، وفسر هذا بقولهم: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾؛ يعني: يموت قوم ويحيا آخرون هذا معناه؛ يعني: يموت قوم فنيت أعمارهم ويولد غيرهم يخلفونهم.

وقوله: «﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾»؛ يعني: مرور الأيام والليالي وطول العمر هو الذي يهلكون فيه، وليس لهم علىٰ هذا أي دليل، ولهذا قال: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾؛ يعني: أنه ليس عندهم أي علم يستندون إليه وإنما هي ظنون كاذبة ومخالفات للواقع لأن الواقع المحسوس المشاهد يكذب هذا، فخلق السماوات والأرض بل خلق أنفسهم يكذب ذلك، ولهذا قال: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾؛ يعني: ليس عندهم إلا ظنًا كاذبًا، وهذا من قصور العلم وقصور التفكير وقصور النظر فهم لم يستعملوا عقولهم وأفكارهم وإلا لهدوا، إلا أن هذه الحياة بعدها حياة لا تفنىٰ.

وفي الآية الرد علىٰ هؤلاء وتكذيبهم وأن هذا كفر بالله ﷻ، وقد يكون هذا من الشرك لأنهم جعلوا المصرف للدهر وهذا لا يخلو من شيئين:

إما أنهم يعتقدون أن الدهر هو الفاعل وهذا بعيد، ولكن يوجد من يعتقد ذلك، وهذا لا شك أنه كفر بالله ﷻ وإلحاد، بل وعبادة لذلك الفاعل، فيكون شرك بالربوبية ظاهر كشرك المجوس الذين يعبدون إله الخير وإله الشر، أو إله النور وإله الظلمة

أو النار والظلام، فهم يعبدون النار لأن فيها مصدر النور فهؤلاء شاركوهم في شيء.

الثاني: أن يعتقد أن الفاعل هو الله، ولكن وجه اللوم علىٰ الظرف الذي تقع فيه الحوادث، وهذا هو الذي عليه أكثر الشعراء والأدباء فإنهم كثرت أشعارهم وكلامهم في سب الدهر ولومه وزعموا أنه يكرم الجهال والمنحطين ويهين أهل العلم وأهل الأدب وهذا لا يخلو منه كتاب أدب.

وقد قال ابن الجوزي: إن هذا من أعظم الذنوب، ويقول: لم أر ذنبًا أعظم من هذا الذنب، فإنه كفر بالله حيث إنهم يوجهون السب إلىٰ الله ﷻ، ولكنهم يستترون بكونهم يضيفونه إلىٰ الدهر، وهم يعلمون علم اليقين أن الدهر الليل والنهار لا يفعل شيئًا ولا يتصرف، ولا شك أن هذا من أعظم المحرمات ويتضمن الشرك.

فعلىٰ هذا تكون الآية دليلًا علىٰ أن هذا داخل في الشرك سواءً الفريق الأول أو الفريق الثاني كلاهما فعله يدخل فيه الشرك.

قال المؤلف رحمه الله: **وفي الصحيح عن أبي هريرة** رضي الله عنه **عن النبي** ﷺ: **«قال الله تعالىٰ: يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر أقلب الليل والنهار»**(١)، **وفي رواية: «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر»**(٢).

قوله: «وفي الصحيح»؛ يعني: الحديث الصحيح، وإلا فالحديث في الصحيحين، وهذا الحديث من الأحاديث القدسية، والحديث القدسي لفظه ومعناه من الله هذا هو الصحيح، وقال بعض العلماء أن لفظه من الله ومعناه من الرسول ﷺ وهو الذي يعبر، ولكن الصحيح الأول لأنه أضيف إلىٰ الله قولًا: «قال الله» وهذا كثير ما يذكره الرسول ﷺ عن ربه ﷻ، وهذا يدل علىٰ أن قول الله ﷻ ليس منحصرًا

(١) رواه البخاري رقم (٤٨٢٦)، ومسلم رقم (٢٢٤٦) واللفظ له.

(٢) رواه مسلم رقم (٢٢٤٦).

في الكتب التي نزلها بل أنزل أقوالًا غير ما في الكتب؛ يعني: غير ما في القرآن وغير ما في التوراة والإنجيل وغيرها من الكتب التي أنزلها علىٰ أنبيائه قولًا له.

وقد عرف مذاهب الناس في هذا، أن هذا مما يبين بطلان المذاهب التي خالفت الحق في هذا، مذهب المعتزلة واضح، أنهم ينفون القول عن الله ﷻ والكلام أصلًا، ويقولون أن القرآن مخلوق، والقول مخلوق، ولكن الذي قد يغتر به كثير من الناس هو مذهب الأشاعرة الذين يزعمون ولا يزالون يؤلفون الكتب ويقررون هذا المذهب بأن الله يتكلم كلامًا معنويًا وليس كلامًا لفظيًا، وأن الكلام الذي يضاف إليه يكون معنىٰ قائم بالذات، ولهذا إذا جاء ذكر القرآن في كتبهم تجدهم يقولون كلام الله القديم، معنىٰ قولهم كلام الله القديم؛ يعني: أن الله يتكلم كلامًا معنويًا أزليًا قائمًا بذاته، أما أن يتكلم كلامًا يتعلق بمشيئته، يتكلم حيث شاء فهذا عندهم ممتنع وهذا من أبطل الباطل، وقد ملؤوا الدنيا في كتاباتهم وصاروا يرمون الذين يقولون أن القرآن كلام الله حقيقة بأنه مجسم ومشبه وأنه حشوي في سباب طويل عريض.

ومعلوم أن الله ﷻ يحاسب خلقه، وأن الله أرسل الرسل، وأن الله شرع الشرائع، فكيف يرسل الرسول وهو لا يتكلم، وكيف يأمر وينهىٰ وهو لا يتكلم، فمعنىٰ نفي الكلام أنه يبطل الرسالات ويبطل الشرع ويبطل الدين كله، وإن تأولوا وحاولوا أنهم يغطون هذه الأشياء فإنهم لا يستطيعون ذلك إلا علىٰ من لا يفهم ذلك، فأنزلوا الله ﷻ بمنزلة الناقص الذي لا يستطيع أن يتكلم، فيفهم قريبه مثلًا ما في نفسه فيعبر عنه يعبر عما في نفسه، ولهذا يقولون القرآن عبارة عن كلام الله هذا مقصودهم، فإذًا القرآن مخلوق علىٰ هذا، ولهذا يقول الجويني وغيره: الخلاف بيننا وبين المعتزلة في خلق القرآن لفظي، ومنهم الآن من يصرح بأن القرآن مخلوق.

قوله: «يؤذيني ابن آدم»: هذا من أعظم الذنوب، كون ابن آدم يؤذي رب العالمين، وقد أخبر الله ﷻ عن الذين يؤذون الله ورسوله أنهم ملعونون.

والأذية تقع في إضافة ما لا يليق بالله ﷻ إليه ولو لم يحصل السب والشتم، ولهذا جاء أن من أعظم الأذية دعوىٰ أن لله ولدًا -تعالىٰ الله وتقدس- وكذلك الذين يزعمون أن الله فقير، أو أنه تعب لما خلق السماوات أو أنه بخيل قالوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤] وهذا صدر من اليهود ولكن لهم إخوان في هذه الأمة كثيرون ينتحلون مذهبهم ويتابعونهم علىٰ ذلك.

ومن الأذىٰ كون الإنسان يتجه إلىٰ ميت أو حي أو جماد أو غيره فيطلب منه النصر والظفر، ويطلب منه النجاة أو المساعدة علىٰ ذلك فهذا لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا.

ولهذا ابن أبي جمرة لما تكلم علىٰ هذا الحديث قال: هذا تنبيه علىٰ جميع الذنوب؛ يعني: أن الذنوب تدخل في المسبة؛ لأن فيها استهانة لأمر الله تعالىٰ، والذنوب تختلف اختلافًا كبيرًا.

وقوله: «**يؤذيني ابن آدم**»: وجه الأذىٰ لابن آدم وليس المقصود الحصر بأذية ابن آدم، ولكن لأنهم هم الذين نسمع كلامهم ونشاهد أفعالهم، وإلا فالجن كذلك يؤذون الله ﷻ، وكل كافر يؤذي الله ﷻ.

وقوله: «**يسب الدهر**»؛ يعني: ابن آدم، وعرفنا أن الدهر هو الليل والنهار ومسبتهم إياه، هذا ظاهر جدًا لمن يعرف كلام العرب وأحوالهم وما كانوا عليه، والكلام موجه إليهم ذلك أنه إذا أصيب أحدهم بمصيبة إما أنه يعتقد أن الدهر يفعل وهذا لا يأتي من عاقل، أو أنه يعرف أن الفاعل الله ولكن وجَّه اللوم إلىٰ الدهر لأنه هو ظرف الحوادث ومحلها التي تقع لهم وهذا نسمعه كثيرًا من الجهلة وأشباههم الذين يسبون الأيام والساعات ويلعنونها، يقول بعضهم: الله يلعن الساعة التي عرفتك فيها، واليوم الذي شاهدتك فيه، وهذا لا شك أنه من أخبث الكلام وأخبث

المعاصي التي يقعون فيها، وقد جاء في الحديث: «**أنه يأتي قوم في آخر الزمن تكون تحيتهم بينهم اللعن**»[(١)]؛ يعني: إذا لقي أخاه لعنه بدل السلام.

ومن ذلك مسبة أولياء الله، فقد جاء في الحديث: «**لا تقوم الساعة حتىٰ يسبَّ آخر هذه الأمة أولها**»[(٢)]، والآن السب واضح من الرافضة الذين يلعنون الصحابة ويوجهون اللعن إليهم وهم أولىٰ باللعن بلا شك، وهم بهذا الفعل يؤذون رسول الله ﷺ وهم يريدون توجيه اللوم إلىٰ رسول الله ﷺ، ولكنهم لا يستطيعون ذلك فوجهوا ذلك إلىٰ صحابته، ومعنىٰ ذلك علىٰ قولهم أن دعوة الرسول ﷺ فاشلة؛ يعني: إذا كان مثلًا ما آمن به إلا رجل هو الذي استقام علىٰ طريقته فأي دعوة هذه، وبعضهم يقول أربعة: علي، وأبو ذر، والمقداد بن الأسود، وسلمان الفارسي.

قوله: «**يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر**»: قوله: «**وأنا الدهر**» فسَّره بقوله: «**أقلب الليل والنهار**»؛ يعني: أنا الذي أصرفه وأنا الذي خلقته، ومعنىٰ هذا أن من سب الشيء الذي صدر من فاعل فعل أو ما أشبه ذلك فإن السب يرجع إليه، فمثلًا إذا سب البناء يقول هذا البناء مائل ويريد أن يسقط وهذا كذا وكذا وأخذ يشتم، فإن السب يرجع إلىٰ من صنعه بلا شك، وبهذا يتبين لنا خطأ ابن حزم رحمه الله فإنه عدَّ الدهر من أسماء الله جل وعلا لهذا الحديث فهو خطأ فاحش، فالله عز وجل لا يسمىٰ الدهر؛ لأن أسماء الله كلها حسنىٰ.

---

(١) مسند أحمد رقم (١٥٦٢٨) عن سهل عن أبيه عن رسول الله ﷺ: «**لا تزال الأمة علىٰ الشريعة ما لم يظهر فيها ثلاث: ما لم يقبض العلم منهم، ويكثر فيهم ولد الحنث، ويظهر فيهم الصقارون، قال: وما الصقارون أو الصقلاوون يا رسول الله؟ قال: بشر يكون في آخر الزمان تحيتهم بينهم التلاعن**».

(٢) حلية الأولياء (٢/ ٨٧) عن أويس القرني يقول: قال النبي ﷺ: «**احفظوني في أصحابي فإن من أشراط الساعة أن يلعن آخر هذه الأمة أولها، وعند ذلك يقع المقت علىٰ الأرض وأهلها فمن أدرك ذلك فليضع سيفه علىٰ عاتقه ثم ليلق ربه تعالىٰ شهيدًا، فإن لم يفعل فلا يلومن إلا نفسه**».

والأخبار التي تطلق على الله بابها واسع لا تدخل في الأسماء لأن الله يخبر أنه هو الفاعل وأنه هو المتصرف وأن كل شيء بيده، فهو الخالق وحده وليس معه أحد، ليس معه من يتصرف في الكون غيره -تعالى وتقدس- فمثلًا يقول الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝٦٣ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣، ٦٤]، فلا يقال أن الله هو الزارع فيسمى زارعًا أو يؤخذ له اسم من هذا، ولهذا يقول أهل السُّنَّة: يجب أن يعلم أن باب الأخبار أوسع من باب الأسماء. ومعنى أوسع: أي أنها تضاف إلى الله لا على سبيل التسمية، فأسماء الله -تعالى وتقدس- كلها حسنى، ومنها هذا الحديث وقد فسره بقوله: «**أقلب ليله ونهاره**» ولكن قد يقصر الإنسان في التأمل فيقع الإشكال، فمثلًا الحديث المشهور الذي في الصحيح وفيه: «**من تقرب إلي شبرًا تقربت إليه ذراعًا، ومن تقرب إلي ذراعًا تقربت إليه باعًا، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة**»(١)، فهل المقصود أن الله يقرب بالأشبار والأذرع والمسافات، يجب أن يقابل الأول بالثاني، فالعبد لا يتقرب إلى الله بالشبر والذراع والركض والهرولة هذا لا أحد يقوله، وإذا جاء ما يتعلق بالله قالوا يجب أن نأخذه على ظاهره، فكيف هذا يؤخذ على ظاهره والأول لا يأخذه على ظاهره، فإذا كان الأول ليس على ظاهره فذلك يليق بهذا، إذا كان العبد يتقرب بالطاعة والإنابة، فكذلك ما يتعلق بالرب ﷻ فإنه يتقرب إليهم بالإثابة والإجابة والقبول والمغفرة وغير ذلك، فلا يكون من باب الصفات يكون من هذا القبيل، ونقول أن هذا واضح من كلام الرسول ﷺ، فإذًا ليس هناك داع إلى كلام من يقول أن هذا فيه مشكلة ويجب أن نأخذه على ظاهره ... الخ.

---

(١) رواه البخاري رقم (٧٤٠٥)، ومسلم رقم (٢٦٧٥) عن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ: «**يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب إلي شبرًا تقربت إليه ذراعًا، وإن تقرب إلي ذراعًا تقربت إليه باعًا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة**».

والمقصود أن قوله: «**أقلب الليل والنهار**» تفسير لقوله: «**أنا الدهر**»؛ يعني: أني أخلقه وأتصرف فيه وأجعل فيه من الحوادث التي تقع للناس الشيء الذي يتعلق بمشيئة الله وإرادته -تعالىٰ وتقدس- فالأمور كلها بتصرف الله ﷻ.

أما قوله: «**وفي رواية: لا تسبوا الدهر**»؛ يعني: أن هذه الرواية فيها النهي، «فإن الله هو الدهر» فهذه مما أوهم ابن حزم ؒ وجزم بأن الدهر هو من أسماء الله، وأن الله يسمىٰ الدهر، والعجب منه أنه ينفي صفات الله ﷻ يقول: لا يجوز أن تقول أن الله له صفات، وإنما هذا أمر مخترع اخترعه المتكلمون، ثم يثبت مثل هذا الشيء. وزعم أن الصفة ما ثبتت إلا فيما جاء في الصحيح في قصة الذي أمر علىٰ السرية، أمره الرسول ﷺ وكان يصلي بأصحابه ويختم بـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، فقال له أصحابه: إما أن تقتصر عليها وإما أن لا تقرأها قال: لست بفاعل لا بد من ذلك، فسكتوا عنه وتركوه، فلما رجعوا إلىٰ النبي ﷺ أخبروه بذلك، فقال ؑ: «**سلوه لأي شيء يصنع ذلك؟**» لما سئل قال: لأنها صفة الرحمن وأنا أحبها.

هذا هو الذي أثبت ابن حزم قال: هذه صفة الرحمن فقط ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] أما أن نقول أن لله صفات فلا.

فلا ندري ماذا يقول في مثل قوله ﷻ: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧] فكيف يقول برحمته، وهذا كثير في القرآن، وعلىٰ كلٍ هو مجتهد يريد الحق فالله يأجره ويعفو عنه.

وبهذا يتبين لنا أن هذا الباب له صلة قوية بكتاب التوحيد وأن سب الدهر قد ينافي التوحيد كلية، وقد يذهب بما يجب أو يستحب.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **فيه مسائل:**

۞ **الأولى: النهي عن سب الدهر.**

وهذا للتحريم كما هو ظاهر، وقد يصل إلىٰ الكفر.

۞ **الثانية:** تسميته أذى لله.

والإنسان يؤذي الله جل وعلا.

۞ **الثالثة: التأمل في قوله: «فإن الله هو الدهر».**

يعني: تأمل أن الله هو الدهر؛ يعني: أن الله هو الذي يصرف الدهر وهو الذي خلقه وصرفه وأن هذا ليس من أسمائه؛ يعني: تأمل حتىٰ تدرك أن الله هو الخالق للدهر وهو الموجد له وهو الآمر له المتصرف فيه، فالدهر مخلوق مطيع لله جل وعلا، وكذلكم ما يقع فيه من الحوادث.

۞ **الرابعة:** أنه قد يكون سابًا ولو لم يقصد بقلبه.

يعني: بلفظه دون قلبه، ولهذا يجب علىٰ العبد أن يجتنب هذا، وليس هذا خاص بالدهر بل هو عام كما سبق في الباب السابق في قوله: «**ما شاء الله وشئت**»، و«**لولا الله وفلان**»، وما أشبه ذلك، هذا ولو تكلم به بدون اعتقاد فإنه وقع في المخالفة. ومعلوم أن الذي يجري علىٰ لسانه مجرد لفظ لا يقصد معناه لا يكون كمن يقصد معناه، ولكنه هو محرم لا يجوز، فالمقصود أن هذا ليس خاصًا بهذا الباب.

الباب السادس والأربعون

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **باب التسمي بقاضي القضاة ونحوه.**

يعني: ما حكمه؟

وهل هذا يدخل في منقصات التوحيد؟ المؤلف رحمه الله يأتي بالأشياء التي تكون إما قادحة في التوحيد، أو تكون مضادة له، فالقادح يكون منقصًا والمضاد يكون منافيًا له، ويكون هذا من باب تفسير الشيء بضده.

قوله: «التسمي»؛ يعني: في العبد يسمي نفسه أو يُقر ذلك ويرضىٰ به.

وقوله: «ونحوه»؛ يعني: أن هذا ليس خاصًا بهذا الاسم، مع أن الحديث ليس فيه قاضي القضاة، فيه (**ملك الأملاك**)، وهو بوَّب بقاضي القضاة، فمعنىٰ هذا أن كل ما دل علىٰ هذا المعنىٰ فهو داخل في ذلك، فمثل ذلك أن يقول مثلًا: «حاكم الحكام» وهذه أولىٰ بالتحريم من قاضي القضاة، وكذلك ما يتعلق بالكذب مثل أن يقول: إنه سيد الناس فهذا كذب واضح، وإن كان هذا أقل من الأول ولكنه لا يجوز أن يطلق إلا علىٰ رسول الله ﷺ، ففي الصحيح يقول: «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**»(١)، وذكر السبب في ذلك، وهذه مزية له من الله جل وعلا، وهي فضل من الله وليست من الإنسان؛ يعني: أنه هو الذي أوجدها بل هي فضل الله الذي أعطاه الشفاعة فصار بذلك، والسيد هو المقدم في القوم.

وقاضي القضاة هذا انتشر في كثير من البلاد الشرقية لأن الأسماء التي فيها خنوع وفيها تعدي جاءت أصلًا من العجم، فدخلت علىٰ العرب، والعرب ما كانوا

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم (٢٦٩٢)، وهو عند مسلم رقم (٢٢٧٨).

يعرفون مثل هذه، فهذه جاءت بعد الإسلام، لما دخل كثير من الأمم الأعجمية في الإسلام فصاروا يسمون قاضي القضاة وإن كانوا يقصدون به كبير القضاة، فلو قالوا كبير القضاة لكان أولىٰ.

وأهل المغرب سلموا من هذا فإنهم يسمون كبير القضاة عندهم قاضي الجماعة، وهذا لا يدخل في هذا بخلاف ما عندنا فقد يوجد قاضي القضاة فهو من الأمور التي لا تجوز لأن هذا المعنىٰ لا يصح إلا لله ﷻ، هو الذي يقضي بين كل الخلق ويقضي بين القضاة، كل حكومة سوف تعاد عند الله ﷻ فيقضي فيها -تعالىٰ وتقدس- فهو الحاكم الذي يحكم بين خلقه.

ومعنىٰ هذا أن الموحد يجب أن ينزه ألفاظه عما فيه قدح في توحيده، وكذلك أن يبتعد عن الأمور التي فيها دليل علىٰ التعدي علىٰ حق الله أو سوء الأدب مع الله، يجب أن يكون متأدبًا مع ربه وأن لا يكون متعديًا علىٰ حقه -تعالىٰ وتقدس- فحقه ﷻ أنه الحاكم في كل شيء، وأنه هو المشرع الذي يجب أن يتبع شرعه، وهو الناهي والآمر، فيدخل في هذا تسمية الإنسان مشرع، هذا يشرع الشرع الذي يجب علىٰ الخلق اتباعه هو شرع الله، أما ما يشرعه المخلوق فهو إن كان مخالفًا لشرع الله فهو طاغوت ملعون يجب أن يكفر به ويبتعد عنه.

ومثل ذلك ما ذكره سفيان بن عيينة رحمه الله (شاهان شاه)، ومعناه ملك الملوك، ومعروف أنهم يقصدون بهذا ملوك الأرض أو ملوك الدنيا الذين في وقتهم فقط ليس هو عام، ومع ذلك لا يجوز ذلك، لما يوهمه هذا الاسم من تعدي الإنسان وتطاوله، وكذلك سوء أدبه مع ربه ﷻ، وهذا المعنىٰ لا يصلح إلا لله ﷻ فقط، فهو الحاكم الذي يحكم بين خلقه.

وفي التسمي بقاضي القضاة ونحوه الترفع والتكبر علىٰ الناس وهذا نقص في التوحيد، فالترفع والتكبر علىٰ الخلق ينافي الذل لله ﷻ، وإذا كان الإنسان لا يطلبه ولا يقره فإنه لا يدخل في هذا الوعيد، وقاضي القضاة داخل في معنىٰ الحديث.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **وفي الصحيح عن أبي هريرة** رضي الله عنه **عن رسول الله** ﷺ **قال: «إن أخنع اسم عند الله رجل تسمىٰ ملك الأملاك، لا مالك إلا الله»**(١).

قوله: «في الصحيح» الحديث في الصحيحين فربما يقصد رواية أحد الصحيحين، فإنه إذا ذكر اللفظ قال في الصحيح، أما المعنىٰ فهو متفق عليه.

وقد فسر قوله: أخنع، يعني: أوضع، هذا تفسير المؤلف، وقد جاء هذا التفسير مرويًا عن الإمام أحمد رحمه الله وأحمد أخذه عن ابن الأعرابي وهو معروف باللغة فهو تفسير مروي، وذلك في اللغة وإلا هو أعظم من هذا.

قوله: «**أخنع اسم عند الله**»: فإذا كان الاسم وضيع عند الله فكيف بالمسمىٰ، المسمىٰ يكون أشد من كون الاسم أخنع، ومعنىٰ هذا أن الاسم من أقبح الأسماء وأصغرها عند الله، فهو مهان ومعذب من تسمىٰ به، وهذا يدل علىٰ شدة عذابه.

قوله: «رجل تسمَّىٰ ملك الملوك»؛ يعني: أنه يملك الملوك، ولهذا فسره قال: «**لا مالك إلا الله**»؛ يعني: أن الذي يملك الملوك وغير الملوك هو الله ﷻ، أما هذا فملكه ورثه عن غيره وسوف يرثه غيره عنه: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦] والأمر بيده ﷻ وهو الذي يتصرف في خلقه، هذا هو الواجب علىٰ العباد أنه يقولوا ذلك ويفهموه ويتبعوه، أما إذا تطاولوا علىٰ الله ﷻ فإنه يذلهم ولهذا عرف رجل مما كان له شيء من الملك أنه سمىٰ نفسه هذا الاسم، فظهرت إهانته للخلق فأهين واحتقر هذا لأنه مسلم فعوقب بذلك، وإلا فقد يقع هذا من الكافر فلا يعاقب لأن الدنيا ليست محلًّا لعقاب الكفار، وإن كانوا قد يصابون بالعقاب، ولكن الغالب أنه يؤخر عقابهم إلىٰ الآخرة كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨].

---

(١) رواه البخاري رقم (٦٢٠٦)، ومسلم رقم (٢١٤٣).

فالعقاب بعد الموت هو عقاب حقيقي، وعقاب الدنيا وإن وقع فإنه ينتهي بالموت، والموت قريب، ولهذا لم يجعل الله الدنيا محلًّا لعذاب المجرمين، الذي يتأمل ما عليه المجرمون يجد هذا ظاهرًا، ولهذا قال في الحديث: «إن أخنع اسم عند الله» وهذه العندية تدل على أن الله ﷻ عاليًا فوق خلقه لأنه لا يجوز أن يقول عند كذا إلا إذا كان له مكان والله فوق خلقه مستويًا على عرشه، ولكنه رقيب عليهم لا يخفى عليه شيء، كما أنه محيط بهم وهم في قبضته -تعالى وتقدس- ولهذا قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ختم هذه الآية بهذا اللفظ؛ يعني: أنه مراقب ولا يخفى عليه شيء من أفعالكم ولا أقوالكم ولا مما في قلوبكم، فهو يحصيها وسوف يحاسبكم عليها، وكفى بهذا زاجرًا للإنسان الذي يعقل، هذا الذي خالف أمر الله ﷻ.

وهذا مثله؛ لأن الله لا يخفى عليه شيء، ولكن هذا المتسمي سوف يرجع إلى الله وحده فيجزيه بما يستحق.

وقول سفيان فيه التنبيه أنه ليس المقصود هذا الاسم فقط؛ يعني: أن كل ما جاء في اللغات معناه هذا أنه داخل في ذلك؛ لأن (شاهان شاه) هذا في اللغة الفارسية ومعناه ملك الملوك، وهم لا يزالون يسمون ذلك.

❁ **وقوله وفي رواية: «أغيظ رجل على الله يوم القيامة، وأخبثه»[(١)]؛ يعني: أنه صرح بأن الغيظ لرجل وليس للاسم.**

ومعنى «أغيظ»؛ يعني: الذي يغيظ الله ﷻ، ويغضبه، وقيد هذا بيوم القيامة لأنه هو الوقت الذي يجاز به العباد بأعمالهم وأقوالهم وأفعالهم، فيظهر ذلك جليًا،

(١) رواه مسلم رقم (٢١٤٣): «أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه وأغيظه عليه رجل كان يسمى ملك الأملاك لا ملك إلا الله».

وهذا يعطينا أنه قد لا يعاقب الإنسان في الدنيا بما يستحق بل يملي للعبد ويترك يموت مثل ما يموت الناس وإن توهم بعض الناس أنه لم يعاقب.

ففي هذا منازعة لله ﷻ في ما هو له؛ لأنه الذي يقضي بين خلقه وهو قاضي كل خصومة تقع، وكذلك ملك الملوك، فالذي يستسلم لربه ﷻ لا يجوز أن يتسمىٰ بهذا، مع أنه جاء في بعض المتأخرين من العلماء من نازع في هذا وقال: أنه يجوز لأن الرسول ﷺ قال: «**أقضاكم علي**» والحديث ضعيف، فهم يقولون أن هذا فيه دليل علىٰ أنه يجوز أن يقول قاضي القضاة لأن أقضىٰ أفعل تفضيل، وقد رد عليه العراقي رحمه الله ولكنه لم يسمه، قال بعض المتأخرين: الذين تسموا بهذا الاسم وأطلق عليهم وصاروا يتحلونه، وصاروا يتحيلون لجوازه في ذكر بعض الأشياء.

فالمقصود أن هذا لا يجوز، وهو كما هي عادة المؤلف يذكر الأشياء التي فيها قوادح للتوحيد وهذا منها فهو مما ينقصه، وسواء أريد بقاضي القضاة الإطلاق أو التقيد، والإطلاق معناه أنه يطلقه والتقيد يقول: قاضي هذه البلاد، قاضي قضاة هذه البلاد مثلًا، فكله سواء، ومثله كذلك ما قال سفيان بن عيينة: شاهان شاه، وهي ملك الملوك، وسفيان رحمه الله ينبه علىٰ أن المعنىٰ الذي أريد به هذا أنه داخل فيه، وإن اختلفت اللغات وإن عبر عنه بأي لغةٍ كانت فهو لا يجوز، وأما قول رئيس القضاة فهذا ليس فيه مانع، المقصود قاضي القضاة؛ لأن القضاء مرجعه إلىٰ الله ﷻ فهو الذي يقضي بين القضاة، كل قضية حدثت سوف تعاد عند الله ﷻ، والله تعالىٰ هو الذي يقضي بين خلقه.

الباب السابع والأربعون

قال المؤلف رحمه الله: **باب احترام أسماء الله تعالىٰ، وتغيير الاسم لأجل ذلك.**

يعني: لأجل احترام الأسماء.

ومعنىٰ احترام الاسم؛ يعني: تعظيمها، أن تعظم، ويعرف قدرها، وأسماء الله جل وعلا يجب أن تكون ثابتة بالنصوص؛ يعني: ليست من باب القياس، ولا من باب الاختراع والنظر، وإنما هي ما سمىٰ الله به نفسه أو سماه به رسوله ﷺ، ومع هذا فهي حسنىٰ لأن الله ذكر هذا في عدة مواضع من كتابه ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فإذا لم يكن الاسم من الأسماء الحسنىٰ فليس هو من أسماء الله.

ومعنىٰ الحسنىٰ: أي التي بلغت بالحسنىٰ الغاية، ولا يلحقها نقص بوجه من الوجوه لا في لفظها ولا في معناها.

فإذا كان يلحق الاسم شيء من النقص فليست من الحسنىٰ، ولهذا لا يجوز ما أوهم نقصًا أن يطلق بإفراده كالضار أو النافع فقط، بل لا بد أن يقترن وباقترانه يكون من الحسنىٰ.

وقوله: «وتغيير الاسم لأجل ذلك»؛ يعني: لأجل الاحترام وهذا التغيير؛ يعني: أنه واجب ويتعين. ومثل ذلك التسمي بها أن يتسمىٰ الإنسان باسم من أسماء الله التي يختص به، فإن هذا من الإجرام فيكون منافيًا لتوحيده ومن ذلك الانتساب كونه ينتسب إلىٰ اسم من أسماء الله جل وعلا، وسواء أفهم الانتساب معنًىٰ باطلًا أو لم يفهم، وهذا يقع لبعض العجم الذين لا يعرفون اللغة العربية كالرحماني، وما أشبه ذلك، فهذا إجرام نسأل الله العافية.

وقد يشارك المخلوق الخالق في الاسم مثل: الرؤوف، الرحيم، لكن الذي ليس فيه اشتراك فلا يجوز، والشيء الذي فيه اشتراك لا يجوز أن يكنىٰ به كما سيأتي.

قال المؤلف رحمه الله: وعن أبي شُريح: أنه كان يُكنىٰ أبا الحكم، فقال له النبي ﷺ: «إن الله هو الحكم وإليه الحُكم»، فقال: إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني فحكمت بينهم فرضي كلا الفريقين. فقال: «ما أحسن هذا، فما لك من الولد؟» قلت: شريح ومسلم وعبد الله. قال: «فمن أكبرهم؟»، قلت: شريح، قال: «فأنت أبو شريح»[1]، رواه أبو داود وغيره.

وهو صحيح.

أبو شريح: هو هاني بن الحارث الكندي، وليس النخعي كما قال بعضهم الذي هو والد شريح القاضي، فإن هذا من الخطأ الفاحش.

وجاء أنه وفد مع وفد قومه لما جاؤوا مسلمين، ومعنىٰ هذا أنه في آخر الأمر سنة الوفود، ويترتب علىٰ هذا أن هذا الحكم كان قبل أن يسلم، فإذا كان قبل أن يسلم فمعنىٰ هذا أن العرب كلهم عندهم حكام، وأنهم كانوا لا يقتنعون بالقضايا التي يكون فيها تخرصًا أو تكون بدون مبرر، فكانوا لا يورثون البنات لأنهم يقولون أن البنت لا تحمي المال ولا تدافع عن الأعراض، فالذي يرث عندهم الأولاد الذين يركبون الخيل ويدافعون.

وقوله: «ما أحسن هذا»؛ يعني: رضا الفريقين، كون كل واحد يرضىٰ؛ يعني: أن الرضا هو المحسن وليس الحكم.

(١) رواه أبو داود رقم (٤٩٥٥).

والشارح رحمه الله(١) حاول أن يجعل هذا بعد إسلامه، يقول لا بد أن يكون هذا بعد إسلامه، وفيه بُعد لأنه جاء مع الوفد، وإن قيل أنه أسلم قبل هذا فكونه يجعل حكمًا في هذه المدة القصيرة بعيد أيضًا، فالأحسن أن يقال: أن قوله: «ما أحسن هذا»؛ يعني: رضا الفريقين لأن رضى الناس واصطلاحهم أمر مطلوب وهو حسن كما قاله رحمه الله.

والكنية ما أفهمت مدحًا واحترامًا بخلاف اللقب فإنه يدل على العيب والنقص، فإذا أكرم الرجل كُني، وإذا أريد إهانته لقب، فاللقب غالبًا يكون في العيب والنقص، ولهذا نهى الله عز وجل عن التنابز بالألقاب وجعل هذا من الفسوق، والذي لم يتب من ذلك يكون ظالمًا.

وكثيرٌ من الناس الآن يلقبون، وقد لا يعرف الإنسان إلا بلقبه، وهذا من المنكر الذي لا يجوز.

والكنية قد تكون بالنسبة إلى الأبناء وقد تكون بالفضائل وبالمحاسن وما أشبه ذلك، وقد تكون بالعَلَمية المحضة مثل أبي بكر.

وقوله: «كان يُكنى»: هذا يدل على أنه شيء مستمر عندهم تعارفوا عليه هذا هو الغالب، ولا يلزم أن يكون هذا دائمًا في لفظة «كان»، ولكنها إذا جاءت في أسماء الله جل وعلا فمعناها الدوام والاستمرار، الدوام في الماضي والاستمرار في المستقبل ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ١٣٤]، لأن لفظة كان فعل ناقص من الأفعال التي تدل على الماضي، وهذا لا يجوز في أسماء الله، بل كان ولا يزال، كان في الماضي ولا يزال على ذلك جل وعلا.

---

(١) تيسير العزيز الحميد (١/ ٥٥٢) قال رحمه الله: لأن هذه القصة كانت بعد إسلامه بقليل لأنه كان مع وفد قومه حين أسلموا وقدموا على رسول الله ﷺ، ولا يظن أن رسول الله ﷺ يحسن أمر حكام الجاهلية.

وفي الحديث أن الرسول ﷺ كان يغير الأسماء لأجل احترام أسماء الله ﷻ، لأن التكني بأبي الحكم فيه امتهان لاسم الله ﷻ، فهذا هو وجه النهي ووجه المحذور، وهم قصدوا بذلك أنه يرضىٰ لحكمه فنسبوه للحكم، فدعاه الرسول ﷺ فسأله، فبين أنه لم يكنِّ نفسه هو في هذا، وإنما كناه قومه، وقال: إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني فحكمت بينهم، فرضي كلا الفريقين، فكنوه بهذا.

ففي هذا دليل علىٰ أن الناس إذا نصبوا لهم قاضيًا يقضي بينهم أنه ماض قضاءه، ولكن اشتراط العلماء في هذا: صلاحيته للقضاء ولو في مسألة من المسائل؛ يعني: في المسألة التي يتحاكم إليه ويتقاضىٰ إليه فيها يكون صالحًا للقضاء فيها.

أما إذا كان جاهلًا فيها فلا يجوز، ولكن يجوز الإصلاح بين الناس، إلا إذا كان يحل حرامًا أو يحرم حلالًا، ومن ذلك ما يتعارف عليه بعض القبائل، إذا حدث خلاف عندهم اجتمعوا وألزموا هذا الذي صار عليه قضية بأموال أو بذبائح وما أشبه ذلك، فهذا لا يجوز لأن هذا إلزام لا يكون من باب الإصلاح، ولكنه قد يلتزم خوفًا مما قد يترتب علىٰ ذلك من عاقبتهم أو غير ذلك، وبعضهم يلتزم ما كانوا عليه من عادات الجاهلية ويحترمونها، وهذا أيضًا لا يجوز وهو من المحرمات؛ لأن الالتزام يجب أن يكون لشرع الله ﷻ، وليس لعادات الناس وأعرافهم، ولا سيما إذا كان فيه إيجاب شيء، أما الصلح الذي هو جائز بين المسلمين فهو مطلق بشرط أنه لا يترتب عليه تحريم حلال ولا تحليل حرام، فإذا لم يكن بهذه الصفة فهو جائز.

أما القضاء بأن يجعلوا إنسانًا يقضي بينهم في قضية فهذا جائز بشرط أن يكون هذا الإنسان يصلح لأن يكون قاضيًا؛ يعني: يعرف الحكم الشرعي هذا معناه، فإذا كان لا يعرف الحكم الشرعي فلا يجوز أن يجعل قاضيًا بينهم، فإن المؤمن إذا دُعي

إلىٰ الحكم بما أنزل الله يقول سمعًا وطاعة، أما ما يفعله بعض الناس أنه إذا كان عليه قضية ودعاه خصمه إلىٰ الشرع، يقول: لا أذهب واحضر لي شرطي، فهذا لا يجوز وهو خطر عظيم لأنه دعاه إلىٰ الحكم بالشرع، ومن دُعي إلىٰ الشرع يجب أن يُجيب يقول: سمعًا وطاعة.

وقوله ﷺ: «**إن الله هو الحكم وإليه الحكم**»؛ يعني: أن اسمه الحكم، وقد جاء هذا في أسماء الله ﷻ في الأحاديث.

وقوله: «**وإليه الحكم**»؛ يعني: مرجع الخلق إليه فيحكم بينهم سواءً فيما وقع بينهم من خلاف أو فيما يفعلونه من أفعالهم التي كلفوا بها، أو غيرها، فكل الحكم يرجع إليه تعالىٰ وتقدس، ولهذا يثني عليه بذلك قال الله تعالىٰ: ﴿مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢] واعتذار أبو شريح في قوله هذا يقول: «إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني فحكمت».

يدل علىٰ أن الإنسان إذا وضع عليه شيء مما لا يستحقه وهو لا يرضىٰ لا يكون ملومًا، ولكن يجب أن ينهىٰ عنه من الأسماء والكنىٰ وغيرها.

وفي هذا أن الباطل إذا علم ورضي به، أن الإثم مشترك بين الكل، ومثل ذلك الحق وهذه قاعدة في الشرع، ولهذا جاء أن المنكر إذا خفي لا يضر إلا صاحبه، وإذا أعلن ولم ينكَر عمَّ الإثم الجميع، فلا بد من الإنكار، إذا تبين ذلك ومراتب الإنكار معروفة جاء تحديدها في حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

وقوله: «**أتوني**»: يظهر أنهم وضعوه لهذا الشيء، كان لا بد لهم من حل خصوماتهم ومنازعاتهم، وهذا أمر ضروري وهم في الجاهلية يفعلون هذه الأشياء ولكن كثير منهم يتحاكمون إلىٰ الكهان لأن كل قبيلة فيها كهان يتحاكمون إليه،

فالحكومة إلىٰ الكهان من الحكم بالطاغوت، ولهذا مر معنا تفسير الصحابة رضوان الله عليهم الطاغوت بالكاهن، ومرادهم هذا لأنهم كانوا يحكمون بين الناس بالباطل فهم طواغيت والصحابة رضوان الله عليهم قد يفسرون الأشياء ببعض معانيها حسب ما ينفع السامع، وهذه من الأمور التي يجب أن تلاحظ في قضاياهم وفي أفعالهم، مثل التفسير تجد مثلًا في تفسير الآية، أن فيها اختلافًا كثيرًا، والواقع أنه ليس اختلاف وإنما هو اختلاف الألفاظ فقط، أو بالأمثلة كل واحد يذكر الشيء الذي يليق بالسائل وينتفع به وهذا يدل علىٰ عمق علمهم رضي الله عنهم.

وقوله: «**فحكمت بينهم**»: الحكم معناه الإلزام بالشيء، ولولا أنهم رضوا هذا ما التزموا.

ويؤخذ من هذا أنه إذا اجتمع قوم واصطلحوا علىٰ أن يكون لهم قاضيًا يتحاكمون إليه أن هذا القاضي ينفذ حكمه ويجب أن يرضىٰ بذلك بالشروط الماضية، وهي أن يكون عارفًا لأمور الشرع، وإذا كان يصلح بينهم إصلاحًا فلا بد أن يكون هذا الإصلاح لا يتضمن تحريم الحلال ولا تحليل الحرام، وكذلك لا يكون فيه الحيف والظلم وهذا من الحرام؛ لأن كثيرًا من الناس إذا كان الذي يحكم عليه ضعيفًا فهم لا يبالون به، وإذا كان قويًا فهم يراعونه، وهذا من أخلاق اليهود.

وقوله: «**فرضي كلا الفريقين**»: هذا هو الذي يظهر أن الحسن وجه إليه في قول الرسول ﷺ ما أحسن هذا؛ يعني: رضي الفريقان؛ لأن رضا المتنازعين أمر مطلوب شرعًا، فيجب أن يحمل قوله ﷺ: «ما أحسن هذا» علىٰ ذلك، وليس علىٰ الحكم الذي يُحكم به في الجاهلية لأن أحكام الجاهلية كلها باطلة وقد يستثني ما وافق الحق.

قوله: «**فما لك من الولد**»: يدل علىٰ أن التكني بالأولاد هو المطلوب، ولكن إذا لم يكن له أولاد وكان له بنات تكنىٰ بالكبرىٰ ولا بأس بذلك، وإن كان كثير من

الناس يغضب لو تكنيه بابنته، ولكن هذا من أمور الجاهلية.

ثم «قال: شريح، ومسلم، وعبد الله» فسأله ﷺ قال: «فمن أكبرهم؟»، قلت: «شريح». قال: «أنت أبو شريح»، وليس هذا هو الاسم إنما هذه الكنية، وإلا فاسمه هاني، وفي هذا تقديم الكبير في التكني، فينبغي أن يتكنىٰ الرجل بأكبر أبنائه.

وفيه دليل علىٰ أن الواو لا تدل علىٰ الترتيب لأنه قال: «شريح ومسلم وعبد الله»، فلو كانت تدل علىٰ الترتيب لكفىٰ هذا الكلام، لكن سأل الرسول ﷺ فمن أكبرهم؟ قالوا: وتأتي لمطلق الجمع، فهذا مثل ما مضىٰ في الحلف قول: «ما شاء وشئت» جمع بين المشيئتين بالواو؛ لأن الواو لا تدل علىٰ الترتيب بخلاف «ثم» فلو قال: «شريح ثم مسلم ثم عبد الله» مثلًا لدل علىٰ الترتيب.

ففي هذا الباب: أن من تمام التوحيد احترام أسماء الله ﷻ وتعظيمها وتنزيهها أن تكون أسماء لمخلوقين أو أن يتكنىٰ بها أحد من الناس، فيكون هذا من تحقيق التوحيد وعكسه من نقص التوحيد، وهذا هو وجه إدخال هذا الباب في كتاب التوحيد؛ يعني: أن احترام أسماء الله وتعظيمها وإجلالها أن يتكنىٰ بها مخلوق أو يكنىٰ أن هذا من تحقيق التوحيد، وعدم ذلك من القدح في التوحيد، إما أن يكون القادح منافيًا أو يكون منقصًا علىٰ حسب ما يقوم بالقلب.

قال المؤلف رحمه الله: فيه مسائل:

الأولى: احترام أسماء الله وصفاته ولو لم يقصد معناها.

ولو لم يقصد معناه؛ يعني: أنه مجرد تسمية فقط، أما إذا قصد المعنىٰ فهذا كفر لأنه منازعة لله ﷻ.

❁ **الثانية: تغير الاسم لأجل ذلك.**

يعني: وجوب تغيير الاسم لأنه يجب أن يغير الاسم من أجل هذا.

❁ **الثالثة: اختيار أكبر الأبناء للكُنية.**

هذا من باب الاستحباب، وإعطاء كل ذي حق حقه، فإنه لو تكنىٰ بالأصغر نقول أن هذا جائز ولكنه خلاف الأولىٰ، وقد يكون في هذا حيف علىٰ الكبير، فإذا أشعر بذلك فإن هذا يدخل في المحرمات لأن هذا يدعو إلىٰ قطيعة الرحم، وإلىٰ التعدي، وهذا أمر يجب أن يراعىٰ كثيرًا لأن الإنسان قد يميل إلىٰ أحد أبنائه فيكون هذا سببًا لما قد يقع بينهم من الأمور العظيمة من مقاطعة أو تعدي، أو كون أحدهم يبتعد عن الحق فينظر مثلًا إلىٰ قصة يعقوب عليه السلام لما كان حبه ليوسف أكثر ماذا حصل بينهم، هداهم هذا إلىٰ أنهم يعتدون عليه ويحاولون قتله، فوضعوه بالبئر وباعوه بدراهم بخسة، وإن كانت هذه أمور قضاها الله جل جلاله، ولكن الإنسان مسئول عن أفعاله يجب أن يعدل بين أبنائه بالتقدير وبالحب وبالمال، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «**فاتقوا الله واعدلوا بين أولادكم**»(١).

ولهذا لما سئل الرجل: «أليس يسرك أن يكونوا لك في البر واللطف سواء»(٢)؛ يعني: أنهم إذا عدل بينهم يبرون، وقد يتحمل بعضهم ولكن هذا قليل.

المقصود: أن هذه من الأمور التي يترتب عليها أمور قد توقع إما بالتحريم، وإما بالكراهة.

---

(١) رواه البخاري رقم (٢٥٨٦)، ومسلم رقم (١٦٢٣).

(٢) رواه مسلم رقم (١٦٢٣)، وأخرجه أحمد في المسند رقم (١٨٣٧٨)، وأبو داود (٣٥٤٢) واللفظ لهما، وابن ماجه رقم (٢٣٧٥).

وفي هذا أيضًا من المسائل التي لم يذكرها:

الأولىٰ: أن الواو لا تدل علىٰ الترتيب.

الثانية: أن الكنية جائزة وإن كانت زائدة علىٰ الاسم لكنها للتقدير.

أكنيه حين أناديه لأكرمه ولا ألقبه والسوأة اللقب

فهذا شيء معروف أن اللقب لا يجوز.

الثالثة: جواز الحكم بين الناس إذا كانوا يرضون بذلك وإن لم يكن الإنسان قاضيًا، وإذا اصطلحوا علىٰ هذا فإنه جائز إذا كان الذي يحكم يصلح للقضاء.

الباب الثامن والأربعون

✍ **قال المؤلف** رحمه الله **: باب من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول.**

قال: «بشيء فيه»: يدل على أن الذي يهزل بالله أو بالرسول أو بالقرآن أن أمره مفروغ منه، ولكن هذا قد يهزل بشيء يظن أنه لا يشتمل على التنقص، وسواءً كان هذا من باب اللعب والضحك والمزح أو كان من باب الجد لا فرق بينهما؛ يعني: لا فرق بينها في الحكم، أما في الإثم ففيها فرق كبير لأن الآثام تتفاوت حسب ما يقوم في القلوب من ارتكاب المعاصي وعدم احترام رب العالمين جل وعلا، أو كلامه، أو رسوله، أو حكمه الذي يحكم به جل وعلا.

والهزل معناه: ضد الجد؛ يعني: اللعب والمزاح، هذا الغالب أنه لا يقصد به الجد.

فأحكام الله جل وعلا وخصوصًا التي هي كلامه أو حكمه أو رسوله لا يجوز أن يكون فيها شيء من ذلك، حتى الأحكام التي حكم بها بين خلقه، ولهذا لما طلق رجل امرأته ثلاثًا بلفظة واحدة قال عليه الصلاة والسلام: «**أيلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم**»(١)، جعل هذا من اللعب؛ لأن هذا في ما قصد اللعب، ولكنه تكلم بهذا من باب الجهل.

وجاء في الحديث أيضًا: «**ثلاث جدهن جد وهزلهن جد: النكاح، والطلاق، والرجعة**»(٢)؛ يعني: لو أن الإنسان مثلًا تكلم بهذا ولو بالهزل ألزم بذلك، يجب أن يلتزم بهذا، وإلا يكون آثمًا.

---

(١) رواه النسائي رقم (٣٤٠١) من حديث محمود بن لبيد.

(٢) رواه أبو داود رقم (٢١٩٤)، والترمذي رقم (١١٨٤)، وابن ماجه رقم (٢٠٣٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ولكن هذا الذي ذكر هنا ليس من هذا الباب، هذا من باب السخرية وهو كفر بالله ﷻ وردة إذا كان الإنسان مسلمًا يرتد بذلك.

وفي هذه القصة والآيات التي ذكرت يريد بذلك التنبيه علىٰ أن السخرية والاستهزاء بشيء من كتاب الله أو في دين الله أو رسوله أنه يخرج العبد من دين الله ويجعله مرتدًا، وهذا قد يتساهل فيه كثير من الناس؛ لأنه يحدث كثيرًا علىٰ وجه اللعب والمزاح، وهذا من الخطورة بمكان، لأن الإنسان يخرج من الدين بشيء لا يعرفه ولا يعلم أنه يخرجه من الدين ثم يحكم عليه ولا يقبل عذره أيضًا، فهذا الواجب أن يكون العبد علىٰ حذر منه.

وهذه القصة وقعت في غزوة تبوك، وهي آخر غزواته صلوات الله وسلامه عليه، كانت في السنة التاسعة من الهجرة، ولما رجع أرسل معاذًا إلىٰ اليمن، ثم جاءت حجة الوداع وبعد ما حج بقي ثلاثة وثمانون يومًا ثم توفي صلوات الله وسلامه عليه، وسورة التوبة معظمها نزل في غزوة تبوك.

وهذه القصة وقعت مرتين؛ يعني: في قضيتين، وليست قضية واحدة، ولهذا جاء في الآية الأخرىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ ﴾ [التوبة: ٦٦]، وهذه فيها: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَـٰمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ ﴾ [التوبة: ٧٤]، فرق بين هذا وهذا وكلها في المنافقين، ومعظم هذه السورة في صفات المنافقين، ولهذا سماها بعض العلماء (الفاضحة)؛ يعني: أنها فضحت المنافقين، يقول: لم يزل الله ﷻ يقول: ومنهم ومنهم حتىٰ فضحهم وبيَّن حالهم[1].

---

(١) رواه البخاري رقم (٤٨٨٢)، ومسلم رقم (٣٠٣١) عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: سورة التوبة، قال: التوبة هي الفاضحة ما زالت تنزل ومنهم ومنهم حتىٰ ظنوا أنها لن تبقي أحدًا منهم إلا ذكر فيها، قال: قلت: سورة الأنفال، قال: نزلت في بدر، قال: قلت: سورة الحشر، قال: نزلت في بني النضير.

ومع هذا جاء فيها أن من المنافقين من لا يعلمهم رسول الله ﷺ، وأخبر ﷻ أنه هو الذي يعلمهم.

وفي هذه الغزوة همَّ المنافقون بقتل رسول الله ﷺ فإنه في رجوعه ﷺ كان في طريقه عقبة ما يسلكها إلا بعير واحد، فقال ﷺ: «**إني سالك هذا الطريق فلا يسلكه أحد**»[1]، فسمع المنافقون ذلك فترصدوا له، وقالوا: هذه فرصة. فذهبوا وكمنوا في أثنائه، فأمر رسول الله ﷺ حذيفة أن يقود ناقته وعمار أن يسوقها، فلما صار في أثنائه ثاروا في وجه ناقته يريدون أن يسقطوه من عليها فيهلك، فصاح بهم حذيفة وصار يضرب ركابهم فخافوا أن يعرفوا فهربوا. فسأله الرسول ﷺ: **هل عرفت منهم أحدًا؟** قال: القوم متلثمون فلم أعرف منهم أحدًا، ولكن عرفت راحلة فلان وفلان فأخبره الرسول ﷺ بأسمائهم وأسماء غيرهم من المنافقين، وقال له: **لا تخبر أحدًا**»، ولهذا سُمي حذيفة صاحب سر رسول الله ﷺ، وليس كما تزعم الصوفية أنه أسرَّ إليه أحكامًا وأمورًا من أمور السلوك، وأمور التعبد، فإن هذا باطل.

والرسول ﷺ بيَّن الأحكام والسلوك وأمور الشرع لا يسرها إلىٰ أحد وإنما يعلنها للناس عمومًا، وفي سورة الأحزاب يقول الله ﷻ: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ [الأحزاب: ٦٠]، ولهذا كان شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: إن المنافقين تابوا لأنهم لو لم يتوبوا لأغرىٰ الله ﷻ بهم رسوله ﷺ وقتلهم، وهذا لم يحدث أخذًا من هذه الآية.

وإن كانوا تابوا فليس كلهم، وإنما يتوب بعضهم، والله ﷻ يتوعد علىٰ الأفعال وقد يؤخر الجزاء وهو كثير جدًا، لأن الدنيا ليست أهلًا ولا محلًّا ولا قيمة لها حتىٰ في عقاب المجرمين؛ لأنهم لو عوقبوا فيها صار عقابهم قصير، وإن كان فيه عظة وفيه شفاء لما في قلوب المؤمنين، ولكن الله حكيم عليم.

---

(١) رواه أحمد في المسند رقم (٢٣٨٤٣).

ولهذا تجد الظالم يظلم ظلمًا عظيمًا ثم يعيش كما يعيش الناس ويموت كما يموت الناس ولا يحدث له شيء، والله ﷻ يقول: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [إبراهيم: ٤٢]، هذا الذي يكون فيه النكال في ذلك اليوم يلاقون جزاءهم، فالمقصود: أن المنافقين لم يتوبوا كلهم، وإن تاب منهم من تاب فإن أكثرهم بقي علىٰ نفاقه.

والمنافقون وقائعهم كثيرة، والعبرة بما حكم الله ﷻ، وحكم فيه رسوله ﷺ علىٰ هؤلاء، ومن المعلوم أن القواعد التي عرفها العلماء وقرروها: أن الاعتبار لعموم الكتاب والسُّنَّة، وليست الأسباب أو الأمور الخاصة التي نزلت مثلًا فيها الآية أو وقعت فيها القصة؛ لأن الله أنزل كتابه ليبقىٰ للناس إلىٰ قيام الساعة، الشيء يكون في الرجل الواحد، ويعم الأمة كلها، كل من شابهه أو جاء بشيء منه فله هذا الحكم.

والسخرية والاستهزاء هذه لا حد لها، وهي تختلف باختلاف أساليب الناس وأوضاعهم، فقد تكون بالكلام أو بالهمز، وقد تكون مثلًا بالضحك أو تكون بأشياء اصطلاحية جديدة يأتون بها، والحكم لا يختلف فيها.

قوله: «من هزل»: الهزل ضد الجد، والمقصود بالهزل اللعب.

قال: «بشيء»: ليس في آيات الله أو رسوله ﷺ ومقصوده بالشيء؛ يعني: أنه مثلًا سخر من إنسان متدين لدينه أنه واقع في ذلك، فلو أنه مثلًا يقول أنه طويل اللحية أو ما أشبه ذلك إذا كان يسخر من اللحية وبأنه يتبع بذلك رسول الله ﷺ، أو أنه طويل السواك مما نسمعه كثيرًا من الناس، فهذا يدخل في هذا الحكم لأنه قال: «**في شيء فيه ذكر الله**»، والمقصود بذكر الله؛ يعني: دينه وشرعه الذي يتدين به الإنسان، ولهذا عطف عليه بقوله: «**أو القرآن أو الرسول**». الرسول المقصود به اسم

جنس فليس خاصًا برسولنا ﷺ، فهو يعم كل رسول، فصار عامًّا، فالترجمة عامة، كل من استهزأ بشيء من أجل ديانته فهذا حكمه ثم ذكر الآية. والحكم أنه يكون كافرًا مرتدًا إن كان مسلمًا.

قال المؤلف رحمه الله: **وقول الله تعالى:** ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ [التوبة: ٦٥].

والقصة في هذا يقول عوف بن مالك وكان معهم، وقد جاءت ألفاظ كثيرة ولكن المعنى واحد، وابن إسحاق رحمه الله ذكر هذا، وعادته وغيره من المفسرين يجمعون الروايات ويذكرونها بالمعنى، وإلا فقد روى ابن أبي حاتم في هذا ألفاظ متعددة وغيره كذلك، وكل من ذكر هذه القصة رواها بألفاظ مختلفة، مما يدل على أنه ليست كلمة واحدة، وإنما هو مجلس قالوا فيه ما قالوا، ولكن الذي سمعه عوف بن مالك بادر لإنكاره، وقال: «كذبت ولكنك منافق»، ففي بعضها أنهم قالوا: «ترون أصحابكم هؤلاء كأننا بهم غدًا مقرنين بالحبال»، ومنهم من قال: «تحسبون جلاد بني الأصفر كجلاد العرب»؟ وبني الأصفر هم الروم، وجاءت روايات أخرى بغير هذا، مما يدل على أنه حديث جرى بينهم وأنهم تبادلوا الحديث فيما بينهم في هذه القصة، وأنها ليست كلمة عابرة فقط بل طارحوها، وفي بعض الروايات أن بعضهم قال: والله لوددت أني أقاضي على أن يضرب كل رجل منا مائة جلدة وإنا نتفلت أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه. وهذه عادة المنافقين يرجفون بالناس، ويخوفونهم لأنهم هم أهل الخوف وأهل الجبن، وأما كونهم مع المسلمين فهم يُوهنونهم، وقد يكون فيهم كما قال جل وعلا: ﴿سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧] وهذا كثير، وفي بعض هذه الروايات غير هذه الألفاظ ولكن المعنى واحد. يقول:

عن ابن عمر ومحمد بن كعب وزيد بن أسلم وقتادة -دخل حديث بعضهم في بعض- أنه قال رجل في غزوة تبوك: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونًا، ولا أكذب ألسنًا، ولا أجبن عند اللقاء؛ يعني: رسول الله ﷺ وأصحابه القراء، فقال له عوف بن مالك: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ، فذهب عوف إلىٰ رسول الله ﷺ ليخبره، فوجد القرآن قد سبقه، فجاء ذلك الرجل إلىٰ رسول الله ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته. فقال: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونتحدث حديث الركب نقطع به عناء الطريق، قال ابن عمر: كأني أنظر إليه متعلقًا بنسعة ناقة رسول الله ﷺ وإن الحجارة تنكب رجليه، وهو يقول: إنما كنا نخوض ونلعب، فيقول له رسول الله ﷺ: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦] ما يلتفت إليه وما يزيده عليه[(١)].

قوله: «**عن ابن عمر ومحمد بن كعب وزيد بن أسلم وقتادة**»: هؤلاء كلهم رووا هذه القصة.

قوله: «**دخل حديث بعضهم في بعض**»؛ يعني: هو أدخل حديث بعضهم ببعض وجمعه.

قوله: «**أنه قال رجل في غزوة تبوك**»: هم كانوا جالسين فقالوا هذا القول فضحكوا، فالضحك الذي جرىٰ منهم يدل علىٰ أنهم عجبوا من هذا وأنهم موافقون له وراضون به، ولهذا عمَّهم هذا كلهم، ولم يعين الرجل مع أنهم يعرفونه، وفي هذا الستر علىٰ الإنسان أولىٰ لأنه لو سمي لاشتهر بين الناس وعرفوا أن هذا من المنافقين، وقد جاء في بعض الروايات تسميته وهو ليس وحده، والذي جاء يعتذر رجل واحد، أما البقية لم يعتذروا مما يدل علىٰ أنهم منافقون، ولكن قول الله ﷻ:

(١) رواه ابن جرير في تفسيره متفرقًا (١٤/ ٣٣٣).

﴿ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ ﴾ [التوبة: ٦٦] يدلنا على أنهم كانوا مؤمنين قبل هذا، وأنهم كفروا بهذا القول وخرجوا من الدين.

وإذا قال الله لمن وقع في أمر من الأمور أو جاء بشيء منه أنه كفر، فلا يجوز لأحد أن يقول: ليس كفر، فالشيء الذي سماه الله كفرًا يجب أن يسمى كفرًا.

وأصل الكفر: أنه مأخوذ من التغطية والستر، ولهذا يسمى الذي يغطي البذر كافرًا كما قال الله تعالى: ﴿أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ [الحديد: ٢٠] يقولون: الكفار هم الزراع؛ لأنهم يعرفون النبات الجيد من غيره.

والأصل أن الإنسان خُلق عارفًا لربه ﷻ عابدًا له، وإذا أنكر ذلك فقد كفر.

ولكن المصطلح عليه عند العلماء علماء الشرع أن الكفر ضد الإيمان وهو عدم قَبول ما جاء به الرسول ﷺ والإقرار به، وسواءً كان جزئيًا أو كليًا لأن دين الله ﷻ لا يقبل التجزئة، ولا يمكن أن الإنسان يأخذ البعض ويترك البعض وقد أخبر ﷻ أن الذي يؤمن ببعض ويكفر ببعض أنهم كفار حقًا.

وغزوة تبوك هي آخر غزوات الرسول ﷺ، وسُميت تبوك لأنه نزل في تبوك وكان ماردًا وليس بلدًا في ذلك الوقت، نزل وبقي فيها عشرين يومًا ينتظر الروم فلم يأتوا بل أحجموا عن مواجهته فرجع ﷺ بلا قتال، ولكنه حصل أشياء في دومة الجندل وغيرها لأنه أرسل السرايا وحصل فيها قتال وحصل فيها ما حصل.

وسورة التوبة نزلت في هذه الغزوة وفيها كثير من صفات المنافقين كما أن فيها أيضًا البراءة من الكفار والحذر من الركون إليهم، وكذلك النهي عن الاستغفار لهم ولو كانوا ذوي قربى، كما فيها أن الله أثنى على أهل السوابق من الصحابة وأخبر أنه رضي عنهم ورضوا عنه من الأنصار والمهاجرين وفضل بينهم، والأولين الذين

سبقوا إلىٰ الإسلام فضلهم، وكذلك فيها أن الله اشترىٰ من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله، وفي هذه الآية قدم الأنفس في الشراء والبيع علىٰ الأموال وكل ما جاء في القرآن من أوله إلىٰ آخره عند الأمر بالجهاد بالمال والنفس فإنه يقدم المال إلا في هذه الآية لأن فيها الشراء والمبايعة، والنفس أهم وأعظم من المال بلا شك، وهذا هو السبب في كونها قدمت في هذا، وإلا فالمال أهم من النفس في الجهاد؛ لأن المال يحصل به ما لا يحصل بجهاد الفرد أو الأفراد، ولهذا كان كل الآيات في الجهاد بالمال أو النفس يقدم المال.

وفي السورة منَّة الله علىٰ المؤمنين أولها في نبذ العهود إلىٰ المشركين.

وفيها آية السيف التي يقول العلماء أنها نسخت كثيرًا من الآيات حسب كلامهم، ولكن النسخ في اصطلاحهم هو التخصيص، وليس النسخ الإزالة؛ لأن الآيات التي في السور المكية فيها الصبر والتحمل والمدافعة بالتي هي أحسن، أما في هذه قال تعالىٰ: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣]، ومعلوم أن هذا لا نهاية له الذين يلونكم من الكفار فكل ما توسعت بلاد المسلمين فيليها كفار، فمعنىٰ ذلك أن هذا لا نهاية له في القتال في الجهاد.

وكذلك في أولها يقاتلوا حتىٰ يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، وكذلك فيها أن برئ ﷻ ورسوله من المشركين والمؤمن يجب أن يبرأ مما برئ منه ربه ورسوله، وكذلك فيها قصة المنافقين الذين بنوا المسجد ويلبسون علىٰ الناس بأنهم بنوه للضعيف وهم يجعلونه معقلًا لهم ليحاربوا الله ورسوله، فأمر الرسول ﷺ بإحراقه علىٰ من فيه لأنهم أتوا إليه وهو يتجهز وهم قد بنوه فطلبوا منه أن يصلي فيه ليكون ذلك حجة لهم فقال: «**نحن علىٰ سفر ولكن إذا رجعنا إن شاء الله**»، وقبل أن يصل إلىٰ المدينة نزلت عليه الآيات في قصته فأمر بعض أصحابه أن يذهبوا ويحرقوه،

فذهبوا فأحرقوه، ففي هذه القصة الغلظة علىٰ المنافقين أنهم يغلظ عليهم.

وقولهم: «**ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء**» القراء في لسان السلف هم العلماء؛ لأن من يقرأ الشيء يفهمه لهذا جاء في تابع التابعين سؤال أنه يوجد عندنا مما يقرأ القران ولا يفهمه؟ قال هذه بدعة؛ يعني: أن هذا شيء جاء جديد ما كان معروفًا، فالذين كانوا يقرؤون القرآن كانوا يفهمونه؛ لأنهم يعرفون اللغة فهم يعرفونه. والصحابة كانوا ما يتجاوزون عشر آيات حتىٰ يعرفوا معانيها ويعملوا بها، ولهذا ابن عمر بقي يتعلم سورة البقرة سبع سنوات، وابن عمر ﵄ ذكي، ولكنهم قصدوا العمل ولهذا قال: فتعلمنا العلم والعمل معًا.

والأمر اليوم وصل إلىٰ حد كبير، صار الإنسان يقرأ ولا يعرف ما يقرأ وهذا لا ينبغي لأن الله أنزل القرآن ليتفهم ويتدبر، قال ﷻ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩]، والتدبر هو العلم والتفقه، وهذا أمر بأن يتدبروا آياته والتذكر هو العلم والتقوىٰ، فلا بد من المعرفة ثم العمل.

فقوله: «**قرائنا**» يقصدون الصحابة، وهذا يدل علىٰ المزح والسخرية «**قرائنا هؤلاء**» فنفس الكلام يدل علىٰ أنهم ليس علىٰ نهجهم وأنهم يسخرون منهم. والكلام إذا أفهم سخرية فله حكم الظاهر، ولهذا لما قال رجل لخالد بن الوليد: كما يقول صاحبكم. قال: صاحبنا فأمر بقتله، اعتبر هذا استهزاء بالرسول ﷺ؛ يعني: أنه ليس صاحب له هو!! وهذا مثل هذا القول.

وقوله: «**أرغب بطونًا**»؛ يعني: البطون كبيرة، هذا كذب ظاهر، ما كان الصحابة يأكلون كثيرًا، ولا كانت لهم بطون كبيرة، بل كانوا خماص البطون وكان أحدهم يطوي اليوم واليومين والثلاثة لا يأكل شيئًا، وقصتهم في هذه الغزوة خصوصًا مشهورة أنهم جاعوا ونفدت أزوادهم، واستأذنوا رسول الله ﷺ في نحر رواحلهم

ليس معهم شيء، فمن أين تكون بطونهم كبيرة، فأذن لهم لما يرىٰ فيهم من الجوع، ولكن عمر رضي الله عنه كان ملهمًا، وهو من المحدثين كما قال ﷺ: «**إنه قد كان فيما مضىٰ قبلكم من الأمم محدَّثون وإن كان في أمتي هذه فمنهم عمر بن الخطاب**»(١). والمحدَّث: هو الذي يحدثه الملك يلقي علىٰ لسانه الشيء الذي يكون حقًا.

فجاء إليه عمر فقال له: يا رسول الله أذنت لهم أن ينحروا رواحلهم فعلىٰ ماذا يركبون، ولكن لو أمرت أن تجمع أزوادهم ثم تدعو لعل الله أن يبارك فيها. قال: نعم. فوضع نطع -وهو الجلد الذي دبغ فيكون إما فراش أو يجلس عليه أو يكون سفرة- فصاروا يأتون أحدهم يأتي بالتمرتين وأحدهم يأتي بالدقيق في كفه، وهذا يبحث عن الشيء الذي بقي من زاده فيأتي به، وهم كما قال كعب بن مالك لا يحصيهم عدد في هذا الجيش، فبعضهم ذكر أنهم ثلاثون ألفًا؛ يعني: بعض المؤرخين، وليس كثيرًا أيضًا؛ لأن الرسول ﷺ لم يأذن لأحد بالتخلف في هذه الغزوة.

يقول: فاجتمع مثل البهمة إذا ربضت، فتصور كثرة هذا الجيش، هذا هو الذي بقي معهم نعم هذا شيء صغير جدًا فدعا الرسول ﷺ وتفل به ودعا ربه بالبركة، فقال: احملوا فملؤوا كل وعاء معهم وبقي كما هو، وهذا من الآيات التي وقعت في هذه الغزوة، وكذلك وقع فيها آيات أخر، فلما فقدوا الماء والطريق ليس فيه ماء، فأمر الرسول ﷺ بعضهم أن يبحث عن الماء فذهبوا يبحثون عن الماء، فوجدوا امرأة معها راويتين علىٰ بعير فقالوا لها: أين الماء؟ قالت: عهدي به قبل يومين(٢)؛ يعني: مسيرة يومين ليست قريبة بل بعيدة جدًا، قالا لها إذًا اذهبي معنا، فذهبا بها إلىٰ رسول الله ﷺ، فأمر النبي ﷺ من راويتيها بإناء فدعىٰ به ثم قال: اشربوا

(١) رواه البخاري رقم (٣٤٦٩)، ومسلم رقم (٢٣٩٨) من حديث عائشة.
(٢) رواه البخاري رقم (٣٤٤)، وأحمد في المسند رقم (١٩٩١٢).

وتوضؤا واملؤوا ما معكم من الأواني، وقيل لها: هل نقص ماؤك؟ قالت: لا. فأعطوها الشيء الذي رضيت به، وذهبت إلىٰ قومها فقالت: جئتكم من أسحر الناس أو أنه نبي.

فالمقصود أنه وقع أشياء كثيرة في هذه الغزوة، ولكن مقصودنا هنا قولهم: «**ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونًا**»، أرغب؛ يعني: أوسع، يعنون أن بطونهم واسعة وهذا من الكذب الظاهر.

وقوله كذلك: «**ولا أكذب ألسنًا**»: قاتلهم الله، والرسول ﷺ والصحابة الكذب عندهم من الموبقات.

قوله: «**ولا أجبن عند اللقاء**»: كل هذه الكلمات الثلاثة كلها كذب ظاهر، فالرسول ﷺ هو أشجع الناس وهو ﷺ يحرم الكذب ويقول: أنه لا يصلح لشيء[1] وإن كان في الحرب أذن به، وكذلك ما بين الرجل وزوجته للإصلاح وما أشبه ذلك، ولكن ليس الكذب الصريح.

قوله: «**فضحكوا عند هذا القول**»: وضحكهم يدل علىٰ رضاهم بهذا؛ لأن الإنسان إذا سمع هذا الشيء يجب أن يغضب وينكر إذا كان عنده إيمان، أما أنه يوافق ويضحك فهو كالقائل لا فرق بينه وبين من قال هذا القول، ولهذا أنكر عوف بن مالك رضي الله عنه قال: «**كذبت ولكنك منافق**»؛ يعني: وكذلك الذين ضحكوا، ثم قال: «**لأخبرن رسول الله ﷺ**»، وهذا يدل علىٰ وجوب النصح لله ولرسوله ﷺ، ويدل علىٰ وجوب إنكار المنكر، إذا كان الإنسان حاضرًا في مجلس فوقع منكرًا فيجب أن ينكر لا يجوز أن يبقىٰ معهم وهم في هذا المنكر، وإلا يكون مثلهم كما قال جل وعلا في الذين يجلسون مع من يأتون بالمنكر وينطقون به، قال سبحانه:

(١) رواه أحمد في المسند رقم (٣٨٩٦)، وابن ماجه رقم (٤٦).

﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠]؛ يعني: إذا جلس الإنسان في مجلس ولم ينكر فهو مثلهم وإن كان كارهًا في نفسه.

قوله: «**ولكنك منافق**»: المنافق هو: الذي يظهر الموافقة ويبطن المخالفة، والصحيح أنه يظهر الإيمان ويبطن الكفر، فذهب يخبر الرسول ﷺ فوجد القرآن قد سبقه؛ يعني: أن الوحي نزل عليه قبل أن يأتي عوف بن مالك من المكان الذي هو فيه.

يقول: «**فجاء ذلك الرجل إلىٰ رسول الله ﷺ**» كان عادة الرسول ﷺ أنه إذا كان نازلًا ثم حدث من الأمور التي يكون فيها خلاف، وقد يكون فيها ما يدعو إلىٰ شجار أو قتال أنه يرتحل، وهذا وقع مرارًا منه صلوات الله وسلامه عليه، وذلك أنه إذا ارتحل وسار اشتغل الناس بمسيرهم وعملهم عما وقع، ثم فيما بعد الحُكم إلىٰ الله ﷻ وإلىٰ رسول الله ﷺ.

قوله: «**وقد ارتحل وركب ناقته**»: الرحل هو: وضع الرحل علىٰ الناقة.

قوله: «**فقال: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونتحدث حديث الركب**»؛ يعني: نمزح ونضحك، وما نقصد الجد في حديثنا هذا، ولكن هذا خطأ واضح ليس هذا محل المزاح والضحك. وجاء أنه قال: «**كنا نقطع به وعثاء الطريق**» وعثاء الطريق يعني: الكآبة والتعب لأن الإنسان إذا ضحك يصير عنده شيء من النشاط، وهذا معنىٰ قوله: «**كنا نتحدث حديث الركب**»؛ يعني: حديثًا ما نقصد معناه.

وقوله: «**وعثاء**»: وفي رواية «عناء»، وهذا لا يصلح أيضًا.

قوله: «**قال ابن عمر: كأني أنظر إليه متعلقًا بنسعة ناقة رسول الله ﷺ**»: النسعة: الحبل خلف الرحل، والرحل له ثلاثة حبال، واحد من الأمام يسمىٰ لباب، لأنه مع لبة الناقة حتىٰ إذا صعدت مرتفعًا لا يسقط الرحل فيمسكه. والثاني: يوضع إما برسغ الناقة أو بذنبها ويسمىٰ حقب. والثالث: يوضع في وسط الرحل ويشد علىٰ

بطن الناقة ويسمىٰ بطان.

والنسعة هذه هي حقب الناقة الذي يكون في مؤخر الرحل ويتعلق به، لأن الرسول ﷺ يسوق الناقة بسرعة، فإذا مشىٰ لا يستطيع أنه يلحقه، فيتعلق ليستعين به علىٰ سير الناقة حتىٰ يسمع الرسول ﷺ خطابه.

ومعنىٰ ذلك أن الرسول ﷺ تعنّا ذلك، ولم يلتفت إليه مع أنه ما كان يزيده علىٰ قوله: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦]، وهذا معناه كما قال المؤلف: أنه لا يجوز أن يقبل كل عذر، إذا جاءك من يعتذر بعض الأعذار لا يجوز قبولها.

وكذلك مثل ما فعل عوف بن مالك كونه جاء يخبر، فهذا لا يدل علىٰ أن هذا نميمة بل هذا نصيحة وإنكار للمنكر وهذا أمر واجب.

وقوله: «﴿نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾» [التوبة: ٦٥]: الخوض: هو كونهم يتكلمون الكلام الذي ليس له ضابط فهو لا ينتهي.

أما اللعب: فمعناه عدم الجد، يقولون نتكلم كلامًا نروِّح به عن أنفسنا، ومع ذلك كله لم يقبل الرسول ﷺ منه ولم يلتفت إليه.

وقوله: «﴿نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾»: المجرم هو الذي فعل الإجرام، والإجرام هو المبارزة بالمعاصي مع العلم في ذلك -نسأل الله العافية-؛ يعني: أنه فيه مع ارتكابه معاندة.

قد يقال مثلًا: ما دام هذا يدل علىٰ الكفر، فلماذا ما قتلهم الرسول ﷺ؟ لأن حكم المرتد القتل كما قال ﷺ: «**من بدل دينه فاقتلوه**»(١)؟

(١) رواه البخاري رقم (٣٠١٧).

الجواب: أولًا: أن هذا جاء معتذرًا، والاعتذار يدل علىٰ الندم في الظاهر، مع أنه لم يقبل هذا، فهو يقول: أنا أتوب من هذا الشيء، وقد جاء ذلك صريحًا بأنه تاب، وهذا يقال له: مخشي بن حمير. ولكن ذكر ابن جرير وغيره، أنه كان يقول: اللهم إني أسمع آية في كتابك أنا المعني بها تقشعر منها الجلود، اللهم اجعل موتي قتلًا في سبيلك[1]، ولا يعلم أحد أين أنا

حتىٰ لا يقول إنسان: أنا كفنت أنا غسلت، أنا دفنت، وهذا يدل علىٰ أنه صادق في توبته، ويقول أنه قتل في اليمامة وكل القتلىٰ وجدوا إلا هو لم يوجد ولم يوقف له علىٰ أثر، فلعل الله تاب عليه.

أما البقية لم يأتوا ولم يعتذروا، ولهذا قال ﷻ: ﴿إِن نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمۡ نُعَذِّبۡ طَآئِفَةَۢ﴾ [التوبة: ٦٦] يقال أن الذي عفي عنه هو هذا الرجل وهو الطائفة التي عفا الله عنها، والله أعلم.

الشيء الثاني: من كون الرسول ﷺ ما قتلهم: أن هؤلاء البقية لم يأتوا ولم يدعي أحد أنهم تكلموا يقولون ما تكلمنا وإن كان قد تكلموا؛ يعني: ليس فيه تعيين لهم وهم جماعة جالسون لم يأت تعيينهم فلان وفلان مثل هذا.

الأمر الثالث: أن الرسول ﷺ كان يترك هؤلاء وإن كانوا يستحقون القتل خوفًا من السمعة، وقد صرح بذلك ﷺ قال لئلا: «**يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه**»[2]، ومعنىٰ ذلك لو مثلًا حصل هذا فإن الحديث الذي يأخذه الناس والكلام الذي يتناقله الناس يكون علىٰ غير وجهه دائمًا، بل أحيانًا يكون علىٰ خلاف الواقع، فإذا نقل الكلام إلىٰ الناس سمع أن هذا يقال، يقولون ما نريد أن

---

(١) رواه الطبري في تفسيره (١١/ ٥٤٤).

(٢) رواه البخاري رقم (٤٩٠٥)، ومسلم رقم (٢٥٨٤).

ندخل في هذا الدين لئلا يقتلنا، «**يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه**» فيمنعهم ذلك من الدخول في الإسلام، هذا هو السبب في عدم قتلهم، وقد جاء هذا صريحًا؛ يعني: هذا القول منه ﷺ في قصة المعترض الذي اعترض عليه ﷺ الذي قال: «**اعدل فإنك لم تعدل**» لما قال عمر: يا رسول الله ألا أقوم فأقتل هذا المنافق؟ قال: «**معاذ الله أن تتسامع الأمم أن محمدًا يقتل أصحابه**»[1]، فهذا هو الجواب عن سبب ترك هؤلاء وعدم قتلهم.

وحكم الاستهزاء بالله وبالرسول عند العلماء الذي قرره شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه «الصارم المسلول»: أنه لا يجوز أن تقبل توبته وإن تاب؛ يعني: لا بد من قتله وإن تاب، وسواءً كان مسلمًا أو كافرًا أو غير ذلك.

أما كون الرسول ﷺ لم يقتل الذي استهزأ به نقول فهذا حقه، وحقه له أن يعفو عنه هو، ولهذا لما دخل مكة الذين كانوا يسخرون به أمر بقتلهم وقال: اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة، ووجدوا ابن خطل متعلقًا بأستار الكعبة وقتلوه لأنه من الذين كانوا يستهزئون بالرسول ﷺ، وعفا عن بعضهم وهذا حقه ﷺ في حياته له أن يعفو عنه، أما بعد وفاته ﷺ فلا يجوز لأحد أن يعف عنه، بل يجب أن يقتل، أما كونه تقبل توبته أو لا تقبل فهذا إذا كان صادقًا في توبته فهو إلىٰ الله، ولكن لنا الظاهر.

وكذلك بالنسبة للاستهزاء بالله ﷻ أو سبه تعالىٰ وتقدس علىٰ كل حال.

وهذا صار -نسأل الله العافية- في البلاد التي يقال أنها بلاد إسلامية وإن كان الحكم حكم كفر مثل تركيا والجزائر وغيرها ومثل مصر، الإنسان يسمع مسبة الله في الشارع كثيرًا في كل مناسبة واللعن والشتم، وأما كونه يلعن الدين فهذا شيء كثير

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم (١٤٨٢٠) وأصله في الصحيحين.

علىٰ ألسنتهم. فكأن هذه أمور عادية -نسأل الله العافية- مع أنه في تركيا وغيرها لو سُب أتاتورك المجرم الخبيث كان جزاؤه ثقيل جدًا، إما أن يسجن سجنًا طويلًا، وإما أن يغرم ويضرب فهذا من العجائب.

المقصود أن هذه المسألة معرض عنها وليس وحدها؛ لأنه لا يحكم كتاب الله ﷻ، ولهذا تجرأ الناس علىٰ مسبة الله ﷻ، ومسبة رسوله ﷺ، ومسبة دينه، وأكثر الناس لا دين عنده، ودينه دين وراثي وجد أباه وأمه يصليان فصار مثلهم، وإلا قلبه خاليًا من ذلك، هذا أكثر الناس، وهذا هو الذي لا ينفع -نسأل الله العافية- ولهذا تجد الغش بين الناس في كل شيء، والسبب أنه ليس هناك وازع ديني يمنع ذلك عن تحصيل الفلوس، الظاهر أنه لو حصلت الفتن والدعوة إلىٰ الأمور الظاهرة من الكفر وغيرها يسارعون إليها ولا يبالون -نسأل الله العافية-.

وكذلك كونه لا يهتم بدينه ولا يهتم بآيات الله، فتجد مثلًا المصحف يمزق ويرمىٰ وتجد الأوراق مرمية في زبالة أو غيرها، إما مصحف أو آيات من كتاب الله أو أحاديث رسوله ﷺ، كيف إنسان يخاف ربه فهذا يدخل في الهزل والسخرية.

مناسبة الباب أن المؤلف رحمه الله يذكر أضداد التوحيد ويذكر المكملات والمنقصات وهذا من ضده؛ يعني: أن من فعل هذا فلا توحيد عنده.

قال المؤلف رحمه الله: فيه مسائل:

الأولى: وهي العظيمة، أن من هزل بهذا فإنه كفر.

الهزل؛ يعني: أنه لم يقل الجد فيه بل قال اللعب فيه والضحك والمزاح، أما إذا قصد الاستهزاء صريحًا فهذا لا كلام فيه، ولكن هو يقول هذا من باب عدم القصد، يقوله يلعب فقط. وليس هذا مراده، هذا مقصوده.

الثاني: أن هذا تفسير الآية فيمن فعل ذلك كائنًا من كان.

مقصوده في حكم الآية؛ يعني: أن من وقع في شيء من ذلك أنه يكون له هذا الحكم كائنًا من كان، سواء كان قاصدًا أو غير قاصد، أو عالمًا أو غير عالم.

الثالث: الفرق بين النميمة، وبين النصيحة لله ولرسوله ﷺ.

النميمة نقل الكلام على وجه الإفساد، وأما النصيحة فهي إنكار المنكر نقله إلى من يعاقب صاحب المنكر في ذلك، هذا أخذًا من فعل عوف بن مالك حيث أنه ذهب يخبر الرسول ﷺ وليس هذا من النميمة بل هذه نصيحة.

الرابعة: الفرق بين العفو الذي يحبه الله، وبين الغلظة على أعداء الله.

أن الرسول لم يعف عن هذا، ولم يقبل عذره بل أغلظ عليه.

الخامسة: أن من الاعتذار ما لا ينبغي أن يقبل.

يعني: ليس كل عذر يقبل، العذر عن الخوض في كلام الله ودين الله ورسوله لا يُقبل.

الباب التاسع والأربعون

✍ **قال المؤلف** رَحِمَهُ ٱللَّهُ **: باب قول الله تعالىٰ:** ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [فصلت: ٥٠].

هذه الآية جاءت في عدة سور، وإن كان آخرها يختلف، ولكنها تدل علىٰ أن هذه هي صفة الإنسان.

ومقصود المؤلف في هذا الباب أن يبين وجوب شكر النعم وإضافتها إلىٰ الله جَلَّ وَعَلَا والثناء عليه واستعمالها في طاعته، فإذا لم يكن الإنسان كذلك فإنه لم يقم بالتوحيد الذي يلزمه، وقد أخل بتوحيده، والدلائل علىٰ هذا كثيرة في كتابه جَلَّ وَعَلَا وفي أحاديث رسوله ﷺ.

قوله: «﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ ﴾»؛ يعني: الإنسان الذي تقدم ذكره قبل هذه الآية.

قوله: «﴿رَحْمَةً ﴾»: رحمة يقصد بها والله أعلم الإنعام الذي يعطاه من ولد ومن مال ومن صحة وما أشبه ذلك.

وقوله: «﴿مِّنَّا ﴾»: يدل علىٰ أن كل ما يحصل للإنسان من خير فهو من الله، وهذا أمر ظاهر فيجب أن يُعتقد ذلك ويُعمل علىٰ أساس هذه العقيدة، أن كل ما حصل له من محبوب له أو من النعم، وأكبرُ ذلك نعمة الدين والطاعة والعقيدة الحسنة فإنها فضل من الله يجب أن يُشكر.

ولكن هنا يقصد بها شيء أخص من هذا لأنه قال: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ ﴾ لأن طبيعة الإنسان وجِبِلَّته أنه إذا وقع في الشدة أنه يرجع إلىٰ الله

ويهرع إليه ويدعوه ويتضرع بين يديه، ثم إذا كشف عنه هذا الأمر نسي ذلك، وربما تمادىٰ به الأمر وقال: أنا أهل لهذا الذي أُعطيته كما جاء في تفاسير السلف التي ذكرها المؤلف فيقول: الله أعلم أني أهل لهذا الشيء فأعطاني هذا.

أما إذا كانت الشدائد إما فقر وإعواز من المال فإنه ربما أضاف ذلك إلىٰ نفسه وقال: أنا أعرف كيف أتصرف أعرف كيف أكتسب المال، أو يقول هذا بتعلمي أو بكوني ترددت في الشيء وعرفته، وأحوال الناس في هذا كثيرة ولكنها كلها يضيفونها إلىٰ أنفسهم، وهذا كفر بالنعمة وكذلك بالمنعم الذي أنعم بهذه النعم، وهذه طبيعة الإنسان ولهذا يجب أن يجتنب أن يقول هذا لي وهذا مني أو هذا أنا حقيق به، أو أنا أهل له، أو هذا بعملي أنا أعمل كذا وما أشبه ذلك.

وقد قصَّ الله ﷻ قصة قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص: ٧٨]؛ يعني: علم من الله أني أهل له، وهكذا يقول غيره؛ لأن النفوس عندها ما عند قارون كلها، كل نفوس بني آدم، غير أن التخلق بالأخلاق الإسلامية والتهذب بذلك يخلف هذه العقيدة ويغيرها حسب ما يقوم بالإنسان من خلق.

وقوله: «﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾»: التعبير يبين أن الخير كله من الله ﷻ وليس من الإنسان شيء.

وقوله: «﴿مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾»؛ يعني: قد مس بالضر. والضراء غالبًا يقصد بها الفقر كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ [البقرة: ١٧٧]؛ يعني: إذا أصابهم الفقر يصبرون.

ويقصد بها أيضًا الإضرار مطلقًا، كون الإنسان ضر في بدنه أو في ماله أو في أهله فالآية تعم هذا كله سواءً كان في بدنه أو كان في حاجته وإعوازه أو كان في ماله وأهله وولده وغير ذلك، ومعلوم أن هذا إذا حصل للإنسان أنه يخضع لله ويذل ويستكين له ويطلبه ذلك، ولكن سريعًا ما ينسىٰ ذلك إذا حصل له مراده.

قوله: «﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾»: يعني: هذا إشارة إلىٰ الرحمة التي حصلت، الرحمة التي أذاقه الله إياها.

وقوله: «﴿لِى﴾»: جاء اختلاف المفسرين فيها، ولكن المعنىٰ واحد فمنهم من قال: بعملي ثم قال أنا محقوق به؛ يعني: أنه أحق به، ومنهم من قال: من عندي؛ يعني: أنا الذي اكتسبته وعرفته بصنعتي أو بعلمي، ومنهم من قال: أنا أعرف وجوه المكاسب ووجوه التجارة وحصل لي ذلك بعلمي بهذه الأشياء، ومنهم من قال: المقصود أنه علىٰ علم من الله أني أهل له؛ يعني: أنا محظوظ عند الله والله يحبني فرزقني هذا وأعطاني كذا، وكلها معناها واحد وإن اختلفت التعابير، لأن المعنىٰ كله أن الإنسان يضيف النعمة له، بأنه مستحقها وأن الله علم أنه أهل له، وأنه أعطاه ذلك لأنه ذو حظ عند الله، وذو محبة أن الله يحبه، وكل هذا كفر بالنعمة وهو قدح في توحيد العبد إذا كان موحدًا، أما إذا كان الإنسان من الأصل كافرًا فهذا لا كلام فيه لأن هذا شيء ظاهر جدًا في أفعال الناس وتصرفاتهم الآن والإنسان لا يخلو من هذا الأمر، ولهذا ينبغي للعبد أن يتنبه لهذه الأشياء ويكون علىٰ حذر وقد مر معنا في الأبواب السابقة أن إضافة النعم إلىٰ أسبابها من الكفر، والكفر وإن كان كفر نعمة فإنه قادح في التوحيد، وقد يجر كفر النعمة إلىٰ الكفر الأكبر.

وقد عرف أن المعصية إذا استقرت عند العبد ولم يعترف بها، وأصر عليها وإن كانت صغيرة فإنها تكون كبيرة بهذه الصفة، وهذا الذي يقول هذا القول يكون مصرًا علىٰ هذا الشيء ومستمرًا عليه ولا يأمل أن يرجع عنه إلا إذا تغير حاله بالعلم بالله ﷻ وبما هو عليه هو نفسه؛ لأن النفس ليس لها أي خير، فأي خير يحصل لها فهو من الله ﷻ، أما هي فهي أهل للشر، فهذا هو معنىٰ الآية التي ذكرها، وإن كانت الآيات في هذا متعددة، فقد ذكرت في سورة القصص وسورة الزمر وسورة السجدة وغيرها كثير فقد ذكر الله أن هذا من صفة الإنسان.

وأما أقوال السلف التي ذكرها المؤلف فمعناها واحد، غير أن التعبير اختلف فكل واحد يعبر بجزء من المعنىٰ وليس بالمعنىٰ كله.

✍ قال المؤلف رحمه الله **:** **وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن ثلاثة في بني إسرائيل أبرص وأقرع وأعمىٰ فأراد الله أن يبتليهم فبعث إليهم ملكًا فأتىٰ الأبرص فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: لون حسن وجلد حسن ويذهب عني الذي قد قذرني الناس، قال: فمسحه فذهب عنه قذره وأعطي لونًا حسنًا وجلدًا حسنًا، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الإبل «أو قال البقر شك إسحاق» إلا أن الأبرص أو الأقرع قال أحدهما الإبل وقال الآخر البقر- قال: فأعطي ناقة عُشراء فقال: بارك الله لك فيها.**

قال: فأتىٰ الأقرع فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: شعر حسن ويذهب عني هذا الذي قذرني الناس، قال: فمسحه فذهب عنه وأعطي شعرًا حسنًا، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: البقر فأعطي بقرة حاملًا فقال: بارك الله لك فيها.

قال: فأتىٰ الأعمىٰ فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: أن يرد الله إلي بصري فأبصر به الناس، قال: فمسحه فرد الله إليه بصره، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الغنم فأعطي شاة والدًا فأنتج هذان وولد هذا، قال: فكان لهذا واد من الإبل ولهذا واد من البقر ولهذا واد من الغنم.

قال: ثم إنه أتىٰ الأبرص في صورته وهيئته فقال: رجل مسكين قد انقطعت بي الحبال في سفري فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال بعيرًا أتبلغ عليه في سفري، فقال: الحقوق كثيرة، فقال له: كأني أعرفك ألم تكن أبرص يقذرك الناس؟ فقيرًا فأعطاك الله؟ فقال: إنما ورثت هذا المال كابرًا عن كابر فقال: إن كنت كاذبًا فصيرك الله إلىٰ ما كنت.

قال: وأتىٰ الأقرع في صورته فقال له مثل ما قال لهذا، ورد عليه مثل ما رد علىٰ هذا، فقال: إن كنت كاذبًا فصيَّرك الله إلىٰ ما كنت، قال: وأتىٰ الأعمىٰ في صورته وهيئته فقال: رجل مسكين وابن سبيل انقطعت بي الحبال في سفري فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفري، فقال: قد كنت أعمىٰ فرد الله إلي بصري فخذ ما شئت ودع ما شئت، فوالله لا أجهدك اليوم شيئًا أخذته لله، فقال: أمسك مالك فإنما ابتليتم، فقد رضي عنك وسخط علىٰ صاحبيك»[1].

هذا الحديث من أحاديث بني إسرائيل وفيه هذه القصة العجيبة، وذكرها البخاري في أحاديث بني إسرائيل، والمؤلف ﷺ الظاهر أنه ذكر لفظ مسلم؛ لأن الحديث متفق عليه لأن لفظ البخاري: «**إن ثلاثة من بني إسرائيل، أبرص وأقرع وأعمىٰ، بدا الله أن يبتليهم**»[2]، هكذا في البخاري وقد أشكلت هذه الكلمة «بدا» علىٰ كثير من الناس الذين يشرحون الحديث، وبعضهم تركها واجتنبها نهائيًا ولم يتكلم عليها، وقد قدح الشيخ الألباني ﷺ بالبخاري بسبب هذه الكلمة وقال: ينبغي للإنسان أن يكون علىٰ بينة من عقيدته، فالبخاري فيه شيء يخالف العقيدة، فالبدء يكون من طريقة اليهود وهو من عقيدتهم، فلا يجوز أن يكون هذا مضاف إلىٰ الله قاله في كتابه مختصر البخاري، وكل هذا خطأ لأن معنىٰ بدا معنىٰ أراد، والله ﷻ يعلم الأشياء قبل وجودها هذا أمر لا إشكال فيه ولا يشك فيه أحد من أهل العلم وأهل الإسلام، فلا يجوز أن يقدح في هذه الكلمة فمن ظهر له أنها خطأ يجب إما أن يبحث عن الرواية الأخرىٰ التي فيها بيان لها أو أقل شيء أن يسكت حتىٰ يتبين له الحق.

---

(١) رواه البخاري رقم (٣٤٦٤) و(٦٦٥٣)، ومسلم رقم (٢٩٦٤).

(٢) رواه البخاري رقم (٣٤٦٤).

قوله: «إن ثلاثة من بني إسرائيل»: أحاديث بني إسرائيل جاءت علىٰ ثلاثة أقسام:

◈ قسم منها ثابت صحيح وهو الذي دل عليه ما جاء به رسول الله ﷺ سواءً في القرآن أو في أحاديثه مثل هذا الحديث، فهذا يجب أن يؤمن به ويصدق ويعلم أنه حق وأنه ثابت لا مرية فيه.

◈ وقسم عكس هذا جاء ما يخالفه مما جاء به الرسول ﷺ ويكذبه، فهذا يجب أن يرد ويكذب وهذا أيضًا موجود عندهم بكثرة.

◈ وقسم مسكوت عنه ليس فيه لا رده ولا تصديقه وهذا الذي قال فيه ﷺ: «**إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالله وكتبه ورسله، فإن كان حقًا لم تكذبوهم، وإن كان باطلًا لم تصدقوهم**»[1]، وعلىٰ هذا تكون أخبار بني إسرائيل وما عندهم علىٰ هذه الثلاثة الأقسام:

- قسم يجب الإيمان به وتصديقه، وهذا اختلف فيه العلماء هل هو شرع لنا، وفيه كلام كثير وتفصيل ذكره العلماء في الأصول وغيرها. فما قرره الرسول ﷺ وذكره فهو شرع لنا، وكذلك ما ذكره الله ﷻ في القرآن مبينًا ذلك وقاصه علينا.

- والقسم الثاني: ما هو كذب بإضافاتهم الأشياء التي يضيفونها إلىٰ الأنبياء وغيرها ودعاويهم التي يدعونها.

- وقسم ليس عندنا ما يصدقه ولا يكذبه، فهذا نتوقف فيه حتىٰ يتبين لنا أنه حق أو أنه كذب، فإذا تبين أنه حق قبلناه وآمنا به، وإذا تبين أنه كذب رددناه وتبرأنا منه.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم (١٧٢٢٥)، وأبو داود رقم (٣٦٤٤) من حديث أبي نملة الأنصاري، ورواه البخاري رقم (٤٤٨٥) من حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «**لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا:** ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ [البقرة: (١٣٦)]».

والبخاري رَحِمَهُ اللَّهُ ذكر في هذا الكتاب أحاديث كثيرة عن بني إسرائيل، وقد جاء أنه قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ومن كذب علي متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار**»[1]، وجاء في رواية: «**حدثوا عن بني إسرائيل، فإنه كانت منهم عجائب الأعاجيب**»[2]، فالتحديث عنهم مقيد بهذا أن يكون ليس فيه مخالفة لما عندنا. وهذا الحديث من العجائب. والرسول ﷺ حدث عنهم كثيرًا في أحاديث ثابتة يذكرها عنهم كثيرًا.

قوله: «أبرص»: البرص معروف وهو مرض تتغير معه البشرة، وكذلك «القرع» يكون في الرأس مرض يزيل الشعر ويكون له قروح وله رائحة كريهة.

أما «العمىٰ» فهو فقد البصر، فهذه أمراض ثلاثة من الأمراض المعيبة التي عجز عنها الأطباء، وهذا من قديم الزمان، وهذه آية من آيات الله، كون الملَك جاءهم في صورة رجل وخاطبهم ثم مسح هذا بيده فصار له جلد حسن وزال عنه البرص، فلو كان عنده مثلًا شكر لله جَلَّ وَعَلَا وتوحيد له لاعتبر بهذا وعرف أن هذا من الله وأنه نعمة منه وآية من الله.

وكذلك القرع، هو مسح رأسه فزال عنه ذلك، وصار له شعر حسن وذهب عنه الشيء الذي كان يقذره الناس من الرائحة والمنظر الكريه، وكذلك إرجاع البصر كلها آيات ما لا يمكن بصنع المخلوق؛ فكلها من الله جَلَّ وَعَلَا، فهي من المبدأ تدعوهم إلىٰ أن يشكروا الله جَلَّ وَعَلَا.

والله جَلَّ وَعَلَا علام الغيوب يعلم ما سيكون قبل كونه وقد كتبه عنده، ولكنه جَلَّ وَعَلَا لا يأخذ الإنسان إلا بعمله، فالكتابة التي هي كتابة عمله قد علم جَلَّ وَعَلَا أنه يتبين له هذا

(١) رواه البخاري رقم (٣٤٦١) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.
(٢) الأدب لابن أبي شيبة (١/ ٢٥٦).

الأمر ولم يأخذه به بل لا بد أن يظهر هذا بعمله، فيبْرُزا عمله ظاهرًا وهذا هو الابتلاء ومعناه الاختبار حتىٰ يتبين ويبرز، فهذا معنىٰ قوله: «**أن يبتليهم**»، هذه رواية مسلم: «**فأراد الله أن يبتليهم**»، فهذه الإرادة هل هي إرادة تتجدد كانت بعد أن لم تكن؟ هذا ممتنع عند الأشاعرة وغيرهم لأن عندهم الإرادة صفة أزلية ولا تتجدد وعندهم الإرادة إرادة واحدة للمرادات كلها. وهذا باطل بلا شك، فالله ﷻ إرادته بالفعل تتعلق بمشيئته وهي تختلف باختلاف المرادات كل مراد له إرادة.

والإرادة دل الاستقراء في كتاب الله ﷻ، وحديث رسوله ﷺ **أنها تنقسم إلىٰ قسمين:**

إرادة كونية قدرية أزلية، وهذه هي التي كوَّن بها الأشياء في الأزل، فإنه إذا أراد شيئًا قال له كن فيكون كما قال ﷻ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] **وإرادة دينية أمرية شرعية**؛ يعني: أن الإرادة الثانية هي في الشرع فقط، وهذه التي ذكرت في مثل قوله ﷻ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [النساء: ٢٦] فالتبيين هو شرعه.

وكذلك تيسير التكليف هذا ليس لكل أحد، هذا لمن قبل ذلك، أما الذين لم يقبلوه لم يرفعوا به رأسًا فلم يرد بهم يسرىٰ، فلم يرد بهم إلا أن يكونوا كافرين - نسأل الله العافية-.

والإرادة الكونية القدرية لا بد من وجود مرادها لا يمكن أن يتخلف، إذا أراد شيئًا كونًا لا بد من وقوعه، أما الإرادة الدينية فلا يلزم أن يوجد لأنه ﷻ أراد من العصاة أنهم يطيعوه وأمرهم أمرًا شرعيًا ولكنهم عصوا وكذلك الكفار كفروا فيتخلف مراد الإرادة الدينية كثيرًا، فإذا وجد مرادها فقد اتفقت مع الإرادة الكونية.

والفرق بينهما أيضًا أن الله يحب مراد الإرادة الدينية ويأمر به، أما الكونية فلا يلزم قد يحبه وقد يكرهه، ويبغضه كما في وجود المعاصي ووجود الكفر ووجود الشياطين ووجود الظلمة فهذا قد أراده كونًا وخلقًا ولكنه يكرهه ويبغضه تعالىٰ وتقدس.

وكذلك يريد من عباده أن يطيعوه، وأن يكونوا محسنين ومتقين ولكن هذا يتخلف كثيرًا.

فبهذا يتبين أنها تنقسم إلىٰ قسمين، والذي لا يقسمها مثل المتكلمين والأشاعرة والمعتزلة وغيرهم اضطربوا في هذا اضطرابًا كثيرًا، وصاروا علىٰ غير بينة وحدثت لهم إشكالات كثيرة بسبب ذلك بخلاف أهل السُّنَّة فإنه لا إشكال عندهم في ذلك.

قوله: «فبعث إليهم ملكًا»: هذا من الرسل الذين يصطفيهم الله؛ لأن الله يصطفي من الملائكة رسلًا ومن البشر، ولكن هذه الرسالة خاصة، جاءت إلىٰ هؤلاء الثلاثة وقد تكون لغيرهم أيضًا، المهم أنه رسول من الله إليهم ولكنه جاء بالابتلاء، وهذا يدلنا علىٰ أن النعم أنها بلوىٰ وأن الإنسان يختبر بها، فإن شكر كانت نعمة ظاهرًا وباطنًا، وإن كفر كانت بالنسبة إليه سببًا في خذلانه، ولهذا يقول الحسن البصري رحمه الله: إذا رأيت الرجل ينعم عليه وهو مقيم علىٰ معاصي الله فهو يمكر به؛ يعني: أنه يخفىٰ عليه ذلك ويظن أنه خير وهو ليس كذلك بل هو شر.

ويجب أن يكون العبد علىٰ حذر في هذا فيشكر ربه علىٰ الصحة وعلىٰ الهداية والمعرفة وعلىٰ كل ما حصل له من خير يجب أن يضيفه إلىٰ الله ويشكره عليه، وأن يكون ذلك عونًا علىٰ طاعة الله وأن يستعمله في طاعة الله، وإذا لم يفعل ذلك فإنه لم يقم بشكر النعمة التي أنعمت عليه.

قوله: «**فأتى الأبرص**»: وخاطبه وهو بشر ما جاءه بصورة الملَك، جاءه بصورة بشر يخاطبه بلسانه وبلغته وبما يعرفه، ولكنه يجب أن يعترف لأن هذا ليس بإمكان البشر مطلقًا، ولا بإمكان الأطباء فلكثافة الضلال عنده لم يتنبه لذلك.

قال له: «**أي شيء أحب إليك**»؛ يعني: يأتيك إنسان مثلًا على صورتك وهيئتك ويقول لك هذا القول: «**أي شيء أحب إليك**» ماذا تفكر فيه؟ هل يستطيع أن يعطيك كل ما تريده؟ هذا لا يمكن إلا أن يكون رسولًا من الله أرسله إليك.

قال: «**لونًا حسنًا، وجلدًا حسنًا**» اللون الحسن يتضمن كونه يعطي جلدًا حسنًا لأن لون البرص لونًا ليس حسنًا.

وقوله: «**ويذهب عني الذي قد قذرني الناس به**»: هذا كله تأكيد لشيء واحد وهو أن يذهب هذا المرض ويعطى جلدًا حسنًا ويذهب ما فيه من المرض.

قال: «**فمسحه**» يعني: مسح جلده فزال، وهذا معناه أنه في الحال مسحه بيده فزال البرص وصار له جلدًا حسنًا وذهب الشيء الذي يقذره الناس. فهل هذا بإمكان أحد من الأطباء؟ أو من غيرهم؟ هذا لا يمكن، فهي آية ولكنه الكفر عنده متأصل -نسأل الله العافية-.

وقد قال بعض الشراح كلامًا سيئًا في هذا، قال: إن الأبرص والأقرع المرض الذي فيهما يدل على أن أمزجتهما سيئة، وليس عندهما اعتدال طبيعة، فلهذا كفرا، وهذا كلامهم ولا يجوز أن يقال؛ لأن العقل موجود عندهم ولكنهما لم يستعملاه لما خلق له، وليست الطبيعة هي التي تجعل الناس كافرًا وشاكرًا!! بل هو فضل الله ﷻ إذا تفضل الله على إنسان وهداه يكون شاكرًا، أما إذا منعه فضله فلا بد أن يكفر لأنه لا يستطيع أن يشكر ويكون متقيًا مستقيمًا بقوته وبعلمه وبإرادته إن لم يهده الله فلا هادي له.

وهذا أمر ظاهر كونه مسحه وزال عنه هذا المرض الذي أعيا الأطباء من قديم الزمان إلىٰ الآن لم يوجد له علاج، والآن يجتهد الأطباء في إيقافه أول ما يبدأ، أمّا أن يزيله فهذا لا يجدونه ويعترفون بأنه لا علاج له، وإن كان داخل في قوله ﷺ: «**ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء علمه من علمه وجهله من جهله**»(١)، ولكن أمور الطب والعلاج أكثرها يأتي من باب الصدفة، صحيح أنه إذا كان هناك أشياء واضحة السبب فهذا يوجد له العلاج غالبًا، ولهذا نقول هذا المرض كثير من الناس يشفىٰ منه بالعسل إذا استعمل عسلًا وداوم عليه وقتًا طويلًا أقل شيء ستة أشهر فإنه يشفىٰ بإذن الله، وقد شفي ناس بهذا كثير وبعض الناس استعمله كثيرًا فلم يؤثر فيه، والأمر بيد الله ﷻ.

وعندما زال عنه المرض في المجلس الواحد، **تبين أنّ**: هذه آية يجب أن يعتبر بها ثم قال له بعد ذلك آية أخرىٰ، ماذا تريد من المال «**أي المال أحب إليك، فقال: الإبل أو قال البقر**» شك الراوي. فأعطاه ناقة، من أين أتىٰ بها «**فأعطي ناقة عُشراء**» **العشراء**: هي التي ولدها في بطنها، وهذا خاص بالإبل.

قوله: «**فقال: بارك الله لك فيها**»: هذا دعاء، أو خبر يجوز أن يكون خبرًا؛ يعني: أن الله بارك فيها، ويجوز أنه يكون دعاء من الملك.

ثم أتىٰ صاحبه «**فأتىٰ الأقرع**» والظاهر أنه يعرف بعضهم بعضًا، الثلاثة كل واحد منهم، ولهذا قال في آخره: «**قد رضي الله عنك وسخط علىٰ صاحبيك**».

«**فأتىٰ الأقرع فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: شعر حسن، ويذهب عني الذي قد قذرني الناس به، فمسحه**»؛ يعني: مسح رأسه، فذهب عنه هذا المرض ونبت

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم (٣٥٧٨) من حديث ابن مسعود والجملة الأولىٰ عند البخاري رقم (٥٦٧٨) من حديث أبي هريرة.

شعره (في الحال) وصار حسنًا، فهو مثل ما مضىٰ في الأبرص، فهذا لا يمكن أن يكون بمقدور البشر فهو من آيات الله التي يجب أن يعتبر هو بها، ويحمد الله علىٰ هذا ويشكره، ثم زيادة علىٰ ذلك قال له: «أي المال أحب إليك؟ فقال: البقر أو الإبل»، هذا الشك مثل ما مضىٰ من الراوي، «**فأعطي بقرة حاملًا**» وهنا قال حاملًا ولم يقل عشراء ويقال للبقر أيضًا عشراء. «**فقال: بارك الله لك فيها**» ثم «**أتىٰ الأعمىٰ قال: أي شيء أحب إليك؟ قال: أن يرد الله إلي بصري**» هذا معترف من الأصل؛ يعني: خطابه وكلامه خالف صاحبيه؛ لأن الأول لم يقل: أن يزيل الله عني الذي قذرني الناس به، قال ليذهب عني كذا، وكذلك الثاني أن يذهب عني الذي قد قذرني الناس به، أما الأعمىٰ فقال: أن يرد الله علي بصري، فدل علىٰ أنه في أصله وطبعه مخالفًا لهما وأن عنده شكر لله وعنده إيمان بالله علىٰ خلاف صاحبيه.

«**فمسحه**»؛ يعني: مسح عينيه «**فرد الله إليه بصره**»، ثم قال له: «**أي المال أحب إليك؟ قال: الغنم**» الغنم من الغُنم، وهي لها أثر في صاحبها في خلقها، ولبنها بخلاف الإبل ولهذا ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**الفخر والخيلاء في أصحاب الإبل، والسكينة والوقار في أهل الغنم**»[١]، الغنم عندها سكينة وصاحبها يكتسب منها، وهكذا الناس يكتسبون أخلاقًا من البهائم بل يكتسبون ممن يخالطونه، أما إذا كان مثلًا فيها مأكل مثل الألبان واللحوم فهذه تكسب أيضًا أخلاقًا ولهذا علل الفقهاء وجوب الوضوء من أكل لحوم الإبل بهذا، بخلاف الغنم فإنه لا يتوضأ منها. وقد ثبت في صحيح مسلم أن النبي ﷺ سئل: «**أأتوضأ من لحوم الغنم؟ قال: إن شئت فتوضأ وإن شئت فلا تتوضأ، قال: أتوضأ من لحوم الإبل؟ قال: نعم؛ فتوضأ من لحوم الإبل**»[٢]، وكذلك في السنن وثبت حديث نظير هذا أنه قال: «**توضؤوا من**

(١) رواه البخاري رقم (٤٣٨٨)، ومسلم رقم (٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) رواه مسلم رقم (٣٦٠).

الإبل ولا توضؤوا من الغنم».

ولهذا نقول: أن أكل لحم الإبل ينقض الوضوء، فمن أكل لحم بعير وجب أن يتوضأ لهذين الحديثين الصحيحين.

وجاء حديث أن الإبل خلقت من الشياطين، ولهذا فيها الكبر والخيلاء ومن خالطها كان كذلك، وهذا تجده ظاهرًا فيمن يكون مخالطًا مثل رعاة الإبل تجد عندهم من الكبر والغطرسة والخيلاء ما ليس عند أصحاب الغنم، ولهذا الرجل وفق واختار الغنم والغنم من خير المال في الصحيح أن الرسول ﷺ قال: «**يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن**»(١).

«**فأعطي شاة والدًا**»؛ يعني: معها ولدها.

«**فأنتج هذان**» فأُنْتِجَ وليس أنتج؛ يعني: أنه تولىٰ الإنتاج وهذا مثل القابلة وهي المرأة التي تتولىٰ ولادة المرأة أما هذا فقال: أُنتج.

«**وولد هذا**» الثاني ولد؛ يعني: ولَّد الشاة «**فكان لهذا وادٍ من الإبل، ولهذا وادٍ من البقر، ولهذا وادٍ من الغنم**»؛ يعني: أن هذا صار له من الإبل ما ملأ واد، والوادي معروف الغالب أنه يكون بين جبلين أو يكون بين مرتفعين، وقد يطلق علىٰ المكان المتسع؛ يعني: أنه كان له إبل كثيرة، وكذلك الثاني له بقر كثير، والثالث له غنم كثيرة.

ومعنىٰ ذلك أنهم تركوا حتىٰ تكاثرت أموالهم وصار فيه فترة كثيرة ولا بد علىٰ إعطائهم هذه الأشياء وإزالة هذه الآفات التي كانت فيهم.

ثم بعد ذلك «**إنه أتىٰ الأبرص في صورته**»؛ يعني: في صورة رجل أبرص حتىٰ يعتبر وصورته هنا الضمير يعود علىٰ الأبرص؛ يعني: هو الملك الذي آتاهم جاءهم

(١) رواه البخاري رقم (١٩) من حديث أبي سعيد الخدري.

بهذه الصفة وهذا تذكير لهم ففيه مبالغة في التذكير، حتىٰ يُذكره ما كان عليه، وكذلك في الصورة الثانية التي هي الفقر أبرص فقير، وكان هكذا هو أبرص وفقير فجاءه في صورته؛ يعني: حالته التي كان عليها، وهذا من أبلغ التذكير لو كان عنده تأهل لذلك، ولكنه -نسأل الله العافية- كُفر متأصل، ومع هذا جاءه «**في صورته وهيئته**» هيئة الرجل نفسه، ومع هذا لم يكفيه، فطلب منه «**فقال: رجل مسكين وابن سبيل، قد انقطعت بي الحبال في سفري هذا**»، الحبال: معناها الأسباب التي يمكن التوصل بها، وأتبلغ بها؛ يعني: ما عندي شيء ثم بالغ في التذكير: «**فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك**»؛ يعني: أني مضطر، ثم بالغ في ذلك فقال: «**أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال**»، ذكَّره أولًا جاءه في صفته ثم سأله ثم ذكره وسأله بالله، وهذه كلها مبالغات، ولو كان عنده إيمان أو شيء من الإيمان لبادر إلىٰ هذا، ولكنه كفره متأصل.

وهو لم يسأله كثيرًا: سأله بعيرًا، وعنده واد من الإبل «**بعيرًا أتبلغ به في سفري**» فقال: «**الحقوق كثيرة**»؛ يعني: لو أعطيتك لأتاني رجل آخر يطلب وآخر غيره ثم تنفذ إبلي، وهذا كفر معناه ردٌّ له، ولهذا دعا عليه.

«**فقال له كأني أعرفك، ألم تكن أبرصًا يقذرك الناس، فقيرًا فأعطاك الله**» فأنكر هذه النعمة وهذا الفضل الذي أعطاه الله «**فقال: إنما ورثت هذا المال كابرًا عن كابر**»؛ يعني: هذا المال ورثته عن آبائي وهذا هو الشاهد فيه، هذا الكفر بالله ﷻ كفر النعمة جحدها وأنكرها وأضافها إلىٰ نفسه، وهذا كفر بالله ﷻ يقتضي العقاب -نسأل الله العافية-.

وقوله: «كابرًا عن كابر»: أنه ورثه عن آبائه المتقدمين الكبار ليس الأب الأقرب.

فدعا عليه «قال: إن كنت كاذبًا فصيرك الله إلىٰ ما كنت»؛ يعني: جعلك أبرص فقيرًا يقذرك الناس، فهل صار إلىٰ ذلك؟ لا يلزم ذلك، ولكنه كفر بالله ﷻ ويكفي

عذاب الله ﷻ له، والغالب أنه رجع إلىٰ ما كان عليه وأن الله عذبه لأنه كفر بنعم الله الظاهرة، ولم يرعوِ ولم تنفع فيه العلامات الكثيرة والتذكير وما جاءه به الملك من الأمور البليغة، ما نفعت فيه، ولهذا دعا عليه.

ولو كان قوله واقعًا أنه ورثه عن آبائه لكان ذلك أبلغ في النعمة حيث أنعم الله علىٰ آبائه ثم عليه فيجب أن يشكر الله علىٰ ذلك كثيرًا.

قال: «**وأتىٰ الأقرع في صورته وهيئته**»؛ يعني: في صورة أقرع وفقير مثل ما كان عليه «**فقال له مثل ما قال لهذا**»؛ يعني: للأبرص، سأله أنه رجل فقير عابر سبيل انقطعت بي الحبال ولا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك أسألك بالذي .. الخ فقال له مثل ما قال الأول «**الحقوق كثيرة**» وأبىٰ أن يعطيه، فقال له مثل ما قال: «**كأني أعرفك ألم تكن أقرع يقذرك الناس .. الخ**» فقال: «**لا. هذا المال ورثته كابرًا عن كابر**» فكفر مثل كفر زميله -نسأل الله العافية- وهذا كفر ظاهر، وكفر النعمة يدل علىٰ أنه ليس أهلًا لذلك، ولكن الله ﷻ يعطي المال من يحب ومن لا يحب، ولهذا تجد الكفار عندهم من الأموال والنعم الشيء الكثير، ولكن ما هي حقيقة ذلك؟ حقيقة ذلك كما قال ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد: ١٢] مثل ما تأكل الأنعام، وقد تكون الأنعام أكثر حظًا منهم، وكلها تذهب كأن لم تكن -نسأل الله العافية-.

ولهذا نقول أن هذا الحديث وهذه القصة تدل علىٰ أن المال نعمة من الله يجب أن تكون عند المؤمن، وليس الوجوب هو الوجوب العقلي، فإذا لم تكن عند المؤمن فهي عند الكافر زيادة عذاب له وليس هو أهل لها، وليس هذا هو محلها، ولكن الله ﷻ أعطاه ذلك تعجيلًا لعذابه أو زيادة في عذابه لأنه إذا لم يشكر فهو كافر ويزاد في عذابه.

ولأن الدنيا لا تساوي شيئًا، ولهذا جاء في الحديث: «**أن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا من يحب**»[(١)].

ثم أتىٰ إلىٰ الثالث الذي هو الأعمىٰ، أتاه في صورته أعمىٰ، وصورة فقير، فقال له مثل ما قال لصاحبيه، فتذكر حاله وشكر ربه فقال: «**قد كنت أعمىٰ فرد الله عليّ بصري فخذ ما شئت، ودع ما شئت، فوالله لا أجهدك بشيء أخذته لله**»؛ يعني: لا أمنعك من شيء أخذته لو أخذت المال كله، فأخبره أنه لا حاجة له في المال وإنما هذا ابتلاءٌ من الله ﷻ ليظهر ذلك جليًا في أعمالهم وأقوالهم وأفعالهم حتىٰ يستحقوا علىٰ ذلك العذاب أو الثواب «**فقال: أمسك مالك**»؛ يعني: لا حاجة لي فيه، وإنما ابتلاكم الله ﷻ فرضي عنك وسخط علىٰ صاحبيك. فالظاهر أنه يعرف صاحبيه، وقد لا يلزم من ذلك، لأن قوله صاحباك؛ يعني: الذي عرفهما الملك.

قد يستدل بهذا علىٰ جواز التمثيل الذي يصنعه الناس اليوم؛ لأنه جاء في صورة رجل وليست هذه صورة الملك، والثاني أنه جاء في صورة أبرص فقير، ثم جاء في أقرع فقير ثم جاء في صورة أعمىٰ، وكل هذا لا يدل علىٰ جواز التمثيل لأن هذه هي ليست صورة الملك حقيقة فهو باستطاعته أن يتمثل، ولا يخرج بهذا عن صورته، ولهذا لما جاء جبريل إلىٰ رسول الله ﷺ في صورة دحية الكلبي قال هذا جبريل، وهو كذلك في هذا في الصورة التي خلق عليها ولكنه يظهر للناس في هذا؛ لأنه لا يمكن مشاهدته علىٰ صورته الحقيقية، ولهذا لما اقترح الكفار أن يأتيهم ملك علىٰ صورته الحقيقية قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ [الأنعام: ٩]؛ يعني: يلتبس عليهم الأمر فيقولون هذا رجل وليس ملك، فلا بد أن يكون علىٰ صورة البشر حتىٰ يمكن أن يتخاطبون معه،

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم (٣٦٧٢) من حديث ابن مسعود.

ولهذا إذا جاء جبريل علىٰ صورته يكون الوحي شديد علىٰ الرسول ﷺ بخلاف ما إذا جاء في صورة بشر فإنه يخاطبه كما في حديث عمر رضي الله عنه فيكون هذا ليس فيه دليل علىٰ جواز التمثيل، التمثيل كذب وفيه استهزاء وسخرية في الناس الذين يتمثل فيهم، فمثل هذا لا يجوز أن يكون حكمه الإباحة، أو كما يقول بعض الناس أنه واجب لأنه فيه الدعوة وفيه كذا وكذا.

فهذه القصة العجيبة فيها تذكير أن الإنسان يجب عليه أن يشكر ربه علىٰ كل ما يناله من محبوبات ومرادادات، سواءً كانت من المال أو الصحة أو الولد أو من غيرها، وأعظم من ذلك كله أن يوفقه الله جل وعلا لطاعته، فهذا يجب أن يكون شكره أعظم من شكره علىٰ المال، والإنسان لن يقوم بشكر الله لكنه إذا قام بما يستطيع واعترف بالتقصير فإن الله جل وعلا يثيبه علىٰ ذلك، ولهذا يقول الرسول ﷺ: «**سيد الاستغفار أن تقول: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا علىٰ عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي وأبوء لك بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلىٰ أنت**»[1]. فأبوء: معناه أعترف وأقر بنعمك، وكذلك أعترف بذنوبي وأقر بها، وصار سيد الاستغفار من أجل ذلك. فإن اعتراف الإنسان بتقصيره، اعتراف لله بفضله ونعمه، فإن الله جل وعلا يشكره علىٰ هذا ويثيبه.

فالمقصود بهذا الباب وجوب إضافة النعمة إلىٰ مسديها ومموليها، ووجوب القيام بشكرها، والثناء علىٰ من أنعم بها، فهذه أركان الشكر من لم يقم بها فإنه يكون ناقص التوحيد أو ذاهب توحيده فهذا مقصود الباب.

وفيه كذلك أنه لا يجوز إضافة النعم إلىٰ أسبابها أو بعض أسبابها، وإنما تضاف الأمور إلىٰ الله الذي سبب الأسباب، وأن هذا من شكر النعمة.

---

(١) رواه البخاري رقم (٦٣٠٦) من حديث شداد بن أوس.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **فيه مسائل:**

۞ **الأولى: ما معنى** ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾.

يعني مثل ما يقول: أنا شاطر أعرف وجوه التجارة، ولأني متعلم أعرف كيف أستورد وكيف أتصرف، وكيف أعامل الناس، فيضيف الأمور إلىٰ نفسه وهذا من الكفر والواجب أن يشكر ربه، ويضيف ذلك إلىٰ ربه ﷻ الذي هيأ له الأسباب وجعله قادرًا، ولو شاء لم يحصل له شيء مع وجود السبب، هذا معنىٰ لي وعندي الإضافة إلىٰ الإنسان إضافة كفر، وإنما الواجب أن تكون الإضافة إلىٰ ربه ﷻ.

۞ **الثاني: ما معنى** ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾؟

هذا مثل ما سبق، كما يقول أنا أعرف كيف أتصرف، وأنا اعتمد علىٰ نفسي، ومعلوم أن الاعتماد علىٰ النفس اعتماد علىٰ عورة وضيعة وضلال، والرسول ﷺ الذي هو أكمل الخلق يقول: «**وأشهد أنك إن تكلني إلىٰ نفسي تكلني إلىٰ ضيعة وعورة وذنب وخطيئة**»[1]، وكثير من الناس أيضًا يوصي إخوانه وأولاده يقول اعتمدوا علىٰ أنفسكم، فهذا من الغرور في الواقع، الواجب أن يكون اعتماده علىٰ ربه في كل شيء، والنفس ضعيفة ولا يمكن أن يعتمد عليها، ولكن من سُنَّة الله في خلقه أنه جعل أسبابًا ظاهرة حتىٰ يتبين الشاكر من الكافر، الكافر ينظر إلىٰ السبب نفسه ويعتمد عليه، معلوم أن الاعتماد علىٰ السبب شرك، وتعطيل السبب قدح في الشرع وفي العقل، يجب أن تفعل السبب الشرعي، **والأسباب تنقسم إلىٰ قسمين:**

سبب شرعي، وسبب غير شرعي، بل هو ممنوع محرم، فيجب أن يعتمد علىٰ ربه ويفعل السبب الشرعي؛ يعني: تفعل السبب أولًا، وتعتمد علىٰ الله ﷻ

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم (٢١٦٦٦).

في حصول المراد، فإن حصل تشكر الله ﷻ بإضافة هذه النعمة إليه، وليس إليك أو إلىٰ صنعتك أو إلىٰ كسبك كما في هذه الآية.

فمراد المؤلف أن يبين أن التوحيد يقتضي وجوب الشكر، وإضافة النعم إلىٰ موليها ومسديها هذا أولًا، ويثني بها علىٰ الله ثانيًا، وأن تكون عونًا له علىٰ الطاعة، ويعمل بها في طاعة الله ثالثًا، فهذه الأمور الثلاثة لازمة لا بد منها، وإن تخلف واحد منها فإن العبد لا يكون قائمًا بشكر النعمة، فيكون فيه قدح في توحيده، ومستحق لعذاب الله إن لم يعفُ عنه.

الباب الخمسون

✍ **قال المؤلف** رحمه الله : **باب قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ الآية** [الأعراف: ١٩٠].

قبلها: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٩-١٩١] وقراءة الآيات وتأملها يبين المعنى.

فقوله جل وعلا: «﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾»: هذا لا إشكال فيه أن المقصود به آدم عليه السلام.

وقوله: «﴿وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾»: أن الله خلق زوجة آدم من بعض بدنه.

وقوله فيما بعد الظاهر أن المقصود في ذلك الجنس وليس المعين؛ يعني: المؤلف رحمه الله يريد بذلك أن آدم عليه السلام هو الذي وقع منه هذا الأمر هو وزوجته، فقول الله جل وعلا: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ لا إشكال أنه آدم ﴿وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾.

وبعد ذلك جاءت التثنية، والتثنية يصح أن تكون لآدم ويصح أن تكون للجنس؛ يعني: الزوج وزوجته من جميع الذين يقع منهم ذلك.

وقوله: «﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾»: هكذا جاء في القرآن التعبير عما يُستحيا منه بالكناية، كما قال جل وعلا: ﴿أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [النساء: ٤٣]، وقوله: ﴿وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ﴾ [النساء: ٢١]، وما أشبه ذلك من الآيات فيها أن الله يكني عن الأمر الذي

يُستحيىٰ منه، وكذلك جاء في السُّنَّة، فإن الرسول ﷺ ما كان يصرح إلا في وقت الحاجة التي لا بد منها، فلما جاء ماعز مقرًا علىٰ نفسه بالزنا قال له: «**قبَّلت أو لمست**»(١)، ثم قال له تصريحًا لا بد منه لأن الحدود تُدرأ بالشبهات، وأيضًا مثل هذا ينبغي أن لا يُتسرع فيه، ففي هذه الآية مثل ذلك، فالله كريم ﷻ يشرع لنا الشيء الذي نسلكه حتىٰ في ألفاظنا من الأمور التي يؤدبنا بها ﷻ، ولهذا قال: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾، **والتغشي**: عبارةٌ عن وطء المرأة، يعني: وطء الزوج زوجته.

ولهذا قال: ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ مرت به يعني: استمرت به خفيفًا لم تشعر به الآن، أول مبدأ الحمل يكون خفيفًا لا يُشعر به.

وقوله: «﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾»؛ يعني: أنه كبر في بطنها وصار ثقيلًا حمله، وهذا أمر معلوم عند الناس.

وقوله: «﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾»؛ يعني: الزوج وزوجته.

وعلىٰ التفسير الذي أراده المؤلف: آدم وحواء، ولكن هذا سيأتي إن شاء الله.

وقوله: «﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾»: هذا فيه شرط وفيه قسم.

قوله: «﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾»: هذا هو الجواب، ولكن جاء خلاف هذا.

والظاهر أن الصالح هنا المقصود به: صلاح البدن أن لا يكون معيبًا، أو أن لا يكون نوعًا آخر غير البشر لأن الله قادر أن يخلق ما يشاء ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٦] ﷻ.

ولهذا كانت عائشة ﵂ إذا ولدت المرأة تسأل: لعله سويًا، فإذا قيل لها أنه سويًا حمدت الله، بغض النظر عن كونه ذكرًا أو أنثىٰ.

(١) أحمد في المسند رقم (٢١٢٩)، والبخاري رقم (٦٨٢٤).

وهذا الظاهر هو المقصود ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾؛ يعني: صالحًا في خلقته، يكون آدميًا سويًا.

وقد يدخل فيه الصلاح الذي هو صلاح العبادة والتوجه والعقيدة، ولكن هذا لا يتبين من المولود وإنما يتبين بعد ما يعرب عنه لسانه؛ يعني: يكون عاقلًا.

وقوله: «﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾»: هذا وعد، بل هو شبه النذر، ولكنه لم يقع؛ يعني: أن الجواب لم يقع بل خولف ولهذا قال: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

اختلف العلماء في المراد في هذه الآية، وكثير من العلماء يقولون أن هذا في آدم، وابن حزم رحمه الله يقول هذه خرافة وهذه حكاية باطلة لا يمكن أن تكون لآدم عليه السلام. وكذلك قال الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله قال أنها باطلة ولا يجوز أن تنسب لآدم، وهذا هو الظاهر؛ يعني: بطلانه.

والشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله استدل على بطلانها بعدة أشياء(١)، ولكن بعضها فيه نظر مثل قوله: إن الأنبياء معصومون. العصمة لا تنافي وقوع الخطأ على القول الصحيح عند أهل السُّنَّة؛ لأن حتى العصمة في وقوع الشرك فيه خلاف بينهم، ولهذا اختلفوا في قوله تعالى في قصة شعيب عليه السلام وغيره: ﴿إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ٨٩] فهل كان على ملتهم؟ فيه خلاف بين العلماء، وشيخ الإسلام رحمه الله(٢) يقول: لا مانع من ذلك قبل أن يوحى إليه، وكذلك قوله الله جل جلاله:

(١) القول المفيد شرح كتاب التوحيد (٢/ ٢١٣)-(٢١٥).

(٢) مجموع الفتاوى (١٥/ ٢٩) قال رحمه الله: ظاهره دليل على أن شعيبًا والذين آمنوا معه كانوا على ملة قومهم لقولهم: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨]، ولقول شعيب: «أنعود فيها ولو كنا كارهين»، ولقوله: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم﴾ [الأعراف: ٨٩]، فدل على أنهم كانوا فيها ولقوله: ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ٨٩]، فدل على أن الله أنجاهم منها بعد التلوث بها.

﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ [الضحى: ٧] وما أشبه ذلك.

فالمقصود: أن ذلك غير متفق عليه، وإنما العصمة للأنبياء فيما يبلغونه عن الله ﷻ، هذا اتفقوا على أنهم معصومون فيه، أما وقوع الخطايا والسيئات فالله ﷻ قل أن يذكر نبيًا إلا ويذكر له شيئًا من ذلك، ولكن الله ﷻ لا يقرهم على الذنوب بل يوفقهم فيتوبون وتكون حالتهم بعد الذنب أحسن منها قبل، والله ﷻ: ﴿يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ ولا يمكن أن يمنع سادات أوليائه عن هذه المحبة التي يحبها الله ﷻ فيوقعهم في الشيء الذي يكتسبون فيه محبة الله ﷻ والرجوع إليه والتضرع بين يديه والافتقار له، وهذا من أفضل العبادات التي يحبها الله فتكون حالتهم بعد ذلك أحسن منها من قبل، وكذلك التائب إذا وقع في ذنب ثم تاب صادقًا فإن الله ﷻ يبدل سيئاته حسنات، وهو ﴿يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] والمتطهرون يدخل فيه المتطهر من الذنوب من باب أولى، وقد اختلفوا في مسألة في التبليغ؛ يعني: هل يمكن أن يقع فيما يبلغونه شيء من إلقاء الشيطان؟ وعلى هذا جاءت القصة المشهورة «قصة الغرانيق» والخلاف فيها مشهور، ذلك أن النبي ﷺ لما قرأ سورة النجم ووصل إلى قوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾ [النجم: ١٩، ٢٠] يقولون: إن الشيطان أوقع في مسامع الكافرين: «تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى»، فقال المشركون: هذا الذي نريد نحن لا نريد إلا هذا، وهو الشفاعة فقط. ولهذا لما استمر في قراءة السورة ووصل إلى السجدة وسجد سجدوا كلهم معه(١).

(١) الطبراني في الكبير رقم (٨٣١٦)، والبيهقي في دلائل النبوة رقم (٥٩١)، وابن أبي حاتم في تفسيره رقم (١٣٧٢٩).

وأصل القصة في الصحيحين(١) أنهم سجدوا في آخر سورة النجم وأنه فشا فيهم أنهم أسلموا حتىٰ وصل ذلك إلىٰ الحبشة إلىٰ من كان فيها من المسلمين مهاجرين فرجع بعضهم، ولما رجعوا وجدوا الأمر أشد مما كان، وذلك أنهم لما قالوا للنبي ﷺ: إنك قلت كذا وكذا، فأنكر وقال: لم أقله. فأنزل الله ﷻ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٥٢ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ الآية [الحج: ٥٢، ٥٣]. فرجعوا إلىٰ ما كانوا عليه من أذىٰ المسلمين وأشد.

هذا يقوله كثير من الناس أنها باطلة، ولكن أول من شنع في هذا وعظم الأمر القاضي عياض ثم تبعه بعض العلماء، ومن آخرهم الشيخ الألباني رحمه الله فإنه كتب كتابًا سمَّاه: «نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق»، وقال أنها باطلة من أصلها، والعصمة تنافيه، وذكر أشياء وكذلك من قلده واتبعه.

أما المحققون مثل شيخ الإسلام وغيره فيقول: لا مانع من ذلك، ولكن فرق بين أن يكون الرسول ﷺ تكلم أو يكون الشيطان ألقىٰ علىٰ مسامع الكفار، فإلقاء الشيطان في مسامع الكفار ممكن، أما أن يكون الرسول ﷺ تكلم فلا، فنسبة الكلام إليه باطلة فلم يتكلم، ويجوز أن الشيطان يقلد صوته فيلقي في مسامع أوليائه الشيء الذي يفتنهم فيه.

ولهذا الذين قالوا: إنها باطلة اضطربوا في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ [الحج: ٥٢]، ما هو المراد بهذا وأتوا بأشياء فيها تكلف ولم يأتوا بالشيء الذي يمكن أنه يطمئن إليه، بخلاف الذين قالوا أن هذا لا مانع منه لأن الله

(١) رواه البخاري رقم (١٠٧١)، ومسلم رقم (٥٧٦).

ينسخ ذلك ويبطله، فما دام أنه ينسخ ما يلقيه ويحكم آياته فلا مانع، فلا ينافي العصمة، ثم فوق هذا قال شيخ الإسلام: إن هذا دليل من دلائل النبوة؛ لأن الكاذب ما يمكن أنه مثلًا يخاف أو يقول أني ما قلت هذا أو يقول ما أشبه هذا، ثم يخاف الخوف الشديد أنه جرىٰ علىٰ لسانه شيء لم يريده، وإنما الكاذب يؤيد ما نسب إليه ولو كان كذبًا.

فالمقصود أن العصمة التي اتفق عليها أهل السُّنَّة أنها فيما يبلغونه عن الله، أما الذنوب فلا يتفقون عليها بل القرآن يرد ذلك، والتطرف في المسائل في مثل هذا لا يجوز لأن من الناس من بالغ في نفي ذلك وقال: من قال أن الرسل يذنبون ويقعون في الذنوب أنه كافر، هذا تطرف -نسأل الله العافية-.

والله ﷻ يقول لنبيه وهو أفضل الأنبياء: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ [الفتح: ١، ٢]، ويقول ﷻ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر: ١-٣] فإذا لم يكن له ذنوب فكيف يستغفره.

ومن العجب أن بعضهم يقول: ﴿وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾؛ يعني: لذنوب أمتك هذا كلام لا يجوز أن ينسب إلىٰ الله ﷻ، وكذلك قوله ﷻ: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣]، وفي قصة الأسرىٰ وقوله ﷺ: «**لو نزل عذاب لم يفلت منا إلا عمر**»(١)، لأن الله يقول: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٨]؛ يعني: سبق كتاب الله الذي قدره أنه يحل لهذه الأمة الغنائم لأن الذين قبلنا إذا غنموا وظفروا بالكافرين يجمعون الأموال كلها ويكدسونها ثم تأتي نار فتأكله إذا لم يكن فيه غلول، وإذا لم تأت النار فهو علامة أن فيه غلول. الغلول هو: أن يخفي

(١) أخرجه الواقدي في مغازيه (١/ ١١٠).

شيئًا مما غنمه.

ولهذا يقول ﷺ: «**أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد قبلي**» وذكر منها «**أحلت لي الغنائم**»[١]، وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ [عبس: ١] هذا فيه عتاب من الله ﷻ لنبيه، فالله يعاتب علىٰ الشيء الذي فيه مخالفة، ولهذا كان ﷺ إذا جاءه ابن أم مكتوم يقول: «**مرحبًا بمن عاتبني ربي فيه**»[٢].

فالمقصود أن العصمة التي قالها أهل السُّنَّة في الأنبياء أنها فيما يبلغونه عن الله.

واختلفوا في هذه المسألة، فهي مسألة خلافية، فمن الناس من يضلل فيها ويكفر فهذا تطرف، والحافظ ابن حجر رحمه الله في فتح الباري[٣] لما ذكر القصة قال: صح الأثر فيها من طريقين ولكنهما مرسلا والمرسل حجة إذا كان صحيحًا ثم قال: أما دعوىٰ القاضي عياض في بطلانها فهي من مجازفاته هكذا يقول فكأن له مجازفات.

وقوله ﷻ في هذه القصة أنه استجاب لهما وأعطاهما ولدًا صالحًا ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ [الأعراف: ١٩٠]؛ يعني: في هذا الولد، جعلا له شركاء.

قوله: «﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾»: وهذا يدل علىٰ أن الإنسان ما ينبغي له أن يعد ويعاهد ربه علىٰ أنه يفعل الطاعة لأنه قد لا يفي فيكون عليه حرج، ولهذا جاء النهي عن النذر وقال عليه الصلاة والسلام: «**إنه لا يأتي بخير**»[٤] فإذا كان لا يأتي بالخير فهو يأتي

(١) رواه البخاري رقم (٣٣٥)، ومسلم رقم (٥٢١) من حديث جابر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه القرطبي في تفسيره (١٩/ ٢١٣)، والواحدي في أسباب النزول ص(٢٨).

(٣) فتح الباري لابن حجر (٨/ ٤٣٩).

(٤) رواه مسلم رقم (١٦٣٩).

بالشر، وهذا هو الواقع الذي يقع لكثير من الناس، يتصور أنه سوف يقوم بهذا ثم يتساهل ويعجز فيقع في الإثم، ولهذا اختلف العلماء في إنشاء النذر هل هو مباح أو محرم؟

وشيخ الإسلام ابن تيمية ﵀ يميل إلى أنه محرم، فإذا كان محرمًا فلا يجوز للإنسان أن يقع في المحرم من أول وهلة، ولكن الوفاء به واجب، إذا نذر وجب عليه أن يفعل لقوله ﷺ: «**من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصه فلا يعصه**»[(١)]، والله ﷻ أثنى على الموفين بالنذر: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧]، وهو ﷻ لم يثن على الناذرين فلم يأت أنه يحث عليه ويأمر به، ولهذا قال ﵊: «**النذر لا يأتي بخير**» وهذا مثله، فهما لم يفيا بوعدهما بل خالفا، ومثل ذلك ما جاء في سورة التوبة في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [التوبة: ٧٥، ٧٦] فخالفوا، وهذا يظهر أنها قاعدة على الإنسان أن يسلكها، لا ينبغي أن يعاهد ربه على شيء وإنما ينبغي أن يلجأ إليه ويسأله التوفيق والهداية دائمًا وأن يسدده ويعينه على الطاعة، ولهذا أمرنا الله ﷻ أن نقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]؛ يعني: نستعينك على العبادة وأدائها وعلى غيرها، فإذا لم يعن الله عبده على أداء المطلوب لم يستطيع.

وقوله ﷻ: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ﴾؛ يعني: جعلا لله، فالضمير في قوله: «له» يعود على الله ﷻ.

﴿شُرَكَاءَ﴾ هذا جمع، القصة المفروض أنه قال جعلا له شريكًا، الذي هو

(١) رواه البخاري رقم (٦٦٩٦) من حديث عائشة.

الشيطان الذي هو الحارث، كما في الآثار التي ذكرت، ولكن هنا قال: ﴿شُرَكَآءَ﴾ وهذا من المواضع التي تدل على أن الآية ليست في آدم وحواء، وإنما هي في بنيه في بعضهم المشركين.

أما التثنية فهي بالنسبة للزوج والزوجة ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا﴾؛ يعني: المولود الذي آتاهم، ثم ذكر قول ابن حزم.

قال المؤلف رحمه الله **: قال ابن حزم: «اتفقوا على تحريم كل اسم معبَّد لغير الله** جل وعلا **كعبد عمرو، وعبد الكعبة وما أشبه ذلك حاشا عبد المطلب»**(١).

قوله: «حاشا عبد المطلب»؛ يعني: أنهم لم يتفقوا على تحريم ذلك، وأن هذا جائز، وهذا لا وجه له، والصحيح: أن التعبيد محرم مطلقًا لا عبد المطلب ولا غيره.

أما استدلالهم بقوله صلى الله عليه وسلم: **«أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب»**(٢) في وقعة حنين لما انهزم المسلمون وبقي عليه الصلاة والسلام وحده، ترجل من على بغلته وصار يقول: **«أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب هلم إلي»**، هذا غاية الشجاعة والطمأنينة في المواقف الحرجة والمخيفة جدًا.

فيقولون لو كان ممنوعًا ما قال: **«أنا ابن عبد المطلب»**؛ يعني: أن هذا إقرار له والرسول صلى الله عليه وسلم لا يقر على الشرك.

والواقع أنه ليس إقرارًا وإنما هو ذكر الواقع، وفرق بين ذكر الواقع وبين التسمية فهو معروف بأنه ابن عبد المطلب، يعني: جده اسمه عبد المطلب.

---

(١) مراتب الإجماع ص(١٥٤).

(٢) رواه البخاري رقم (٢٨٦٤)، ومسلم رقم (١٧٧٦).

أما تعليلهم بقولهم: أن هذا ليس من العبادة، وإنما هو من عبودية الرق، وذلك أنهم يقولون: أنه لما كان عبد المطلب عند أخواله في المدينة بني النجار كانت أمه منهم فبقي عندهم وقتًا فمر عليه والده فحمله معه علىٰ رحله خلفه، فأصابته الشمس فتغير لونه فلما دخل مكة، وهو معه، قالوا: إنه جاء بعبد فسموه عبد المطلب؛ يعني: المطلب جاء بعبد، فقيل له ذلك من عبودية الرق، وليس من عبودية العبادة، فيقولون هذا هو وجه الاستثناء، ولكن هذا غير صحيح لأن الرسول ﷺ ذكر عبد الدار وعبد مناف وبني عبد شمس وغيرهم.

فهذا من باب ذكر الواقع وليس من إقرار الشرك، فلا يجوز أن يعبَّد لغير الله ﷻ، فلا يقال عبد الحسين أو عبد علي أو عبد النبي أو عبد الكعبة، بل الواجب أن يقال: عبد الله، عبد الرحمن، عبد العزيز، وما أشبه ذلك يعبَّد لله ﷻ وحده.

فاستثناء ابن حزم لا وجه له، وليس صحيحًا، فالواجب الإطلاق، والمقصود هنا أن هذا إجماع، فقوله: «اتفقوا»؛ يعني: أجمعوا علىٰ تحريم الاسم المعبد لغير الله تعالىٰ.

وهل هذا هو مستند التحريم، الإجماع؟ والإجماع أحد الأدلة الشرعية وهي أربعة عند أهل السنة: الكتاب، والسنة، والإجماع، والقياس الصحيح. هذه هي الأصول التي يرجع إليها، وإن كان القياس فيه خلاف، ولكن الشأن في ثبوت الإجماع، أما دعوىٰ الإنسان الإجماع فالدعاوىٰ لا تقبل مما ادعىٰ إلا بدليل.

وقد أنكر الإمام أحمد رحمه الله الإجماع لما قيل له أن فلان يقول أنهم أجمعوا قال: وما يدريه أنهم أجمعوا، الناس متفرقون في كل مكان والبلاد واسعة هل أحاط بهم حتىٰ يعرف أنهم أجمعوا.

والإجماع الذي يمكن أن ينضبط هو إجماع الصحابة ﷺ، أما من بعدهم لما تفرقوا في البلاد واتسعت رقعة الإسلام وانتشر المسلمون وكثر العلماء فهذا دعوىٰ الإجماع فيه أنه لا يمكن أن تنضبط والإجماع لا بد أن يكون له مستند من الكتاب أو السُّنَّة لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

وكذلك قول ابن مسعود في الحديث الذي يرويه: «**فما رآه المسلمون حسنًا فهو عند الله حسن، وما رأوه سيئًا فهو عند الله سيئ**»[(١)]، وقوله ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي علىٰ الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتىٰ يأتي أمر الله وهم علىٰ ذلك**»[(٢)].

فهذا فيه أن الأمة لا تكون متفقة إلا علىٰ حق، وغير ذلك مما يستند عليه الإجماع فهو يستند إلىٰ أمر شرعي، وابن حزم رحمه الله له كتاب سماه مراتب الإجماع وهو مطبوع ولشيخ الإسلام عليه تعليق ونقد له.

فتبين لنا أن الاستثناء الذي جاء به أنه لا وجه له، أما ما ذكره بعضهم أن الصحابة فيهم من اسمه عبد المطلب فهذا غير صحيح، وقد نفاه الحفاظ مثل الحافظ ابن حجر وغيره، فإذا جاء في خبر ضعيف فلا يلتفت إليه.

والرسول ﷺ ما كان يقر التعبيد لغير الله ﷻ، بل كان يغير الأسماء القبيحة، فكيف بالشيء الذي يُعَبّد لغير الله، الذي ينافي التوحيد أو ينافي كماله، بل ينافي أصله لأن العبودية يجب أن تكون لله ﷻ.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم (٣٦٠٠).

(٢) سبق تخريجه.

✍ **قال المؤلف رحمه الله: وعن ابن عباس -في معنى الآية- قال: لما تغشاها آدم حملت، فأتاهما إبليس فقال: إني صاحبكما الذي أخرجكما من الجنة لتطيعانني أو لأجعلن له قرني أيل فيخرج من بطنك فيشقه، ولأفعلن ولأفعلن يخوفهما، سمياه عبد الحارث، فأبيا أن يطيعاه، فخرج ميتًا، ثم حملت، فأتاهما فقال مثل قوله فأبيا أن يطيعاه، فخرج ميتًا، ثم حملت، فأتاهما فذكر لهما فأدركهما حب الولد، فسمَّياه عبد الحارث، فذلك قوله: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ [الأعراف: ١٩٠]. رواه ابن أبي حاتم[(١)].**

قوله: «وعن ابن عباس في معنى الآية»؛ يعني: في تفسيرها.

قوله: «لما تغشاها آدم»: والمقصود في قوله: «تغشاها»؛ يعني: كناية عن الجماع لأن الرجل يعلو المرأة، والتغشي هنا يدل على المعالجة.

قوله: «حملت»: ذكر الله أنه بحكمته أنه جعل الخلق بواسطة الماء، ماء الرجل والمرأة ولا بد من ذلك، وبدون ذلك لا يمكن، وهذا في الحيوانات كلها، والله يخلق ما يشاء غير أنه ﷻ بيّن قدرته أنها صالحة لكل شيء وأنه لا يعجزه شيء، فأخبرنا أنه خلق آدم من طين فهذا من أعجب الأشياء مخلوق حي سميع بصير يُخلق من جماد من طين لازب، ثم خلق أنثى من ذكر وهذا أيضًا عجيب كما جاء في الحديث: «**نام آدم نومة فخلق الله من ضلعه الأقصر الأيسر حواء**»[(٢)]، ولهذا صار الرجل يميل إلى المرأة لأنها جزء منه وكذلك المرأة تميل للرجل.

ولكن بحكمته ﷻ ركب فيهما الشهوة التي أودعها فيهما، فكل واحد منهما يسعى لهذا جهده بغير إرادة، وإلا لو كان الأمر موكولًا إليهما انقطع النسل لأنها

(١) ابن أبي حاتم في تفسيره رقم (٩٤٢١).
(٢) رواه ابن ماجه رقم (٥٢٥)، والطبري في تفسيره (١/ ٥١٣).

كشف عورات ومناظر سيئة، وأمور لا يمكن ذو العقول أن يميل إلىٰ هذا.

ولكن لما صار الداعي قوي جدًا حتىٰ يبقي النسل إلىٰ إرادة الله ﷻ، وهذا من قدرة الله ﷻ ومن عجائب صنعه تعالىٰ وتقدس.

ثم كذلك خلق ذكرًا من أنثىٰ وهو عيسىٰ ﵇ بلا أب، فهذا هي أنواع خلق بني آدم وهو ﷻ قادر علىٰ كل شيء، ولهذا يقول ﷻ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الواقعة: ٦٢]؛ يعني: نشأة آدم كما أخبرنا الله ﷻ بها. وأخبرنا ﷻ أنه قادر علىٰ أن يجعلنا علىٰ أشياء غير هذه التي نحن عليها، فهو قادر علىٰ أن يبدل أمثالنا وينشئنا فيما لا نعلم تعالىٰ وتقدس ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَـٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦١].

فالمقصود أن ربنا ﷻ أخبرنا أنه خلق أصلنا ذكرًا من طين، ولهذا جاء في الحديث أن بني آدم كلهم أصلهم من الطين، وإن الإنسان إذا افتخر بآبائه فإنه جاهلي ويعتز بالجاهلية، ولهذا قال: «**إن الله ﷻ قد أذهب عنكم عُبِّيَة الجاهلية وفخرها بالآباء، مؤمن تقي وفاجر شقي، والناس بنو آدم وآدم من تراب، لينتهين أقوام عن فخرهم برجال أو ليكونن أهون علىٰ الله من عدتهم من الجعلان التي تدفع بأنفها النتن**»(١).

وأخبرنا في آية أخرىٰ أن أكرمنا عند الله التقي: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]، فمن كان أتقىٰ لله فهو الكريم عند الله، أما من كان فاجرًا ملحدًا ولو كان ابن نبي فهو في جهنم، لا ينفعه نسبه، انظر كيف حكمة الله ﷻ ذكر الله عبده الشكور نوحًا ﵇ وبيَّن أن ابنه وزوجته في النار ما استطاع أنه يغني عنهما شيئًا وهما من أهل النار -نسأل الله العافية-.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم (٨٧٣٦).

وذكر أشر خلق الله وهو فرعون أخبر أن زوجته في الجنة أن الله نجاها: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم: ١١]، إذا لم يكن الإنسان مطيعًا لله تعالىٰ فلا قيمة له.

قوله: «**فأتاهما إبليس فقال: إني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة لتطيعاني أو لأجعلن له قرني أيل فيخرج من بطنك فيشقه ولأفعلن ولأفعلن، يخوفهما سمَّياه عبد الحارث**»، ويقولون أن إبليس اسمه الحارث، وهذا من العجب فهل يعقل أن آدم الذي هو أكمل الخلق عقلًا، وعقول أبنائه بالنسبة إليه ضعيفة، أنه يأتيه الشيطان ويقول له أنا صاحبك الذي أخرجتكما من الجنة وأنا سأفعل وأفعل ويطيعه ويصدقه، هذه من الأمور الممتنعة.

ثم هل آدم يصدق الشيطان أنه يخلق للمولود قرن أيل في البطن، إذًا الشيطان يخلق يوجد خلقًا هذا لا يصدقه عاقل من الناس، فكيف يقال أن آدم خاف أنه يكون كذا وكذا.

آحاد العوام من الناس لو قيل له أن الشيطان سيجعل في إنسان قرون بقرة في البطن أو في غير البطن يقول: هذا كذب، الشيطان لا يستطيع أن يفعل شيئًا الشيطان لا يخلق، فالخالق هو الله وحده ﷻ، فهذا مثل ما قال ابن حزم كلها باطلة، وهذه الحكاية يظهر أنها مأخوذة عن أهل الكتاب، عن زنادقتهم.

وكون الشيطان يأتي لأحد الناس الأغبياء ويصور له أنه يستطيع أنه يفعل ويفعل، يمكن قد يكون أما أنه يأتي لمن اصطفاه الله ﷻ وعلمه أسماء كل شيء فيقول له هذا الشيء، ومعوم أنه إذا قال هذا الشيء أنه لا يخلو الأمر من شيئين:

أحدهما: أن لا يصدقه، وإذا كان لا يصدقه فهو لا يطيعه فيبطل هذا.

الثاني: أنه يصدقه أنه يستطيع ذلك وهذا شرك في الربوبية، فهل يمكن أن يقع هذا؟ نقول لا يمكن أن يقع من آدم عليه السلام، والشيطان لا يستطيع أن يفعل شيئًا من ذلك.

والأيل: يقولون: هو تيس الجبل؛ يعني الذكر من الظبي، وهو نوع من الظبي لأن الظبي أنواع متعددة.

وقوله: «**فأبيا أن يطيعاه فخرج ميتًا**»: كونه خرج ميتًا لا يدل على أن الشيطان تصرف فيه؛ لأن الإنسان يبتلى حتى تتبين طاعته وإيمانه، من اهتزازه وانتكاسه كما قال الله تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢]، لا بد من الفتنة، والله علام الغيوب لا يخفى عليه شيء في المستقبل، ولا في الماضي، ولا في الحال، ولكن من رحمته أنه لا يأخذ إلا بالفعل البارز الظاهر الذي يفعله الإنسان فيخرج ما في نفسه بالابتلاء فيكون فعلًا واقعًا، فهنا إما أن يكرم أو يهان كما قيل: عند الامتحان يكرم المرء أو يهان. لأنه إما أن يثبت، وإما أن ينتكس ويهان.

قوله: «**ثم حملت**»؛ يعني: مرة أخرى «فأتاهما فقال لهما مثل قوله: فأبيا أن يطيعاه فخرج ميتا، ثم حملت» المرة الثالثة «فأتاهما فذكر لهما»؛ يعني: ما ذكر قوله: «فأدركهما حب الولد، فسمياه عبد الحارث فذلك قوله: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ [الأعراف: ١٩٠]».

قال المؤلف: «**رواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس**»: فنقول أنه لا يصح وإن رواه ابن أبي حاتم، وقد جاء فيه حديث مسند إلى النبي ﷺ، ولكن جعل ذلك من فعل حواء هي سمته عبد الحارث، فرده الحافظ ابن كثير من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن أحد رواته عمر بن إبراهيم البصري قال أبو حاتم الرازي: لا يحتج به، ولكن لم ينفرد به.

الثاني: أن الحسن راوي الحديث خالفه، وقال أن ذلك في الأمم وليس في آدم.

الثالث: أنه روي من قول سمرة غير مرفوع، وسمرة هو راوي الحديث، ومخالفته له دليل على علته أنه غير ثابت(١). وهو أيضًا مخالف لما عرف أن آدم عليه السلام أنه تام العقل مطيع لله جل وعلا.

آدم أكمل من بنيه عقلًا وطاعة لله، ثم من القواعد التي يجب أن نعرفها وهي تدل على بطلان هذه القصة: أن الله ما ذكر ذنب نبي من الأنبياء إلا ويذكر توبته ليبين أنهم على الهدى وعلى الحق وأنهم تابوا، هذه لم يذكر أنه تاب منها، أيذكر أنه وقع في الشرك ولا يذكر أنه خرج منه هذا لا يجوز.

والحسن البصري هو راوي الحديث يقول: إن هذا في بني آدم وليس في آدم(٢)، ثم قال الحافظ ابن كثير ونحن على مذهب الحسن، وقد خرجنا من عهدة الحديث المرفوع بضعفه، أما الآثار فلا تشكل؛ لأن الآثار يجوز أنها أخذت من أهل الكتاب أو عن غيرهم، فلسنا مكلفين بمتابعتها.

أما تأييد الشارح لهذه القصة وقوله: كيف يُنسى ما وقع لآدم قبل ذلك(٣)؟

نقول: ما ينسى، ولكن هذه أعظم من تلك، وتلك نسي آدم كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ﴾ [طه: ١١٥]، وجاءه الشيطان بصورة الناصح

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم (٢٠١١٧)، والترمذي رقم (٣٠٧٧) عن سمرة عن النبي ﷺ قال: «**لما حملت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال سميه عبد الحارث فإنه يعيش، فسموه عبد الحارث فعاش، وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره**» قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره (٢/ ٥٢٦): والغرض أن الحديث معلول من ثلاثة أوجه.

(٢) تفسير الطبري (١٣/ ٣١٤) عن الحسن: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ [الأعراف: (١٩٠)] قال: كان هذا في بعض أهل الملل، ولم يكن بآدم.

(٣) تيسير العزيز الحميد (١/ ٥٦٥)-(٥٦٦) قال رحمه الله: وإذا تأملت سياق الكلام من أوله إلى آخره مع ما فسره به السلف تبين قطعًا أن ذلك في آدم وحواء عليهما السلام، فإن فيه غير موضع يدل على ذلك، والعجب ممن يكذب بهذه القصة وينسى ما جرى أول مرة.

وأقسم لهما بالله أنه لهما لمن الناصحين، واستبعد أن أحدًا يجرأ على الحلف بالله كاذبًا فاغتر بهذا وغيره وليس بهذه الصورة أنا صاحبكما وأنا أجعل وأجعل فرق بين هذه وهذه.

قال المؤلف رحمه الله: **وله بسند صحيح عن قتادة، قال: شركاء في طاعته، ولم يكن في عبادته**[1].

وله بسند صحيح عن مجاهد في قوله: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ [الأعراف: ١٨٩] **قال: أشفقا أن لا يكون إنسانًا**[2]**، وذكر معناه عن الحسن وسعيد وغيرهما.**

قوله: «أشفقا أن لا يكون إنسانًا»: فلا دخل لها في هذه القصة؛ يعني: خاف أن يكون غير إنسان أو غير سوي، فهذا الخوف موجودًا دائمًا في جميع الناس، والعاقل يخاف أن يكون مثلًا مشوهًا أو تكون خلقته غير سوية أو يكون ليس له عقل، كما يحدث كثيرًا، وإن كان زنادقة الناس الآن ينسبون ذلك للطبيعة ولهذا يقولون: هذا خلقته خلقة طبيعية، أو طبيعة، والطبيعة مسخرة لله جل وعلا هو الذي سخرها.

وأما الفرق بين الطاعة والعبادة هذه هي التي ينبغي أن نعرفها، سبق أن من أطاع المخلوق في معصية الله يكون عابدًا له، سبق قول الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤]، وفي حديث عدي بن حاتم قال: أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال: «**يا عدي اطرح هذا الوثن من عنقك**» فطرحته، فانتهيت إليه وهو يقرأ سورة براءة فقرأ هذه الآية: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ

(١) ابن جرير في تفسيره (١٣/ ٣١١) رقم (١٥٥٢١).

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (٦/ ٣٠٧) رقم (٩٤١٥) عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، قال: «أشفقنا أن لا يكون إنسانًا».

﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] حتىٰ فرغ منها فقلت: إنا لسنا نعبدهم فقال: «**أليس يحرمون ما أحل الله فتحرِّمونه، ويحلون ما حرم الله فتستحلونه؟**»، قلت: بلىٰ، قال: «**فتلك عبادتهم**»(١)، ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] الرهبان هم العباد، والأحبار هم العلماء فقوله: ﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أربابًا جمع رب، فمعنىٰ هذا أنهم أطاعوهم في المعاصي أطاعوهم في التحليل والتحريم، فإذا أطاعوهم في هذا فقد عبدوهم، وهذه طاعة في المعصية، فدل ذلك أن الطاعة في مثل ذلك عبادة بل هذا نص في المسألة، ولا فرق بين العبادة في الطاعة والعبادة في التعبيد إلا من جهة العِظم هذه أعظم من هذه.

فإذا أطاع العبد مخلوقًا فلا يخلو الأمر: إما أن تكون طاعته في شيء لا يعلم أنه معصية فهذا لا يدخل في هذا.

أما إذا عرف أنه أطاعه في معصية الله فهي عبادة، ومعلوم أن العبادات تتفاوت منها ما هو عبادة صريحة ودليلها ظاهر، ومنه ما هو ليس كذلك، ولهذا نحتاج إلىٰ الفرق بين هذا وهذا.

والمقصود أن قول قتادة غير مسلم، فالطاعة فيما ذكر شرك فلا يجوز علىٰ من اصطفاه الله أن يشرك في هذا الأمر الظاهر.

وقوله: شركاء في الطاعة وليس شركاء في العبادة. والفرق بين هذا وبين قوله ﷺ: «**تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم**»(٢)، فسماه عبدًا للدينار والدرهم، فهل هو يطيع الدينار والدرهم، أو يسجد لهما؟ لا، ولكن صار عمله وفعله في تحصيل ذلك، وإن عصىٰ الله كما هو واقع أكثر الناس في هذا الشيء فهذه هي عبادة

(١) أخرجه الطبراني في الكبير رقم (٢١٨).
(٢) سبق تخريجه.

الدنيا بهذا المعنىٰ. ولهذا يكون الإنسان عابدًا لهواه كما قال تعالىٰ: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ﴾ [الفرقان: ٤٣] يقول العلماء: إذا هويَ شيئًا فعله، وهذا عبادة لهواه إذا أحب شيئًا وهويه فعله، وجاء أن أعظم معبود في الأرض الهوىٰ، فالناس أكثرهم يعبدون أهواءهم، يعني: شهواته ومراداته.

والمقصود أن الفرق بين الشرك في الطاعة والشرك في العبادة قد يكون في الشيء الذي لا يصل إلىٰ التحليل والتحريم، أما إذا وصل إلىٰ التحريم والتحليل فلا فرق.

وهل هذا ينطبق علىٰ هذه القصة؟ لأن الشيطان ما يستطيع أن يغير خلق الله ﷻ إلا بأفعالهم، كقوله ﷻ: ﴿وَلَأَمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١١٩] يعني: بأفعالهم مثل ما نرىٰ بالأصباغ والوشم والوشر والشعور التي يأتون بها غير ما خلق الله، هذا هو تغيير خلق الله، أما خلق؛ يعني: يأتي خلق جديد فهذا لا يمكن، أما في هذه القصة فهو خلق جديد.

فالمقصود هنا: أن الفرق بين شرك الطاعة وشرك العبادة أن الطاعة إذا كانت في الأمر والنهي في التحليل والتحريم فلا فرق كله شرك، وإذا كان المقصود به أنه يطيعه تخلصًا من شره للقادر علىٰ إيقاع الشر وليس في معصية الله فهذا فيه أنه يكرهه ويبغضه، وإنما أراد بذلك تخليص نفسه فقط، وهذا لا يكون عبادة مع أن هذه القصة فيها تعبيد الولد لغير الله، وهذا ظاهر أنه شرك، وعلىٰ هذا يكون معنىٰ الآية والله أعلم أن الله تعالىٰ ذكر خلق آدم وأنه خلق منه زوجه ثم انتقل إلىٰ ما وقع لجنس بني آدم، وأن منهم من يعلم أن الله هو الذي يهب الولد السوي الخلقة ثم يجعلون لله شركاء في هذا الموهوب إما أن يربوه علىٰ عبادة غير الله، أو يسموه عبد اللات أو عبد العزىٰ أو عبد الدار أو غير ذلك مما هو واقع في الناس كثيرًا.

فخلاصة هذا أن الإنسان طبيعته التي لا يخرج عنها إلا بتهذيب أخلاقه، وتوفيق الله له باتباع الوحي أنه يكفر النعم ويضيفها إلىٰ نفسه، وأنه غير شاكر، وأن هذا قدح في التوحيد أو مناف له، هذا هو وجه إدخال هذا الباب في كتاب التوحيد، وأما أن تكون هذه الأقوال وهذه القصة في آدم فهذا باطل، والظاهر والله أعلم أنها في ذريته وهذا الذي يدل عليه سياق الآية، وتدل عليه الضمائر التي ذكرت لا كما زعم الشارح.

وليس من المعقول أن الشيطان يأتي إلىٰ آدم وحواء ويهددهما يقول سأجعل له قرن أيل، فهذا لا ينطلي علىٰ آحاد الناس فكيف يغتر به أكملهم وهو أبوهم.

قال المؤلف ﷺ: فيه مسائل:

الأولى: تحريم كل اسم معبد لغير الله.

المعبَّد؛ يعني: أن يبدأ بعبد، كل ما بدأ بعبد فهو معبَّد، مثل أن يقول: عبد الحسين عبد النبي، عبد علي، فهذا نوع من الشرك.

الثانية: أن هذا الشرك في مجرد التسمية لم يقصد حقيقتها.

نقول أن هذا لم يثبت، ثم هذا ليس معناه أنه يكون شركًا؛ يعني: أنه لا بد من يقصد معناه، فالمعنىٰ واللفظ كله باطل؛ لأن الإنسان لو قال: «واللات» فقال أنا ما قصدت معناها، وهذا شيء جرىٰ علىٰ لساني، نقول: أنت وقعت في الشرك ولو لم تقصد معناه يجب أن تتوب منه، وهذا يجب أن ينزه آدم منه.

الثالثة: أن هبة الله للرجل البنت السوية من النعم.

نص علىٰ البنت لأن بعضهم يكره البنت، وهذا كثير وهي سُنَّة جاهلية كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩]؛ يعني: يفكر في نفسه ﴿أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ﴾؛ يعني: مهان

محتقر ﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾ [النحل: ٥٩]؛ يعني: حيًا موءودًا يقتلها للتخلص منها.

فهو قصد بهذا أن بعض الناس يتسخط من البنت، إذا جاءه بنت أتاه أمر عظيم يقول المؤلف: هذه نعمة يجب أن يشكر الله عليها، إذا جاءت سوية؛ يعني: في قوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الأعراف: ١٩٠] الصلاح هنا صلاح البدن، أنه سوي، أن يشكر ربه عليها بغض النظر عن كونه ذكرًا أو أنثىٰ.

الرابعة: ذكر السلف الفرق بين الشرك في الطاعة والشرك في العبادة.

وسبق أنه من الشرك الأكبر لقوله تعالىٰ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، والرسول ﷺ أخبر أنهم أطاعوهم في المعصية فقط، لما قال له عدي: لم نعبدهم قال: «**ألم يحرموا الحلال فتتبعوهم، ويحل الحرام فتتبعوهم؟**»، قال: بلىٰ، قال: «**تلك عبادتهم**». وهذا قاله قتادة ونسبته إلىٰ السلف فيها نظر.

وليس عبادتهم السجود لهم ودعاءهم، بل عبادتهم طاعتهم في معصية الله ﷻ، إذا أطيع المخلوق في معصية الله فقد اتُخذ إلهًا.

معنىٰ قوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، ومعنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤]، اتخاذ البعض أربابًا أن يطيعه في معاصي الله ﷻ، وسبق تعريف الطاغوت: أنه ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع، فإذا أطيع في الشيء الذي لا يجوز أن يكون إلا لله فهو طاغوت، فالمؤلف رحمه الله عقد بابًا في شرك الطاعة وجعل ذلك من الشرك الأكبر، وفي هذا خالف ذلك حتىٰ يكون ذلك مبررًا لأن تكون القصة في آدم، والواجب أن لا نثبت ذلك إلا بدليل صريح لا مطعم فيه، ولا وجود لذلك.

الباب الحادي والخمسون

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: باب قول الله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ **الآية** [الأعراف: ١٨٠].

لم يذكر مع هذه الآية حديثًا، وإنما ذكر معنىٰ الإلحاد وذكر له ثلاثة أقسام عن بعض السلف، بعضها عن ابن عباس، وبعضها عن الأعمش والمفروض أن يذكر أحاديث من أحاديث الرسول ﷺ مع الآية كعادته في الأبواب السابقة ومن الأحاديث المناسبة قوله ﷺ: «**وأن لله تسعة وتسعون اسمًا مائة إلا واحد من أحصاها دخل الجنة**»(١) وفيه أحاديث أخرىٰ.

ومعنىٰ قوله «﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾»: يدل علىٰ أن الاسم للمسمىٰ، وهذا هو القول الصحيح وليس الاسم هو المسمىٰ، أو هو غيره، بل الاسم للمسمَّىٰ.

والاسم ما دل علىٰ الذات، يعني ذات المسمَّىٰ، وضع ليدل علىٰ هذه الذات.

والصفة هي المعنىٰ الذي يقوم بالمسمىٰ.

والله ﷻ سمَّىٰ نفسه بأسماء تعرَّف بها إلىٰ عباده، وكذلك رسوله ﷺ سمَّاه بأسماء بالوحي الذي أوحاه إليه، فلا يجوز للخلق أن يسموا الله بغير ما سمىٰ به نفسه، وهذا من العبادة.

فمعنىٰ أنه لا يجوز لنا أن نسمي الله إلا بأسمائه التي سمىٰ بها نفسه أو سماه بها رسوله ﷺ فنعبد الله بهذا ونطيعه، وهذه عبادة ظاهرة، ولكن العبادة بالأسماء هي أن ندعوه بها ونعبده بها، بأن نذكره ونثني عليه بها.

---

(١) رواه البخاري رقم (٢٧٣٦)، ومسلم رقم (٢٦٧٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فذكره بها وثنائه بها عبادة، وسؤاله بها عبادة، والمقصود في كوننا نعبده بها أمران:

أحدهما: الذِّكر والثناء.

الثاني: السؤال أن نسأله بها، نتضرع إليه بها، وهذا يفهم من قوله: ﴿فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾ فهذا أمر يدل على الوجوب.

وقوله: «﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ﴾»: يدل على الجمع؛ يعني: أن أسماء الله كثيرة، وليست محصورة في عدد معين، ولهذا قال: ﴿ٱلۡأَسۡمَآءُ﴾ ثم وصفها بأنها حسنى، وخرج من هذا أن تكون كأسماء المخلوقات التي لا تدل إلا على مجرد العلمية فقط.

معنى العلمية أنها تعين هذا المسمى عن غيره من المسميات فإذا وضعت مثلًا على هذا الشخص قلت هذا عبد الرحمن، وهذا عبد الله ليس فيه فرق بين هذا وهذا، إلا أن هذا الاسم يكون معينًا لهذا عن هذا، وهذا الذي يسمى العلم؛ يعني: حتى يعين هذا المسمى بخلاف ما إذا دل الاسم نفسه على معنى، فهذا يسمى مشتق وليس علمًا.

وأسماء الله ﷻ مشتقة، واشتقاقها من الصفات؛ يعني: المعاني التي قامت بالله ﷻ أُخذت منها الأسماء وبعض الناس يعكس القضية وهو يدل على عدم الفهم وعدم معرفة الأسماء والصفات، يقولون: إن الصفات اشتقت من الأسماء وهذا خطأ محض لا يدل عليه لا كتاب الله ولا لغة العرب، بل يدل على عكسه، منه هذه الآية: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾ فجعل أسمائه حسنى، والحسنى معناها أنها لا يلحقها نقص ولا عيب لا منفردة ولا مجتمعة؛ يعني: أنها كاملة تامة لا يمكن أن يلحقها شيء مما يلحق المسميات التي توضع على المخلوقات.

فقوله: «﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾» هذا خبر يقصد منه أن نعلمه ونتيقنه، ثم جاء الحكم بعد ذلك فقال:

«﴿فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾»؛ يعني: اعبدوه بها، وعبادته بها أنواع كثيرة، والمسلم لا يخلو منها دائمًا سواءً فيما يخصه في نفسه أو في غير ذلك، وتفصيلها يحتاج إلىٰ طول، ولكن إذا دخل إلىٰ البيت يقول: بسم الله فهذا من دعائها بها، وعندما يأكل يقول: بسم الله وعندما ينام، وكذلك عند الذبح، وكذلك في الأمور التي أمر بالابتداء بها، فالمقصود أنه يتلبس بها دائمًا ويجب أن يكون ذلك مناسبًا للشيء الذي يفعله في الدعاء وفي العبادة، فإذا دعا فإن كان دعاء ثناء فهو عام، وإن كان دعاؤه دعاء مسألة فهذا يجب أن يكون خاص ينتقي الأسماء المناسبة لمسألته.

فقوله: «﴿فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾»: هذا أمر من الله ﷻ أن ندعوه بها، ومفهوم هذا عند الذين يقولون بدلالة المفهوم: أنه لا يجوز أن ندعو الله بغير أسمائه، يجب أن يكون دعاؤه بأسمائه الحسنىٰ لأنه قال: ﴿فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾، فجعل دعاءه، بهذه الأسماء الحسنىٰ، وهكذا جاءت أدعية الرسل بأسمائه ﷻ.

ثم إذا أطلقت الأسماء دخل فيه الصفة.

وقوله: «﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾»: ذر يعني: اترك. كأنهم وقعوا في أمر عظيم يستحقون به العذاب؛ يعني: أن الله سيكفيكهم بما فعلوا، فسوف يعذبهم بذلك فكفاهم هذا هلاكًا، وهذا يفهم من قوله: ﴿وَذَرُوا۟﴾.

وقوله: «﴿ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾»: المؤلف ؒ ذكر معنىٰ الإلحاد.

الإلحاد معناه: الميل والعدول عن المعنىٰ المقصود، فإذا كان الإنسان يمشي في الطريق فهو يمشي علىٰ طريق سامت، فإذا حاد عن الطريق فقد ألحد.

والطريق التي يُلحد فيها طرق حسية، وطرق معنوية، ولكن المقصود هنا قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ﴾؛ يعني: يميلون بها عن ما أراد الله ﷻ، وأراده رسوله ﷺ بها، هذا هو المقصود بالإلحاد.

فهم يميلون بها أو بمعانيها عما أراده الله بها وأراده رسوله ﷺ، ولهذا قال في آخر الآية: ﴿سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، وهذا يدل علىٰ أنهم وقعوا في إثم عظيم فتولىٰ الله عقابهم بذلك، فكأن الذين وقعوا فيه كافيًا بالهلاك، فلا تسأل عن حالهم بعد هذا.

واللحد أصله مأخوذ من الميل، ولهذا سمِّي لحد القبر؛ لأنه حفرة في جانب القبر ليس في سمته بل في جانبه من جهة القبلة، فسُمي لحدًا.

وكذلك يسمىٰ الميل عن المقصود إلحادًا، والفاعل لذلك ملحدًا، ولكن صار الآن يطلق الإلحاد علىٰ جحد وجود الله ﷻ، أو جحد دينه والكفر به أو إنكار اليوم الآخر وما أخبر الله ﷻ به، وهذا اصطلاح فقط ليس مأخوذًا من اللغة ولا من غيرها، وإلا فالإلحاد أعم من هذا بكثير؛ يعني: الإلحاد في اللغة وفي الشرع أعم من هذا.

✍ ذكر المؤلف رحمه الله في قوله: ﴿يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦ﴾ ثلاثة معاني: ذكر عن ابن أبي حاتم عن ابن عباس قوله: ﴿يُلۡحِدُونَ﴾ يشركون.

هذا معنىٰ؛ والشرك يجوز أنه يكون في العبادة؛ يعني: أنهم لم يعطوا أسماء الله حقها ويعبدوه بها، وأشركوا بعض المخلوقات فيها، فيكفي في هذا أنهم سموا الأصنام آلهة، هذا إلحاد لأن الإله يجب أن يكون الله وحده، فإذا جعل معه مخلوقًا ضعيفًا مطلقًا فإنه إلحاد عظيم يستحق صاحبها عقاب الله ﷻ إن لم يتداركه الله ﷻ بالتوبة.

وكذلك يدخل فيه الشرك في الربوبية، وذلك أن الله ﷻ هو المالك لكل شيء المتصرف فيه، وهو ﷻ الذي خلق الخلق لعبادته، فإذا خولف هذا المقصود

فقد وقعوا في الشرك، وفي الإلحاد في الربوبية وهذا كثير جدًا.

وكذلك يكون إلحادًا في الأسماء؛ يعني: شركًا في الأسماء في أسماء الله ﷻ، فإذا سمّوا الصخرة لات، والشجرة عزىٰ أخذًا من الله ومن العزيز، فهذا من أعظم الإلحاد.

✍ **ولهذا قال المؤلف** رحمه الله: **وعنه «سموا اللات من الإله، والعزىٰ من العزيز»**.

قوله: «**عنه**»؛ يعني: عن ابن عباس رضي الله عنهما.

قوله: «**سموا اللات من الإله، والعزىٰ من العزيز**»؛ يعني: اشتقوا لها أسماءً من أسماء الله تعالىٰ وتقدس، وهذا إلحاد عظيم لا يجوز أن يشارك الرب ﷻ في شيء من أسمائه ولا من معانيها فهذا أخص من الأول؛ يعني: القول الثاني أخص من الأول.

✍ **وقوله عن الأعمش: «يدخلون فيها ما ليس منها»**.

هذا غير الأول، هذا معنًى ثالث: يدخلون فيها ما ليس منها؛ يعني: أنهم يصفون الله بما لم يصف به نفسه، ومثال ذلك قول اليهود قبحهم الله أو بعضهم: إن الله بخيل، وقولهم: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤] قالوا: إن الله لما خلق السماوات والأرض تعب فاستراح.

فكل هذا من أعظم الإلحاد في أسمائه ﷻ لأنه علىٰ كل شيء قدير، وهو القوي العزيز الذي لا يضره شيء، ولا شيء يستعصي عليه تعالىٰ وتقدس، فهو إذا أراد شيئًا قال له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [الأنعام: ٧٣].

ومن ذلك أيضًا التشبيه وهذا قسم رابع من أقسام الإلحاد. ومن ذلك أيضًا تعطيله عن معاني أسمائه وصفاته، فهذه تكون خمسة أقسام من أقسام الإلحاد:

الأول: أن يشتق منها أسماء للمخلوقات أو لبعض المخلوقات.

الثاني: أن تسمىٰ المعبودات إله وهذا من أعظم الإلحاد.

الثالث: أن يسمىٰ بما لم يسم به نفسه أو يوصف بما لم يصف به نفسه تعالىٰ وتقدس كما مثلنا في فعل اليهود، وكذلك الفلاسفة الذين يقولون أنه علة موجبة.

الرابع: تعطيل معانيها التي أراد الله ﷻ أن يعرفها عباده.

الخامس: أن يسمىٰ بها بعض المخلوقات؛ يعني: فيشبه المخلوق بالخالق.

وعباد القبور ألحقوا الأموات الرفات برب العالمين، فهذا من أعظم التشبيه، وهذا تشبيه المخلوق بالخالق والذي يتكلم به الناس العكس، أما هذا فلا أحد يتكلم فيه مع أن هذا هو الكبير الواقع بكثرة، وأما الذي يتكلمون فيها هو تشبيه الله بالمخلوق وهذا عند المتكلمين يذكرونه بكثرة في كتبهم فتجدهم يقولون المشبهة، المجسمة ولو بحثت عن مشبهة ومجسمة ما وجدتهم؛ يعني: تريد أن يكون لهم مثلًا كتب ولهم منهج ولهم مذهب ولهم أئمة مثل المعتزلة أو الأشاعرة أو الماتريدية أو غيرهم من أصحاب المذاهب.

فهم يكثرون التشبيه؛ والواقع أنه أمر نسبي، لا ضابط له، ومعنىٰ أنه نسبي أن كل من أثبت ما نفاه هذا رماه بالتشبيه قال له أنت مشبه.

فمثلًا المعتزلة يقولون: إنه سميع بلا سمع، بصير بلا بصر، عليم بلا علم، فإذا قال إنسان: بل لله علم وله سمع حقيقة وبصر حقيقة، قالوا: أنت مشبه.

وفريق آخر من هؤلاء، إذا قلت مثلًا إن الله استوىٰ علىٰ عرشه، وإن لله وجه وله يدان قالوا: إنك مشبه كما تقوله الأشاعرة.

ولهذا يقولون المشبهة أهل الحديث والحنابلة، بعضهم يصرح بهذا، وهكذا الناس بهذه الطريقة بعضهم يرمي بعضًا بالتشبيه.

والواجب في هذا أن يكون الميزان الذي يرجع إليه ويسلك طريقه كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، سواءً شنع الناس أو لم يشنعوا، وتشنيع الناس لا يضر الإنسان لأنك إذا سبرت أحوال الناس وجدتهم لا يريدون اتباع الرسل، بل بعضهم ينتقد الرسل حتىٰ قال بعضهم: ثلاثة من الرسل مشبهة، قال: موسىٰ حين قال: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وعيسىٰ حين قال: ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ﴾ [المائدة: ١١٦]، ومحمد حين قال: «**إن الله خلق آدم علىٰ صورته**»(١)، والأنبياء عليهم السلام كلهم يصفون الله بما وصف به نفسه، فالمتكلمون خالفوهم.

فهذه نتيجة تحكيم عقولهم وأفكارهم، لأن الإنسان ما يمكن أن يستقل بمعرفة الحق بفكره وعقله، فالله تعالىٰ غيب، ليس مشاهدًا، فأخبر جل وعلا عن نفسه بأسماء وبصفات يجب أن تقبل وتفهم حسب جلاله، ولكن هؤلاء يقولون الأخبار التي جاءت أكثرها من باب الامتحان والابتلاء وإلا لو أخذنا بظاهرها لكنا مشبهة، ولكنه امتحن حتىٰ يكون لنا أجر عظيم إذا صرفناها عن ظاهرها وبحثنا عن الوجوه المستكرهة لها أو الغريبة التي إذا سمعها الإنسان قال: هذه غير معروفة، يقولون: نفعل هذا حتىٰ يكثر أجرنا، ولكن هذه دعوىٰ بل حتىٰ يكثر الوزر -نسأل الله العافية-.

ثمَّ القدوة في هذا؛ فَهم الصحابة وقد فهموا عنه ما خوطبوا به بمقتضىٰ لغتهم كما في الحديث عنه ﷺ أنه قال: «**إن الله ينظر إليكم أزلين قنطين فيظل يضحك يعلم أن فرجكم قريب**»، فقام رجل من الحاضرين فقال: أو يضحك ربنا يا رسول الله؟ قال: «**نعم**»، قال: إذًا لا نعدم خيرًا من ربنا إذا ضحك؛ يعني: استدل بالضحك علىٰ أنه سيعطينا الخير لأن الضحك يدل علىٰ الرضىٰ. وفي رواية لما قال: أو يضحك

(١) رواه البخاري رقم (٦٢٢٧)، ومسلم رقم (٢٨٤١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ربنا يا رسول الله؟ قال: «**إي والله أنه يضحك**»(١).

فكيف يقول الإنسان في مثل هذا، وكذلك إذا قول الله ﷻ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] ليس فيه أصرح من هذا، وكذلك قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]؛ يعني: صرف هذا عن ظاهره إلحاد، وليس يقال أنه تكلف لطلب المعنىٰ، بل هو إلحاد وضلال؛ لأنه من الأمور الظاهرة التي لا يجوز أن يُعدل عن ظاهرها وقد عرف مراد المتكلم بها، كما هو ظاهر.

علىٰ هذا نقول أن هذه الأوجه التي ذكرت في الإلحاد كلها كفر بالله ﷻ تجعل الإنسان ليس مسلمًا، فهذا هو وجه إدخال هذا الباب في هذا الكتاب حتىٰ يكون الإنسان موحدًا يقبل ما جاء عن الله ويصف ربه بما وصف به نفسه، ويدعو الله ويعبده بأسمائه وصفاته، وبذلك يكون موحدًا، وبدون هذا يكون مشركًا.

أما كون أسماء الله محصورة معينة أو غير معينة يكفينا ما عينه لنا ربنا فقط؛ يعني: يجب علىٰ العبد أن يكتفي بما سمىٰ به نفسه في كتابه ﷻ، أو سماه به رسوله ﷺ ولا يتجاوز ذلك.

هل يجوز للعبد أن يدعو الله بغير ما أثبت لنفسه مثل ما يدعو به بعض العوام يقول: يا معروف بالمعروف، يا طويل اليد، يا كثير الخير، وما أشبه ذلك، أو عليهم أن يتعلَّموا أسماء الله ﷻ حتىٰ يدعو بها؟ قال بعض العلماء: باب الدعاء الأمر فيه

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم (١٦١٨٧)، وابن ماجه رقم (١٨١) عن أبي رزين قال: قال رسول الله ﷺ: «**ضحك ربنا من قنوط عبده وقرب غيره**»، قال: قلت: يا رسول الله أو يضحك الرب ﷻ؟ قال: «**نعم**»، قال: لن نعدم من رب يضحك خيرًا.

واسع؛ وقول الله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] هذا القدر أمر ملزم، يقول: يا رب، يا الله، يا كريم، يا رحمن يا رحيم، هذه ما يعجز أحد أن يعرفها، وهل أنت مكلف بأن تبحث عن شيء لا تعرفه؟ لست مكلفًا بهذا.

فهذا أمر ميسور جدًا لا أحد يخفىٰ عليه، ومن سُنَّة الله ﷻ أن الناس إذا كانوا إلىٰ شيء حاجتهم إليه كثيرة، أنه يكون تيسيره وسهولته وكثرته أمر واضح، وليس هناك أعظم ضرورة من دعائهم لربهم ﷻ، ولهذا لا تجد إنسانًا يقول: أنا ما أعرف أن أقول: يا الله، أو أقول: يا رب أبدًا.

وهذا من أعظم الدعاء، يا الله، يا رب، حتىٰ قيل أن الرب هو الاسم الأعظم، وإذا تأملنا أدعية الرسل في القرآن وجدناها كلها بهذا اللفظ إلا ما شاء الله، قال آدم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣]، وهكذا قال إبراهيم وقال موسىٰ وقال عيسىٰ، كل الأنبياء يدعون بهذا الاسم، ولهذا قال بعض العلماء أن هذا هو اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب.

ولكن كون العبد يدعوا بظهر قلبه وهو غافل فهذا لا يستجاب له إلا أن يشاء الله، والغالب كما جاء في الحديث: «**ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاءً من قلب غافل لاه**»(١).

أسماء الله جاء في الحديث: «**أن لله تسعة وتسعين اسمًا مائة إلا واحد، من أحصاها دخل الجنة**»(٢)، **نقول أولًا**: أن مراتب الإحصاء ثلاثة التي ينبغي أن يُعتنىٰ بها:

المرتبة الأولىٰ: حفظها.

---

(١) أخرجه الترمذي رقم (٣٤٧٩) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه**».

(٢) سبق تخريجه.

المرتبة الثانية: معرفة المعنىٰ، أن نعرف معناها، وأن العبد يتعلق بشيء لا يعرف معناه لا ينفعه.

المرتبة الثالثة: عبادة الله بها، أن يعبده بها يتجه إليه بها، فهذا الذي إذا فعل ذلك دخل الجنة.

ثانيًا: أن هذا لا يدل علىٰ حصر الأسماء في التسع والتسعين، ولكن هذه الأسماء التسع وتسعين موجودة في القرآن، ولهذا الذين تتبعوها أوجدوا هذا العدد، وبعضهم زاد إلىٰ حوالي الضعف وكله مأخوذ من القرآن، ولكن فيه خلاف، لأن بعضهم أخذها من الإخبارات وهذا لا يجوز، لأنه يجب أن يكون الاسم صريحًا وهذا هو معنىٰ قول أهل السُّنَّة أسماء الله توقيفية؛ يعني: أننا نقف مع النص فيها، لا يجوز أن نشتق لها من عندنا أو نأتي بشيء من عندنا.

فهي غير محصورة بهذا العدد، بدليل الحديث الذي في المسند عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما أصاب عبد هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصيتي بيدك ماضٍ في حكمك عدل في قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو علمته أحدًا من خلقك أو أنزلته في كتابك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي، إلا أذهب الله همه وحزنه، وأبدله مكانه فرحًا**»، فقيل: يا رسول الله ألا نتعلمها؟ فقال: «**بلىٰ ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها**»(١)، فجعل الرسول ﷺ الأسماء أقسامًا ثلاثة في هذا الحديث:

قسم أنزله في كتابه، والمقصود بالكتاب هنا الجنس؛ يعني: أنزله في كتبه التي أنزلها إلىٰ الأرض علىٰ رسله.

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم (٤٣١٨) من حديث ابن مسعود.

القسم الثاني: لم ينزلها في كتابه، ولكن علَّمها بعض من يشاء من خلقه مثل الملائكة والرسل، ومثل الرجل الذي عند سليمان، لما قال للحاضرين عنده: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَ﴾ [النمل: ٤٠].

هذا الذي عنده علم من الكتاب يعرف اسم الله الأعظم فدعاه به فحضر في اللحظة وليس هذا لقوته، هو علم شيئًا لم يعلمه سليمان، وهو رجل من عباد الله ﷻ.

القسم الثالث: لم ينزله في كتابه، ولم يُعلِّمه أحدًا من خلقه بل استأثر به عنده تعالىٰ وتقدس.

وثبت في الصحيح في ثناء الرسول ﷺ علىٰ ربه قوله: «**لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت علىٰ نفسك**»(١)، ومعلوم أن الثناء يكون بالأسماء والصفات، فإذا كان لا يحصي الثناء عليه فهو له أسماء غير هذه التي عرفها الناس.

وكذلك قوله في حديث الشفاعة: «**فيفتح الله علي من المحامد والثناء ما لا أحسنه الآن**»(٢)، والمحامد والثناء بأسمائه وصفاته -تعالىٰ وتقدس- وفيه غير هذا من الأدلة، ولكن هذه من الأدلة علىٰ أن أسماء الله ﷻ غير محصورة في عدد.

وهناك من الأسماء ما لا يجوز أن تفرد لا في الدعاء ولا في الخبر مثل الضار النافع المعطي المانع، وما أشبه ذلك، فيجب أن يؤتىٰ بمقابله، فهو ومقابله بمنزلة الاسم الواحد؛ يعني: الاسم الذي يحتمل المدح والذم لا يجوز أن يطلق علىٰ الله مفردًا، وهذا مأخوذ من قوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠] لأن أسماء الله حسنىٰ لا يلحقها نقص فلا بد أن تأتي بالمقابل، ومن ذلك قوله: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣] لا يجوز أن تقول: الباطن ثم تسكت؛ لأنك إذا قلت

(١) رواه مسلم رقم (٤٨٦) من حديث عائشة.

(٢) سبق تخريجه.

الأول قد يفهم أنه ليس بآخر تعالىٰ الله وتقدس فلا بد أن تأتي بمقابله، وهذا كله مأخوذ من الوصف به ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

يبقىٰ ما معنىٰ الإحصاء في قوله: «**من أحصاها دخل الجنة**»؟ قد اختُلف فيه، فبعض العلماء يقول: إحصاؤها حفظها، وهذا هو الذي أراده البخاري لأنه لما ذكر هذا الحديث قال: أحصيتها: حفظتها. ولكن هذا غير مقصود لأنه يجوز أن يكون الكافر يحصيها بهذا المعنىٰ، وكذلك المنافق يحفظها، إذا كان مجرد الحفظ فالأمر سهل، كل واحد يستطيع أنه يحفظ، فهذا لا يكفي فلا بد مع الإحصاء العبادة، أن يُعبد الله بها وأن يفهم معناها، فإذًا يكون معنىٰ إحصاؤها هي: المراتب التي ذكرنا.

والإحصاء يطلق علىٰ الإطاقة للشيء كما قال تعالىٰ: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ [المزمل: ٢٠] لما أمر بقيام الليل، فمعنىٰ لن تحصوه؛ يعني: لا تطيقونه؛ لأنه يكون منكم المرضىٰ ومنكم من يطلب الرزق يضرب في الأرض للمعاش، وفيكم من يقاتل وفيكم من يحتاج إلىٰ نوم وغير ذلك.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله **: فيه مسائل:**

❁ **الأولى: إثبات الأسماء.**

يعني: خلافًا للذين لا يثبتونها، ولكن هل من الطوائف من أنكر الأسماء؟ المعتزلة يثبتونها والجهمية هم الذين أنكروها والقرامطة، ولكن إثبات المعتزلة لها إثبات لا معنىٰ له لأنهم يثبتون ألفاظًا بلا معاني، ولهذا يسارعون إلىٰ نفي المعنىٰ قبل أن يطلب منهم فيقولون: عليم بلا علم، ولهذا لما ناظر عبد العزيز الكناني رئيسهم بشر المريسي، قال له: كيف تقول: عليم بل علم، قال: أخبرني، قال: لا يجهل، قال: الأسطوانة هذه لا تجهل، قال له: الله جل وعلا وصف نفسه بمعاني، فإذا قلت لك أن هذا لا يجهل لا يعني هذا أني أثبت له العلم.

الثانية: كونها حسنى.

مثل ما عرفنا في معنىٰ الأسماء أنها لا يلحقها نقص ولا عيب بل هي كاملة تامة، ولا يمكن أن تأتي بشيء يمكن أن يرادفها أبدًا، ولكن بعضها مع بعض؛ يعني: قد يكون بعضها يفسر بعضًا ولو بالتقريب.

الثالثة: الأمر بدعائه بها.

يعني: أن هذا واجب، أنه لازم لا بد منه، ومن لم يفعل ذلك لا يكون مؤمنًا، فهو من الواجبات التي تتحتم ولا يجوز للإنسان أن يدعو ربه إلا بها ﷻ لأن الله ﷻ أمر بذلك: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

الرابعة: ترك من عارض من الجاهلين الملحدين.

معناه أنك لا تهتم بهم، ولا يعلق ذهنك شيء مما يقولونه، يجب أن تبتعد عنهم كل البعد، فقد كفاك الله إياهم بأنه سوف يتولىٰ تعذيبهم فلا يهمك أمرهم، والأمر بالاجتناب والترك أبلغ من أن يقال: أنه باطل أو ضلال.

الخامسة: تفسير الإلحاد فيها.

الإلحاد أولًا يحتاج إلىٰ تفسير لغوي وتفسير معنوي، فاللغوي عرفنا أنه: الميل بها عن مراد المتكلم، وهذا واضح في اللغة.

وأما المعنوي: أنه ينفي معناها عن الله ﷻ أو يجعلها يشتق منها أسماء للمخلوقات، أو يجعل المخلوقات تشارك الرب فيها تعالىٰ الله وتقدس، وهذا يدخل فيه الاشتقاق والترك ويدخل فيه التشبيه.

السادسة: وعيد من ألحد.

بقوله: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠] هذا وعيد شديد -نسأل الله العافية- مع أن قوله: ﴿وَذَرِ﴾ [الأنعام: ٧٠] فيه وعيد أيضًا يفهم منه وعيد أشد.

الباب الثاني والخمسون

✍ **قال المؤلف رحمه الله: باب لا يقال: السلام على الله.**

هـذا فيـه الأدب مـع الله جل وعلا، وذكـر الألفـاظ التـي يجـب أن لا تقـال لله جل وعلا وأن يعرف العبد ما يجوز لله وما لا يجوز، وما يجب له جل وعلا.

✍ **قال المؤلف رحمه الله: عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كنا إذا كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في صلاة قلنا: السلام على الله من عباده، السلام على فلان وفلان. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تقولوا السلام على الله فإن الله هو السلام»**(١).

قوله: «في الصحيح»؛ يعني: في الحديث الصحيح والحديث في الصحيحين.

قوله: «كنَّا»؛ يعني: وقع منا ذلك كثيرًا.

قوله: «إذا كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة»؛ يعني: في التشهد الأخير كما جاء مصرحًا به في الرواية الأخرى.

قوله: «السلام على الله من عباده. السلام على فلان وفلان، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تقول: السلام على الله، فإن الله هو السلام»»، الله جل وعلا هو السلام المؤمن، والسلام اختلف فيه ما المراد به على قولين للعلماء:

أحدهما: أن السلام اسم من أسماء الله وأن المسلم يقول لمن سلم عليه: أذكر عليك اسم ربي لتحل عليك بركته ولتسلم من الكوارث والفتن، مع إعلامه أنه سِلْمٌ لمن سُلِّم عليه وأنه لا يناله أذىٰ منه، هذا هو المقصود بالسلام.

---

(١) رواه البخاري رقم (٨٣٥)، ومسلم رقم (٤٠٢).

القول الثاني: أن السلام تحية وهو مصدر لأنه يأتي مُنكَّرًا، ولو كان اسمًا من أسماء الله لم يأت منكرًا، فالتنكير لا يُعيِّن الاسم فضلًا أن يكون لله، فقوله: سلام عليكم. فهذا يدل على أنه ليس اسمًا من أسماء الله. قال ابن القيم: الصواب في مجموع القولين.

أن السلام اسم من أسماء الله، وأنه في ضمنه التحية والأخبار بأن المسلِّم سِلْمٌ لمن سُلِّم عليه.

ثبت أن النبي ﷺ لما سُلم عليه وهو على حاجته لم يرد السلام، حتى ذهب وتيمَّم ثم رد السلام وقال: «**إني كرهت أن أذكر الله على غير طهارة**»[1]. فهذا صريح في أنه اسم من أسماء الله تعالى، فيكون المعنى على هذا أنه لا يصلح أن يقول السلام على الله لأن الله هو السلام مثل ما قال الرسول ﷺ، وهو الذي تطلب منه السلامة بذكر اسمه المناسب لذلك، وإنما السلامة تطلب للمخلوق الذي يتعرض للحوادث، وهو أيضًا لا يستطيع أن يخلص نفسه من المكاره، بل المكاره تعترضه من كل جانب من الداخل والخارج، فإذا لم يسلمه الله ﷻ فلا سلامة له أصلًا، فطلب السلامة له أمرًا ضروريًا أعظم من ضرورته للأكل والشرب.

إذا قيل له: «السلام عليكم» يعني: أنا أطلب من الله بهذا الاسم الكريم الذي هو اسمه أن تحل عليك بركته وأن تسلم من المكاره التي يتوقع أن تصيبك، والمكاره قسمان:

مكاره تكون بالبدن في الدنيا، ومكاره في الدين في الخلق، فإذا سلم الإنسان من الثاني فالأمر جلل في الأولى، يعني أنه سهل، فالمهم أن يسلم من الثاني.

أما الأول فإنه لا بد له منه؛ لأن هذه الدنيا بُنيت على ذلك، ولا سلامة لأحدٍ

(١) رواه أبو داود رقم (٣٣١)، وابن ماجه (٣٥٠).

فيها سلامة مطلقًا، وإنما السلامة أن يسلم دينه، فإذا سلم دينه سلم في آخرته من العذاب الذي يلحق غيره.

فالمقصود أن السلام لا يجوز أن يقال السلام علىٰ الله لأن الذي يلقي السلام يطلب لمن سلّم عليه السلامة، والله يُطلب منه ولا يُطلب له، وهو أيضًا السلام من كل نقص وعيب فلا يحتاج إلىٰ أن يقال هذا مع أن السلام تحية، وقد جاء في الصحيح أن الله لما خلق آدم قال له: «**اذهب فسلم علىٰ أولئك النفر من الملائكة واستمع ما يحيونك فإنها تحيتك وتحية أبنائك**»، فذهب إليهم «**فقال: السلام عليكم، فقالوا: وعليك السلام ورحمة الله**»[(١)]، فهذا نص علىٰ أنها تحية.

وفي ضمن التحية الطلب والدعاء، أما تحية بلا طلب ولا دعاء فهي لا تفيد شيئًا مثل: مرحبًا، أهلًا، وما أشبه ذلك.

والسلام من شعائر الإسلام العامة التي لا يجوز الإخلال بها، وإفشائه في الناس وإظهاره يدعو إلىٰ الالتحام والاتفاق والمحبة كما قال ﷺ: «**لا تدخلون الجنة حتىٰ تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتىٰ تحابوا، أو لا أدلكم علىٰ شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم**»[(٢)]، وإفشائه: هو إظهاره وإكثاره.

وهذا الحديث كان في التشهد الأخير، ولكن هذا كان في أول الأمر فأعلمهم الرسول ﷺ كيف يتشهدون، والمؤلف اقتصر علىٰ أول الحديث ولم يذكر بقيته وهي: «**ولكن قولوا: التحيات لله والصلوات والطيبات، السلام عليك أيها النبي**

---

(١) رواه البخاري رقم (٦٢٢٧)، ومسلم رقم (٢٨٤١) من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**خلق الله آدم وطوله ستون ذراعًا ثم قال: اذهب فسلم علىٰ أولئك من الملائكة فاستمع ما يحيونك تحيتك وتحية ذريتك، فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة الله، فزادوه ورحمة الله، فكل من يدخل الجنة علىٰ صورة آدم فلم يزل الخلق ينقص حتىٰ الآن**».

(٢) رواه مسلم (٥٤) من حديث أبي هريرة.

ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلىٰ عباد الله الصالحين، فإنكم إذا قلتم ذلك أصاب كل عبد في السماء أو بين السماء والأرض»، ثم يأتي التشهد بعد هذا.

ومعنىٰ التحيات كما يقول الجوهري وغيره(١): التحية هي البقاء والتعظيم، يعني: البقاء والتعظيم والعبادة والإجلال لله وحده؛ لأن التحيات جمع أدخل عليه (أل) حتىٰ يأتي بالكمال؛ لأن الناس إذا دخلوا علىٰ العظماء حيوهم بالتحيات التي وضعت لهم بالجاهلية يقولون: عم صباحًا أو البقاء لك، وهذا ليس صحيحًا. وكل هذا منافسة لله ﷻ، وجاء الرسول ﷺ بالشيء المناسب الذي يصلح لأنه هو معلم الخير، قال: «**قولوا: التحيات لله**» يعني أنها مستحقة له وهي التعظيمات والتقديسات والبقاء والكمال والإجلال كله يكون لله ﷻ.

وقال: «**والصلوات**»؛ يعني: الدعاء؛ يعني: دعواتي كلها يجب أن تخلص لله ﷻ وأن تكون مطلوبة من الله وأن يكون الداعي خاضعًا مفتقرًا طالبًا من الله ﷻ ما يناسبه.

وقوله: «**الطيبات**»؛ يعني: الأعمال الطيبة الخالصة لله ﷻ لأنه طيب لا يقبل إلا طيبًا، وما كان غير طيب فإنه غير مقبول.

والطيب معناه عام «الطيبات» في الأعمال، والأعمال يُبنىٰ بعضها علىٰ بعض، فإذا لم يكن العبد بنىٰ عمله علىٰ طيب فإن عمله غير مقبول كما في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال ﷺ: «**إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا**»(٢)، فهذا شيء عام: «وأن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ

---

(١) تهذيب اللغة (٢/ ٢١١)، وقال ابن المظفر في قول المصلي في التشهد: التحيَّات لله، قال: معناه: البقاء لله، ويقال: المُلْك لله.

(٢) رواه مسلم رقم (١٠١٥).

وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١]، فأمرهم أولًا بالأكل من الطيبات، والطيبات هي الحلال الأمور التي أحلها الله ﷻ ثم أمرهم بالعمل الصالح، فهذا يدل علىٰ أن الأعمال مبنية علىٰ المأكل والمشارب والملابس، هذا بالنسبة للرسل.

ثم ذكر أمر المؤمنين قال: وقال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٢]، فهذا مثل ما أمر به المرسلون:

﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ والرزق كله من الله، ولكن بعضه طيب وبعضه خبيث، وإلا فكله رزق الله ﷻ، هكذا قد قدر، فالإنسان الذي يطلب ما أحله ربه ﷻ، وأمر به لا يقع في المحرم، ولكن هذا يبنىٰ علىٰ العلم أولًا.

ثم قال: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ﴾ هذه هي العبادة، وهذا الذي قيل للمرسلين: ﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾، ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢] الآيتان معناهما واحد كما قال الرسول ﷺ.

ثم ذكر الرجل الذي يطيل السفر يمد يديه إلىٰ السماء يقول: «**يا رب يا رب، ومطعمه حرام، وملبسه حرام، ومشربه حرام، أنىٰ يستجاب له**».

«**أنىٰ**»؛ يعني: بعيد أن يستجاب له؛ لأن مطعمه حرام ومشربه حرام وغذي بالحرام مع هذه الموجبات التي تستوجب إجابة الدعاء، كونه مسافر فقد جاء في الحديث أن دعوة المسافر مستجابة(١)، ولكن إذا كان بهذه الصفة فهو بعيد عن الاستجابة.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم (٧٥١٠)، وأبو داود رقم (١٥٣٦)، والترمذي رقم (١٩٠٥) عن أبي هريرة: أن النبي ﷺ قال: «**ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن: دعوة الوالد، ودعوة المسافر، ودعوة المظلوم**».

وكونه أيضًا كما جاء في هذا الحديث: «**أشعث رأسه مغبرة قدماه**»؛ يعني: أنه مبتذل وأنه مفتقر، فهذا مع الافتقار والابتذال وإظهار الحاجة لا يستجاب له.

ومع ذلك فهو يمد يديه إلىٰ السماء، فقد جاء في الترمذي في حديث أن الرسول ﷺ قال: «**إن الله حيي كريم يستحيي من عبده المؤمن يرفع إليه يديه فيردهما صفرًا**»[1].

ولهذا قال العلماء: أن رفع اليدين من أسباب الإجابة؛ لأن معنىٰ رفع اليدين افتقار واستجداء، يمد يده ويطلب من ربه ﷻ، الإنسان إذا مد يده لمخلوق يستحي المخلوق أن لا يعطيه ، فكيف إذا مدهما إلىٰ كريم جواد رب العالمين ﷻ.

الثالث من أسباب الإجابة: تعلقه بهذا الاسم الكريم وترديده له: «**يا رب يا رب**»، وقد قيل أن هذا هو الاسم الأعظم، وقد جاء في الحديث أن العبد إذا قال: «**يا رب يا رب قال الله: لبيك**»[2] فيعطيه ما أراد، ومع هذا لما كان مطعمه حرام ومشربه صار بعيدًا أن يستجاب له، وقوله: «أنَّىٰ» يعني بعيد أن يستجاب له، ولكن قد يستجاب له مع هذه الأشياء لأن إجابة السائل من مقتضيات الربوبية، فقد يجيبه وهو ظالم وهو كافر ثم يعذبه، ولهذا قال الله تعالىٰ في الكفار: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢] هذا بالنسبة لهم، إذا اضطر أحدهم وسأل ربه أجابه كما هو معروف في سُنتهم وأعمالهم كان أحدهم إذا ركب في البحر أخلص الدعاء لله ثم إذا نجا عاد إلىٰ شركه.

---

(١) رواه الترمذي رقم (٣٥٥٦)، وأبو داود رقم (١٤٨٨)، وابن ماجه رقم (٣٨٦٥) من حديث سلمان الفارسي.

(٢) رواه البزار رقم (٣١٤٥) من حديث عائشة مرفوعًا: «**إذا قال العبد: يا رب أربعًا، قال الله: لبيك عبدي، سل تعطه**».

فالمقصود أن الطيبات «الأعمال الطيبة»، ولا تكون طيبة إلا إذا كانت مبنية علىٰ طيب؛ يعني: الجسد نفسه طيب؛ لأنه غذي بالطيب ولبس الطيب وقال الطيب، فإذا خرج عن الطيب فإنه يكون علىٰ غير هذا المنهج فلا يكون لله فالله ليس له إلا الطيب ﷻ.

والمقصود هنا ذكر السلام، فدل علىٰ أنه لا يجوز أن تقول السلام علىٰ الله، ومعنىٰ هذا أنه يجب أن تعرف الشيء الذي لا يجوز أن يقال لله ﷻ ويوصف به وهذا منها، وهذا لا يمكن معرفته إلا بطلب العلم الذي جاء به الرسول ﷺ.

فأراد المؤلف أن ينبه علىٰ أنه يجب علىٰ المسلم أن يتعلم الشيء الذي يعبد الله به فإنه إذا لم يعرف ذلك قد يقع في المخالفات؛ وقد يقع في الشرك وفي الشيء الذي لا يجوز أن يعبد الله به ومنه هذا؛ لأن العبادة تكون بالقول وتكون بالمقصد والنيات والإرادات، وتكون بالأفعال، فهي لا تخرج عن هذا، فيجب أن تكون كلها مبنية علىٰ المعرفة والدليل الذي جاء عن الرسول ﷺ في كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، هذا هو المقصود من الباب.

أما المعنىٰ معنىٰ السلام: فقد ذكر أن السلام اسم من أسماء الله ﷻ، والذي يقول: «السلام عليكم» يلقي هذا الاسم علىٰ من يلاقيه وفي ضمنه الدعاء له بالسلامة وإخباره بأنه سِلْم له مسالم له فهو أخ له، ففيه ذكر الله، وفي هذا الذكر؛ يعني: في ضمن هذا الذكر الدعاء يقول: أذكر هذا الاسم الكريم أطلب من الكريم ﷻ أن يحل عليك بركة هذا الاسم وأن تسلم مما يؤذيك في دينك ويصدك أو في بدنك، وأنا أخبرك بذلك أني سلم لك مسالم لك، لا ينالك مني أذىٰ، هذا هو حقيقة السلام.

وإن كان هذا المعنىٰ أكثر الناس لا يعرفه؛ لأنها صارت عادة فقط،

ولكن أهل العلم يعرفون هذا المعنىٰ ومن طلبه عرفه وإذا لم يعرفه فهو يقول هذا تقليدًا واتباعًا لمن يفعل ذلك، فيكون عاملًا بالشيء الذي يعرفه فقط.

قال المؤلف رحمه الله: فيه مسائل:

الأولى: تفسير السلام.

يعني: تفسير السلام الذي يلقىٰ علىٰ المسلم عليه.

الثانية: أنه تحية.

أن التحية فيها معنىٰ كما قلنا، يعني أنك تذكر اسم الله وفي ضمنه الطلب من الله، والإخبار طلب من الله وإخبار المسلم عليه بأنك مسالم له وأنك تدعو له، وأنك تريد له ما تريد لنفسك.

الفرق بين التحية والسلام: التحية أعم من السلام، فالتحية هي التي تكون عند اللقاء وهي كثيرة منها مثلًا أهلًا، وهناك تحية كفرية، وكذلك تحية اللعنة كما جاء في الحديث: «**يأت في آخر الزمان قومٌ تحيتهم بينهم اللعنة**»(١).

الثالثة: أنها لا تصلح لله.

يعني السلام، لأن السلام إذا قلت السلام أنك تطلب لمن تسلم عليه السلامة، والله لا يُطلب له السلامة، لأن الله هو المسلِّم، قال تعالىٰ: ﴿سَلَٰمٌ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ [يس: ٥٨]، ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩]، ﴿تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَرِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٤٤]، فهو المسلم جل وعلا علىٰ عباده، وهو السالم من كل عيب ونقص، وهو الذي يطلب منه، فلا يصلح أنه يقال السلام علىٰ الله.

(١) سبق تخريجه.

۞ **الرابعة: تعليمهم التحية التي تصلح لله.**

هذا في بقية الحديث، والإنسان يجب أن يعرف معنىٰ التحيات التي يرددها في صلاته، والتحيات التي تلقىٰ بين الناس لا تصلح لله ﷻ، فقد كانوا إذا دخلوا علىٰ الملوك وعلىٰ الكبراء يقولون: لك البقاء، عم صباحًا، أو أنت الكبير، وما أشبه ذلك، فكل هذه تحيات ليس لها أصل ولا تصلح لله ﷻ، ولهذا جاء الرسول ﷺ بالشيء الذي يصلح فقال قولوا: «**التحيات**» أدخل (أل)؛ يعني: التعظيمات والبقاء والكمالات لله ﷻ كلها مستحقة لله ثم عطف عليها «**والصلوات**» الدعاء كله، والدعاء يدخل فيه دعاء العبادة ودعاء المسألة، إذا قلنا دعاء العبادة فإنه لا يخرج عنه شيء من صلاة وصوم وصدقة كلها تسمىٰ دعاء عبادة، فمعنىٰ ذلك أن العمل الطيب الزاكي لله ﷻ.

وقال: «**الطيبات**» هذا وصف للتحيات التي يقبلها ﷻ، ووصف لما يقبل الله ﷻ، لأن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، وأعظم الطيب بهذا أن تكون خالصة لله ﷻ، تكون لله وحده، ثم يجب أن يكون الذي صدرت منه طيب؛ يعني: أن عمله طيب كما سبق أن هذا مبني بعضه علىٰ بعض، فإن الإنسان الذي مطعمه ليس طيب ومشربه وملبسه كذلك، فإنه لا يقبل منه كما جاء في الحديث.

والصحابة كانوا يفهمون ذلك، عن زيد بن أرقم قال: كان لأبي بكر الصديق رضي الله تعالىٰ عنه مملوك يغل عليه فأتاه ليلة بطعام فتناول منه لقمة فقال له المملوك: ما لك كنت تسألني كل ليلة ولم تسألني الليلة؟ قال: حملني علىٰ ذلك الجوع من أين جئت بهذا؟ قال: مررت بقوم في الجاهلية فرقيت لهم فوعدوني، فلما أن كان اليوم مررت بهم فإذا عرس لهم فأعطوني قال إن كدت أن تهلكني فأدخل يده في حلقه فجعل يتقيأ وجعلت لا تخرج، فقيل له: إن هذه لا تخرج إلا بالماء، فدعا بطست من ماء فجعل يشرب ويتقيأ حتىٰ رمىٰ بها، فقيل له: يرحمك الله كل هذا من

أجل هذه اللقمة قال: لو لم تخرج إلا مع نفسي لأخرجتها، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كل جسد نبت من سحت فالنار أولىٰ به**»، فخشيت أن ينبت شيء من جسدي من هذه اللقمة[١]. فهذا شيء معروف عندهم.

ولما قال سعد بن أبي وقاص: يا رسول الله، ادعوا الله أن يجعلني مستجاب الدعوة، قال: «**يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة**»[٢].

وأنت تشاهد الآن دعائنا ما يستجاب؛ لأنه فسد طعامنا وشرابنا.

فالمقصود أن الطيبات تشمل العمل، ومن صدر عنه العمل كله، وأعظم ذلك أن تكون خالصة لله ﷻ.

(١) حلية الأولياء (١/ ٣١).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط رقم (٦٤٩٥).

الباب الثالث والخمسون

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **باب قول: اللهم اغفر لي إن شئت.**

هذا الباب مثل الباب الذي قبله، باب لا يقال السلام على الله، ولم ينص على الحكم هل هو حرام أو مكروه؟ إنما جاء بالنهي فقط. وهنا جاء مجملًا أكثر إجمالًا من الأول. والحكم فيه حرام، لا يجوز أن تقول السلام على الله. وهذا يقول: باب **قول: اللهم اغفر لي إن شئت.**

المطلوب في هذا أن يبين لنا الحكم. والقول في هذا أن هذا حرام، من المحرمات التي لا يجوز أن يقولها العبد وعلة ذلك شيئان:

أحدهما: أن هذا التعليق يوهم على أن الله يفعل الشيء وهو كاره، وهذا لا يجوز أن يعتقد، فهو من المحرمات بل من سوء الظن بالله فهو لا يليق به.

المعنى الثاني: أنه يوهم أيضًا أن القائل لهذا لا يعرف ضعفه وعجزه وفقره، فكأنه يقول: إن حصل لي ذلك وإلا فليس لازمًا، وكلا الأمرين من أعظم المحرمات أن يقولها العبد أو يعتقدها.

أما أولًا: فالله جل وعلا هو المتصرف في الكون كله ولا يفعل شيئًا لا يريده، ولهذا قال: «فإنه لا مكره له» لأن دعاء العباد ولو اجتمعوا كلهم لا يمكن أن تقع الإجابة والله كاره لها.

فالله لا يفعل إلا ما يريد، فهو فعال لما يريد، ولهذا لما ذكر الدعاء علق الإجابة والعطاء بمشيئته كذلك فلا يقع شيء إلا إذا شاء الله كما يقوله المسلمون: ما شاء الله كان وما لم يشأ لا يكون، ومنه الدعاء، فهذا أمرٌ عام، عقيدة يجب أن تعلم.

الثاني: أن الله ﷻ هو الغني وحده والعباد كلهم فقراء، فيجب أن يعرف العبد فقره ويظهره لربه ويدعوه به، فافتقاره وحاجته إلىٰ ربه أعظم من حاجته إلىٰ النفس وإلىٰ ما فيه حياته، فإذا علق الدعاء بالمشيئة فإن معناه أنه لم يعرف هذا الشيء، وهذا أمر أساسي لا يجوز أن يجهل، ولهذا جاء النهي عن ذلك.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **في الصحيح عن أبي هريرة** رضي الله عنه: **أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقولن أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، ليعزم المسألة فإنه لا مكره له»**[1]، ولمسلم: **«ولكن ليعزم المسألة وليعظم الرغبة، فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه»**[2].

قوله: «اغفر لي»: المغفرة: مغفرة الذنوب التي وقعت للعبد والتي ستقع يطلب العبد أن يغفر له ربه لأنه لا ينفك عنها أبدًا، وإذا لم يغفر الله ﷻ له فهو خاسر.

وكذلك الرحمة: «اللهم ارحمني إن شئت»، فالرحمة إحسان من الله ﷻ، فإذا رحمه ربه يسَّره لليسرىٰ وجنَّبه العسرىٰ؛ يعني: يسَّر له العمل الذي يكون سببًا لأن يغفر له، فقول الملائكة في دعائها: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧]، فمعنىٰ الرحمة: أنك تُيسر للعمل الصالح وتجنب السيئات.

وعلىٰ هذا يجب أن يكون العبد إذا دعا ربه أولًا: أن يدعوه برغبة وإلحاح، يُعظم الرغبة في الدعاء لله ﷻ، وأيضًا يوقن بالإجابة لأن الله كريم، وقد جاء الأمر بهذا: «**ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة**»[3]، ولكن لا بد من فعل الأسباب.

---

(١) رواه البخاري رقم (٦٣٣٩)، ومسلم رقم (٢٦٧٩).

(٢) رواه مسلم رقم (٢٦٧٩).

(٣) أخرجه أحمد في المسند رقم (٦٦٥٥)، والترمذي رقم (٣٤٧٩) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاهٍ».

الثاني: أنه يأتي بالدعاء بقلب حاضر لأن الله لا يستجيب من قلب ساهٍ لاهٍ وحضور القلب؛ يعني: يتأمل الشيء الذي يقوله، ويتأمل حاله هو فما فيه أفقر من الإنسان إلىٰ ربه ﷻ، ففقره صفة له ملازمة؛ يعني: صفة للعبد لا ينفك عنها أبدًا كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]؛ يعني: أننا فقراء والفقر ملازم لنا ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾، فيجب أن يكون الداعي بهذه الصفة، أن يستشعر بل يتيقن يقينًا لا شك فيه أنه فقير فقر ذاتي وأنه إذا لم يغنه الله ﷻ فهو الخاسر، ثم هو كذلك هو بأمس الحاجة إلىٰ مغفرة ربه ورحمته، فلا بد أن تكون رغبته في هذا وإلحاحه وعزمه علىٰ ذلك عزمًا مؤكدًا.

أما رواية مسلم: «**وليعظم الرغبة فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه**».

فهذه أعطت معنًىٰ آخر، معنىٰ هذا أنك إذا طلبت من الله، لا تطلب الشيء اليسير، الله عظيم فهو يعطي العظيم ولا يتعاظمه شيء يكون عنده سهل ميسور، ولهذا يعطي الجنة فهل الجنة لها ثمن؟ لا يمكن أن يكون العمل ثمنًا، الأمور كلها رحمة من الله ﷻ يتأمل العبد حاله مع ربه، نحن عباد خلقنا ولم يكن لنا اختيار من أنفسنا ولا نستطيع أن نجلب لأنفسنا خيرًا ولا أن ندفع عن أنفسنا شرًا.

وخلقنا وهيأ لنا الأمور وسخر لنا ما في السموات والأرض، وجعلنا عبادًا له، ثم صار يطلب منا أن نعمل حتىٰ يعطينا الأجر، فهل يمكن مثلًا أن يشتري الرجل خادمًا بماله ثم يقول له اعمل وأعطيك أجرًا أعطيك مثلًا في الشهر عشرة آلاف أو سبعمائة ألف، لا يمكن هذا في المخلوقين.

والله ﷻ نحن عباده ثم يعطيني الأجر إذا عبدناه، خلقنا لعبادته ثم يأجرنا أجرًا عظيمًا.

الشيء الثاني: انظر مثلًا قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾ [البقرة: ٢٥٤] يرزقنا ثم يطلب منا أن ننفق حتىٰ يُثيبنا، فكرم الله ﷻ وعظمته وعطائه

شيء أعظم من أن نحده، ولهذا ينبغي للعبد إذا سأل ربه أن يسأله الشيء العظيم ويعظم رغبته في الله ولا ينظر إلىٰ قدره، لو أعطاه علىٰ قدره لم يعطه شيئًا، ولكن العطية علىٰ قدر المعطي ﷻ، ولهذا قال الرسول ﷺ: «**فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلىٰ الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة**»(١)، فكل هذا في باب الأدب مع الله ﷻ، الذي يجب أن يتأدب العبد به عند العبادة عندما يعبد ربه ﷻ.

وبهذا يتبين لنا أن العبد إذا عبد ربه مطلقًا سواءً بالدعاء أو بغيره أن تكون عبادته عن رغبة، وكذلك يكون مظهرًا فقره وحاجته، وإلحاحه إلىٰ قبول هذا العمل ويعلم حاجته الشديدة، ثم يظن بربه الظن الحسن ويقول أن الله غني كريم وأنا فقير مسكين وكرمه صفة له، وكذلك العبد فقره صفة له.

ثم طلبه العام المطلق الذي هو الرحمة يجب أن يطلب وهو علىٰ يقين من ربه ﷻ أنه يعطيه، وليس معناه أنه يترك الأوامر التي أمر بها ويرتكب النواهي، لأن الإنسان إذا بارز ربه بالشيء الذي نهاه عنه إذا كان عن علم فإن الله قد يعاقبه.

فصار في هذا القول محاذير، وهو قادح في التوحيد، فوجب أن لا يقال ذلك وإنما يعزم بلا تردد ويعظم الرغبة، ويعلم أن الله ﷻ له الملك يتصرف فيه كيف يشاء وأنه لا يعطي وهو كاره، ولا يمنع وهو كاره بل كل ما يقع فهو بمشيئته وإرادته التي لا يمكن أن يحول بينها وبين مراده شيء فصار هذا ظاهر لكونه منافيًا للتوحيد والتسليم لله ﷻ وإظهار العبودية والفقر له ﷻ.

ولا يعني هذا أنه قد يأتي شيء من مطالب الإنسان يعلق ذلك علىٰ علم الله، وهذا في الأمور التي تخفىٰ علىٰ العبد، فإن الأمور التي تخفىٰ عليه يفوضها إلىٰ ربه، مثل ما جاء في الحديث: «**اللهم بعلمك الغيب وقدرتك علىٰ الخلق أحيني ما علمت**

(١) رواه البخاري رقم (٧٤٢٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الحياة خيرًا لي وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي»[١]، وهذا ما يقوله إلا إذا رأىٰ الفتن، ورأىٰ الأمور التي يخاف أن يفتتن فيها في دينه، وهذا ليس فيه تعليق الدعاء فإن هـذا يتعلق بفعل العبد وما يؤول إليه.

ومثله دعاء الاستخارة: «**اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب. اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خيرًا لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري -أو قال عاجل أمري وآجله- فاقدره لي ويسره لي ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري -أو قال في عاجل أمري وآجله- فاصرفه عني واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثم رضني به. قال: ويسمي حاجته**»[٢]، لأن العبد لا يعرف المستقبل هل هو خير أو شر؟ أما إذا علم أن المطلوب خير فلا يجوز أن يعلق بالمشيئة بل عليه أن يجزم بلا تردد، فإن تعلقه بالمشيئة تكون فيه المحاذير السابقة.

وكذلك قوله في الحديث: «**طهور إن شاء الله**»[٣]، هذا ليس تعليق لأنه قد يكون غير طهور، قد يكون زيادة عذاب، ولهذا لما قال الرسول ﷺ للأعرابي: «**لا بأس طهور إن شاء الله**». فقال: بل هي حمىٰ تفور أو تثور علىٰ شيخ كبير تزيره القبور، فقال النبي ﷺ: «**فنعم إذًا**» فمات.

وهذا يتعلق بفعل الإنسان، وهل الإنسان يتطهر بالمرض؟ قد لا يتطهر، وقد لا يكفيه عن إجرامه، فيقال: طهور إن شاء الله. إن شاء يطهرك مما سبق؛ لأن هذا لا يكون لكل أحد، فإذا رضي الله يطهره بهذا، فهذا عفا الله عنه.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم (١٨٣٢٥).

(٢) رواه البخاري رقم (١١٦٢) من حديث جابر رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاري رقم (٣٦١٦) من حديث ابن عباس.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **فيه مسائل:**

❁ **الأولى:** النهي عن الاستثناء في الدعاء.

النهي للتحريم.

❁ **الثانية:** بيان العلة في ذلك.

والعلة: لأن التعليق بالمشيئة يدل على أن المعلق كأنه يقول: إن أعطيتني وإلا فإني مستغني، وهذا لا يجوز إلا إذا سألت المخلوق.

الأمر الثاني: أنه يدل على أن الله يعني في ضمنه يعطي الشيء وهو كاره هذه علة أخرى.

❁ **الثالثة:** قوله: ليعزم المسألة.

هذا أمر آخر، وهو أيضًا يدل على الوجوب، والعزم معناه: إعظام الرغبة، يعني أنه يطلب من ربه ﷻ بلا تعليق، بل بيقين ورغبة عظيمة بأن الله يعطيه الشيء المطلوب، ولهذا الرسل يقولون: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧]، فالعبد لا بد أن يكون بهذه المثابة.

الباب الرابع والخمسون

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **باب لا يقول: عبدي وأمتي.**

فترجمة الباب بلفظ الحديث، فهذا من الأدب مع الله ﷻ في الألفاظ التي يجب علىٰ العبد أن يجتنب الشيء الموهم الذي فيه إيهام الاشتراك مع الله، أو التسوية في ذلك، وهذا أيضًا من مكملات التوحيد، فإن العبد إذا كان توحيده كاملًا صار متأدبًا مع الله في الألفاظ، وكذلك في الأفعال.

وفي هذا كون الرسول ﷺ يبيِّن كل ما فيه خير للأمة، ويحذرهم الشيء الذي يدخل عليهم منه النقص في دينهم، ومعاملتهم مع ربهم ﷻ.

فالعبودية أصلها كلها لله، أما عبودية الرق فهي أمر عارض لسبب وهو لا يستمر؛ يعني: هذا الحكم.

فالمقصود أنه يجب التأدب مع الله في الألفاظ حتىٰ لا يكون فيه لفظ يوهم المشاركة مشاركة الرب ﷻ ولو باللفظ، وهذا هو السبب في إدخال هذا الباب في كتاب التوحيد، حتىٰ يكون العبد محققًا لتوحيده، مخلصًا لله ﷻ في أعماله وفي أقواله.

قوله: «لا يقول: عبدي وأمتي»: وهذا النهي الصحيح أنه للتحريم، وقد قيل أنه للكراهة، لكن لا دليل عليه لأن الأصل إذا جاء النهي من الله أو من رسوله ﷺ فيجب أن يجتنب، والوجوب هنا متحتم إلا أن يأتي دليل يدل علىٰ أن هذا للتنزه والتأدب وطلب الرفعة وطلب الأجر، وهذا لا دليل عليه.

فعلىٰ هذا يكون الصحيح أن هذا محرمًا، وإذا كان محرمًا يكون العبد آثمًا علىٰ ذلك ويكون مرتكبًا حرامًا، والمحرم قد يكون كبيرًا وقد يكون أقل من ذلك،

ومعلوم أن الذنوب تتفاوت، ولكن بالنظر إلى الناهي يكون الأمر عظيمًا لأن رب العالمين ﷻ يجب أن يعظم، فيعظم نهيه، وكذلك الأمر، يعظم أمره لتعظيمه ولأنه ﷻ هو الرب الذي يتصرف في خلقه كيف يشاء، فيجوز أن الإنسان يتساهل بأمر الله أو في نهيه فيكون ذلك سببًا لهلاكه، ولهذا يقول بعض العلماء: إن آدم ﵇ ارتكب ذنبًا واحدًا فأخرج من الجنة بذلك. وإن شرع الله أوجب أن يقطع من الإنسان عضوًا بخمسة دراهم إذا أخذها بلا حق فليقس الإنسان على هذا.

وهذا التحريم في المقابلة في خطاب الرجل، أو خطابه لمن هو رقيق له، أو خطاب غيره بالمقابلة، أما الإخبار بالغيبة فإن هذا فيما يظهر أنه لا بأس به، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٢]، فدل أن الخطاب الذي ليس في المقابلة أنه جائز.

وفي هذا كذلك أنه لا يجوز الترفع والتكبر على أحد حتى وإن كان مملوكًا له يجب أن يعلم أنه قد يكون أفضل منه، جاء في الحديث: «**إذا نصح العبد سيده وأحسن عبادة ربه كان له أجره مرتين**»(١)، وكم عبد يكون خيرًا ممن تعبَّده.

قوله: «عبدي»: العبد هو المعبَّد المذلل الخاضع.

قوله: «أمتي»: والأمة: بمعناه، غير أن هذا يقال للذكر وهذه تقال للأنثى.

وهذه المسألة من المسائل العظام التي ارتكب الناس فيها جرم عظيم، يعني العبودية، وذلك أنهم حرموها، وهذا من تحريم الحلال الذي أحله الله ﷻ، فمن ارتكب ذلك عالمًا عارفًا فإنه يكون كافرًا خارجًا من الدين الإسلامي، أقصد تحريم العبودية كون العبيد يمتلكون ويباعون ويشترون.

---

(١) رواه البخاري رقم (٢٥٥٠)، ومسلم رقم (١٦٦٤) من حديث ابن عمر.

ولكن أصل العبودية الكفر، فإذا وجود الجهاد من المسلمين وجدت العبودية، وإذا لم يوجد الجهاد فلا عبودية إلا بالظلم والتعدي.

والظلم قد يحمل على الظالم ويعمل بالأمر الظاهر، كما جاءت السُّنَّة بذلك، فهذا سلمان ﷺ بيع ظلمًا وعدوانًا على أنه رقيق وهو ليس برقيق هو حر، فجَرَت عليه العبودية، فقال له رسول الله ﷺ: كاتب، والمكاتبة هي: أن يشتري نفسه بأنجم محدودة وأموال محددة.

✍ قال المؤلف رحمه الله: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يقل أحدكم: أطعم ربك، وضِّئ ربك، وليقل: سيدي مولاي، ولا يقل أحدكم: عبدي وأمتي، وليقل: فتاي وفتاتي وغلامي»[1].

قوله: «في الصحيح»: ومقصوده في الصحيح: إما أن يكون قصده في الحديث الصحيح فلا يكون مقيدًا بكتاب وهذا هو الظاهر، أو أن يكون قصده أحد الصحيحين.

والحديث هذا في الصحيحين، فيتعين حمله على المعنى الأول، أنه يقصد في الحديث الثابت الصحيح السند عن رسول الله ﷺ، فقوله في الصحيح يفيدنا أن هذا حكم ملزم لأن الحديث ثابت لا شك فيه، فيبدأ به في أول الأمر يقول: أنه يجب أن تلتزم لأنه لا إشكال في ثبوته فهو صحيح. فيكون هذا هو فائدة قوله في الصحيح لأن ما خص كتابًا بعينه.

قوله: «عن أبي هريرة رضي الله عنه»: أبو هريرة اختلف في اسمه كما قال الحافظ على أربعين قولًا، ولكن صحح النووي رحمه الله أن اسمه عبد الرحمن بن صخر فاعتمد ذلك.

---

(١) رواه البخاري رقم (٢٥٥٢)، ومسلم رقم (٢٢٤٩).

والرسول ﷺ هو الذي كناه بهذه الكنية، كل اسم بدأ بأب أو أم فأنه يكون كنية بخلاف اللقب، فإن اللقب يدل علىٰ التنقص، ولهذا نهىٰ الله ﷻ عن التنابز بالألقاب؛ لأنها تغضب الناس وتسوؤهم.

وأبو هريرة رضي الله عنه هو أكثر الصحابة حديثًا عن رسول الله ﷺ، ولهذا توجهت إليه الطعون من أهل البدع والكفر، ولا سيما الرافضة فإنهم كثيرًا ما يطعنون فيه ويلعنونه ويقدحون في أحاديثه وأنه كذب، ويقولون: كيف مثلًا أسلم في السنة السابعة من الهجرة وروىٰ كل هذه الأحاديث؟

وقد وجد في وقته رضي الله عنه من يطعن عليه من المنافقين، وذكر ذلك كما في صحيح البخاري يقول: إن الناس كانوا يقولون أكثر أبو هريرة وإني كنت ألزم رسول الله ﷺ بشبع بطني حين لا آكل الخمير ولا ألبس الحبير ولا يخدمني فلان ولا فلانة، وكنت ألصق بطني بالحصباء من الجوع، وإن كنت لأستقرىء الرجل الآية هي معي كي ينقلب بي فيطعمني، وكان خير الناس للمساكين جعفر بن أبي طالب كان ينقلب بنا فيطعمنا ما كان في بيته، حتىٰ إن كان ليخرج إلينا العكة التي ليس فيها شيء فنشقها فنلعق ما فيها[1]. وفي رواية: قلت: يا رسول الله إني أسمع منك حديثًا كثيرًا أنساه؟ قال: «**أبسط رداءك**»، فبسطته، قال: فغرف بيديه ثم قال: «**ضمه**»، فضممته فما نسيت شيئًا بعده[2]. ثم يقول أيضًا: حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين، فأما أحدهما فبثثته. وأما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم[3].

يقول بعض العلماء: المقصود بذلك الذي لو بثه أحاديث الفتن التي فيها أسماء بعض الناس من الأمراء، وأنه لو صرح بذلك قتلوه.

(١) رواه البخاري رقم (٣٧٠٨).
(٢) رواه البخاري رقم (١١٩).
(٣) رواه البخاري رقم (١٢٠).

وسئل بعض العلماء عن هذا فقال: لو حدثكم أنكم تقتلون خليفة رسول الله ﷺ لقتلتموه، هذا ثابت من أحاديثه وغيرها.

وفي صحيح مسلم أنه قال لرسول الله ﷺ: ادع الله أن يحببني أنا وأمي إلىٰ عباده المؤمنين ويحببهم إلينا، قال: فقال رسول الله ﷺ: «**اللهم حبب عُبيدك هذا؛ -يعني: أبا هريرة- وأمه إلىٰ عبادك المؤمنين وحبب إليهما المؤمنين**»، «**فما خُلق مؤمن يسمع بي ولا يراني إلا أحبني**»[(١)]، فليس في الأرض مؤمن إلا وهو يحبه بدعوة رسول الله ﷺ، وله فضائل كثيرة رضي الله عنه وهو من سائر الصحابة، وكل الصحابة قد اختارهم الله لصحبة رسوله ﷺ فهم كما قال ﷺ: «**خير الناس قرني**»[(٢)]، خير الناس بعد الأنبياء فمن الخذلان والخسارة وعلامة الشقاء كون الإنسان يبغض صحابة رسول الله ﷺ ويطعن فيهم، وهذا لا يكون إلا من أهل الكفر وأهل العداوة لرسول الله ﷺ ولدين الله، لأنهم هم الذين نقلوا الدين عن رسول الله ﷺ، فهم الواسطة بين الأمة وبين رسول الله ﷺ، فإذا كانت الواسطة مطعون فيها فالدين غير صحيح، فهم يعرفون هذا تمامًا، ولهذا كان مذهب الرافضة ملجأ لكل مبتدع وكل زنديق وكل كافر مثل: النصيرية والدروز والإسماعيلية وغيرهم الذين يقول فيهم شيخ الإسلام: هم أكفر من اليهود والنصارىٰ.

والذين ألفوا في النحل أخرجوهم من الثنتين والسبعين قالوا: ليس هؤلاء من الأمة الذين قال فيهم الرسول ﷺ: «**وستفترق الأمة علىٰ ثلاث وسبعين فرقة**»، لأن هذه الثلاث والسبعين فرقة هي أمة الإجابة التي استجابت لرسوله ﷺ فهم مسلمون وإن كانوا من أهل الوعيد، ولهذا قال في رواية الترمذي: «**كلها في النار إلا**

---

(١) رواه مسلم رقم (٢٤٩١).

(٢) رواه البخاري رقم (٢٦٥٢)، ومسلم رقم (٢٥٣٣).

واحدة»، قيل: من هي؟ قال: «**من كان علىٰ مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي**»(١).

فقوله: «**كلها في النار**»؛ يعني: اثنتين والسبعين كلها في النار ويبقىٰ واحدة فقط، ومن العجائب أن بعض من لم يعرف الحديث أنه أثبته في كتبه العكس فقال: «**كلها في الجنة إلا واحدة**».

قوله في الحديث: «**لا يقل أحدكم**».

الرسول ﷺ هو أكمل ناصح، فإذا نهىٰ عن شيء أرشد إلىٰ ما يقوم مقامه، كذلك إذا ذكر شيئًا يحتاج إليه أرشد إلىٰ ما هو أكمل كما قال ﷺ لما سئل عن ماء البحر، قال: «**هو الطهور ماؤه الحل ميتته**»(٢)، فأضاف أن ميتته حلال لأنها قد يحتاج إليها وهذا كثير في كلامه ﷺ.

وهذا النهي قال: «**لا يقل أحدكم**» أحدكم: يعم الأمة كلها، الخطاب إذا كان موجه إلىٰ واحد من الأمة فهو للأمة كلها سواءً كان المخاطب هو الله ﷻ أو الرسول ﷺ، لا فرق في هذا.

وهذا الذي ذكره علىٰ سبيل المثال، وإلا المقصود أنه لا يقول لفظ العبد ولا لفظ الرب، يعني: السيد الذي يملك المملوك لا يقل عبدي، وذلك أن العبودية يجب أن تكون لله وحده ولا يجوز أن يشارَك فيها، ولهذا لا يجوز أن يسمىٰ الإنسان عبدًا لمخلوق التعبيد بالاسم فقط، فإن هذا من المحرمات، لأن هذا من حق الله ﷻ، فهو المعبود وحده ولا يجوز أن يُعبد غيره.

وهذا يدخل في صيانة التوحيد وحماية حماه، لأن المعنىٰ ليس مقصودًا لأن الإنسان إذا قال العبد فهو يقصد عبودية الرق، وليس عبودية الذل والخضوع

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد في المسند رقم (٨٧٣٥)، والترمذي رقم (٦٩) وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والسجود، والعبادة هذا لا أحد يقوله، ومع ذلك نهىٰ حتىٰ لا يحصل الاشتراك ولو باللفظ؛ يعني: يكون هذا صيانة للتوحيد ويكون تأدبًا مع الله ﷻ كما مر معنا فيما هو نظير هذا في الأبواب السابقة.

فهذا مثال لقوله: «**أطعم ربك وضئ ربك**»، وفي زيادة: «**اسق ربك**» كأنه اختصر لأن هذا مفهوم من ذلك.

ولكن هذا المثال، فلو قال له مثلًا: أجب ربك، أو اذهب إلىٰ ربك وما أشبه ذلك فالحكم واحد، والمقصود أنه لا يقول ربك هذا للمخاطب الذي يخاطب المملوك أو السيد الذي يخاطب مملوكه، والواجب أن يقول: فتاي أو غلامي، هذا هو الذي أرشد إليه الرسول ﷺ.

وإذا كانت أنثىٰ يقول: فتاتي وأَمتي، مع أنه جاء أن لفظ الأمة أيضًا يكون يقصد به العبد، كما في دعاء النبي ﷺ يقول: «**ما أصاب أحدًا قط هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك**»(١).

فهي تضاف إليه.

أمّا ما جاء في صحيح مسلم في هذا الحديث في رواية أنه قال: «**ولا يقل: مولاي فكلكم مولاكم الله**»(٢)، فهذه بيَّن مسلم رحمه الله أنه اختلف فيها علىٰ الزهري فمنهم من أثبتها ومنهم من نفاها، والصحيح أن هذه الرواية مرجوحة لأنه لا يمكن الجمع بينهما، وبيَّن هذا حيث أن النسخ غير معلوم في هذا؛ يعني: تقدم التاريخ فلا بد من الترجيح والراجح أنها مرجوحة.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم (٣٧١٢) من حديث ابن مسعود.

(٢) رواه مسلم رقم (٢٢٤٩)، ولا يقل العبد لسيده مولاي، وزاد في حديث أبي معاوية: فإن مولاكم الله ﷻ.

قال: «**وليقل: مولاي**» وهو معارض له، وهذا أرجح لأنه متفق عليه ولا خلاف فيه، وذلك كما بيَّن مسلم أنه مختلف فيه، أما ما جاء في حديث عمر ﷺ حديث جبريل ﷺ في أشراط الساعة: «**وأن تلد الأمة ربتها**»[1]، فهنا قال: «**ربتها**» فهل يكون هذا معارض لقوله: «**أطعم ربك**»، نقول: لا معارضه لأمرين:

أحدهما: أنه مؤنثة وفرق بين التأنيث والتذكير، وإن كانت آلهة الكفار كلها مؤنثة كما ذكر الله ﷻ ذلك عائبًا عليهم، فأخبر أنها أسماء لا حقيقة لها.

الثاني: أن الإضافة للعموم، وهذا يكون خاصًا بالمكلف أما غيره من الأموال والحيوانات وغيرها فليس هذا واردًا فيها؛ يعني: تقول: رب الدار، رب الكتاب، رب الدابة كما قال ﷺ في ضالة الإبل: «**ما لك ولها معها سقاؤها وحذاؤها ترد الماء وتأكل الشجر دعها حتىٰ يجدها ربها**»[2]، فيكون هذا خاص بالمكلفين، لأنهم هم أهل العبودية الذين تعبدهم الله ﷻ، أما الحيوانات وغيرها فهي غير مكلفة فليست مأمورة بالعبادة.

وقوله: «**وضيء ربك**»: وضيء: من الوضوء، والوضوء يطلق علىٰ التنظيف وتغسيل اليدين وما أشبه ذلك من التنظيف، فنهىٰ ﷺ أن يخاطب المخلوق بأنه رب، وإن كان هذا بالإضافة؛ لأن الإضافة لا تدل علىٰ التخصيص في مثل هذا.

قوله: «**وليقل: سيدي ومولاي**»: هذا بالنسبة للعبد، وفي هذا دليل علىٰ جواز إطلاق السيد علىٰ الإنسان، وهذا فرد من أفراد الأدلة، وسوف يأتينا في حديث عبد الله بن الشخير أن الرسول ﷺ: «**نهىٰ عن إطلاق السيد**» لما قالوا: «**أنت سيدنا وابن سيدنا**» نهاهم قال: «**قولوا بقولكم أو بعض قولكم أنا عبد الله ورسوله، فقولوا:**

(١) رواه مسلم رقم (٨).

(٢) رواه البخاري رقم (٢٤٣٨)، ومسلم رقم (١٧٢٢) من حديث زيد بن خالد ﷺ.

عبد الله ورسوله، لا أحب أن ترفعوني فوق منزلتي» الحديث[١].

فلا بد من الجمع بين هذا وهذا، والجمع أنه إذا دل هذا الإطلاق على الترفع والاستعلاء والكبر وازدراء الآخرين فإنه محرم لا يجوز إطلاقه كما قال ﷺ: «**لا تقولوا للمنافق: سيد فإنه إن يك سيدًا فقد أسخطتم ربكم** ﷻ»[٢]. والسيد يطلق على معاني عدة: على الرئيس المقدم في قومه، وعلى الكريم، وعلى الحليم الذي لا يستنفره الغضب، وعلى الزوج وغير ذلك، وقد ثبت أنه ﷺ صعد بالحسن بن علي ابن بنته فاطمة رضي الله عنهم المنبر فقال: «**ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين**»[٣]، فوقع كما أخبر ﷺ والمقصود هنا قوله: «**سيد**».

وفي الصحيحين في غزوة بني قريظة لما نزلوا على حكم سعد: فأرسل النبي ﷺ إليه فجاء فقال: «**قوموا إلى سيدكم** -أو قال: **خيركم**-»[٤]، هذا دليل على إطلاق السيد على الكبير المطاع المتقدم، وفي القرآن يقول الله ﷻ في قصة زكريا: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩]، على هذا يكون السيد على حسب المعاني التي يراد بها، فإطلاقه يكون جائزًا ويأتي الكلام على هذا إن شاء الله.

وهناك فرق بين أن يأتي السيد بالألف واللام أو «سيد»، وقد جاء في تفسير ابن عباس رضي الله عنهما على قوله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: ٢] قال: هو السيد الذي قد كمل في سؤدده[٥]. مع قول الرسول ﷺ: «**السيد الله**»؛ يعني: الكامل في السؤدد.

لكن هل يجوز أن يطلق هذا الاسم على الله، تقول: الله السيد؟ لا بد من ثبوته

(١) يأتي تخريجه إن شاء الله تعالى.

(٢) رواه أبو داود رقم (٤٩٧٧) من حديث بريدة رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاري رقم (٣٦٢٩) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

(٤) رواه البخاري رقم (٤١٢١)، ومسلم رقم (١٧٦٨) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٥) تفسير ابن كثير (٨/ ٥٢٨).

اسمًا لله ﷻ لا وصفًا.

أما: المولىٰ، فله إطلاقات كثيرة، كما قال النووي: يطلق علىٰ ستة عشر معنًىٰ، وقد يكون أكثر منها: الناصر، والمالك، وابن العم القريب، وغير ذلك من الإطلاقات التي جاءت بها اللغة.

قوله: «ولا يقول أحدكم: عبدي وأمتي»؛ يعني: المالك لا يقول: هذا عبدي وهذا يدخل فيه المالك وغيره من الناس، فلا يقال: هذا عبد فلان فهذا لا يجوز لنهي الرسول ﷺ، فالعبودية لله ﷻ يجب أن تخلص لله ﷻ ولا يشاركه فيها مخلوق هذا هو السبب كما سبق.

وكذلك الأمة «أَمتي»، لأن الأمة بمعنىٰ العبد. فكل النساء إماء الله، ولهذا جاء في الحديث الصحيح: «**لا تمنعوا إماء الله مساجد الله**»[1]؛ يعني: النساء إذا أردنَ أن يصلينَ في المسجد فلا يمنعن.

قال: «وليقل: فتاي وفتاتي»: الفتىٰ هو: الشاب سواء كان مملوكًا أو غير مملوك، والفتاة كذلك الشابة. وهذا لأن الغالب أن المملوك يكون بهذه الصفة أنه فتىٰ أو فتاة؛ لأن الكبير خدمته ضعيفة فلا يصلح أن يكون خادمًا.

وكذلك قوله: «غلامي» بدل عبدي. فهذا إرشاد رسول الله ﷺ.

والمناسبة في هذا ظاهرة وهي: صيانة حق الله ﷻ أن يشاركه المخلوق فيه، وهذا حق الله علىٰ عباده، يجب أن يكون خالصًا له في المعنىٰ والاسم، وإن كان أنه المعنىٰ غير مقصود للمخَاطِب في هذا أو المخَاطب، ولكن كل هذا صيانة للتوحيد وحماية أن يدخل من جوانبه فيه شيء يقدح فيه.

(١) رواه البخاري رقم (٩٠٠)، ومسلم رقم (٤٤٢) من حديث ابن عمر.

✍ **قال المؤلف رحمه الله: فيه مسائل:**

۞ **الأولىٰ: النهي عن قول: عبدي وأمتي.**

النهي هنا للتحريم، ويجب أن يعرف أن النهي الذي كان في صدر الإسلام أنه ليس فيه نهي للكراهة لا يعرف فهذا اصطلاح حادث، فالغالب أنه إذا جاء أنه يراد به التحريم، ولهذا جاء في القرآن بعد ذكر عدد من المحرمات والكبائر قوله تعالىٰ: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء: ٣٨]، وهذا المكروه من أعظم المحرمات. ولكن الاصطلاح لا مانع منه وهو اصطلاح قيد بالأدلة فهم يقولون: لا يصار إلىٰ الكراهة إلا بدليل شرعي، فإذا كان مقيد فلا مانع من ذلك.

۞ **الثانية: لا يقول العبد لسيده: ربي، ولا يقال له: أطعم ربك.**

هذا قد يرد عليه إشكال كما في قصة يوسف عليه السلام: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٤٢]، فكيف يجاب عن هذا؟ لأنه مقصوده سيده؟

الجواب علىٰ هذا من ثلاثة وجوه:

أحدها: أن هذا في شرع من قبلنا فيكون شرعنا ناسخ لهذا، لأن هذا حكاية عن قصة واقعة سابقة.

الثاني: وقد يتعلق به الذي يقول أن النهي للكراهة فيقول هذا يحمل علىٰ التنزه يعني النهي هنا، والآية تدل علىٰ الجواز، ولكن الأول هو الراجح.

الثالث: قد يقال أن الخطاب بما يعرفه الإنسان قد يضطر الإنسان إليه فيلجأ إلىٰ هذا ويخاطب وإن كان غيره هو المتعين.

❁ **الثالثة: تعليم الثاني قول: سيدي ومولاي.**

يعني: المملوك، وهذا ليس بخاص بالمملوك ولا بالمالك، فهو لعامة الناس كلهم، فلا يقال: هذا عبد فلان، أو يقال: هذا رب فلان، فهو داخل في النهي.

❁ **الرابعة: التنبيه للمراد، وهو تحقيق التوحيد حتى في الألفاظ.**

بالألفاظ يعني أن المعاني غير مقصودة، وإنما قصد أن تطهر الألفاظ وتنزه عن مجرد المشاركة في اللفظ فقط. فمعنى هذا أنه لو قصد المعنى فإن الأمر يكون كبير.

وفي هذا كذلك أنه يؤتى بالعوض الذي ليس فيه محذورًا، وهذه عادة الرسول ﷺ إذا نهى عن أمر من الأمور يخبرهم في الشيء الذي لا محذور فيه ويكون بديلًا عن ذلك.

الباب الخامس والخمسون

✍ **قال المؤلف رحمه الله: باب لا يرد من سأل بالله.**

هذا مطلق، وهذا الإطلاق لا بد من تقييده، والتقييد بشرط أن لا يسأل منكرًا، ولا قطيعة رحم، ولا ما يضر المسئول، يعني يسأل ماله أو شيئًا لا يستطيع أن يعطيه، فهذا يرد للأدلة الأخرىٰ التي جاءت في هذا.

والسبب في هذا التعظيم لله جل جلاله، وأنه يجب أن يكون لله توقير في قلب العبد، وكذلك السائل يجب أن يجتنب هذا لأن هذا قد يوقع في الإثم. فإذا سأل السائل بالله سواءً كان سأل مالًا أو سأل غير ذلك من الأمور التي يملكها المسئول ولا تضره ولا يترتب علىٰ فعلها محرم، فإنه يجاب ويبقىٰ الجواب هل هو واجب أو أنه مستحب؟ الظاهر أنه يجب بشرطه، فإن كان المسئول يضره ذلك ثم أقدم علىٰ ذلك يكون السائل آثمًا.

✍ **قال المؤلف رحمه الله: عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من سأل بالله فأعطوه، ومن استعاذ بالله فأعيذوه، ومن دعاكم فأجيبوه، ومن صنع إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتىٰ تروا أنكم قد كافأتموه»، رواه أبو داود والنسائي بسند صحيح[(١)].**

قوله: «**من سأل بالله فأعطوه**»: هذا أمرٌ بأن يعطىٰ السائل. وقد جرت العادة أن السائل يسأل شيئًا يليق به أو يطلق المسألة؛ يعني: مجرد الشيء فقط، فقد يسأل شيئًا معينًا ولكنه شيء يسير، أما إذا سأل الشيء الذي يجحف بالمسئول أو يضره في

---

(١) رواه أبو داود رقم (١٦٧٢)، والنسائي رقم (٢٥٦٧).

ماله أو في غير ذلك، فإن هذا لا يجوز ويكون السائل نفسه واقعًا في الحرام.

مع أن السؤال في الأصل محرم سؤال المخلوق، ولهذا جاء الوعيد علىٰ من يسأل الناس تكثرًا. وقد جاء تقييد جواز المسألة في ثلاث حالات فقط كما في حديث قبيصة قال: تحملت حمالة فأتيت رسول الله ﷺ أسأله فيها فقال: «**أقم حتىٰ تأتينا الصدقة فنأمر لك بها**، قال: ثم قال: **يا قبيصة إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمل حمالة فحلَّت له المسألة حتىٰ يصيبها ثم يمسك، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلَّت له المسألة حتىٰ يصيب قوامًا من عيش** -أو قال: سدادًا من عيش-، **ورجل أصابته فاقة حتىٰ يقوم ثلاثة من ذوي الحجا من قومه لقد أصابت فلانًا فاقة فحلت له المسألة، فما سواهن من المسألة يا قبيصة سحتًا يأكلها صاحبها سحتًا**»(١).

فإذا تحمل الإنسان حملات في سبيل الإصلاح بين الناس، كأن تتخاصم طائفتان أو رجلان فيصلح بينهما ويتحمل مالًا يصلح بينهما، فمثل هذا يجوز أن يسأل وإن كان غنيًا، والحكمة في هذا حتىٰ لا ينسد باب الإصلاح لو أنه ترك الناس في مثل هذا يبذلون أموالهم يوشك أنه لا يقدم أحد علىٰ الإصلاح فإذا عرفوا أن المال الذي يتحملونه يكون مشتركًا بين المسلمين كثر فعل الإصلاح، أو يصاب بفاقة أو جائحة كما مر في الحديث.

وما عدا ذلك فالمسألة سحت، فهي نار يتكثر به الإنسان أو يقلل، ومن سأل الناس تكثرًا فإنه يأتي يوم القيامة وليس علىٰ وجهه مزعة لحم(٢)، قد ذهبت المسألة بلحم وجهه، وجاء أنه يسأل نارًا ويأكل نارًا.

---

(١) رواه مسلم رقم (١٠٤٤).

(٢) رواه البخاري رقم (١٤٧٤)، ومسلم رقم (١٠٤٠) عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ: «**ما يزال الرجل يسأل الناس حتىٰ يأتي يوم القيامة ليس في وجهه مزعة لحم**».

ومعنىٰ ذلك أن مسألة الناس محرمة، يقول شيخ الإسلام ﵀: الحكمة في هذا صيانة المسلم أن يذل ويخضع قلبه ويتعلق بغير الله، لأن المعطي إذا أعطىٰ المال وبذله فإنه يأخذ شعبة من القلب، من عبودية القلب.

القلوب جُبلت علىٰ حب من أحسن إليها، ولهذا يقال: تفضل علىٰ من شئت تكون سيده، وافتقر إلىٰ من شئت تكون عبده، فالفقير قد يستعبد. وهذا من حكمة الشرع وصيانته للمسلم.

قوله: «**ومن استعاذ بالله فأعيذوه**»: أما الاستعاذة: فكأن يتعوذ بالله من شرِّك يقول: أعوذ بالله من شر فلان، وأنت تستطيع أن تمنع فلانًا مثل ابنك أو أخوك وما أشبه ذلك، فهذا يجب عليك أن تعيذه، ولهذا لما قالت الجوينية التي تزوجها الرسول ﷺ ودخل عليها قالت: أعوذ بالله منك. قال: «**عذت بعظيم إلحقي بأهلك**»[1]، فتركها صلوات الله وسلامه عليه، وكانت جاهلة في هذا، ولهذا كانت تقول: أنا أشقىٰ الناس[2]. فالرسول ﷺ عاذها.

والعياذ معناه: هو الملجأ إلىٰ ما يكون عاصمًا، ولهذا يسمىٰ الحصن المنيع: مَعاذ، والجبل يسمىٰ: معاذ، وليس أعظم من العياذ بالله ﷻ، فمن استعاذ به فقد استعاذ بعظيم.

ويجب أن يكون الله ﷻ في قلب العبد عظيمًا ويقدره حق قدره فإذا استعيذ عنده بالله يجب أن يعيذ المستعيذ، ولهذا قال: «**فمن استعاذ بالله فأعيذوه**».

قوله: «**ومن دعاكم فأجيبوه**»: والدعوة هنا مطلقة، سواءً لطعام أو لغير طعام، ولا فرق بين كونه لطعام وليمة عرس أو غيرها، وهذا أيضًا ليس علىٰ إطلاقه، إذا

(١) رواه البخاري رقم (٥٢٥٤) من حديث عائشة ﵂.
(٢) رواه البخاري رقم (٥٦٣٧)، ومسلم (٢٠٠٧).

كان الإنسان يعرف أن الدعوة تشتمل علىٰ منكر فإنه لا يجب إلا إذا كان يستطيع إزالته، أو كانت الدعوة تضره في أمره الذي لا بد منه، ولكن يجب أن يبين هذا حتىٰ لا يكون في نفس الداعي شيء.

أما إذا لم يكن شيء من ذلك، فإن إجابة الدعوة علىٰ الصحيح من أقوال العلماء أنها واجبة، وسواءً كانت إجابة الدعوة لطعام جعل مثلًا للإكرام أو أنها وليمة عرس وإن كانت وليمة عرس فهي آكد؛ يعني: الإجابة لأنه جاء فيها أن من امتنع فقد عصىٰ أبا القاسم ﷺ مع أنها شر الطعام لأنه يقول ﷺ: «**شر الطعام طعام الوليمة يمنعها من يأتيها ويدعىٰ إليها من يأباها، ومن لم يجب الدعوة فقد عصىٰ الله ورسوله**»(١).

ومثل هذا الإقسام، كون الإنسان يقسم علىٰ الآخر فإنه يجب أن يبر قسمه، غير أن هذا كما ذكر شيخ الإسلام في التفصيل يقول: إن كان لأجل الإلزام فهذا يجب، أما إذا كان لأجل الإكرام يقسم عليه ليكرمه فهذا ليس واجبًا والأدلة علىٰ هذا كثيرة، فأبو بكر لما ذكر الرسول ﷺ الرؤىٰ قال: دعني أفسرها، قال: فسِّرها ففسرها، ثم قال: فأخبرني يا رسول الله بأبي أنت أصبت أم أخطأت؟ قال النبي ﷺ: «**أصبت بعضًا وأخطأت بعضًا**». قال: فوالله لتحدثني بالذي أخطأت، قال: «**لا تقسم**»(٢) فلم يجبه. فإذا كان هناك مصلحة لا يجيبه.

علىٰ هذا يكون «**من دعاكم فأجيبوه**»؛ يعني: أن الدعوة يجب أن تجاب، ولكن إذا عرف من حال الداعي أنه ليس جادًا وأنه ليست دعوته إلا من باب المجاملة فهذا لا يجب، إذا عرف ذلك فلا تجبه.

---

(١) رواه مسلم رقم (١٤٣٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري رقم (٧٠٤٦)، ومسلم رقم (٢٢٦٩).

أما إذا كان في دعوته صادقًا فإنه يجب أن يجاب، وهذا كثيرًا ما يدعو من باب المجاملة إتباعًا للعادة التي جرىٰ عليها الناس، فإذا عرف الإنسان ذلك فإنه لا يجبه.

وقوله: «**ومن صنع إليكم معروفًا فكافئوه**»: كل هذه الأوامر تدل علىٰ الوجوب، فقوله: «**معروفًا**» هذا مطلقًا؛ يعني: أي معروف، والمعروف هو ما فيه نفع، سواءً كلام أو شفاعة أو مال أو تقديم أي شيء يكون فيه نفع، فيكافأ.

والمكافأة الظاهر أنها مثله، كافئوه يعني: أعطوه شيئًا مثلما ما صنع، فإن كان معنًىٰ تعطيه مثل ذلك، وإن كان مالًا تعطيه مثل ذلك، والسنة أن يكون أفضل كما كان الرسول ﷺ يقبل الهدية ولكنه يكافئ عليها أفضل منها.

قوله: «**فإن لم تجدوا ما تكافئونه**»: وهذا هو الذي ثبت بخط المؤلف «**ما تكافئوه**» وهذا ثابت في الأصول، أصول الحديث.

يقول الطيبي في شرحه المشكاة علىٰ هذا: سقطت النون بلا ناصب ولا جازم، إما للتخفيف وإما سهوًا من الكاتب، فإثباتها هنا خطأ؛ لأن إثباتها هنا زيادة من الطابع.

«**فإن لم تجدوا ما تكافئوه فادعوا له، حتىٰ تروا**».

يجوز أن تقول: تُروا بالضم بمعنىٰ تظنوا، أو «تروا» بالفتح بمعنىٰ تيقنوا وتعلموا أنكم قد كافأتموه.

إذا كان بالدعاء، فليس فيه حد معين، ولكن هذا يرجع إلىٰ الحال غير أنه جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال: «**من صنع إليه معروف فقال لفاعله: جزاك الله خيرًا فقد أبلغ في الثناء**»[1]، ولا بد أن يكون الدعاء من القلب وبصدق ويرجىٰ أن يكون مجابًا.

وهذا إرشاد من الرسول ﷺ للطريق الواسع الذي لا يعجز أحد من الناس عنه،

(١) رواه الترمذي رقم (٢٠٣٥) من حديث أسامة بن زيد.

أما المكافأة بالمال فقد يعجز عنها بعض الناس، فإذا عجز عنه فليلجأ إلىٰ ربه ﷻ ويسأله أن يتولىٰ مكافئة هذا المحسن، ويدعو له حتىٰ يرىٰ أنه قد كافئه.

المناسبة في ذكر هذا في كتاب التوحيد، هو مثل ما مضىٰ:

أولًا: تعظيم الله ﷻ وتقديره حق قدره بحيث أنه إذا استعيذ به أعيذ، وإذا سأل به يعطىٰ تعظيمًا لله ﷻ وإكبارًا له -تعالىٰ وتقدس- وليس للسائل فقط، وصيانة لتوحيد الإنسان في هذا.

ثانيًا: أن المكافأة علىٰ المعروف فيها صيانة لتوحيد العبد حيث أن قلب المؤمن يجب أن يكون متعلقًا بالله ﷻ، وأن لا يكون في قلبه شعبًا يأخذها بعض المخلوقين، لأن صنيعة المعروف تجعل القلب يميل إلىٰ من صنع المعروف، والمكافأة تزيل ذلك.

ثالثًا: أن المعروف مطلوب ومرغب فيه، فلا بد أنه ينوي بذلك كسب الحسنات.

رابعًا: إغناء السائل عن الغير، وإحسان له، وامتثال لأمر الله، وطلب الزلفىٰ عنده سبحانه.

خامسًا: أن إجابة الدعوة فيها قيام بحق أوجبه الله ﷻ ففيه تكميل للتوحيد.

✍ قال المؤلف ؒ: فيه مسائل:

❁ **الأولى:** إعاذة من استعاذ بالله.

يعني: وجوبًا، فمن استعاذ بالله وجب أن تعيذه، فإن لم تفعل تكون قد ارتكبت ذنبًا وكذلك ما بعده، ولكن هذا يكون مقيدًا بما يكون وفق الشرع.

الثانيـة: إجابة الدعوة.

فإجابة الدعوة واجبة سواءً كانت وليمة عرس أو لا على التفصيل السابق وإذا كان في ماله شبهة إما ربًا أو غير ذلك فإنك تجيبه.

الثالثـة: المكافأة على الصنيعة.

والحكمة في المكافأة وهي مما يتعلق بالتوحيد: المعروف الذي يقدم للإنسان يبعث حب القلب وتعلقه بالذي أحسن إليه، والقلب يجب أن يكون خالصًا لله بتعلقه بالله فينبغي تخليص القلب من هذا، تكافئه حتى ما يكون قلبك له شعبة من العبادة لهذا الذي أحسن إليك، لأنه كما هو معروف: القلوب جُبلت على حب من أحسن إليها، ولهذا شرعت المكافأة، وإذا كانت المكافأة بأكثر فهو أفضل كما كان الرسول ﷺ يفعل يقبل الهدية ولكنه يهدي أفضل منها. وإذا عجز الإنسان عن المكافأة المالية أو المعنوية فإنه يلجأ إلى الدعاء.

الرابعـة: أن الدعاء مكافأة لمن لم يقدر إلا عليه.

يعني بهذا الشرط لمن لم يقدر إلا عليه، أما إذا كان يقدر بالمكافأة بالمثل فإن الدعاء لا يكفي، وليس مكافئة وإنما هو مكافئة للعاجز الذي عجز عن المكافأة بالمثل.

الباب السادس والخمسون

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **باب لا يسأل بوجه الله إلا الجنة.**

لأن الله عظيم ووجهه عظيم، فلا يجوز أن تسأل به الأمور الحقيرة مثل أمور الدنيا، وإنما يسأل بوجهه الشيء العظيم مثل الجنة وما يكون وسيلة إليها كما في الحديث الذي رواه ابن إسحاق وغيره، ورواه البيهقي أيضًا في دعاء الرسول ﷺ في منصرفه من الطائف حين لقي ما لقي، فسأل بنور وجه الله أن لا يحل عليه غضبه، ولا ينزل به سخطه[1]. فهذا من الوسائل إلىٰ الجنة، وكذلك جاء في أدعية الرسول ﷺ الاستعاذة بوجه الله، والسؤال بوجه الله أمور تكون وسائل إلىٰ الجنة.

فالمقصود سؤال الجنة أو ما كان وسيلة إليها، فالجنة عظيمة وهي السعادة التي لا يشبهها سعادة في الدنيا ولا قريب منها، أما أمور الدنيا التافهة فسؤال الله به يدل علىٰ أن هذا السائل لم يعرف الله ولم يقدره قدره فيستحق أن يكون حقيرًا لأنه ما عرف التوحيد، وتوحيد الله لا بد فيه من تعظيمه ﷻ والتأدب معه واجتناب القادح الذي يقدح في معرفته، وفي معاملته، وهذا منها، فكان بذلك مناسبة واضحة لكتاب التوحيد.

قوله: «**لا يسأل**»: لا هذه إما أن تكون للنفي أو للنهي، فإذا كانت للنفي فهو أبلغ لأن النفي معناه النهي؛ يعني: أن هذا لا يقع، ولا يجوز أن يقع من مسلم.

(١) الدعاء للطبراني رقم (١٠٣٦) من حديث عبد الله بن جعفر وفيه: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني علىٰ الناس، أنت أرحم الراحمين إلىٰ من تكلني؟ إلىٰ عدو يتجهَّمني أو إلىٰ قريب ملكته أمري، إن لم تكن غضبان علي فلا أبالي، غير أن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن تنزل بي غضبك، أو تحل علي سخطك، لك العتبىٰ حتىٰ ترضىٰ ولا حول ولا قوة إلا بك».

وهذا النهي هل هو للتحريم أو للتنزيه؟

الظاهر أنه محرم؛ لأن هذا هو الأصل، ثم ذكر الحديث.

قال المؤلف رحمه الله: عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يسأل بوجه الله إلا الجنة» رواه أبو داود[١].

هذا الحديث فيه راو ضعيف، وضعفه ظاهر، ومع هذا اعتمده المؤلف رحمه الله، وهذا من النوادر في هذا الكتاب، لأنه لم يأت معه بشيء ثان، كانت عادته أنه إذا كان الحديث فيه ضعف يضم إليه ما يقويه، إما آية أو حديث آخر.

وقد جاءت أحاديث كثيرة جدًا في أدعية الرسول ﷺ فيها الاستعاذة بوجه الله جل وعلا، ولكن قبل هذا نقول المقصود من هذا أن وجه الله جل وعلا عظيم جدًا فلا يجوز أن يسأل به أمور الدنيا وحطامها والأمور التافهة والأمور التي تكون بين الناس، فإن هذا فيه ابتذال وفيه عدم تقدير لله جل وعلا حق قدره، فإذا وقع الإنسان في ذلك فإن هذا قدح في توحيده لأنه لم يقدر الله حق قدره، ولم يكرم وجهه أن يسأله به الشيء التافه وأمور الدنيا كلها تافهة.

أما الأمور التي تكون وسيلة إلى الجنة ومقربة إليها، أو تكون مثلًا الاستعاذة بوجهه من النار أو ما أشبه ذلك، فإنه داخل في سؤاله بوجهه جل وعلا، لأنه لما نزل قول الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥]، قال رسول الله ﷺ: «**أعوذ بوجهك**». قال: ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥] قال: «**أعوذ بوجهك**»، ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥]. قال رسول الله ﷺ: «**هذا أهون أو هذا أيسر**»[٢].

---

(١) رواه أبو داود رقم (١٦٧١).

(٢) رواه البخاري رقم (٤٦٢٨) من حديث جابر رضي الله عنه.

وكذلك أدعية الرسول ﷺ الكثيرة التي فيها الاستعاذة بوجه الله ﷻ أن بنور وجهه، وقد ذكر ذلك الطبراني رحمه الله في كتابه الأدعية بأسانيدها وكذلك غيره مثل ابن السني والنسائي وغيرهم من الذين ألفوا في عمل اليوم والليلة وفي الأدعية.

وما مر في حديث قصة الطائف ليس فيه مخالفة لأن حلول الغضب ونزول السخط مما يمنع من دخول الجنة، فهذا مثل قوله ﷺ: «**أسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل**»[١]، فالشيء الذي يقرب إلىٰ الجنة يسأل بوجه الله، وكذلك يستعاذ به الشيء الذي يحول بينه وبين النار.

ووجه إدخال هذا الباب في كتاب التوحيد: أن الذي يسأل بوجه الله الأمور التافهة يدل علىٰ أنه لم يعرف الله المعرفة التي يحصل بها تحقيق التوحيد، ولم يقدره ويعظمه عظمته التي يحصل بها حب الله واتباع أمره، وتحقيق توحيده كذلك.

أما إثبات الوجه فهو أمر زائد علىٰ هذا؛ يعني: إثبات الصفة لأنه قال في المسألة الثانية: فيه إثبات صفة الوجه. وهذا لأن كثيرًا من أهل البدع خالفوا هذا الأمر وفسَّروا الوجه بالذات، وقالوا: المقصود بوجهه ذاته، وهذا مخالف للغة ومخالف لمقصود الحديث، فلا يسمىٰ الشيء ذاتًا، يعني ما يقال: وجه الرجل ذاته، أو يده ذاته، أو رجله ذاته، وما أشبه ذلك، فهذا تقوّل علىٰ اللغة وتأويل باطل.

وقد جاءت نصوص كثيرة في إثبات الوجه لله ﷻ، ومن أبلغ الأشياء التي تثبت ذلك، ما ثبت في حديث الرسول ﷺ ودعائه كما قال في الدعاء المشهور: «**وأسألك لذة النظر إلىٰ وجهك**»[٢]، فهل يقال وأسألك لذة النظر إلىٰ ذاتك هذا غير صحيح.

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم (٢٥٠٦٣)، وابن ماجه رقم (٣٨٤٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه أحمد في المسند رقم (١٨٣٢٥)، والنسائي رقم (١٣٠٥) من حديث عمار بن ياسر.

وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢] من البهاء والحسن والجمال والنعيم ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٣]؛ يعني: تنظر إليه. والنظر يكون لوجهه ﷻ، وليس لذاته، لأنه لا يحاط به ﷻ.

وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]، فهذا نص صريح في إثبات الوجه؛ لأنه جاء وصفه؛ يعني: وصف وجه الرب ﷻ بـ (ذو) لأنه لو كان وصفًا للرب لقيل (ذي)، ولكن لما قال: (ذو) صار وصفًا للوجه، لأن ربك مضاف فلا يصح أن يقال أن (ذو) أنه وصف للرب، فلا بد أن يكون وصفًا للوجه.

فيكون هذا الحديث معناه أنه لا يسأل بوجهه إلا الباقي، الذي هو غاية المطالب أو يستعاذ بوجهه من الشيء الذي يحول بينه وبين هذا العظيم الذي هو الجنة، والذي يسأل بوجه ربه أمور الدنيا، أو يسأل الناس؛ يعني: هذين المعنيان كلاهما منهي عنه، مثل أن يقول: أسألك بوجه الله أن تعطيني كذا أو كذا أو تفعل كذا وكذا.

وقد جاء في الحديث(١) أن الذي يسأل بوجه الله ولا يعطي أنه ملعون -نسأل الله العافية-.

والمقصود أن كلا المسألتين داخل في هذا؛ يعني: أن يسأل أمرًا من أمور الدنيا أو يسأل الناس بوجه الله ﷻ، والنهي هنا للتحريم وهذا هو المناسب، ويكون قادحًا في التوحيد إذا وقع الإنسان فيه.

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير رقم (٩٤٣) عن أبي عبيد مولىٰ رفاعة بن رافع: أن رسول الله ﷺ قال: «ملعون من سأل بوجه الله، وملعون من سئل بوجه الله فمنع سائله»، وفي رواية في الدعاء للطبراني رقم (١٩٩٣): «ملعون من سأل بوجه الله ﷻ، وملعون من سئل بوجه الله ﷻ، ثم منع سائله ما لم يسأل هجرًا».

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **فيه مسائل:**

❁ **الأولى:** إثبات صفة الوجه.

مقصوده في هذا الرد علىٰ منكري صفات الله جل وعلا كالأشاعرة مثلًا الذين يزعمون أنهم هم أهل السُّنَّة، ومن عداهم مشبهة أو ملاحدة، وهكذا أهل البدع شأنهم يعتقدون أنهم هم الذين حازوا الخير فقط وغيرهم ضال هالك، وكل صاحب بدعة يكون هذا نهجه غالبًا، وهذا اعتقاده مع أنه يكون هو الضال، وهو الذي ابتعد عن الحق، وهؤلاء علىٰ هذا من أثبت صفات الله جل وعلا علىٰ ظاهر النص الذي دلت عليه اللغة ودلت عليه النصوص الأخرىٰ والأحوال يجعلونه مشبهًا، والمشبه عندهم كافر، ولهذا أوجبوا التأويل أو التفويض، قالوا أن نصوص الصفات ظاهرها التشبيه فيجب أن تؤول أو تفوض والتفويض معناه الجهل، وأنه لا يعرف لها معنىٰ؛ يعني: أنها مجرد ألفاظ لا معاني لها، وهذا لا يمكن أن يكون، فالتفويض أشر من التأويل.

وعلىٰ كل حال إثبات الصفات لله جل وعلا كما سبق أنه توحيد لا بد منه، ومن لم يفعل ذلك فهو معرض لعقاب الله، ولم يقم بالتوحيد، فتوحيد الله جل وعلا يكون بأفعاله وبأوصافه وبأسمائه، ويكون كذلك في حقه الذي أوجبه علىٰ عباده، فإن لم يقم العبد في هذه الأمور فهو إما معرض لعقاب الله، أو أنه لم يأت بما وجب عليه فيستحق النار، ولا بد من التوحيد ولا يمكن دخول الجنة إلا بالتوحيد، والتوحيد هو الذي جاءت به الرسل من أولهم إلىٰ آخرهم، ولكن كثيرًا من الناس يجهل التوحيد، فمن جهل التوحيد فإنه لم يقم بما وجب عليه.

الباب السابع والخمسون

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **باب ما جاء في الـ (لو).**

وأدخل (أل) علىٰ لو وهي لا تفيد تعريفًا في هذا، لأن لو من حروف المعاني، والحرف لا تدخل عليه علامات الأسماء.

وقوله: «ما جاء»؛ يعني: ما حكم ذلك، هل هذا من الأمور القادحة في عبادة العبد وتوحيده؟ أو أن هذا يكون من باب التنزيه، وتطهير الكلام والألفاظ أن يكون فيها شيء مما يخالف أمر الله أو أمر رسوله ﷺ وليس من القوادح؟

فالأول هو الصحيح، ولكن هذا ليس علىٰ إطلاقه، وإنما المقصود فيمن يقول لو معترضًا علىٰ الواقع الذي وقع بأن يعتقد أنه يمكن تغييره، أو لأنه يتوجع من ذلك ويتضجر منه، فيكون عنده شيء من الاعتراض، فهذا يكون قدحًا في التوحيد بل قد يكون ذاهبًا بالتوحيد بالكلية، وذلك أن الإيمان بالقدر أحد أركان الإيمان التي لا يمكن أن يقوم إلا بها؛ لأن ركن الشيء إذا سقط سقط لا قوام له مع سقوط ركنه.

والأمور التي تقع لا يشك أنها مقدرة، وأنها لا يمكن تغييرها، فقول الإنسان مثلًا: لو فعلت كذا أو لو صار كذا لكان كذا وكذا، فهذا من الأمور التي تكون مخالفة مخالفة ظاهرة بلا شك، وقادحة في دين الإنسان واستقامته.

ولا يدخل في هذا ما يخبر به الإنسان عن عقيدته في المستقبل في الأمور المستقبلة، أو أنه سوف يفعل كذا وكذا في المستقبل مثل قوله ﷺ: **«لو استقبلت من**

أمري ما استدبرت ما سُقت الهدي ولحللت مع الناس حين حلوا»[1]، فهذا يخبر عن الأمور المستقبلة أن هذا الحكم فيه؛ يعني: إذا أخبر عن حكم من أحكام الله أو عما سيفعله فيما يستقبل فلا يدخل في هذا، وكذلك قوله ﷺ: «**لو رجمت أحدًا بغير بينة لرجمت هذه**»[2]. هذا في المرأة التي وقع بينها وبين زوجها الملاعنة لما جاءت بالولد على الوصف المكروه، وغير هذه من الأحاديث التي ذكرها البخاري رحمه الله في صحيحه، كلها من هذا الباب؛ يعني: إخبارًا عن الأمور المستقبلة؛ يعني: الأحكام التي يفعلها فيما يستقبل إما أنه سيفعل كذا أو أن الحكم فيها كذا بخلاف ما في هاتين الآيتين وما في الحديث، لأن هذا وقع لا يمكن تغييره وهم يقولون: «لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا»؛ يعني: أنه ما حصل القتل ولا وقع، وكذلك الآية الأخرى فهم اعتقدوا أنه بإمكانهم تغيير الواقع، تغيير القدر مع ما فيه وهو ظاهر من الاعتراض على ما قدره الله والسخط، لذلك فإذا قال الإنسان ذلك فهو لا يخلو من هاتين الحالتين: إما أنه يعتقد أنه يمكن تغيير القدر، أو أنه يتسخط الواقع ولا يرضاه.

والتسليم للأقدار أمر لا بد منه، أن يسلم العبد لأقدار الله ﷻ والرضا بها إذا أمكن، فإذا لم يمكن الرضا فلا بد من التسليم والانقياد وعدم الاعتراض أو التسخط لذلك.

وقد جاء في حديث «**إياك واللَّو**»؛ يعني: في هذا الحديث الذي ذكره في رواية النسائي: «**وإياك واللَّو، فإن لو تفتح عمل الشيطان**»[3]، والظاهر أن هذا من تصرف الرواة وليس من لفظ النبي ﷺ.

(١) رواه البخاري رقم (٧٢٢٩)، ومسلم رقم (١٢١١) من حديث عائشة.

(٢) رواه البخاري رقم (٥٣١٠) من حديث ابن عباس.

(٣) أخرجه أحمد في المسند رقم (٨٧٩١)، والنسائي في الكبرى رقم (١٠٤٥٩).

وهنا الترجمة جاءت مطلقة لم يذكر الحكم (ما جاء في اللو)، وهذا الغالب إذا كان الحكم فيه تفصيل، أو فيه خلاف فإنه لا ينص على الحكم.

وهذا فيه تفصيل لأنه جاء في أحاديث كثيرة، وكذلك في آيات الله ﷻ استعمال ذلك، فذكر ﷻ في قصة لوط قوله: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠]، وهذا يدل على أن الإنسان إذا رأى منكرًا لا يستطيع تغييره أنه إذا مثلًا تأسف على ذلك وقال مثل هذا القول أنه لا بأس به.

ولهذا نقول أن النهي الذي جاء يكون عند الأمور المكروهة يعني قول: لو عند وقوع الأمور المكروهة للإنسان فإذا كان في ذلك اعتراض على القدر أو عدم رضا وتوجع لهذا فإن هذا من المحرمات التي تقدح في التوحيد، وهذا هو المقصود للمؤلف رحمه الله، ولهذا ذكر الآيات التي ذكرها المنافقون معترضين بذلك على أن الأمر لو كان على رأيهم أو مشورتهم ما وقع ذلك، وهذا ممتنع لا يمكن؛ لأن الشيء الذي وقع لا يمكن أن يغير بحال من الأحوال، فإنه واقع بإذن الله وأمره الذي هو علام الغيوب، وهو الذي خلق الأشياء كلها وقدرها قبل وجودها، فلا يمكن تغيير الواقع.

أما إذا قال ذلك إما لبيان حكم أو لبيان شيء واقع يخبر عنه، فبيان الحكم مثل قوله ﷺ: «**ولو استقبلت من أمري ما استدبرت لجعلتها عمرة**»[(١)]، والشيء الواقع مثل ما جاء عن عائشة رضي الله عنها قالت: سألت النبي ﷺ عن الجدر أمن البيت هو؟ قال: «**نعم**»، قلت: فما لهم لم يدخلوه في البيت؟ قال: «**إن قومك قصرت بهم النفقة**»، قلت: فما شأن بابه مرتفعًا؟ قال: «**فعل ذلك قومك ليدخلوا من شاؤوا ويمنعوا من شاؤوا، ولولا أن قومك حديث عهدهم بالجاهلية فأخاف أن تنكر قلوبهم أن أدخل**

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم (١٢٥٠٢) وهو في الصحيحين.

الجدر في البيت وأن ألصق بابه بالأرض»[١] فقوله: «**لولا**» هذه مثل «لو» هذا بيان شيء واقع.

وقد ذكر البخاري رحمه الله أحاديث عدة في صحيحه حيث ترجم بمثل هذه الترجمة قال: «باب قول لو» هذا في كتاب التمني في آخر صحيحه، وذكر تقريبًا تسعة أحاديث أو أكثر، وذكر الآية التي في قصة لوط عليه السلام.

وعلىٰ هذا لا بد من التفصيل، وهذا هو السبب من كونه لم يذكر الحكم في الترجمة جعله مطلقًا؛ يعني: يجب عليك أن تبحث عن الحكم في هذا وتميز بين الجائز والممنوع، هذا هو مقصوده.

ثم ذكر الآيتين وهما في قصة أُحد، وقصة أُحد كما هو معلوم لما حضر الكفار كان الرسول صلى الله عليه وسلم يرىٰ أنهم يبقون في المدينة، فإن جاؤوا إليهم قاتلوهم في السكك وفي السطوح، ولن ينالوا خيرًا، فكان الأنصار ولا سيما الشباب الذين عندهم تحمس شباب الأنصار الذين لم يحضروا واقعة بدر ألحوا علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخروج قالوا: أخرج بنا إلىٰ عدونا لعلنا ننال الشهادة، والرسول صلى الله عليه وسلم سهل ليِّن، فلما ألحوا عليه دخل منزله ليلبس سلاحه فلبس السلاح وتهيأ، فلام بعضهم بعضًا قالوا: أكرهتم رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمر ليس لكم، فلما خرج، قالوا: يا رسول الله إن رأيت أن نبقىٰ، قال: «**لا ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتىٰ يحكم الله بينه وبين عدوه**».

فخرج بهم وهم ألف، فلما صاروا في أثناء الطريق انخذل رأس المنافقين بثلاث مائة عبد الله ابن أبي سلول، وقال: علام نقتل أنفسنا، خالف رأينا وكان رأيه موافقًا لرسول الله صلى الله عليه وسلم في أن يبقوا في المدينة، وهو رجل مطاع له شعبية عندهم حتىٰ أنه كان قبل أن يأتيَ الرسول صلى الله عليه وسلم ينتظر أن يرأسوه عليهم، فلما جاء الرسول صلى الله عليه وسلم وكان يرىٰ أن هذا من الأسباب التي منعته من الرئاسة فصار رأس المنافقين -نسأل الله العافية-

(١) رواه البخاري رقم (١٥٨٤)، ومسلم رقم (١٣٣٣).

فلما رجعوا تبعهم عبد الله بن حرام والد جابر بن عبد الله، صار يلومهم ويحثهم على القتال، فقالوا له: إن أطعتنا اتبعنا لو نعلم قتالًا ما رجعنا، ولكن ليس فيه قتال، وهذا هو شأن المنافقين هكذا يبررون أفعالهم بالشيء الذي يُوهنون به آراء الآخرين.

وذكر ابن إسحاق عن عبد الله بن الزبير عن أبيه قال: حين وقعة أُحد ألقي عليّ النوم فصار سيفي يسقط وآخذه يسقط وآخذه ما ترى رجلًا منا إلا وذقنه في صدره من النوم؛ -يعني: أن العدو أمامهم ويلقى عليهم النوم وهذا علامة النصر، وعدم الاكتراث بالعدو والاهتمام به خلاف الذين تهمهم أنفسهم فهؤلاء لا يتقرب إليهم النعاس من الخوف والهلع- يقول: بين أنا كذلك إذا سمعت معتب بن قشير يقول: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا.

فحفظتها وهذا واحد من هؤلاء المنافقين، والظاهر أن هذا اعتراض يعني الذين قتلوا ممن قتل، «لو كان لنا» يعني لو أننا وكل إلينا التدبير والتخطيط والقيادة ما وقع هذا الشيء، فهو يقوله من باب التحسر ومن باب أنه يمكن أن هذا لا يقع، بل هذا هو الذي يرى أنه هو الممكن، وهذا كذب، ولهذا قال ﷻ: ﴿قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡ﴾ [آل عمران: ١٥٤] فلا بد من الشيء الذي قدره الله من وقوعه والأمور التي يتخذها الناس ما تحول بين هذا وذاك ولا ينفي هذا كون الإنسان يجب عليه أن يفعل الأسباب في الأمور التي فيها احتياط ما يمنع ذلك، ولكن الأسباب من الأقدار فقد تترك الأسباب فيقع، وقد تفعل ويكون هذا من القدر أيضًا أن الله قدر هذا ومن ذلك الدعاء الذي جاء أنه «**لا يرد القضاء إلا الدعاء**»(١)، فالدعاء من المقدر، قدره الله فإذا دعا الإنسان بدعاء فقد قدر الله ﷻ أن هذا الدعاء يمنع وقوع الشيء الذي قد يقع، وإذا لم يدعُ فسيقع.

(١) رواه الترمذي رقم (٢١٣٩) من حديث سلمان رضي الله عنه.

وكذلك صلة الرحم الذي جاء أنها تزيد في العمر يدخل في هذا لأن صلة الرحم معناها أنها مقدرة وعلم الله ﷻ ما سيفعل هذا الإنسان قبل خروجه من بطن أمه كما في حديث ابن مسعود الذي هو أصل كبير من أصول الدين الإسلامي فيه أنه إذا مضىٰ عليه الوقت المحدد يرسل إليه ملك فينفخ فيه الروح وهو في بطن أمه ويكتب أربعة أشياء يكتب أجله، وعمله، ورزقه، وهل هو شقي أم سعيد[(١)]، وهو في بطن أمه وليس هذا معناه أنه ينافي العمل، يعني هذه الأشياء التي كتبت سوف تظهر آثارها من أعمالهم يعملون بها باختيارهم وبقدرتهم لا أحد يجبرهم علىٰ هذا فهو علم الله الذي علم في هذا المخلوق أنه سيفعل كذا وكذا سبق وجوده فأمر الله ﷻ بكتابته فالمكتوب علم الله وليس شيء يرغم الإنسان كما يتصور الجاهل ويقول: أنا ما دام أنه مكتوب عليّ فما الحيلة، نقول: الحيلة أنك لا تدري ماذا كتب عليك، الذي كتب عليك العلم فيك. ولهذا الصحابة صار هذا يحثهم علىٰ الاجتهاد، وهذا هو الواقع إذا فهم العبد، فإن هذا يحثه علىٰ الاجتهاد.

وقد اختلف في قوله ﷻ: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٣٩] ما هو الممحو، رجح صاحب شرح الطحاوية ابن أبي العز علىٰ أن الممحو في الأمور التي تنسخ في الشرائع ليس هذا من الأمور المقدرة[(٢)].

---

(١) رواه البخاري رقم (٣٢٠٨)، ومسلم رقم (٢٦٤٣).

(٢) شرح الطحاوية في العقيدة السلفية (١/ ٢٥٠)، قال رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ [الرعد: ٣٩] أي: من ذلك الكتاب، ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٣٩] أي: أصله، وهو اللوح المحفوظ. وقيل: يمحو الله ما يشاء من الشرائع وينسخه ويثبت ما يشاء فلا ينسخه، والسياق أدل علىٰ هذا الوجه من الوجه الأول، وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨]، فأخبر تعالىٰ أن الرسول لا يأتي بالآيات من قبل نفسه، بل من عند الله، ثم قال: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد:٣٨]، ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ [الرعد: ٣٩] أي: إن الشرائع لها أجل وغاية تنتهي إليها، ثم تنسخ بالشريعة الأخرىٰ، فينسخ الله ما يشاء من الشرائع عند انقضاء الأجل، ويثبت ما يشاء. وفي الآية أقوال أخرىٰ، والله أعلم بالصواب.

وبعض المفسرين يقول: الذي يمحىٰ الشيء الذي لا عقاب عليه ولا ثواب، مثل قولك: أعطني الكتاب، أعطني القلم وما أشبه ذلك، يقول أن الملائكة تكتب كل ما يتلفظ به الإنسان، فإذا كان في المساء محوا الذي لا ثواب عليه ولا عقاب فيه مثل هذه الأشياء فهذا هو الذي يمحىٰ، أما ما فيه ثواب وعقاب فهو يثبت.

أما قوله ﷻ: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [فاطر: ١١]، يقول العلماء هذا ليس من عمر المعمر يعني هذا المنقوص، وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمر معمر آخر. فقوله: ﴿وَلَا يُنقَصُ﴾ هذا رجل آخر، فهذا يقولون مثل قولك: معي دينار ونصفه، فالنصف ليس هو نصف الدينار الذي معك هذا نصف دينار آخر، قالوا: وهذا مثله، فلا يعترض علىٰ هذا. فالواقع أن الأمور المقدرة أنها لا بد من وقوعها، فعلىٰ هذا يجب علىٰ العبد إذا وقع شيء أن يستسلم لربه ﷻ، ويلجأ إليه ويرضىٰ به ربًا، وهو عبد يتصرف الله ﷻ فيه كيف شاء، سواءً سلَّم ورضي أو جزع وسخط، فإن سلَّم ورضي صار له الجزاء وله الرضا، وإن سخط فعليه السخط، وأمر الله جار ولا بد في خلقه، هذا هو خلاصة ما في هذا الباب.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **وقول الله تعالىٰ: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾** [آل عمران: ١٥٤] **الآية.**

هذا جزء من الآية أولها: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وقوله: «﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ﴾»: الظن غير الحق الذي هو ظن الجاهلية فسر بشيئين كما سيأتي:

فسر بأن الله لا ينصر دينه ويعز نبيه ويظهره، وأن هذه الواقعة هي الفيصل وأنها سوف تقضي علىٰ المسلمين، ظنوا هذا كما ظن غيرهم في أماكن أخرىٰ.

وفسر بأن هذه الأمور لم تقع بعلم الله الأزلي المكتوب الذي لا يمكن أن يتغير أو يتبدل. والواقع أنه يشمل هذا وهذا.

قوله: «﴿يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾» إلىٰ آخر الآية.

فهي ظاهرة أن هؤلاء قالوا هذه المقولة أمران:

أحدهما: أنهم يظنون أنه يمكن تغيير هذا الموقع.

الثاني: يدل علىٰ أنهم سخطوا هذا الواقع، وحزنوا علىٰ ذلك، ولهذا ذمهم الله ﷻ وأخبر أنهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية.

✍ **قال المؤلف** ؒ: وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٨].

هذا في قصة عبد الله بن حرام والد جابر حينما قال لهم: لا تخذلونا اتقوا الله وقاتلوا، فقالوا: لو نعلم قتالًا لقاتلنا.

قوله: «﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ﴾»: إما أن يكونوا إخوانهم في النسب أو كون الأمر في ظاهره فقط، إخوانهم كونهم معهم فقط، وإلا ليسوا إخوانًا لهم في الدين لأنهم منافقون.

وربما يكون مع هؤلاء الذين رجعوا من لُبس عليه، وغلب عليه التقليد وتعظيم الكبراء وذوي الأمر.

وقوله: «﴿وَقَعَدُواْ﴾»: يعني وقعدوا عن الجهاد وعن مناصرة الرسول ﷺ.

قوله: «﴿لَوۡ أَطَاعُونَا﴾»؛ يعني: هؤلاء الذين قتلوا، لو أطاعونا ورجعوا ما قتلوا، هذا في نفس المعنىٰ السابق يعني أنه يمكن أن يتغير الواقع، لو أنهم اتبعونا ما حدث لهم قتل، ولهذا رد الله ﷻ عليهم بقوله: ﴿قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ﴾ [آل عمران: ١٥٤]؛ يعني: إلىٰ الأماكن التي قتلوا فيها لأنه شيء محدد مقدر لا بد منه، فالمكان الذي يموت فيه العبد أو يقتل فيه لا يمكن أن يتغير، وكذلك الساعات والصفات والأنواع التي تقع، فمثلًا إذا اعتقد الإنسان أنه يمكن تغييره فمعنىٰ ذلك أنه لم يؤمن بقدر الله ﷻ، وكذلك هو اعترض علىٰ أمر الله ولم يسلم له، هذا في الأمور التي وقعت.

أما الأمور المستقبلة فالعبد عليه أن يجتهد وأن يحرص كل الحرص علىٰ الأمر النافع وأن يستعد، ولهذا يقول ﷻ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾ [الأنفال: ٦٠]، والقوة كما قال عليه الصلاة والسلام: «**ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي**»[(١)]، وليست القوة بالنبال فقط، الرمي بكل شيء مثل: الصواريخ والقنابل مطلقًا. وإذا ترك المسلمون هذه القوة فقد خالفوا أمر الله وإذا خالفوه يجوز أن ينتصر عليهم الأعداء ولا يجوز للمسلمين أن يستمدوا ما بأيديهم من أسلحة وقوات من أعدائهم هذا حرام، إذا وقع ذلك فهم واقعون في المخالفات بل واقعون في المعصية التي تقتضي عدم نصرهم لأنهم

(١) رواه مسلم رقم (١٩١٧) من حديث عقبة بن عامر.

خالفوا أمر الله ﷻ فإذا تبين لهم ذلك يجب أن يتلافوه، ولا يمكن أن تستقيم أحوالهم إلا باتباع أمر الله وطاعته في هذا وفي غيره.

فعلىٰ هذا نقول أن قوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ﴾ [آل عمران: ١٦٨] معروف أن القول هنا صدر من القاعد وليس من الخارج المجاهد، فمن هو القاعد؟ هم المنافقون، فإذًا ما وجه تسميتهم إخوانًا للمجاهدين المدافعين عن دين الله ورسوله ﷺ؟

وجه التسمية أمرين:

أحدهما: إما أن يقصد بالأخوة إخوان النسب؛ لأنه وجد من هو في أول المؤمنين ومن أقواهم، وأخوه منافق.

ثانيًا: أن يكون المقصود كونهم معهم في المكان، وفي البلد فليست أخوة الدين لا يجوز أن يكون المنافق أخو للمؤمن، كما أنه لا يجوز أن يكون الكافر أخًا للمؤمن، وسوف يأتي أن الرسول ﷺ: «**نهىٰ أن يقال للمنافق سيد لأنه إن كان سيدًا فقد أغضبتم ربكم**»(١)، والسيد هو المقدم، الذي ينظر إلىٰ قوله وفعله ويقتدىٰ به.

ولهذا قال: ﴿وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا﴾ [آل عمران: ١٦٨] يعني الذين خرجوا للقتال وقتلوا فهذا فيه الأمران: فيه أنهم يرون أنه يمكن تغيير الذي وقع، وكذلك في ضمنه أن هذا مسخوط ومكروه لهم، فهذا يدل علىٰ ما عندهم من التضجر والتأسف والحزن والتسخط فهذا من قوادح التوحيد، بل من مذهباته التي تذهب به ويصبح الإنسان خارجًا من الدين لأنه ترك ركنًا من أركان الإيمان، والإيمان لا بد أن يقوم علىٰ أركان.

---

(١) سبق تخريجه.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **و«في الصحيح» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان»**[1].

قوله: و«في الصحيح»: يعني في صحيح مسلم. والمؤلف رحمه الله اختصر الحديث لأن أول الحديث قوله ﷺ: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير، احرص على ما ينفعك ولا تعجزن**، وفي رواية: **ولا تعجز**»،**وإن أصابك شيء** «يعني مما تكره» **فلا تقل: لو أني فعلت لكان كذا وكذا، ولكن قل: قَدَّرَ الله وما شاء فعل** -أو تقول: قدر الله: يعني هذا قدر الله، وما شاء فعل- **فإن لو تفتح عمل الشيطان**»، يقول ابن القيم رحمه الله: فلهذا كان هذا الحديث مما لا يستغني عنه العبد، بل هو أشد شيء إليه ضرورة وهو يتضمن إثبات القدر والكسب والاختيار والقيام بالعبودية ظاهرًا وباطنًا في حالتي حصول المطلوب وعدمه، وبالله التوفيق[2].

وفيه قوله: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف».

الظاهر أن المقصود القوي في أمر الله، كما قال تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾ [ص: ٤٥]، والأيدي معناها القوة في أمر الله، القوة في فعل أمر الله، والانكفاف عما نهى، وكذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك، وإن كانت القوة في البدن نعمة من الله، ولكنها ليست هي المقصود.

وقوله: «خير وأحب»؛ يعني: أكثر خيرًا وأكثر اكتسابًا، وكذلك في الآخرة أرفع درجة.

(١) رواه مسلم رقم (٢٦٦٤).
(٢) شفاء العليل (١/ ١٩).

قوله: «وأحب إلىٰ الله»؛ يعني: أكثر حبًا إلىٰ الله من الآخر، فهذا فيه دليل واضح علىٰ تفاوت الحب تفاوت حب الله ﷻ بين المؤمنين، بعضهم يحبه أكثر من بعض.

كما أن فيه إثبات الحب لله ﷻ وأنه يحب بعض عباده كما أنه يبغض بعض عباده ويكرههم ويسخطهم، كما أنه يرحم ويلعن، هذا يرحمه وهذا يلعنه، وهذا مثل ما مضىٰ في صفة الوجه، يجب أن تثبت لله علىٰ ما جاءت من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تأويل ولا تشبيه أو تمثيل كما يقوله أهل الباطل، بل تثبت علىٰ ما يليق بالله ﷻ مع العلم بعدم المشابهة والمماثلة لخلقه في ذلك وفي غيره، يعني علىٰ ما يليق بعظمته تعالىٰ وتقدس؛ لأنه كما هو معلوم ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورىٰ: ١١]، ومن العجائب أن جميع أهل البدع الذين ابتدعوا في هذا يتفقون مع أهل السُّنَّة في أن الله في ذاته لا مثيل له، فهذا أمر متفق عليه لا يخالف فيه أحد، فإذا كان هذا فيجب أن تكون الصفات كذلك، ما دام أنه في ذاته لا شبيه له ولا مثيل له، كذلك صفاته لا مثيل لها ولا شبيه لها؛ لأن الصفة تتبع الموصوف.

والذين يثبتون صفة المحبة هم الذين يتبعون نصوص الكتاب والسُّنَّة فهم الذين يؤمنون بأن الله يحب عباده.

والذي منع القول بأن الله يحب من هؤلاء الذين يقولون بأن الله لا يحب أمورًا قدروها بأنفسهم، قالوا: إن الحب لا يكون إلا بين متناسبين كالمخلوقين مثلًا.

وهو أيضًا الميل إلىٰ ما ينفع ويلائم، أن تميل إلىٰ شيء يلائمك، ويقولون: نحن ننزه الله من هذين الأمرين، لأن هذا نقص، هكذا يقولون.

والرد علىٰ هؤلاء نقول: إن هذا الذي تقولونه هو حب المخلوق هو الذي يميل إلىٰ ما يلائمه، أما الله ﷻ فحبه علىٰ خلاف ذلك لأنه ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورىٰ: ١١] فهم حصل عندهم التشبيه أولًا ثم جاء التعطيل ثانيًا. وهم وإن

كانوا يقولون: إننا نفر من التشبيه لكنه شيء وقع في أذهانهم وقع في نفوسهم هذا الشيء ولم يتكلموا به فنفوا الصفات على أساس هذا الذي وقع في نفوسهم؛ لأنهم لم يعرفوا من صفات الله إلا ما عرفوه من أنفسهم.

والعجيب أنهم ينفون الحب من الجانبين، حتى حب العبد، بعضهم ينفيه ويقول: إن العبد لا يحب الله. فهو ليس يناسبه، وإنما يحب الذي يناسبه.

فهل يكون هذا مؤمن؟ لأن الإيمان هو التأله، والتأله هو: حب القلب الذي فيه الذل والخضوع والتعظيم. فلا يمكن أن يكون مؤمنًا إلا بهذا، ولهذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: هؤلاء أهل الكلام لا ينفكون عن الشرك. فإذا كانوا لا ينفكون عن الشرك فأمرهم عظيم.

والمقصود أن قوله: «خير وأحب إلى الله وفي كل خير»، فيه التفاوت بين الخيرين، يعني أن هذا يدل على تفاوت الحب، محبة الله جل وعلا بين عباده وكل من كان أعلم بالله ولأمره أقوم به وعن نهيه أبعد فهو أحب إلى الله، فمن لم يكن كذلك أو كان دونه في هذا الأمر فهو دونه في محبة الله تعالى.

وهذا كله أيضًا يتبع العلم بصفات الله جل وعلا؛ لأن الله قال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]، ولهذا يقول الصحابة: كل من عصى الله فهو جاهل، كما أنهم قالوا أيضًا: كل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب.

وفيه أن الله يحب مقتضى أسمائه وصفاته فهو قوي يحب القوي، وكذلك هو مؤمن يحب المؤمن، وجميل يحب الجمال، وهكذا بما يتفق مع صفاته فهو يحب من اتصف بذلك، وليس من هذا الحديث الذي يذكره الفلاسفة: «تشبهوا بالله فإن الله يحب من تشبه بصفاته» هذا ليس حديثًا، ولا أصل له.

ثم حرَّض ﷺ على الشيء النافع فقال: «احرص على ما ينفعك».

والحرص هو: بذل الجهد والوسع والطاقة في تحصيل المطلوب، سواءً ما ينفع أو ما يضر تحصيل الأمر الذي تريده، فإذا كان الحرص على أمر نافع فهذا من عنوان السعادة، أما إذا كان الإنسان يسعى في أمر نافع ولكنه ما عنده حرص فلا بد أن يفوته ما يفوته.

وإذا كان الحرص على أمر تافه من أمور الدنيا فهذا أيضًا يفوته الخير، ولهذا قال: «احرص على ما ينفعك»، وهذا يدخل فيه أمر الدنيا والآخرة، ولكن أمر الدنيا يجب أن يكون تبعًا للآخرة؛ لأن الحرص على أمر الدنيا يضر بالآخرة ولا بد، والحرص على ما ينفع هو الحرص على العمل الصالح وطاعة الله واتباع أمره واقتفاء أمر الرسول ﷺ، وكذلك اجتناب المناهي.

وقوله: «واستعن بالله»: يعني أن قوة الإنسان وفكره وعلمه ونظره لا يكفي إن لم يعنه الله ﷻ على تحصيل المطلوب، فلا بد من الاستعانة بالله على تحصيل المقصود وإلا فإذا لم يعن الله ﷻ عبده فهو فاشل ولا يمكن أن يتحصل على مراده إلا بعون الله، وبهذا تجد كل الذين يسعون يستعينون بالله حتى السراق الذين يسرقون الأموال وينهبون لا بد أن يستعينوا بالله على أفعالهم وإن كانت محرمة، فكيف بالمؤمن التقي.

ولهذا حصر الخير كله والعبادة كلها في قوله ﷻ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، فحرص بلا استعانة لا ينفع، فإذا لم يعبد الإنسان ربه ويستعين على عبادته فهو من الخاسرين المعذبين.

فقوله: «واستعن بالله»؛ يعني: لتكن استعانتك واعتمادك بعد تحصيل الأسباب وفعلها على الله وحده، وهذا يعتمد عليه القلب، يعتمد على ربه ﷻ وإذا اعتمد القلب على شيء فالبدن تبعًا له، تجده قويًا وماضي في الشيء ومحصلًا له

بإذن الله ﷻ بخلاف إذا كانت الاستعانة ضعيفة فإنه يضعف تبعًا لذلك وإن كانت الأسباب حاصلة.

وقوله: «**ولا تعجزن**»: والعجز ضد الحرص. العجز هو: عدم تحصيل المراد إما لكسل أو لأن الرغبة ضعيفة وليس عنده دافع قوي ولا عنده ما يحمله على هذا من الإيمان بالله ﷻ والرغبة في ما عنده، فإذا كان بهذه الصفة فلا بد أن يعجز، فالعجز معناه ترك شيء يستطيع أن يفعله، هذا هو خلاصته، فهو يترك الشيء أو سبب الشيء الذي بإمكانه تحصيله وليس العجز معناه أنه لا استطاعة له بذلك، فهذا لا ينهى عنه لأن الله ﷻ لا يكلف نفسًا إلا وسعها، ولكن الشيء الذي يستطيعه هو الذي ينهى أن يعجز عنه.

ثم إذا حصل مثلًا الحرص على النافع، وانتفى العجز والكسل والخمول، لا يلزم أن يحصل المراد، والله علام الغيوب لأنه قد يكون في تفويته عليه خير له كثير.

فإذا فاته ذلك لا يجوز له أن يأسف ويتضجَّر ويحزن، بل يجب أن يرض ويسلِّم لربه ﷻ، ويقول مثل ما أرشد إليه الرسول ﷺ: «**هذا قدر الله**»؛ يعني: هكذا قدر الله لا يمكن تغييره.

فإذا ترك الإنسان الأمر الذي يقدر عليه فهو عجز والله يلوم على هذا، الذي بإمكان الإنسان أن يفعله، كما جاء أن رسول الله ﷺ قضى بين رجلين فقال المقضي عليه لما أدبر: حسبي الله ونعم الوكيل، فقال رسول الله ﷺ: «**ردوا عليَّ الرجل**»، فقال: **ما قلت؟** قال: قلت: حسبي الله ونعم الوكيل، فقال رسول الله ﷺ: «**إن الله يلوم على العجز ولكن عليك بالكيس، فإذا غلبك أمر فقل: حسبي الله**

ونعم الوكيل»[(١)]؛ يعني: حصل حقك في الأمور التي شرعت لك، أما إذا تركت الأمر وقلت: حسبنا الله فهذا لا يجوز.

وقد مدح الله الذين ينتصرون إذا ظلموا. إذا وجدت هذه الثلاثة الأمور فهذا عنوان سعادة الإنسان، الأول: الحرص على العمل. الثانية: أن يكون هذا العمل نافعًا. الثالثة: الاستعانة بالله ﷻ. فإذا وجدت هذه الأمور الثلاثة فهي دليل على توفيق الله للعبد. والرسول ﷺ استعاذ من الكسل.

وقوله: «**وإن أصابك شيء**»؛ يعني: إذا حرصت على النافع واستعنت بالله وتجنبت العجز، فإذا وقع الشيء الذي لا تريده ولا ترغب فيه فلك حالتان:

إما أن يلوم الإنسان نفسه، ويتأسف على ما فاته، أو أنه يلجأ إلى ربه ويؤمن بأقداره ويصبر، وهذا هو الذي طلب منه، ولهذا قال: «**وإن أصابك شيء**»؛ يعني: على خلاف ما تريد أمر مكروه «**فلا تقل: لو أني فعلت لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل**»؛ يعني: قدر الله هذا الشيء فهذا أمر لا بد منه وأنا مؤمن به ومسلم لذلك وراض به لأنه تقدير ربي، وقد آمنت بقدره ولا اعتراض عندي على ذلك، بل أصبر على أمر الله وأرجو بذلك ثوابه، فقد وعد الله الصابرين أن يوفيهم أجرهم بغير حساب.

ولا بد من الصبر؛ لأنه لا يمكن في هذه الدنيا أن تأتي الأمور كلها على المراد، هذا ممتنع في هذه الدنيا لا بد فيه من المكدرات والمصائب ولا بد فيها من الأمور التي تكون على خلاف ما يريده الإنسان، وسبيله في هذا الصبر والتسليم بقدر الله ﷻ والرضا بذلك، فيكون بذلك في عيشة راضية وفي خير كثير.

بخلاف المتأسف والمتحزن فإنه لا يزيده ذلك إلا سوءًا ويذهب أجره ويبوء

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم (٢٣٩٨٣)، وأبو داود رقم (٣٦٢٧) من حديث مالك بن عوف.

بسخط الله ﷻ، ولهذا مر معنا الحديث السابق: «**عظم الجزاء مع عظم البلاء. وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط**»[١]. وفي الحديث: «**من يرد الله به خيرًا يصب منه**»[٢]، وهذا أمر معلوم في شرع الله وسُنَّة رسوله ﷺ، فلا بد للإنسان أن يعلم هذا ويجعله دائمًا عدته لأنه لا يخلو وقته دائمًا من المكدرات.

وقوله: «لا تقل: لو أني فعلت لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان»: عمل الشيطان كله شر، وكله يريد به إحزان الإنسان وهلاكه، فإذا كانت هذه الكلمة تفتح عمل الشيطان، فإذا تفتح الشيء دخل فيه، فيجب أن يكون بينه وبينه باب مغلق، ومعنىٰ ذلك أنه يجتنب هذه الكلمة أصلًا، لا يقولها.

ومن الظاهر أن من عمل الشيطان التأسف والحزن ولوم القدر وما أشبه ذلك من الأمور التي فيها الاعتراض، وفيها ضعف النفس.

وهذا الحديث والأحاديث التي ذُكر بعضها قد أشكلت علىٰ بعض العلماء، فالقاضي عياض يقول: أرىٰ أن هذا من باب التنزه وأن النهي للتنزيه. وقال: يدل علىٰ هذا قوله: «**فإن لو تفتح عمل الشيطان**».

وقد اعترض عليه النووي ؒ وقال: هذا غير صحيح، بل هذه أمور محرمة لأنها توقع في المحرمات[٣]، ولكن يجب أن يفرق بين الجائز وبين الممنوع، فمثل الذي يقوله إخبارًا عن الواقع وبيانًا للحكم، وليس فيه اعتراض علىٰ قدر قدره الله ولا تأسف ولا تحزن ولا تسخط لما يصيبه فلا بأس بذلك.

---

(١) رواه الترمذي رقم (٢٣٩٦)، وابن ماجه رقم (٤٠٣١) من حديث أنس بن مالك.

(٢) رواه البخاري رقم (٥٦٤٥) من حديث أبي هريرة.

(٣) شرح النووي علىٰ مسلم (١٦/ ٢١٥).

أما أن يقول ذلك من أجل أنه يعتقد أنه يمكن أن يتغير الواقع أو أنه يكون بذلك متأسفًا وعنده من الحزن والتضجر ما يكون من عمل الشيطان، فهذا يكون من المحرمات وهذا هو الصحيح، وهذا القول يكون عند الأمور المكروهة.

وقد جاءت لو في الكلام كثيرًا، فيجب أن يكون الإنسان منزلًا ذلك على هذين الأمرين.

قال المؤلف رحمه الله: فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآيتين في آل عمران.

المقصود بتفسير الآيتين أن نعرف هذا الحكم الذي ترجم عليه في قوله: باب ما جاء في اللو، وأن معنى الآيتين أنه محرم وأنه قد يدخل الإنسان في النفاق، وعبَّر عن هذا بالتفسير، يعني أنه جزئية من التفسير، والتفسير مأخوذ من الفسر وهو البيان والإيضاح؛ يعني: أن الآية واضحة في هذا الأمر.

الثانية: النهي الصريح عن قول: «لو» إذا أصابك شيء.

والنهي الصريح ومعنى الصريح أنه لا يحتمل إلا معنًى واحدًا فقط، والنهي يأخذ من الحديث من قوله: «**فلا تقل: لو**».

الثالثة: الإرشاد إلى الكلام الحسن.

«**قدر الله وما شاء فعل**» على الإضافة، يعني هذا قدر الله الذي وقع، أما إذا شددت «**قدَّر الله**» يكون الله فاعل يعني أن هذا تقدير الله، والمعنى واحد.

الرابعة: الأمر بالحرص على ما ينفع مع الاستعانة بالله.

الإنسان حريص على أشياء كثيرة، لكن قد يكون الحرص لا ينفع، يفنى العمر في أشياء غيرها أنفع منها، فكون الإنسان يختار النافع، ويحرص عليه

عنوان السعادة ثم لا يكفي هذا لا بد من الاستعانة بالله ﷻ، ومن لم يعنه الله فلا يمكن أن يتحصل علىٰ مقصوده، فالاستعانة بالله عبادة مأمور بها، ومن استعان بالله أعانه الله.

❁ **الخامسة:** النهي عن ضد ذلك وهو العجز.

يعني: ضد الحرص علىٰ النافع وهو العجز، فإن عجز فهو ملوم علىٰ ذلك ومعاقب عليه.

الباب الثامن والخمسون

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: باب النهي عن سب الريح.

النهي في هذا للتحريم ومرتكبه آثمًا، ومعنىٰ ذلك أن المنهيات التي جاء النص عليها في كتاب الله أو في سُنَّة رسوله ﷺ إذا ارتكبت كانت قوادح في التوحيد ومنقصات له وهي تختلف باختلاف درجة التحريم.

والسب كأن يلعن ويشتم يقول: هذه ريح شر وما أشبه ذلك؛ لأنها مطيعة لله ﷻ مأمورة وليس لها تصرف بنفسها.

ومثل ذلك كل مخلوق خلقه الله ﷻ لا اختيار له، أما إذا كان له اختيار وفعل المكروه عن اختياره، فهذا يتوجه إليه اللوم علىٰ ذلك، ولكن يجب أن يكون علىٰ وفق الشرع، فهذا النهي عام ليس في الريح فقط، وذكر الريح مثال.

فلو أن إنسانًا واجه آخر مثله، وصار بينهما خلاف فقال له علىٰ وجه السب: أنت أسود أو أنت وجهك كذا وما أشبه ذلك، فهذا وقع في المحرم لأنه في الواقع اعترض علىٰ ربه ﷻ، وهذا الذي وجه إليه الكلام لا تصرف له في ذلك وليس ذلك عن اختياره.

فالمقصود أن سب الريح، وسب غيرها مما هو مأمور ومخلوق ومسخر كله يدخل في هذا النهي.

والريح مفرد رياح وهي من آيات الله التي تدل علىٰ وحدانيته في التصرف، وكذلك تدل علىٰ وجوب عبادته.

والريح جعلها الله رحمة، وجعلها عذابًا، فقد عذب وأهلك بها عاد سخرها عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام حسومًا، فصارت تنزع الرجل ثم تنكسه علىٰ رأسه حتىٰ ماتوا عن آخرهم، وكذلك يرسلها علىٰ من يشاء عذابًا.

وكذلك هي من الرحمة، يجعلها الله ﷻ سببًا للخير والرحمة، وقد امتن علىٰ عباده في كونه يسخر لهم الريح في البحار فتحمل لهم السفن لما كانت السفن تجري علىٰ الريح فقط.

وكلا الأمرين يحمد الرب ﷻ عليهما لأنه يضع الأمور في مواضعها، فيجب علىٰ العبد أن يرضىٰ بذلك ويسلم ويشكر الله نعمه.

✍ قال المؤلف رحمه الله: عن أبي بن كعب أن رسول الله ﷺ قال: «لا تسبوا الريح فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا: اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح، وخير ما فيها، وخير ما أمرت به، ونعوذ بك من شر هذه الريح، وشر ما فيها، وشر ما أمرت به» صححه الترمذي[1].

وقد أرشدنا النبي ﷺ في هذا الحديث إلىٰ ما فيه مصلحتنا، وكذلك ما فيه رضا ربنا ﷻ فقال:

«**لا تسبوا الريح**»؛ لأنها مأمورة بأمر الله ومطيعة.

قوله: «فإذا رأيتم ما تكرهون منها»: يعني رأيتم الشيء الذي تكرهونه منها يعني إما أن تكون شديدة أو باردة أو فيها غبار أو ما أشبه ذلك من الأمور التي يكرهها الناس، فهنا تلجئون إلىٰ من أمرها وتسألونه.

---

(١) أخرجه الترمذي رقم (٢٢٥٢)، وأحمد في المسند رقم (٢١١٣٨) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

قوله: «اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح»: لأنها مدبرة بأمر الله ﷻ ومطيعة له، وهو المالك لها، وهو الذي يلجأ إليه عند كل شدة، وهي ليس لها تدبير من نفسها.

«وخير ما فيها، وخير ما أمرت به، ونعوذ بك من شر هذه الريح، وشر ما فيها، وشر ما أمرت به»، وفي رواية: «وخير ما أرسلت به»[(١)]، وهو نفس المعنىٰ.

فهي مأمورة مسخرة، وإذا لجأ الإنسان إلىٰ من بعثها وسخرها فإن هذا هو النافع وهو العبادة، ولا يكون ذلك إلا من المؤمنين الذين يعرفون الأحوال والأمور التي تجري في الكون كله أنها كلها من تدبير العزيز العليم ﷻ.

فالريح مدبرة مسخرة لله ﷻ مطيعة وهي جند من جنود الله، والذي يسب مثلًا الريح أو يسب غيرها مما هو مدبر مسخر بأمر الله لا يكون هذا محلًّا للسب فيعود سبه إليه؛ لأن من لعن شيئًا وهو لا يستحقه عادت اللعنة إليه.

وفي هذا أن العبد إذا رأىٰ الريح ورأىٰ فيها ما يكره أنه يجب عليه أن يتوب ويلجأ إلىٰ الله، وذلك أنه لا يأتيه السوء إلا من ذنبه، والعلاج في هذا هو التوبة واللجوء إلىٰ الله واستعتابه وأن يعفو عنه، فإذا فعل ذلك، فربما استجاب الله له وصرف عنه المكروه أو يجعل المكروه محبوبًا، وهذا من التوحيد؛ يعني: كونه يلجأ إلىٰ الله ويدعوه عند الأمور المكروهة يعلم أنه هو وحده المتفرد بالتدبير والتصريف لما في السماء وما في الأرض، وهو الذي بيده ملكوت كل شيء، فإذا لجأ إليه وسأله الخير فإنه يكون موحدًا عابدًا، وهذا في ضمنه توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، وهذا هو العلاج الناجع الذي أرشد إليه الرسول ﷺ، لا كما

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم (٢١١٣٩).

يفعله الجهال حيث يوجهون السب إلىٰ المخلوقات المسخرة المدبرة التي لا تملك لنفسها شيئًا فضلًا عن غيرها، وإنما هي مطيعة لله ﷻ.

وهذا معناه إذا صنع هذا الشيء فإنه إما أن يكون جاهلًا ولم يعرف الله ﷻ، أو أنه يكون يتعلق بالمخلوقات ويعبد غير الله، وكلاهما شر هذا وهذا.

وهذا هو السبب الذي جعل المؤلف يدخل هذا الباب في كتاب التوحيد، يعني المفروض أن العبد الموحد يكون لجوءه إلىٰ الله دائمًا، وأنه يعلم أن الله هو المدبر لكل شيء وهو الذي يملك ما في السماوات وما في الأرض، سواءً كان شيئًا له عقل ونظر، أو مثل الريح التي لا عقل لها ولا نظر، وإنما هي مسخرة بأمر الله.

ومثل ذلك المطر والسحاب وغيرها من مخلوقات الله ﷻ، يعني هذا حكمها أنه لا يجوز سبها، وأن من سبها فقد ظلم نفسه، إذا تعدىٰ فهو مستحق لعقاب الله ﷻ.

قال المؤلف رحمه الله: فيه مسائل:

الأولى: النهي عن سب الريح.

والنهي للتحريم، كما سبق.

الثانية: الإرشاد إلى الكلام النافع إذا رأى الإنسان ما يكره.

يعني اللجوء إلىٰ الله وسؤاله، هذا هو المعنىٰ وليس مجرد كلام، وإنما هو انقياد إلىٰ الله بالقلب واللسان، صادقًا، فإذا فعل ذلك فإن الله ﷻ يكشف ما به من ضر.

الثالثة: الإرشاد إلى أنها مأمورة.

يعني أنها مطيعة، فكيف يسب المطيع لله ﷻ.

۞ **الرابعة**: أنها قد تؤمر بخير، وقد تؤمر بشر.

«**أسألك من خيرها وخير ما فيها وخير ما أمرت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أمرت به**»، فهي تأمر بهذا وهذا، وقد جاء في الحديث الذي في المسند أن الرسول ﷺ قال: «**لا تسبوا الريح فإنها من روح الله تبارك وتعالى، وسلوا الله خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به، وتعوذوا بالله من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به**»(١).

وهذا يدل على أنها تأتي بالخير وإن كان فيها شر لبعض العباد فهو عقاب فيما يستحقونه، وقد عرف أنه يأتي أعاصير وأمور فيها التدمير للمباني وغيرها وكل هذا من عقاب الله وجنوده وهو خير لأن هذا فيه تأديب لهم لعلهم يرعون ويرجعون إلى الله، فإن لم يتأدبوا ويعتبروا فإن العذاب من ورائهم أشد -نسأل الله العافية-، فالمقصود أن فيها خيرًا، سواءً كان فيها ضرر أو نفع فهي خير من الله.

---

(١) سبق تخريجه.

الباب التاسع والخمسون

قال المؤلف رحمه الله: باب قول الله تعالىٰ: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

مقصوده رحمه الله بهذا الباب أن يبين وجوب حسن الظن بالله جل وعلا، وأن هذا من مقتضى التوحيد، ومن خالف ذلك يكون توحيده إما ذاهب، وإما ناقص نقصًا عظيمًا، يجوز أنه يذهب ويضمحل.

وقد جاءت نصوص كثيرة في وجوب إحسان الظن بالله جل وعلا، ففي الحديث قال عليه الصلاة والسلام: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل»(١)، وفي الحديث الآخر الصحيح: «يقول الله تعالىٰ: أنا عند ظن عبدي بي»(٢)، فمن ظن بالله خيرًا ألحقه الله بالخير، ومن ظن السوء فله السوء -نسأل الله العافية-.

وظن الخير بالله، والظن الحسن يدعو العبد أن يعمل بطاعة الله، ويتبع أمر رسوله صلى الله عليه وسلم، وليس أن يعمل المعاصي ويقول أنا أظن بالله الخير، لأن الله حكم عدل يضع الأمور في مواضعها.

(١) رواه مسلم رقم (٢٨٧٧) من حديث جابر رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري رقم (٧٤٠٥)، ومسلم رقم (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقد أخبر ﷻ أنه لا يجعل المحسنين كالمجرمين، ولا المسلمين كالكافرين، لكل واحد عند الله مقامًا غير الآخر.

والمؤلف ﷺ ترجم بالآية ولم يذكر حديثًا، وهذا كاف.

وذكر أن هذا الظن غير الحق أنه فسر بتفسيرين كلاهما حق وقد دلت عليهما الآية.

وهذه الآية كما سبق في قصة أُحد، فإنه وعد المسلمين أنهم إذا صبروا أنه سيمدهم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين، وقال: ﴿وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥].

ولكن هذا بشرط الصبر والطاعة، فلم تحصل الطاعة ولم يحصل الصبر، بل حصلت معصية فتخلف هذا الوعد من أجل ذلك، ثم حصلت الهزيمة على المسلمين وانهزم كثيرون منهم مولين إلى المدينة، وثبت ثلة مع رسول الله ﷺ وأصيب من أصيب منهم وقتل سبعون رجلًا منهم، ومن ضمنهم عم رسول الله ﷺ حمزة ﵁. وقد أثر ذلك في رسول الله ﷺ تأثيرًا بالغًا وحزن عليه حزنًا كثيرًا، وكل هذا لله فيه حكمة بالغة، وهو مقدر قبل وجود الدنيا ومكتوب ولا بد منه، فلا بد من الإيمان به وإن كانت الأسباب التي قد تبدو للإنسان في الظاهر أنه يمكن أن يتحاشى بعض هذه الأشياء على حسب ما يتخيل وينظر، وهذا مجرد تخيل فقط.

فإن ظن الإنسان أنه يمكن أنه يغير الواقع بالتدبير والنظر والعمل الذي يعمله فهو مما يظن بالله ظن السوء وغير الحق، وهذا بعد الوقوع، أما قبل وقوع الشيء يجب أن يحتاط الإنسان ويعمل كل ما يستطيع من الأسباب، فإن فرَّط في الأسباب فالأمر واللوم عليه مع أنه لا يقع إلا ما أراد الله ﷻ وقضاه، ولكن الله ﷻ رتب الأمور على أسباب، والأسباب مقدرة مع مسبباتها.

فلما حصل ما حصل أجرىٰ الله آياته لما فيها من تأديب المؤمنين وذكر الحكمة في ذلك، فقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

فيها حكم وأمور ذكر الله فيها التمحيص وإظهار ما هو مكنون، وفيها التمييز بين المؤمنين والمنافقين، وفي هذا أبلغ المنَّة من الله علىٰ المؤمنين فيعرفوا أن معهم في بيوتهم وفي مساجدهم أعداء لهم، فقد تكون هذه العداوة أبلغ من عداوة الكفار المحاربين بيَّن هذا وأظهره جليًا، فبدل ما كانوا يخفون الأمور، وقد يلوحون بشيء منها قليلًا ولا يفهمها إلا قلة، صاروا يصرِّحون قالوا: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ [آل عمران: ١٥٤]؛ يعني: أنهم يقولون نستطيع أن نغير هذا الواقع، لو كان التدبير إلينا لم يقع، ولهذا قال: ﴿مَّا قُتِلْنَا﴾ فهذا كله من الظن السوء بقدر الله وتدبيره وحكمته، وكذلك ذكر أنهم قالوا: انتهىٰ الأمر وبطل سحر محمد، وهكذا يقولون عند المضائق والمصائب، يخرج المنافقون نفاقهم ويصرحون به ويعرف المؤمنون بهذا وإلا فإن الله عليم بهم، ولهذا قال ﷻ في نهاية القصة: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩] يقول: إنكم لا تطلعون علىٰ ما في نفوس هؤلاء، فهذا غيب عند الله، والله يعلمه وإنما يبرز ويظهر إذا حصل مثل هذا الشيء، فيتميز المنافق من المؤمن، وهؤلاء لا يدركون هذه الأمور، فقال بعد ما ذكر ما حصل: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤] يعني لا يتطرق إليهم النعاس من الخوف والهلع والقلق الذي أصابهم لأنهم ليس في قلوبهم الإيمان الذي يجعلهم يطمئنون بوعد الله وأنه

سيُمضي أمر رسول الله ﷺ ويعليه ويتمه، هذا ليس عندهم فظنوا أن هذه هي الفيصل وخافوا علىٰ أنفسهم القتل.

قوله: «﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾»: الجاهلية: نسبة للجهل، فهم جهلة. والجهل هو الجهل بالله وبأحكامه الشرعية والقدرية وبأسمائه وصفاته ومقتضياتها، هذا هو الجهل الحقيقي الذي هو داءٌ قاتل وهؤلاء جهلوا هذا تمامًا.

قوله: «﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾»: هل للاستفهام من باب الإنكار التلهفي، يتلهفون ويتحسرون يقولون لو كان لنا شيء من ذلك ما حصل الذي حصل، يتأسفون علىٰ من قتل من إخوانهم في النسب وليس في الدين، وهؤلاء قد أكرمهم الله ﷻ حيث اتخذهم شهداء، وقد ذكر هذا من الحكم ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، فلولا القتال وعداوة العدو ما حصلت الشهادة التي هي أحب إلىٰ الله من عدمها، ويرفع الله بها من يشاء من عباده ويكرمهم بها ما حصلت الكرامة بالشهادة، وقد أدرك الصحابة ذلك وكانوا يفرحون به، وكان إذا سقط أحدهم هنَّؤوه يقولون هنيئًا لك الشهادة، كل واحد يود أنه هو الذي قتل، وإذا حصل لأحدهم شيء قال: فزت ورب الكعبة؛ يعني: فاز بوعد الله ﷻ؛ لأن هذه الحياة لا تساوي شيئًا، وكونه يقتل في سبيل الله مقبلًا ناصرًا لرسوله ولدينه هذا هو أعلىٰ المقامات، ولهذا لما قال رجل في دعائه عند الرسول ﷺ: «اللهم ائتني أفضل ما تؤتي عبادك الصالحين، قال: فلما قضىٰ النبي ﷺ قال: **من المتكلم آنفًا؟** قال الرجل: أنا، قال: **إذن يعقر جوادك، وتستشهد في سبيل الله**»[1]، لأن هذا أفضل ما يعطي الله ﷻ

(١) أخرجه البزار رقم (١١١٣)، وابن خزيمة رقم (٤٥٣)، والنسائي في الكبرىٰ رقم (٩٩٢١)، وابن حبان في صحيحه رقم (٤٦٤٠)، والحاكم في المستدرك رقم (٧٤٨) وقال: حديث صحيح علىٰ شرط مسلم ووافقه الذهبي.

عبدًا من عباده، فهذا من الحكم التي ذكرها الله والحكم التي فيها لا يدرك استقصاءها، وإنما ندرك الأمور البارزة الظاهرة التي نبهنا الله ﷻ عليها.

فيجب علىٰ العبد أن يظن بربه الظن الحسن الجميل في كل أمر من أموره، سواءً ما يتعلق بخاصته يعني خاصة العبد، أو ما يتعلق بشرع الله أو بقضائه وقدره، إذا أدرك شيئًا من الحكم والأمور ظاهرة المصلحة فهذا خير وفضل من الله، وإن لم يدركها يجب أن يكون عنده متأصل في قبله، يعلم أن الله حكيم عليم يضع الأمور في مواضعها لحكم عظيمة ويميز الحق من الباطل.

وكثير من الناس يظن ظن السوء، سواءً فيما يتعلق في نفسه أو يتعلق بالناس، أو يتعلق بشرع الله أو بقدر الله وقضائه، وهذا وقع فيه حتىٰ بعض العلماء، وأما الأدباء فحدث ولا حرج، لأن الأدباء في الواقع كثير ما يكونون زنادقة، ولهذا يقول المعري:

إذا كان لا يحظىٰ برزقك عاقل ... وترزق مجنونًا وترزق أحمقا

فلا ذنب يا رب السماء علىٰ امرئ ... رأىٰ منك ما لا يشتهي فتزندقا[1]

يعني: كأنه وضع نفسه فوق الله تعالىٰ الله وتقدس، وأول من سلك هذا المسلك إبليس حيث امتنع من السجود عندما أمره الله: ﴿قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢] يعني أنك ما وضعت الأمور في مواضعها، فلو أنك وضعت الأمور في مواضعها لوجب أن يسجد لي هو، فهو ما رضي أن يكون شريكًا لله تعالىٰ وتقدس بل رفع نفسه فوق ذلك، منتقدًا أمر الله رادًا عليه.

وهكذا كثير ممن يسلك هذا المسلك يكون كذلك، ولهذا يقول مثلًا إذا أعطي الفاسق شيئًا من أمور الدنيا مراكب ومساكن وأموال، فلان مسكين فقير

(١) الآداب الشرعية لابن مفلح (٢/ ٢٨٩).

فهذا اعتراض على الله ﷻ وعلى تقديره تعالى وتقدس. وتجد بعضهم مثلًا يقول إذا أصيب بمرض أو مصيبة أنا أصلي وأصوم ولكن ما أدري ما هذا الذي أصابني، فمعنى هذا أن الله ظلمني وأنا لا أستحق هذا الشيء وهذا كثير وهذا من ظن السوء الذي يقول: فتش نفسك فربما تجد نفسك هكذا.

الواجب أن يكون ظن السوء بنفسه لأنها هي محل السوء، والله هو أهل الحسن والكرم والجود، فنعم الله لا تحصى على العبد.

ولكن الأمور الظاهرة مثل ما ذكر هنا في موضعين من القرآن في قصة أُحد وقصة الحديبية، لما ظهر علو الكافرين وصدهم المؤمنين فدعوا أن المؤمنين ضعفاء وأن أمر المؤمنين سينتهي، والكافرون هم الذين بيدهم الأمر فأخبر الله ﷻ أنه أنزل السكينة على المؤمنين ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم لأنه كان عليمًا حكيمًا يعلم الأمور وحكيمًا يضع الأمور في مواضعها ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦] إذا كانت هذه هي النهاية، وهذا بعض ما نالهم في هذه الدنيا فهو ليس شيء، ولهذا يقول ﷻ: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ [آل عمران: ١٩٦].

وبعض الناس إذا شاهد أمريكا أو غيرها وأن عندها قوة وأنها استضعفت كثيرًا من المسلمين واستولت على أراضيهم ومدخراتهم، يظن أنه فضل وعندهم حظوة والواقع أنها إهانة، وهذا سوف يزول بقرب ولن يستمر أبدًا، وسوف ينقلب عليهم، وإذا قدر أنه يحصل مرادهم في هذه الدنيا فليس شيء؛ لأن الله لا يرضى الدنيا أن تكون عقابًا للمجرمين؛ يعني: محلًّا لعقاب المجرمين.

وكثير من الناس إذا كان هناك ظالم تجدهم يقولون لماذا لم يمت هذا؟

أمر الدنيا قليل لو أكل عمره كله إلىٰ آخره فسوف يموت ولا يفوت الله ﷻ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [إبراهيم: ٤٢] فالأمر قريب.

فالمقصود أن الواجب أن يعلم العبد الحكمة في هذا وهي بالغة، فأخبر الله أنه يمهلهم ليزدادوا إثمًا علىٰ إثم ليضاعف عذابهم يوم القيامة: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨]، هكذا في جميع أحكام الله ﷻ يجب أن يعرف العبد أنه حكيم في جميع تدبيراته الشرعية ويظن الإنسان أن بفعله في عباده المؤمنين أسرارًا وحكمًا عظيمة في أمره القدري والشرعي وغير ذلك حتىٰ يتبين الصالح من الفاسد والمؤمن من المجرم ولا سيما الذين يخالطون المؤمنين، فهؤلاء عند النكبات يتكلمون ويخرجون ما في نفوسهم فيتبين هذا للمؤمنين فيأخذوا حذرهم، وإذا تأمل الوقائع التي وقعت منهم يعرفهم العاقل.

وقد يظن بعض الناس أن عدم النصر أنه خذلان، والله وعد عباده المؤمنين ووعده حق ولا بد أن يقع.

والنصر أصبح عند بعض الناس علىٰ غير تفسيره الحقيقي، ولا يلزم أن يكون المؤمن القائم بأمر الله له جيوش يسيطر بها علىٰ الأرض أو بعضها، إذا أظهر الله أمره وبان فهذا هو النصر.

الثاني: أنه إذا مات مقتولًا أو غير مقتول متمسكًا بأمر ربه فهو منصور قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١]، فالنصر واحد والوعد واحد، فالمقصود معرفة الميزان في هذا وهو طاعة الله والتمسك بالسُّنَّة والموت علىٰ ذلك، فإذا كان بهذه الصفة فهو في الواقع منصور.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: وقوله: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ [الفتح: ٦].

هذه الآية ذكرها بعد أن أخبر بإرساله جنوده من الملائكة ومن المؤمنين أنه سوف يعذب المنافقين والمشركين: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾، فأخبر أن ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾؛ يعني: أنهم سوف يغلبون ويهزمون ويقتلون، وتكون عاقبتهم إلىٰ جهنم فقال: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦]، وإن كان كثيرًا ما ينبهنا ربنا ﷻ علىٰ هذا الأمر ويقول: لا تغتروا في كون الكفار قد يظهرون وقد يكون لهم تقلب في البلاد، فإن حسبهم جهنم؛ يعني: هذا أمر سهل وقليل جدًا، ولهذا يقول العلماء: حسب سُنَّة الله ﷻ أن الله ﷻ لم يرض الدنيا أن تكون عذابًا لأعدائه؛ يعني: أنه لا يعذبهم بها، وهذا ليس علىٰ إطلاقه، ولكن كثيرًا ما تشاهد الظالمين والكافرين وغيرهم يعيثون في الأرض فسادًا يأكلون ويعملون لا ينزل عليهم عذاب عاجل، بل يعيشون كما يعيش الناس، ويموتون كما يموت الناس، وهذا لا يمكن أن يذهب هكذا فلا بد من العقاب، ولكن العقاب في الدنيا ينتهي بالموت، فتكون المدة قليلة وإنما العذاب الذي هو عذاب الآخرة، لا يموت ولا يحيا دائمًا فيها عذاب مقيم: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠] و﴿كُلَّمَا﴾ في لغة العرب للشيء الذي لا نهاية له، كلما صار هذا، تجدد بعده شيء، فهذا هو العذاب الأكبر، ومع ذلك فإنه يصيبهم في الدنيا ما يصيبهم ولا بد، ولكن هذا في الأمور التي تعم، أما الأمور الخاصة؛ يعني: خاصة في وقت وفي قوم، دون قوم فهذه لا بد من نصر الله ﷻ لعباده المؤمنين، فهذا في أمر الحكمة أن لله حكمًا في كونه قد يديل الكافر علىٰ

المؤمن إدالة غير مستمرة بل مرة ثم تزول، ومن الحكم كذلك ما ذكر الله في هذه الآية التمحيص، والتمحيص معناه تكفير الذنوب، والتأديب، تأديب المؤمنين وكذلك زيادة الحسنات وكذلك اتخاذ الشهداء، وكل هذا ذكره الله ﷻ ونص عليه في الآية، وهو ﷻ يحب هذه الأشياء، كما أنها في مصلحة المؤمنين، فمن ظن أن هذه أمور علىٰ حسب القوة وليست بتصريف الله وبحكمته فإنه يظن بالله ظن السوء.

وكذلك كونه ينكر أن تكون بقدر الله وتدبيره وعلمه السابق، والكتابة الأزلية، فإن هذا ظن غير ما يليق بالله وأسمائه وصفاته.

ويتبع هذا أن يظن أن هذا هو الواقع الذي سيستمر الناس عليه؛ يعني: أن الكفر هو الذي يغلب، فهذا ظن خلاف وعده ﷻ، وخلاف سُنَّته في عباده.

فهذه أمور ثلاثة فسر بها ظن السوء في الآية:

الأول: إنكار أن يكون هذا وقع بتقدير الله ﷻ، وتدبيره، وأنه بالإمكان تغييره لو كان للمنافقين الأمر، وهذا ظن كاذب، وظن سيئ بالله.

الأمر الثاني: إنكار الحكمة، أن هذه مجرد مشيئة فقط لا حكمة في ذلك، وقد أخبر الله أن له حكمًا أدرك بعضها أهل العلم وكثير منها لا يدركونه، وإنما هو علىٰ مقتضىٰ أسماء الله وصفاته فقد يدرك وقد لا يدرك، منها ما سمعنا من الحكم تمحيص المؤمنين واتخاذ الشهداء منهم وإظهار ما في الصدور، وإن كان عليمًا بذات الصدور، ومنها التمييز بين المؤمنين والكافرين ليتبين بالفعل الظاهر الجلي وغير ذلك من الحكم التي إذا تبينها الإنسان وجد الكثير منها.

الأمر الثالث: الظن بأن الكفر سيكون هو المسيطر وهو المهيمن، وأن الإسلام سينتهي ويضمحل كما صرح بذلك بعضهم قالوا هذه هي النهاية وهذا من ظن السوء، وهكذا إلىٰ أن تقوم الساعة يجب أن يكون العبد حذرًا ومتبعًا لما دل عليه

الله ﷻ بآياته وصفاته؛ لأن الأمر كله لله ﷻ، ينصر من يشاء وكذلك يهدي من يشاء ويضل من يشاء، لو حصل مثلًا أن الكفار ظهروا وقتلوا المؤمنين، هل يكون هذا إهلاك لهم واضمحلال لأمرهم؟

كلا ما دام أنه ظهر أمر الله وبان وبلغ الناس لا يكون ذلك وسيظهر، ولكن الله ﷻ جعل هذه الأيام دول، مرة يديل المؤمنين علىٰ أعدائهم وينصرهم، ومرة يبتليهم ليمحص ما في قلوبهم ويمحص ذنوبهم أيضًا؛ لأن الذي يقع بسبب الذنوب كما ذكر ذلك صريحًا في هذه القصة.

وكذلك هو ﷻ علام الغيوب يعلم ما في القلوب فيظهر علمه جليًّا الذي يعلمه ويبين بالعمل يعني: بالقول والفعل هذا من الحكم.

وإذا ظن الإنسان أن أمر الله الذي وعد أنه سيظهر ويتم أنه ينتهىٰ وأنه يُقضىٰ عليه فهذا ظن سوء بالله ﷻ وهذا مجرد تمثيل فقط، وإلا فالأمر لا يقف عند هذا، كل ظن خلاف أمر الله فإنه ظن سوء وأمر الله يدخل فيه أمره الشرعي ويدخل فيه أمره القدري ويدخل فيه وعده وجزاؤه.

فمن ظن مثلًا أن المؤمن الذي عمل الصالحات واستقام علىٰ أمر الله مخلصًا له الدين ووقع في كبيرة من كبائر الذنوب ثم مات أنه مخلد في النار وأن عمله سيبطل كله فهذا ظن سوء بالله ﷻ؛ لأن الله ﷻ يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وجعل الكبائر ما عدا الشرك تحت مشيئته.

وكذلك الذي يظن أن المجرمين كالمسلمين يمكن أنهم يكرمون ويدخلون الجنة فإنه ظن ظن السوء ﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [القلم: ٣٥]، وأخبر ﷻ أنه خلق السموات والأرض بالحق ولتجزي كل نفس بما كسبت، فمن ظن أنها خلقت باطلًا فقد ظن بالله ظن السوء، فمثل هؤلاء الذين يقولون العالم الذين علىٰ الأرض ليس معقولًا أن كلهم يعذبون إذا كانوا لا يصلون ولا يزكون ولا يصومون، فهل الأمر

مثلا لحكمك الذي يترك أمر الله ثم يأتي هو يحكم هو أيضًا علىٰ الله في ذلك، معنىٰ ذلك أنه رفع نفسه فوق مقام الله تعالىٰ وتقدس، لأن الخلق كلهم عباد الله إذ لم يعبدوه ويطيعوه عذبهم ولا يبالي ﷻ وما أهونهم عليه، إن يشاء يذهبهم ويأتي بغيرهم: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأۡتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرٗا﴾ [النساء: ١٣٣].

والمقصود أن الإنسان عبد، وعبوديته يجب أن تكون علىٰ وفق أمر الله له، وبمقتضىٰ أسمائه وصفاته، فهو شديد العقاب وهو غفور رحيم ﷻ، كل هذا في موقعه حكمة بالغة ورحمة من الله ﷻ.

وسوف يتبين للناس يوم يجزيهم كلًّا بما يستحق أن هذا هو الحق الذي لا يجوز غيره، يتبين لهم جميعًا حتىٰ أهل النار، ولما كان الناس لا يستطيعون أنهم يصلون إلىٰ حقيقة ذلك بعقولهم أخبرنا الله بهذا، فأخبرنا بالمبدأ أن له الحمد في كل شيء: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١] (أل) في قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ جاءت للاستغراق يعني أن الحمد كله له، وكل حمد يصدر ويقال ويفعل فهو لله علىٰ فعله وحكمه وخلقه وجزائه، هذا في المبدأ.

وفي المنتهىٰ كذلك قال: ﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡۖ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥]، فالتعبير بـ (وقيل) حتىٰ يكون هذا عام كل قائل المعذب والمنعم، كلهم قالوا الحمد لله رب العالمين فهو محمود علىٰ جزائه وعلىٰ كونه وضع كل في موضعه اللائق به.

كل ما يفعله ﷻ فهو عدل في ذلك وله حكمة بالغة قد يدرك بعضًا منها بعض الناس وقد لا يدركون شيئا منها.

فكيف يليق بالإنسان الضعيف قاصر العقل وقاصر النظر وقاصر الفكر أن يظن بنفسه أنه يمكن أن يستدرك على الله، أو يرى أن ما فعله الله أو يفعله أنه ليس حسنًا وليس في موقعه، إذا كان مثلًا هذه صفته فقد ظن بالله ظن السوء.

وكذلك الذي يتصور أن الله لا يطلع على أسراره ولا يطلع على أعماله وتقلباته ويعلم حاله في كل شيء فهو ظان بالله ظن السوء.

وكذلك الذي يظن أن الخلق بالنسبة إليه سواء المجرم والمؤمن والملائكة والشياطين لا بالقرب ولا بالجزاء ولا بالعمل فإنه يظن بالله ظن السوء. وكذلك الذي يظن بأن الله في كل مكان، وأن ذاته ﷻ كما تكون في أعلى عليين تكون في أسفل سافلين قد ظن بالله ظن السوء -تعالى الله وتقدس-.

وكذلك الذي يظن أنه يمكن أن يضيع عليه شيء من أعماله وأنه لا يجازى بذلك فإنه يظن بالله ظن السوء، وهذا لا حصر له إذا فكر الإنسان في ذلك، ومقتضى ذلك أن كل ما خالف أمر الله أو خالف مقتضى أسمائه وصفاته أو خالف جزاءه وشرعه فإنه ظن سوء بالله ﷻ، فيجب على العبد أنه يعتني في هذا ويبحث عن نفسه، إذا كان الله ﷻ أخبرنا أن من لم يرض بحكم الرسول ﷺ ويسلم له أنه ليس بمؤمن كما قال ﷻ: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥]، فكيف يكون حال من اعترض على أمر الله ﷻ، سواءً كان أمرًا شرعيًا أو قدريًا لم يرض بتدبير الله، ولا بتقديره، ولا بخلقه، يعني أنه رأى غيره أحسن منه، وأنه يمكن أنه لو كان كذا وكذا يكون أحسن فهل يكون هذا مؤمن؟ هذا بعيد عن الإيمان.

والمقصود أن الإنسان يجب أن يتعرف على معاني أسماء الله وصفاته، وكذلك يعرف أن حكم الله أنه هو الحق وأنه العدل وأن غيره ضلال.

فمن ظن أن هذه الأزمان التي يسمونها زمن المدنية أو التقدم أنه لا يصلح لها شرع الله أن يحكم وإنما تصلح آراء الناس وأوضاعهم التي يتواضعون عليها والقوانين التي يضعونها، أما الشرع فكان لوقت محدد لبدو كانوا لا يعرفون التقدم، أما الآن فلا يصلح أن الإنسان تقطع يده إذا سرق ولا يصلح أنه إذا زنا وهو محصن أنه يرجم حتىٰ يموت، ولا يصلح مثلًا أنه يملك الكافر ويكون عبدًا له وما أشبه ذلك من الأمور التي صاروا يصرحون بها صراحة بأنها لا تناسب الوضع الحالي، فهؤلاء لا يكونون مؤمنين وقد ظنوا بالله ظن السوء -تعالىٰ الله وتقدس- عن قولهم وظنونهم.

فالمقصود أن هذا كثير ولا يمكن استقصاؤه وإنما ينبغي للعبد أن ينتبه لنفسه ما الذي يتسخط من الأقدار ومن الأمور التي تقع مقدر لها ربنا ﷻ تجد عنده شيء من الاعتراض علىٰ ذلك والتسخط له وأن هذا ما يليق، فمثل هذا يحتاج أنه يتوب ويجدد إيمانه من جديد، ويؤمن من جديد ويعرف أن الله ﷻ حكيم عليم وأنه يضع الأمور في مواضعها.

فالمؤلف رحمه الله أراد بذلك أن ينبه علىٰ هذه الأشياء، وأنه يجب أن يحسن الإنسان ظنه بشرع الله ﷻ وأنه لا يمكن أن يكون شيء أحسن منه، وفي ضمن شرعه عبادته التي يجب أن تكون خالصة له، أما أنه يظن أنه يمكن أن يكون هناك وساطة بينه وبين ربه، يدعو هذه الوساطة ويجعلها شافعة له وأن هذا يكون أحظىٰ وأقرب إلىٰ الله وأسرع للإجابة، فهذا من أخبث الظن وأفسده لأنه علىٰ خلاف مقتضىٰ أسمائه ﷻ وأنه الأحد الصمد الذي لا يكون له شريك ولا نظير لا في حقه، ولا في ذاته، ولا في وصفه، ولا في حكمه تعالىٰ وتقدس.

وكذلك كونه يظن أنه إذا اتجه إلىٰ مخلوق من المخلوقات يدعوه أنه يستجيب له ذلك المخلوق وأنه يتوسط له عند الله ويقربه إليه، هذا من أسوء الظن وأخبثه، وهو خلاف شرع الله ﷻ تعالىٰ الله وتقدس.

فالمقصود أن الواجب علىٰ العبد أن يظن بربه الظن الحسن وظنه بربه ظن الحسن يدعوه إلىٰ أن يحسن عبادة ربه وأن يتبع شرعه وأن يحرص علىٰ متابعة رسوله ﷺ.

ثم بعد هذا يكون ظانًا بربه أنه يثيبه أفضل الثواب ويرفع درجته مع عباده المقربين إذا تمسك بذلك، ومن أبىٰ ذلك فإنه قد سلك سبيل الضلال، نسأل الله العافية.

قال المؤلف رحمه الله**: فيه مسائل:**

الأولى: الإخبار بأن ذلك أنواع لا تحصر.

يعني ظن السوء أنه أنواع كثيرة جدًا، وإنما نبه علىٰ شيء منها.

الثانية: أنه لا يسلم من ذلك إلا من عرف الأسماء والصفات، وعرف نفسه.

لأن الإنسان ظلوم جهول وإذا كان ظلم جهل فهو محل السوء -نسأل الله العافية-.

الباب الستــون

✍ **قال المؤلف** رحمه الله **: باب ما جاء في منكري القدر.**

يعني: من الوعيد ومن كونهم غير مؤمنين، بل خرجوا من دائرة الإيمان لأن الإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان.

قوله: «**في منكري القدر**»: منكري مضاف والقدر مضاف إليه. والإنكار هو عدم الإقرار، ضد الإقرار والإيمان.

قوله: «**القدر**»: القدر يجوز أن يكون بفتح الدال، وتسكينها. القدَر والقدْر.

والقدر مأخوذ من القدرة، وقد فسره الإمام أحمد: بقدرة الله؛ يعني: أنه من صفات الله من قدر الشيء يقدره، والله جل وعلا قدر الأشياء قبل وجودها؛ يعني: أنه علمها وعلم صفاتها وأوقاتها ثم كتب ذلك، ثم شاء ذلك وخلقه.

فالإيمان بالقدر يتضمن الإيمان بمراتبه الأربع: مرتبة العلم، ومرتبة الكتابة، ومرتبة الخلق، ومرتبة المشيئة.

وذلك أن الله علام الغيوب، يعلم كل شيء ولا يفوت علمه شيء من الأشياء، وأن الله كتب علمه كما أخبر بذلك بهذه النصوص وغيره.

وهو جل وعلا الخالق وحده ليس معه شريك في ذلك، وهو جل وعلا المتصرف في الكون كله كيف يشاء، فما شاء كان وما لم يشأ لا يكون، هذا هو الإيمان بالقدر.

فالدرجة الأولى وجد من ينكرها في عهد الصحابة، فلما علموا أن من أنكرها أنه كافر وأخبرهم الصحابة بذلك تراجعوا لظهور كفر من قال به، ولهذا قال الشافعي رحمه الله: ناظروهم بالعلم فإن أقروا به خصموا وإن أنكروه كفروا.

وإنما حصل الخلاف ولا يزال في الدرجتين الأخيرتين عموم الخلق وعموم المشيئة، فالقدرية يرون أن الإنسان هو الذي يخلق فعله، فجعلوا مع الله خالقين كثيرين وبذلك وقعوا في الشرك في الربوبية لأنهم جعلوا مع الله من يخلق، فالإنسان يخلق فعله عندهم هو الذي يخلق إيمانه أو كفره، وعمله كذلك، وزعموا أن الذي حداهم إلىٰ القول به تنزيه الله عن الظلم، قالوا: كيف تقولون أن الله قدر علىٰ الكافر الكفر ثم عذبه عليه هل يعذبه بفعله؟ وقد يسيء الإنسان استخدام الحق، أو قد لا يحسن أن يجيب عن الباطل فيتصور السامع ويظن أن صاحب الباطل قد غلب وليس كذلك.

فالمقصود أن هؤلاء أنكروا أن تكون مشيئة الله عامة شاملة، كما أنكروا أن تكون المخلوقات كلها لله ﷻ، بل زعموا أن الإنسان يخلق مع الله.

المجوس يعتقدون أن المدبر إلهان: إله الخير وإله الشر، وإله الخير يتمثل بالنور وهو الغالب عندهم، وإله الشر يتمثل بالظلمة.

أما هؤلاء فهم يجعلون الفاعلين كثيرين جدًا، والعجب أنه يجري الخلاف في ما بينهم هل يقدر الله ﷻ أن يخلق مثل فعل الإنسان «وعمله الذي يعمله»؟ وكل هذا ضلال ظاهر.

فالمقصود أن الإيمان بالقدر حتم لا بد منه، ومن لا يؤمن به فإيمانه غير صحيح وهو ليس من المؤمنين، ولهذا تبرأ الصحابة منهم كما ذكر المؤلف.

أما البحث عن أسراره وحقائقه التي أخفىٰ الله كثيرًا منها وقد يعسر علىٰ الإنسان معرفتها، فهذا لا ينبغي البحث فيه؛ لأنه قد يؤول بالإنسان إلىٰ إنكار شرع الله أو قدر الله أو أن ذلك يتعارض بعضه مع بعض كما وقع من كثير من الناس؛ يعني: أنه يكفي العبد أن يؤمن بالنصوص التي جاءت مع الإيمان بعموم مشيئة الله،

وبعموم خلقه وعموم علمه ﷻ، وأنه ﷻ كتب هذه الأشياء في كتاب لا يغادر شيئًا منها، حتىٰ أوصافها وأوقاتها وغير ذلك، هذا يكفي في الإيمان به.

أما لماذا فعل، ولماذا كتب كذا أو عمل كذلك أو فعل كذا؟ فهذا قد يؤول بقائله والباحث عنه إلىٰ إنكار القدر فيكون مما توعده الله.

والمؤلف-رحمه الله- لم يذكر الحكم هنا، قال: باب ما جاء في منكر القدر. ذكر شيئًا مما جاء والذي ذكره يدل علىٰ أنه كافر؛ لأن الإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان وركن الشيء لا يمكن أن يتم إلا بوجوده كركن البيت مثلًا، البيت يعتمد علىٰ أركان يعني أعمدة إذا سقط واحد منها لا ينتفع به ولا أحد يدخل تحته لأنه سيسقط فيهلك من تحته، فهكذا الإيمان إذا ذهب ركنه فقد ذهب كله والباقي منه لا ينفع، ولا يستفاد منه هذا معنىٰ قوله ذهب كله؛ لأن باقيه يصبح غير نافع.

فلا بد من وجود الأركان كلها حتىٰ يكون تامًا منتفعًا به، وقد جاءت نصوص كثيرة في كتاب الله وكذلك في سُنَّة رسوله ﷺ تثبت أنه لا بد من الإيمان به، والله ﷻ ابتلىٰ خلقه في إخباره بذلك حتىٰ يعلم الذي يؤمن من الذي يعترض وينصب نفسه شريكًا لله ﷻ باعتراضه عليه، والقدر يؤول إلىٰ صفات الله، فهو من صفاته، فالإيمان بصفاته يجب أن يؤمن بها حسب ما جاءت به النصوص.

ولكن لما كان الإيمان بتوحيد الربوبية أمر لازم أراد المؤلف أن ينبه علىٰ وجوب الإيمان بالقدر لأنه يتعلق بذلك، فهو يتعلق بربوبيته ﷻ لأنه ﷻ هو الذي يعلمها تعالىٰ وتقدس، فهذا وجه إدخال القدر في كتاب التوحيد. فيلزم من الإيمان بتوحيد الربوبية الإيمان بالقدر فهو من لوازمه التي لا بد منها.

والإيمان بالقدر فيه مشكلات عند كثير من الناس، وقد ضل طوائف فيه من الناس وهم في هذا انقسموا ثلاثة أقسام كما هو معروف في المناهج وفي السلوك

والاعتقادات الناس يكونون طرفًا ووسطًا، وفي هذه المسألة كذلك، فهناك من يسمون القدرية، والقدرية قسمان:

قسم غلوا في إثبات القدر حتىٰ جعلوا الإنسان كالآلة التي تدار ليس له خيار ولا قدرة وإنما الأفعال كلها تضاف إلىٰ الله، وإذا أضيفت إلىٰ المخلوق فهي علىٰ سبيل المجاز كقولك: أمطرت السماء، وطلعت الشمس، ومثل قولك: هبت الريح وقولك: مات فلان. فلان لا يموت باختياره، ولكن يُمات، وهكذا يجعلون الأفعال علىٰ هذا المنوال.

ثم لهم شبه منها قول الله ﷻ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] يقولون: إن الله نفىٰ عنه الرمي، وأثبت الرمي لنفسه، وهذه الآية لها نظائر.

وكذلك من أعظم الشبه التي تعلقوا بها الحديث الذي في الصحيحين حديث محاجة موسىٰ لآدم، فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**احتج آدم وموسىٰ فقال له موسىٰ: أنت آدم الذي أخرجتنا ونفسك من الجنة؟ فقال له آدم: أنت موسىٰ الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه ثم تلومني علىٰ أمر قدر علي قبل أن أخلق، فقال رسول الله ﷺ: فحج آدم موسىٰ مرتين**»[1]؛ يعني: غلبه بالحجة.

فقالوا: هذا معناه أن الإنسان يحتج بالقدر، وليس له اختيار وهذا ضلال، الرسول ﷺ ما أراد هذا، وكذلك موسىٰ عليه السلام لأنه قد علم أن آدم تاب من الذنب والتائب من الذنب ليس له تبعة في ذلك، ولكن أولًا:

نقول أن الله ﷻ خلق الإنسان مفكرًا مختارًا له قدرة وأمره بما يستطيع فعله،

(١) رواه البخاري رقم (٣٤٠٩)، ومسلم رقم (٢٦٥٢) واللفظ له من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ونهاه عما يستطيع الانكفاف عنه، وكل الأوامر التي أمر بها باستطاعته بسهولة، وقد يسر الله ﷻ العبادة، ما أراد بهم العسر وإنما أراد بهم اليسر.

فالأمر في هذا سهل، إذا آمن العبد فهو يفعل الأشياء باختياره، فإذا صلىٰ فهو يصلي باختياره وإذا كفر فكذلك، فإذًا يكون هو المؤاخذ بالأفعال، وأفعاله يفعلها هو حقيقة يباشرها حقيقة، ولهذا أضيفت إليه ونسبت إليه وقيل: ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠] وبما اجترحته نفسك واكتسبه قلبك وهو كذلك وهذا أمر واضح لمن تأمله.

الثاني: عقلي وفطري ووضعي: أننا نجدنا نفعل الأشياء باختيارنا وبقدرتنا، فهل أحد منا أجبر علىٰ المجيء إلىٰ هذا المكان وأرغم؟ الجواب: لا، بل جئنا باختيارنا وبقدرتنا، وهذا شيء مكتوب علينا مقدر قبل وجودنا، فعلىٰ هذا نقول:

الكتابة والتقدير هي علم الله في الأشياء، علم الله ﷻ أن هذا الخلق سيوجد وأنه سيفعل كذا وكذا فكتب علمه، فعلمه لا يرغمنا ويجبرنا علىٰ هذا الفعل بل نفعل ذلك باختيارنا، ومع ذلك قدرتنا واختيارنا لا تخرج عن مشيئته ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [التكوير: ٢٩] لا بد من هذا التوسط.

ثم الجواب علىٰ ما تعلقوا به من الآية، فالآية فيها إثبات ونفي، وهم أخذوا النفي فقط، فالآية فيها إثبات أن الله ﷻ أثبت له الرمي قال: ﴿وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] فإذًا المثبت غير المنفي، فالمثبت له أخذه الحصباء من الأرض وتحريك يده بها نحو المشركين. أما إيصال التراب والحصباء إلىٰ أعينهم ومناخرهم فهذا إلىٰ الله، فالذي نفىٰ عنه إيصال ذلك إلىٰ مناخرهم وأعينهم فإنه لما رمىٰ بالحصباء وصلت إلىٰ مناخرهم وأعينهم، فهذا ليس بمقدور الرسول ﷺ ولا في مقدور أحد من الخلق، وإنما هو بقدرة الله ﷻ، فهذا هو الذي

نفي عنه، فإذًا استدلالهم بالآية خطأ؛ لأنهم أخذوا جانبًا وتركوا الجانب الثاني.

أما الحديث فالجواب عن تعلقهم فيه فأقول أولًا:

عندنا قاعدة يجب أن نعرفها وهي: أن كلام الله وكلام رسوله ﷺ لا يمكن أن يتعارض أو يتضارب، لا بد أن يتفق، إلا في النسخ، كما أنه لا يمكن أن يدل على باطل.

الأمر الثاني: أن الإنسان إذا أعياه الجمع بين نصَّين سواءً آيات أو أحاديث فيجب أن يتهم رأيه وفكره، ولا يتهم النصوص؛ لأن الآراء والأفكار والفقه يكون قاصرًا والأمر إلى الله يفتح ﷻ على من يشاء ويفهمه ويعلمه، والناس يتفاوتون في هذا.

وعلى هذا نقول: الجواب عن الحديث أولًا: نعلم قطعًا أن موسى عليه السلام لا يمكن أن يلوم آدم على ذنب قد تاب منه، وهذا لا يجوز شرعًا، التائب لا يلام على الذنوب لأن التائب ليس له ذنب ولو كان كذلك لقال آدم: أنت قتلت نفسًا، لماذا تقتل النفس؟ ولكن ليس هذا هو المقصود.

وإنما المقصود أن موسى عليه السلام لامه على المصيبة، والمصيبة هي أثر الذنب وليست هي الذنب، وهي الخروج من الجنة، ولهذا قال: «**لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة**»، والمصائب إذا وقعت لا حيلة فيها، فالإنسان يحتج بالقدر في هذا، ولهذا يقول العلماء: الاحتجاج بالقدر على المصائب لا على الذنوب والمعائب، لأن العبد إذا أذنب يجب أن يتوب هذا هو الطريق والخروج منه يجب أن يتوب ويستغفر ويعود على نفسه باللوم، ولهذا صار من شروط التوبة الندم، والندم هو: تألم القلب على الوقوع في هذا الشيء، يألم ويقول لماذا استولى عليَّ الشيطان ونفسي وفعلت هذا الشيء؟

ثم من شروط التوبة: الإقلاع عن الذنب يعني تركه. أما أن يقيم عليه ويقول هذا قدر فهذا عناد ومحادة لله ﷻ، فلا يمكن أن يكون تائبًا وهو مقيم علىٰ الذنب لا بد أن يقلع ويندم ويترك الذنب.

فإذًا لوم موسىٰ عليه السلام لآدم علىٰ الخروج من الجنة وهي المصيبة التي وقعت له وبنيه، ولهذا قال آدم: «**هذا شيء مقدر لا حيلة فيه**»، فنحن نؤمن بتقدير الله والمصائب التي كتبت علينا نرضىٰ بذلك ونسلم، فالمصيبة تكون بعد وقوع ذلك، أما قبل ذلك فهي ذنب والذنب يستغفر منه، وهذا هو الجواب الصحيح عن الحديث.

وقول بعضهم غلبه لأنه أبوه وموسىٰ ابنه، فالحق يجب أن يكون هو الغالب سواء من الأب أو من الابن، فقولهم غير صحيح.

والمقصود: أنه ليس لهم حجة في هذا، ولو كان مثلًا هذا حجة لبطلت الشرائع بل بطلت الدنيا كلها، يمكن أن كل واحد يعمل ما يروق له ويقول هذا قدر لا تلوموني عليه يمكن يزني ويسرق ويقتل ويقول: هذا مكتوب لا تلوموني، فلا تستقيم علىٰ هذا دنيا ولا دين.

حتىٰ الذين يقولون: إن الإنسان مجبور ليس له قدرة ولا اختيار لا يرضون بهذا المذهب بالفعل، فلو أحرقت ماله أو ضربته وقلت له لا تلوموني هذا مقدر علي، هل يرضىٰ ويسلم ويقول: نعم؟ بل يشتد غضبه ويزداد ويقاتل، ويقول: هذا فعلك أنت الذي فعلت هذا الشيء، فلا بد من معاقبة الفاعل، ولا بد من محاسبته علىٰ فعله. ولهذا صار من شرط ذلك أن يكون عاقلًا مختارًا، أما غير العاقل فلا يؤخذ بذلك، ولهذا رفع القلم عن المجنون وكذلك البهائم كما قال الرسول ﷺ: «**العجماء**

جبار»[1]، ومعنىٰ جُبار: ما تتلفه ليس مضمونًا؛ لأنه لا عقل لها. فالمقصود أنه لا حجة لهم بهذا.

يبقىٰ القسم الثاني الذين هم القدرية، الذين ينفون القدر، القسم الأول يثبتونه ويغلون فيه، ولكن يجعلون الإنسان مسلوب القدرة والاختيار، وهذا تطرف.

القسم الثاني قابلوهم تمامًا قالوا: الإنسان هو الذي يخلق أفعاله، وهو الذي يستقل بها ولا دخل لله في ذلك: فيؤمن باختياره، ويكفر باختياره، كما أنه يصلي ويأكل ويصوم وغير ذلك، هذا فعله حقيقة.

ولكن كونهم غلوا في هذا وقالوا: إن الله لا يخلق أفعال العباد، هذا ضلال لأن الله هو الخالق لكل شيء، وهو المليك لكل شيء، الذي يملكه ويتصرف فيه، فهو خلق هؤلاء المخلوقين وجعل بقدرته ومشيئته لهم قدرة واختيارًا لا تخرج عن قدرته واختياره، وبهذه القدرة يستطيعون أن يفعلوا الشيء عن اختيارهم ويكون فعلهم ويستحقون بذلك الثواب أو العقاب علىٰ هذا، وشبهتهم في هذا أنهم لم يستطيعوا الجمع بين قدر الله وشرعه وجزائه؛ لأن العقول قاصرة في الواقع وهم يحكمون عقولهم، فقالوا: لا يمكن أن نقول أن الله قدر علىٰ الناس الكفر والمعاصي وخلقها فيهم ثم يعاقبهم عليها إلا أن يكون ذلك ظلم والله منزه عن الظلم، فهم بزعمهم أنهم أثبتوا أن الإنسان خالق لفعله من باب التنزيه لله ﷻ، ولكن هذا قصور لأنهم في الواقع لم يتأملوا كلام الله، وكلام رسوله ﷺ حق تأمله، ولم يسترشدوا به ويستهدوا الله ﷻ ومن لم يهده الله فإنه يضل وهم يزعمون أن عقولهم هي التي تهديهم وتدلهم، فعوقبوا علىٰ ذلك عوقبوا علىٰ أن جهلوا هذا الأمر، ووقعوا في الشرك لأن قولهم إن الإنسان يخلق فعله هذا مشاركة لله ﷻ،

(١) رواه البخاري رقم (١٤٩٩).

والخالق هو الله وحده وليس معه أحد يخلق تعالىٰ وتقدس.

ثم إن الحجة عليهم كثيرة جدًا من كتاب الله والوضع ومن العقل ومن غير ذلك. الله ﷻ أخبر أنه خلق كل شيء فقدره تقديرًا، وأنه الخالق لكل شيء، ولهذا قال لنا رسول الله ﷺ كما سمعتم: «**أن تؤمن بالقدر خيره وشره**»؛ يعني: لا يكون مؤمنًا إلا بهذا.

فجوابهم عن قولهم أنه إذا كان قدره عليهم أنه ظلم مثل ما سبق أن الذي قدره الله ﷻ وكتبه هو علمه فيهم فإنه علم أنهم سيوجدون، وأنهم سيفعلون المعاصي باختيارهم، أو الطاعات باختيارهم وقدرتهم لا أحد يرغمهم علىٰ هذا وهذا هو معنىٰ التخيير، ولهذا قال الله ﷻ: ﴿ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْ﴾ [الإسراء: ١٠٧]؛ يعني: الأمر إليكم إن أمنتم تحصَّلتم علىٰ الجزاء والخير الكثير، وإن كفرتم فلن تعجزوا الله وسوف تلقون جزاءكم، هذا هو خلاصة الأمر في هذا.

القسم الثالث الوسط في هذا نقول: إنه لا بد من الإيمان بأن الله هو الخالق لكل شيء، وهو ﷻ الذي كتب علمه في الأشياء كله قبل وجودها لتمام علمه ولأنه لا يخرج عن علمه شيء ﷻ، وهو الذي مشيئته تنفذ، وهو ﷻ إذا أراد شيئًا فلا بد منه، وأما مشيئة الخلق فهي داخلة في هذا ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [التكوير: ٢٩] ما شاء الله ﷻ هو الذي سيقع ثم هو ﷻ خلق الإنسان وجعله مختارًا بما يسر له، فإن كان الله ﷻ أراد به الخير زين في قلبه الإيمان وحسنه وحببه إليه، وهذا فضل الله، وإلا منعه هذا الفضل ووكله إلىٰ نظره وإلىٰ عقله، ومن وكل إلىٰ نظره وعقله ضل ولا بد.

✍ **قال المؤلف** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقال ابن عمر: والذي نفس ابن عمر بيده لو كان لأحدهم مثل أُحد ذهبًا، ثم أنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه حتىٰ يؤمن بالقدر، ثم استدل بقول

النبي ﷺ: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته، وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره» رواه مسلم(١).

فهذا الحديث فيه قصة اختصرها المؤلف رحمه الله وهي كما في صحيح مسلم عن يحيىٰ بن معمر قال: كان أول من تكلم في القدر بالبصرة معبد الجهني فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري حاجين أو معتمرين فقلنا: لو لقينا أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر؟ فوفق الله لنا عبد الله بن عمر داخلًا المسجد فاكتنفته أنا وصاحبي فظننت أن صاحبي سيكل الكلام إليّ، فقلت: أبا عبد الرحمن إنه قد ظهر قِبَلنا أناس يقرؤون القرآن ويتقفرون العلم، يزعمون أن الأمر أُنُف، فقال: فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم، وأنهم برآء مني، والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أُحد ذهبًا فأنفقه ما قبله الله منه، حتىٰ يؤمن بالقدر، ثم قال: حدثني عمر قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر ... الخ، وفيه لما سأله عن الإيمان قال: «**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره**» وهذا هو الشاهد الذي أراده عبد الله بن عمر، فبين أن الإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان وأنه لا يتم للعبد إيمانه إلا به.

فقوله: «والذي نفس ابن عمر بيده»: هذا قَسَم، وكثير ما كان رسول الله ﷺ يقسم بهذا القسم يقول: والذي نفسي بيده، أو يقول: والذي نفس محمد بيده.

والمعنىٰ أن الذي يملك حياتي وموتي هو الله، فهو يقسم بربه جل وعلا، والنفس هي التي بها الحياة؛ يعني: إذا شاء أن يقبضها قبضها، وإن شاء أن يتركها تركها مع أن الأمر مقدر في هذا، ولكنه العلم موكول إليه جل وعلا.

(١) رواه مسلم رقم (٨).

وفيه إثبات اليد لله ﷻ كما هو موصوف بأنه ﷻ له يمين وشمال كما جاء في صحيح مسلم، وهذا لا مانع منه لأن هذه نسبة فقط، ولهذا قال: «**وكلتا يدي ربي يمين**» يعني كلتاهما كاملة تامة لا يلحقها نقص كما يلحق شمال المخلوق، فالمخلوق يمينه أكمل من شماله، والله ﷻ لا يجوز أن يوصف بشيء من النقص.

أما إفرادها هنا ما يدل على أن الله ليس له إلا يد واحدة، كما أن جمعها لا يدل على الجمع، وقد جاءت مفردة في كتاب الله وجاءت مجموعة، وجاءت مثناة، كما قال ﷻ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٦٤] تعالى وتقدس، وقال تعالى في خطابه لإبليس: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: ٧٥] فثناهما، خلق آدم بهما.

وجاء في الحديث أن الله باشر ثلاثة أشياء بيده: خلق آدم بيده، وغرس جنة عدن بيده. وكتب التوراة لموسى بيده[1]، تعالى وتقدس.

ومعنى هذا يقول الله ﷻ أنا الكبير المتعال جبار السماوات والأرض لم أتكبر من مباشرة خلق آدم بيدي وأنت تتكبر عن السجود، ولكن هذا الغرور -نسأل الله العافية-.

فالمقصود أن إثبات اليد لله ﷻ أمر لا بد من الإيمان به على ظاهره حقيقة.

وقد جاء في القرآن أن الله يقبض السموات كلها بيده تعالى وتقدس، قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

---

(١) الأسماء والصفات للبيهقي رقم (٦٧٦) عن عبد الله بن الحارث عن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله ﷻ خلق ثلاثة أشياء بيده: خلق آدم بيده، وكتب التوراة بيده، وغرس الفردوس بيده، ثم قال: وعزتي لا يسكنها مدمن خمر ولا ديوث**».

فقوله: «﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ﴾»: القبضة هي التي تكون في الكف، الكف قد جاء عليها كلها، تقول: قبض الشيء إذا أحاطت كفه بها.

وقد جاء إثبات الكف لله ﷻ، وإثبات الأصابع وأنها خمسة تعالىٰ وتقدس.

ولهذا قال: «﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ﴾»: بما فيها، يقبضها وتكون صغيرة في كفه.

ثم قال: «﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾»: فالأرض قبضة بيد والسماوات باليد الأخرىٰ، ولهذا جاء في حديث مسلم عن النبي ﷺ قال: «**يطوي الله ﷿ السماوات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنىٰ، ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين بشماله ثم يقول أنا الملك أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟**»(١)، فهذا موافق للقرآن، فتسميتها شمالًا لا محذور فيه لأنها نسبة فقط؛ لأن يمين الشيء الذي عن يمينه وشماله الذي عن شماله وكل ما هو متشخص قائم بنفسه له شمال وله يمين، ولهذا جاء في الحديث: «**إن المقسطين عند الله علىٰ منابر من نور عن يمين الرحمن ﷿ وكلتا يديه يمين الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا**»(٢)، المعنىٰ: يجلسون قربه تعالىٰ الله وتقدس.

فالمقصود أن إثبات الصفات من الإيمان بالله الذي لا بد منه، ولهذا أكثر ﷻ من ذكر أوصافه في كتابه، كما أكثر الرسول ﷺ من ذلك حتىٰ يعرف العبد ربه بأوصافه التي يتعرف بها إلىٰ عباده لأن الله لا يطلع عليه أحد ولا يراه أحد ﷻ إلا في الجنة أو في عرصات القيامة، ومع ذلك لا يحيطون به، وإنما يرون وجهه ﷻ كما جاء في حديث الشفاعة الطويل الذي اتفق عليه الشيخان وغيرهما من العلماء،

---

(١) رواه مسلم رقم (٢٧٨٨) من حديث ابن عمر.
(٢) رواه مسلم رقم (١٨٢٧).

علماء الأحاديث مثل حديث أبي سعيد وأبي هريرة، فإن فيه إذا وقعت الشفاعة، يعني إذا أراد الله ﷻ أن يريح الناس من الموقف، ألهمهم أن يطلبوا الشفاعة، فيطلبون من الأنبياء وهم معهم واقفون في الموقف أنهم يشفعون إلىٰ الله حتىٰ يأتي فيفصل بينهم، فإذا جاء إلىٰ فصل القضاء يخاطبهم يقول: «**أليس عدلًا مني أن أولي كل واحد منكم ما كان يتوله في الدنيا**»، فيمثل لكل عابد معبوده ويقال له اتبعه فيذهبون إلىٰ النار، ويبقىٰ المؤمنون في الموقف وفيهم المنافقون؛ لأن المنافقين كانوا معهم في الظاهر ولم يتميزوا بعد فيأتيهم الله ﷻ في صورة لا يعرفونه بها فيقول: ما الذي أبقاكم وقد ذهب الناس؟ فيقولون: تركناهم أحوج ما كنا إليهم، أما اليوم فلا نحتاج إليهم، يقولون: إن لنا ربًا ننتظره. فيقول الله ﷻ: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمْ﴾ فيقولون: نعوذ بالله منك، هذا مكاننا حتىٰ يأتي ربنا، فإذا جاء ربنا عرفناه. فيقول: هل بينكم وبينه علامة؟ فيقولون: نعم الساق. فيكشف عن ساقه فيخرون سجدًا له، ويبقىٰ المنافق إذا أراد أن يسجد خر علىٰ قفاه، ظهرهُ طبقة واحدة، وقد كانوا في الدنيا ﴿يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ [القلم: ٤٣] فيأبون السجود لله ﷻ، وإن سجدوا فهم يسجدون لأنفسهم يعني مداراة ومخاشات ونفاقًا حتىٰ يعيشوا مع الناس، فهم مرة مع الكافر ومرة مع القوي، يرون الدولة لمن فيكونون مع صاحب الدولة، هكذا شأنهم.

عند ذلك فهم يرونه، ثم يتميزون، ويعطون أنوارهم علىٰ قدر إيمانهم، وكل واحد لا يستطيع أن يهتدي إلا بنوره فقط وإن كان الآخر بجانبه له نور، فيصبح المنافقون في ظلام دامس فيصبحون ينادون المؤمنين: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣].

فالمقصود أن إثبات الصفات لله ﷻ أمر لازم لا بد منه، ولهذا كثر ذكره.

فقول ابن عمر: «والذي نفس ابن عمر بيده» اقتداء بالرسول ﷺ، فإنه كثيرًا ما كان يقسم بمثل هذا.

قوله: «لو كان لأحدهم مثل أُحد ذهبًا»؛ يعني: لو قدر، أن أحدهم يملك هذا المقدار من الذهب ثم أنفقه في أفضل ما ينفق فيه المال وهو في سبيل الله، فإن الله لا يقبله لأنه ما آمن بالقدر، فلا يقبله الله منه حتىٰ يؤمن بالقدر، فهو غير مؤمن لأن الله ما يقبل إلا من المؤمنين، أما الكافر فلا يقبل عمله، سواءً كان مثل أُحد أو مثل الدنيا كلها.

لا بد أن نعرف كيفية الإيمان بالقدر، والله كتب الأشياء قبل الخلق بخمسين ألف سنة، وأنه ﷻ علىٰ كل شيء قدير، وأنه هو الذي يحيي ويميت وغيره لا يحيي ولا يميت، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لا يكون، فهذا هو الإيمان بالقدر، وهذه الدرجات كل درجة جاء عليها أدلة في كتاب الله ﷻ ومن أحاديث رسوله ﷺ.

وسمي قدرًا لأنه مقدر محدد بوقته وصفته وبعمله وما يكون له أو عليه؛ يعني: كل شيء حتىٰ نبض العروق التي في البدن مكتوبة مقدرة فلا يوجد أي حركة وأي سكون في الكون إلا وقد علمه الله ﷻ وشاءه وقدره وكتبه، وهذا من تمام ملكه -تعالىٰ وتقدس- فلا يمكن أن يكون في ملكه شيء ما شاءه أو ما علمه أو ما كتبه أو ما قدره، وبهذا يتبين معنىٰ القدر أنه من صفات الله، ولهذا لما سئل الإمام أحمد عن القدر، قال القدر: قدرة الله.

قال ابن عقيل: لقد شفىٰ الإمام بهذه الكلمة مع وجازتها فإنها واضحة وبليغة في المعنىٰ؛ يعني: أن القدر صفات الله ﷻ، وقدرته ﷻ علىٰ كل شيء ولا يفوته شيء كتب الأشياء، وهو العليم بكل شيء، وقد أخبرنا بعلمه أنه وسع كل شيء علمًا.

ثم استدل بقول النبي ﷺ: «**الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره**»، الإيمان الذي خوطبنا به لا بد أن يكون معناه معلوم لنا

محدد وظاهر للخلق، فمعنى الإيمان هو: القبول والإقرار؛ يعني: قبول الخبر والأمر ويسبقه العلم ثم الإقرار به والاقتناع به والانقياد لذلك والتسليم. أما مجرد تصديق بأن يقال: الإيمان هو التصديق. هذا لا يكفي؛ لأن الإنسان قد يصدق ولا يعمل، والشيطان علم أن الله هو الخالق لكل شيء وعلم أنه الرب ولكنه لم ينقد للسجود فباء بالخسران.

أما الإيمان بالملائكة فهو كذلك قبول خبر الله عنهم وتصديقه وتيقنه في ذلك أنهم عباد مكرمون وأنهم يفعلون ما يؤمرون ولا يعصون الله ما أمرهم وأنهم كثيرون، وكذلك ما عطف عليه اليوم الآخر المقصود به ما يكون بعد الموت إلى ما علمنا بالأخبار من استقرار أهل الجنة إلى ما لا نهاية له واستقرار أهل النار فيها إلى ما لا نهاية له بلا انقطاع، فقد جاء في الأحاديث الصحيحة: «**يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار فيقال: يا أهل الجنة هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون وينظرون ويقولون نعم هذا الموت، قال: ويقال: يا أهل النار هل تعرفون هذا؟ قال: فيشرئبون وينظرون ويقولون: نعم هذا الموت، قال: فيؤمر به فيذبح، قال: ثم يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت، قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩] وأشار بيده إلى الدنيا**»(١)، فهم خالدون فيها أبدًا، هذا هو اليوم الآخر الذي لا نهاية له، وهذا اليوم الذي نحن فيه الدنيا هي المزرعة لليوم الآخر من زرع خيرًا؛ يعني: اتبع رسل الله وعمل بكتابه فإنه يكون من أهل الجنة ومن عصى فهو من أهل النار، وليس هذا لا بالعقل ولا بالشرف ولا بالنسب، وإنما هو فضل الله يعطيه من يشاء، من شاء الله أن يتفضل عليه ويخصه بالإيمان فإنه يختص برحمته من يشاء -تعالى وتقدس- فمن كان بهذه المثابة فليحمد الله، وليعلم أن هذا ليس بقوته ولا بنظره وإنما

(١) رواه مسلم رقم (٢٨٤٩) من حديث أبي سعيد.

هو فضل تفضل الله به عليه.

ولهذا نقول: تأمل أهل الأرض اليوم ما أكثرهم قد ملؤوا الأرض وأكثرهم يسعىٰ إلىٰ جهنم، أكثرهم يتقربون كل دقيقة إلىٰ النار، إذا جاء الأجل بدؤوا يصلونها في القبور قبل يوم النشور، ثم يضاعف لهم العذاب يوم القيامة ولكن لا بد من جمعهم وإحيائهم يعني: إحياء أبدانهم وإخراجها، ثم تقريرهم بكفرهم فيعترفوا أنهم كفار، ثم يقرنون مع الشياطين في جهنم أبدًا، وفي جهنم العذاب يتضاعف، المجرم الكبير القائد للكفر ليس كآحاد الكفار والله حكيم عليم، ولهذا قال ﷺ: «**إن أهون أهل النار عذابًا من له نعلان وشراكان من نار يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل ما يرىٰ أن أحدًا أشد منه عذابًا وإنه لأهونهم عذابًا**»(١)، فكيف الذين في الطبقات جاء في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥]: أن النار دركات، الدركات هي درجات تحت إلىٰ أسفل، بخلاف الدرجات فإنها تصعد إلىٰ العلو، والدركات تهبط إلىٰ أسفل، وكل ما كانت أسفل كان العذاب أشد، حتىٰ إن بعضهم يجعل في تابوت يغلق عليه في جهنم -نسأل الله العافية- وقد قال الله ﷻ: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾ [الهمزة: ٨] مؤصدة؛ يعني: مغلقة عليه ﴿فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ [الهمزة: ٩]؛ يعني: أنها مؤصدة عليهم مغلقة ومجعول علىٰ الأبواب عمدة من حديد ممددة، فهم لا يستطيعون أن يخرجوا منها ولن يستطيعوا ولكن هذا إمعانًا في نكالهم.

فالمقصود أن اليوم الآخر هو الذي لا نهاية له، ولهذا يجب علىٰ الإنسان أن يكون هذا اليوم بين عينيه دائمًا لا ينساه.

ويؤمن بالقدر خيره وشره، خيره؛ يعني: بالنسبة له، وشره كذلك بالنسبة له،

(١) رواه البخاري رقم (٦٥٦١)، ومسلم رقم (٢١٣)، واللفظ له من حديث النعمان بن بشير.

فالقدر يكون فيه خير وفيه شر بالنسبة للمخلوق، أما بالنسبة لله ﷻ فكله خير، فكل ما قدره وشاءه فهو خير؛ لأنه عدل. وهو ﷻ يضع الأشياء في أماكنها، من كان مستحقًا للخير أعطاه خيرًا، ومن كان مستحقًا للشر أعطاه ذلك عدلًا منه، ووضعه في الشر عدل من الله ﷻ وهو خير، ومع ذلك لا يضاف الشر إلىٰ الله تأدبًا مع الله ﷻ كما قال ﷺ في دعاء التهجد والاستفتاح: «**لبيك وسعديك والخير كله في يديك والشر ليس إليك**»[1]؛ يعني: لا نسبة ولا خلقًا، ولهذا إذا تأملنا القرآن وإذا الشر يأتي علىٰ ثلاثة أوجه فيه:

الوجه الأول: إما أن يدخل في العموم كقوله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾ [الزمر: ٦٢] هذا عموم مطلق.

الوجه الثاني: أو يحذف فاعله كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠] أو يضاف إلىٰ المخلوق، وكما قال مؤمن الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾ [الجن: ١٠] فحذفوا الفاعل.

الوجه الثالث: أن يكون مضافًا إلىٰ المخلوق مثل قول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠]، وقوله تعالىٰ: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق: ٢] فجعل الشر في المخلوق، فدل هذا علىٰ أن الشر لا يضاف إلىٰ الله ﷻ تنزيهًا وتأدبًا، وإلا فهو خالق كل شيء، فمعنىٰ قوله: «**خيره وشره**»؛ يعني: الخير الذي يكون من الله يصيب الإنسان من العافية والصحة والمال والولد وأفضلها الإيمان، أن يوهب له ويستمر عليه إلىٰ أن يموت، هذا من الله وهو أيضًا مقدر وإن كان الإنسان يكتسبه بفعله، ففعله مخلوق لله ﷻ، أما الشر فمثل المصائب المرض والفقر وما أشبه ذلك

---

(١) رواه مسلم رقم (٧٧١) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

من الأمور المؤلمة التي تؤلم النفوس فكلها مقدرة، ولكن هذه لا يصيب الإنسان شيء إلا من جراء فعله؛ يعني: بما كسبت أيديكم كما قال ﷻ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقوله: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [التغابن: ١١]، **وقوله:** ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [الحديد: ٢٢].

فالمصائب التي تصيب الإنسان بسبب ذنوبه، ولو أخذ الله الناس بذنوبهم ما بقي على الأرض أحد، ولكنه حليم لا يعجل، وكريم جواد، ولهذا تجد الناس يعصون الله ويقابلون نعمه بالكفر، ويسبونه، ويشتمون رسله ويقتلون أوليائه، ثم يعافيهم ويرزقهم، ويعطيهم الدنيا، وهذا يدلنا على حلم الله، وهم لا يفوتونه، ولهذا قال الرسول ﷺ: «**ما أحد أصبر على أذى سمعه من الله يدعون له الولد ثم يعافيهم ويرزقهم**»[(١)].

فالمقصود أن الشر الذي يصيب الإنسان فهو من ذنوبه وقد جعله للمؤمن رحمة لأنه يكفر به سيئاته.

أما المجرم فقد لا يصاب، حتى يكمل عذابه ويتم: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۚ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ [آل عمران: ١٧٨]؛ يعني: مد العمر لهم ومد الرزق وهذا ليزدادوا به إثمًا فيعظم عذابهم: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧]، هذا معنى خيره وشره، ومعنى ذلك أن كل شيء مقدر.

(١) رواه البخاري رقم (٧٣٧٨)، ومسلم رقم (٢٨٠٤) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله **: وعن عبادة بن الصامت: أنه قال لابنه: يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان حتىٰ تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، فقال: رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتىٰ تقوم الساعة»، يا بني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من مات علىٰ غير هذا فليس مني»[(١)].**

وفي رواية لأحمد: «إن أول ما خلق الله تعالىٰ القلم، فقال له: اكتب، فجرىٰ في تلك الساعة بما هو كائن إلىٰ يوم القيامة»[(٢)].

وفي رواية لابن وهب قال رسول الله ﷺ: «فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره أحرقه الله بالنار»[(٣)].

عبادة بن الصامت من أفاضل الصحابة، وأكابرهم وعلمائهم وهو أحد النقباء يوم العقبة؛ لأن الرسول ﷺ عين علىٰ كل جماعة من الأنصار نقيبًا، والنقيب هو الذي يخبر عن قومه ويبلغهم الأوامر.

قوله: «قال لابنه»: ابنه دخل عليه وهو مريض، لما شاهده تخايل به الموت.

قال: «يا أبتاه أوصني واجتهد لي»، عند ذلك قال رضي الله عنه: «أجلسوني» فأجلسوه، فقال هذا الكلام: «يا بني» فهذه وصيته لابنه، ومعلوم أن الإنسان يجتهد لابنه، حتىٰ أنه يود لابنه أن يكون أفضل منه.

قوله: «يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان»: «تجد» و«طعم» فمعنىٰ ذلك أن الإيمان له طعم وأنه يوجد وقد لا يوجد، فبعض الناس يجده، وبعضهم لا يجده،

---

(١) رواه أبو داود رقم (٤٧٠٠).

(٢) أخرجه أحمد في المسند رقم (٢٢٧٠٥).

(٣) أخرجه ابن وهب في القدر رقم (١٧).

وهذا الطعم حقيقي، وهو حلو مثل العسل وأحلىٰ منه ولكن هذا؛ يعني: حلاوة الإيمان، وحلاوة طاعة الله والأنس به واللجوء إليه؛ فيكون الإنسان مطمئنًا وفرحًا بذلك، يفرح بفضل الله وبرحمته، وقد أمر الله ﷻ بهذا، هذا هو الإيمان، ولهذا يقول بعض العلماء: إن الدنيا فيها جنة من لا يدخلها لا يدخل جنة الآخرة. وليست الجنة الأكل والشرب، والتمتع بملذات الدنيا هذه يشترك فيها الكافر والمؤمن والبهيمة والكلاب وغيرهم كلهم يشتركون في هذا.

لكن هذا خاص بالمؤمن فقط، ولهذا كان يقول بعضهم إذا قام يتهجد ويخلو بربه إذا تبين الصبح إن فجع، يود أنه لا يتبين، وأنه يستمر، ولهذا كانوا يقولون: أحلىٰ ما في الدنيا طول الليالي والتعبد فيها، وصوم الهواجر؛ يعني: إذا صار النهار حرًّا شديدًا وطويلًا صاموا، وفي الليل يقومون يتهجدون وتجدهم أيضًا في أنس وطمأنينة وفي صحة ونور يعلوهم، فهذه هي الحياة الطيبة التي أخبر الله ﷻ بها: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، هذه الحياة الطيبة السابقة، الحياة الأخرىٰ، فهذا هو الذي يقصده عبادة.

وقوله: «لن تجد طعم الإيمان حتىٰ تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك»؛ يعني: أن الذي وقع لا بد من وقوعه، سواءً فعلت الأسباب أو لم تفعل.

قوله كذلك «وما أخطأك لم يكن ليصيبك»: كم يمشي الإنسان ويقول كدت أهلك لم يقدر لك ذلك، إذا قدر سوف يأتي بأقل الأسباب، ولهذا يقولون: كفىٰ بالأجل حارسًا.

ومع هذا كله يجب علىٰ الإنسان أن يعمل الأسباب التي أمر بها، ويحتاط بها كما قال الرسول ﷺ لصحابته وهو ذاهب إلىٰ المقبرة فوجد القبر لم يلحد، فجلس وجلس

الصحابة فقال: «**ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار**»، فقالوا: يا رسول الله أفلا نتكل؟ فقال: «**اعملوا فكل ميسر**»، من كان من أهل السعادة فسيصير إلىٰ عمل أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلىٰ عمل أهل الشقاوة، ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ **إلىٰ قوله**: ﴿لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ [الليل: ٥-١٠][(١)].

فيجب علىٰ العبد أن يجتهد ويفعل السبب الذي به ينجو والأمر مخبوء؛ يعني: مخفي عليه ما يدري، ولهذا من الخطأ أن يقول الإنسان أنا لن أعمل، إذا كان مقدر علي كذا ما يمكن أن أعمل كما يقول بعض الجهال، إذا كان مقدر علي أني ما أصلي فليس فيه فائدة فلن أصلي.

نقول: الصلاة بإمكانك أن تصلي وأنت أمرت بهذا، فلا يجوز أن تقول مقدر علي كذا وكذا، اجتهد وصلِّ واطلب ربك التوفيق. أما إذا قلت هذا فمعنىٰ ذلك أنك تجعل اللوم علىٰ القدر، وتبرأ نفسك وهذا من الخطأ بل من الكفر -نسأل الله العافية-.

فقوله: «**لن تجد طعم الإيمان حتىٰ تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك**»؛ يعني: تعلم أن الأمور مقدرة، والواقع لا بد أن يقع علىٰ هذه الصفة وبهذا الوقت، وبهذا المقدار، ولا يمكن يتأخر ولا يتقدم، وكذلك الذي لا يقع، لا يمكن أن يقع، ولهذا قال: «**وما أخطأك لم يكن ليصيبك**» ومقصوده بهذا العموم أن كل ما وقع فهو مقدر من الله ﷻ قد علمه قبل وجوده وكتبه فلا بد أن يقع في الوقت المحدد علىٰ هذه الصفة، وأما الذي ما وقع فهذا غير مقدر، والذي ما قدر لا يقع.

✍ **ثم قال**: «**سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب فقال: يا رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتىٰ تقوم الساعة»**»،

---

(١) رواه البخاري رقم (٤٩٤٩)، ومسلم رقم (٢٦٤٧).

يا بني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من مات على غير هذا، فليس مني»، وفي رواية لأحمد: «إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة»، وفي رواية لابن وهب، قال رسول الله ﷺ: «فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره أحرقه الله بالنار»، هذه كلها روايات حديث عبادة».

فقوله: «إن أول ما خلق الله القلم»: يقول بعض الناس: إن المقصود أن القلم هو أول المخلوقات، ويحتج بهذا الحديث.

ولكن حديث عبد الله بن عمرو الذي في صحيح مسلم حيث يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة قال: وعرشه على الماء»(١)، فالعرش والماء موجودان وقت الكتابة، فمعنى ذلك أنهما قبل القلم.

فعلى هذا لا يكون المقصود هنا الإخبار بأن القلم هو أول المخلوقات ويكون المعنى كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: المقصود الإخبار بأن الكتابة حصلت بعد خلق القلم مباشرة بدون فاصل(٢).

(١) رواه مسلم رقم (٢٦٥٣).

(٢) منهاج السُّنَّة النبوية (١/ ٣٦١) قال رحمه الله: وقد تكلم علماء المسلمين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم في أول هذه المخلوقات على قولين حكاهما الحافظ أبو العلاء الهمداني وغيره؛ أحدهما: أنه هو العرش، والثاني: أنه هو القلم، ورجحوا القول الأول لما دل عليه الكتاب والسُّنَّة أن الله تعالى لما قدر مقادير الخلائق بالقلم الذي أمره أن يكتب في اللوح كان عرشه على الماء فكان العرش مخلوقًا قبل القلم، وقالوا: والآثار المروية أن أول ما خلق الله القلم معناها: من هذا العالم.
وقال ابن القيم رحمه الله في التبيان في أقسام القرآن (١/ ١٢٨): ولا يخلو قوله: «إن أول ما خلق الله القلم» إلى آخره، إما أن يكون جملة أو جملتين فإن كل جملة -وهو الصحيح- كان معناه أنه عند أول خلقه قال له: أكتب كما في لفظ: «أول ما خلق الله القلم قال له: اكتب» بنصب أول والقلم، فإن كانا جملتين وهو مروي برفع أول والقلم فيتعين حمله على أنه أول المخلوقات من هذا العالم ليتفق الحديثان إذ حديث عبد الله بن عمرو صريح في أن العرش سابق على التقدير، والتقدير مقارن لخلق القلم، وفي اللفظ الآخر: «لما خلق الله القلم قال له: اكتب».

فتكون الجملة واحدة: «**أول ما خلق الله القلم قال له: اكتب فجرىٰ في تلك الساعة بما هو كائن**»، فمعنىٰ ذلك أن القلم تكلم، وأنه جرىٰ بأمر الله، بأن الله إذا أراد الشيء قال له كن فيكون، فكتب ما أراده الله، وهذه الكتابة عامة شاملة.

وقوله في الرواية الثانية: «**إلىٰ يوم القيامة**»، وفي رواية أخرىٰ: «**إلىٰ قيام الساعة**» لا يفهم من هذا التحديد إلىٰ هذا الوقت، وأن ما بعد ذلك ما كتب، ولكن المقصود الإخبار بأن ما يتعلق بالناس كله مكتوب حتىٰ الجنة والنار مكتوبة ومقدرة ومعروف أهلها علم الله ﷻ من فيها ودوامهم .. الخ. فهذا يجب أن نفهمه؛ لأنه قد يأتي مثلًا من أهل الباطل من يلبس في مثل هذا، وكثيرون منهم يحب الإشكالات، وأن يثير الشبه التي قد تزعزع العقائد.

فقوله: «**كل شيء حتىٰ تقوم الساعة**»؛ لأن الساعة إذا قامت انقطعت الأعمال التي تتعلق بالناس وطويت الصحف نهائيًا، فلا عمل ينفع، وهذا الوقت المحدد للإيمان والعمل.

ثم قال: «**يا بني سمعت رسول الله ﷺ يقول: من مات علىٰ غير هذا فليس مني**» **الذي ليس من الرسول ﷺ يكون من الشياطين ومن الكفار، فهذا ظاهره الكفر الذي ليس من الرسول ﷺ فهو من الكافرين** -نسأل الله العافية- **لأن هذا من أركان الإيمان.**

✍ **وقول المؤلف** رحمه الله **: في رواية لابن وهب قال: قال رسول الله ﷺ: «فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره، أحرقه الله بالنار».**

هذا علىٰ ظاهره؛ يعني: أنه لم يكن مؤمنًا، ويحكم بأنه خرج من الدين الإسلامي أو أنه لم يدخل فيه.

✍ **وقول المؤلف** ﵀: وفي المسند والسنن عن ابن الديلمي قال: «أتيت أُبي بن كعب، فقلت: في نفسي شيء من القدر، فحدثني بشيء، لعل الله أن يذهبه من قلبي، فقال: لو أنفقت مثل أُحد ذهبًا، ما قبله الله منك حتىٰ تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو مت علىٰ غير هذا، لكنت من أهل النار. قال: فأتيت عبد الله بن مسعود وحذيفة بن اليمان وزيد بن ثابت فكلهم حدثني بمثل ذلك عن النبي ﷺ»(١).

فهو لما وقع عنده هذا الشك ذهب إلىٰ العلماء يسألهم، والعلماء أجابوه بما في كتاب الله وبما في أحاديث رسول الله ﷺ، مما يدلك علىٰ أن المرجع في إزالة الشبه وعلاج الجهل أنه بالنصوص، وليس بما يقوله أهل الكلام بالبراهين العقلية التي يزعمونها، وهي شكوك وليست براهين، والبرهان لا يجوز أن يقال أنه برهان إلا إذا كان دليلًا واضحًا مثل الشمس، أما أنه يدعىٰ أنه دليل وهو ليس بدليل فهذا من التلبيس ومن التعمية، وكذلك من الخيانة خيانة العلم والناس.

فالمقصود أن هذا الفعل الذي فعله الصحابة يدلنا علىٰ وجوب الرجوع في المشكلات وفيما يزيل الشبه إلىٰ كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، ولا ينافي ذلك كون الإنسان يستعمل فكره، وعقله، ولكن العقل عقلان، عقل يسمونه متحررًا يفكر ويجول في كل شيء، وعقل يجب أن يكون مرشدًا، يرشده كتاب الله، وسُنَّة رسوله ﷺ كما يقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ١٢]، فهو يرشدهم إلىٰ التدبر والتأمل فيعقلوا ذلك العقل الذي يكون متقيدًا، يكون عقلًا صحيحًا لا يخالف النصوص الصحيحة الصريحة بل يكون موافقًا لها، أما الزعم بأنه يخالف، وأنه الأصل فهذه دعوىٰ غير صحيحة.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم (٢١٥٨٩)، وأبو داود رقم (٤٦٩٩)، وابن ماجه رقم (٧٧).

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **فيه مسائل:**

❁ **الأولى: بيان كيفية الإيمان به.**

يعني: على الدرجات التي ذكرت؛ يعني: الإيمان بعلم الله الأزلي وكتابته وأنه الخالق لكل شيء، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. ولكن قصده هو ما جاء في الحديث؛ يعني: أن تؤمن بالقدر خيره وشره؛ يعني: يشمل هذا كل ما وقع فيجب أن تسلم له وتؤمن به، والإيمان معناه أن تكون مأمونًا على هذا الخبر، وعلى هذا الشيء، لا ترده ولا تعترض عليه، أما إذا رد أو صار في نفس والقلب منه حرج وضيق وتضجر فهذا ليس إيمانًا.

❁ **الثانية: إحباط عمل من لم يؤمن به.**

يعني: هذا يدل على أن من لم يؤمن به لا يكون مؤمنًا. والإحباط كونه لا يكون له أثر فلا يجزئ به، ومعلوم أن هذا يكون للكافر، أما المؤمن فيجزئ بعمله وإن نقص الجزاء لأجل مخالفة وما أشبه ذلك.

❁ **الثالثة: الإخبار أن أحدًا لا يجد طعم الإيمان حتى يؤمن به.**

يعني: أنه لا يكون متحققًا بالإيمان وعابدًا لله جل وعلا على ما أمر الله به ورسوله وعبادة الله جل وعلا فيها طعم وفيها لذة، ولا يكون كذلك إلا إذا آمن بالقدر.

❁ **الرابعة: ذكر أول ما خلق الله.**

ولا يجب أنه يكون أول المخلوقات على الإطلاق، ولكن أول المخلوقات بالنسبة لعلمنا المحدود، وقد قال الله جل وعلا: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢]، قال بعض العلماء: يعني: إذا بلغ التفكير إلى الله يجب أن ينتهي؛ لأنه لن يصل إلى شيء.

ومثل هذا حقائق الصفات، ومن حقائق صفاته أنه فعال لما يريد، فلا يقال مثلًا أن هذه المخلوقات المشاهدة هي أول المخلوقات؛ لأن الله جل وعلا ما كان معطلًا في

وقت من الأوقات عن الفعل فهو فعال لما يريد، وهذا هو الذي يسمىٰ التسلسل؛ يعني: تسلسل الحوادث، والتسلسل قد يصعب علىٰ الإنسان فهمه والوصول إلىٰ الحقيقة فيه، ولكن خلاصته أنه ينقسم إلىٰ قسمين:

القسم الأول: تسلسل في المحدثين، والتسلسل معناه مأخوذ من السلسلة، السلسلة لها حلقات كل ما جاءت واحدة جاءت بعدها الأخرىٰ، وهكذا؛ يعني: شيء لا نهاية له يستمر -بشكل دائري- فأخذ من هذا.

فالتسلسل في الفاعلين بمعنىٰ أن كل فاعل له فاعل هذا باطل بإجماع العقلاء، ولا يمكن.

القسم الثاني: التسلسل في الحوادث في المخلوقات، في الخلق هذا هو الذي فيه الكلام وفيه الخلاف، وكثير من الناس أساء الفهم في هذا، حتىٰ كفَّروا بعض الأئمة الكبار ظنًا منهم أن هذا باطل، وهم في هذا انقسموا إلىٰ ثلاثة أقسام:

الأول: قوم قالوا: إن التسلسل في المستقبل جائز وفي الماضي ممنوع، وظنوا أن هذا هو مذهب السلف، وليس كذلك، وإنما هو مذهب بعض المتكلمين.

الثاني: عكسه قالوا التسلسل في الماضي، أما في المستقبل فلا، وهذا أبطل من الأول.

والقسم الثالث: أنه جائز في الماضي والمستقبل، أما في الماضي فهو الذي فيه الإشكال وهو الذي قالوا: منْ قال فيه فإنه يقول بقدم العالم ورموا شيخ الإسلام ابن تيمية بهذا وكفروه علىٰ ذلك الذين لم يفهموا.

ولكن الذي يقول بهذا مقصوده بأفعال الله أن الله لم يزل يفعل ولم يكن معطلًا في وقت من الأوقات تعالىٰ وتقدس، فإنه ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦]، ومعلوم أن هذا الكون مثل العرش والماء والسماوات والأرض وغيرها وجدت بعد أن لم تكن موجودة فهل كان قبلها شيء أو ما كان الله يخلق قبلها؟

قالوا: إذا قلنا أنه ما كان قبلها شيء معناه أن الله ما كان يخلق ولا يفعل شيئًا حتىٰ صار فعالًا، وفي العقل يمتنع أن يكون يفعل بعد أن لم يكن يفعل؛ يعني: يكون قادرًا بعد أن لم يكن قادرًا ومن الذي جعله قادرًا تعالىٰ وتقدس. ولهذا صار كبار أهل العلم يقولون أن التسلسل في الماضي والمستقبل، أما في الماضي فهو هذا كما فهمنا في أفعال الله أنه لم يزل يفعل إذا شاء.

قلنا سابقًا أن عقولنا قاصرة؛ لأننا لو فكرنا بعقولنا ما الذي قبل هذه المخلوقات لم تصل إليه العقول، والله أعلم، وقد قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤]؛ يعني: هذا قبل وجود الأيام وقبل وجود الشمس وقبل وجود السماء والأرض، إما أن يكون هذا تقديرًا أو أيامًا حقيقية، ويجوز أن تكون أيامًا في حركات أجرام أخرىٰ الله أعلم ما هي.

أما في المستقبل فهو أسهل لأن الله أخبرنا عن دوام الجنة والنار ما دامت السماوات والأرض، وإن كان الذين قالوا أنه ينتهي فهؤلاء شرذمة من المعتزلة مثل أبي الهذيل العلاف وغيره، وبعضهم قال: إن الحركات هي التي تفنىٰ أما ذواتهم لا تفنىٰ، وهذا من أبطل الأشياء، ولهذا قال ابن القيم معناه: إن الرجل يأخذ العنقود من العنب ويفتح فاه فيبقىٰ فاه مفتوحًا أبدًا ويده واقفة ما تصل إلىٰ فيه، وهذا عذاب ليس نعيم، وهكذا أهل النار.

فالمقصود أن التسلسل في الماضي والمستقبل هو في أفعال الله التي يفعلها والحوادث التي يحدثها ويوجدها، وهو الذي يقول به البخاري والدارمي والإمام أحمد ويقول به كبار العلماء، ولكن بعض الناس لا يفهم هذا، حسبوا أنهم اهتدوا إلىٰ القول الذي ظنوا أنه الحق فرموا من قال بخلاف ذلك بالعظائم، ولهذا يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله في فتح الباري ليس عند ابن تيمية أسوأ من هذا القول.

وهذا في الواقع من حسناته وليس من السيئات، غير أن الإنسان يعذر بكونه لم يفهم الشيء، وقد يكون فهمه زل عن ذلك وإن كان فيه وضوح.

والمقصود أن أول الخلق هنا بالنسبة لنا، لما أخبرنا الله ﷻ به، أما بالنسبة إلىٰ الله فهذا شيء لا يعلم.

۞ **الخامسة: أنه جرى بالمقادير في تلك الساعة إلى قيام الساعة.**

وقوله: «تلك الساعة»: الإشارة إلىٰ الساعة التي خلق فيها القلم، وقد عُلم أن خلقه للقلم بعد خلق العرش والماء لأنه قال: «وعرشه علىٰ الماء».

۞ **السادسة: براءته ﷺ ممن لم يؤمن به.**

معنىٰ من لم يؤمن بالقدر، والبراءة معناه: أنه ليس منه ومن لم يكن من الرسول ﷺ فهو من الكفار -نسأل الله العافية-.

۞ **السابعة: عادة السلف في إزالة الشبهة بسؤال العلماء.**

يعني: عادتهم أنهم يسألون العلماء والعلماء يُزيلونها بالكتاب والسُّنَّة، لا بالمناظرات والمجادلات التي قد تزيد في الإشكال، فيزيلونها بما في كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ كما قال الصحابة في حديث الديلمي.

۞ **الثامنة: أن العلماء أجابوه بما يزيل شبهته، وذلك أنهم نسبوا الكلام إلى رسول الله ﷺ فقط.**

يعني: إذا نسب إلىٰ الله أو رسوله ﷺ كفىٰ، ووجب الاقتناع به.

الباب الواحد والستــون

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **باب ما جاء في المصورين.**

يعني: من الوعيد الشديد وقد ابتلي الناس في التصوير -نسأل الله العافية- وكثر، ولهذا كثرت النصوص فيه عن الرسول ﷺ مما يدل على نبوته ﷺ وأن هذا سيقع في أمته، ولهذا أنذرهم وحذرهم وبلغهم ذلك، حتى يكون ذلك حجة عليهم لأن الرسول ﷺ بلغ ما أمره الله ﷻ على وجه البيان والإيضاح، ولم يترك شيئًا إلا وضحه ومنه هذه المسألة.

والصورة معروفة وهي تمثيل الشيء الذي سبقه، ولو بالتقدير ثم بالفعل، وهذا من الإنسان، يقدر الشيء ثم يفعله بالتخطيط أو بالآلة أو بغير ذلك.

والخلق في اللغة ينقسم إلى قسمين: خلق بالتقدير، كما في قول القائل:

ولأنت تفري ما خلقت   وبعض الناس يخلق ثم لا يفري(١)

تفري: أي تفعل الشيء، إذا قدرته فعلته، فهو يمدحه بهذا، وغيرك يقدر الشيء ثم يتقاعس عنه، وقد قيل في قوله ﷻ: ﴿**هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ**﴾ [البقرة: ٢٩] أن هذا خلق بالعلم والتقدير لا بالفعل، لقول الله ﷻ: ﴿**وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا**﴾ [النازعات: ٣٠، ٣١] هذا قول لبعض العلماء، ومعلوم أن الله ﷻ أخبرنا أنه خلق الأرض قبل السماء فلا يكون فيه إشكال.

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٣٨١).

أما دحوها فقد فسر بما ذكر، بأنه أخرج منها ماءها ومرعاها وأنه أرساها بالجبال لأنها كانت مضطربة؛ يعني: مثل السفينة التي في الأمواج، فثبتها بالجبال حتىٰ تستقر بأهلها ولهذا قال: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠] ففسَّر دحوها بما ذكر بعد ذلك بإخراج الماء والمرعىٰ وترسيتها بالجبال.

فالمقصود أن الخلق في اللغة ينقسم إلىٰ قسمين: تقديري، وفعلي.

والله ﷻ إذا أراد شيئًا قال له كن فيكون، وعلمه تام وكامل ما يحتاج أنه يفكر وينظر مثل ما يكون للمخلوق الذي يحتاج إلىٰ مقدمات قبل الفعل، فهو ﷻ الخالق وحده وهو المصور وحده فمن أسمائه المصور، ومن أسمائه الخالق فلا يجوز أن يشاركه مخلوق في هذا، أن يكون المخلوق يخلق، إلا ما هو في حدوده وأذن له فيه مثل البناء وما أشبه ذلك من الصناعات التي وكلت إليه، أما أن يحاول أن يخلق مخلوقًا حيًا فيه حياة ولو كان حبة فليس هذا له؛ لأن الحبة فيها نمو وحياة تنبت، ولهذا تحدىٰ الله ﷻ الخلق أن يخلقوا حبة لو اجتمعوا من أقطار الأرض مع ما أوتوا من الإمكانيات ما يستطيعون أن يوجدوا حبة تنبت، أو شعيرة، والشعيرة أقل قيمة من الحبة التي هي حبة الحنطة مثلًا لا يستطيعون أن يوجدوا هذا ولا هذا، ولا يستطيعون أن يوجدوا ذرة؛ يعني: متحركة التي هي صغار النمل.

ولهذا نقول أن هذا من خصائص الرب ﷻ، فمن وضع نفسه في هذا الموضع فإنه يكون منازعًا لله ﷻ، وهي المضاهاة التي ذكرت في الحديث: «**أشد الناس عذابًا يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله**»[1]، فهذه هي المضاهاة.

لم يأت وعيد علىٰ ذنب مثل ما أتىٰ علىٰ المصورين -نسأل الله العافية- ومع هذا تجد كثرة المصورين والتصوير، وإن كان قد حصل خلاف في بعض المعاني من التصوير.

(١) يأتي تخريجه.

قال المؤلف رحمه الله: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا ذرة، أو ليخلقوا حبة، أو ليخلقوا شعيرة»[1] أخرجاه.

قوله: «قال الله تعالى»: سبق أن القول الذي يضاف إلى الله يسمى حديثًا قدسيًا، وأن الصحيح في هذا أنه يضاف إلى الله قولًا ومعنى، وأنه كلام الله تكلم به، ولكنه لا يلحق بالقرآن؛ لأن القرآن له خصوصيات ليست لهذا، مثل التحدي، والتعبد بالتلاوة، ومثل وجوب الطهارة مسّ الكتاب الذي فيه كلام الله، هذا هو الصواب الذي يجب أن يعمل به، أنه لا يمس المصحف إلا طاهر لقوله تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٩]، قال الله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٥-٧٧] فهو يقسم بأن هذا قرآن كريم، ثم قال: ﴿فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الواقعة: ٧٨-٨٠] فهو خبر بمعنى الأمر، أنه لا يمسه إلا الطاهر، والمسألة فيها خلاف ولكن جمهور العلماء على هذا، ولا يجوز للإنسان أنه يتتبع الرخص وما شذ من المسائل.

قوله: «ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي»: «من أظلم»؛ يعني: أنه لا أحد أظلم من هذا، ولا يشكل علينا أنه جاء هذا الأسلوب في غير ذلك كما قال جل وعلا: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ﴾ [البقرة: ١١٤] وغير ذلك من النصوص، لأنه يقول إن المعنى أن من فعل ذلك فقد بلغ من الظلم ما هو في مكان عظيم فاق كثير من الظلمة في هذا، فيكون مشاركًا لغيره في الظلم ولا يلزم أن يكون هذا هو أظلم الظلم على الإطلاق؛ لأن الشرك أعظم من هذا؛

(١) رواه البخاري رقم (٧٥٥٩)، ومسلم رقم (٢١١١).

ولهذا المشرك تحرم عليه الجنة ومأواه النار خالدًا فيها أبدًا.

وبهذه النصوص استدل الخوارج والمعتزلة على خلود أصحاب الكبائر في النار -نسأل الله العافية- لأن هذا هو ظاهر النصوص، فهم أخذوا بذلك، وقد أخطأوا فلا يجوز أن يحكم على المسلم بالكفر والخلود في النار بكونه فعل الكبائر أو شيئًا منها.

فقوله: «فمن أظلم»: «من» استفهامية بمعنى الإنكار والخبر بأنه أظلم الناس، أن من ذهب يفعل ذلك فإنه الظالم، والظلم هو: وضع الشيء في غير موضعه؛ وهذا وضع الأمر في غير موضعه بل إنه جعل نفسه يخلق ويصور مثل الله ﷻ، وهذا هو وضع الشيء في غير موضعه.

وقد عرفنا في ما مضى أن أعظم الذنوب هو الشرك، وهذا يدخل فيه لأنه صار مضاهئًا لله وهذا نوع من الشرك، ولهذا ما يشكل علينا أنه قال: «أظلم الظلم» لأنه تضمن الشرك بالله ﷻ، وإن كان الإنسان لا يعرف هذا ولا يدور هذا في باله وهذا قد يستغرب لكثرة التصوير واشتهاره، وخفة الأمر عند كثير من الناس في هذا الشأن صار التصوير أمر سهل وآلات التصوير منتشرة ومتيسرة، فصار التصوير مألوفًا عند أكثر الناس.

نقول: إن هذا مما بلغه الرسول ﷺ وهو من الآيات الدالة على كونه رسول الله ﷺ لأنه ذكر هذه الأحاديث الكثيرة، وهذا التهديد العظيم والوعيد ولم يكن ذلك موجودًا في وقته إلا نادرًا، وليس بهذه الصور لما أعلمه الله ﷻ من الأمور التي ستقع في الأمة وفيه الخلل الاعتقادي.

وقوله: «يخلق كخلقي»: فيه أنه أضاف إليه الخلق، أنه يخلق، والمقصود بقوله: «يخلق» أنه يفعل الشيء.

وقولـه: «**كخلقـي**»؛ يعنـي: كخلـق الله ﷻ الـذي يقـول للشـيء كـن فيكـون، والمقصود بذلك الإحياء التي يصورها الله ﷻ، ولا يلزم المماثلة مطابقة من كل وجه ولكن في الصورة فقط، فصار هذا خلقًا ولهذا تحداهم ﷻ.

ثم جاء الأمر بالتحدي للإعجاز، فهو أمر إعجازي وتحدي. «**فليخلقوا ذرة**»؛ يعني: نملة صغيرة وهي أقل قدرًا من غيرها، فإذا كان عندهم مقدرة لحياة وحركة فليفعلوا ولن يستطيعوا ذلك؛ لأن هذا من خصائص الله.

وقوله: «**أو ليخلقوا حبة**»؛ يعني: هـذا تـدني مما هو أعلىٰ منه، وهو الحبة، والحبة المقصود بها الحبة التي تنبت ويصير لها حياة فهم لا يستطيعون ذلك أيضًا.

وقوله: «**أو ليخلقوا شعيرة**»: هـذا للتنوع، قيل أن الشعيرة بمعنىٰ الحبة وقد تكون «أو» للشك من الراوي وقد لا يكون لأن الشعيرة أقل قيمة من الحبة، وهو كله من باب التعجيز، ليدل علىٰ عجزهم فكيف ينصبوا أنفسهم أنهم شبهاء لله ﷻ في الفعل وهذا الذي جعلهم أظلم الظالمين، فهم الظلمة في ذلك، فهذا يدل علىٰ أن الأمر عظيم، وأنه كبير جدًا.

وفي قوله: «**فليخلقوا ذرة، أو ليخلقوا حبة، أو ليخلقوا شعيرة**»، استدل بهذا بعض العلماء علىٰ تحريم التصوير مطلقًا لكل ما فيه روح، حتىٰ الشجر لأنه هو الذي فيه التحدي، والظاهر أن هذا غير مقصود والله أعلم، وإنما هذا من باب التعجيز، ولهذا جاء عن ابن عباس لما جاءه رجل يستفتيه بأنه يعمل الصور فصار يقول له: ادنو حتىٰ جلس عند ركبتيه فروىٰ له هذا الحديث: «**كل مصور في النار، يجعل له بكل صورة صورها نفسًا يعذب بها في جهنم**»، ثم قال له: إن كنت فاعلًا ولا بد ففي الجبال وفي الشجر، في الأشياء التي لا حياة فيها. فأفتاه بجواز ذلك، وهذا مذهب مجاهد رحمه الله أن التصوير محرم مطلقًا لكل ما فيه حياة، سواءً كان شجر أو نبات أو حيوانات مستدلًا بهذا النص.

قال المؤلف رحمه الله: ولهما: عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «أشد الناس عذابًا يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله»(١).

قوله: «أشد»: أفعل تفضيل مما يدل علىٰ أنهم فضلوا الناس في العذاب، وأن عذابهم شديد ويقال فيه مثل ما قيل في «أظلم»؛ يعني: أنهم لهم عذاب شديد يشاركهم من هو أعلىٰ منهم في الفعل، ولكن نقول هذا ظاهر جدًا في أن هذا الأمر كبير، وأن صاحبه يكون عذابه عظيم.

وقوله: «عذابًا يوم القيامة»؛ يعني: أن عذابهم يتم، وقد يكون يقصد بالقيامة نهاية الدنيا بالنسبة لكل واحد فيدخل فيه عذاب القبر إلىٰ أن يدخل النار -نسأل الله العافية- فيكمل العذاب، هذا إذا كان من أهل النار.

وقوله: «الناس»: يدل علىٰ الإطلاق، فهذا يدل علىٰ عظم هذا الفعل؛ لأنه عمَّم قال: «أشد الناس عذابًا يوم القيامة» فدخل في هذا العموم أهل الكفر، فعليه يكون المصور أشد عذابًا من الكفار، والله أعلم، لأن كلام الرسول ﷺ في هذا واضح، ولا يجوز لنا أن نتأول بتأويلات تخرجه عن ظاهره، ويجب أن يبقىٰ علىٰ ما هو عليه، نقول الأمر كما قال ﷺ، وكذلك الذي قبله يقال فيه ذلك.

ثم هذه النصوص وأشباهها، عند أهل السُّنَّة أنها نصوص وعيد وأنها تترك علىٰ ما جاءت عليه مع اعتقاد أن الذي يفعل هذا الفعل لا يكون كافرًا وخارجًا من الدين الإسلامي، ولكنه معرضًا لهذا الوعيد الشديد إن لم يتب ويعفو الله عنه.

وهم من أشد الناس عذابًا يوم القيامة، ولا يقال أن هذا يتعارض مع ما ذكر الله جل وعلا مثل: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦] لأنهم داخلون في الناس، ولا يعارض بأن يقال إن هذا من نوع وذاك من نوع آخر، فهذا كله علىٰ خلاف

(١) رواه البخاري رقم (٥٩٥٤)، ومسلم رقم (٢١٠٧).

الظاهر، والواجب أن يجري هذا على ظاهره، وسوف يلاقون جزاءهم يوم يبعثهم الله ﷻ ويشاهدون الأمر على ما هو عليه.

قوله: «**يضاهئون**»: المضاهة هي المشابهة، «**يضاهئون**»؛ يعني: يشابهون الله ﷻ، ومعلوم أن المشابهة لا تأتي من كل وجه، ولكنها في الصورة الظاهرة فقط.

قوله: «**بخلق الله**»: هذا يدل على العموم؛ لأنه خص في هذا الشيء؛ يعني: التصوير.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **ولهما عن ابن عباس سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل مصور في النار، يجعل له بكل صورة صوَّرها نفس يعذب بها في جهنم»**(١).

وقوله: «**كل مصور في النار**»: كل هذه من العمومات المطلقة التي لا يخرج عنها شيء، وهي مأخوذة من الإكليل؛ يعني: الإحاطة، ولهذا قال: «**كل مصور**» فلا يخرج من هذا من يسمى مصورًا، فهو أتى بالحكم؛ يعني: هذا حكمه.

قوله: «**في النار**»: ثم بيَّن وجه العذاب، وكيفيته أنه «**يجعل له بكل صورة صورها نفس يعذب بها في جهنم**»، هذا صريح وواضح في كونه يكون في النار -نسأل الله العافية- وهو صريح في أنه يدخل فيه عموم التصوير، سواء كان التصوير باليد أو بغيرها سواء كان مجسدًا وله ظل أو كان مخططًا أو غير ذلك.

وقوله أيضًا «**يجعل له بكل صورة صورها**»؛ يعني: هذا عموم أيضًا، أن كل صورة يصورها يجعل له نفس يعذب بها.

وقوله: «**يعذب بها في جهنم**»: وهذا صريح في أن عذابه يكون في جهنم، ولهذا يكون هذا أشد الذنوب.

---

(١) رواه مسلم رقم (٢١١٠).

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **ولهما عنه مرفوعًا: «من صوَّر صورة في الدنيا كُلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ»**(١).

قوله: «كلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ»؛ يعني: يوم القيامة، فهذا نوع آخر من العذاب ليس من النوع الأول، ولهذا جاء أنه يقال لهم: «**أحيوا ما خلقتم**»(٢) يكلفون بذلك، والذي يكلف بشيء لا يمكنه ولا يستطيعه يكون من أشد الناس عذابًا.

فهذه نصوص كلها صحيحة عن النبي ﷺ ثابتة، وهناك نصوص كثيرة غير هذه ثابتة في الصحيحين وغيرها، ولكن المعنىٰ واحد.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **ولمسلم عن أبي الهياج قال: قال لي علي: ألا أبعثك علىٰ ما بعثني عليه رسول الله ﷺ: «أن لا تدع صورة إلا طمستها ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته»**(٣).

قوله: «عن أبي الهياج»: الأسدي، حيان بن حصين، وهو تابعي وهو من أصحاب علي رضي الله عنه.

قوله: «قال لي علي»: وهو علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

قوله: «ألا أبعثك علىٰ ما بعثني عليه رسول الله ﷺ: أن لا تدع صورة إلا طمستها ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته»: المقصود إبطال الصور وإعدامها إما بالطمس وإما بالإزالة.

---

(١) رواه البخاري رقم (٥٩٦٣)، ومسلم رقم (٢١١٠).

(٢) رواه البخاري رقم (٥٩٥١)، ومسلم رقم (٢١٠٨) من حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الذين يصنعون هذه الصور يعذبون يوم القيامة يقال لهم: أحيوا ما خلقتم**».

(٣) رواه مسلم رقم (٩٦٩).

وفيه أن الرسول ﷺ كان يبعث البعوث لهذا.

هذان الأمران من أعظم الأشياء فتنة وهما السبب في عبادة غير الله ﷻ؛ يعني: الصور والقبور، فأمر الرسول ﷺ بطمس الصور، وطمسها إذا كانت مخططة أو كانت مثلًا بالألوان أنها تطمس؛ يعني: تكون شيء واحد كالشجرة مثلًا، ما يكون لها معالم.

وقد يكون الطمس يقصد به الحك والإزالة كما جاء في غزوة الفتح، أن النبي ﷺ لما رأىٰ الصور في البيت لم يدخله حتىٰ أمر بها فمحيت ورأىٰ إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بأيديهما الأزلام فقال: «**قاتلهم الله والله ما استقسما بالأزلام قط**»(١)، فأمر بشيء يُبل نحو الخيش فمسحت قبل أن يدخل، فلما مسحت دخل.

كما أنه أزال الأصنام التي حول الكعبة، لما دخل مكة يوم الفتح فجعل يطعنها بعود في يده ويقول: ﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ [الإسراء:٨١]، ﴿قُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٩](٢).

فصارت تتهاوىٰ ثم أزيلت نهائيًا وأحرقت.

فكذلك الصور كان يبعث من يزيلها، ومن المعروف أن الفتنة فيها سريعة كما هو واقع في الناس، والقبور الفتنة فيها أعظم فكان يأمر بتسويتها، والتسوية كما هو مفهوم من الكلام: أن تسوىٰ بالأرض، وليست التسوية بأن تكون متساوية كل واحد مثل الآخر هذا بعيد من المقصود؛ لأنه قد تكون مثلًا مبني عليها فهل نقول أنها كلها يبنىٰ عليها.

---

(١) رواه البخاري رقم (٣٣٥٢).

(٢) رواه البخاري رقم (٤٢٨٧)، ومسلم رقم (١٧٨١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

وقد جاءت أحاديث كثيرة فيها، مثل النهي عن الكتابة عليها، أو إضافة شيء إليها، أو وضع مثلًا علامات عليها، أو تجصيصها أو الإسراج عليها وغيرها مما هو منصوص عليه في السنن عن المصطفىٰ ﷺ.

فالرسول ﷺ كان يبعث البعوث لإزالة ذلك، فعرف الصحابة ذلك، ولهذا جاء في صحيح مسلم: أن فضالة لما كانوا في الغزو مات صاحب لهم فأمر أن تسوىٰ عليه الأرض وقال: إن الرسول ﷺ أمرنا بهذا[(١)].

قوله: «**ألا أبعثك**»: البعث: هو الإرسال، يرسله بالشيء ويأمره. وعلي بُعث إلىٰ اليمن، ولكن الظاهر أن هذا بعث غيره.

قوله: «**ألا تدع صورة إلا طمستها ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته**»: وهذا يدل علىٰ أنه يجب علىٰ الإمام أنه يفعل ذلك كما فعل ذلك علي وأمر به لأنه فعل الرسول ﷺ. فهذه النصوص ظاهرة في تحريم الصور، وأنه من أعظم المحرمات.

والصور أنواع: منها ما هو مجمع علىٰ تحريمه ولا خلاف فيه وهو الصورة المجسدة التي لها ظل، ولها جسد هذا لا خلاف فيه أنه من أعظم المحرمات.

ومنها كذلك الصور التي تخطط باليد أو بالقلم أو بغير ذلك للحديث الذي في الصحيح عن عائشة: أنها اشترت نمرقة فيها تصاوير فلما رآها رسول الله ﷺ قام علىٰ الباب فلم يدخله فعرفت في وجهه الكراهية فقلت: يا رسول الله أتوب إلىٰ الله وإلىٰ رسوله ﷺ ماذا أذنبت؟. فقال رسول الله ﷺ: «**ما بال هذه النمرقة**». قلت: اشتريتها لك لتقعد عليها وتوسدها، فقال رسول الله ﷺ: «**إن أصحاب هذه الصور يوم القيامة يعذبون فيقال لهم أحيوا ما خلقتم**». وقال: «**إن البيت الذي فيه الصور**

---

(١) رواه مسلم رقم (٩٦٨) عن ثمامة بن شفي قال: كنا مع فضالة بن عبيد بأرض الروم برودس فتوفي صاحب لنا فأمر فضالة بن عبيد بقبره فسوي ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يأمر بتسويتها.

لا تدخله الملائكة»[1]، وهذا معروف أنه في الكساء والكساء لا تكون الصورة فيه مجسدة، بل تكون مخططة، فهذا يدل على أنه من المحرمات.

والتصوير بالآلة مثل التصوير الفوتوغرافي هذا بإجماع الناس أنه يسمى صورة والفاعل يسمى مصور، فهل يخرج هذا عن كونه مصورًا أو أن هذه صور؟ بل الفعل بهذا أدق من الفعل باليد، والعلة هي المضاهاة؛ يعني: المشابهة فهي موجودة تمامًا بذلك.

فالآلة تحتاج إلى من يديرها ويوجهها، وهذا الذي يديرها ويوجهها هو المصور، فهو مثل التخطيط بالقلم، لا فرق بين هذا وهذا، فهي صور على كل حال.

قال المؤلف رحمه الله: فيه مسائل:

❁ **الأولى: التنبيه على العلة وهو ترك الأدب مع الله لقوله: «ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي».**

يعني: طلب التشبه بالله جل وعلا.

❁ **الثانية: أنه يكلف أن ينفخ فيه الروح.**

هذا أيضًا من العذاب؛ لأن هذا ليس بإمكان أحد، هذا خاص بالله جل وعلا، والمقصود بأن ينفخ فيها الروح؛ يعني: أن يحييها يجعلها حية.

❁ **الثالثة: الأمر بطمسها إذا وجدت.**

يعني: إذا كان بالتخطيط، أما إذا كانت بالتجسيم ولها ظل فإنه لا يكفي الطمس، لا بد من إزالة معالم الصورة، والمعالم هو الرأس.

---

(١) رواه البخاري رقم (٢١٠٤)، ومسلم رقم (٢١٠٧).

الرابعة: أن الله يخلق بعدد كل صورة نفسًا يعذب بها المصور في جهنم.

وفي ضمن هذا الحكم الذي يصير إليه المصور، أنه يكون في النار، وهذا شيء شديد جدًا.

الخامسة: الأمر بطمسها إذا وجدت.

يعني: إزالة ما يجعلها متميزة، ويجعلها صورة، والطمس معروف كأن تجعل كالشجرة مثلًا أو كالحجر، حيث لا يكون فيها علامات تميزها ويكون هذا في الشيء الذي يزيل هذه العلامات.

وكذلك جاء الأمر بقطع الرأس، إذا قطع الرأس أصبحت الحياة غير مستقرة فيه فإنه يزول الحكم عنه، ومعروف أن الأحاديث جاءت بأن الملائكة لا تدخل البيت الذي فيه صورة أو كلب، والملائكة ليست الملائكة المكلفون بحصر أعمال الإنسان هؤلاء يدخلون مع الإنسان مع كراهيتهم ويصبح الإنسان يرتكب آثامًا في هذا الأمر لأن هؤلاء ملزمين بهذا، ولكن الملائكة الذين لا يدخلون هم الملائكة السيارة الذين يتتبعون محل الرحمة ومحل نزولها وما فيه من الذكر من الحلق وغيرها، ولكن عرفنا أن الحفظة لا يفارقون الإنسان دائمًا. كما جاء في الحديث: «**إياكم والتعري فإن معكم من لا يفارقكم إلا عند الغائط، وحين يفضي الرجل إلىٰ أهله فاستحيوهم وأكرموهم**»[1].

ولهذا صارت بيوت أكثر الناس مأوىٰ للشياطين، والملائكة تفر منها لوجود الصور ووجود الأغاني وهي التي تألفها الشياطين وتأنس بها، فالأغاني هي قرآن الشيطان، ولهذا لا تجتمع الأغاني مع كلام الله ﷻ في قلب عبد لا بد أن يخرج أحدهما.

(١) رواه الترمذي رقم (٢٨٠٠) من حديث ابن عمر.

وكذلك الأماكن إذا كانت مستقر الأغاني والصور فهي مألف الشياطين والملائكة تفر منها لا تقربها، ولهذا كثرة ملابسة الجن للناس لهذا السبب والناس يشتكون هذا بكثرة واللوم عليهم في ذلك.

الباب الثاني والستون

✍ **قال المؤلف** رَحِمَهُ اللهُ: **باب ما جاء في كثرة الحلف.**

يعني أنه يدل علىٰ خفة الدين وعدم المبالاة بأوامر الله جَلَّ وَعَلَا، فيكون دليلًا علىٰ نقص التوحيد يعني ضعفه، وقد يكون دليلًا علىٰ ذهابه وأنه لا وجود له، وهذا هو وجه إدخال هذا الباب في كتاب التوحيد.

وجميع الذنوب تدخل في هذا، فالعبد إذا فعل الذنب وكان مستخفًا به فمعنىٰ ذلك أنه لم يُراقب الله جَلَّ وَعَلَا ولم يخف منه، وهذا من نقص توحيده.

أما ما كان عن غفلة وسهو فهذا أيضًا يكون قد اختلس الشيطان من دينه ودخل عليه في ذلك لأنه فيه مداخل وضعف.

وهو رَحِمَهُ اللهُ لم يعين الجزاء قال: «**ما جاء في كثرة الحلف**»؛ يعني: أنه جاء فيه وعيد من الله جَلَّ وَعَلَا أو من رسوله ﷺ.

وعبر بكثرة الحلف لأنه إذا كثر الحلف فإنه لا بد أن تقع المخالفة؛ يعني: يقع في الحنث وذلك خلاف ما أمر الله به في قوله: ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ﴾ [المائدة: ٨٩]، هذه من الأمور التي أمر الله جَلَّ وَعَلَا بحفظها فقد نص جَلَّ وَعَلَا علىٰ عدد من الأشياء التي أمر عباده بأن يحفظوها مثل الصلاة والفروج وغيرها.

وحفظ الإيمان فُسر بشيئين:

◈ **فسر بعدم الحلف**، وهذا هو الذي أراده المؤلف رَحِمَهُ اللهُ أن لا يحلف لأنه إذا حلف يجوز أنه يخالف حلفه فيقع في الحنث، وهذا روي عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنه قال:

لا تحلفوا، واحفظوا أيمانكم. لأن الإنسان إذا حلف لا بد أن يقع في المخالفة، ويكون النهي هنا «لا تحلفوا» وينصرف إلىٰ الكثرة؛ لأن هناك حالات يتعين علىٰ الإنسان أن يحلف، أن يتوجه اليمين إليه، وما أشبه ذلك فيكون مثل ما قال المؤلف رحمه الله ما جاء في كثرة الحلف.

والرسول ﷺ كان يحلف في بعض الأشياء ولكن في الأمور الظاهرة وفيما يخبر بها عن الله جل وعلا، في أمور الحق.

والله جل وعلا أكثر في كتابه من الإقسام وهو الحلف وهذا من تقوية الخبر، والله إذا أخبر عن شيء فهو حق، ولكن المُخْبَرُ قد يكون عنده تردد أو عنده عدم قبول للخبر فيقسم له حتىٰ يكون له موقع من نفسه وداع إلىٰ التصديق.

◈ **القول الثاني في الآية**: لا تتركوا أيمانكم إذا حلفتم بلا كفارة؛ يعني: كفِّروا عن أيمانكم التي خالفتم فيها وحنثتم.

والحنث هو: المخالفة؛ يعني: أن يحلف علىٰ شيء ثم يفعله. ويسمىٰ حنث لأنه مأخوذ من الإثم، والحنث هو الإثم، أن يقع في الإثم إن لم يكفِّر.

ومن رحمة الله جل وعلا أن جعل للحلف الكفارة، والكفارة جاءت علىٰ التخيير والترتيب، جاء فيها عتق رقبة أو إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم، هذا علىٰ التخيير بين هذه الثلاثة، فأي واحدة من هذه فعلها الإنسان يكفيه.

فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام، وهذه علىٰ الترتيب لا بد، فلا ينتقل إلىٰ الصيام إلا إذا عجز عن الإطعام أو الكسوة أو العتق.

فيكون معنىٰ ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ﴾ [المائدة: ٨٩]؛ يعني: احفظوها أن تقع بلا كفارة.

والقول الأول هو الذي أراده المؤلف رحمه الله لأنه قال: كثرة الأيمان، وكثرتها داع إلىٰ الوقوع في الإثم.

ومعلوم أن اليمين لا تجوز أن تكون إلا بالله أو بصفة من صفاته، أما إذا صارت اليمين بغير الله فهو شرك، واليمين إذا كانت شركًا أو كانت غموسًا؛ يعني: كذبًا فلا كفارة لها وقد سبق في النذر أن من نذر معصية أنه يحرم عليه الوفاء به.

واختلف هل يجب عليه الكفارة، سبق في ذلك الباب، وأن الصحيح أنه عليه كفارة يمين لحديث ورد في هذا عن النبي ﷺ[1].

وعلىٰ هذا نقول أن الحلف أقسام، الحلف الذي يذكر لتأكيد الأخبار، ويكون بالله أو بصفة من صفاته -تعالىٰ وتقدس- فهذا هو الذي أمر بحفظه.

أما إذا كان كذبًا فهذا يسمىٰ اليمين الغموس لأنه يغمس صاحبه بالإثم ومنه شهادة الزور -نسأل الله العافية-.

وأما إن كان بغير الله أو صفة من صفاته فهذا شرك، والشرك هو من أعظم المحرمات بل هو أعظمها علىٰ ما جاءت به النصوص.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله **: عن أبي هريرة** رضي الله عنه **قال: سمعت رسول الله** ﷺ **يقول: «الحلف منفقة للسلعة، ممحقة للكسب» أخرجاه**[2].

قوله: «منفقة»؛ يعني: أنه طريق لإنفاق السلعة؛ يعني: لترغيب الناس فيها، فإذا حلف أنه أعطي بها كذا أو أنه اشتراها بكذا، فهذا يجعل المشتري يقدم عليها يظن أنه صادق، فهو يحلف لأجل الزيادة التي يريدها فيكون هذا أيضًا سببًا لمحق

(١) باب من الشرك النذر لغير الله ص(٣٣٥).

(٢) رواه البخاري رقم (٢٠٨٧)، ومسلم رقم (١٦٠٦)، والنسائي رقم (٤٤٦١) واللفظ له.

البركة. وإذا محقت البركة فلا خير فيها، فيكون قد تحصل على الإثم وذهب ما أراده، وهذا يدل على رجحان الدنيا عنده على الدين، ولا بد أنه إما فاقد للتوحيد، أو أن توحيده ضعيف ضعفًا شديدًا، فهذا هو وجه الدلالة من هذا.

وقد جاءت أحاديث في هذا المعنى، وجاء فيه شيء عام وشيء خاص، الخاص الذي يكون بعد صلاة العصر لأن هذا الوقت وقت فضيل استقبال الليل وختم العمل، فمن حلف في هذا الوقت وهو كاذب فقد وقع في أمر عظيم كما جاء في الحديث.

وكذلك إذا كان بعد الصلاة، ولهذا أمر الله ﷻ بالشهود الذين يشهدون على الوصية، إذا اتهموا أنه يؤتى بهم بعد الصلاة فيستشهدون، وهذا مظنة بأن العقوبة تعجل لهم إذا كذبوا.

فقوله: **«الحلف منفقة»**؛ يعني: أنها تنفق عند الناس، ومعنى النفاق: يعني الرغبة أن الناس يرغبون فيها، ورغبتهم لأجل أنهم صدقوا هذا الكاذب الذي حلف. فهل يدخل في هذا الحلف وهو صادق؟

ولا ينبغي للإنسان أن يحلف على السلعة وإن كان صادقًا، بل الرزق عند الله ﷻ فيعرضها وإذا سئل عنها يخبر، إذا قيل بكم اشتريتها؟ أو هل ترى أنها جيدة أو رديئة؟ يجب أن يبين ويخبر بالواقع حتى يبارك له فيها، وهذا لا يمنع أن الناس يرغبون فيها إذا كان للمشتري فيها رغبة أخذها وإن كانت فيها زيادة بلا إشكال، وإذا صدق بورك له في ذلك وتكون الدنيا تبعًا لدينه وهذا هو الواجب.

ولهذا أحد السلف لما جلب حمارًا سأله الذي يُريد أنه يشتريه قال: أترضه لي؟ قال: لو رضيته لم أبعه[1]. ومع الأسف كثير من مبيعات المسلمين على خلاف

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ١٢١) وهو محمد بن واسع رحمه الله.

الحق وبعضهم يعمي على الإنسان، ويكتم ولا سيما في الأشياء التي لا تكون معروفة، وبعضهم يمنع حتى النظر فيها يقول: تشتريها على ما هي عليه، وهذا لا يجوز وهو بيع باطل؛ لأن البيع لا بد أن يكون فيه التراضي وفيه معرفة الثمن والمثمن.

قوله: «ممحقة للكسب»: ممحقة مثل منفقة جاءت منكَّرة، فهي تدل على العموم، أن الإنسان إذا فعل ذلك محق كسبه، والمحق هو الإزالة والإبطال -نسأل الله العافية- فمن محق كسبه فهو خاسر.

ثم يلزم على هذا أمر آخر هو أنه أخذ مالًا بلا حق فيكون من أكل الحرام، ومن أكل مال أخيه بلا حق فيكون هذا سببًا لعدم قبول عمله كله -نسأل الله العافية- لأن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، فمن أكل طيبًا ودعا وعمل قبل، ومن أكل حرامًا فإنه لا يقبل منه كما جاء في الحديث الذي في صحيح مسلم(١) وغيره وكذلك الآيات.

قال المؤلف رحمه الله: وعن سلمان أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله ولا يزكيهم ولهم عذابٌ أليم: أشيمط زان، وعائل مستكبر، ورجل جعل الله بضاعته لا يشتري إلا بيمينه ولا يبيع إلا بيمينه»، رواه الطبراني بسند صحيح(٢).

سلمان من أفاضل الصحابة وهو مشهور، ويذكر أنه بلغ ثلاثة مائة سنة، وهذا الظاهر أنه لا أصل له، ولا قريب من ذلك، الظاهر أنه ما تجاوز الثمانين وقد توفي في

---

(١) رواه مسلم رقم (١٠١٥) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ [المؤمنون: ٥١]، **وقال:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ [البقرة: (١٧٢)]، **ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك؟»**.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير رقم (٦١١١).

خلافة عثمان رضي الله عنه. جاء أنه كان أميرًا على ثلاثين ألفًا من الصحابة وكان لباسه عباءة إذا جاء الليل افترش بعضها وتلحف ببعضها، وكان من الزهاد المعروفين من الصحابة.

والصحابة كلهم أهل خير وأهل فضل وأهل زهد، وأهل رغبة فيما عند الله جل وعلا، وعزوف عن الدنيا، فإن أحدهم إذا جاءه المال رأى أنه مصيبة مثل ما وقع لعامر بن سعد كان أميرًا لأهل حمص فكتب عمر رضي الله عنه لهم يقول: اكتبوا لي فقراءكم. فكتبوا أميرهم في أول القائمة، قال: سبحان الله أميركم فقير، قالوا: لا يمسك شيئًا وليس بيده شيء، فأرسل له ألف دينار، فلما وصلته دخل على زوجته وهو يصيح جاءتنا الفتن، قالت: ما الذي جاء قتل أمير المؤمنين؟ قال: لا، أعظم. جاءتني الدنيا وفيها الفتن، قالت: فرقها في سبيل الله. فذهب واستعرض جيشًا خارجًا فصار يوزع عليهم على خمسين وعلى عشرين وثلاثين، فرجع على بيته وليس معه دينار واحد. قالت له زوجته: لو تركت لنا دينار أو دينارين نشتري بهما شيئًا أو حاجة. قال: اسكتي ولا تعترضي علي فقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**لو أن امرأة من أهل الجنة اطلعت إلى الأرض لأضاءت ما بينهما ولملأت ما بينهما ريحًا**»(١) لو خيرت بينها وبينك لاخترتك، ولكن لا تعترضي علي، قالت: لن أعترض عليك.

والمقصود أن الصحابة رضوان الله عليهم رغبتهم فيما عند الله ظاهرة، ومنهم سلمان رضي الله عنه.

قوله: «ثلاثة»: نكرة مفيدة والجملة بعدها وصف لها.

قوله: «لا يكلمهم الله»: ظاهر في أن الله يكلم عباده المؤمنين الذين يرضى عنهم، فعلى هذا نقول: إن هذا من الأدلة الكثيرة التي لا حصر لها في إثبات صفة

---

(١) رواه البخاري رقم (٢٧٩٦).

الكلام لله ﷻ، على خلاف ما يقوله أهل البدع وأهل الضلال كالمعتزلة وتبعهم على هذا الأشاعرة كانوا يثبتونه في الظاهر، ولكن في الحقيقة لا يثبتون كلامًا لأنهم يقولون الكلام ينقسم إلى قسمين هذا مشهور في كتبهم وتصانيفهم: كلام لفظي، اللفظي لا يجوز وصف الله به عندهم.

وكلام معنوي يقوم بالذات، وهذا هو الذي يصفون الله ﷻ به وهو شيء لا يعقل.

فالمقصود أن هذا خلاف الحق، وخلاف ما جاء في كتاب الله في آيات لا حصر لها إلا بكلفة ومشقة، وكذلك في أحاديث رسول الله ﷺ.

ومر في حديث عدي أن رسول الله ﷺ قال: «**ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان ولا حجاب يحجبه**»(١)، وهذا لو تكلف الإنسان مثلًا أن يأتي بأبلغ من هذا الكلام ما استطاع، فهو من أبلغ الكلام وأفصحه وأبينه كقوله ﷺ: «**إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروب الشمس فافعلوا**»(٢)، وليس شيء أوضح من هذا وهذا مثله.

والكلام صفة مدح وكمال، وعدم الكلام صفة نقص، ولهذا عاب الله على المشركين أنهم يعبدون ما لا يرد عليهم كلامًا، وأخبر أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلًا، وأصحاب العجل الذين عبدوا العجل وكذلك غيرهم الذين يعبدون الأحجار والأشجار والأموات وغيرهم فقد عيروا بذلك، فعدم الكلام أو القدرة عليه نقص يتقدس الله عنه.

(١) رواه البخاري رقم (٧٤٤٣)، ومسلم رقم (١٠١٦).
(٢) رواه البخاري رقم (٥٥٤)، ومسلم رقم (٦٣٣) من حديث جرير.

أما قولهم أنا إذا أثبتنا الكلام لزم من ذلك أننا نشبه الله، فهذا كلام باطل هذا كقولك مثلًا: إذا أثبتنا كلام الله لزم أننا نشبه الله بالموجودات، وهذا باطل وهو من حجج الشيطان التي يضل الناس بها.

وقوله: «ولا يزكيهم»: التزكية أخذت من النماء والزيادة والكثرة. والتزكية بالأعمال، إذا زكىٰ عمله وزُكيت نفسه انفتح أمامه كل خير، وأعظم الأشياء الإيمان بالله ﷻ، وأن يتحلىٰ بالتقوىٰ ثم يزداد من العمل، وقد نهىٰ الله عباده أن يزكوا أنفسهم ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢] وتزكية النفس أن يثني الإنسان علىٰ نفسه يقول: أنا أفعل وأنا فيَّ كذا وكذا، فالتزكية إلىٰ الله من زكاه الله فهو الزاكي ومن منع الله بركته عنه وفضله فهو ضال هالك.

وقوله: «ولهم عذاب أليم»: أليم؛ يعني: مؤلم موجع شديد الألم؛ لأن أليم صيغة مبالغة فعيل، وهذا وعيد شديد كونه لا يكلم ولا يزكىٰ وله عذاب أليم، فهذا من أشد الأشياء -نسأل الله العافية-.

وهذا لا ينفي كونه يدخل في قوله: ﴿قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] وما أشبه ذلك من كلام العذاب، وهو دليل واضح أن الله يكلم خلقه يوم القيامة، وهذا أدلته كثيرة كما سبق.

ثم بدأ بذكرهم تفصيلًا **قال:** «أشيمط زان»: أشيمط: تصغير أشمط، وصُغر لتحقيره وإهانته. والأشمط: هو الذي اختلط شيب شعره بسواده؛ يعني: أن من كان بهذه الصفة فقد ضعفت عنده الشهوة التي قد تحمله علىٰ ارتكاب المعصية، فإذا ارتكب ذلك دل علىٰ أن هذا شيء متأصل عنده حب الفاحشة، فيكون ممن يرغب بالفاحشة ويحبها، لا لدافع يدفعه بالقوة، بخلاف الشاب فإنه قد يدفع قوة الشهوة ثم بعد ذلك إذا وقع في هذا الشيء يندم ويرجع، أما هذا فالغالب أنه يتمادىٰ في شره لأن هذا خُلقه، محبة الفاحشة.

«أشيمط زان» فكيف إذا كان شعره كله أبيض هذا يكون أعظم وأطم -نسأل الله العافية- لأن الشهوة ضعفت عنده.

فهذا يدلنا علىٰ أن الإنسان إذا كان يفعل المعاصي لرغبة فيها أنه فاقد للإيمان، وأن عذابه يُضاعف أكثر من غيره.

ثم قال: «وعائل مستكبر»: العائل هو: الفقير؛ لأن الفقر ليس مدعاة للكبر، وإنما الذي قد يدعو إلىٰ الكبر الغنىٰ والمناصب والرفعة، فالمال هو الذي يدعو الإنسان إلىٰ الكبر كما قال الله ﷻ: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧]، أما إذا كان عائلًا فقيرًا واستكبر فهذا دليل علىٰ أن الكبر خُلق له، ومن كان الكبر خلقًا له فهو من البعيدين عن الخير من أتباع الشيطان، وهذا الذي قيل فيه: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر**»(١).

والثالث: «**رجل جعل الله بضاعته**».

الله اسم الجلالة منصوب علىٰ أنه مفعول.

قوله: «**جعل الله بضاعته**»؛ يعني: بالحلف.

قوله: «**لا يشتري إلا بيمينه ولا يبيع إلا بيمينه**»: وهذا دليل علىٰ عبادته الدنيا، وتقديمها علىٰ دينه وأنه يجعل دينه وسيلة لكسب الدنيا ومن كان بهذه الصفة فهو من الهالكين ولا توحيد عند مثل هذا، إما أن يكون ضعيفًا جدًا بحيث أنه لا يمنعه من المعاصي وارتكاب الجرائم، أو أنه لا توحيد له أصلًا فهو مفقود.

ووجه الدليل من هذا الحديث واضح قوله: «**جعل الله بضاعته**» لأنه لا قَدْرَ لله عنده، وإنما القدر عنده للمال، وقد يكون الذي يشتريه أو يبيعه أمر ضئيل ومع ذلك

---

(١) رواه مسلم رقم (٩١)، وأحمد في المسند رقم (٣٩١٣) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

يحلف، وبهذا استحق أن يكون له هذا العذاب الذي ذُكر أنه لا يكلمه الله ولا يزكيه ويعد له عذابًا أليمًا هذا من أعظم الوعيد.

والسبب في هذا أنه لم يقدر الله حق قدره، ولم يقم بحقه الذي أوجبه عليه، بل إما أن يكون حق الله عنده مفقود أو أنه ضعيف.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله **: وفي الصحيح عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: «خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم -قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثًا- ثم إن بعدكم قوم يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السِّمَن»**(١).

قوله: «وفي الصحيح»؛ يعني: في الحديث الصحيح، وهذا الحديث في الصحيحين. وهذا اللفظ الذي ذكره لفظ مسلم.

عمران بن حصين مر معنا مرارًا وهو من أفاضل الصحابة، والصحابة ليس فيهم دني ولكن بعضهم برز في الفضل ومنهم عمران بن حصين الخزاعي، وهو وأبوه صحابيان حصين جاء أن رسول الله ﷺ سأله قال: **كم تعبد؟** قال: أعبد سبعة. ستة في الأرض وواحد في السماء. فقال له: **ما الذي تعده لرغبتك ورهبتك؟** قال: الذي في السماء. فقال: **يا حصين أما إنك لو أسلمت، علمتك كلمتين تنفعانك**، فلما أسلم حصين أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، علمني الذي وعدتني، قال: قل: «**اللهم ألهمني رشدي وأعذني من شر نفسي**»(٢).

وعمران كانت تسلم عليه الملائكة، يعني كفاحًا، فصار به بواسير فاكتوى فذهبت الملائكة، ثم تاب وندم على ذلك فعادت لما أخبر من أخبر وقال له:

(١) رواه البخاري رقم (٣٦٥٠)، ومسلم رقم (٢٥٣٥)، وهذا لفظ البخاري.

(٢) رواه الترمذي رقم (٣٤٨٣).

لا تخبر أحدًا بذلك حتىٰ أموت، فلم يخبر حتىٰ مات رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

قوله: «خير أمتي قرني»: الأمة سبق الكلام فيها في أول الكتاب؛ يعني: إطلاقاتها أنها تطلق علىٰ الجماعة وعلىٰ الزمن، وتطلق علىٰ القدوة الإمام الذي يقتدي به: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠]، وتطلق علىٰ الدين: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢] يعني علىٰ ملة ودين، ولها إطلاقات غير هذه.

قوله: «أمتي»: بالإضافة، والإضافة تدلنا علىٰ الاستجابة والاتباع؛ يعني: أمتي التي اتبعتني واستجابت لدعوتي، فهي أمة الإجابة؛ لأن الأمة تنقسم إلىٰ قسمين:

أمة الدعوة وهذه يدخل فيها كل من علىٰ وجه الأرض من الجن والإنس كلهم أمته يهود ونصارىٰ ومشركون وعرب وعجم وغيرهم، كلهم أمة له، لأنه ﷺ بعث إلىٰ الخلق كافة، وليس الخلق المقصود أنه يدخل فيهم الملائكة كما يقول السبكي وغيره، الملائكة ليسوا بحاجة إلىٰ أن يرسل إليهم رسولًا بشريًا، ولكن المقصود من علىٰ الأرض من الجن والإنس المكلفون، والمكلفون هم بني آدم وبنو الشيطان هؤلاء هم أهل التكليف، وهم الذين خلقت لهم الجنة والنار كما قال جَلَّ وَعَلَا في النار: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]، فهي تملأ من الجن ومن الناس فقط لأنهم هم العصاة الذين خالفوا أمر الله.

فختم الرسل به ﷺ فلا رسول بعده جعلت رسالته الخاتمة للرسالات كما قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**وأنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها علىٰ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ**»[(١)]، ولكن هذه الخيرة والكرم لمن استجاب لرسول الله ﷺ واتبعه.

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم (٢٠٠١٥)، والترمذي رقم (٣٠٠١).

فقوله: «خير أمتي» ظاهر بأنه يقصد بالأمة الذين آمنوا به واتبعوه، وهذا يدخل فيه كل من آمن به واتبعه إلىٰ يوم القيامة.

والخطاب للصحابة، قال: «خير أمتي قرني» قد اختلف في القرن ما المراد به، والمشهور أنه مئة سنة وفيه كلام، وقد صحح بعض المحققين أن القرن هو ما اجتمع قوم عليه في أمر مهم، فإذا انقرض أولئك القوم فهذا القرن مثل: اجتماع الصحابة علىٰ الرسول ﷺ فيبدأ القرن في بعثته صلوات الله وسلامه عليه، وينتهي بآخر من مات من الصحابة سواء بلغ مائة سنة أو أكثر أو أقل، ثم هكذا الذي بعده كذلك، وقد أخبر الله ﷻ أنه بعث في كل قرن نبيًا فيما سبقنا: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونَۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٨]، فالظاهر أن القرن لا يحدد بمائة سنة، وإنما يحدد باجتماع الناس علىٰ أمر مهم يجتمعون عليه، فإذا انتهىٰ أمرهم هذا انتهىٰ قرنهم.

وقوله: «خير أمتي»: هذا فيه عموم، والخيرية معلوم أنها تكون في الدين أما الدنيا فلا يوصف الإنسان بها إذا كثر ماله أنه خير الناس، بل قد يكون شر الناس، فهي طريق إلىٰ الطغيان.

ثم قوله: «ثم الذين يلونهم» في الخيرية.

قوله: «ثم الذين يلونهم»: هذا ترتيب، فالصحابة هم أهل الخير الكثير، ثم من يليهم من التابعين فيهم خير ولكنهم أقل من الصحابة، ثم أتباع التابعين أهل خير ولكنهم أقل من التابعين، وهذا الظاهر أنه مطرد يستمر إلىٰ أن يفقد الخير ويصبح لا وجود له، ولكن الرسول ﷺ حدد قرونًا ثلاثة، ثم بعد ذلك وصف الذين يأتون بأوصاف أربعة وكلها أوصاف ذم، ولا يعترض علىٰ هذا بأنه قد يوجد في القرن الرابع أو الخامس من أهل الفضل والعلم والدعوة إلىٰ الله والقيام بأمر الله لأن الأفراد لا حكم لهم، وإنما النظر إلىٰ المجموع، وكذلك لا يعترض علىٰ هذا فيما

جاء في سنن أبي داود والترمذي في ذكر أيام الصبر التي يقول فيها الرسول ﷺ: «**فإن من ورائكم أيام الصبر القابض فيهن على دينه مثل القبض على الجمر، للعامل فيهن أجر خمسين**»، قيل: يا رسول الله أجر خمسين منا أو منهم؟ قال: «**بل أجر خمسين منكم**»(١)، فكون الإنسان له أجر خمسين رجل هذا لا يلزم أن يكون أفضل منهم، وإن كان أجره كثيرًا فهو أقل منهم بكثير في الفضل، والتفاضل ليس بكثرة الأجر، التفاضل بالعلم بالله وخوف الله وتوقير الله كما قالوا إن أبا بكر لم يسبق الصحابة بكثرة صلاة أو صوم وإنما سبقهم بشيء وقر في قلبه، وهذا الشيء الذي وقر في قلبه هو معرفة الله وتعظيمه وفقه صفاته وأسمائه تعالى وتقدس.

وهذا نص في أن الصحابة هم أفضل الأمة، وهذا لا خلاف فيه إلا الفرقة الضالة التي هي أضل من اليهود والنصارى وهم الرافضة، فإن اليهود يرون أفضل أمتهم أصحاب موسى عليه السلام، والنصارى يرون أفضل أمتهم حواري عيسى عليه السلام، وهؤلاء يقولون إن شر الأمة أصحاب رسول الله ﷺ، ولهذا يكفرونهم ويسبونهم والعجب أنهم أيضًا يرمون بعض زوجات الرسول ﷺ بالفجور أيُّ أذية أبلغ من هذه لرسول الله ﷺ، ولهذا لما رميت عائشة رضي الله عنها من قبل المنافقين بسبب وقع، أنها اتهمت برجل شق ذلك على رسول الله ﷺ مشقة عظيمة، حتى قام في الناس وقال: «**من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهلي فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرًا، وقد ذكروا رجلًا ما علمت عليه إلا خيرًا، وما كان يدخل على أهلي إلا معي**»(٢)، حتى نزل الوحي بتبرئتها أنها طاهرة ولا يليق بالطاهرين إلا الطاهرات الطيبات، فكيف بعد نزول الوحي يجرؤ من عنده شيء من العقل على أن يرميها، والعجيب أنهم يقولون: المبرأة

---

(١) رواه أبو داود رقم (٤٣٤١)، والترمذي رقم (٣٠٥٨) من حديث أبي ثعلبة الخشني، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

(٢) رواه البخاري رقم (٢٦٦١)، ومسلم رقم (٢٧٧٠).

ليست عائشة، إنما هي مارية القبطية، فهم يتعمدون الكذب والزور والبهتان.

المقصود أن ثناء الله، وثناء رسوله ﷺ علىٰ الصحابة أمر ظاهر، وكتاب الله مملوء من الثناء عليهم، ولكن مع الأسف أن كثيرًا من الشباب المسلم يجهلون هذا الفضل، وقد ينطلي عليهم ما يتكلم به أهل الباطل.

ثم قال: «**ثم إن بعدكم قومًا يشهدون ولا يستشهدون**».

هذه هي الصفة الأولىٰ، وهي ظاهرة أنها علىٰ وجه الذم «**يشهدون**»؛ يعني: أنهم يكذبون يشهدون شهادة الزور هذا هو معناه. فلا يعترض بحديث خالد بن زيد الذي في صحيح مسلم: «**ألا أخبركم بخير الشهداء الذي يأتي بشهادته قبل أن يسألها**»[1]، هذا لأنه تحمل شهادة، ثم صاحبها قد يكون جاهلًا بذلك فيأتي ويؤديها إظهارًا للحق وبراءة لذمته، وقيل أنه الذي يتحمل الشهادة لله لأن أمور الدين ليس لها من يدافع عنها والأولىٰ أظهر.

قوله: «**يشهدون ولا يستشهدون**»؛ يعني: لا يطلب منهم أداء الشهادة. فالأول لا يطلب منهم تحمله؛ يعني: لا يتحملونه، والثاني: لا يطلب منهم الأداء، فيأتون بذلك وهو يدل علىٰ استخفافهم بالشهادة وأنها لا قيمة لها عندهم، والقول الأول أولىٰ.

الصفة الثانية: «**ويخونون ولا يؤتمنون**»؛ يعني: أنهم تكون الخيانة عندهم ظاهرة.

وقوله: «**ولا يؤتمنون**»: لا يؤدون الأمانة ولا يقومون بها، والأمانة تكون بالنسبة للمخلوق وبالنسبة للخالق، أما الخالق فالدين كله أمانة عنده إيمانه، وما اؤتمن عليه. فهم لا يراعون ذلك، هذه أيضًا من أقبح الصفات.

---

(١) رواه مسلم رقم (١٧١٩) من حديث زيد بن خالد الجهني.

الصفة الثالثة: «**وينذرون ولا يوفون**»، والنذر هو: التزام شيء لم يلزمه؛ يعني: أن يوجب على نفسه طاعة ليست بواجبة عليه.

فإذا أوجب على نفسه الطاعة وجب أن يقوم بها: «**من نذر أن يطيع الله فليطعه**»[(١)]؛ يعني يجب أن يطيعه، وهؤلاء لا يوفون، ينذرون ولا يوفون؛ لأنهم لا يهتمون بأمر دينهم ولا يراقبون ربهم، ولا لأمره ونهيه عندهم قدر.

وقوله: «**يخونون ولا يؤتمنون**»: والخيانة من أقبح الأعمال، ولا يوصف بها إلا من هو مجانب للحق وللتوحيد.

وقول بعض الناس: من خان الناس خانه الله، هذا كلام قبيح لا يجوز أن يقال، **الله لا يخون** -تعالى وتقدس-.

وقوله: «**ويظهر فيهم السمن**»: المعنى أنهم يرغبون في الدنيا ويطلبون الملذات التي تكون سببًا للسِّمن.

ولا يدخل في هذا من حصل له هذا خلقة بدون قصد وإرادة وإنما يدخل في هذا من كان سببًا في ذلك، طلبًا لسمن كملء البطون والحرص على ذلك.

على كل حال يدل هذا على رغبتهم في الدنيا أكثر، وأنهم من عباد الدنيا، ومعروف أن من كان عنده خوف من الله ومراقبة أن ذلك يمنعه من السمن الغالب، وليس هذا مطرد قد يكون الرجل سمين وهو خائف من الله ﷻ.

وعلى هذا نقول أن هذا لمن طلب الملذات لأجل ذلك، وكان ذلك سببًا بفعله، ولا يدخل فيه من وقع في ذلك وهو غير مريد له ولا طالبًا له ومحصلًا له لأن السمن قد يكون خلقة.

---

(١) رواه البخاري رقم (٦٦٩٦) من حديث عائشة.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **وفيه عن ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته»، قال إبراهيم: كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار[1].**

قوله: «وفيه»؛ يعني: في الصحيح.

قوله: «خير الناس قرني»: وهذا فيه عموم ظاهر؛ لأن الناس يعم جميع من أطلق عليه هذا اللفظ.

قوله: «ثم الذين يلونهم»: ولكن يخرج من هذا العموم الأنبياء والرسل بالنصوص التي جاءت بفضلهم؛ لأنه معلوم أن الرسول لا يكون أدنى من المرسل إليهم، بل هم الذين اصطفاهم الله ﷻ لرسالته، الاصطفاء هو الاختيار.

قوله: «ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته»؛ يعني: أنه لا يبالي بأن يشهد، أو يقسم، فهذا من باب الاستخفاف؛ يعني: ليس عنده وازع ديني وخوف من الله يمنعه من ذلك، هو دليل على فقد التوحيد أو ضعفه.

قوله: «قال: إبراهيم»: هو النخعي، وهو من التابعين، من أصحاب ابن مسعود.

قوله: «كانوا يضربوننا»؛ يعني: أهليهم، وهم صغار يؤدبونهم على الشهادة والعهد.

قوله: «ونحن صغار»؛ يعني: يربونهم على تعظيم اليمين وتعظيم الشهادة، وهذا معروف أنهم كانوا صبيانًا؛ يعني: لم يصلوا إلى سن التمييز.

ففيه تأديب الأطفال يجب أن يؤدبوا ويعلموا قدر الشهادة وقدر اليمين، وإذا حلفوا يضربون حتى يعرفوا ذلك.

---

(١) رواه البخاري رقم (٣٦٥١)، ومسلم رقم (٢٥٣٣).

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **فيه مسائل:**

❁ **الأولى:** الوصية بحفظ الأيمان.

الوصية: هي التأكيد على أمر مهم؛ يعني: الوصية بحفظ الأيمان هي التأكد وليس مجرد الأمر.

❁ **الثانية:** الإخبار بأن الحلف منفقة للسلعة، ممحقة للبركة.

معنى كون الحلف منفقة لسلعة يعني: أن الناس يرغبون فيها إذا حلف أن السلعة اشتراها بكذا أو أنه أعطي بها كذا صدقه الناس وأخذوها.

ومعنى «ممحقة للبركة» المحق؛ يعني: ذهاب الشيء بلا أثر له -نسأل الله العافية-؛ يعني: لا يكون له أثر.

❁ **الثالثة:** الوعيد الشديد فيمن لا يبيع إلا بيمينه، ولا يشتري إلا بيمينه.

وهذا يدل على أنه لا ينبغي أن يحلف وإن كان صادقًا على البيع والشراء لأن هذا ليس فيه أنه يكون كاذبًا، فالذي يبيع ويشتري بيمينه يدل على رغبته بالدنيا أكثر من رغبته في الآخرة، ويدل على عدم تعظيم اليمين لأن من أكثر الحلف لا بد أن يخالف.

الباب الثالث والستــون

✍ **قال المؤلف** رحمه الله **: باب ما جاء في ذمة الله وذمة رسوله.**

يعني: من تعظيم ذلك ووجوب الوفاء به؛ لأن التهاون في هذا تهاون في حق الله ﷻ وعدم تقديره، وهو دليل على قلة معرفته بالله تعالى وتقدس، وهذا يكون من القوادح في التوحيد، أو من مذهباته.

قوله: «في ذمة الله»: الذمة هي العهد، والميثاق الذي يؤخذ لأنه يكون دين، فهو يكون مثل الدين الذي يكون في ذمة الإنسان، والدين الذي يتحمله، وهذا أعظم.

وذمة الله معناها: أنه يخبر أن هذه ذمة الله، أو هذه ذمة نبيه ﷺ، فهذا يجب أن يكون عن علم، لا يجوز أن يكون محتملًا أن يكون هذا أو غيره.

والسبب في هذا أن الحكم على الشيء بأن هذا عهد الله أو هذا دينه، أو هذا الذي أحله الله، وهذا الذي حرمه الله لا يجوز أن يكون بالرأي والاجتهاد، يجب أن يكون بدليل شرعي، وإذا لم يكن ذلك فيأتي الشيء المحتمل، وهذا يقع كثيرًا لكثير من الناس وسواءً بالخبر أو الاستفتاء أو غير ذلك.

وبعض الناس الذين يستفتون يقولون: ما هو حكم الإسلام في كذا؟ فهذا لا يجوز أن يخبر بأن يقال: حكم الإسلام كذا وكذا، ولكن يقول: أرى، أو الذي أراه أنه كذا وكذا حتى لا يدخل في هذا، إلا أن يكون عنده علم يقيني في ذلك مثل أن يقول: ما حكم الصلاة؟ يقول: حكمها واجب وفرض. أو حكم الربا؟، يعني: الشيء الظاهر الجلي بنص عليه، أما شيء لا نص فيه فيجب أن يتوقى العبد، وإلا فله هذا الحكم.

ومقصود المؤلف في هذا: أن المسلم الذي يفترض أنه يعرف الله ﷻ ويعرف أسماءه وصفاته ويعبده بذلك أنه لا يقدم على الشيء الذي يضيفه إلى الله حكمًا إلا بدليل قاطع يدله على ذلك، وإلا دل ذلك على خفة دينه وعلى أن توحيده غير كامل.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **وقوله تعالى:** ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النحل: ٩١].

هذا أمر من الله يقتضي الوجوب. والعهد الذي هو عهد الله يدخل فيه ما يخص الإنسان وما يكون بينه وبين الآخرين، مثل أن يقول: بيني وبينك حكم الله في هذا أو مثلًا يعطيه شيئًا خاصًا، لك العهد فيقسم له بالله أني سوف أفعل كذا أو أعطيك كذا أو امتنع من كذا.

وسواءً كان هذا العهد بين أفراد أو بين أمم، ولكن الذي يكون بين الجماعات يكون أعظم، ولهذا وجب على الجميع الوفاء بذلك وعدم التعرض لنقضه وإن كان الذي يعطي العهد واحد، فإن أعطى العهد واحد من المسلمين فإنهم يجب عليهم كلهم أن يراعوا هذا العهد.

وهذه العهود تكون بين المسلمين والكافرين، أما عهود بين المسلمين فلا يجوز لأن الإسلام يكفي عن المعاهدة، ولهذا جاء الحديث عن الرسول ﷺ: «**لا حلف في الإسلام وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة**»[1]، وذلك أن المسلم أخو المسلم يجب أن يناصره وأن يكون عونًا في كل ما يعن له، فقد أمر الله ﷻ بذلك.

(١) رواه مسلم رقم (٢٥٣٠) من حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه.

ومعروف أن العهود تكون لولاة الأمر في مثل هذا، أو الذين يؤمِّرونهم، وهذا هو المقصود الذي سيق له الحديث، ولكن الآية تدل علىٰ أكثر من هذا تدل علىٰ أن العبد يجب عليه أن يوفي بما التزمه لله عمومًا سواءً ما يخصه أو ما يشترك فيه مع الناس مثل الصلاة والصوم والوضوء والغسل من الجنابة وأداء الأمانة وكذلك الأيمان التي يحلفها يجب أن يوفي بها، فالمقصود أنه عام.

ويؤخذ من الآية من باب الظهور الجلي العهود الخاصة لأنها نص في هذا، ولهذا قال: «**إذا عاهدتم**» وعاهدتم تقتضي المشاركة، والمشاركة هذه حاصلة سواءً كانوا جماعة أو كانوا أفرادًا لأنك عاهدت ربك علىٰ ألسنة الرسل بل بما أخذ عليك ﷻ من الميثاق الذي خلقه فيك وكذلك ما خلقه حولك أنك لا تعبد إلا إياه، وأنك لا تعبد الشيطان وأنك تطيعه وتتبع رسله هذا عهد، وهذا الذي يقول ﷻ فيه: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٠] فعهده هو هذا تعالىٰ وتقدس.

وقد أخذ علينا عهدًا ثقيلًا وميثاقًا غليظًا أن تكون عبادتنا لله وحده، فإن خالفنا فإننا معرضون لعذاب الله ﷻ فيجب أن يراعىٰ هذا، وهذا لا يراعيه إلا من عرف الله ﷻ وعرف حقه عليه، وهذا هو مناسبة ذكره في كتاب التوحيد، أنه يجب علىٰ العبد أنه يعرف ربه ﷻ حتىٰ يعبده بأسمائه وصفاته ويعرف حقه عليه، أما أن يقال أن العهد يقتضي الوفاء من الجانبين فيكون مثلًا الرب ﷻ بينه وبين عباده عهد أن يوفيهم عهده فهذا من باب الفضول، ونحن عبيده ﷻ وقد أخبرنا ﷻ أننا إذا أطعناه لا يعاقبنا ولا يعذبنا، أما شيء فوق هذا فهو من فضل الله ولهذا ما يقال: إن الإنسان له جزاء الجنة، فالجنة بيد الله يتفضل بها، فهي فضل منه، وفضل الله عظيم جدًا، فإذا أعطاك الشيء فهو فوق ما تستحق، وهو يليق به لأنه عظيم ﷻ وعطاؤه عظيم تعالىٰ وتقدس، ولهذا يقول لنا رسول الله ﷺ: «**فإذا سألتم الله الجنة فسلوه الفردوس فإنه**

أوسط الجنة وأعلىٰ الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة»[١].

فليس هذا معناه أن يقول الإنسان أن هذا شيء أستحقه، ولكن هذا فضل الله، ولا تقتصر وتسأل الداني تقول: أسأل الله أن يدخلني الجنة فقط. فضل الله كبير عظيم وليس عطاؤه مقابل العمل، وإنما تقول هذا الطائفة الضالة التي صار دينها قياسًا فأصبحت تقيس أفعال الله ﷻ بأفعالها وهم المعتزلة الذين يقولون يجب علىٰ الله أن يثيب الطائع ويجب عليه أن يعاقب العاصي.

فالمقصود أن عهد الله الذي يجب أن يراعىٰ ويوفىٰ به يكون خاصًا ويكون عامًا كما دلت عليه الآية.

وقوله: «﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾»: هذا تأكيدًا للأمر الذي في أول الآية، والنقض هو إبطال العهد والخيانة فيه، وكأن العهد أبرم وأحكم وأتقن ونقضه نقض ذلك المبرم والمتقن، وهذا شيء عظيم لا يجوز أن يتعرض له وإلا يكون الإنسان عرضة لعقاب الله ﷻ.

والأيمان: جمع يمين وهو القسم، وأخذ من اليد اليمنىٰ لأنهم في العادة يمدون أيديهم لتأكيد العهد، كل واحد يمسك بيمين الآخر تأكيدًا للعهد.

وقوله: «﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾»؛ يعني: بذكر الله ﷻ، وإذا أعطىٰ الإنسان ذمة الله وعهده فهذا توكيد عظيم فلا يجوز أن ينقض.

وقوله: «﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾»؛ يعني: بهذا العهد، والكفيل هو الذي يكفل الشيء فيقول: الله وكيل، أو الله كفيل، أو الله مطلع، أو الله يعلم أنه يكون فيه، وكل هذا تأكيدات تؤكد الأمر وتزيده شدة.

(١) رواه البخاري رقم (٢٧٩٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقوله: «﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾»: أيضًا هذا فيه تهديد لأن الله علام للغيوب لا يغيب عنه شيء لا في الضمير ولا في الصدور، ولا شيء يفعل؛ فمعنىٰ ذلك أنه يجازي الإنسان بما فعل.

قلنا أن المناسبة لكتاب التوحيد: أن من عرف الله ﷻ ووقر في قلبه تعظيمه والإخلاص له أنه يعظم ما يضاف إليه ولا سيما الحكم الذي يحكمه.

وذمة الله معناها: عهده الذي يعطيه الخلق، فإذا أقدم الإنسان علىٰ أن يقول هذا عهد الله بيني وبينك ثم تعرض إلىٰ نقضه فإن هذا إما ينافي التوحيد بالكلية أو يكون توحيد صاحبه ناقصًا، النقص الذي يترتب عليه المعاقبة، وليس النقص الذي لا يترتب عليه عذاب؛ لأن النقص نوعان:

النوع الأول: نقص للكمال المستحب، وهذا لا يؤاخذ الإنسان به.

النوع الثاني: النقص الذي يترتب عليه الإثم بتركه وهو أن يكون واجبًا عليه، وهذا لأن كل أمر من أوامر الله ﷻ وشريعة من شرائعه فيها الواجب وفيها الإحسان، والإحسان هو أن يأتي الإنسان بغاية ما يكون من العمل وهذا ليس واجبًا علىٰ كل أحد وهو ظاهر من هذا النص.

وفي هذا النص الدليل الجلي الواضح لمشروعية قتال الكفار فإنهم يقاتلون لكفرهم وليس كما يقوله من يريد أن يعايش الكافرين ويكون مسالمًا لهم أن القتال لأجل الدفاع والمدافعة إذا اعتدوا وإلا لا يقاتلون، وقد صدرت رسالة في هذا منسوبة إلىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية حديثًا، وهي مكذوبة عليه وقد أساء الذي حققها حيث أنه حرف كلام شيخ الإسلام الذي في كتبه؛ يعني: أنه يأتي بالنص مبتورًا حتىٰ يكون دليلًا لما فيها وقد كتب علىٰ هذه الرسالة علماء بينوا أنها باطلة وأن شيخ الإسلام لم يقلها منهم سليمان بن سحمان ﵀ له رد عليها ولكنه

لم يطبع، وكذلك سليمان بن حمدان فإنه بينها ورد ما ادعاه هذا المدعي، وكثيرًا ما كان بعض الناس إذا كان مغمورًا أو كان له باطل يكتب كتابًا ثم ينسبه إلىٰ المشهورين من العلماء حتىٰ يروج علىٰ الناس.

فالمقصود أن هذه المسألة واضحة من كتاب الله، الله ﷻ يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣]، قال ابن القيم ﵀ في زاد المعاد أن الجهاد له مراحل[1]:

فأولًا: كان الرسول ﷺ والمسلمون ممنوعون قد نهاهم الله ﷻ عن المقاتلة، هذا لما كانوا في مكة وليس لهم قوة وبلد يؤوون إليه وتأتي المناصرة إليهم ويكون الانطلاق منه، فكانوا منهيين ومأمورين بالصبر والمصابرة: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧]، وقال تعالىٰ: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٦] وما أشبه ذلك، وهذا تجده في السور المكية كثيرًا الأمر بالصبر والمدافعة.

المرحلة الثانية: الإذن فيمن يقاتل، كما قال ﷻ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩]؛ يعني: بأن يقاتلون من قاتلهم.

المرحلة الثالثة: الأمر بالجهاد عامة: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ﴾ [التوبة: ١٢٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣] والفتنة في هذا الشرك، يعني: ما دام الشرك موجودًا فالقتال مشروع مأمور به.

(١) زاد المعاد (٣/ ٦٢)-(٦٣).

وهذا لا يحتاج استدلال لظهوره ووضوحه وجلائه حتىٰ لو قدر من باب الفرض أن شيخ الإسلام أو غيره من العلماء المعتبرين الكبار أنه قال خلاف ذلك فإنه لا يقبل لأنه خلاف كتاب الله ﷻ وخلاف سُنَّة رسوله ﷺ، وخلاف سُنَّة الصحابة -رضي الله عنهم أجمعين- فالصحابة لما انتهوا من قتال المرتدين الذين ارتدوا بعد رسول الله ﷺ وأصبحت جزيرة العرب كلها مسيطرٌ عليها الإسلام اتجهوا إلىٰ من يليهم امتثالًا لأمر الله بالقتال ذهبوا إلىٰ الشام والفرس، والعراق فاستمروا بالقتال إلىٰ أن أفنوا حياتهم في هذا حتىٰ أن بعض الصحابة قبورهم في أقصىٰ بقعة من بقاع الأرض التي كانوا يجاهدون فيها مثل سمرقند، ففيها بعض القبور للصحابة قتلوا هناك وفي غيرها، هذا كما مر معنا أن الرسول ﷺ قال: «**إن الله زوىٰ لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوىٰ لي منها**»[1].

وأما قولهم أن المسلمين دخلوا فيه عن طريق التجار وعن طريق الدعوة هذا غير صحيح وإنما عن طريق القتال، لما كانت مجرد دعوة كانت الدعوة محصورة في أماكن معينة، ولهذا أخبر الله ﷻ أنه أنزل الكتاب ومعه الحديد الذي فيه البأس الشديد فلا بد من القتال من المسلمين.

والذي يحاول أن يبطل فريضة الجهاد، إما أن يكون جاهلًا أو يكون متجاهلًا فالأمر واضح، والحمد لله.

وفي هذا الحديث وضوح ذلك وجلاؤه، وهذا فرد من الأفراد الكثيرة من النصوص التي تدل علىٰ هذا، ولهذا يقول الرسول ﷺ: «**اغزوا باسم الله وفي سبيل الله قاتلوا من كفر بالله**»[2]، ليس الذين يقاتلونكم بل كل من كفر بالله يجب أن يقاتل.

(١) رواه مسلم رقم (٢٨٨٩) من حديث ثوبان.

(٢) رواه مسلم رقم (١٧٣١) من حديث بريدة.

نعم نهىٰ رسول الله ﷺ عن قتل النساء وقتل الصبيان؛ لأنهم ليسوا من أهل القتال، وقد استدل بهذا يقول: ما دام أنه نهىٰ عن قتل النساء والصبيان فمعنىٰ ذلك أنه لا يقاتل إلا من يحمل السلاح، نقول: ليست هذه العلة، حمل السلاح، ولكن كل من كان متأهلًا لذلك فإنه يقاتل، والنساء المفروض أنهن لا يحملن السلاح، ولكن إذا أصبحن يقاتلن فإنهن يقتلن مثل غيرهن، وكذلك الشيخ الفاني فإنه لا يقتل إلا إذا كان له رأي، وقد قتل دريد بن الصمة وهو رجل كبير وأعمىٰ ولكنه له رأي، قد ينفع به الكفار فقتل من أجل ذلك.

والمفسرون إذا جاؤوا إلىٰ الأوامر التي جاءت في السور المكية بالأمر بالصبر والمدافعة قالوا: هذه منسوخة بآية السيف، وهذا كثير إذا تتبعته تجده فيما يقرب من خمسمائة آية كلها زعموا أنها منسوخة بآية السيف وهذا غير صحيح، لكن عند بعض العلماء يتوسع في كلمة النسخ فيجعل التخصيص نسخًا، وهو نوع من النسخ وليس النسخ معناه إزالة الحكم بالكلية.

فالمسلمون إذا كان عندهم ضعف يشابهون ما كان عليه الصحابة في مكة يكون لهم هذا الحكم يدافعون ويصبرون حتىٰ يتمكنوا من القوة ومن الإعداد فإن الله ﷻ يقول: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾ [الأنفال: ٦٠]، فهذا أمر لا يجوز مخالفته فأمر ربنا يجب أن يمتثل، أن نستعد ونعد القوة، ولهذا يقول بعض العلماء:

يقول الآن إذا نظر الإنسان إلىٰ هذا الأمر وغيره من الأوامر يجد أن الأمة كلها وقعت في الإثم والمخالفة، فهم آثمون ومخالفون لأمر الله لأن الكفار صاروا أقوىٰ منهم وصاروا يطلبون سلاحهم من الكفار، وهذا لا يجوز، الكفار لن يعطوهم إلا ما لا ينفعهم في المعارك كما هو معروف الآن، إذا صار السلاح غير صالح وصار ليس له فائدة ذهبوا يبيعونه علىٰ المسلمين.

فالمقصود أن هذا من فروض الكفاية، الإعداد والاستعداد والقيام بالقتال، والعلماء ذكروا أن الجهاد من فرض الكفاية إلا في ثلاث حالات:

الحالة الأولىٰ: إذا داهم العدو البلد فإنه يتعين علىٰ كل أحد، ولا يستأذن في هذا أحد، لا والد ولا غيره، يجب علىٰ الإنسان أن ينفر ويقاتل.

الحالة الثانية: إذا حضر الإنسان القتال، حضر قتال المسلمين الكفار يجب أن يقاتل ولا يجوز له أن يولي ظهره الكفار ويترك القتال، فإن فعل فإنه يعد من الذين فروا من الزحف.

الحالة الثالثة: ما إذا عينه إمام المسلمين، قال له: أنت تقاتل، تخرج في سبيل الله يتعين عليه ويكون عليه فرض عين.

وما عدا ذلك يبقىٰ الجهاد فرض كفاية، وفرض الكفاية معناه إذا قام به من يكفي سقط الإثم عن الأمة، وإلا أثموا كلهم، وهذا يقرره الفقهاء في كتاب الجهاد ويقولون: يجب علىٰ المسلمين أن يغزوا الكفار. والغزو معروف أنه الذهاب إليهم في بلادهم ليس معناه أنهم إذا جاءوا إلينا. ويقولون: أقل ما يكون في كل سنة مرة، والأمور تتغير حسب الأوضاع وحسب القوة وحسب الحاجة.

فالمقصود أن هذا من الأمور التي كلف الله بها المسلمين قتالهم الكفار وقد جاءت آيات كثيرة يقول ﷻ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ﴾ [البقرة: ٢١٦] كما قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣] لا فرق بين هذا وهذا.

ولا يجوز لنا أن نجاري الناس الذين تأثروا بعلماء الغرب وغيرهم، فأصبحوا ينظرون ماذا يقولون عن الإسلام والمسلمين، من باب المدافعة والمجاراة، فلهذا قالوا: إن الإسلام ما انتشر بالسيف، بل انتشر بالدعوة وهذا فيه ما فيه، حتىٰ رأيت في بعض الكتب التي كتبها بعض العلماء المعاصرين في قضايا التاريخ يقول: لما

استتبت الأمور للمسلمين في جزيرة العرب، وكانت الشام والعراق فيها من الخيرات ما يغري إلىٰ القتال ذهب الصحابة هناك. فهذا من الدسائس الخبيثة؛ يعني: أن الصحابة ذهبوا إلىٰ الدنيا، يقاتلون من أجلها، لأجل الخيرات، وهذا كذب محض، الصحابة ممتثلون أمر الله كما في هذا الحديث إذا جاءوا قومًا قالوا أنتم مخيرون بين أمور ثلاثة إما أن تسلموا ونترك لكم بلادكم وما أنتم عليه ويكون لكم ما لنا وعليكم ما علينا، وإما أن تدفعوا الجزية عن يد وأنتم صاغرون ونحن نحميكم ممن يعاديكم علىٰ هذا، ولكم أموالكم بشرط دفع الجزية لا بد من الصغار مع الدفع لأن الله اشترط هذا ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩] وعن يد معناه: أنه يأتي هو نفسه يدفع الجزية ما يرسل فيها نائبًا ينوب عنه، وإذا جاء لا تؤخذ منه مباشرةً بل يترك يهان، وكل هذا لأجل أن يترك دينه ويدخل في الإسلام.

الأمر الثالث: إذا أبوا هذا وهذا، فالقتال لا بد منه ونصر الله مع من يشاء ﷻ، فالله ينصر من ينصره، هذا أمر ظاهر جدًا، فما كان الصحابة ﭫ يقاتلون لدنيا ولا لمال ولا لغيره وإنما يقاتلون امتثالًا لأمر الله ولإدخال الناس في دين الله، وطلبًا للشهادة لأنهم يعرفون أن أعلىٰ ما يمكن أن يصل إليه العبد في هذه الدنيا أن يقتل شهيدًا وكانوا يتسابقون إلىٰ ذلك.

✍ **قال المؤلف ؒ: وعن بريدة قال: كان رسول الله ﷺ إذا أَمَّر أميرًا علىٰ جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوىٰ الله، ومن معه من المسلمين خيرًا فقال: «اغزوا بسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلىٰ ثلاث خصال أو خلال فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلىٰ الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلىٰ التحول من دارهم إلىٰ دار المهاجرين، وأخبرهم**

أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله تعالى ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فاسألهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم. وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك؛ فإنكم إن تخفروا ذممكم وذمة أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله، فلا تنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري أتصيب فيهم حكم الله أم لا» رواه مسلم[1].

قوله: «كان رسول الله ﷺ»: كان هذا فعل ماضٍ وهو يدل على أن الشيء يتكرر يفعل مرارًا واستمرارًا (كان يفعل كذا) هذا هو الغالب، وهذا هو الظاهر من هذا النص وأن هذه سُنَّته ﷺ.

قوله: «إذا أَمَّر أميرًا على جيش»: وهذه سُنَّته ﷺ أنه يؤمر واحدًا. وكان يأمر الجماعة إذا سافروا أن يؤمروا عليهم أميرًا منهم، ولا يؤمرنه على وجه المزح والضحك كما يقع كثيرًا من الناس يقولون أنت أميرنا ثم يخالفونه، يجب أن يطيعوه ويمتثلوا أمره ما دام أمّروه وهذا فيه امتثال للسُّنَّة فيجب، فقد أمر ﷺ بطاعة الأمراء، والمشورة واردة ولكن المخالفة لا تجوز، وكثير من الناس يتساهلون في هذا تساهلًا عظيمًا ويزعمون أنهم يعملون بالسُّنَّة وهم في الواقع يقعون في الخطأ الفظيع يؤمرون شخصًا ثم يخالفونه في كل شيء ولا يطيعونه أي معنى لذلك هذا لعب، فإذا كان مثلًا يعلمون أن هذا من باب المزح والضحك فيخشى أن يكون هذا

(١) رقم (١٧٣١).

من الإجرام والأمور الكبيرة فيجب أن يتحاشىٰ مثل هذه الأمور ويتأمل ما يأمر به الرسول ﷺ ويعظمه فلا يكون عنده أهون شيء.

قوله: «علىٰ جيش» أما الجيش فيطلق علىٰ العدد الكبير وأقل ما يكون أكثر من أربع مائة وما كان أقل من أربع مائة فليس بجيش فهو سرية، ولكن هذا حسب الاصطلاح وإلا ما فيه مانع أن يكون حتىٰ العشرة جيش، ولهذا كان عدد الصحابة مع الرسول ﷺ في غزوة بدر ثلاث مائة وبضعة عشر فقط، ويسمىٰ جيش فنصرهم الله ﷻ علىٰ ضعفهم، ولكن هذا اصطلاح في الجيوش التي جرىٰ عليها الصحابة فما بعد ويقال هذا للفرد لأنه جمع بين الجيش والسرية، فالسرية سميت سرية لأنها تسير في الليل لإخفاء الأمر حتىٰ تدهم العدو وهو غافل علىٰ غرة وهذا أمر مطلوب، فكان الرسول ﷺ يباغت المشركين وإذا سمع أن أحدًا من الكفار يستعد لقتاله فإنه يبغته في بلده ولا ينتظر حتىٰ يأتي.

وإذا أراد أن يذهب إلىٰ مكان فإنه يوري بغيره، والتورية معناها أن يفعل شيئًا ولا يتكلم، مثل أن يقول اذهب إلىٰ كذا، كما يعتقد الآن كثير من أن الكذب في هذا سائغ ويقول الحرب خدعة، والكذب الصريح لا يجوز حتىٰ في هذا، ولكن المخادعة، كما إذا أراد أن يذهب إلىٰ جهة الشرق سأل عن الطرق التي في الغرب فإذا سمعه السامع مثلًا يتخيل إليه أنه يذهب إلىٰ تلك الجهة كما فعل في غزوة الفتح فإنه صار يسأل عن الطرق التي تسلك في جهة الشمال، ثم لما خرج من المدينة خرج شمالًا حتىٰ دخل في الجبال وأوغل فيها حتىٰ دخل في الجبال أخذ جهة اليسار واتجه إلىٰ مكة وسأل ربه ﷻ أن يعمي علىٰ قريش خبره، ولهذا لما كتب حاطب الكتاب جاءه الخبر من السماء فهكذا كانت سُنَّته ﷺ.

والسرية قسمها العلماء إلىٰ قسمين من حيث ما يحصل لها وما تعطىٰ من المغنم لا من حيث العدد، فقالوا: السرية إما أن تكون في أول بعث الجيش وإما أن

تكون في آخره، فإن كانت في أوله فالأمر أسهل لأن الجيش يكون سندًا لها والخوف عليها أسهل، أما إذا كانت بعد رجوع الجيش فالخطر أشد ويكون الحكم مختلفًا وهذا من الغنيمة.

ويجب أن تكون المقاصد كلها لرفع كلمة الله وإعلائها ودحر كلمة الشيطان وحزبه سواء من الجيش أو السرية، وقد بيَّن الرسول ﷺ ذلك فقال: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله** ﷻ»[1]، أما القتال لأجل الوطن أو لأجل المال أو غير ذلك من الأغراض فهذا في سبيل الشيطان، إلا أن يكون يقاتل دون بلاد المسلمين وأعراضهم وأموالهم فهذا في سبيل الله، أما لأجل الأمكنة كما هو الحال في كثير من الناس، القتال لدنيا.

قوله: «**أوصاه في خاصته بتقوىٰ الله**»: هذه الوصية؛ يعني: أنه يتقدم إليه بأمر مهم يؤكد ذلك عليه.

وتقوىٰ الله أمر مهم جدًا، وهي فعل ما أمر به واجتناب ما نهىٰ عنه مع الرجاء والخوف لأن هذين ركنا العمل، فهذه هي حقيقة التقوىٰ.

فالرسول ﷺ يوصيه بالتقوىٰ في نفسه أولًا يقول: اتق الله في نفسك وراقب الله في أفعالك لأن الأمير إذا كان متقيًا فإنه يقتدىٰ به.

قوله: «**ومن معه من المسلمين خيرًا**»؛ يعني: وأوصاه بالمسلمين خيرًا، والخير كلمة عامة؛ يعني: أنه يراعي مصلحتهم أكثر من مراعاته نفسه، أما نفسه فإنه يجب عليه فعل الواجب ويحرم عليه فعل المحرم، أما هذا فإنه يجب عليه أن يفعل الأصلح لهم في كل شيء، وكان الصحابة يراعون هذا كثيرًا.

(١) رواه البخاري رقم (١٢٣)، ومسلم رقم (١٩٠٤) من حديث أبي موسىٰ رضي الله عنه.

وقوله: «**اغزوا بسم الله**»: الغزو هو طلب الكفار في بلادهم، أما قتالهم إذا جاءوا فهذا أمر يتعين على كل واحد ولا يسمى غزوًا وإنما يسمى مدافعة عن أنفسهم وعن دينهم وعن أعراضهم.

قوله: «**بسم الله**»: إما أن يكون ابتداؤكم باسم الله أو استعانتكم بالله وهذا لا بد منه، وهذا يدلنا على وجوب قتال الكفار.

فقوله: «**اغزوا**» هذا أمر، وهذا جاءت به نصوص كثيرة في القرآن قال تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ﴾ [التوبة: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣]، والفتنة جاء تفسيرها أنها الشرك؛ يعني: حتى لا يوجد الشرك، والنصوص في هذا كثيرة، ولكن الأمر بمقاتلة المشركين كافة وكذلك الذين يلوننا إذا قتلنا الذين يلينا وأسلموا أو قضينا عليهم يجب أن نقاتل الذين يلونهم وهكذا ما دامت لنا قوة، ولهذا الصحابة لم يقفوا في مكان حتى ردتهم البحار.

وقوله: «**قاتلوا من كفر بالله**»: يدل على أن علة القتال الكفر، من كفر بالله يُقاتل، وقد اعترض على هذا بعض العلماء وبعض الناس في الوقت الحاضر يريدون أن يصطلحوا مع الكفار ويسالموهم ويكفوا عن القتال، قالوا هذا القتال للمدافعة، وهذا لا يتأتى في هذا الخطاب: «**قاتلوا من كفر بالله**» وكذلك الخطابات التي في القرآن.

قوله: «**اغزوا ولا تغلوا**»: هذا تأكيد للأمر الأول، وإعادة ليبين ما يأمر به.

والغلول هو أخذ شيء من المغنم قبل القسمة له خاصة فيكتمه ويخفيه وهو من كبائر الذنوب التي توعد عليها في النار ومن فعل ذلك فإنه يمنعه ذلك من الشهادة، ثبت أن النبي ﷺ لما رجع من خيبر وصار في وادي القرى نزل وكان معه غلام فصار يحل رحله فجاءه سهم فقتله، قال الصحابة: هنيئًا له الشهادة يا رسول

الله، قال: «كلا والذي نفسي بيده إن الشملة التي أخذها يوم خيبر من المغانم لم تصبها المقاسم لتشتعل عليه نارًا».

والشملة كساء يساوي خمسة دراهم -نسأل الله العافية- فجاء رجل حين سمع ذلك من النبي ﷺ بشراك أو بشراكين فقال: هذا شيء كنت أصبته، فقال رسول الله ﷺ: «شراك -أو شراكان- من نار»(١). وإذا فعل الإنسان ذلك يعزر وتعزيره أن يحرق متاعه ورحله إلا المصحف لا يحرق إكرامًا له، وكذلك الحيوانات لا تحرق وإنما يحرق ماله الذي يخصه، وهذا عقاب له، وما عند الله أعظم -نسأل الله العافية-.

فالغلول هو إخفاء شيء من الغنيمة قبل القسمة، يجب إذا تحصل علىٰ شيء ولو كان قليلًا أن يأتي به إلىٰ أمير الجيش ويسلمه إياه، ثم بعد ذلك تقسم الغنائم فيأتيه نصيبه.

قوله: «ولا تغدروا»: هذا هو الشاهد، فالغدر هو أن ينقض العهد الذي أعطاه، وهذا يعم الجيش كله أميره ومأموره كلهم لا يجوز أن يتعرضوا لنقضه.

قوله: «ولا تمثلوا»: التمثيل هو تشويه القتيل، والأسير إما أن يسلم وإما أن يستعبدوه يكون عبدًا؛ يعني: يكون في المغانم، أو يقتلوه، هم مخيرون بين هذه الأمور الثلاثة، فهو يقتل ولا يعذب وكذلك الفداء إن كان للمسلمين حاجة.

ولكن التمثيل هو في القتلىٰ كأن تقطع أذنه أو أنفه وما أشبه ذلك، وهذا لا فائدة فيه.

وإذا مثلوا في المسلمين فهل يجوز أن نمثل بهم؟ المسألة خلافية، والذي يقتضيه الدليل أنه لا يجوز لقوله ﷺ هنا: «ولا تمثلوا»، أما الاستدلال بقوله ﷻ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾

(١) رواه البخاري رقم (٦٧٠٧)، ومسلم رقم (١١٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

[النحل: ١٢٦] فهذا عام، والأدلة العامة ما تقضي على الأدلة الخاصة، يجب أن يعمل بالدليل، نعم نعاقبهم بمثل ما عاقبونا به من دون تمثيل لأنه خارج بالدليل الآخر فنكون عملنا بالدليلين، أما إذا قلنا أن هذا يدخل فيه التمثيل فإننا نلغي الدليل الخاص وهذا لا يجوز.

قوله: «ولا تقتلوا وليدًا»: الوليد هو الصغير، والصغير هو الذي لم يبلغ، فإذا لم يبلغ فإنه لا يقتل، ولهذا لما نزل بنو قريظة على حكم الله، عندما حكم فيهم سعد وصدقه الرسول ﷺ وهو أن تقتل مقاتلتهم وتسبى ذراريهم، فصار رسول الله ﷺ يأمر بأن ينظر الذي أنبت يقتل؛ يعني: الذي أنبت الشعر الذي حول العورة فهو دليل على البلوغ. وجاء فيه أحاديث أخرى: «**ولا امرأة، ولا شيخ فاني، ولا راهب في صومعته**»[1]، فقد جاء النهي عن قتل هؤلاء. وقد رأى مرة في أحد مغازيه امرأة مقتولة فأنكر ذلك ﷺ[2].

وهذا إذا لم يكونوا يقاتلون، فإن كانت النساء تقاتل فإنها تقتل، وكذلك إذا كان الشيخ الفاني ذا رأي ومشورة يمدهم بالآراء فإنه يقتل كما قتل دريد بن الصمة في غزوة حنين وكان شيخًا كبيرًا كفيفًا ولكنه ذا خبرة فأخذوه لخبرته ومشورته، ولهذا لما سئل قال: ما الأرض التي نحن فيها؟ قالوا: أوطاس. قال: نعم المكان للجول والصول هذا مكان قتال، ثم قال: ما لي أسمع رغاء الشاة وصياح الصغير، قالوا: هذا الأمير جاء بالناس وأهلهم حتى لا يفروا، قال: هذا ليس برأي، الفار لا يلوي على أحد؛ لا يرجعه لا ماله ولا أهله إذا فر، فهو كان ذا رأي ولهذا قتله المسلمون لأجل ذلك.

---

(١) رواه أبو داود رقم (٢٦١٤)، والبيهقي رقم (١٨٦١٩).

(٢) رواه البخاري رقم (٣٠١٥)، ومسلم رقم (١٧٤٤) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: وجدت امرأة مقتولة في بعض مغازي رسول الله ﷺ، فنهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان.

وكذلك إذا كان مثله في الكفار فإنه يقتل وإن كان كفيفًا وإن كان كبيرًا وكذلك المرأة.

قوله: «**لا تقتلوا وليدًا ولا تقتلوا امرأة، ولا تقتلوا متعبدًا في صومعته ولا شيخًا فانيًا**»: استدلوا بهذه على أن القتال ليس لأجل الكفر وإنما هو لأجل الامتناع والمدافعة، وقالوا: لو كان لأجل الكفر فهؤلاء كفار فلماذا لم يقتلوا؟

الجواب عن هذا يقال: قتال الكفار لكفرهم ومدافعتهم فإذا ضعفوا ضعفًا يقتضي أنهم يقبلوا الإسلام يكف عنهم، ولهذا فرضت الجزية عليهم ولكن بشرط أن يعطوها بصغار؛ يعني: وهم صاغرون، ولهذا يقول العلماء: لا يجوز أن تقبل منه إذا أرسل خادمه أو رجلًا آخر يجب أن يأتي بها هو بنفسه ثم لا تؤخذ منه مباشرة بل يوقف ويترك ويهان فيكون صاغرًا في هذا، وهذا من أجل أن يدْعوه هذا إلى ترك دينه ويدخل في الإسلام.

وكذلك المرأة، فالمرأة ضعيفة إذا دعيت وسلمت ممن يمنعها استجابت، وكذلك الصغار.

فليس هذه علة في كون القتال ليس من أجل الكفر، بل لأجل هذه المعاني التي قد وجدت فيهم منعوا من القتل خلاف الذين يُقاتلون فإنهم يقتلون على كل حال، إلا إذا كانوا على هذه الصفة؛ يعني: دفعوا الجزية.

قوله: «**وإذا لقيت عدوك**»؛ يعني: عدوك هذا يدخل فيه كل كافر فهو عدو للمسلم، والمشرك عبد غير الله، وهذا يدخل فيه اليهود والنصارى فهم من المشركين إما أن يعبدوا المسيح ابن مريم أو يعبدوا سادتهم.

فقوله: «**عدوك**» هذا للإغراء، وأخذ الاحتياط، كون الإنسان يكون دائمًا ولا سيما الأمير مستعدًا ومحتاطًا لئلا يصيبه العدو بغرة وغفلة، والعدو يبحث عن

مواطن الضعف ويتحين الفرص، فيجب اليقظة والاستعداد.

قوله: «**فادعهم إلىٰ ثلاث خصال**»؛ يعني: إلىٰ واحدة من الثلاث، فأيتها أجابوا إليها فإنه يكف عنهم، ولهذا قال: «**فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم**»؛ يعني: أي واحدة منهن أجابوا إليها فاقبل منهم «**وكف عنهم**»؛ يعني: لا تقاتلهم؛ لأن القتال ليس لأجل الدنيا ولا للاستيلاء علىٰ البلاد وغير ذلك، وإنما هو رحمة للكافرين، لإدخالهم في دين الله ﷻ.

وقوله: «**ثم**»: هذه زائدة، وهي ثابتة في صحيح مسلم والصواب حذفها «**ادعهم إلىٰ الإسلام**» هذا أول شيء، وهو المهم وهو المطلوب، ولا يبدأ بغيره بل يبدأ به أولًا.

والدعوة إلىٰ الإسلام أمر واجب متعين ولا يجوز القتال قبل ذلك إلا إذا كانوا قد بلغتهم الدعوة فأبوا، واستعدوا لقتال المسلمين؛ فيجوز أن يقاتلوا بهذه الحالة بدون دعوة، ولكن ليس معنىٰ بدون دعوة أنه لا يعرض عليهم مرة أخرىٰ، بل يقول أنتم مخيرون بين أمور ثلاث، كما كان الصحابة يقولون ذلك إما أن تسلموا ويكون لكم ما لنا وعليكم ما علينا.

وإما أن تدفعوا الجزية عن يد وأنتم صاغرون، وإما القتال بيننا وبينكم ويد الله مع من يشاء، هذه هي الخصال الثلاث، والدليل علىٰ هذا أن الرسول ﷺ غزىٰ بني المصطلق وأغار عليهم وهم غارون في بلادهم يسقون بهائمهم، فقتل من قتل منهم، وسبىٰ من سبىٰ من ذراريهم؛ لأنه بلغه أنهم يجمعون لقتاله وقد جاءتهم الدعوة فأبوا.

ولا يعارض هذا أن الرسول ﷺ في خيبر، لما أعطىٰ عليًا الراية قال له: «**انفذ علىٰ رسلك حتىٰ تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلىٰ الإسلام**»(١)، فلا بد أن يدعوهم إلىٰ

(١) رواه البخاري رقم (٣٠٠٩)، ومسلم رقم (٢٤٠٦).

الإسلام هذا من باب الاستحباب ليس واجبًا إذا كانت قد بلغتهم الدعوة، أما إذا لم تبلغهم فيجب دعوتهم ولا يجوز القتال قبل أن يُدعوا إلىٰ الإسلام، مع ذلك جاءهم وهم غافلون، خرج عليهم وهم قد أخذوا مساحيهم وآلات حرثهم ليشتغلوا في حروثهم ونخيلهم، فلما رأوه قالوا: محمدًا والخميس (يعني: الجيش الذي يخمس) فقال ﷺ: «**الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا صبَّحنا قومًا فساء صباح المنذرين**»[(١)]، فتفاءل بأن معهم المساحي والفؤوس لأنها آلات هدم.

فقال: «ادعهم إلىٰ الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم»: واتركهم وبلادهم ولا تعرض لهم بشيء، فهم أسلموا علىٰ بلادهم ويكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما علىٰ المسلمين.

قوله: «ثم ادعهم إلىٰ التحول من دارهم إلىٰ دار الهجرة»: هذا قبل فتح مكة وقبل انتشار الإسلام، وإلا لما انتشر الإسلام فالهجرة إذا أسلموا في بلادهم ليست لازمة.

ومعنىٰ دار المهاجرين؛ يعني: بلاد المهاجرين الذين هاجروا من بلادهم إلىٰ المدينة وهذه هي هجرة الصحابة، أما الهجرة التي كانت إلىٰ الحبشة فهذه هجرة الفرار بالدين عن الافتتان وليست لأجل أن يكون لهم قوة ومدافعة للعدو كما حصل في المدينة، فدار الهجرة إذا أطلقت فهي المدينة؛ لأن الجيوش صارت تنطلق منها لقتال الكفار حتىٰ استتب الأمر كله في جزيرة العرب، وبعد هذا لما فتحت مكة صار الناس كلهم يدخلون في الدين، ولهذا قال ﷺ: «**لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا**»[(٢)].

---

(١) رواه البخاري رقم (٦١٠)، ومسلم رقم (١٣٦٥).

(٢) رواه البخاري رقم (٢٧٨٣)، ومسلم رقم (١٣٥٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

فإذا عادت الأمور كما كانت فالحكم باق علىٰ ما هو عليه، يعني: إذا انحصر المسلمون في مكان معين فإنه يجب علىٰ الذي يسلم أن يهاجر إليهم، إلا إذا كان لا يخش علىٰ دينه يستطيع أن يظهر دينه ويمارس شعائر الدين بدون فتنة أو خوف، فهذا لا تجب عليه الهجرة، وإنما الهجرة لشيئين:

أحدهما: النصرة، أن ينصر المؤمنين.

والثاني: الخوف من الفتنة في دينه، فإذا كان لا يخاف علىٰ دينه وطلب منه النصرة وجب عليه ذلك إذا كان مستطيعًا، وإلا فلا تجب عليه، وقد جاء في الحديث أن الهجرة باقية ما قوتل العدو[1]، ما دام المسلمون يقاتلون العدو فالهجرة باقية، وفي حديث آخر: «**لا تنقطع الهجرة حتىٰ تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتىٰ تطلع الشمس من مغربها**»[2]، ولا يجوز أن نجعله قاضيًا علىٰ النصوص الأخرىٰ لأنه جاء في صحيح مسلم: «**ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض**»[3]؛ يعني: لا يقبل من نفس إيمانها، فيضاف إلىٰ طلوع الشمس الدجال، والدابة؛ لأن خروج الدجال قبل طلوع الشمس من المغرب وقبل الدابة، ولأن فيه إيذان بتغير الكون لأن اليوم الواحد يكون كسنة، واليوم الآخر يكون كشهر، واليوم الثالث كأسبوع.

قوله: «وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين، وعليهم ما علىٰ المهاجرين»؛ يعني: من الأحكام، وكذلك مما يحصل لهم من الأموال التي تؤخذ من الكفار سواءً غنيمة أو فيء.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم (٢٢٣٢٤)، والنسائي رقم (٤١٧٣).

(٢) أخرجه أحمد في المسند رقم (١٦٩٠٦)، وأبو داود رقم (٢٤٧٩) من حديث معاوية ﷺ.

(٣) رواه مسلم رقم (١٥٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

قوله: «**فإن أبوا أن يتحولوا منها، فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين**»: الأعراب الذين يكونون في البادية لا يهاجرون، هؤلاء ليس لهم شيء من الغنيمة إلا أن يقاتلوا، وكذلك ليس لهم شيء من الفيء، والفيء هو الذي يتركه العدو خوفًا من المسلمين بلا قتال، ولكن لهم الصدقة إذا كانوا فقراء؛ يعني: الزكاة التي من أغنيائهم ترد على فقرائهم، ولهذا قال: «**ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين**»، فإن جاهدوا فلهم مثل ما للمجاهدين.

قوله: «**فإنهم أبوا**»؛ يعني: هذه الخصلة الثانية (فاسألهم الجزية)، وهذا دليل على أن الجزية تأخذ من عموم الكفار، سواءً كانوا عربًا أو غير عرب، وعند الإمام أحمد والشافعي أنها تؤخذ من أهل الكتاب ومن المجوس فقط، أما الوثنيون والعرب فلا بد من قتالهم إما أن يدخلوا في الإسلام أو يقاتلوا، فلو بذلوا جزية فإنها لا تقبل منهم، وذلك أن الرسول ﷺ لم يأخذ من العرب جزية وإنما أخذها ممن له كتاب، وكذلك أخذها من المجوس. وبعض العلماء يرى أنها تأخذ من الكفار مطلقًا كما يعطيه ظاهر هذا النص.

ثم هو لم يبين قدر الجزية هنا، ولهذا اختلف العلماء في قدرها منهم من يقول: إنها أربعة دنانير، أو أربعين درهمًا، ومنهم من يقول: إنها ثمان وأربعين درهمًا على الغني وعلى المتوسط أربع وعشرين، وعلى الفقير اثنا عشر، وهذا هو المشهور عند الإمام أحمد وعند الإمام أبي حنيفة رحمهما الله ولكن هذا الآن لا مطمع فيه ما دام حالة المسلمين بهذه الصفة، فيخشى أنهم هم يدفعون الجزية، والجزية التي تدفع هي في مقابل حمايتهم.

قوله: «**فإنهم أبوا**» هذه الخصلة الثالثة؛ يعني: أبوا عن قبول الإسلام، وكذلك امتنعوا من دفع الجزية «**فاستعن بالله وقاتلهم**» هذه هي الثلاث الخصال.

قوله: «**وإذا حاصرت أهل حصن، فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه**»: هذا هو الشاهد، الذمة هي: العهد، والميثاق، تقول: أنت لك عهد الله أو لك حكم الله بيني وبينك إن فعلت كذا. فالواجب أن يقول مثلًا: لك عهدي، أعاهدك أني لا أخالف كذا وكذا، وأني أعمل كذا وكذا، وكذلك ما يجوز أن يقول لك ذمة نبي الله وإنما يجعل ذمته وذمة أصحابه الذين معه؛ ولهذا قال: «**فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك**»؛ لأن هذا ليس سهلًا بل هو عظيم جدًا؛ لأن المخالفة تكون فيها انتهاك لذمة الله وعهده ﷻ وما حرمه، وفيه أيضًا تعزيرٌ للناس الذين لا يعرفون حقيقة الإسلام فيكون بذلك صد عن سبيل الله وعن الدخول في دين الله ﷻ إذا رأوا مثل هذا قالوا إذًا الإسلام فيه الغدر، وفيه الخيانة فيكون هذا من الموانع، والأول أعظم.

والذمة: هي الدين الذي يدين به الإنسان، يقول: أنا ديني يأمرني بالوفاء لك وأعطيك ذلك، أعاهدك أني أوفي بهذا الشيء.

والعلة هو قوله: «**فإنكم إن تخفروا ذممكم وذمة أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه**»، والإخفار معناه: المخالفة، والنقض لما عاهده عليه. أخفره: إذا خانة وخالف ما بينه وبينه.

وهو دليل علىٰ وجوب مراعاة الأمور، وأنه إذا كان لا بد من ارتكاب محذور فيرتكب أخف المحذورين ضررًا، وكذلك يؤخذ منه ما يقابل هذا وهو: إذا كان أمامك أمران متعارضان ولكن فيهما خير فإنك تبحث عن الشيء الذي خيره أكثر ونفعه أعم فتختاره، وهذه القواعد أخذت من هذا الحديث وغيره، وقد قررها العلماء في هذا، ولهذا قال: «أهون»، فيجب أن يكون الإنسان يختار الشيء الذي هو أهون وهذا فيما يخص الإنسان وما يكون عامًا.

قوله: «**وإذا حاصرت أهل حصن**»؛ يعني: هذه مسألة أخرىٰ.

قوله: «**فأرادوك أن تنزلهم علىٰ حكم الله، فلا تنزلهم علىٰ حكم الله، ولكن أنزلهم علىٰ حكمك، فإنك لا تدري أتصيب فيهم حكم الله أم لا**»: فهو ينزلهم علىٰ حكمه، وهو في ذلك يجب أن يجتهد لإصابة الحكم الحق، وفي هذا دليل علىٰ أن لله في كل قضية حكمًا، وأن حكمه واحد لا يختلف وأن المصيب في المجتهدين واحد، وليسوا عددًا كما تقوله المعتزلة وغيرهم.

فهذا يدلنا علىٰ أن الإخبار بأن هذا حكم الله أمر يجب أن يتثبت فيه ويكون بدليل.

ويدلنا علىٰ أن الأحكام التي تجد وتكثر في الأمة أنها كلها ترجع إلىٰ شرع الله، ولكن ما كل واحد يفقهها وينزلها علىٰ الأدلة التي تستنتج من كتاب الله وسُنَّة نبيه ﷺ.

ويدلنا كذلك علىٰ أن الحق واحد لا يتعدد، فحكم الله واحد وأنه ليس كل حاكم يصيب حكم الله ولكن إذا كان الحاكم مجتهدًا وطالبًا للحق ونيته طلب الحق وإظهار أمر الله فإنه وإن اخطأ فله أجر الاجتهاد، وقد جاء النص علىٰ هذه المسألة كما في الصحيح: «**إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر**»[1]، ولكن بشرط أن يكون أهلًا للاجتهاد ليس كل واحد يجتهد، فالجاهل الذي لا يعرف الاستنتاج والاستدلال والعموم والخصوص في الأدلة يكون آثمًا علىٰ كل حال.

ومثل هذا القول في معاني كلام الله، فإن الإنسان إذا كان أهلًا لذلك فإنه يؤجر، أما إذا كان ليس أهلًا فإن قال الحكم كذا وكذا أو معنىٰ هذه الآية كذا وكذا فهو وإن أصاب فهو مخطئ إذا لم يكن متأهلًا لذلك، هذا هو الذي حمل عليه حديث: «من

---

(١) رواه البخاري رقم (٧٣٥٢)، ومسلم رقم (١٧١٦) من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه.

قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار»[(١)].

فالمقصود أن القول على الله بغير علم أمره كبير جدًا حتى عده بعض العلماء أكبر من الشرك وأخذوا هذا من قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، قالوا: إن الله ﷻ في هذه الآية بدأ بالذنوب التي هي أقل، ثم رتبها بما هو أعظم وختمها بالقول عليه بلا علم، فهو أعظم من الشرك؛ لأنه يتضمن الشرك وزيادة.

فالمقصود أن هذا يدل على أن الحق واحد فإذا اجتهد المجتهدون فالمصيب واحد، ولكن إذا كان المجتهد مخطئًا وهو أهل للاجتهاد فهو معذور ومأجور على اجتهاده، والخطأ يكون معفوًا عنه.

✍ قال المؤلف رحمه الله: فيه مسائل:

۞ الأولى: الفرق بين ذمة الله، وذمة نبيه، وذمة المسلمين.

لأن ذمة الله وذمة نبيه لا يجوز أن يتساهل فيها، ولا يجوز أن تكون بينك وبين غيرك وأنت لا تعرف هل تتم الأمور أو لا تتم؛ لأن هذا في المستقبل فيجوز أنه يختلف، يجوز أنه لا يفي بذلك، فلا يجوز أن يعطى ذمة الله وذمة رسوله في مثل هذا وهو غير ضامن ومتيقن بأنها تتم، هذا هو السبب.

فإذًا مثلًا صارت المخالفة لذمة المعاهد الأمير مثلًا مع من معه من المسلمين يكون أسهل، وليس معنى ذلك أنه لا يكون آثمًا، بل هو آثم لأنه لا يجوز نقض العهد أصلًا، ولهذا أمرنا بالوفاء بالعهود وأكد هذا ﷻ ولكن الإنسان يختار ما هو أسهل؛ يعني: المخالفة فيه يكون الإثم أهون، هذا هو الفرق.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم (٢٠٦٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

الثانية: قوله: «اغزوا بسم الله في سبيل الله».

الغزو هو قصد الكفار في بلادهم لقتالهم، هذا هو المتعارف عليه عند العلماء، وقوله: «**اغزوا بسم الله في سبيل الله**»؛ يعني: أن القتال يجب أن يكون لإعلاء كلمة الله، أما إذا كان الغزو لدنيا فالإنسان خاسر في هذا، فهو من الذين تسعر بهم النار كما جاء في صحيح مسلم: «**إن أول الناس يقضىٰ يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتىٰ به فعرفه نعمه فعرفها قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتىٰ استشهدت قال: كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال جريء فقد قيل، ثم أمر به فسحب علىٰ وجهه حتىٰ ألقي في النار**».

فالغزو يجب أن يكون في سبيل الله، وسبيل الله؛ يعني: معناه أن يكون الإنسان مخلصًا في قتاله أنه يريد في قتاله إعلاء كلمة الله وإدحاض الباطل، يقاتل في سبيل الرحمن أولياء الشيطان.

الثالثة: قوله: «قاتلوا من كفر بالله».

هذا من الأدلة العامة التي تبطل قول من قال أن الجهاد للمدافعة فهو قال: «**قاتلوا من كفر بالله**» ولم يقل قاتلوا من قاتلكم، فكل من كفر بالله يجب أن يقاتل إذا كان المسلمون عندهم مقدرة علىٰ هذا وعندهم القوة؛ لأن هذا مربوط في الآيات الأخرىٰ التي فيها ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]؛ يعني: لا يجوز للإنسان أن يغرر بنفسه أو بمن معه من المسلمين، فإذا كان ليس عنده طاقة ولا قدرة فلا يجوز أن يقتحم الأمور التي يقضىٰ عليه فيها ثم تموت الدعوة، ولهذا حدد الله ﷻ العدد الذي لا يجوز للمؤمن أن يولي دبره فيه قال: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾ [الأنفال: ٦٥] ثم خفف ﷻ صار الرجل لا يجوز أن يفر من اثنين، والعشرة لا يجوز أن يفروا من عشرين من الكفار، والمائة من المئتين،

والألف من ألفين، وهذا من التخفيف، فهذا التحديد يدل على أن الأمر متعلق بالطاقة وبالاستطاعة.

❁ **الرابعة: قوله: «استعن بالله وقاتلهم».**

يعني: أنه لا بد من الاستعانة بالله، والاستعانة بالله دين وعبادة فلا بد للعبد أن يكون قتاله تدينًا وعبادة لله ﷻ فهو يقاتل بالفعل ويستعين على ذلك وليس المعنى أنه يعتمد على قوته وعدده وعدته وقد أخبرنا ﷻ في دروس علمنا إياها في حياة الرسول ﷺ دروس يجب أن تكون عبرة للأمة فمثلًا في غزوة حنين خرج الرسول ﷺ في اثني عشر ألفًا لملاقاة هوازن ومن معها من المشركين، فقال أحد المسلمين: لن نغلب من قلة[1] فنحن كثيرون فعاقبهم الله ﷻ على هذا القول فحصلت الهزيمة قال: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥]، ثم بعد ذلك أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وتراجعوا وقاتلوا فنصرهم الله ﷻ، هذا درس، فالإعجاب بالنفس والكثرة والقوة قد تبطل العمل.

الثاني: ما وقع في غزوة أحد وهو أن الرسول ﷺ اختار سبعين من الصحابة من الرماة وحدد لهم مكانًا وجعل عليهم عبد الله بن جبير وقال لهم: «**إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم**»[2]؛ يعني: لو رأيتمونا نقتل لا تعدوا مكانكم؛ فوقفوا في ذلك الموقف فهزم الله المشركين وأدبروا وصاروا يصعدون في

(١) دلائل النبوة للبيهقي (٥/ ١٢٣).
(٢) رواه البخاري رقم (٣٠٣٩).

الجبل والمسلمين خلفهم يقتلون ويأخذون فقالوا: علام نجلس هنا نذهب نشاركهم في أخذ الغنائم، فذكَّرهم أميرهم قول الرسول ﷺ، ولكن لم يطيعوه فعصوا؛ فحصلت الهزيمة، جاءت خيل الكفار من الخلف وقتلوا من المسلمين سبعين وجرحوا رسول الله ﷺ وحصلت الهزيمة للمسلمين بسبب هذه المعصية، معصية واحدة؛ يعني: معناه أن العبد إذا عصىٰ ربه فالمعصية هي سلاح الكفار؛ يعني: أشد من سلاح الكفار علىٰ المسلمين، وقد فهم الصحابة هذا.

فالمقصود أن الدروس التي في السيرة يجب أن نعتبرها ويجب أن ندرسها وننظر فيها، إذا كان في زمن الصحابة الذين هم أولياء الله وأفضل الناس بعد الأنبياء مع سيد الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين يحصل العقاب ويحصل الانهزام بسبب معصية حدثت من بعضهم، ليس كلهم يوافقونه بل بعضهم، فكيف إذا حصلت المعاصي وحصلت المخالفات وحصلت الأمور الظاهرة، ولهذا لا يستغرب الآن تسليط العدو علىٰ المسلمين لكثرة معاصيهم فيجب أن يصلحوا أحوالهم أولًا ثم يتجهوا إلىٰ ربهم بالاستعانة به علىٰ عدوهم وعلىٰ أنفسهم.

❁ **الخامسة: الفرق بين حكم الله وحكم العلماء.**

حكم الله يجب أن يصان، وأن يحترم، وأن لا يخاطر الإنسان فيه، أما حكم العلماء وفتواهم إذا لم تكن بنص فهذه يجب أن تعرض علىٰ الكتاب والسُّنَّة فإذا وافقت الحق قبلت وإلا أقل ما يقال فيها أنه معذور في هذا لأنه مجتهد وله أجر علىٰ ذلك، أما أنه يجب العمل بها ويجب أن لا تخالف فهذا ليس هذا لها، الذي يجب أن لا يخالف هو كلام الله وكلام رسوله ﷺ، هذا هو مقصوده وهو يعرض بهذا لما يحصل لكثيرٍ من الناس إذا قلت له مثلًا الله ﷻ يقول كذا وكذا في مسألة من المسائل، أو الرسول ﷺ يقول كذا وكذا، يقابلك يقول لك: المذهب كذا وكذا، أو الإمام يقول كذا وكذا، فهذا لا يجوز، لا يجوز أن يعارض الكتاب أو السُّنَّة

بالمذاهب أو بأقوال أصحابها أو بقول العلماء، يجب أن يكون حكم الله وحكم رسوله هو الذي يرجع إليه دائمًا في كل حال.

السادسة: في كون الصحابي يحكم بحكم لا يدري أيوافق حكم الله أم لا؟.

يعني: الصحابي وغير الصحابي، لكنه نص على الصحابي لأنه بالإمكان مراجعة الرسول ﷺ ومعرفة الحق، ومعرفة حكم الله في هذا، فإذا كان هذا في وقت الصحابة وهو يحكم بحكمه لأنه احتاج إلى ذلك وقد تكون المراجعة تحتاج إلى وقت فأذن له بذلك وأن يحكم بهذا، وهذا من فضل الله ﷻ والتوسعة على المسلمين، فإذا اجتهد المجتهد في طلب الحق وأخطأ فهو معفو عنه ويؤجر على اجتهاده.

الباب الرابع والستون

✍ **قال المؤلف رحمه الله: باب ما جاء في الإقسام على الله.**

يعني: أنه من محبطات العمل، ومن فعل ذلك ذهب توحيده. والإقسام على الله في الأحكام وفي الجزاء وما أشبه ذلك.

الإقسام والحلف واليمين بمعنى واحد. فمعنى ذلك أنه يذكر اسم المعظم عند ذكر الخبر تأكيدًا للخبر. والمعظم الذي يُذكر اسمه هو الذي يقدر على عقابه إذا كان كاذبًا، ويثيبه إذا كان صادقًا، وهذا لله جل وعلا، ولهذا منع من القسم إلا بالله أو باسم من أسمائه أو صفة من صفاته. وأما الإقسام بالمخلوق فهو شرك بالله جل وعلا.

ومناسبة الباب لكتاب التوحيد أنه يجب تعظيم الله جل وعلا، وأنه لا يجوز أن يحكم على الله بأنه يفعل كذا أو لا يفعل كذا، وهو لا يتيقن من ذلك، فإن هذا جرأة ومن حصلت منه هذه الجرأة يكون إما فاقدًا للتوحيد، أو يكون توحيده ضعيفًا يعاقب على تركه التوحيد الذي يجب أن يكمل به دينه. ثم ذكر النص الذي فيه الدليل.

✍ **قال المؤلف رحمه الله: عن جندب بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان، فقال الله عز وجل: من ذا الذي يتألى علي أن لا أغفر لفلان؟ إني قد غفرت له، وأحبطت عملك» رواه مسلم**[(١)].

وفي حديث أبي هريرة أن القائل رجل عابد. قال أبو هريرة: «تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته»[(٢)]، يتألى: يحلف.

---

(١) رقم (٢٦٢١).

(٢) أخرجه أحمد في المسند رقم (٨٢٩٢)، وأبو داود رقم (٤٩٠١).

كلمة واحدة قالها فحبط عمله وخسر دنياه وآخرته، حديث أبي هريرة الذي يشير إليه «أن الذي تكلم بهذه الكلمة كان عابدًا».

جاء تفصيله، عن عكرمة بن عمار قال: دخلت مسجد المدينة فناداني شيخ فقال: يا يمامي لا تقولن لرجل والله لا يغفر الله لك أو لا يدخلك الله الجنة أبدًا، قلت: من أنت يرحمك الله. قال أبو هريرة: فقلت: إن هذه لكلمة يقولها أحدنا لأخيه وصاحبه إذا غضب، قال: فلا تقلها فإني سمعت النبي ﷺ يقول: «**كان رجلان في بني إسرائيل متواخيين، فكان أحدهما يذنب والآخر مجتهد في العبادة، فكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذنب فيقول: أقصر، فوجده يومًا على ذنب فقال له: أقصر، فقال: خلِّني وربي أبعثت علي رقيبًا؟ فقال: والله لا يغفر الله لك أو لا يدخلك الله الجنة فقبض أرواحهما فاجتمعا عند رب العالمين فقال لهذا المجتهد: أكنت بي عالمًا؟ أو كنت على ما في يدي قادرًا؟ وقال للمذنب: اذهب فادخل الجنة برحمتي، وقال للآخر: اذهبوا به إلى النار**»، قال أبو هريرة: والذي نفسي بيده لتكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته.

قوله: «إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: أنه كان رجلان في بني إسرائيل»: والظاهر أن هذا القول، قاله غيرة وغضبًا لله ومع ذلك أحبط عمله لأن القول على الله ﷻ ليس سهلًا والحكم عليه أنه يفعل كذا أو لا يفعل كذا من الجرأة المهلكة.

ثم هذا الحديث لا تعارضه الأحاديث الأخرى، مثل حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كسرت الربيِّع وهي عمة أنس بن مالك ثنية جارية من الأنصار، فطلب القوم القصاص فأتوا النبي ﷺ فأمر النبي ﷺ بالقصاص، فقال أنس بن النضر عم أنس بن مالك: لا والله لا تكسر سنها يا رسول الله -وقصده بهذا أنه يفديها بما يستطيع وليس قصده معارضة حكم الرسول ﷺ- فقال رسول الله ﷺ: «**يا أنس كتاب الله القصاص**»، فرضي القوم وقبلوا الأرش، فقال رسول الله ﷺ: «**إن من عباد الله من لو**

أقسم علىٰ الله لأبره»[١]، وهذا ظاهر أنه لا يُريد معارضة حكم الله.

وكذلك الحديث الآخر، «**رب أشعث ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم علىٰ الله لأبره**»[٢]، ومنه أيضًا حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**رب ضعيف متضعف ذي طمرين لو أقسم علىٰ الله لأبر قسمه، منهم البراء بن مالك، فإن البراء لقي زحفًا من المشركين وقد أوجع المشركون في المسلمين فقالوا: يا براء إن رسول الله ﷺ قال: إنك لو أقسمت علىٰ الله لأبرك فاقسم علىٰ ربك، فقال: أقسمت عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم ثم التقوا علىٰ قنطرة السوس فأوجعوا في المسلمين، فقالوا له: يا براء اقسم علىٰ ربك، فقال: أقسمت عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم وألحقتني بنبيك ﷺ، فمنحوا أكتافهم وقتل البراء شهيدًا**»[٣]، علىٰ هذا نقول: **الإقسام علىٰ الله أنواع:**

النوع الأول: أن يقسم الإنسان علىٰ الشيء الذي يؤمن به حسب خبر الله يقينًا مثل قولك: والله ليبعثن الله الناس، أو والله ليدخلن المؤمنين الجنة، أو والله ليدخلن من مات كافرًا النار. فهذا لا بأس به لأن هذا خبر الله ويقسم بهذا لأنه متيقن من هذا.

النوع الثاني: أن يكون راجيًا ربه، موقنًا بنصره حسب أمر الله ﷻ وليس من باب الاعتراض والحكم علىٰ الله، فهذا مثل قصة أنس بن النضر، فهذا جائز ولكن إذا وثق الإنسان بذلك، ليس كل واحد يذهب يقسم.

النوع الثالث: ما في هذا الحديث، كونه يقسم علىٰ حكم لا يدري ما الله يحكم فيه فيقول: والله ليفعلن الله كذا والله ليدخلن فلان النار، أو ليدخلنه الجنة، فهذا الذي قصد بهذا الباب وأنه من المحرمات والقول علىٰ الله بلا علم، فمن فعل ذلك

(١) رواه البخاري رقم (٤٦١١)، ومسلم رقم (١٦٧٥).
(٢) رواه الترمذي رقم (٣٨٥٤) من حديث أنس بن مالك.
(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك رقم (٥٢٧٤).

فإما أن يكون توحيده ذاهب كما في هذا الحديث ويحبط عمله، وإما أن يكون ناقصًا، ولكنه آثم على كل حال.

❁ **فقوله: قال رسول الله ﷺ: «قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان»**.

هذا ليس عنده دليل أن فلانًا لا يغفر له، وإنما حكم على الله حكمًا لا يدري ما الله فاعل به، ولهذا يكون ارتكب إجرامًا، وهذه المقولة التي قالها صارت سببًا لإحباط عمله وإدخاله النار، وهذا يدلك على عظم القول على الله ﷻ بأنه يفعل كذا أو لا يفعل كذا.

مثل ذلك الحكم على الله في دينه، أن يقول حكم الله في هذه المسألة كذا وكذا بلا علم قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦]، هذا لا يجوز أن يتجرأ عليه، ولهذا كان العلماء يعظمون مسألة الفتوى ويقولون: الفتوى حكم الله لأنك تقول الحكم كذا وكذا. فيجب أن تكون على بينة لكن إذا خف الخوف من الله والعلم تجرأ الناس على الفتوى «**أجرأكم على الفتيا أجرأكم على النار**»(١).

قوله: «قال الله ﷻ: من ذا الذي يتألى علي»: يجوز أن يكون هذا القول في الحال، قاله في حال من قال هذه المقالة، ثم قبضهما إليه وحكم بينهما في ذلك الوقت.

وهذا يدل على أن الإنسان قد يكون هلاكه بسبب تجاوزه لأمر من أمور الله يرى أنه على حق، فلا يجوز التساهل في هذا، والواجب أن يتأنى وينظر في الأدلة على حكم الله في ذلك.

---

(١) سنن الدارمي رقم (١٥٧).

كما أنه يدل علىٰ أن العبد قد يغفر له بسبب مكروه إليه مثل لو قابلك إنسان وقال لك: والله لا يغفر الله لك، فإن مثل هذا الكلام مكروه لك.

ويدلنا علىٰ أن الحكم إلىٰ الله بين عباده، لا يجوز أن يشهد لإنسان لنفسه أو لآخر لا بجنة ولا بنار، ولهذا اتخذ أهل السُّنَّة هذه عقيدة ينصون عليها في العقائد يقولون: «ولا نشهد لأحد لا بجنة ولا بنار مهما كان عمله إلا إذا شهد الله له أو شهد له رسول الله ﷺ» أخذًا من هذا ونحوه.

وشهادة الله إما أن تكون عامة أو تكون خاصة، وقد كان الصحابة ﷺ يفرح أحدهم أن تكون له شهادة من الرسول ﷺ مع أن كلهم يحب الحق ويجاهدون فيه وأن تكون أموالهم وأنفسهم في ذلك، ولكن الإنسان لا يكون عنده يقين من عمله بأنه قُبل كما أنه لا يكون عنده يقين من أن توبته واستغفاره قد قبل، فهو يكون دائمًا علىٰ خوف ووجل، هذا هو سبب خوف المؤمن، وهذا هو الذي يجب أن يكون.

أما الحديث الآخر الذي أشار إليه فهو ظاهر أن المتكلم في ذلك عابد وهذا الرجل قال ذلك غضبًا وهو لم يعذر بغضبه والناس كلهم يغضبون ولكن الغضب نوعان:

النوع الأول: غضب يسمونه إغلاق؛ يعني: يغلق عليه تصرفه فيكون شبه المجنون، فهو يتكلم ولا يدري أنه يتكلم بهذا، فمثل هذا إذا طلق فلا يقع طلاقه لأن عقله قد غطاه الغضب.

الثاني: يعلم ما يتكلم به ويدري أين هو، ويدري من يكلم فهذا يؤاخذ بتصرفه.

وفيه خطورة الكلام، فقد يتكلم بالكلمة التي لا يلقي لها بالًا، أو ربما تكلم بها ليضحك بها القوم فيكتب له الله بها سخطه، فقد جاء في صحيح البخاري وغيره في هذا المعنىٰ أحاديث عدة، وكذلك في حديث معاذ الذي رواه الترمذي وغيره لما

ذكر له أبواب الخير: «**ثم قال ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟ فقلت له: بلىٰ يا نبي الله فأخذ بلسانه فقال: كف عليك هذا، فقلت: يا رسول الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: ثكلتك أمك يا معاذ وهل يكب الناس علىٰ وجوههم في النار أو قال: علىٰ مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم**»(١).

وفي هذا أحاديث كثيرة، فقد ألف فيه ابن أبي الدنيا كتابًا سماه «كتاب الصمت»، وكذلك السيوطي وغيرهما كثير، وبينوا خطورة اللسان، وأنه يجب حفظه إلا من ذكر الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبذل الخير والدعوة إليه ويجب أن يفكر في كلامه، هل هو له أو عليه؟ أما إذا كان لا يضبط لسانه فهو دليل علىٰ أن دينه غير مستقيم، يقول أحد التابعين: صحبت رجلًا من الصحابة فبقيت سنينًا وأنا لم أسمع منه كلمة نابئة وفي يوم من الأيام قال لغلامه: ائتنا بالسفرة نعبث بها، ثم قال: ما هذه الكلمة، والله لا تذهب هكذا، فصار يستغفر ويذكر ربه. فهذه الكلمة فقط جعلها ذنبًا كبيرًا فصار يتوب منها ويستغفر ربه.

وذكر يحيىٰ بن أبي كثير قال: ركب رجل حمارًا فعثر به، فقال: تعس الحمار، فقال صاحب اليمين: ما هي حسنة أكتبها، وقال صاحب اليسار: ما هي سيئة فأكتبها، فأوحىٰ الله إلىٰ صاحب الشمال ما ترك صاحب اليمين من شيء فاكتبه، فأثبت في السيئات تعس الحمار(٢). فمعنىٰ هذا أن كلمة: تعس الحمار صارت في السيئات فكيف في الأمور الظاهر، ويجب أن يعلم أنه سائر إلىٰ قبره وإلىٰ ملاقاة ربه وإلىٰ مجازاته بعمله وأن أيامه وساعاته مراحل، كل ساعة مرحلة يقطعها فيجب أن يستغل وقته فيما هو نافع له، وطرق النفع كثيرة جدًا، قد بيَّنها الله وبيَّنها رسوله ﷺ، فإن لم يستغل ذلك صارت خسارة كبرىٰ، والندامة ستكون بلا شك، فإنه إن عكس

(١) رواه الترمذي رقم (٢٦١٦)، وأخرجه أحمد في المسند رقم (٢٢٠١٦).
(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ١٣٤).

الأمر وصار يتزود من ساعته بما هو زاد إلىٰ النار فماذا تكون الحال؟ ولا بد من أحد الأمرين إما هذا أو هذا، فيجب أن يتنبه العبد ويحفظ وقته، ويحفظ لسانه، ويعلم أنه محفوظ عليه كل شيء. ففي هذا الحديث معتبر، فيجب أن نعتبر في ذلك.

قال المؤلف رحمه الله: فيه مسائل:

الأولى: كون النار أقرب إلى أحدنا من شراك نعله.

أخذ هذا من الحديث فهو لما قال هذه الكلمة صار فيها هلاكه قد يقول كلمة مثلها فيهلك.

الثانية: فيه شاهد لقوله: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة ..» إلى آخره.

آخره: «**ينزل بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب**»[1].

الثالثة: أن الرجل قد يغفر له بسبب هو من أكره الأمور إليه.

يعني: مثل هذا الذي قابله هذا الرجل ويقسم يقول: والله لا يغفر الله لك، هذا شيء مكروه، لا يستطيع الإنسان استقباله واستماعه، ومع ذلك غفر له بسبب هذا.

(١) رواه البخاري رقم (٦٤٧٧)، ومسلم رقم (٢٩٨٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الباب الخامس والستون

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **باب لا يستشفع بالله علىٰ خلقه.**

الاستشفاع: هو طلب الشفاعة. والشفاعة تطلب من الأدنىٰ إلىٰ الأعلىٰ كالدعاء لأنها نوع من الدعاء، فهي في الواقع ضم دعوة الشافع إلىٰ دعوة المشفوع له عند من يملك ذلك، والله ﷻ أعظم وأكبر من أن يشفع عند أحد من خلقه.

والشفاعة سبق الكلام فيها، وبيَّنا أن أصل الشرك هو التعلق بالشفاعة قديمًا وحديثًا.

قوله: «لا يستشفع بالله علىٰ خلقه»؛ يعني: لا يجعل الله شفيعًا؛ لأن الشفيع أدنىٰ من الشافع، وهذا تنقص من قدر الله ﷻ، ولهذا السبب أدخله في كتاب التوحيد لأن من وقع في ذلك فإنه نقص توحيده أو ذهب كله.

والخلق كلهم عبيد لله، وملك له يتصرف فيهم كيف يشاء وهو بيده الخير كله، وله الملك كله، وله الحمد كله، يفعل ما يشاء لا مانع لما أعطىٰ، ولا معطي لما منع، وهو لا يعطي أحدًا إلا بإرادته ومشيئته، وهو الذي يقذف الطلب في قلوب عبيده ليسألوه توفيقًا منه حتىٰ يعطيهم ذلك وكل الأمور ترجع إليه، ولهذا لا يجوز أن يقال: يستشفع بالله علىٰ خلقه، ولهذا قال: «لا يستشفع» لأن هذا من المحرمات بل من الأمور الكبيرة التي توقع الإنسان في تنقص رب العالمين.

ثم ذكر الدليل علىٰ هذا، وهو هذا الحديث، وإن كان هذا الحديث تكلم فيه بعض الناس، بل الجهمية ومن سلك طريقهم قدحوا في محمد بن إسحاق صاحب السيرة وقد دافع عنه أهل الحق وقالوا عنه ليس له ذنب إلا أنه يروي الأحاديث التي يكون فيها الرد علىٰ الجهمية ونحوهم وللإمام مالك رحمه الله كلام فيه.

وعلىٰ كل حال الحديث معناه صحيح، تدل عليه النصوص الأخرىٰ، ومقتضيات الشرع وقواعده.

✍ قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عن جبير بن مطعم، قال: جاء أعرابي إلىٰ النبي ﷺ فقال: يا رسول الله نُهِكَت الأنفس، وجاع العيال، وهلكت الأموال فاستسق لنا ربك، فإنا نستشفع بالله عليك، وبك علىٰ الله. فقال النبي ﷺ: «سبحان الله، سبحان الله» فما زال يسبح حتىٰ عُرِف ذلك في وجوه أصحابه. ثم قال: «ويحك، أتدري ما الله؟ إن شأن الله أعظم من ذلك، إنه لا يستشفع بالله علىٰ أحد» وذكر الحديث، رواه أبو داود[1].

قوله: «جاء أعرابي إلىٰ النبي ﷺ»: الأعرابي هو ساكن البادية، يقال له أعرابي، ويقال: عربي، فالعربي هو الذي يتكلم اللغة العربية، أما الأعرابي فهو من كان في البادية مع ماله، من الرحل الذين يترحلون، ولم يسكنوا المدن، وهذا خليق بأن يكون صاحبه جاف كما قال الله تعالىٰ: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٩٧].

فالإنسان إذا خالط شيئًا يكتسب أخلاقه منه، فإذا خالط البهائم اكتسب من أخلاقها وطبعها، ولهذا جاء في الصحيح قول الرسول ﷺ: «**والفخر والخيلاء في أصحاب الإبل، والسكينة والوقار في أهل الغنم**»[2]، لأن الغنم ضعيفة وفيها السكينة وفيها الضعف، وأما الإبل فهي خلقت من الشيطان، فأصحابها يكتسبون أخلاقهم منها، وكذلك هؤلاء يكون عندهم شيء من الجفاء وعندهم شيء أيضًا من الجرأة، ولهذا كان ابن عمر يقول: يعجبنا أن يأتي الأعرابي فيسأل رسول الله ﷺ،

---

(١) رقم (٤٧٢٦) وتمام الحديث: «**من خلقه شأن الله أعظم من ذلك ويحك أتدري ما الله؟ إن عرشه علىٰ سمواته لهكذا**»، وقال بأصابعه مثل القبة عليه: «**وإنه ليئط به أطيط الرحل بالراكب**».

(٢) رواه البخاري رقم (٤٣٨٨)، ومسلم رقم (٥٢) من حديث أبي هريرة.

ونحن نسمع، وقيده بالعاقل.

وقوله: «**جاء أعرابي**»: يبين أن هذا الأمر لا يُجهل، ولكن الأعرابي مظنة الجهل؛ ولهذا وقع ما ذكر هذا الذي لا يصلح طلبه من الخلق، والله يتعالىٰ ويتقدس عنه.

قوله: «**فقال: يا رسول الله نُهكت الأنفس**»: نهكت؛ يعني: هلكت وضعفت بسبب تأخر المطر وعدم وجود الكلأ الذي تأكله. وجاع العيال بسبب ذلك؛ لأنهم في الغالب يقتاتون من إبلهم وغنمهم يشربون ألبانها ويأكلون لحمها، وكذلك يصنعون من ألبانها الأقط والأدهان وغيرها، وإلا فهم ليسوا أصحاب زرع ولا صناعات؛ ولهذا قال:

«**وجاع العيال**» تبعًا لذلك، والأنفس التي هي أعم من العيال مثل البهائم وغيرها.

قوله: «**وهلكت الأموال**»؛ يعني: الإبل والغنم هذه هي أموالهم.

قوله: «**فاستسق لنا ربك**»؛ يعني: اطلب لنا السقيا من الله؛ فهم يعلمون أن هذا بيد الله ﷻ وأن الطلب ينفع وأن الله إذا دعي أجاب إذا كان ممن هو أهل لإجابة الدعوة مثل الرسول ﷺ فهذا أقرب، وكذلك من جُرب في إجابة دعوته فهذا لم ينكره الرسول ﷺ؛ يعني: كونه يطلب مما يرجىٰ إجابة دعوته أن يدعو، فالدعاء هنا عام للمسلمين عمومًا، هذا شيء من الواجبات أن المسلم يدعو للمسلمين وإذا وقع فيهم أمر لازم مثل هذا فإنه يتعين هذا ويتأكد، ولكن الإنسان ليس مطلعًا علىٰ كل شيء فقد يكون هذا في مكان دون آخر.

قوله: «**لنا ربك**»: هو لم يقل استسق لنا ربنا!! لأنه يقول أنت لك ربوبية خاصة، ربوبية أخص منا، فالله ﷻ يجيب دعوتك، فهو ربك الذي منَّ عليك بربوبية خاصة رسول الله يضاف إليه وكل عين تضاف إلىٰ الله فهو يدل علىٰ التشريف،

والعين هي الشيء القائم بنفسه مثل البيت والناقة والرجل والأمة والسماء والأرض وما أشبه ذلك من المخلوقات.

أما إذا كان المضاف معنىٰ مثل الرحمة والعزة والقوة والعلم، فهذا يضاف بأنه صفة يكون صفة قائمة بالموصوف، ولا واسطة بين هذين الأمرين.

فالإضافة إما أن تكون عين أو تكون معنىٰ فقط، وبهذا يعرف الفرق بين ما أضيف إلىٰ الله صفة أو أنه مخلوق له خصوصية أضيف إليه مثل الرسول والبيت والآية.

قوله: «فإنا نستشفع بالله عليك»: هذا هو الذي أنكره الرسول ﷺ قوله: «نستشفع بالله عليك»؛ يعني: جعل الله شفيعًا عليه تعالىٰ الله وتقدس. والله أعظم من أن يجعل شفيعًا بل المقربون هم الذين يشفعون عنده فالشفاعة ملكه، يأذن بها لمن يشاء ليكرمه، وإلا لا يمكن أن تحمل الشفاعة علىٰ المتعارف عليه مثل الملك أو الرئيس أو الوزير، قد يكون عنده إنسان مقرب إليه إما زوجته أو ولده وما أشبه ذلك فيضطر أنه يجيب شفاعتهم وإن كان كارهًا، فرب العالمين يتعالىٰ ويتقدس عن مثل هذا، بل هو سبحانه الشفاعة كلها له، والملك كله له، والأمر كله له والعبيد عبيده، وله ما في السماوات والأرض يتصرف فيها كيف يشاء، ولهذا قال ﷻ: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥] فلا يمكن أن يكون هناك شافع إلا إذا أذن له، والإذن هو الأمر بأن يقول له: اشفع. قبل أن يقول له اشفع فلا يجرؤ أحد أن يتقدم بطلب الشفاعة لعظمته، وتمام ملكه تعالىٰ وتقدس.

وهذا الأعرابي ما عرف هذا المعنىٰ، وما عرف قدر الله وعظمته ﷻ، ولهذا أنكر عليه الرسول ﷺ.

وقوله: «وبك علىٰ الله»: هذا غير منكر، والاستشفاع به علىٰ الله هو طلب دعائه، وهذا أيضًا ليس خاصًا بالنبي ﷺ، بل كل صالح يرجىٰ إجابة دعوته يطلب ذلك منه الطلب الخاص والعام، ولكن الاستشفاع بالدعاء ليس بالذوات كما سيتبين لنا إن شاء الله.

وقوله: «سبحان الله، سبحان الله»: سبحان: اسم مصدر مأخوذ من السبح وهو البعد، ومعنىٰ ذلك إبعادًا لله ﷻ وتنزيهًا له أن يستشفع به علىٰ أحد من خلقه تعالىٰ وتقدس فإنه أعظم وأكبر من ذلك والخلق لا يملكون مع الله شيئًا وكلهم فقراء إليه وهو الغني بذاته عن كل ما سواه.

وهذا هو الشاهد من الباب أن هذا يدل علىٰ الجهل بالله ﷻ، ومن كان جاهلًا بالله فهو ما عرف التوحيد ولا عرف حق الله ولا أتىٰ بالواجب عليه لله ﷻ، فهذا أمر يقع فيه كثير من الناس سواءً شعروا أو لم يشعروا ليس في هذه المسألة فقط بل في مسائل كثيرة، ولهذا تجد الجرأة من الناس علىٰ انتهاك المحارم وعلىٰ ترك الواجبات التي أوجبها الله، وهذا كله يدل علىٰ الجهل بالله ﷻ، وإلا لو عرف الإنسان عظمة الله ما تجرأ علىٰ أنه يخالف ربه، ولكن هذا لا يتبين لكل أحد وإنما ينكشف الأمر عند معاينة الموت ينكشف الأمر علىٰ حقيقته أو شيء من حقيقته ولكن هناك ما يفيد.

قوله: «فما زال يسبح حتىٰ عرف ذلك في وجوه أصحابه»: لعظم الزلة التي ارتكبها هذا الشخص؛ سبح الله كثيرًا وهو ما ذكر ألفاظ الرسول ﷺ إلا مرتين ولكنه قال: «فما زال يسبح» أكثر من التسبيح واستمر عليه «حتىٰ عرف ذلك في وجوه أصحابه» لأن أصحابه تتغير وجوههم للشيء الذي يشق علىٰ الرسول ﷺ أو يثقل عليه، وهذا من الأمور التي يكرهها الرسول ﷺ كثيرًا، فإذا انتقص حق الله أو انتهكت محارمه فإنه ﷺ لا يُقر هذا حتىٰ يغيره ويغضب لذلك صلوات الله

وسلامه عليه، ولهذا وصف بأنه لا يقوم أحد لغضبه لله ﷻ، بخلاف نفسه فإنه يعفو ويصفح كما في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية فأدركه أعرابي فجبذه بردائه جبذة شديدة حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله ﷺ قد أثرت بها حاشية البرد من شدة جبذته ثم قال: يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله ﷺ ثم ضحك ثم أمر له بعطاء»(١)، ولم ينتصر لنفسه صلوات الله وسلامه عليه.

أما إذا انتهك أمر الله فلا يمكن أن أحدًا يقوم أمامه أو يكلمه حتى ينتصر لله ﷻ، وبهذا يُعرف خطأ بعض شراح حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد إنا نجد أن الله يجعل السماوات على إصبع والأرضين على إصبع والشجر على إصبع والماء والثرى على إصبع وسائر الخلائق على إصبع فيقول: أنا الملك فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقًا لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧](٢) يقول: ضحك رسول الله ﷺ من جرأة اليهود على التشبيه(٣).

فهذا باطل ولا يجوز أن يقال مثل هذا لأن الرسول ﷺ عند الباطل لا يضحك بل يغضب ويغير ما حدث من الباطل ولا سيما في حق الله مثل هذا، فلذلك تغير وجهه ﷺ فصار يسبح وعرف ذلك في وجوه أصحابه.

قوله: «**ويحك**»: كلمة توجع وتوبيخ.

---

(١) رواه البخاري رقم (٥٨٠٩)، ومسلم رقم (١٠٥٧).

(٢) رواه البخاري رقم (٤٨١١)، ومسلم رقم (٢٥٣٣).

(٣) فتح الباري لابن حجر (١٣/ ٣٩٨)، قال القرطبي: فقول اليهودي كذب ومحال، ولذلك أنزل الله في الرد عليه: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ [الأنعام: ٩١]، وإنما تعجب النبي ﷺ من جهله فظن الراوي أن ذلك التعجب تصديق وليس كذلك.

قوله: «**أتدري ما الله؟**»؛ يعني: هو ما يدري ما الله ﷻ، ولهذا وقع فيما وقع فيه ثم قال:

«**إن شأن الله أعظم من ذلك**»؛ يعني: أن يجعل شافعًا عند أحد من خلقه تعالىٰ وتقدس.

قوله: «**إنه لا يستشفع بالله علىٰ أحد**»: هذا تعليم برفق لهذا الجاهل، مع تنزيه الله ﷻ وتعظيمه.

قوله: «**ثم ذكر الحديث**»: الحديث فيه أنه ﷺ قال: «**ويحك أتدري ما الله؟ إن عرشه علىٰ سماواته لهكذا -وقال بأصابعه مثل القبة عليه- وإنه ليئط به أطيط الرحل بالراكب**».

وهذا الحديث كما تقدم فيه محمد بن إسحاق، وقد فرح بذلك المعطلة ورموه بكل عظيمة بسبب روايته هذا الحديث مع أنه لم ينفرد به، وقد صححه الذهبي في كتابه العلو وغيره وأبو داود كذلك صححه واحتج به علىٰ الجهمية.

وفيه إثبات علو الله ﷻ واستوائه علىٰ عرشه.

وفيه أن الاستشفاع بالرسول ﷺ كان معروفًا عند الصحابة يطلبون شفاعته سواءً في الأمور المهمة مثل الاستسقاء أو في الأمور الخاصة التي تخص العبد، وهذا أمر مشهور وهذا مثل ما سبق أن هذا ليس خاصًا بالرسول ﷺ، كل من يرجىٰ إجابة دعوته يستشفع به؛ يعني: يطلب منه الدعاء، وقد روي أنه ﷺ لما استأذنه عمر رضي الله عنه في العمرة قال: «**لا تنسانا يا أخي من دعائك**»[(١)]، هذا من نوع الشفاعة قال: «قال كلمة ما يسرني أن لي بها الدنيا» وهي قوله: «**يا أخي**»، وقد اغتر بعض العلماء في هذا المعنىٰ وزعم أن الاستشفاع يجوز بالشخص مطلقًا؛ يعني: ليس بدعائه بل بذاته وقال: لا فرق أيضًا في كونه حيًا أو ميتًا ما دام أن الاستشفاع بالذوات فلا فرق

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم (١٩٥)، وأبو داود رقم (١٤٩٨).

واستدلوا بحديث الأعمىٰ الذي مضىٰ وليس لهم فيه متعلق لأن الأعمىٰ أتىٰ إلىٰ النبي ﷺ وطلب شفاعته فأمره أن يتوضأ وأن يدعو وأن يقول بدعائه: «**اللهم شفعه في وشفعني فيه**»(١)، ولو كان بالذات ما يلزم أن يأتي إليه بل يستشفع به ولو كان في بيته، وإن كان بعيدًا فهو في الواقع حجة عليهم وليس لهم هذا إذا كان حيًا حاضرًا ترجىٰ إجابة دعوته، أما إذا كان ميتًا أو غائبًا فهذا لا يجوز وهذا من وسائل الشرك، وقد يصل إلىٰ الشرك.

والميت يدعىٰ له ولا يدعىٰ كما شرع لنا ذلك ربنا علىٰ لسان رسوله ﷺ مثل الصلاة علىٰ الميت يدعو له ويشفع له، وكذلك في زيارة القبر، إذا زار الإنسان القبر فإنه يدعو له بالرحمة ويحسن إليه ويتذكر أنه سيكون في قبر مثل قبره كما قال عليه الصلاة والسلام: «**كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكر الآخرة**»، وفي رواية: «**ولا تقولوا: هجرًا**»(٢) يعني منكرًا.

فعكس عباد القبور الأدلة التي تدل علىٰ بطلان ما ذهبوا إليه فجعلوها أدلة لهم كعادة المبطلين هكذا، وكتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ لا يدل شيء منهما علىٰ الباطل، بل كلها حق والرسل كلهم جاءوا بالتوحيد ولا سيما خاتمهم صلوات الله وسلامه عليه.

وعلىٰ هذا الاستشفاع الذي هو طلب الشفاعة نقول هو أمر جائز، وقد وقع من الصحابة رضي الله عنهم كما في الحديث الذي في الصحيحين في قصة السبعين الذين يسبقون إلىٰ الجنة بلا حساب، فقام عكاشة بن محصن فقال: ادع الله أن يجعلني منهم. قال: «**اللهم اجعله منهم**»(٣).

---

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم (١٧٢٤٠)، والترمذي رقم (٣٥٧٨)، والحاكم في المستدرك رقم (١١٨٠).

(٢) أخرجه أحمد في المسند رقم (٢٣٠٠٥) ورقم (٢٣٠٥٣) من حديث بريدة رضي الله عنه.

(٣) سبق تخريجه.

وهـذا لـه نظـائر كثيـرة وقعـت مـن الصـحابة، ولكـنهم رضوان الله عليهم بعـد موتـه لم يذهب أحد منهم إلىٰ القبر فيطلب من الرسول ﷺ أن يشفع لـه أو أن يدعو لـه، وإنما وقع هذا في الخلوف التي جاءت فيما بعد عندما بعد عهد النبوة وحصل في الناس من الخلل في التوحيد، واختلط الحق بالباطل فطمع الشيطان فيهم، ثم فيما بعد في القرون المتأخرة بدأت عبادة القبور والتعلق بهم حتىٰ وصل الحال إلىٰ ما نحن عليه اليوم في أقطار كثيرة من أقطار المسلمين مع الأسف صاروا يتجهون إلىٰ الأموات ويدعونهم وينزلون بهم الحاجات ويطلبون منهم تفريج الكربات وكل هذا مناف للتوحيد الذي جاء به الرسول ﷺ.

قال المؤلف رحمه الله: فيه مسائل:

الأولى: التنبيه على تفسير «سبحان الله».

مقصوده في هذا أن هذا وقع فيه إخلال في حق الله جل وعلا فجاء بالتسبيح كما أنه جل وعلا إذا ذكر ما يقدح في حقه جل وعلا من المشركين يسبح نفسه: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧] وهذا مثله.

الثانية: أن المسلمين يسألونه الاستسقاء.

الاستسقاء وغيره، وهذا أمر مشهور، ولكن هذا كان في حياته ﷺ، أما بعد وفاته فلم يطمع الشيطان فيهم أن يسوِّل لهم أن يسألوا شيئًا لمعرفتهم التوحيد ومعرفتهم الحق الذي جاء به الرسول ﷺ.

الباب السادس والستـون

قال المؤلف رحمه الله: باب ما جاء في حماية المصطفىٰ ﷺ حمىٰ التوحيد وسده طرق الشرك.

هـذا البـاب مكـرر مـع البـاب الحـادي والعشـرين بـاب مـا جـاء في حمايـة المصطفىٰ ﷺ جناب التوحيد، وسده كل طريق يوصل إلىٰ الشرك. فكرره هنا لأن ذاك الباب ذكر فيه الأفعال، وهذا ذكر فيه الأقوال من المدح والإطراء، وللمغايرة جاء به وإلا فالمعنىٰ واحد.

والحمايـة هـي الصيانة عـن أن يـدخل شـيء فيـه مـن غيـره، وحمـىٰ التوحيـد جوانبه، وأما طرق الشرك فهي كثيرة، وفي هـذا البـاب ذكـر شيئًا مـن الأقـوال فقـط، وإلا فقد تقدم أشياء كثيرة.

والرسـول ﷺ سـد الطـرق التـي توصـل إلـىٰ الشـرك في الأقـوال والأفعـال والاعتقادات التي يمكن أنها تقع كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عـن النبي ﷺ قـال: «**يأتي الشيطان أحدكم فيقول من خلق كذا من خلق كذا حتىٰ يقول من خلق ربك؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته**»(١)، هذا من سد الطرق علىٰ الشيطان، يقول آمنت بالله ثم لينته، هذه الأذكار والأشياء التي يوسوس بها الشيطان.

والأفعال مثل النهي عن الصلاة في القبور، أو إليها وما أشبه ذلك وهذا كثير جدًا.

أما الأقوال ففي هذين الحديثين، الأول أنه نهىٰ أن يقال السيد، والثاني أن يقال أنت خيرنا وابن خيرنا.

---

(١) رواه البخاري رقم (٣٢٧٦)، ومسلم رقم (١٣٤).

وكذلك من هذا القبيل النهي عن المدح في الوجه والتمادح حتىٰ ولو لم يكن في الوجه كما ثبت في الصحيح أن الرسول ﷺ سمع رجلًا يثني علىٰ آخر فقال: «**ويلك قطعت عنق صاحبك قطعت عنق صاحبك**» مرارًا، ثم قال: «**من كان منكم مادحًا أخاه لا محالة فليقل أحسب فلانًا والله حسيبه ولا أزكي علىٰ الله أحدًا أحسبه كذا وكذا إن كان يعلم ذلك منه**»[1]، وفي صحيح مسلم قال ﷺ: «**إذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب**»[2]، وهذا علىٰ ظاهره؛ لأن المدح يفسد الأخلاق ويفسد النفوس؛ لأن النفس جبلت علىٰ حب الترفع والعلو علىٰ الناس، وكل إنسان يعرف ما في نفسه ولكنه إذا مدح يميل إلىٰ المدح ويقول: لعلي كذلك وإن كان يعرف أنه ليس كذلك، ويترتب علىٰ ذلك مفاسد عظيمة: مثل العلو والترفع علىٰ الناس وازدرائهم وغمط حقوقهم، وهذا إما أنه ينافي التوحيد أو ينقصه.

والمادح غالبًا أنه يقول ما ليس في الإنسان وكل من يمدحك في وجهك في شيء ليس فيك فإنه يقول في خلفك ما ليس فيك، هذا شيء واقع.

وكل هذا صيانة لعبودية النفس لأن الإنسان يجب أن يكون خاضعًا لربه ذالًّا له، ويجب أن يعود علىٰ نفسه بالازدراء في حقوق الله واحتقارها وأنها لا تساوي شيئًا، ولهذا لما قيل لطاووس رحمه الله: ماذا تقول إذا انتهيت من التهجد؟ فقال: ماذا عسىٰ أن أقول، أقول يا رب لا تمقتني. والمقت هو أشد البغض والكراهية، وهكذا كانت عادة السلف.

وفي هذا الباب أراد أن ينبه علىٰ هذه الأشياء وغيرها، مما فيه صيانة لدين الإنسان، بأنه لا يغتر بقول الناس، ولا يغتر بأفعالهم، ومعلوم أن الإنسان أعلم بنفسه من غيره فيجب أن يكون عبدًا لله جل وعلا، ولهذا كره الرسول ﷺ أن يقابل بالمدح فنهىٰ عنه.

---

(١) رواه البخاري رقم (٢٦٦٢)، ومسلم رقم (٣٠٠٠) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم رقم (٣٠٠٢) من حديث المقداد بن الأسود رضي الله عنه.

قال المؤلف رحمه الله: عن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه قال: انطلقت في وفد بني عامر إلىٰ رسول الله ﷺ فقلنا: أنت سيدنا، فقال: «السيد الله تبارك وتعالى»، قلنا: وأفضلنا فضلًا، وأعظمنا طولًا، فقال: «قولوا بقولكم أو بعض قولكم ولا يستجرينكم الشيطان» رواه أبو داود بسند جيد[١].

قوله: «انطلقت في وفد بني عامر»: الظاهر أن هذا في السنة التاسعة لأنها هي سنة الوفود؛ يعني: في آخر حياة الرسول ﷺ حيث أتىٰ وفود العرب ويختارون جماعة من مقدميهم ومن كبرائهم فيرسلونهم إلىٰ رسول الله ﷺ يخبرونه بأنهم علىٰ الطاعة وأنهم دخلوا في الإسلام ويريدون أن يتعلموا أوامر الرسول ﷺ، ولهذا يرسلهم إلىٰ قومهم بالأوامر التي يخبرهم بها.

قوله: «فقلنا: أنت سيدنا»: السيد: هو المقدم في القوم، وهو يضاف إلىٰ من يكون منهم؛ يعني: يقال: سيد بني تميم؛ يعني: من قبيلتهم، سيد قريش فلان، ولا يقال: سيد تميم كندي أو قرشي، هذه عادة العرب ولغتهم.

والسيد يطلق أيضًا علىٰ المولىٰ، وعلىٰ المالك، وله إطلاقات كثيرة.

والرسول ﷺ قال: «السيد الله تبارك وتعالى» لأنه جاء بـ (أل) التي تدل علىٰ الكمال والاستغراق، وهذا لا يكون إلا لله جل وعلا.

وقد اختلف العلماء في جواز إطلاق السيد علىٰ الله وكذلك علىٰ المخلوق. والصحيح أنه جائز وأنه يطلق علىٰ الله وعلىٰ المخلوق، وأن إطلاقه علىٰ الله يخالف إطلاقه علىٰ المخلوق، فإذا أطلق علىٰ الله فإنه يقصد به الكمال المطلق ولهذا جاء في تفسير قول الله جل وعلا: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا﴾ [الأنعام: ١٦٤] قال ابن عباس: سيدًا.

---

(١) رقم (٤٨٠٦).

وكذلك صح في معنىٰ قول الله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: ٢] أنه السيد الذي كمل في سؤدده[١].

وهنا يقول: «السيد الله»؛ يعني: الذي بلغ الكمال، السيادة؛ يعني: في الملك والتصرف والفضل علىٰ الخلق فإن فضله لا ينفك عن أحد طرفة عين.

أما إطلاقه علىٰ المخلوق، فالصحيح أنه يجوز أن يطلق عليه، ولكن لا يجوز أن يكون من باب الترفع والعلو، والتعاظم، فقد صح أن رسول الله ﷺ قال مخاطبًا الأنصار: «قوموا إلىٰ سيدكم»[٢]، يقصد سعد بن معاذ رضي الله عنه لما أرسله ليحكم في مواليه اليهود بني قريظة، وكان مصابًا في يده بجرح يوم الخندق وذلك أنه جاء راكبًا علىٰ حمار لأنهم طلبوا أن يحكم فيهم، فلما حضر إلىٰ معسكر الرسول ﷺ قال للأنصار: «قوموا إلىٰ سيدكم»؛ يعني: أنزلوه أو استقبلوه، والظاهر أنه لم يواجه سعدًا بذلك لأن المواجهة بمثل ذلك فيها محاذير.

فالنهي عن المواجهة في ذلك لأن النفس ضعيفة، ولهذا تجد الذين اعتادوا علىٰ سماع المدح هم الذين ألفوا علىٰ ذلك ولهم مثلًا مناصب، فالذي لا يمدح ولا يثني قد يمنعونه بعض حقه أو كله، أما بالنسبة لنفس الإنسان فالمفاسد أكثر، فلهذا يجب أن يبتعد عنه. وهذا من أوجه حماية التوحيد من هذه الألفاظ؛ لأن ذلك إما أن يذهب بكماله أو قد يذهب به كله فحمىٰ الرسول ﷺ هذا الجانب، من ألفاظ المدح والمقابلة بالثناء.

وصح أنه ﷺ قال: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»[٣]، ولا يعارض هذا الحديث لأن هذا يفهم منه النهي؛ يعني: لا تقولوا أنت سيدنا وليس بينهما معارضة، فهذا في

(١) تفسير ابن كثير (٨/ ٥٢٨) قال ابن عباس: هو السيد الذي قد كمل في سؤدده.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

المقابلة والمدح والثناء في الوجه وذلك إخبار بالواقع ولهذا قال ﷺ: «**ولا فخر**» أتدرون ما ذاك؟ ثم ذكر حديث الشفاعة، وهذا معناه أنه المقدم في هذا الأمر الذي أكرمه الله ﷻ به مع أن الأمر كله لله كما قال تعالىٰ: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـًٔا وَلَا يَعۡقِلُونَ ۝٤٣ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ [الزمر: ٤٣، ٤٤]، فهي له سبحانه ولكنه يكرم من يشاء فيأمره بالشفاعة فقط، وقبل أن يأمره لا يفعل. والرسول ﷺ أخبر بهذا حتىٰ يُعتقد ويُعلم؛ لأنه حكم شرعي فلا يكون معارضًا لهذا الحديث، وخبره ﷺ وإنكاره علىٰ بني عامر قولهم: «**أنت سيدنا**» مع أنه فيه دليل علىٰ جواز إطلاق هذا اللفظ علىٰ الله ﷻ، ولكن بوجود (أل) التي تدل علىٰ الاستغراق والكمال، ولهذا قال: «**السيد الله**»، وإذا صح القول عنه ﷺ يجب قبوله واعتقاد ما دل عليه.

قوله: «**وقلنا وأفضلنا فضلًا**»: وأنكر ذلك أيضًا وهذا يدلك علىٰ أن المقصود بالإنكار المواجهة بالمدح وأنه كره أن يكون هذا بين المؤمنين أن يواجه بعضهم بعضًا بالثناء والمدح، وهذه خصلة يجب أن تعلم لأنها واقعة في كثير من الناس، والذي يثنىٰ عليه يجب أن يكره هذا ويمنعه لنفسه لأنه يعود عليه بالضرر ويفسد النفس، وقد تكون بابًا في الدخول لما ينافي التوحيد؛ لأنها تدعو إلىٰ الكبر والترفع علىٰ الناس، وفي الحديث الصحيح: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرةٍ من كبر**»[1]، فهذا شيء عظيم، والكبرياء لله ﷻ، فمن نازع رب العالمين في صفة من صفاته فإنه يقذفه في النار.

وقولهم: «**أفضلنا فضلًا**» وهو بلا شك أفضل العباد، بل أفضل البشر ومع ذلك نهىٰ عن هذا، فيجب أن يحمل هذا علىٰ كراهة المواجهة في الثناء والمدح، فهو كره ذلك لنفسه، فإذا كان كره ذلك فكراهيته لغيره من باب أولىٰ، بل قد يكون

(١) رواه مسلم رقم (٩١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

محرمًا وهو الظاهر أنه من المحرمات حتىٰ أن المادح يقع في الإثم، وكذلك القابل لهذا المدح والساكت عليه يكون آثمًا؛ لأن هذا باب من أبواب انتقاص التوحيد أو إفساده وهذا يجب أن يصان.

ثم قال: «**وأعظمنا طولًا**»: الطول هو الفضل والإحسان والإنعام، فنهاهم أيضًا فقال: «**قولوا بقولكم أو بعض قولكم**» معنىٰ قولكم؛ يعني: ما تقولونه لبعضكم مع بعض؛ يعني: لا تأتوا بشيء يخصني.

ثم قال: «**ولا يستجرينكم الشيطان**»: يستجرينكم؛ يعني: لا يتخذكم مراكب يجريكم في الباطل؛ يعني: يجب أن تبتعدوا عن المدح والثناء في الوجه وحب ذلك فإن هذا من الأبواب التي يدخل منها الشيطان وهذا هو الشاهد لصيانة التوحيد وحمايته من أن يتطرق إليه شيء من شوائب الشرك.

وكذلك من الشواهد في الحديث للباب قوله: «**السيد الله**»، وكذلك قوله: «**أفضلنا فضلًا**» فهذه الثلاث في الحديث كلها شواهد للباب.

✍ قال المؤلف رحمه الله: وعن أنس رضي الله عنه أن ناسًا قالوا: يا رسول الله، يا خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا، فقال: «يا أيها الناس قولوا بقولكم، ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد عبد الله ورسوله، وما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل» رواه النسائي بسند جيد[1].

قوله: «**عن أنس أن ناسًا قالوا: يا رسول الله**».

قوله: «**يا خيرنا، وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا**»: أنكر قولهم هذا مثل الحديث السابق.

(١) النسائي في الكبرىٰ رقم (١٠٠٧٨)، وأحمد في المسند رقم (١٢٥٥١).

قوله: «أيها الناس قولوا بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان»: يستهوينكم مثل يستجرينكم؛ يعني: لا تكونوا سالكين في هواه ومراده تجرون في ذلك فلا يجوز أن تكونوا رسلًا للشيطان، ومعنىٰ هذا: اجتنبوا الأمور التي قد تقود إلىٰ فساد ومنها مقابلة الإنسان بالمدح.

وعرفنا أن العلة في هذا أن النفس تحب ذلك، وقد تستدعيه وإن كان باطلًا ثم تفسد عبوديتها لربها بوجود الكبر والترفع علىٰ الناس وازدرائهم.

وكذلك تفسد معاملته مع الناس بظلمهم ومنع حقهم لمن لم يثن بالباطل ويقابله بذلك كما هو الواقع.

ثم المحذور الذي هو أكبر من هذا الوقوع في شَرَكِ الشيطان، وكونه أخذ شيئًا من توحيد العبد إما تنقيصًا أو أخذه كله.

فالمدح باب في الدخول في المحذور وسيما المدح في الوجه، وكذلك المدح بالباطل وإن كان ليس في الوجه فإن هذا لا يجوز، فالمدح في الواقع منهي عنه مطلقًا، كما في صحيح البخاري، وسمعنا في الحديث أن رجلًا أثنىٰ علىٰ رجل وليس عنده قال له الرسول ﷺ: «**ويلك قطعت عنق صاحبك**»[١] وجاء في الحديث أنه لما تكلم رجل قال: «**لا يسمعك**» مع أن الصحابة ﵃ هم أكمل الأمة عقولًا ودينًا، وأتبع الأمة لرسولهم وأكملهم علمًا ومع ذلك نهىٰ الرسول ﷺ من مقابلة أحدهم بالمدح في هذا لأن هذا أمر يعم الخلق كلهم، وفيه صيانة دين الإنسان وهو المقصود بهذا.

وقوله ﷺ بعد هذا: «أنا محمد عبد الله ورسوله».

أما كونه محمدًا فهذا اسمه العَلَم الذي لا بد من ذكره عند التشهد

(١) سبق تخريجه.

وعند التعليم، فمثلًا لو سألت من نبيك؟ فلا تقول: رسول الله أو نبي الله هذا لا يعين أحدًا، لا بد أن تقول محمد رسول الله، ولهذا جاء في التشهد: «**أشهد أن محمدًا عبده ورسوله**»، وفي هذا الحديث قال: «**أنا محمد عبد الله ورسوله**» فكان يعلم ذلك الناس، وكان هو ﷺ إذا تشهد قال: «**أشهد أن محمدًا عبده ورسوله**» كما روىٰ ذلك الطحاوي وغيره.

فالمقصود أن ذكر الاسم العَلَم لأجل التعليم أمر ضروري لا بد منه، ولهذا قال: «**أنا محمد**» ولا يكون هذا مخالفًا لقول الله ﷻ: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣] جاء في التفسير؛ يعني: لا تقولوا محمدًا، قولوا: نبي الله، رسول الله، فهذا إذا قطعت الصفة قيل: محمد فهذا لا يجوز فلا بد من التعيين، تعيين الصفة كونه هو رسول الله وكونه عبده.

ثم يجب أن نتأمل جمعه ﷺ في هذا وفي غيره بين العبودية وبين الرسالة قال: «**أنا محمد عبد الله ورسوله**».

وقدم العبودية علىٰ الرسالة؛ يعني: أن مفهوم هذا: أنا عبد لله تحت عبوديته وأقوم بها وليس لي من الربوبية والألوهية شيء، وهذا أمر لازم.

وحسب الإنسان الكامل أن يقوم بالعبودية لله ﷻ، إذا قام بها فهو أكمل الناس والرسول ﷺ هو أكمل الخلق، وقد أثنىٰ الله ﷻ عليه بلفظ العبد في أشرف المقامات التي يقومها لله وهي:

مقام التحدي: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣]، فهذا من أشرف المقامات أنه أعطاه الآيات الكبرىٰ التي لا أحد يستطيع أن يأتي بشيء منها.

ومقام الإسراء والمعراج: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء: ١].

ومقام الإنزال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

ومقام الدعوة إليه: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩] يدعوه ويدعو إليه، فهذه كلها جاءت بلفظ العبودية.

ويضاف إلىٰ هذا أنه رسول الله حتىٰ ما يحصل الجفاء، ويجب أن يعرف حق الرسول ﷺ ولكن ما يعطىٰ شيئًا مما لله، حقوق الله يجب أن تكون لله ﷻ، وحقوق الله الربوبية والألوهية فليس له من ذلك شيء فهو عبد لله ﷻ تعبّده الله ﷻ فقام بالعبودية وقام بالرسالة وشرفه بها علىٰ الخلق، فهو المصطفىٰ صلوات الله وسلامه عليه، ولهذا مر معنا في أول الكتاب حديث عبادة بن الصامت وقوله ﷺ: «**من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله وأن عيسىٰ عبد الله ورسوله**»(١)، فهو لم يذكر في هذا الحديث إلا عيسىٰ عليه السلام وخصه بالذكر ليس لأنه هو الذي يليه من الرسل، ولكن من أجل أن عيسىٰ ضل فيه أهل الكتاب أو أكثرهم ضلوا فيه، فاليهود عليهم لعائن الله قالوا: هو ابن زانية وحاولوا قتله؛ فشبه لهم ألقىٰ الشبهة علىٰ رجل منهم فقتلوه وصلبوه وظنوا أنه عيسىٰ.

والنصارىٰ قالوا: إنه الله؛ يعني: رفعوه فوق منزلته، أو قالوا أنه ابن الله تعالىٰ وتقدس.

وطائفة أخرىٰ قالوا هو وأمه إلهين، ولهذا يسأله الله ﷻ يوم القيامة: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ

(١) سبق تخريجه.

﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦].

ولهذا خصه من بين الرسل من أجل ذلك؛ يعني: أنه يجب أن يعرف حق الرسول ولا يجوز أن يرفع فوق منزلته هذه.

ومعنىٰ هذا أن التوحيد لا بد منه وهو أن يكون الرب ﷻ هو الإله وهو المتصرف في كل شيء، وهو المالك لكل شيء، وكل من خلقه الله ﷻ من الملائكة ومن بني آدم ومن الجن ومن غيرهم مهما ارتفع علىٰ الناس بمعرفته وعلمه وعبادته والرسالة التي يكرمه الله بها فهو عبد لله، ولهذا أخبر أن الملائكة المقربين لا يستنكفون عن عبادته والاستنكاف هو الترفع والتكبر وأن من يستنكف عن عبادة الله يصليه نار جهنم.

ثم قال: «لا ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله ﷻ».

ومنزلته التي أنزله إياها هي العبودية والرسالة أكرمه بأن كمل له مقام العبودية وتفضل عليه بأن اصطفاه رسولًا إلىٰ الناس، هذه هي منزلته ﷺ فيجب أن تعرف ويقام بها فلا يجوز أن نسلك مسلك الجفاء الذي سلكه اليهود ولا مسلك الغلو الذي فعله النصارىٰ، مع أن الرسول ﷺ أخبر أننا سوف نتبع من كان قبلنا حذو القذة بالقذة، وهذا الحديث صححه العلماء والواقع يدل عليه حتىٰ بالغ في ذلك وقال: «**حتىٰ لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه**»(١)، وكونه خص الضب من بين الجحور لمعنىٰ موجود في الضب لا يوجد في غيره من الحيوانات التي تحفر الجحور، وذلك أن جحر الضب أعسر الجحور لأنه إذا حفر يحفر الجحر ملتوي ومتجهًا إلىٰ التحت، فهو صعب الدخول إليه، وقد أعطىٰ الله ﷻ كل شيء ما يحمي به نفسه فهذا من الحماية له، وهذا هو السر في تخصيص جحر الضب، والله أعلم.

---

(١) سبق تخريجه.

فالمقصود أن تخصيصه هذا يدل على المبالغة أننا سوف نتبع اليهود والنصارى في كل شيء، وجاء في رواية: «**حتى لو أن أحدهم أتى أمه على قارعة الطريق لكان في هذه الأمة من يصنع ذلك**»(١)، فهذا من أشد المبالغات.

وعلى هذا لا بد أن يوجد في هذه الأمة من يقول مثل ما قالت النصارى وكذلك يوجد فيهم من يقول مثل ما قالت اليهود، وقد وجد الذين يسبون الرسول ﷺ ويرمونه بالعظائم ووجد الذين يدعون أنه بمنزلة الله ﷻ فقط ما قالوا أنه الله أو أنه ابن الله أو أنه ثالث ثلاثة لكن أعطوه المعنى الذي قالته النصارى وهذا يكفي.

وهذا من كمال عبوديته صلوات الله وسلامه عليه وكمال نصحه للأمة وتبليغه ما أمره الله ﷻ به قال: «**ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله ﷻ**»، ومنزلته عرفناها أنها عبد الله ورسوله.

قال المؤلف رحمه الله: **فيه مسائل:**

الأولى: تحذير الناس من الغلو.

الغلو يكون في القول وفي الفعل، وهو مجاوزة الحد المشروع، بخلاف الجفاء فإن الجفاء ترك الواجب الذي يجب أن تفعله أو تتركه.

والغلو الزيادة على ما شرع، وطُلب من العبد فإذا زاد فقد غلا.

الثانية: ما ينبغي أن يقول من قيل له: «أنت سيدنا».

يعني: أن ينكر ذلك ويأباه هذا هو الذي ينبغي أن يقوله، وليس ذلك معنى أنه ينكره في لفظه وقوله ونفسه تحب هذا يجب أن يكون كارهًا لهذا الشيء مبغضًا له.

---

(١) سبق تخريجه.

❁ **الثالثة:** قوله: «**لا يستجرينكم الشيطان**» مع أنهم لم يقولوا إلا الحق.

الحق في الذي قالوا أنهم قالوا: أنت سيدنا و«**أفضلنا فضلًا**» وهذا حق، ومع هذا يقول: «**لا يستجرينكم الشيطان**»، ويستجرينكم؛ يعني: يتخذكم مراكب يجريكم في باطله. وهذا لا يكون إلا في الأمور التي ظاهرها جائزة، ولكن تؤول إلىٰ أمر يحبه الشيطان.

❁ **الرابعة:** قوله: «**ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي**».

ومنزلته أنه عبد الله ورسوله؛ فيجب أن يجمع له بين العبودية والرسالة، مع أنه يجب أن يُحب أكثر من حب الإنسان لنفسه ولولده والناس أجمعين، ولكن محبته تكون تبعًا لمحبة الله مكملة لمحبة الله لأنه يحب في الله ولله، ولا تكون المحبة مثل ما يقع لكثير من الناس يحبه مع الله فإن هذه محبة شركية.

الفرق بين هذه وهذه أن الأولىٰ تدل علىٰ المتابعة فيكون الإنسان حريصًا علىٰ متابعة الرسول ﷺ، والثانية تجده يبحث عن البدع ويعظمها ويكون حبه حب تأله وتعظيم وليس حبًا لله لأن الله يحبه ولأن الله أمر بحبه.

الباب السابع والستون

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **باب ما جاء في قوله تعالى:** ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

أراد المؤلف رحمه الله أن يذكر شيئًا مما يدل على عظمة الله وكبريائه وخضوع جميع المخلوقات له وأنها صغيرة بالنسبة إليه حقيرة جدًا، كلها كأنها بعوضة حتى يتبين بهذا أن المشرك قد ضل ضلالًا بعيدًا حيث اتجه بالعبادة إلى مخلوق صغير حقير لا يملك نفعًا وضرًا.

وكذلك ليختم بالقسم الثالث من أقسام التوحيد الذي هو توحيد الله جل جلاله بأسمائه وصفاته وأفعاله، فإنه واحد في ذلك لا شريك له فيه حتى يكون المسلم جامعًا بين العبادة كلها التي كلفه الله بها.

وحتى يتبين خضوع المخلوقات جميعها وذلها له، وأنه الكبير المتعال، الذي يقبض السماوات كلها فتكون بكفه مثل الخردلة.

وأراد إثبات عظمة الله مع علوه على خلقه لأن هذا ينكره كثير من الناس والمقصود بالناس العلماء الذين يسمون أنفسهم أهل السُّنَّة، وهم علماء الأشاعرة.

أما أهل الضلال مثل المعتزلة والرافضة فهؤلاء لا عبرة فيهم وهم ليسوا من العلماء أصلًا لأن العلم ليس جمع معلومات وتخزينها في الدماغ وإنما العلم هو امتثال أمر الله وخشيته واتباع أمره وخوفه، وإذا لم يكن كذلك فليس بعالم كما قال تعالى:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، فكل من لم يخش الله فليس من العلماء؛ لأن العلم لا يزيده إلا ضلالًا ولا يزيده إلا بعدًا من الله -نسأل الله العافية- كما هو الواقع، فالضال من العلماء أسوأ حالًا من الكافرين، فهو ملعون بلسان كل مخلوق.

وقوله ﷻ: «﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾»: قدروا؛ يعني: ما عرفوا عظمة الله، ما عظموه ووقروه كما قال ﷻ: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣] فذكر شيئًا من فعله الذي يدل على عظمته؛ لأنهم يعرفون هذه الأشياء المشاهدة ولهذا قال: «﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾»، القبضة معروفة أنها تكون في يده؛ يعني: أن يده تأتي عليها من جميع الجهات، فالله يقبض الأرض وكل ما فيها من بحار وجبال وخلائق وتكون صغيرة في يده ﷻ كالخردلة.

قوله: «﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾»: هذا يعطينا أن السماوات مبنية، وأن لها كثافة، وأن لها ثقل، ولها سعة والناس اليوم الذين ينظرون إلى ما يقوله الكفار يقولون أنه ليس هناك سماء، وإنما هي نجوم تسبح في الفضاء فقط، أما أن يكون هناك سماء مبنية فلا وجود لها فيصدقونهم في هذا، مع أن هذا كذب ظاهر، والله ﷻ أمرنا أن نعتبر في السماء: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦]، فهل يأمرنا أن ننظر إلى الفضاء فقط إلى ما لا حقيقة له، والرسول ﷺ عرج به إلى السماء واستفتحت أبواب السماء له مع صحبة جبريل عليه السلام، وقد أخبرنا الله ﷻ أن السماء لها أبواب وأنها لا تفتح للكافرين، وفي حديث البراء بن عازب في قبض الروح وصعود الملائكة بها إلى السماء والأدلة على هذا كثيرة، وهذه هي عقيدة المؤمنين أن السماوات هي أعظم المخلوقات كما قال ﷻ: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].

ومعلوم في العقل أن القادر على الكبير لا يعجزه الصغير، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾، فإذا كان هذا شيء من عظمته فكيف مقام الذي يتجه إلى القبر مخلوق ضعيف مرتهن بأعماله يدعوه كما يدعو رب العالمين!! بهذا يتبين أن المشرك هو أسوأ حالًا من المخلوقات كلها، ولهذا حرم الله عليه الجنة وجعله خالدًا في جهنم لأن هذا جزاءه؛ ولأنه أعطي عقلًا فلم ينتفع به ونصبت له الأدلة فلم ينتفع بها وأرسلت إليه الرسل، وأنزلت عليه الكتب فلم ينتفع بذلك، فصار جزاؤه أنه يكون أسفل سافلين.

قوله ﷻ: «﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾»؛ يعني: أن هذا يكون يوم القيامة، أن الله يقبض الأرض وكذلك السماوات، والآية فيها صفة القبض، والقبض يكون باليد ففيها إثبات اليد، وأن اليد يقبض بها ﷻ ما يشاء، وله يدان كم صرح بذلك في كتاب الله في آيات كثيرة.

قوله: «﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾»: يشركون به، فيجعلون له شريكًا في الطلب والقصد والعبادة، وهذا يتعالى الله عنه ويتقدس، ولهذا صار الشرك من أعظم الذنوب، ومن فعله فإن الله يحرم عليه الجنة، إذا لم يتب منه.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **عن ابن مسعود** رضي الله عنه **قال: جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد إنا نجد أن الله يجعل السماوات على إصبع والأرضين على إصبع والشجر على إصبع والماء والثرى على إصبع وسائر الخلائق على إصبع فيقول: أنا الملك، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقًا لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله ﷺ:** ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ

وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر: ٦٧][(١)].

قوله: «حبر من الأحبار»: والحبر هو العالم، سمي حبرًا لأنه يكتب بالحبر. والكتابة أصلها بالحبر، وأصل العلم الكتابة كما قال ﷻ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ [العلق: ١-٤]، فمنَّ الله على عباده أن علمهم وأول تعليم الإنسان الكتابة حتى يعرف المبادئ شيئًا فشيئًا حتى يكون حبرًا.

والراهب هو العابد ولا يلزم أن يكون عالمًا، وقد يكون عالمًا.

والغالب أن الأحبار من اليهود، والرهبان من النصارى، ولهذا قال: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١].

قوله: «فقال: يا محمد»: انظر كيف تعنت اليهود وكبريائهم وخبثهم، يخاطب الرسول ﷺ باسمه العلم يا محمد، ولا يتنزل أن يقول: يا رسول الله. الظاهر أنه جاء ليظهر علمه عند رسول الله ﷺ فقط لأن هذا هو الذي يليق باليهود.

قوله: «إنا نجد»؛ يعني: في كتاب الله الذي أنزله على موسى، أو غيره من الكتب التي أنزلت على بني إسرائيل.

قوله: «أن الله يجعل السماوات على إصبع»: وفي رواية: «**يضع السماء على إصبع**»[(٢)]، وهذا هو الصحيح، ولكن «يجعل» جاء في رواية.

قوله: «السماوات»: هنا جمع؛ يعني: جميع السماوات السبع وقد علم أن السماوات واسعة جدًا، فالسماء الدنيا تحيط بالأرض من جميع الجهات، والأرض كأنها بيضة في قلب السماء؛ يعني: صغيرة جدًا بالنسبة للسماء ثم السماء الثانية

(١) رواه البخاري رقم (٤٨١١)، ومسلم رقم (٢٧٨٦).
(٢) رواه البخاري رقم (٧٤٥١).

محيطة بالسماء الدنيا مثل إحاطة السماء الدنيا بالأرض، وهكذا جميع السماوات كل واحدة تحيط بالتي تحتها.

فأوسع السماوات وأكبرها السماء السابعة وفوق السماء السابعة الجنة، ولهذا أخبر ﷻ أن الجنة عرضها السماوات والأرض؛ فالجنة أوسع من السماوات كلها وأوسع من الأرض لأنه ذكر العرض فقط.

فالذي فوق السماء السابعة مسافات شاسعة جدًا وبها الجنان التي سيُسكِنها رب العالمين عباده المتقين وهي مسكنهم إلىٰ أبد الآبدين.

أما جهنم فهي في أسفل سافلين، ومع كونها في أسفل سافلين إذا أراد الله ﷻ أن يُري عباده المتقين الذين في الجنة من في النار فهذا سهل ميسور؛ لأن الله لا يعجزه شيء، ولهذا ذكر الله ﷻ عن رجل من أهل الجنة: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾﴾؛ يعني: المصدقين بالرسل ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾﴾؛ يعني: مطلعون في النار ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾﴾ رآه في سواء الجحيم وهو في أعلىٰ عليين فخاطبه: ﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ [الصافات: ٥٠- ٥٧]؛ يعني: معك في النار.

وكذلك ما ذكره الله ﷻ من خطاب أهل الجنة لأهل النار ومناداتهم، وكذلك مناداة أهل النار لأهل الجنة فهم يسمعون ذلك ويشاهدونه مع المسافات الشاسعة جدًا.

وأخبر الله ﷻ أن المتقين لا يسمعون حسيس النار لأن سماع الحسيس هذا يخيف.

فالمقصود ذكر كبر السماوات فهي كبيرة جدًا، ومع هذا الكبر العظيم والسعة الهائلة التي قد لا يتصورها الإنسان يضعها كلها علىٰ إصبع ولو شاء الله ﷻ لوضع

مخلوقاته كلها على إصبع، السماوات والأرض ومن فيها كلهم وتكون بالنسبة إليه صغيرة فهو ﷻ لا يعجزه شيء.

ولكن هذه الأمور يجب أن يستحضرها الإنسان ولا سيما إذا كان يخالف أمر الله ويعصي فيستحضر ذلك ويعلم أنه يراقبه ويشاهده؛ حتى ينزع عن المعاصي ويخاف من كانت هذه بعض عظمته في الحديث يقول: «**يجعل السماوات على إصبع والأرضين على إصبع والشجر على إصبع والماء والثراء على إصبع، وسائر الخلق على إصبع**».

سائر: يعني باقي المخلوقات؛ فكملت المخلوقات كلها، ووضعها على أصابعه الخمسة في يد واحدة، واليد الأخرى فارغة، ولهذا روى ابن جرير في تفسير هذه الآية عن ابن عباس أنه قال: قد قبض الأرضين والسموات جميعًا بيمينه. ألم تسمع أنه قال: ﴿مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ يعني: الأرض والسموات بيمينه جميعًا، قال ابن عباس: وإنما يستعين بشماله المشغولة يمينه(١).

وهذا الكلام لا يقال بالرأي والقياس؛ لأن هذا من صفات الله التي تتطلب مجيء النص بالوحي، فلا بد أنه أخذه عن رسول الله ﷺ، ولو شاء الله ﷻ لجمع جميع مخلوقاته على إصبع واحدة من أصابعه الكريمة -تعالىٰ وتقدس- فالله على كل شيء قدير، ولكن حتى يعلمنا أن له يدين، وأن لهما أصابع وأنه يقبض بهما وأن المخلوقات تكون في يده صغيرة، وكل هذه الألفاظ لا يستطيع سماعها أهل التعطيل وأهل التحريف ويجعلون من يقرها على ظاهرها مشبهًا غير أنهم لا يستطيعون أن يصفوا الرسول ﷺ بأنه مشبه، وهذا مستقر في نفوسهم ولكنهم لا يتكلمون به في بألسنتهم، وقد فاه بعضهم بأن بعض الأنبياء مشبه.

(١) تفسير الطبري (٢١/ ٣٢٤).

ثم فيه إثبات الشمال، كما جاء في رواية صحيحة، رواه ابن جرير رحمه الله وسيأتي في رواية مسلم ذكر الشمال. وبهذا يتبين خطأ من قال أن هذا شاذ لأن الشذوذ معناه أن يخالف النصوص ليس فيه مخالفة.

قوله: «فضحك النبي ﷺ حتىٰ بدت نواجذه»: الضحك يكون لشيء مفرح، أو الشيء المعجب، إما أنه يفرح بذلك أو أنه يعجب منه والرسول ﷺ كان يعجبه أن يأتي شيء عن الرسل المتقدمة بمثل ما جاء به؛ لأن تضافر الأدلة وكثرتها يؤيد الحق ويبينه ويزيده قوة هذا هو السبب.

ومن العجب أن أحد شراح البخاري الذين لهم مواقف في العلم أنكر هذا الحديث أشد الإنكار -نسأل الله العافية- ولكنها المذاهب والتقاليد فقال: إنه ليس في كتاب الله ولا في سُنَّة رسوله ذكر الأصابع.

ثم قال: فإن قيل قول ابن مسعود: «فضحك النبي ﷺ حتىٰ بدت نواجذه تصديقًا لقول الحبر» قال: أما ضحك الرسول ﷺ فمن جرأة اليهودي علىٰ التشبيه.

وأما قول ابن مسعود: «**تصديقًا لقول الحبر**» فهو ظنًا منه وحسبانًا؛ يعني: أن ابن مسعود أخطأ فما فهم مراد الرسول ﷺ. فأي قدر للصحابة عند هذا القائل بل أي قدر لرسول الله ﷺ عند هذا القائل الذي يجعله يضحك من الكفر. المعروف أن رسول الله ﷺ إذا رأىٰ الباطل أو سمعه فلا أحد يقوم لغضبه حتىٰ ينتقم لله جل وعلا، أما أنه يعهد أنه يضحك للكفر فهذا قد يجعل الإنسان في حرج كبير جدًا، إن لم يقال أن إيمانه فيه شك، ولكن هكذا تصنع المذاهب والآراء بالناس حتىٰ تغطي عقولهم، وكذلك تعظيم الرجال والمذاهب تغطي العقول وتجعل العقول لا تفقه ولا تعي -نسأل الله العافية- بل تحملها علىٰ التأويل الباطل قطعًا.

أقول هذا من أجل التنبيه فقط؛ لأن الإنسان لا يجوز أن يغتر بمن يأتي بخلاف النصوص مهما كان موقفه ومهما كان قدره؛ لأنه لا يمكن أحد من الناس بعد رسول الله ﷺ أن يكون معصومًا من الخطأ، وإنما العصمة لرسول الله ﷺ فقط، ثم الحق يدور مع الكتاب والسُّنَّة والرسول ﷺ أُعْطِيَ البلاغة والفصاحة والقدرة على البيان أكثر من غيره، كما أنه هو الناصح الأمين وهو أعلم الخلق بالله ﷻ، فكيف مع هذه العوامل وهذه الأسباب يقول أنه ضحك من أجل كفر اليهود فهذا فيه معتبر لمن يعتبر.

وهذا الحديث لم ينفرد ابن مسعود بروايته، بل رواه ابن عباس وأبو هريرة ورواه عدد، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية إنه متواتر.

والحديث لو لم يكن متواترًا وثبت بسند صحيح وجب العمل به والإيمان به، ووجب نبذ كل ما خالفه مهما كان القائل.

وقوله: «ثم قرأ»: في رواية: «فنزل قول الله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾[1] ولكن هذا فيه إشكال قوله: «فنزل» ووجه الإشكال أن السورة مكية وهي سورة الزمر، وهذه القصة وقعت في المدينة كما جاء مصرحًا بذلك.

ثم هذا الحديث، جاء برواية ابن عباس بالإشارة قال: مر يهودي برسول الله ﷺ وهو جالس فقال: كيف تقول يا أبا القاسم يوم يجعل الله ﷻ السماء على ذه وأشار بالسبابة والأرض على ذه والماء على ذه والجبال على ذه وسائر الخلائق على ذه، كل ذلك يشير بإصبعه، قال فأنزل الله ﷻ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ الآية[2].

(١) أخرجه أحمد في المسند رقم (٣٥٩٠)، والنسائي رقم (٧٧٣٦).
(٢) أخرجه أحمد في المسند رقم (٢٩٨٨).

رواه الأئمة بالتسلسل؛ يعني: صار الذي روىٰ عن ابن عباس يشير مثل ما أشار هذا الحبر عند النبي ﷺ وأقره علىٰ ذلك، وهكذا إلىٰ أن رواه عبد الله ابن الإمام أحمد في كتاب السُّنَّة بالإشارة عن أبيه، أن أباه كان يشير مثل ما أشار، وهذا يسميه العلماء التسلسل، وليس معنىٰ ذلك كما يقول الأشاعرة وغيرهم يقولون أنكم تشبهون، يقول تشيرون بالأصابع إلىٰ العين وإلىٰ الأذن وهذا تشبيه والتشبيه كفر.

نقول أن هذه الإشارة للتحقق، لتحقيق الصفة وليست للتمثيل، وإلا كل عاقل يعلم الفرق العظيم بين رب العالمين وبين المخلوق الصغير الحقير، وقد قال الله ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١] فهو ليس كمثله شيء في كل صفاته وفي أفعاله وفي ذاته ﷻ وفي ما يلزم له.

✍ قال المؤلف رحمه الله: وفي رواية لمسلم: «والجبال والشجر علىٰ إصبع ثم يهزهن فيقول: أنا الملك، أنا الله»[١].

المقصود هنا ذكر الهز «**يهزهن**»، وجاء في رواية أن هذا عندما يموت الناس كلهم وأن الله يقول: «**لمن الملك اليوم لمن الملك اليوم؟ فلا يجيبه أحد -لأن الخلق كلهم ماتوا حتىٰ الملائكة- ثم يقول لنفسه: لله الواحد القهار ثم يطوي الله السماوات والأرض**»[٢]، وفي هذا أبلغ الرد علىٰ الجهمية وأضرابهم ومن سلك طريقهم وهو الذي يجب أن يعتقده المسلمون.

✍ قال المؤلف رحمه الله: وفي رواية للبخاري: «يجعل السماوات علىٰ إصبع والماء والثرىٰ علىٰ إصبع، وسائر خلقه علىٰ إصبع» أخرجاه[٣].

(١) رواه البخاري رقم (٧٥١٣)، ومسلم رقم (٢٧٨٦)، وهذا اللفظ في شرح السُّنَّة للبغوي.
(٢) مسند إسحاق بن راهويه (١/ ٨٧).
(٣) رواه البخاري رقم (٧٤٥١)، ومسلم رقم (٢٧٨٦).

ولمسلم عن ابن عمر مرفوعًا: قال رسول الله ﷺ: «**يطوي الله ﷻ السماوات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين السبع، ثم يأخذهن بشماله ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟**»(١).

قوله: «**يطوي الله السماوات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى**»: هذا فيه إثبات اليد اليمنى.

قوله: «**ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟**»: وهذا السؤال فيه التهديد والوعيد لمن أشرك بالله أو كذب رسله.

قوله: «**ثم يطوي الأرضين السبع ثم يأخذهن بشماله**»: ففي هذا التصريح بذكر الشمال.

قوله: «**ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟**»: قد يأتي سؤال هنا فيقال: هنا ذكر اليمين وذكر الشمال فكيف نقول بقوله ﷺ: «**كلتا يدي ربي يمين**»(٢)، وهذا جاء فيه أحاديث متعددة.

فالجواب أن قوله ﷺ: «**كلتا يدي ربي يمين**» معناه كلتا يدي الله ﷻ تامة كاملة لا يلحقها نقص ولا عيب، فلا يتصور أن شماله ﷻ كشمال المخلوق، لأن شمال المخلوق تكون ناقصة واليمين أكمل منها، وهذا المفهوم هو الذي نفي في قوله ﷺ: «**كلتا يدي ربي يمين**»؛ يعني: كاملة تامة. ولا يجوز أن يعتقد أن كلتا يدي الله ﷻ من جهة واحدة تعالى الله وتقدس فإن هذا شوهة، والذي يقول مثل هذا قد يكون للكفر أقرب منه إلى التوحيد.

---

(١) رواه مسلم رقم (٢٧٨٨).

(٢) أخرجه الترمذي رقم (٣٣٦٨)، والبيهقي رقم (٢١٠٢٥)، والحاكم رقم (٢١٤) وصححه ووافقه الذهبي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قوله: «أنا الملك»: لأن الأمر في هذا واضح، في ذلك اليوم، أصبح الملك كله له والملوك ومن يملك الدنيا ذهبوا، فأتاه الناس فرادىٰ كما ولدتهم أمهاتهم ليس معهم شيء حتىٰ الثياب، فيظهر ملك الله جليًا.

✍ قال المؤلف رحمه الله: وروي عن ابن عباس: «ما السموات السبع والأرضون السبع في يد الله إلا كخردلة في يد أحدكم»(١).

فيه أنها صغيرة بالنسبة إليه، وفيه أن التمثيل للتقريب والتحقيق، ثم يجب أن نعلم أن هذا لا يجوز أن يقوله ابن عباس برأيه لا هو ولا غيره فلا بد أن يكون مرويًا عن الرسول ﷺ.

✍ وقال المؤلف رحمه الله: وقال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب قال ابن زيد: حدثني أبي قال: قال رسول الله ﷺ: «ما السماوات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في تُرْسٍ».

قال: وقال أبو ذر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض»(٢).

الترس: المكان المرتفع، إما جبل، أو كثيب. والدراهم السبعة لا تمثل شيئًا بالنسبة للترس، ولكن جاء ما هو أبلغ من هذا جاء أنها في أرض فلاة كدراهم سبعة ألقيت في فلاة، فأي نسبة لهذه الدراهم في الأرض الفلاة.

وقوله: «قال أبو ذر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض»».

---

(١) تفسير الطبري (٢١/ ٣٢٤).
(٢) تفسير الطبري (٥/ ٣٩٩).

«الكرسي»: بعض الناس زعم أنه العلم، هذا يروىٰ عن ابن عباس ولكنه لا يثبت.

والصحيح أن الكرسي ليس هو العلم، بل هو مخلوق من المخلوقات وهو تحت العرش، وقد جاء عن ابن عباس بأنه كالمرقاة تحت العرش.

وفي موضع قال: موضع قدمي الرحمن(١). والعرش استوىٰ عليه رب العالمين تعالىٰ وتقدس.

✍ قال المؤلف رحمه الله: وعن ابن مسعود قال: «بين السماء الدنيا والتي تليها خمسمائة عام، وبين كل سماء وسماء خمسمائة عام، وبين السماء السابعة والكرسي خمسمائة عام، وبين الكرسي والماء خمسمائة عام، والعرش فوق الماء، والله فوق العرش لا يخفىٰ عليه شيء من أعمالكم»، أخرجه ابن مهدي عن حماد بن سلمة عن عاصم عن زر عن عبد الله، ورواه بنحوه المسعودي عن عاصم عن أبي وائل عن عبد الله، قاله الحافظ الذهبي -رحمه الله- قال: وله طرق(٢).

قوله: «بين السماء والأرض»: ذكر هذه المسافات وقد جاءت مختلفة في الأحاديث، وهذا الحديث يقصد به إثبات علو الله تعالىٰ والرد علىٰ المنكرين لذلك من الجهمية، وكل هذه الأحاديث ونحوها ردها أهل البدع وكذبوها ومنهم الأشاعرة لأنها تبطل مذهبهم، والواقع أن القرآن يبطل مذهبهم، وكذلك أحاديث رسول الله ﷺ، بل كل ما جاءت به الرسل يبطل مذهبهم.

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٦٨٠) عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: الكرسي موضع القدمين، والعرش لا يقدر أحد قدره.

(٢) أخرجه الطبراني رقم (٨٩٨٧)، وابن خزيمة في كتاب التوحيد رقم (٥٥١)، وقال الذهبي في كتاب العلو للعلي الغفار ص(٧٩): إسناده صحيح.

وهذه الأحاديث فيها اختلاف في المسافة لأنه جاء فيها سبعمائة عام وجاء خمسمائة عام وأجاب أهل العلم عن هذا أن هذه المسافات والمقادير بالنسبة للسير، والسير ليس سواء كما هو معروف، فهذا يجعل المسافة من مصر إلىٰ المدينة سبعة أيام، وقد يكون أقل من هذه قد يكون خمسة أيام، ولكن الإبل إذا حملت فإنها تسير شهرًا، والخطاب للشيء المعلوم، للذين يخاطبهم الرسول ﷺ يعرفون هذا وهو ﷺ يخاطب الناس بما يعرفون فذكر المسافات التي بين الأرض وبين العرش وأنها مسافات شاسعة جدًا، ولكن هذا كله من باب التقريب.

وجواب آخر أن هذا ليس بالتحديد وإنما هو بالتقريب فقط، فليس المقصود سبعمائة عام فقط قد يكون أكثر بل آلاف السنين التي لا يعلمها إلا الله.

ومع هذه المسافة الشاسعة الهائلة جدًا التي لا يمكن لا لصواريخ ولا لغيرها أن تصل إليها يأتي الملك بلحظة من عند الله ﷻ في لحظات ينزل جبريل وكذلك الروح إذا قبضت تصعد إما أن تصل إلىٰ السماء الدنيا فتغلق عنها أبواب السماء وتطرح، أو تفتح لها أبواب السماء كلها، من سماء إلىٰ سماء إلىٰ أن تصل إلىٰ السماء السابعة ولكنها مع الملائكة، فهناك يخاطب الله الملائكة الذين يحملونها ويقول لهم: «**اكتبوا كتاب عبدي في عليين وأعيدوه إلىٰ الأرض فمنها خلقتهم وإليها أعيدهم ومنها أخرجهم تارةً أخرىٰ**»(١)، فيعيدونه إلىٰ الأرض خلال ما يغسل ويصلىٰ عليه فقط، فإذا وضع في قبره أعيدت روحه في بدنه وجاءه الملكان يسألانه كما جاء تفصيل ذلك، فهذا يدل كله علىٰ قدرة الله ﷻ.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله **: وعن العباس بن عبد المطلب** رضي الله عنه **قال: قال رسول الله** ﷺ**: «هل تدرون كم بين السماء والأرض؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «بينهما مسيرة**

(١) رواه الإمام أحمد في المسند رقم (١٨٥٥٧).

خمسمائة سنة، ومن كل سماء إلىٰ سماء مسيرة خمسمائة سنة، وكثف كل سماء مسيرة خمسمائة سنة، وبين السماء السابعة والعرش بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض، والله ﷻ فوق ذلك وليس يخفىٰ عليه شيء من أعمال بني آدم» أخرجه أبو داود وغيره(١).

وحديث عبد المطلب هذا جاء من رواية ابن إسحاق، وابن إسحاق قالوا أنه مدلس وقد دافع عنه ابن القيم في كتابه تهذيب السنن.

قوله: «أتدرون كم بين السماء والأرض؟ قلنا: الله ورسوله أعلم» الخ: فالمقصود ذكر علو الله وأنه فوق عرشه ويعلم ما الخلق عليه لا يخفىٰ عليه شيء لا كبير ولا صغير وهو فوق عرشه، وعرشه هو سقف المخلوقات كلها مع هذه المسافات الهائلة التي قد لا يتصورها الإنسان.

والآن كما هو معلوم الكفار الذين أعطاهم الله ﷻ شيئًا من المقدرة والاختراعات وصاروا يطلقون الصواريخ إلىٰ مسافات بعيدة ولكنهم إلىٰ الآن وإلىٰ الأبد جند مهزوم لا يصلون إلىٰ شيء من السماء، وهم يقولون هذه التي فوقنا هي فضاء عظيم يتسع وينكرون أن تكون هناك سماء مبنية لأنهم لا يشاهدونها، وهذا لا يمكن لأن بينهم وبينها أبعاد بعيدة في المسيرات، فهم وصناعاتهم ضعفاء بالنسبة إلىٰ خلق الله، وهم لا يصدقون إلا بالمشاهدات ومع ذلك نقول أن هذا الذي نشاهده الذي فوقنا هو السماء لأن الله أمرنا بالنظر إليها قال: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦] والله تعالىٰ لا يأمرنا أن نشاهد شيئًا لا وجود له، ولا يجوز للمسلم أن يغتر بأقوالهم مما يذكرونه للمسلمين،

(١) رقم (٤٧٢٣) وفي لفظه اختلاف، وأخرجه أحمد في المسند رقم (١٧٧٠) وفيه زيادة، وأخرجه الحاكم في المستدرك رقم (٣٥٤٧) نفس اللفظ وصححه وخالفه الذهبي.

إما ليفسدوا عقائدهم ويخلخلوا دينهم أو لأمور أخرىٰ غير هذا، فنحن نأخذ ديننا عن ربنا ﷻ وعن رسوله ﷺ.

✍ **قال المؤلف** رحمه الله: **فيه مسائل:**

❁ **الأولى:** أن هذه العلوم وأمثالها باقية عند اليهود الذين في زمنه ﷺ ولم ينكروها ولم يتأولوها.

يعني: صفات الله ﷻ لأنهم لا حاجة لهم في تأويلها وفي جحدها وإنما يجحدون الشيء الذي لهم فيه حظ من أمور الدنيا أو المناصب أو ما أشبه ذلك.

❁ **الثانية:** أن الحبر لما ذكر للنبي ﷺ صدقه، ونزل القرآن بتقرير ذلك.

قد تنزل الآية في المدينة ويكون موضوعها في سورة مكية وبالعكس.

❁ **الثالثة:** وقوع الضحك من رسول الله ﷺ لما ذكر الحبر هذا العلم العظيم.

والسبب في ضحكه ﷺ كما قال ابن مسعود: «تصديقًا لما قال»، فضحكه للتصديق ولأنه وافق ما جاء به من عند الله.

❁ **الرابعة:** التصريح بذكر اليدين، وأن السماوات في اليد اليمنى والأرضين في الأخرى.

❁ **الخامسة:** التصريح بتسميتها الشمال.

يعني: يجب أنه يؤمن بها، وأن الله له يدان يمين وشمال، وقد جاء ذكر اليدين في آيات كثيرة، أما الأحاديث فأكثر.

❁ **السادسة:** ذكر الجبارين والمتكبرين عند ذلك.

ذكرهم لإهانتهم ولعذابهم ولهذا يكونون أمثال الذر يطؤهم الناس بأقدامهم.

❁ **السابعة:** قوله: «كخردلة في كف أحدكم».

يعني: أن هذا ليس تمثيلًا ولا تشبيهًا وإنما هو للتحقيق الصفة وتقريب المعنىٰ، وهذا مثل ما جاء في حديث أبي هريرة وغيره أن الرسول ﷺ لما قرأ ما قرأ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ١٣٤] وضع إصبعه علىٰ أذنه والأخرىٰ علىٰ عينه؛ يعني: تحقيقًا للصفة وليس للتشبيه(١).

❁ **الثامنة:** أن العرش غير الكرسي والماء.

يعني: أن هذا إشارة إلىٰ رد قول من قال أن الكرسي هو العلم كما قال تعالىٰ: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فالصحيح أنه غير العلم، ولو كان العلم لكان في الآية تكرار فيجب أن ينزه كلام الله عنه.

❁ **التاسعة:** كم بين كل سماء إلى سماء.

يعني: أن هذا للتقريب فقط، للفهم وإلا ليس هذا للتحديد بالضبط وقد قال الله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الحديد: ٤]، أما الآية الأخرىٰ التي فيها ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥] فهذا واضح في أنها المسافة بين الأرض وبين السماء.

❁ **العاشرة:** كم بين السماء السابعة والكرسي.

يعني: حسب الذي ذكر في الحديث.

---

(١) رواه أبو داود رقم (٤٧٢٨) عن سليم بن جبير مولىٰ أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت أبا هريرة يقرأ هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨]، قال: رأيت رسول الله ﷺ يضع إبهامه علىٰ أذنه والتي تليها علىٰ عينه قال أبو هريرة: رأيت رسول الله ﷺ يقرؤها ويضع إصبعيه، قال ابن يونس: قال المقري: يعني إن الله سميع بصير يعني أن لله سمعًا وبصرًا. قال أبو داود: وهذا رد علىٰ الجهمية.

الحادية عشر: أن العرش فوق الماء.

العرش فوق الماء، الماء الذي كثفه مثل كثف السماء وهو أوسع من السماء والعرش فوقه، وهو أكبر المخلوقات على الإطلاق وليس فوق العرش مخلوق، وإنما فوقه رب العالمين ﷻ، المخلوقات تنتهي إلى العرش.

الثانية عشر: أن الله فوق العرش.

ولا يخفى عليه شيء من أعمال عباده.

الثالثة عشر: كثف كل سماء خمسمائة سنة.

يعني: أن المسافة خمسمائة عام وكثافتها خمسمائة، فتكون ألف سنة.

فهرس المحتويات

المحتويات الصفحة

الباب التاسع والعشرون ٥
الباب الثلاثون ٢٨
الباب الواحد والثلاثون ٥٤
الباب الثاني والثلاثون ٨٨
الباب الثالث والثلاثون ١١٩
الباب الرابع والثلاثون ١٣٧
الباب الخامس والثلاثون ١٥٩
الباب السادس والثلاثون ١٨٠
الباب السابع والثلاثون ١٩٨
الباب الثامن والثلاثون ٢١٣
الباب التاسع والثلاثون ٢٣٨
الباب الأربعون ٢٦٦
الباب الواحد والأربعون ٢٨٧
الباب الثاني والأربعون ٢٩٨
الباب الثالث والأربعون ٣١٤
الباب الرابع والأربعون ٣١٧
الباب الخامس والأربعون ٣٣٦
الباب السادس والأربعون ٣٤٦
الباب السابع والأربعون ٣٥١
الباب الثامن والأربعون ٣٦٠

الباب التاسع والأربعون ٣٧٧
الباب الخمسون ٣٩٦
الباب الحادي والخمسون ٤١٧
الباب الثاني والخمسون ٤٣٠
الباب الثالث والخمسون ٤٤٠
الباب الرابع والخمسون ٤٤٦
الباب الخامس والخمسون ٤٥٨
الباب السادس والخمسون ٤٦٥
الباب السابع والخمسون ٤٧٠
الباب الثامن والخمسون ٤٨٩
الباب التاسع والخمسون ٤٩٤
الباب الستون ٥٠٨
الباب الواحد والستون ٥٣٦
الباب الثاني والستون ٥٤٩
الباب الثالث والستون ٥٦٦
الباب الرابع والستون ٥٩٤
الباب الخامس والستون ٦٠١
الباب السادس والستون ٦١٠
الباب السابع والستون ٦٢٢
فهرس المحتويات ٦٣٩

تم بحمد الله